
هذا العالم الجديد
حضارة امريكا اللاتينية



هذا العالم الجديد

حضارة أمريكا اللاتينية

نشر هــذا الكتــاب بالاشــتراك
مع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
القاهرة ـ نيويورك
مايو ســنة ١٩٧٠

رقم الايداع بدار الكتب ٣٣٠٢/١٩٧٠٠

هذا العالم الجديد
حضارة أمريكا اللاتينية

تأليف

وليم ليتل شورز

ترجمة

محمد سيد نصر

الناشر

دار نهضة مصر

١٨ شارع كامل صدقي ـ بالفجالة

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف : وليم ليتل شورز

مؤرخ لامع وصحفى وموظف سابق بوزارة الخارجية . له معرفة أصيلة واسعة بحياة أمريكا اللاتينية . فقد عرف الفلاحين ورجال الأعمال والعمال والمهنيين والجنود والموظفين الحكوميين ، وكون صداقات مع الهنود الذين يقطنون الأرجاء الداخلية فى أمريكا الجنوبية ، وقطع فى أسفاره ما يزيد على خمسة وعشرين ألفا من الأميال خلال الأدغال ونحو منابع أنهار وادى الأمزون . ونظرا إلى كونه دبلوماسيا وصحفيا ومستكشفا ووكيل أعمال تجارية ومديرا للتصدير فى شركة صناعية كبيرة ، ومستشارا اقتصاديا لحكومة من حكومات أمريكا اللاتينية ، فمن المحتمل أنه قد رأى أمريكا اللاتينية من زوايا أكثر عددا من تلك التى استخدمها أى أمريكى آخر . وقد كان للدكتور شورز علاقة فى وقت من الأوقات بالمعهد الأمريكى للتجارة الخارجية فى مدينة فيكس بولاية أريزونا

المترجم : محمد سيد نصر

تخرج فى مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٢٧ ، وجامعة ليفربول (درجة الشرف فى الجغرافية سنة ١٩٣١) . عمل مدرسا فى المدارس الثانوية ، ثم مدرسا فأستاذا مساعدا بجامعة القاهرة (كلية التجارة فالآداب) ثم كبيرا لمفتشى المواد الاجتماعية بوزارة التربية والتعليم . وهو عضو الجمعية الجغرافية المصرية ، والجمعية التاريخية المصرية ، ولجنة البيان العربى .

ألف عدة كتب منها « أصول الجغرافية العامة » و « جغرافية النقل — جغرافية المواد الخام » و « جغرافية المعادن والقوى » و « وحدة الجغرافية الطبيعية للوطن العربى » كما ترجم عدة بحوث وكتب ، واشترك مع آخرين فى ترجمة أطلس العالم والأطلس العربى .

مصمم الغلاف : أمين لبيب

(يعمل مصمم ديكور بالمتحف الزراعى . صمم كثيراً من أغلفة كتب المؤسسة . يقوم باعداد المعارض التى تقيمها وزارة الزراعة فى مدن وقرى الجمهورية .



محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل الأول

البيئـــة

الفصل الثانى

الهنـــدى

الصفحة

الفصل الثالث
الأسـبانى

الفصل الرابع
المفـاتح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصفحة

الفصل الخامس
الـزنجي

الفصل السادس
الأجنبي

الصفحة

الفصل السابع

الكنيســة

المــــرأة

الفصل الثـامن

الصفحة

الفصل التاسع

المدينة

الفصل العاشر

البرازيلى





الفصل الأول

البيئة

عندما يرحل قوم عن مسقط رأسهم إلى بلد آخر فإنهم ينزعون إلى الحكم على بيئتهم الجديدة بالأساليب المألوفة التي تعودوها في وطنهم القديم وقد ترك الإسبانيون الذين نزحوا إلى العالم الجديد وراءهم أرضاً صعبة شحيحة ، إذ تتوسط بلادهم هضبة تكاد تخلو من الأشجار ، تلفحها حرارة الشمس القاسية في الصيف ، وتبردها الرياح القارسة التي تهب من وراء الجبال العابسة التي تعترض سطح هضبة قشتالة في كل مكان . وقد اعتاد معظم الإسبانيين الحياة دائماً على مرأى من الجبال ، وأصبحوا يشعرون بالغربة وهم يلمحون الأفق على شكل خط مستقيم ؛ ذلك أن الجبال كانت تمثل أمام ناظرهم اتجاهات ثابتة يرونها في غدوهم ورواحهم ، وعلامات على السطح يهتدون بها عند الرؤية . فعلى الرغم من أن وجه الطبيعة في إسبانيا يبدو للأجنبي عن البلاد منفراً وغير كريم بصفة عامة ، فإنه لم يصل إلى الحد الذي ينال من شخصية الذين ترعرعوا في نطاقه العبوس . ومن الناحية الروحية نجد أن طريقة حياتهم الخشنة تبدو مناسبة لقوتهم وعظمتهم . ونفذ جزء من الصفة الصلبة للجبال إلى أرواحهم وأجسامهم ، كما قد يشاهد المرء اليوم الفلاحين في أراجون وقشتالة القديمة الذين يبدون وكأنهم قطعة من نفس الأرض المحيطة بهم . وقد ارتضى الإسبانيون الذين فتحوا واستقروا في الهند الغربية المعيشة في كنف الجبال ، ولم ينتظروا الإفادة منها كثيراً بجانب أنها تحمي ظهورهم في وقت الخطر . فقد كانوا يعرفون طريقهم في مسالكها وجبالها ، بل إنهم كانوا أحياناً يقيمون مدنهم على قمم التلال ، كما فعلوا عند سيبولفيدا وسوريا . وفي العصور الوسطى عندما

كان الإسبانيون يحاربون بعضهم بعضا ، وعندما اتفقوا جميعا على محاربة المسلمين ، كانوا يتوجون النتوءات الجبلية بالقلاع ، كتلك الموجودة فى ألمانسا وبنيافيل وسيجوفيا . وتبدو قسوة الأرض الإسبانية مصورة فى خلفية أعمال الرسامين من الجريكو إلى ثولواجا .

وحول حافة شبه جزيرة أيبيريا تبدو الطبيعة أكثر سخاء . فمع أن الجبال فى كثير من البقاع ولمسافات طويلة تصل إلى البحر ، إلا أنها فى بعض الأحيان تتفتح عن مساحات سهلية كسهل فيجا عند بلنسية ، وعن قطاع ساحلى متسع بين أليكانتى وقرطاجنة ، والجزء الأدنى لنهر الوادى الكبير. وأشهر من كل هذه مثلا ، الجانب الغربى للبرتغال . وبينما نجد أرجاء إسبانيا المطلة على الأطلنطى مثل أستورياس وولايات الباسك جبلية ، إلا أنها أكثر خضرة من مرتفعات قشتالة وأراجون الجرداء ، وكذلك الحال فى أرجاء البرتغال المرتفعة . وفى الريفييرا الإسبانية المحمية ، التى تطل شرقاً على البحر المتوسط الدفىء ، يتغير النبات السائد ، فتنمو أشجار البرتقال وغابات نخيل التمر وحقول قصب السكر .

هذه كانت الخلفية الطبيعية التى حمل ذكرياتها معهم الإسبانيون والبرتغاليون إلى جزر الهند ، والتى أصبحت قطعة من تكوينهم الجنسى ، فلم يكونوا ليجدوا فى العالم الجديد إلا القليل من الصور المناظرة لما فى وطنهم ، فإذا وجدوا شيئا منها تعلقوا به بحنين وتعاطف . غير أن الطبيعة كانت فى أغلب الأحوال على نطاق أكبر بدرجة مطلقة مما عهدوه فى شبه الجزيرة ، فكل شىء أكبر : الجبال ، الغابات ، السهول ، المستنقعات ، بل إن مظاهر الطبيعة كانت أعنف وأكثر مباغتة ، فى غضبها انفجرت فى بعض الأحيان فى صورة زلزال وعواصف وثوران براكين .

واتسمت انطباعات العالم الجديد الأولى بالنشوة والإعجاب . فدهش

المستكشفون من نضارة النبات وتنوعه ومواقع الأرض البهيجة كلما أبحروا بين الأنتيل . لقد اعترت كولمبس — وهو الإسبانى المتبنى — نشوة عندما شاهد هسبانيولا[1] وسمع منها الأصوات فقال : « إن البلبل كان يغنى ، وكذلك غيره من صغار الطير ، كما تغنى فى ذلك الشهر فى إسبانيا . . . لقد كان ذلك أعظم بهجة فى الدنيا . وأطلق على الجزيرة اسم « إسبانيا الصغيرة » لأن سهول السيباو الغنية ذكرته — بضغط واضح على مخيلته — « بخصبها » على الأقل « بأراضى قشتالة » ، بل لقد أشاد أكثر بجزيرة كوبا ووصفها بأنها « أبدع ما وقعت عليه العين من الجزر » ، وهى عبارة استغلتها مصلحة السياحة فى جمهورية كوبا إلى أقصى حد . ولقد عرف بيتر مارتر ، الراهب الإيطالى الذى عاش فى البلاط الإسبانى ، كثيراً عن الجزر الشاعرية من كولمبس ورفاقه ، ومن المحتمل أنه فى أثناء كتابته عن شتاء قشتالة القاسى كان يفكر فى مفاتن هسبانيولا : « ماذا يبغى المرء من السعادة فى هذه الدنيا أكثر من أن يعيش فى بلاد توجد بها مثل هذه العجائب التى تراها العين وتستمتع بها النفس ؟ وهل هناك معيشة أرضى من تلك التى يعيشها المرء فى بلاد لا يجبر فيها على أن يحبس نفسه فى حجرات ضيقة هرباً من البرد القارس أو الحرارة الخانقة ؟ بلاد ليس من الضرورى فيها أن يحمل الإنسان جسمه بالملابس الثقيلة فى الشتاء أو يحمر رجليه على نار مستمرة ، وهى عادة تقدم العمر فى لمح البصر ، وتسبب ألف مرض مختلف . ومع ذلك فقد كان قلقا لأن « عبير هذه البلاد وروائحها الرقيقة » قد تؤدى إلى الكسل والتأنث والحياة المترفة .

وعندما توغل الإسبانيون فى داخل القارة تغير وجه العالم الجديد . وفى بعض الأحيان كانوا يلقون الطبيعة فى أسوأ مظاهرها ، وكثيرا ما اضطروا إلى شق طريقهم إلى موطىء قدم ثابتة على « الأرض الصلبة(*) » خلال النباتات المائية والمستنقعات الأخرى التى تحف بالسواحل . وفيما وراء نطاق

(*) Tierra Firme أو الأراضى الساحلية الشمالية لأمريكا الجنوبية .

المستنقعات الذى لم يكن أرضاً ولا ماء ، ولكنه عنصر مكون من كليهما ، امتدت ، لمئات الأميال ، الغابة المطيرة والجبال غير المطروقة كالتى عبرها فرانسسكو سيزار فى طريقه الشاق إلى هضبة كنديناماركا فى كولومبيا ، وتلك التى قابلها كورتيس فى رحلته الطويلة من المكسيك إلى هندوراس .

غير أن كورتيس وجد فى المكسيك أرضاً محببة إليه . وكانت فيها صفات كثيرة تذكره وغيره من الإسبانيين بإسبانيا . فقد كتب إلى الإمبراطور شارل يقول : « مما رأيت وعلمت خاصا بالشبه بين هذه البلاد وإسبانيا ، فى الخصب ، والحجم ، والمناخ . وفى مظاهر أخرى كثيرة بها ، بدا لى أن أليق اسم يطلق على هذه البلاد هو إسبانيا الجديدة (المكسيك فى البحر المحيط ، وهذا باسم جلالتكم — ما أسميتها) . وعلق « الفاتح المجهول الاسم » فى نغمة مماثلة بقوله : « إن أرض إسبانيا الجديدة تشبه إسبانيا ، والجبال ، والتلال ، والأودية ، والسهول ، ولها نفس المظاهر تقريبا ، باستثناء كون الجبال أكثر فظاعة ووعورة » . وأضاف : إن الحقول فى المكسيك كانت « مرضية للغاية » ، فهنا فى الحقيقة أرض تحوز القبول .

وفى نصف الكرة الجنوبى أيضا ، كان الإسبانيون دائبى البحث عن أرض تشفى حنينهم إلى الوطن . فقد كتب سييثا دى ليون عن الإقليم المحيط بكيتو يقول : « الأرض جميلة جدا وتشبه على وجه الخصوص إسبانيا فى مراعيها ومناخها » . وقال عن إقليم ريو بمبا البعيد المنحدر عن الهضبة : « إن سهوله الجميلة تشبه كثيراً سهول إسبانيا فى المناخ ، وفى الأزهار والحشائش ، وأشياء أخرى » .

غير أنه فى وادى تشيلى بالذات ، فى الطرف الجنوبى لمسار الفتوح الطويل ، وجد الإسبانيون أرض الميعاد . حيث لا عودة منها ولا رغبة فى العودة منها . فهنا ، فى الحافة البعيدة للعالم ، بين حائط الأنديز العظيم

والمحيط الهادى ، وجد الإسبانيون خاتمة المطاف لحلمهم (*) ، وأطلق عليها الفاتح بدرو دى فالدفيا « أحسن بقعة أرض فى العالم . . . . صحية جداً ، وخصبة للغاية ، وجميلة ، وذات مناخ جميل جدا » ، فقد كانت أرضا تتصف « بالرضا الكثير » ، وهواؤها كان « بهجة » ولم يوجد هناك كثير من الذهب وكان الهنود محاربين أشداء ، ولكنها كانت أرضا طيبة للرجال ليحيوا فيها حياتهم ، وكان امتلاكها يستحق القتال . وكتب عنها الأب أكوستا يقول : « إن البلاد التى تشبه فى الحقيقة إسبانيا أكثر ما يمكن ، والتى تشبه أقاليم أوروبا ، فى جميع الهند الغربية ، هى منطقة تشيلى التى تعد خارج القاعدة العامة لهذه المناطق الأخرى فى كونها تقع دون المنطقة المحرقة ومدار الجدى . وهذه البلاد معتدلة وخصبة وتنتج جميع أنواع الفواكه التى يمكن أن تنمو فى إسبانيا . وتنتج مقادير وافرة من الخبز والنبيذ ، وتكثر بها المراعى والماشية . فالهواء صحى ونقى وحرارتها بين الحر والبرد » .

البرازيل

وكما حدث فى فتوحات إسبانيا حدث كذلك فى البرازيل ، إذ بدأ البرتغاليون يهتمون جديا بالمستعمرة الشاسعة التى كانوا أهملوها زمناً طويلا ولم تكن خضرة الشواطى المدارية الغضة جديدة عليهم كما كانت على الإسبانيين ، فقد سبق أن اتبعت سفنهم السواحل الغربية لإفريقية ، وكان عليهم وقتذاك أن ينفذوا فى البحار إلى الشرق حتى المحيط الهادى قبل أن يولوا اهتمامهم نحو « أرض الببغاوات » . ومن الجدير بالذكر أن دوارتى كوويلو «صاحب التزام» برنامبوكو (**) وأكثر مستعمرى البرازيل الأوائل

(*) Ultima Thule : الحد الأقصى . والأصل جزيرة كشفها بثياس الإغريقى فى القرن الرابع ق . م على مسيرة ستة أيام شمال جزر أوركى ، ولعلها جزيرة من جزر شتلند ، أو أيسلند أو النرويج أوجتلند .

(**) الآن رسيفى : Recife

نجاحا ، كانت له تجربة مماثلة فى الشرق . وفى الحقيقة كانت الخبرة القريبة العهد فى إفريقية وآسيا ذات قيمة عظيمة للبرتغاليين فى إيجاد مجتمع ريفى فى شمال البرازيل . فقد كان لهم سابق معرفة بالظروف المدارية التى وجدوها فى العالم الجديد .

وبعد أن تكفل البرتغاليون باستعمار البلاد وتطورها أحسوا بسحرها. فقد كتب بيرودى ماجاليس يقول : إنها كانت « أنسب مقاطعة فى أمريكا للجنس البشرى ، لأن الهواء عادة طيب، والتربة خصبة للغاية ، و(الأرض) ذات منظر يعد أبهج وأجمل ما وقعت عليه عين بشرية ».

وقال الأب الجزويتى أنشيتا : « إن البرازيل كلها حديقة مزدهرة يانعة وشجر وارف ، ويمضى العام دون أن تقع العين على شجرة جرداء أو نبات يابس . وتبدو الغابات كما لو كانت تلمس السحاب ، وحجم الأشجار يثير الإعجاب ، وهناك اختلاف كبير فى أنواعها. وكثير منها يغل فاكهة طيبة ، وإن الشىء الذى يكسبها سحراً خاصاً هو كثرة الطيور الجميلة من كل صنف يمكن مشاهدته فيها ، تشدو بأنغام لا تقل جمالا بأى حال من الأحوال عن أنغام البلابل والزقيقة والكناريا البرتغالية . وهذه العصافير يصدر عنها توافق فى النغم لدرجة أن من يمر بها يجد نفسه مضطرا إلى تسبيح الرب. والغابات معتدلة ويانعة لدرجة لا يمكن أن تقارن بها الغابات الجميلة الصغيرة التى غرسها الإنسان فى البرتغال » (٢) : ويضيف قوله : « ولا تمل العين النظر إلى كل هذا السناء المتغير » . أما للأب بتا فقد كانت البرازيل « جنة أرضية » ولم يكن هناك « فجر أجمل » فى أية بقعة من بقاع العالم . وقال هانز ستادن — وهو الألمانى الذى كان يحن إلى وطنه — « إنها أرض تسر الناظرين ، فالأشجار دائمة الخضرة ، ولكن ليس هناك غابة تشبه غاباتنا» وقال . « إن المتوحشين يمشون عراة » كما لو كانوا جزءاً من الطبيعة .

وكانت مظاهر الطبيعة الثلاثة التى وجدها الإسبانى أو البرتغالى فى القارة الجديدة هى الأنديز وغابة الأمازون والبمبا الأرجنتينية ، ولم يحب واحداً منها ، إذ فقد سيطرته على جسمه نفسه فى الأنديز الشاهقة ، وفى الغابةعوقت الأشجار سيره،وراعتهالأنهار ، وانهالت فوق رأسه الأمطار. وكانت البمبا خاوية للغاية ، وتسببت الجبال العالية فى « توترات » عصبية لم يستطع التحكم فيها ، وبدا فى الغابة المطيرة جو من الكآبة ، وعلى مروج البمبا خشى أن يصبح عقله خاويا فىفراغها اللانهائى أو إذا انكبعلى التفكير فمن المحتمل أن تصبح أفكاره بلا هدف أو تتشتت فى دوامة . وأجمعت المظاهر الثلاثة على التقليل من شخصيته ، وانتقصت جزءاً من شعوره بالأهمية. ولذلك تجنبها واتجه نحو أراض أصغر توافق روح إسبانياالجديدة — نحو أراض قد يستطيع السيطرة عليها أو يعيش معها فى وئام . وكانت هذه هى المشكلة التى كتب عنها همبولدت يقول : « فى العالم القديم تكون الأمم والفوارق التى بين حضاراتها الصفة الرئيسية فى الصورة ، أما فى العالم الجديد فالإنسان يكاد يختفى هو وما ينتجه وسط المظهر الهائل الذى تبديه الطبيعة الموحشة الجبارة » .

الأنديز

لقد شعر الإسبانى أنه غريب فىالأنديز العالية ، ولكن الكورديليرا كانت موطناً للرعية من الإنكا ، ولم يتركوها أبدا دون أن يشعروا بالندم أو بالخاطرة بصحتهم . وكلما أعاد الإنكا إسكان شعوبهم أراضى جديدةفى امبراطوريتهم لأسباب اقتصادية وسياسيةكانوا حريصين على ألا يحركوا فريقا منهم إلى منطقة يختلف ارتفاعها عن المنطقة التى تعودوا عليها زمنا طويلا . فقد تلاءم الهندى لآلاف السنين بيولوجيا وروحيا مع موطنه المحلى ، فصدره الذى يشبه البرميل ، بفراغ رئتيه الشاذ ، إنما هو نتيجة تطور نشأ لتعويض قلة الأكسيجين فى الجو المخلخل . وحملت اللاماأثقاله وقدمت له رفقة فى فيافى الهضبة الصامتة ، وأمده صوفها بالملبس الذى

وقاه البرد وفراؤها بالفراش الذى ينام عليه فى الليل .وفى أغلب الأحيان كان روثها وقوده الوحيد . وكانت الكوكا(*) مسكنا للجوع والتعب والألم الذى كان يشعر به في جسمه . وكانت الشمس تطلع فتدفئه بعد برد الليل وتخرج من أطرافه خدر الفجر . واتخذ نقطتى الانقلاب علامة للفصول . وكانت الشمس الخيرة الهدف الرئيسى لعبادته .وغير وجه الجبال بالمدرجات وقنوات الرى حتى جعلها ملائمة لاستخداماته . أما القمم العالية مثل اليمانى وسوراتا وهواسكاران التى ارتفعت فوق مستوى السهول العالية فقد كانت ملاجىء للأرواح لا يقترب منها ، بل ينظر إليها برهبة واحترام . فهذه وجميع مظاهر السطح — السهول المرتفعة المقبضة ، والأودية اليانعة بين سلاسل الجبال ، والسطح الفسيح لهضبة الكولاو ، والأنهار ذات الماء القارس التى تنبع من حقول الثلج ، والبحيرةذات الجزيرة المقدسة وخلفيتها المهيبة — كلها كانت مألوفة ومحبوبة لديه كإطار خالد لحياته القصيرة .

ولم تكن الأنديز بأى حال من الأحوال وطنا للإسبانى ، فقد كانت بالنسبة إليه ، مهما حسنت الأمور ، بمثابة مثوى فى معسكر كبير للتعدين. وكان إغراء المعادن هوالذى استطاع أن يجتذبه لفترة طويلة من الأراضى المنخفضة، ولم يرتض الإقامة فتراتطويلة نسبيا فى الأماكن الكئيبة مثل پوتوسىأو كاستروفيرينا أو أورورو، سوى الباسك ومواطنى أستورياس. وحتى هؤلاء كانوا يرجعون إلى المستويات المنخفضة ، كما كانت الحال عند شوكيساكا أو لاپلاتا وكوشابمبا حيث كانوا يميلون إلى قضاء معظم وقتهم ، وحيث نزحوا نهائيا ليستمتعوا بثرواتهم فى راحة . أما أهل الأندلس ذوو الدم الدافىء فقد تجنبوا السهول المرتفعة ، وأما القشتالىفلم يكن يغريه عادة للمعيشة فترة بين النسور الفحاحة تاركا السهل سوى الحصول على وظيفة نائب الحاكم الجزية .

(*) Coca : عشب تستخلص من أوراقه مادة مخدرة ومنشطة هى الكوكايين (الاصل پيروفى) .

وكان الكفاح لتهيئة الحياة للبيئة الطبيعية فى الجبال العالية أمراً صعباً على الإسبانى ، وكثيراً ما قاسى الفاتحون الآمرين ، كما قاسى الذين جاءوا من بعدهم ، من برد المرتفعات . فقد كتب سييثا دى ليون عن جنود بشارو فى مطاردتهم لألماجرو يقول : « لقد استمروا فى سيرهم متهاونين ، دون أن يحملوا معهم خيامهم لتحميهم من تساقط الثلج الثقيل ، ولم يستطيعوا تحمل البرد . . . ولم يكن سوى نفحة من الحظ أنهم لم يموتوا جميعاً فريسة للجليد » . وقد انتاب رجال بشارو أيضاً دوار الجبال أو « مرض الجبال » . يقول سييثا : « لقد انتابهم الدوار وأثر فيهم لدرجة تسبب عنها فى مؤرخ بل لقد ألقوا بأسلحتهم إلى الأرض » [٣] وهذه بعض أعراض واحد من الأمراض الكريهة الناتجة عن عدم التوازن بين ضغطى الجسم والجو فى المرتفعات العليا ، ويزيد تفاقمه نقص الأكسيجين اللازم للتنفس . ويميل القادم الجديد إلى السلاسل الجبلية إلى الشكوى من التوترات العصبية الحادة . فالحياة المضطربة فى بوتوسى فى أوقات الرخاء لم تكن الشرط الطبيعى الوحيد لمعسكر تعدين غنى بالثروة المعدنية ، فالارتفاع الشاهق إلى درجة غير معهودة ، تكاد تصل إلى اربعة كيلو مترات فوق سطح البحر ، جعل مزاج الناس أميل إلى الإثارة والتشاجر الذى كان ينشب فى بعض الأحيان فى عنف هائج لا هدف منه . ومن معوقات الحياة فى الأنديز العالية قاسى الرجال من العقم [٤] . فقد مضى وقت طويل قبل أن تحمل النساء وتلد فى بوتوسى ، ومضى وقت أطول قبل أن يستطيع الأطفال المولودون تحمل أخطار الطفولة فى مهد « المدينة الامبراطورية » الممقوتة . وإلى الآن تعد هذه العوامل معوقا لتكاثر السكان البيض فوق المستويات العليا فى هضاب الأنديز حيث لا تزال الغالبية للسكان هنوداً أو مولدين .

وإلى أسفل ، على ارتفاع قريب من ٢٧٠٠ متر فى العروض المدارية تبتدىء منطقة يمكن أن يعيش فيها المرء عيشة تقرب من الحياة الطبيعية

العادية ، إذ يقل الضغط على القلب والرئتين كثيرا ، ويمكن للمرء أن يحتفظ بالدفء دون جهد كبير إلا فى الليل . وعلى مستوى الارتفاع العام توجد مدن قديمة هامة مثل كشكو ، وكوشابمبا ، وكيتو ، وبوجوتا ، وكثير من المدن الصغرى حيث استقر الإسبانيون وعاشوا فى راحة واطمئنان — وإنجاب الأطفال .

وإذا استثنينا الجزر المنخفضة فى الأنتيل والأرجاء الجنوبية المعتدلة من القارة أظهر الإسبانيون ميلا نحو الأراضى التى ترتفع من ٩٠٠ إلى ٢١٠٠ متر فمدينة المكسيك وأريكيبا يزيد ارتفاعهما قليلا على هذا النطاق . وتقع سانتياجو وسان سلفادور تحت هذا المستوى .

ولكن فى هذا النطاق تقع معظم المدن الكبرى فى المكسيك وكولومبيا وعواصم جواتيمالا وهندورس وكستاريكا وفنشولا (فنزويلا) ومدن كثيرة غيرها فى أمريكا الإسبانية . وهنا فى وسط هذا النطاق من الأرض الوسطى وجد الإسبانى مناخا ينشطه بدل أن يخدره أو يثبطه ، وأكسبه إحساسا بتركيب جسمى سليم لا تهدده الملاريا ولا دوار الجبال . وهنا يمكنه أن يزرع المحصولات والنباتات الأخرى التى ألفها فى إسبانيا . وفضلا عن ذلك ففى هذه الارتفاعات كان حجم الجبال مما يستطيع معه أن يقيس أبعادها ويدركها ويشترك معها على قدم المساواة .

والمكسيك بلاد جبلية كإسبانيا . ومع أن الجبال هى المورد التقليدى — والخادع — لثروتها المعدنية ، فإن الغالبية العظمى للسكان قد اعتمدوا فى معيشتهم دائما على الزراعة . ولم تكن حياتهم التى حبوها طيبة أو سخية ، لأن منظر الطبيعة القاسى والواضح يحوى بين ربوعه أرضا قليلة صالحة للزراعة . ويزدحم معظم السكان فى أحواض بين جبال الهضبة الوسطى حيث تتركز الأرض القليلة القابلة للزراعة (٥) . ولكن السباق الذى

يجرى بين كثرة إنجاب الأطفال واستهلاك التربة أجبر الجمهورية على إدخال سلسلة من مشروعات الرى فى الأرجاء الشمالية للبلاد ، الغرض منها زيادة مقادير الطعام القليلة اللازمة لأبناء الأمة . وتسقط الأمطار فوق الهضبة فى فصل بالذات ، وينتج عن عدم التثبت من سقوطها إيمان كبير بالقضاء والقدر لدى الشعب المكسيكى الذى كان تهديد الجوع ماثلا أمامه دائماً كما كان فى إسبانيا .

وقد شجعت الجبال التى قطعت البلاد إلى جيوب وسورت الأودية والسهول ، تفصلها بعضها عن بعض ، على العزلة وجمود الجماعات الذى أسس فى الأصل على فروق جنسية. وتأصل بالقصور الذاتى لمئات السنين. وفى جهدها لتثبيت الروح القومية فى الشعب اضطرت حكومة الجمهورية إلى محاربة الروح المحلية المتأصلة ذات الجذور الجنسية والطبوغرافية معا ، وأفادت أقلية من السكان فقط من الخطوط الحديدية والطرق الرئيسية والطائرات التى أحدثت ثورة فى هذه الأرض الوعرة . ولا تزال الأغلبية متعلقة بالقرى كما كانوا يفعلون قبل مجىء الإسبانيين غير عابئين بالتوسلات التى تبعث بها العاصمة للاندماج فى مجتمع المكسيك الأكبر . وتتسع البلاد فى الشمال ، وتبدو المناظر أكبر . وهناك نجد الأهالى أكثر حباً للمخاطرة ويتوقون إلى معرفة مادون الأفق ، ويتحركون فى نطاق أوسع . بيد أنه ، حتى فى هذه الأرجاء ، ترتفع سييرا مادرى بخوانقها مكونة مانعا يكاد يستحيل معـــه السفر بين الداخل والولايات التى تطل على المحيط الهـادى .

وإذا كانت هذه المظاهر مما تتصف به أمريكا الجنوبية فقلما نستطيع أن نضفى على مرتفعات البرازيل صفة الجبال . ومع ذلك فكثير من هـــذه الهضبة الشاسعة الوعرة يقع فوق ارتفاع أربعة آلاف قدم . وهذا هو

الظرف الذى يشرح لنا المناخ المعتدل الذى يتمتع به جزء كبير من البلاد كان يصبح ، لولا ذلك، مدارياً كما هى الحال فى العروض المماثلة فى إفريقية. ففى ساو باولو نجد هضبة ممتدة نحو الغرب ، وتدعو الناس إلى قلب القارة. كما فعل المستكشفون البرتغاليون (*) الأوائل الذين اخترقوا قلب القارة النائى إلى حوضى باراجواى وماديرا . وإن مواقع الأنهار التى تصب فى بارانا الأعلى هى التى خلقت طرقا طبيعية إلى ماتو جروسو لأهالى ساو باولو (**) المخاطرين . أما ميناس جيرايس فمعظمها ذو صفة جبلية بالفعل ، وغالبية سكانها الذين يعيشون بين سلاسل الجبال يتصفون بالحذر والرجعية التى يمتاز بها الجبليون . وقد كانت دائما موردا لمعظم ثروة البرازيل المعدنية — الذهب والماس والحديد والمنجنيز والميكا وبلورات الكوارتز — ولو أن الزراعة هى التى وطدت أهالى ميناس (***) فى موطنهم الجبلى .

البمبا

البمبا الأرجنتينية سهل شاسع يمتد من ساحل الأطلنطى ونهر بارانا حتى السفح القارى الذى يعد أول إشارة تومىء إلى الاقتراب من الأنديز ويحيط ، جهة الشمال ، بتلال كوردوبا حتى ينتهى عند سفح الجبال التى تهبط من بوليفيا ، أو يندمج بعيداً نحو الشرق فى السهول المنخفضة التى تكسوها الغابات فى إقليم شاكو الأرجنتينى . وينتهى نحو الجنوب فيما وراء ريو نجرو ليحل مكانه إقليم الاستبس الذى تكتسحه الرياح فى بتاجونيا وتعد الأراضى الخصبة بين النهرين بارانا وأوروجواى امتداداً للبمبا ، ولكن لها صفاتها المحلية الخاصة . ومن المحتمل أنه إلى الأسفل من سطحها المكسو بالحشائش توجد أغنى تربة على سطح الأرض . ولا يوقف

(*) Bandeirantes مستكشفو الأرجاء الداخلية من البرازيل : حملة الأعلام .

(**) Paulistas

(***) Mineiros

استواء سطحها لمئات الكيلومترات ارتفاع ولا علائم سطحية يعرف بها الناس اتجاهاتهم .

واخترق الإسبانيون الأوائل هذا الفراغ الطبوغرافى من أربعة اتجاهات : من شواطىء مصب اللابلاتا ، وبالممرات المرتفعة من ناحية تشيلى ، والتى أدت إلى سفوح إقليم كويو الجذاب ، ومن هضبة تشاركاس فى بيرو العليا ، وباتباع مجرى النهر من المستعمرات الهندية فى باراجواى . وقد روعهم اتساع الأرجاء الداخلية الهائل فى أول الأمر ، فتشبثوا بأطرافه حيث وجدت الجبال أو الأنهار أو المحيط لتعطيهم بعض الإحساس بالشخصية فى العالم الذى عرفوه (٦) . وقد روعهم كذلك الهنود المتوحشون الذين اقتسموا فيافيه مع الجوانا كا الصغير الذى ينتمى إلى اللاما ، والفسكاشا الحفار (*) والإيمو أو نعامة العالم الجديد . وانضم إلى هذه الحيوانات فى زمن مبكر الخيول والماشية التى ترعرعت وتكاثرت بدرجة مدهشة فى حالتها البرية كلما توغلت فى البمبا . وسبب الحصول على الحصان ثورة فى النقل بين هنود البمبا الذين وجدوا فيه وسيلة للسيطرة على أعدائهم ، وكانوا لا يزالون يترجلون فى تحركاتهم ، ووسيلة فعالة للهجمات المباغتة على المستعمرات المنعزلة التى استقر فيها الإسبانيون ولم يستطع الرجل الأبيض أن يشغل البمبا وينهض بها قبل أن يندمج الهندى دما بالإسبانى فى عملية تهجين بطيئة ، أو قبل أن زحزح عن الأرض بالقوة الحربية فى منتصف القرن الماضى . وفى هذه الفترة الطويلة ظل دخيلا وحيداً فى بيئة كانت غريبة عن جميع ذكرياته وتقاليده ، ومنفرة لما تتوق إليه نفسه الإسبانية من شوق دفين . وعندما تلاءم أخيراً مع موطنه لم يصبح إسبانيا بعد ، ولكن مخلوقا من مخلوقات البمبا لا يستطيع قشتالى أن يرى فيه قرابة . فى

(*) حيوان قارض .

القرون الثلاثة ، من خوان دى جاراى إلى مارتن فييرو ، طرأ عليه تحول عميق جدا . (٧)

وكانت البمبا كلها فى نظر الجوشو (*) وهو خلاصة هذه العملية التطورية « عشبا وسماء » (٨) ، وقد وصفها مواطن أرجنتينى معاصر بأنها عالم بلا وجهة أو علامات أو أبعاد . وأطلق على الإسبانيين الأوائل الذين دخلوها « سادة الفراغ » (**) فراغ لاحد له ، حيث كانت رؤية الجواناكو (اللاما الوحشية) أو النعامة لابد أن تسبب فى بعض الأحيان إحساسا بحقيقة وجود هذا العالم . فهنا وجد الإنسان نفسه مقيداً فى لا نهائية الفضاء . وعندما سورت البمبا وأقيمت البوابات المقفلة على حدود حظائر الماشية المحاطة بالأسلاك الشائكة ، أصبحت شيئا محدوداً يمكن قياس أبعاده ، وعرف الجوشو حينذاك أن يومه قد انقضى .

ويصف و . ه . هدسن التغير الذى طرأ على أولئك الذين سكنوا البمبا فيقول : « جاء المستعمرون الأوائل من أراض تعود الناس فيها الجلوس فى ظلال الأشجار ، حيث افترضوا أن الحنطة (القمح) ، والنبيذ ، وزيت الزيتون ، كانت من الضروريات ، وحيث كانت « السلطة » موجودة فى الحديقة . فمن الطبيعى أنهم أنشأوا الحدائق وغرسوا الأشجار للظل والفاكهة معا فى أية بقعة بنوا فيها بيتا فى البمبا ، ولقرنين أو ثلاثة قرون ، بدون شك ، حاولوا أن يعيشوا كما يعيش الناس فى إسبانيا ، فى الأقاليم الريفية . اما الآن فقد كان شغلهم الشاغل فى حياتهم هو تربية الماشية . ولما كانت الماشية تتجول ماشاءت فوق السهول الشاسعة وكانت أشبه بالحيوانات البرية منها بالمستأنسة ، فقد أصبحت حياتهم فوق ظهور الخيل . ولم

(*) راعى البقر فى البمبا .

(**) Senores de nada .

يستطيعوا بعد ذلك حفر الأرض ، أو حرثها ، أو حماية محصولاتهم من الحشرات والطيور ومن حيواناتهم نفسها . وتركوا زيتهم ونبيذهم وخبزهم وعاشوا على اللحم وحده ، وجلسوا تحت الظل ، وأكلوا ثمار الأشجار التى غرسها آباؤهم أو أجدادهم ، حتى ماتت الأشجار طاعنة فى السن أو اجتثت من فوق الأرض ، أو أهلكتها الماشية ، ولم يعد هناك ظل ولا فاكهة .

« ولذلك حدث أن المستعمرين الإسبانيين فى مروج البمبا تجنبوا حياة الشعب الزراعى وانخرطوا فى حياة الرعى أو حياة الصيد الصرفة ، وبعد ذلك عندما اهتز النير الإسبانى ، كما كان يسمى ، نشبت الحروب والاغتيالات التى كانت تشنها الطوائف المختلفة باستمرار ، والتى كانت تشبه قتال « الغربان مع القنادس » فيما عدا أن القتال هنا كان بالمدى بدلا من المناقير ، وأوغلت بهم فى ظروف حياتهم الوحشية والهمجية » .

وكانت هذه هى « الوحشية » التى كان دومنجو فاوستينو سارمينتو يقابلها « بمدينة » الكابيتول الأرجنتينى . ولما كان الجوشو قد تقيدوا بركوب الخيل ، فقد أصبحوا شعباً من القنطاريين(*) ، يثقله ويقلقه السير على الأقدام ، قليل الكلام ، سيء الظن ، ولكن له شريعة وخلقا يتضمنان وقار مظهره الفطرى وكرمه العربى نحو عابر سبيل ضال أسلم نفسه لرحمته ، جواب آفاق لا يستقر له مقام ، وفوضويا من ولادته ، حانقاً على كل القيود والسيطرة ، سواء من قبل الدولة أم الأسرة أم الكنيسة ، أشعث ، فظا ، غير مهندم ، يحتقر زخرف سكان المدن وتفاهتهم ، كثير أكل اللحم ، ولكن معتدلا فى احتسائه الخمر ، يعوض من تعاطيه اللحم نصف النيء الإكثار من تناول الماتى(**) ، وقويت فيه حاستا البصر والسمع إلى حد

(*) من قنطورس Centaurs حيوان خرافى إغريقى ، نصفه آدمى ونصفه حصان .

(**) maté أو شاى باراجواى ، أوراق نوع من شجرة « عيد الميلاد » يشرب فى أمريكا الجنوبية كالشاى .

بالغ ، بأذنين تلاءمتا مع السكون ، وعينين كمقلتى الصقر ، يمضى وقت فراغه فى استرخاء كالكلب المجهد فى حظيرة كوخ أو تحت ظل شجرة أومبو فى تبادل الذكريات مع بنى قومه فى أحد الأدغال المنعزلة على الطريق ، أو ألعاب خشنة مملة على ظهور الخيل أو ، إذا ندر وكان ذا مزاج للإنشاد ، فى تقاسيم شاقة لأشعار حزينة مملة على رنين القيثارة . أما حبه فيشبه شيئاً عارضا ألم ببشرته ، ومنزله سرج حصانه . .

فلقد ابتعد كثيرا عن النمط الأصلى لحياة سلفه الإسبانيين الذين حاولوا فلح البمبا كأنها حقل فى إستريما دورا . وفى الأجيال المتعاقبة غيرته البمبا بالتدرج وصبته فى قالبها هى . ولما انتهى إلى وفاقه مع مطالب الأرض التى لا تلين انتهى كذلك ، دون تيقظ وعلى كره منه ، إلى وفاق مع عدوه الهندى ، واستعار من الهندى مهارته وطرق معيشته ، واستعار نساءه ، لأن المرأة التى حملت أطفاله وقامت بالعمل فى البيت فى أثناء تجواله فى السهول كانت تنتمى إلى أصل تيهلش ، أوكاشيكل ، أو جوارانى .

وانسل الجوشو مع الماشية الطويلة القرون والمراعى الطلقة[٩] ، فلم يكن له مكان فى عصر المجتمع الريفى الجديد وملاك المزارع العظام . وبذلك أصبح حادثا تاريخيا عارضا وجزءاً من أساطير وقصص أرجنتينا ليس إلا . وفى عصر أكثر سوفسطائية كثرت حوله الكتابات الأدبية التى تحن إلى الماضى . فلقد صوره سيزاريو برنالدودى كيروس فى خيامه المحترقة ، أما رانسسكو مولينا كامبوس فقد صور أحواله الخاصة وبطولاته الخشنة فى صورة هزلية .

اللانوس

وفى مؤخرة الكتلة الإسبانية توجد مساحة أخرى من الأرض تشبه فى طبوغرافيتها العامة البمبا الأرجنتينية . وهذه هى لانوس فنشويلا وكولومبيا

التى تستوعب قسما كبيراً من حوض الأورينوكو الأعلى وخصوصا الأراضى التى توجد عند نهرى أبورى وأروكا . وهى « بحر من الحشائش » مثل البمبا كما وصفها همبولدت . ولكنها تتلاشى على طول مجارى الأنهار عندما تحل محلها الأشجار القصيرة والأعشاب . وهى ليست مهيأة لمعيشة الإنسان معيشة راضية ، كما أحزنت الإسبانيين الأوائل الذين جابو فيافيها بلا هدف باحثين عن أرض الذهب(*). فلم يكن من المستطاع إقامة مجتمع متمدن فى مثل هذه البيئة. فالمناخ مدارى إلى حد بعيد ، وتجد الحشرات فيه بيئة صالحة لها . ففى أغلب أيام السنة تلفح الشمس السهول وتشققها بعد انتهاء فصل الأمطار . وفى سائر الأيام تتحول مساحات شاسعة من الأرض إلى محيط ضحل مثل سهول ولاية بنى فى بوليفيا . أما الوقت الذى يقع بين هذين الفصلين فهو وقت الأوحال والملاريا ، ويستمر حتى يختفى الجما والمستنقعات من فوق الأرض الغرقى .

وظلت اللانوس لعصور طويلة مركزاً لتربية الماشية ، ويشبه سكان اللانوس (اللانيرو) ، بأجسامهم الهزيلة ، الماشية نصف البرية التى يرعونها وهم مهرة فى ركوب الخيل ، وقد أدوا خدمة قيمة كرماحين لكل من الجانبين فى حروب الاستقلال . وفى العهود التالية كثيرا ما كان كبار الساسة يجدون من السهل تجنيد خيالة غير منتظمين من صفوفهم. ولما كان الأفق فى اللانوس مفتقرا إلى إغراء البمبا المديد، فإنهم لم يتعودوا التجوال بعيدا كما فعل الجوشو الذى كان رحالا صميما ، تدور أفكارهم تقـــريبا فى نفس دوائر الفكر والانفعالات البسيطة كما هى عند الجوشو ، كما تمتاز حياتهم بنفس الخشونة وتتضاءل شخصية كل منهم بجانب عالمهم الطبيعى الشاسع . وبينما استسلم الجوشو لطغيان « مدنية » سارمينتو ، بقى اللانيرو على حاله لم يتغير إلا قليلا فى الأراضى الخلفية الآسنة فى الجمهوريتين. وقد تكاتفت صعوبة الوصول

(*) El Dorado

إلى اللانوس ، والجاذبية الفائقة التى تضفيها أحوال المعيشة فوق المرتفعات والانشغال فنثويلا المذهل بالبترول ، على تركه دون إزعاج فى عزلته وتخلفه(١٠) .

واللانوس مسرح قصة « السيدة برباراً » لمؤلفها رومولو جاييجوس ، وهى من أشهر قصص أمريكا اللاتينية . ففى تأملات سانتوس لوشاردو فى أحوال آبائه الأوائل ، وهو الأرستقراطى الصغير الذى عاد لتوه إلى أرض أسرته التى استوطنها الأجداد ، يصور جاييجوس طبيعة وأحوال اللانوس وسكانها . ويكتب عن « كفاح اللانيرو ضد الطبيعة وضد الوبالة التى تبيد الجنس ، وضد الفيضان والجدب اللذين يتناوبان الأرض فيما بينهما وضد الوحشة التى تحجبها عن المدنية » . ويقول عن المتناقضات فى مزاج قاطن هذه الأماكن المالحة إنه « جموح يتحمل العذاب ، كسول لا يمل ، فإذا خاض المعارك تجده مندفعا وحريصا ، وأمام رئيسه نظاميا ومخلصا ، ونحو صديقه سيئ الظن أريحيا ، ونحو المرأة شهوانيا وجافا ومع نفسه مخلوقا له حواسه ومعتدلا ، فإذا خاطبك فهو شخص تهكمى وشريف ، متشكك ويؤمن بالخرافات ، ويجمع بين البهجة والكآبة ، واقعى ومخترع للأوهام ، وإذا ترجل تواضع . أما إذا امتطى الخيل داخلته الكبرياء » .

الغابة

كانت الغابات المطيرة آخر الأرجاء التى استعمرت فى أمريكا اللاتينية . ومعظمها لا يزال حتى الآن فراغا سكانيا ، فبعد أربعة قرون يقطن سلفا(*) الآمزون سكان أقل عددا من سكان بورتو ريكو . وإذا استثنينا الرحال المتأصل ، والمبشر ، وطريد المجتمع ، كان هناك إغراء قليل للهجرة من

(*) Selva : اللفظ الذى يطلق على غابة الامزون الاستوائية وتسمى به الغابات الحارة عموما .

الأرض المسكونة فى الجبال أو على طول السواحل نحو الفيافى القاحلة إلى أن جاء رواج المطاط فى أوائل القرن العشرين فأوجد دافعاً مربحاً كبيراً بجذب الناس نحو الغابة .

ويعد وادى الأمزون أكبر مساحة غابيةشاسعة فى العالم . ويندمج نحو الشمال فى حوض نهر أورينوكو ، ويندمج فى الجنوب ، بعد عبور خط تقسيم مياه منخفض غير واضح ، فى الأراضى التى تحيط بمنابع مجموعة نهر بلات . وهناك غابات مطيرة أخرى فى أمريكا اللاتينية — فى جنوب المكسيك ، وفى السهول الساحلية فى أمريكا الوسطى ، وفى إقليم شوكو الكثير البلل فى كولومبيا ، ثم إلى الجنوب على طول المحيط الهادى إلى حافة صحراء بيرو . فإذا بعدنا نحو الشرق اندمج فى أجزاء من ولايتى باهيا واسبيرتو سانتو البرازيليتيناللتين تطلان على المحيط الأطلنطى . ولكنها ، جميعاً أو شتى ، لاتقارن فى الحجم بمساحة غابة الأمزون الشاسعة وخطوط تقسيم مياه أورينوكو وباراجواى المتاخمة .

وقد توغل الإسبانيون والبرتغاليون مبكرين فى الطرق المظلمة،ولميحبوا مالاقوه إلى درجة كافية ترغبهم فى الإقامة فيها أو العودة إليها . فلم يجدوا ذهبا فى ركاز أوحائط معبد على الرغم من أنهم بحثوا فى طول تلك الأرجاء وعرضها عن أرض الذهب (الدورادو) أو المدينة الخيالية ذات الثروة التى كانت تجعل ثروة كشكو وتينوشتتلان(*) ضئيلة بجانبها . فلم تقدم لهم الأمزونيا تعويضاً يروق لهم نظير ماعانوه من الإرهاق والملل اللذين لانهاية لهما . ولقد شن كورتيس وخمينيث دى كيسادا غارات طويلة وشاقة فى أعماقها ، وكان جنثالو بشارو وفرانسسكو دى أوريانا يتقابلان جيئة وذهابا عند مفترق طرقها . كذلك فعل كثير من الفاتحين الأقل شأنا والواقعيين

(*) عاصمة الازاتقة Ogatecs : الآن مدينة المكسيك.

أمثالهما . فقد أبحر بدرو دى تيشيرا نحو منابع النهر ليعلن البلاد ومياهها للبرتغال، ولكن إلى الوقت الذى نزل فيه الأب أكونيا من الأنديز فى سنة ١٦٣٩ لم يكن لدى أحد كلمة طيبة يقولها عن أرض الأمزون . أما القس الجزويتى فقد أشاد حتى بالمناخ ، ولو أن « شعاع القمر القليل » كان يسبب له الصداع ، وكان يرى أن البلاد « جنة » لولا « وباء البعوض » . وكان أتباعه الذين أسسوا الإرساليات على نهر مارانيون الأعلى أول الأوربيين الذين استقروا فى وادى الأمزون . وعبر المستكشفون من أهالى ساو باولو خط تقسيم المياه إلى حوض نهر ماديرا فى نزوحهم الذى أشادت به الأساطير ، ولكنهم وجدوا دافعا ضئيلا يربطهم بتلك الفيافى النائية . وفوق ذلك فإنهم لم يتركوا سجلا عن أسفارهم ، شأنهم شأن معظم الرجال المجهولين الذين سلكوا مؤخرا مجارى الأنهار بحثا عن المطاط . ولم يذع الرجال الذين تعلموا القراءة والكتابة قصة أمزونيا للعالم إلا بعد أن دخل همبولدت العظيم الوادى سالكا طريق قناة كاسكيارى من الأورينوكو . ومن ذلك الوقت كتب فريق ممتاز من العلماء والرواد والمراقبين عن عجائبها الطبيعية ، ومن بينهم الضباط البحريون الأمريكان هردن ، وجبن ، وبتس العالم الطبيعى الإنجليزى ، وأجاسيس وولاس ، وأرتن وهيث وتشيرتش ، وسبكس ومارتش الألمانيان ، والأخوان كودرو ، وجنرال رندن رئيس الخدمة البرازيلية الهندية المشهور ، وبول لى كوانت الفرنسى الذى أسهم فى دائرة المعارف ، ويوكليدس داكونا وجوزيه فيرسيمو البرازيليان . وتيودور روزفلت وليوملر ، وديكى وهانسن وتوملنسن (مؤلف كتاب « البحر والغابة ») .

وفى أثناء ذلك دخل البرتغاليون الوادى فى أعداد متزايدة فى القرن الثامن عشر بحثا وراء الرقيق الهندى ومحصولات الغابة الأخرى . واستمر التسرب الضئيل فى القرن التالى ونمت مستعمرات جديدة على الأنهار ، ولكن لم تصبح الهجرة على نطاق كبير حتى أوائل هذا القرن . وحتى فى ذلك الوقت كان ميدان الاستعمار شاسعا لدرجة أن تلك القفار كانت تغلق أبوابها وراءهم

كلما رق التيار البشرى فى مداخلها الكثيرة ، فبدت كأنها خاوية كما كانت دائماً .

فقد كانت بيئة لايستطيع أن يختارها وطنا بحرية سوى المخاطرين أو المهيأين لها جسميا . ومن القادمين الجدد امتاز البرتغالى على الإسبانى فى تهيئة نفسه لها ، وهنا ، كما كانت الحال فى أى مكان آخر فى المدارين أظهر سهولة مشهودة ليتلاءم مع الظروف الغريبة المجهدة . أما الإسبانى ، الذى تعود دائما المعيشة فى الأرض المكشوفة ، فقد تحاشى الغابة كما لو كانت سجنا أخضر . فلما حاول فعلا أن يعيش فى المدارين أصر على أن يحمل معه كثيراً من ثقافته التى لم تكن ملائمة للوسط الجديد بأى حال من الأحوال . وعلى النقيض من ذلك كان البرتغالى يترك وراءه من ثقافته مالم يخدم غرضاً ينفعه . أما الزنجى فى أمزونيا ، وقد ألف آباؤه بيئة شبيهة فى إفريقية المدارية ، فقد كان فى موطنه ، وفى الحقيقة كان شعوره بأنه فى موطنه، يفوق شعور الهندى الذى لم يهىء نفسه تماما للبيئة التى عاش فيها زمانا طويلا . واتضح فى آخر الأمر أن خليطا من الثلاثة — البرتغالى والزنجى والهندى — كان أكثر مايلائم المطالب الخاصة التى تستلزمها الحياة فى الغابة المطيرة . وكان المولد من المزيج الثلاثى قويا وصلبا ، لا يساور نفسه الحنين إلى وطن أصلى ، بخلاف الهندى الذى بدا دائماً ، وبصورة غامضة ، كأنما يحن إلى أرض ما ، كان يقطنها أجداده ولا يستبقى فى ذاكرته شيئا عنها . وعلى النقيض كان المولد المختلط جزءا أساسياً من البيئة المحلية ، كما كان المستوطن فى الغابات الكندية .

والحقائق البيئية الأساسية فى الأمزونيا هى الأنهار والغابة والأمطار والحرارة . وتأتى أوقات تبدو فيها هذه المظاهر الأربعة شيئاً واحداً لاعناصر متفرقة فى عالم فطرى وغير منتظم الشكل لايجد فيه الإنسان مقاما .

فالأنهار هي الطرق ، ولكن إذا اشتدت تيارات الماء فإن السفر فى اتجاه واحد يكون أشد بكثير منه فى الاتجاه الآخر . ويسافر الناس فوقها بالسفن البخارية أو الزوارق وعلى الأطواف وبشتى أنواع المراكب ، غير أن أغلبها قوارب محفورة من جذوع الأشجار . ولكن مهما يكن نوع المركب فعادة ما كان الشخص يستخدم الماء إذا أراد الانتقال من مكان إلى آخر. وربما يفقد قاربه فى النهر الجياش، أو قد يوجهه بمهارة خلال المندفعات المائية حيث تعترض المجرى التلال البازلتية . وهو ملاح ماهر ، خصوصا كلما كان يجرى فى عروقه الدم الهندى ، لأن الهندى يتجنب الغابة نحو النهر المكشوف الذى يفهم مسالكه . ومن أكثر الأمور الشائقة التى يتصف بها ملاحو النهر المرشد الذى يقود الجايولا أو السفن البخارية ذات القاع المستوى من بليم إلى مناوس. فهو يعرف أسرار ونزوات نهره — جوانب النهر المتحركة ، الحواجز المغطاة بالماء ، التيارات والدوامات التى فى المجرى ارتفاع الماء المفاجىء وانخفاضه الذى قد يترك سفينة جانحة على شاطىء مرتفع من الليل حتى الصباح . وهو يستطيع أن يقرأ ضوء الشمس فوق سطح الماء ، وحيث يبدو كل شىء متشابها للغريب نجده هو يعرف علامات الشاطىء سواء بالنهار أم فى ظلال القمر .

وإذا كان النهر وسيلة للنقل فهو كذلك مصدر للطعام ، لأن أنهار الأمزون غنية بالأسماك . ففى بعضها — كنهر برانكو — تكثر السلاحف المائية ،ولحمها وبيضها لايزالان غذاء رئيسيا لسكان النهر . وكذلك يستطيع الإنسان أن يشرب وهو مطمئن من الأنهار بخلاف جداول الغابة التى قد يلوث ماؤها بالسموم النباتية .

والحياة على ضفاف الأنهار أكثر راحة من الحياة فى الغابة خصوصاً حيث تكون هذه الضفاف مرتفعة ، كما هو الشأن غالبا ولمسافات طويلة . وكثير من المدن فى الأمزون ذات مواقع جميلة ، كما هى الحال فى سانتارم

عند مصب نهر تاپاجوس وأوبيدوس وتفيه ، حيث عاش بيتس العالم الطبيعى سنوات عدة . فالجو أبرد على ضفاف النهر ، وفى الليل قد يهب منه نسيم منعش نحو الأرض . فإذا امتد البصر على طول النهر ، وهو منظر عميق ومتسع فى بعض الأحيان ، اكتسبت النفس انطلاقه مريحة من ضغط الغابة الغلاب فى الخلف . ثم إن النهر كذلك يوجد اتصالا بالعالم فى الخارج،ولذلك قل الشعور بالعزلة واحتفظ الشخص إلى حد ما بشعوره بأنه مشترك مع زملائه . وحتى جامع المطاط عند منابع الأنهار الصغيرة يدرك أنه ليس منعزلا إلى حد اليأس ، وأن الأنهار ستقوده أخيراً إلى المدن حيث يركب الناس العربات فوق الإطارات التى قد يستمد مطاطها من الأشجار التى يشرطها فى ركنه النائى من الغابة الكبيرة. والأنهار كذلك تدعو إلى عدم الاستقرار،فعادة التنقل عند سكان الأمزون الذين يترددون فى تثبيت مساكنهم فى مكان واحد إنما هى نتيجة للدعوة إلى الحركة التى تمنحها لهم الطرق المائية المتدفقة .

وتتضاءل أمام الأمزون ســـائر أنهار العالم الأخرى . وكان اسمه البارانا جواسو ، أى « النهر الكبير » عند شعب التوبى ، أما عند البرتغاليين فقد كان اسمه ريو — مار، أى البحر « النهر أو العذب » ، « بحر أمريكا الجنوبية المتوسط»[11] . ولكن لايمكن لأية مغالاة أن تعطينا فكرة حقيقة عن عظمته وقوته — عن فيضانه الأصفر الذى لا يرحم ، والذى يصرف نصف قارة فى مساحتها الأغزر مطرا ، والذى ينتهى بعد أن يغير لون الأطلنطى لأكثر من مائتى كيلو متر من الشاطىء .

وهو من الضخامة بحيث لايكفى أن يطلق عليه اسم واحد . فقبل التقائه بمصب نهر نجرو فهو الأمزون الحقيقى . ومن هناك حتى حدود بيرو يسمى سوليموس أو نهر السولوموز . وفى مجراه فى بيرو حتى منبعه

فى الأنديز اسمه مارانيون . وليس من المستغرب أن ينزع الناس إلى رهبته والتواضع فى حضرته، لأنه يجسم قوة حركية دائمة لا يوجد مثلها فى أى مكان آخر فى الطبيعة .

وفى رأى ه. م. توملنسن الذى كان يرى فى الأمزونيا شيئا من أبعاد الفلك ، أن النهر نفسه « شجرة مهولة » ذات مجار مائية متشعبة لانهاية لها تغذى أنهاره . وتعد بعض فروع الأمزون الكبرى نفسها مثل ماديرا ونجرو وبوروس وجوروا وتاباجوس وتوكانتنس — أراجوايا ضمن أنهار العالم الكبيرة. ومع ذلك فعلى الرغم من ملل الأمازونيا الخادع — لأنه تشابه ظاهرى أكثر منه حقيقة واقعة — فإن للأنهار شخصيات خاصة بها ، تكسب سكانها أو المترددين عليها أمزجة خاصة . وهى تختلف فى لون مائها. فنهر نجرو ، وكذلك جوتاهى ومجار ثانوية أخرى ، على درجة من سواد اللون يبدو معها كما لو كان ينبع من عين مليئة بالمداد ، ثم خفف لونه فى أثناء الجريان بواسطة أفرعه الشاحبة . أما نهرا بوروس وجوروا كثير الثنيات فأصفران كالمجرى الرئيسى نفسه . أما تاباجوس وشنجو وتوكانتنس — أراجوايا التى تنحدر من هضبة البرازيل الوسطى وتجرى بين التلال الصخرية فى أجزاء طويلة من مجاريها وحيث تكثر المندفعات المائية فيها فمياهها رائقة تسر الناظرين .

ولبعض الأنهار مسيلات محدودة بوضوح كنهر أوهيو ، حيث كونت لها مجار نهائية وطبيعية ، فى حين أن غيرها، مثل جابورا الأدنى أوالأفرع المضطربة فى المثلث الواقع بين ماديرا الأدنى والأمزون ، معقدة ومتاهات مضطربة . ويتدفق الأمزون نفسه بمجرى واحد فقط فى خانق أوبيدوس العميق . ومع أنه قد يوجد مجرى رئيسى واحد فإن هناك على كل جانب

مجارى جانبية(*) تصلها بعضها ببعض قنوات عرضية(**) وفى فصل الفيضان ، عندما تذوب الثلوج فى الانديز ينتشر البحر العذب فوق السهل الفيضى الشاسع بين سفوح « الارض الصلبة » إلى الشمال والجنوب . أما السكان البرمائيون الذين يعيشون عادة على مسطحات السهل الفيضى(***) فيلجأون حينئذ إلى الأرض الأعلى أو يسكنون فى منازلهم التى يبنونها على قوائم حتى يهبط الفيضان تاركا عالمهم المغمور مكسوا بطبقة سميكة من الطمى والفضلات .

وعلى الرغم من أن هذه العملية لا تنقطع ألبتة ، ففى فصل الطوفان السنوى يغير النهر بعنف تقليدى على الأرض التى يجرى فيها . ففى بعض الأحيان يمزق أرجاء كبيرة منها فيفصلها عن أماكنها ويحملها مع التيار ، وهى أشبه بجزر طافية مكتملة بالأشجار التى على أفرعها قد تجلس القردة أو تحط الطيور . وفى الطريق قد تتكسر الجزيرة أو تجد مستقرا فى دوامة فى الفيضان حيث تتصل ثانية بالأرض المزعزعة . وفى الليل قد يسمع المرء أحيانا صوتا كقصف الرعد تحدثه ضفاف النهر الهاوية التى قوضها الفيضان الذى لا يرحم لمسافات طويلة . وفى نفس الوقت ، إذا ما اتجهنا إلى ماوراء المصب الفاغر الذى يتسع بين اليابس وجزيرة ماراجو يبنى النهر العظيم فى جهد أخير جزرا أخرى أكبر فى مياه البحر . فليس هناك وسط آخر ، إذا استثنينا وسط المحيط وحده ، يجعل المرء شاعرا بصغره وتفاهته كما فى هذا الاضطراب المتحرك من الماء والأرض .

ومن ناحية أخرى هناك شقات طويلة من مجارى الأنهار يتحكم فيها الناس فى الماء ويشعرون بالطمأنينة فى حضرته . فعلى نهر تاباجوس الجذاب

---

paranas (*)

furos (**)

varzea (***)

مثلا، هناك شواطئ رملية واسعة ومدرجات جميلة تصلح أرضا للسكنى ، وعلى نهر برانكو تمتد شطوط(*) رملية لكيلو مترات على ضفافه، وقد توجد جروف عالية قائمة فوق النهر لمسافات طويلة يمكن للمرء من فوق قممها أن يرى منظرا رائعاً فوق المساحات البعيدة من الماء المكشوف . وفى بعض الأحيان توجد شقات من الماء الهادىء تتوسطها جزر نظيفة كما فى نهر ترمبيتاس وموويس . وهناك نوع آخر يناقض النبات الصاخب الذى تتصف به الغابة المطيرة فى السهول الفيضية ، ألا وهو منظر الطبيعة الميت الذى تبدو فيه الجزر المكتئبة المتناثرة فى مجـــرى بواسو فى نهر نجرو فوق مناوس .

وهناك نوعان من الغابة : غابة تنمو فى الأرض الصلبة ، أو الأرض المرتفعة ، وأخرى تنمو فى السهل الفيضى . وغالبا ماتكون الأولى مكشوفة ونباتاتها الأرضية قليلة قد يستطيع المرء السير فيها دون مشقة . وتغلب فيها الأشجار ذات الخشب الصلب . وإلى أعلى يوجد ستر لا تنفذ منه الشمس إلا حيث توجد فتحة طبيعية . أما غابة السهل فتمثل الأدغال فى أسوأ مظاهرها . وهى تخطر على بال الذين يكتبون عن « النار الخضراء » . وهى تتكون من نبات كثيف متلبد فيه يكثر النخيل الاستوائى وشجر الأنبوب(**) وأنواع أخرى من الأشجار ذات الخشب اللين مختلطة بنباتات أرضية سميكة، وأعناب لا تستطيع شق طريقها فيها سوى السكين الصلبة .

وفى أسوأ الظروف يشعر المرء فى الغابة بدهشة وإعجاب عندما يشاهد ثروة الحياة النباتية الهمجية ، وحيوية الطبيعة المدارية المذهلة والمتفتقة . وقد وصفها توملنسن بأنها الأرض المفرطة « الغزيرة الإنتاج » وكان للعالم

(*) praias

(**) أو شجر الأبواق ، وسمى كذلك لان كثيرا من أفرعه مفرغة يأوى اليها النمل . وهو من فصيلة التوت : (cecropias)

الطبيعى بيئس لحظات استعلاء أو نشوة فى أركانه المفضلة فى البرية . غير أن ظروف الغابة المطيرة لا تجلب السعادة ، فهى لم تكن أبدا مضيافة ولا كريمة ، وفى أعماقها قد يصبح من السهل جدا أن يموت المرء جوعا أو ظمأ ، أو يضل طريقه بلا رجاء . وكتب بول لى كوانت يقول : « إنها مظلمة وساكنة إلى درجة منفرة بسبب ما بها من كثرة الهوام . وتدخل فى نفس المسافر وقعا من الحزن الغامض ، والقلق ، ونوعا من الضيق يجعله يصدر لهفة امتنان وصيحة من الفرح إذا صادفته بقعة مكشوفة (*) أو عندما يصل إلى شاطىء مشمس لنهر من الأنهار » وكتب توملنسن عن منظر الغابة المشئوم والمتوعد الذى يجعل الناس فيها دائمى اليقظة تلقائياً تجاه غوايتها ، يقول : «ظللنا نسير ، وعندما استيقظنا لم نستطع أن نفكر فى كلمات تعبر عما شعرنا به عندما نظرنا إلى تلك الأبهاء الطويلة الصامتة فى ذلك المنزل بلا اسم ، فقد عرفنا أن هناك شيئاً ، ولكن لم يكن هناك ما يدل على الشكل الذى يبدو فيه هذا الشىء عندما يظهر » . وإذا أرخى الليل سدوله على الغابة يشتد شعور الإنسان باليأس . وفترة الغسق بصفة خاصة مجلبة للضيق ، نظرا إلى أن الظلام العادى يتطور إلى حلكة دامسة . وبينما تكون الغابة فى سكون أثناء النهار ، إذا استثنينا صيحة عارضة لطائر أو طنين الحشرات فإن الحياة تدب فيها أثناء الليل . فالحيوانات الكبيرة تأخذ فى التجول ، وفى بعض الأحيان يسمع الإنسان صراخ الحيوانات التى تقع فريسة لها مختلطة بأصوات غريبة لا يمكن التعرف على مصدرها . يضاف إلى ملابسات الليل فى الغابة إمكان هبوب زوبعة مدارية تعد تجربة مرعبة لأى شخص عدا قاطن الغابة العتيد الذى هيأ حياته لظروفها .

وإلى حيوانات الأمزونيا ، كبيرها وصغيرها ، يرجع طابعها الخاص .

(*) campinarana

فآكلة اللحم الكبيرة الوحيدة هي النمر الأمريكي ، والأبواغ السوداء منه ذات منظر بغيض ، والبيومة الذى يعرف محليا « بالأسد » ، وكلاهما لايعتدى ، ولكنهما مع القطط المفترسة التى تجوب الأدغال بالليل ، يضيفان كثيرا إلى الأحداث التى تمثل على مسرح الغابة فى الظلام . وكثيرا ما يستدل على حلول الليل بعواء الجواريبا فى أعالى الأشجار . والاسم العلمى اللائق لهذه القردة الكبيرة والجوحة الحمراء هو القردة العواءة(*) . ولما كانت أصواتها تسمع فوق الرءوس فى غسق الليل المدارى المحدق، فإن زئيرها يعد أعظم الأصوات التى تثير الرعب فى الطبيعة .

ومن بين مظاهر الغابة المتآلفة الأخرى لغط القردة الصغيرة المصرصع، والصياح الشاكى الذى يصدر عن التوقان(**) وصراخ الماكو (الببغاء الأمريكى) ذى الشكل الجميل وهو طائر والضحك الساخر الذى يصدر من الأوراتاوى، أو عصفور الطيف الذى يسميه الأهالى «أم القمر»(***) و«الأنغام المرائية» الصادرة من النسر الأسود أو الكاراكاراى ، والصفير الأجش المصلصل الذى تحدثه السيجانا أو الطائر المنتن الذى يبدو أقرب إلى العظاءة «السحلية» منه إلى الطير ، ونقيق صفادع الأشجار الكبيرة . ومن الحشرات صفير الجاكيرانامبويا الذى يشبه صوت القاطرة ومن حسن الحظ أن هذه جميعاً لا تسمع فى وقت واحد ، ولكن كلا منها يبعث بنصيبه ليزيد من توتر أعصاب القادم الجديد إلى الغابة . وحتى أولئك الذين يعيشون خارج الغابة العظيمة لا يقابلون هذه الأصوات بالرضا ، ولو أنهم قد يحاولون تفسيرها من بين أساطير شعب التوبى .

ومن رفاق الإنسان فى البرية الأفعى القماطة(+) والاناكندا (السوكر

(*) mycetes beelzebub

(**) طائر له منقار طويل .

(***) mae la luna

+ boa constrictor سميت كذلك لأنها تقتل فريستها بالالتفاف حولها والقمط .

روجو) أو الحية المائية الضخمة. والأولى تسلك فى حياتها مسلكا لا تستأهل معها سمعتها الرديئة ، ففى بعض الأحيان يحتفظ بها الأهالى فى أكواخهم لصيد الجرذان . أما الاناكندا التى تقتسم الأنهار مع التماسيح والأسماك المتوحشة فتكبر حتى تصبح ذات أبعاد كبيرة ، ويخشاها سكان الغابة كثيرا .وأخطر منها الجاراراكا السامة وغيرها من الأفاعى الصغيرة التى تختبىء فى الأشجار القصيرة فى السهل الفيضى . أما الوطواط المصاص وهو أكثر إيذاء ، وقد يمتد جناحه أكثر من نصف متر ، وله منظر فظيع جعل بيتس يطلق عليه اسم « عفريت» الخرافات الساخر فقد عده « أقل الوطاويط ضررا » أما الوطواط الصغير الرمادى اللون(*) فهو المسخ الحقيقى الذى يمتص الدماء .

ولعنة الأمزونيا الحقيقية هى الحشرات. فقد فرهت حياتها بشغلها زمنا طويلا وهى تسيطر على أرجائها المنعزلة فالبعوض، سواء البعوضة الصغيرة(**) وبعوضة الملاريا (***) ، يتجول الى مسافات بعيدة وبشراهة، ولو أن وباء البعوض أشد فى بعض الأرجاء منه فى البعض الآخر . وتخلو منه إلى درجة ما أجزاء من الوادى ، ولكن هناك أماكن مثل كارابانا توبا أو « البعوض الكثير على السوليموس حيث يزيد البعوض من حدة الحياة . وفى فترة النهار ينشط الذباب العضاض ، وهو نقمة رهيبة لأن عضته تترك خدوشا من الحكاك الملح على الجلد ، وذبابة المتيوكا الكبيرة المهاجمة التى تفضل الهجوم على الجفون . والبرغوث الصغير الذى يشبه نظيره الأمريكى فى أثر اللدغ .

والنمل سيد الأرض. فالنوع المعروف بنمل السوبا يهلك زراعات سكان النهر ، وقد تسبب فى جلاء السكان عن مساحات برمتها . أما النمل الأحمر المتوهج صغير الحجم فيتشبث بنبات السهل الفيضى ، فإذا أسند شخص

(*) Phyllostoma

(**) Culex

(***) anopheles

جسمه إلى شجرة،أو احتك بفرع منها ، غطى جسمه فى الحال بهذاالعذاب المتوهج الذى لا مهرب منه سوى القفز فى أقرب الأنهار . أما علق الكلأ فيتحرك فوق الأرض فى جيوش ضخمة وحشية ، وكما يقول:بيتس « حينما يتحرك تأخذ دنيا الحيوانات جميعها فى الهرج والمرج ، ويحاول كل كائن حى أن يبتعد عن طريقه» . ومن أنواع النمل الأخرى النمل المارد(*)،وطوله يبلغ سنتيمترين ونصف سنتيمتر ، وعضته تسبب ألما مبرحا .

وليست الحياة الحيوانية كلها معادية للإنسان أو منفرة فى مظهرها مثل حيوان الكسلان القديم(**)أو « قرد الليل » ذى الوجه الشبيه بالبومة . وفى النهر درافيل وردية اللون لعوبة (بوتو) . فإذا تعمقنا فى الغابة نجد الغزلان القزمية والذباب المضىء الكبير الحجم الذى تشع عيناه بالضوء الأبيض والأحمر، والأخضر والقشة(***)التى يبلغ طولها نحو سبعة عشر سنتيمترا، والقوطى السعادين (الباريجودو) كما يوجد ديك الصخر البرتقالى الفاقع أو«طائر الأرغن»(****) وتغريده الصفيرى يبدو كما لوكان منبعثا من آدمى ، والفيرابورو ولتغريده أنغاماً حلوة وفضية كالتى تنبعث من صندوق موسيقى عتيق . ويرى الإنسان فى ممرات الغابة الأجنحة الزرقاء المتألقة للفراش المعروف باسم مورفو والذى يبلغ عرضه فى بعض الأحيان عشرين سنتيمترا . وقد رأى توملنسن واحدة فى وهج الضوء فى ممر من غابة « فراشة فاخرة ، لامعة وسريعة إلى درجة لايمكن معها إلا أن تكون هاربة من الجنة » .

لذلك ينزع الدين يعيشون فى الأمزونيا إلى الكآبة والسكون والقلق ..

(*) tucandeira

(**) antedeluvian أى من قبل الطوفان .

(***) من السعادين الامريكية

(****) realejo

فظلام الغابة يرهق أنفسهم ، وسكونها يكبت عندهم الدافع الطبيعى للكلام. وهم جوالون بغريزتهم،ويشجعهم إغراء الأنهار الدائم على تشردهم . ونظراً إلى كونهم جوالين فى الصميم ، ولطول تعودهم على ذلك ، فلا يعول عليهم فى تكوين قوة عاملة لمشروع مزرعة كبيرة تتطلب عمالة مستمرة لنجاح خططها الطويلة الأمد . وكذلك نظرا إلى أن الإنسان هنا صغير فى هذه البيئة الضخمة نجده يشعر بتفاهته ، وتبدو جهوده ضئيلة ، وهناك مقومات قليلة يكون بها شخصيته حتى أصبح متواضعا بصفة عامة .

وفى الوقت الذى يبتعد فيه قاطن الأمزونيا عن المراكز التى تعد نقطاً أمامية للمدينة على حافة البرية العظيمة ، يصبح أحيانا فوضويا من الناحية الأخلاقية . لقد تحرر من القيود الأخلاقية التى تنظم المجتمع ،والتى تتمثل فى العادات القومية والكنيسة وسلطة الدولة . فقد يميل إلى السلب والتلذذ بالقسوة ويفتك بمواطنيه بوحشية كما تفعل حيوانات الغابة . وهذا يفسر « الثورات » العنيفة التى قام بها البوتومايو فى غابات بيرو وحوادث مشابهة على نهر جافارى وبوروس وأرض الأبونا المتنازعة خلال رواج المطاط فى أوائل القرن الحالى ، ويفسر كذلك نزوات الظلم التى كان يسلكها سادة الأنهار الذين سيطروا زمنا طويلا على بعض الصناعات الرئيسية فى الأمزون أو على مساحات كبيرة من احواض الأنهار . وكان يطلق على جزيرة مارايانا فى نهر نجرو عند مناوس اسم «محجر الأرواح» ، حيث كان الرجال الذين كتب عليهم الذهاب إلى غابات المطاط قد تركوا ضمائرهم من ورائهم كأنها سقط المتاع . وفقدت جزيرتان عند مصب نهر جوروا وبوروس اسميهما وأصبحتا تعرفان باسم « جزيرتى الضمير » * . يقول لى كوانت : « حقيقة إنها صورة مؤكدة ، إن الشخص الذى يوشك أن يعبر عتبة الباب المؤدى إلى جنة « أرض المطاط » الشيطانية يترك وراءه أنبل غرائزه . ويعبر هو نفسه فى ضحك عن هذا التهكم الفظيع » .

(*) Ilhas da Consciencia

وأكبر مساحة صحراوية فى أمريكا اللاتينية هى تلك التى تمتد على طول بيرو ، ثم إلى الجنوب حتى خط عرض كوكيبو فى تشيلى . وهذه المنطقة الجدباء تشتمل على قطاع ساحلى يختلف فى الاتساع ، وعلى الجبال المنخفضة المجاورة على الجانب الباسيفيكى للكورديليرا ، وكثير منها صحراء صرفة ، أى إنها عديمة المطر فى الواقع وقفر تماما ، كلها رمال وصخور لا ينمو بها نبات ما[١٢] وهناك نحو من ثمانين مجرى تنحدر من الأنديز عبر هذا القطاع الصحراوى ، منها نحو النصف ييبس فى بعض أيام السنة . وكل هذه المجارى فى الواقع موجودة فى بيرو ، ومن أشهرها اثنان هما : سانتا الذى ينحدر خارجا من « خانق » كاييجون دى هوايلاس « الصندوقى » الرائع فى سلسلة جبال بيرو العالية ، وريماك ، وبالقرب من مصبه تقع مدينة ليما . وقبل مجىء الإسبانيين بوقت طويل عممت الشعوب الأصلية التى قطنت السهل الساحلى مياه هذه الأنهار على الأراضى لإطعام عدد كبير من السكان وللمساعدة على نمو مدن عظيمة مثل شان شان فى أرض الشيمو ، وقد اندثرت من قديم . وعلى هذه الأراضى اليوم تقوم مزارع القطن وقصب السكر وحقول البرسيم الحجازى (*) ، كما فى واحة أريكيبا الجميلة . فلقد شعر الإسبانى الذى عاش من قبل بين الحقول المروية فى سهول غرناطة وبلنسية وفى غيرها فى شبه الجزيرة أنه فى موطنه تماما كما كان فى مندوثا وتوكومان على الجانب الآخر من الأنديز . وعلى خلاف مع العربى الذى اختلط دمه بدمه لم يرض بحياة البدو الصحراوية فى أى مكان ، ولو أنه فى كاليفورنيا السفلى وأرجاء أخرى فى شمال غربى المكسيك أصبح وقد عود نفسه ، وتلاه المكسيكى ، على الأحوال الصحراوية حيث كان الماء شحيحا ، كما فى صحراء فى بيرو .

(*) الفصفصة : Alfalfa.

وفى سرتاو (*) شمال شرقى البرازيل الذى يتركز فى ولاية سيارا يوجد إقليم كبير تستبين فيه الصفات الصحراوية ، وهذا هو إقليم فترات الجدب المديدة(**) حيث كانت المجاعات تفتك بالسكان أحيانا،وتسببت فى نزحات سكانية ضخمة إلى أجزاء أخرى فى الجمهورية ، خصوصاً وادى البرازيل ، وفى سنة ١٩٥٢ إلى جنوب البرازيل ، وفى أرض الكاتنجا هذه ، أو الأشجار القزمية والنباتات الملحية ، لايتأكد الناس من حلول الأمطار ، وفى بعض الأحيان ، كلما لفحت الشمس بلا رحمة تلك الأرجاء ، يمضى السكان الجائعون بتثاقل نحو الساحل بحثاً عن الطعام والماء .

وظروف المعيشة المزعزعة فى المنطقة «بروز» التى تقع خلف البرازيل أدت إلى صفات خاصة فى حياة أهالى سيارا وجيرانهم جعلتهم يختلفون عن بنى وطنهم الذين يعيشون فى مواطن أفضـــل . فهم الشعب الذى يصفهم يوكليدس دا كونا فى كتابه « رجال السرتاو » ، وهو قصة عصيان المتصوف أنطونيو كونسليرو وأتباعه المتعصبين ضد سلطة الحكومة(١٣). وهم شعب يتصف أفراده بالشدة والشجاعة والتماسك ، قليلو الكلام ، شديدو التمسك بالحمية الدينية المتطرفة ، وعلى وجه الاحتمال ، أقرب الشعوب إلى قبائل الصحراء من أى شعب آخر فى أمريكا اللاتينية .

الزلازل والزوابع

كانت السهول والجبال والغابات مظاهر ثابتة للبيئة الطبيعية فى أمريكا اللاتينية ، واستمر تأثيرها فى مدنية القارة ثابتاً إلا من تغيير طفيف من قرن إلى آخر . ولكن من ناحية أخرى ، فإن مظاهر الطبيعة العنيفة — الزلازل وثورات البراكين والزوابع — لم يستطع أحد التنبؤ بحدوثها ،

(*) Sertâo مراعى فقيرة تنمو فوق الأراضى المرتفعة تتخللها أشجار
(**) Seccas

وكانت سريعة الزوال إذا حدثت ، ومع ذلك فعلى الرغم من أن حدوثها كان عرضيا ومتقطعا فإن آثارها على الحياة فى البلاد قد تعيش طويلا .

ومن هذه العوامل الجائحة تعد الزلازل أهمها من ناحية عواقبها المادية والنفسية . يقول جوب هورتب — وهو أحد رجال هوكنز ، والذى تخلف فى فيرا كروث فى عام ١٥٦٨ ، وقضى بضع سنين فى المكسيك —: «تحدث فى الأنديز ثلاث مرات فى السنة زلازل عجيبة تجعل الناس فى ذعر بالغ وتعرضهم للخطر» . وتنتاب إقليم الكورديليرا من المكسيك إلى تشيلى هزات زلزالية عنيفة . ونظراً إلى حداثته نسبياً من الناحية الجيولوجية، فإن الجمع بين ضيقه وارتفاعه الشاهق فى جزء كبير من امتداده هو سبب الضغط والشد اللذين تسببا فى كون هذه المنطقة مهددة بالزلازل فى الوقت الحاضر . وكذلك فإن وجود البراكين النشيطة أو الهادئة فى جهات معينة كما فى أمريكا الوسطى وأكوادور دليل مستمر آخر على ذلك التهديد .

وقد قاست سبع عواصم فى أمريكا اللاتينية من الزلازل العنيفة .. ويذكر خوان وأيووا ، الضابطان البحريان اللذان كانا فى بيرو فى منتصف القرن الثامن عشر ، ستة عشر منها فى تاريخ ليما[١٤] . وقد كانت هناك فى الواقع زلازل مدمرة فى السنوات ١٦٣٠ و ١٦٨٧ و ١٧٤٦ . وفى زلزال ١٦٨٧ حدثت الهزات الأولى فى الساعة الرابعة صباحا بينما كانت المدينة لا تزال نائمة ، ثم تلتها هزات أعنف بعد انقضاء ساعتين ، وبعد أن هرب معظم الباقين على قيد الحياة مذعورين إلى الميادين والشوارع . وفى نفس الوقت اكتسحت كياو وهى المدينة التى تعد ميناء ليما موجة مدية . وإلى الشمال فى مرتفعات كولومبيا أخذت «الضجة الكبرى» تدخل الرعب فى نفوس الناس . وفى الساعة العاشرة والنصف من ليلة ٢٨ من أكتوبر سنة ١٧٤٦ تهدم معظم مدينة ليما فى نحو ثلاث دقائق . وبلغ عدد الهزات أكثر من مائتين فى الأربع والعشرين الساعة ، واستمرت

لبضعة أشهر ، ثم اكتسحت مدينة كياو موجة مدية ولم ينج سوى مائتين من السكان الذين كانوا يبلغون أربعة آلاف ، بينما غرقت تسع عشرة سفينة فى الميناء . وكتب خوان وأيووا عن أريكيبا ثانى مدينة فى بيرو يقولان : « إن المسرات والمزايا تضيعها هزات الزلازل المخيفة التى كثيراً ما تتعرض لها ، لدرجة أنها تحولت أربع مرات إلى خرائب من جراء هـــذه التقلصات[١٥] » .

وحدث أول تدمير للمدينة فى ١٥٨٢ ، وفيها قتل آلاف من السكان . وفى سنة ١٦٠٠ ثار بركان المستى بعنف ، وقاست المدينة من مصيبة مزدوجة : الثوران البركانى والزلزلة . وبعد أربع سنوات حدث زلزال آخر ، ثم آخر فى سنة ١٧٢٥ .

وفى ١٧٩٧ بعد تدمير كومانا على ساحل فنشويلا دمرت كاراكس تدميرا فعليا فى ٢٦ من مارس سنة ١٨١٢ . ومن مجموع السكان الذين كان عددهم يبلغ ٥٠٫٠٠٠ شخص قتل ١٢٫٠٠٠ منهم ٤٫٠٠٠ كانوا قد لجأوا إلى الكنائس ، ومات ٨٠٠٠ آخرون فى أرجاء أخرى من البلاد . وبعد هذه الكارثة بدا ربع لاترنداد وكأن منجماً قد انفجر فى أسفله . وتوالت الهزات لأسابيع ، وفى ٥ أبريل بلغت من الشدة درجة الهزات الأولى ، وكانت الأرض فى حركة مائجة لبضع ساعات .

ولم تقاس بلاد من الزلازل قدر ما قاست أكوادور ؛ فنى عام ١٦٩٨ دمرت أمباتو من ثوران كوتوباكسى الذى صحبه انفجار بركان كارهوا يراسو . وفى نفس الوقت دمرت لاتاكونجا تماما من الزلازل ولم يبق قائما فى المدينة سوى أربعة منازل من سبعمائة ، وفى سنة ١٧٤٣ ثم فى سنة ١٧٥٧ دمرت لاتاكونجا كلية ، وفى سنه ١٧٩٧ دمرت المدينتان ومعهما مدينة ريوبمبا . وقد وصف همبولدت الزلزال الذى دمر ريوبمبا بأنه أعنف ما وعته

الذاكرة والأحاديث ،فقد هلك جميع السكان فعلا بالإضافة إلى الكثيرين فى أرجاء الولاية الأخرى . وقال ستيفنسن : « لقد تغير وجه الأرض كلية . . . . فبرزت جبال حيث كانت توجد أودية مزروعة ، واختفت الأنهار أو غيرت مجاريها . . . . وقد بلغ من تغير وجه الأرض الكامل أنه لم يعد هناك شخص يتعرف على أكبر مزرعة فى المقاطعة» . وبعد فترة توقف طويلة ألم الخطار من جديد بأكوادور فى سنة ١٩٤٩ حين دمرت أمباتو ثانية .

وقد عانت مدن تشيلى كذلك تكرارا وبقسوة من الاضطرابات الزلزالية . وأعنف زلزال ألم بسانتياجو حدث فى ١٦٤٧ وفيها اهتزت المدينة من قواعدها ، ودفن آلاف الناس تحت الأنقاض ، ودمرت كونسبسيون فى ١٥٧٠ بعد تأسيسها بعشرين سنة فقط ، ثم فى ١٧٣٠ ، ١٧٥١ ، بعدها تم نقل المدينة إلى موقعها الحالى لتصبح أنقاضا فى ١٨٣٥ ليس إلا ، وحدثت سلسلة مديدة من الهزات فى الجزء الأوسط من تشيلى سنة ١٨١٩ فيها حولت كوبيابو التى تقع إلى مسافة بعيدة فى الشمال إلى أنقاض ، بعد أن دمرت على فترات طول كل منها ثلاث وثلاثون سنة منذ ١٧٧٣ . وداهم الخطر أريكا ثلاث مرات على الأقل من جراء الزلازل المصحوبة بالموجات المدية . وقد شاهد الأب فاسكيث دى اسبينوسا الأولى فى ١٦١٨ . وأكبر الفواجع فى تاريخ المدينة حدثت فى ١٨٦٨ ، ويرجع السبب الرئيسى فيها إلى الموجة المدية أو «زلزلة البحر» ، وكانت عنيفة إلى درجة غير عادية بحيث دمرت حركة الشحن فى الميناء وأودت بزورق حربى أمريكى إلى مسافة بعيدة فى داخل الصحراء حيث يمكن رؤية هيكله حتى الآن . وأحدث زلزال عنيف فى تشيلى حدث فى سنة ١٩٣٩ الذى حول مدينة شيان فى الجنوب إلى كومة من الأنقاض ، وهلك نحو من ٣٠٫٠٠٠ من سكانها[١٦] .

ومن البلاد الأخرى ، مندوشا فى أرجنتينا وقد دمرت تماما فى

سنة ١٨٦١ من زلزال صحبه حريق ، وتسبب فى موت عدد يتراوح بين ١٠,٠٠٠ و١٢,٠٠٠ شخص ، ومدينة سان خوان فى الولاية المجاورة ، إذ بعد أن هدمها زلزال فى سنة ١٨٩٤ بنيت من جديد لا لشيء إلا لتدمر ثانية فى هذا القرن . أما مدن أمريكا الوسطى التى كانت فريسة للزلازل الخطرة فى القرن الحالى فهى كارتاجو فى كستاريكا ، ومدينة جواتيمالا ، وماناجوا ، وسان سلفادور .

وبلغت الخسارة المادية التى سببتها الزلازل درجة جسيمة،فهى لاتشمل فقط الخسارة فى المبانى المهدمة ، بل قد تصل فى بعض الأحيان إلى درجة الدمار الكلى لمدينة بأكملها . وفى أحيان أخرى يصحب هذه النكبات تخلخل فى سطح الأرض نفسه ، وتحويل الأنهار من مجاريها العادية وتمزق فى نظام الرى . فى زلزال واحد فى بيرو رجت الأرض رجا عنيفا أمحلت بسببه أرجاء كثيرة من الأراضى الزراعية الممتدة على طول الساحل ، فكان لزاما أن ينقل الطعام من تشيلى حتى إصلاح قنوات الرى واستعادة خصب الأرض .

وإليك مثلا لسلسلة الكوارث المترتبة على حدوث زلزال بالأنديز فى بيرو فى سنة١٩٤١ ، عندما تسببت هزة فى إضعاف الحائط الطمى الذى كان يحتفظ بمياه بحيرة جليدية فى كاييجون دى هوايلاس ، وفى نفس الوقت تفكك جسم النهر الجليدى نفسه ، ثم انزلق فى البحيرة فدفع بشدة ماءها إلى الوادى فى أسفل .

وغمر حائط عال من الماء مدينة هواراث فأغرق نحو ١٢,٠٠٠ من السكان ، ونشر الدمار فى مساحة واسعة من الأراضى الخصبة التى انتزعت من فوقها التربة السطحية وتناثرت فوقها الصخور .

ولهذه الكوارث آثار نفسية عميقة جدا على السكان المكاومين ،

وتسبب لهم قلقا بالغا . وهذه حقيقة واضحة بصفة خاصة عندما تستمر الهزات فترة أسابيع أو شهور قبل أن تهدأ الأرض ويستطيع الناس المشى فوقها ثانية فى ثقة . فالهوس الجماعى ونوبات الرعب تتلو غالبا حالة من القدرية والاستسلام . وتوتر الأعصاب البالغ الناتج من الذعر قد يؤدى إلى انفجار من التحمس الدينى المتعصب ، أو ينتهى إلى جنون دفعة واحدة إذا اختل العقل من تذكر الأهوال ، أو إذا توقف انتظار التكرار الخطر .

ولدينا دليل من مصدر أصلى على نتائج الزلازل من الناحيتين العقلية والاجتماعية . فلدى الكابتن بازل هول الضابط البحرى البريطانى الذى كان فى تشيلى فى أثناء حروب الاستقلال كثير يمكنه قوله عنها . فهو يكتب عن الزلزال الذى دمر مدينة كوبيابو الإقليمية فى سنة ١٨١٩ يقول : « بعد الهزة الأولى العنيفة التى محت المدينة استمرت الأرض فى حركة مدة سبع دقائق ، وكانت فى بعض الأحيان تعلو وتهبط ، ولكن كثيراً ما كانت تتأرجح بسرعة هائلة ، ثم سكتت لبضع دقائق ، ثم ارتجت ثانية وهكذا ، بدون فترة من الهدوء تزيد على ربع الساعة لبضعة أيام . وقد هدأت الزلزلة قليلا الآن . واستطالت فترات الهدوء وضعفت الهزات عن شدتها السابقة ، غير أنه لستة أشهر تالية لم يستطع أحد القول إنها قد انتهت تماما ، لأن الأرض خلال هذه الفترة لم تستقر طويلا ، وكانت الأصوات المخيفة المنبعثة من الأرض نذيراً مستمرا لمصائب جديدة » . وقد أبدى له أحد المواطنين ملاحظة قائلا : « إن هذه الزلازل مروعة جدا ... فقبل أن نسمع الدوىّ ، أو على الأقل عندما نشعر تماما أننا نسمعه ، نصبح فى حالة إدراك لما يحدث ، ولا أعرف تماما كيف أن شيئا غير عادى سوف يحدث ؛ فكل شىء يبدو كما لو كان يغير لونه ، ويهبط مستوى تفكيرنا نهائيا ، وتبدو الدنيا كلها فى غير انتظام ، والطبيعة كلها مختلفة عما اعتادت أن تفعله ، ونشعر أننا قد خضعنا تماما

وأحيط بنا من قوة خفية لايستطيع كبح جماحها أحد أو أن يدرك كنهها أحد ثم يأتى الدوى المروع ، فيسمع بوضوح ، وفى الحال تصبح الأرض الصلبة جميعها فى حركة تموج ذهابا وجيئة كسطح البحر . خذها منى كلمة ياسيدى : إن الزلزال الشديد يكفى ليضطرب أكثر الناس رجاحة عقل » .

ويحكى الكابتن هول قصة توضح التوترات العصبية التى تنتاب الناس فى جهات معرضة للزلازل . فقد كان حاضراً فى حفل فى إحدى ضواحى ڤلباراييسو عندما شعر بهزة أرضية طفيفة . وكانت نساء الأسرة يغنين ، وواحدة تلعب على المعزف ، وأخرى على القيثارة ، وفجأة قفز الجميع يصيحون « الرحمة » واندفعوا إلى الشارع .

وكتبت مسز جريهام من بنات وطنه ، وكانت فى تشيلى فى نفس الوقت وشاهدت تجارب كثيرة مشابهة : « أنا أستطيع أن أفهم تماماً الآن تأثير الكوارث الكبيرة العامة فى تدهور معنويات المجتمع وتفكك عراه» . وتحكى عن تفجر الحماسة الدينية ، التى تلت سلسلة من الهزات الأرضية . « من اليوم التاسع عشر وشابات سانتياجو يجبن الشوارع يغنين الترانيم والأوراد فى مواكب ، وعلى كل المذاهب كافة التى يعرفنها ، وهن لابسات ثيابا بيضاً . وحافيات الأقدام ، حاسرات الرؤوس ، شعث الشعور ، تتدلى عليهن الصلبان السود . وفى بادىء الأمر اكتظت الكنائس وقرعت الأجراس تنذر بالغم دون انقطاع إلى أن فطنت الحكومة أن كثيراً من الأبراج وبعض الكنائس قد تشققت ، فأوصدتها لكيلا تنهار على رؤوس الناس ، ولذلك فهن يؤدين مراسم عبادتهن فى الشوارع ، وتهب كل أسرة بناتها لهذه الخدمة المقدسة » .

وقد جرت عادة الناس أن يفسروا هذه الكوارث بأن الله يأخذهم بها على ما اقترفوا من آثام ، ولذلك كانت تتبعها عادة مظاهر التوبة والاستغفار. فبعد تدمير سانتياجو فى سنة ١٦٤٧ عكف الباقون من السكان على استغفار جماعى لإله غاضب ، وأقام الأسقف أمكنة لأربعين أو خمسين أباً لتقبل الاعتراف والتوبة فى الميادين العامة . وأقيمت المحاريب ومنابر الوعظ فى العراء ومن فوقها يدعو القساوسة السكان إلى الاستغفار . وتحركت المواكب فى الشوارع تنبعث منها أصوات الولولة وقرقعة السياط تلهب ظهور المستغفرين العارية . وحدثت مثل هذه المناظر فى « ليما » بعد زلزال سنة ١٦٥٥ . وذات مرة بعد أن ألقى أحد القساوسة الموعظة على الناس استسلموا إلى حالة مديدة من الألم الناتج عن هوس الإخلاص وإذلال النفس لدرجة جعلت الكثيرين يعانون من سقم التفكير ، ودفعتهم إلى حافة اختلال العقل. ويقال إن زلزال سنة ١٦٨٧ أدى إلى إحياء التحمس الدينى الشديد بين سكان بوجوتا المذعورين .

ويروى بويل قصة انطباعاته عن الزلازل التى حدثت فى جرانادا بأرض نيكاراجوا ، فى سنة ١٨٦٥ ، يقول : « كان الجو عبارة عن صياح فظيع من الرعب. وحتى أصوات الزلزلة كانت تضيع وسط هوس الصراخ... ولوثة شعب بأكمله أفقده الرعب صوابه » . وكتب عن الاهتزازات التى حدثت بعد ذلك ببضعة أسابيع يقول : « لقد حدثت ثمانون هزة واضحة بين الساعة التاسعة ليلا والرابعة من بعد ظهر اليوم التالى .... وكان الشجعان من الرجال فى حالة وحشية من الرعب والانهيار ، فى حين كان مئات من الناس قد اختلت عقولهم . وحاصرت الجموع المهووسة كراسى الاعتراف ليل نهار ، ولم ينقطع قداس من محراب » . ويضيف : « من ذا الذى يستطيع أن يعجب إذا كانت المدينة كلها قد جن جنونها ؟ » .

والأنتيل هى الجزء الوحيد من أمريكا اللاتينية الذى يتعرض للزوابع

المدارية . ولو أن الرياح العاصفة قد تجتاح الساحل الشرقى للمكسيك وأمريكا الوسطى حيث تسببت فى بوار مساحة كبيرة من مزارع الموز فى جواتيمالا سنة ١٩٥١ . وتنشأ الزوابع عادة فى مساحة محدودة من المنخفضات البارومترية مركزها إلى الجنوب من كوبا . ومن هناك تتحرك بتقوس شمالى فى اتجاه الجزر الكبيرة وتصل فى بعض الأحيان إلى الولايات المتحدة قبل أن تهدأ قوتها . وقد مر كولمبس بتجربة من غضب إحدى هذه العواصف فى رحلته الثانية ، ومنذ ذلك الوقت تعد هذه العواصف سببا فى الخسارة الكبيرة التى تلحق بالممتلكات والأرواح فى جزر الهند الغربية. ومن الزوابع المدمرة بصفة خاصة تلك التى اجتاحت هافانا فى سنة ١٩٢٦، وتلك التى دمرت مدينة سانتو دومنجو القديمة تدميراً تاماً . وعلى الرغم من أنها تترك المحصولات والبساتين قفراً، وتمحو المبانى الواهية التى تعترض طريقها ، فإن الخدمات المترولوجية فى الجمهوريات الجزرية تمكن المدن من أن تستعد لملاقاتها فى حذر وحرص أكثر من ذى قبل ، وتمكن السفن من التحرك بعيداً عن منطقة الخطر فى الوقت المناسب .

وهكذا تعلم الناس كيف يعيشون مع الأرض كما وجدوها . وفى بعض الأحيان نراهم حصلوا على هذا التعلم بسهولة ويسر ، كما حدث فى وادى تشيلى وفى باراجواى والأحواض الموجودة فى مرتفعات المكسيك ووادى الكوكا فى كولومبيا ، حيث كانت الطبيعة صديقة ورحيمة . وفى بعض الأحيان — كما فى البمبا وفى الأنديز العالية والأمزونيا — حيث كانت الطبيعة على نطاق شاسع لا يستطيع استيعابه عقل إنسان ، وحيث كان الوضع ضخما لا تتحمله أنانيته المتغطرسة ، جاء هذا التعلم صعباً ، وطالت فترة التوفيق بينه وبين البيئة . وبصفة عامة ، كان تعلم البرتغالى الذى اتصف بالمرونة أسهل كثيراً من تعلم الإسبانى شديد الصلابة . وحيث كانت الطبيعة زائدة الشح استطاع الإنسان فى بعض الأحيان أن يغيرها فى حدود طاقته ومهارته كما فعل الأزاتقة والإنكا من قبل .

وفى طور زادت فيه الطاقة كثيراً بالوسائل الهندسية والعلمية الحديثة تحكم الناس فى كثير من الأماكن الممحلة بالرى واستئصال الأمراض . ولكى يجعلوا الحياة أكثر سخاء وإرضاء أو أكثر بهجة ، جلبوا من العالم القديم إلى الجديد المحصولات والحيوانات والفواكه والأزهار التى كانت جزءاً أساسياً من صميم حياتهم فى شبه الجزيرة. فقد كان منظر شجرة برتقال أو تين عند الباب ، أو كرم ناضج فى الشمس ، وجواد عربى مربوط من عقاله على القرب ، والورود فى الفناء ، وقطة بجوار الموقد ، والبصل معلقاً بخيط فى سقف المطبخ ، يجعلهم يشعرون بانتمائهم إلى هذا العالم الجديد . وإذا كان الخلف من بعدهم قد تباينوا فى بعض النواحى ، فإن هذا التغير لا يرجع إلى حوادث أربعة قرون من التاريخ وتسرب عناصر اثنوجرافية إلى دمائهم فحسب ، بل إلى تأثير البيئة الصامت الرهيف كذلك .

هوامش الفصل الأول

(١) يقول الأب أكوستا الذى يعد أول من دون بإسهاب وألمعية ما يختص « بالتاريخ الطبيعى » للعالم الجديد : « عند ما نخرج من أوربا إلى الهند الغربية نعجب حين نرى الأرض لطيفة ويانعة » .

José de Acosta, "The Natural and Moral History of the Indies" Vol. I., p. 163.

(ترجم عن الإسبانية فى جزءين — لندن ، ١٨٨٠) .

(٢) يذكر هذه العبارة صمويل پوتمان ، ص ٣ فى مؤلفه :

Samuel Putman, "Marvelous Journey : A Survey of Four Centuries of Brazilian Writing" — (New York, 1948).

(٣) Cieza de Leon, "Civil Wars in Peru : The War of Las Salinas".

(ترجم عن الإسبانية ، لندن ، ١٩٢٣ ،) ، ص ١٧٩ .

(٤) Carlos Monge, Acclimatization in the Andes : Historical Confirmations of "Climatic Aggression,, in thedevelopment of Andean man".

ودكتور مونج ، وهو من علماء الطب فى بيرو ، قام بأبحاث عميقة فى الآثار البيولوجية للارتفاع فوق الأنديز . وقد لاحظ الملازمان هيرندن وجبن عن ثرو دى باسكو فى أنديز بيرو أن « الحرارة شديدة هنا إلى درجة تمنع الدجاج من أن يفقس بيضه ، واللاما من أن تلد ، وتضطر النساء فى فترة النفاس أن يلجأن إلى منطقة ذات طقس ألطف ، والأمهات أطفالهن » — عن :

Herndon and Gibbon, "Exploration of the Valley of the Amazon" (2 vols., Washington, D. C., 1854), II, 108.

(٥) « الإنسان فى المكسيك ، مع جميع ما قام به من أعمال ، ليس سوى مخلوق ضئيل مختبىء فى خندق يصعب الوصول إليه ، يخدش الأرض بعصى خشبية أو فأس حديدية ، إذ تطغى الكتلة الجبلية على جميع مجهوداته . . . وكموطن بشرى . . . يهيىء هذا الإطار مسرحا فخما لعالم صعب وحياة شاقة . . . ولا يمكن ، اللهم إلا بأقصى مشقة ، أن يحصل المرء على كفاف العيش الذى قد تقدمه له أرضه وهى تبتسم له ولكنها تقاومه » — عن :

Frank Tannenbaum, "Mexico : The Struggle for Peace and Bread" (New York,1950). p. 8.

(٦) « والبمبا شاسعة لدرجة أنه حتى أولئك الذين يعرفون حدود أراضيهم تمام المعرفة يتيهون فى أرجائها » — عن :

Lucio V. Mansilla, "Una Excursion a los Indios Ranqueles", (Buenos Aires), p. 26.

وقد كان العقيد مانسيا ضابطا فى الجيش الأرجنتينى ، ويعد كتابه مرجعا كلاسيكيا فى الفنون الهندية فى أمريكا اللاتينية .

(٧) خوان دى جاراى هو الثانى وذو الأثر الفعال فى تأسيس بوينس أيريس ، أما مارتن فييرو فكان شخصية صورها شعر خوسيه هيرنانديث وأنموذجا للجوشو .

(٨) Robert Bontine Cunninghame Graham, "The Conquest of the River Plate" (London 1924), p. 57 :

« فراغ مستو من الشمس والعشب والرياح » .

و Christopher Isherwood, "The Condor and the Cows : A South - American Travel Diary" (New York, 1949), p. 198.

(٩) عن تاريخ الجوشو انظر

Madaline Wallis Nichols, "The Gaucho, Cattle Hunter, Countryman, Ideal of Romance" (Durham, N. C., 1942).

(١٠) عن اللانوس انظر .

Miguel Triana, "Bulletin of the Pan - American Union".

واقتبس منه :

A. C. Wilgus, ed., "Readings in Latin—American Civilization (New York, 1946), p. 248.

(١١) W. L. Schurz, "The Amazon, Father of Waters", The National Geographic, Magazine April, 1926.

(١٢) « الصحراء ، شىء من الجمال ، وأريزونا ، بهجة إلى الأبد ، إذا قيستا بساحل بيرو » ، عن :

Ephraim George Squier, "Peru: Incidents of Travel and Exploration in the Land of the Incas" (New York, 1877), p. 25.

(١٣) ترجم القصة إلى الانجليزية Samuel Putnam تحت عنوان :

"Rebellion in the Backlands".

ولشرتها مطبعة جامعة شيكاغو سنة ١٩٤٤ .

(١٤) Jorge Juan y Santacilla and Antonio de Ulloa, "A Voyage to South America" (London, 1806), Vol. II, 81.

ترجمت عن الاسبانية فى جزءين .

(١٥) المرجع المذكور Juan and Ulloa, op. cit., II, 138.

انظر أيضا :

Antonio Vazquez de Espinosa, "Compendium and Description of the West Indies", p. 505.

ترجمت عن الإسبانية ، واشنطن D. C. ، ١٩٤٢ .

(١٦) Benjamin Subercaseaux, "A Geographic Extravaganza"

ترجمت عن الإسبانية ، نيويورك ، ١٩٤٣ ، ص ١٦٠ .

انظر أيضا تقريرا عن آثار الزلازل كتبه :

Norman Armour, "Bulletin of the Pan - American Union", March, 1939.





الفصل الثانى

الهندى

عندما شخص كولمبس ببصره تجاه الشاطىء من مرساة جواناهانى فى ذلك الصباح من أكتوبر سنة ١٤٩٢ ، رأى عدداً كبيراً من أناس عراة متناثرين على الساحل(*) . ولما كان الإسبانيون ، مهما تكن آراؤهم الشخصية ، يمقتون العرى بصرامة ، فقد حرص المستكشف على أن يخبر الملكة أنه من الخير « أن يعلمهم كيف يلبسون ثيابا » . ولما اختلط بأهالى الجزيرة فى ذلك اليوم سرعان ما تبلورت آراؤه بخصوصهم . فقد لاحظ أنهم كانوا « ذوى بنية قوية ، وأجسامهم ممشوقة ، ووجوههم جميلة جداً » ، وعيونهم « بديعة للغاية » ، وفيما يتعلق بصفاتهم الخلقية فقد وجدهم كما وجد الأهالى الآخرين فى الأنتيل شعبا « بسيطا » و « وديعا جداً » و « ساذجا وكريما » و « هيابا إلى درجة تثير العجب » وبدت منهم « بوادر المحبة

(*) Arcadian من أركاديا فى اليونان القديمة وكان يسكنها أناس بسطاء همهم الغناء والرقص .

كما لو ودوا أن يقدموا قلوبهم عنواناً » . وبعد حين كتب إلى الحكام أنهم يحبون جيرانهم كما يحبون أنفسهم،وأنهم يمتازون بأعذب الأصوات فى العالم، وثغـــورهم باسمة على الدوام » . وكان هؤلاء المتوحشون البسطاء من التاينو الذين ينتمون إلى شعب الأراواك الواسع الانتشار ، كان كولمبس قد سمع عن أعدائهم وظالميهم التقليديين ، شعب الكاريب الطغاة ، ولكنه لم يلتق بهم فى رحلته الأولى إلى العالم الجديد . وكان كولمبس قد تشبث بالوهم القائل إنهم كانوا يقطنون على حدود الصين ، ولذلك فقد كانوا هنوداً ، ويقطنون جزر الهند العتيدة ، ومن ثم أصبحوا هم وبنو قرابتهم لآلاف كثيرة من كيلومترات من حولهم هنوداً .

وكما أن العالم الجديد قد سمى تكريما لرجل لم يره أبداً على وجه الاحتمال ، فكذلك سمى سكانه شعب لم يقطنه أبدا .

وفى أثناء تقدم كولمبس بين جنات الجزر فى مياه الكاريبى ، اقتنص بعض الوقت ليطيل الشرح فى شتات المطالب التى كانت تستلزمها بعثته ، أوضحها كما يوضح كتيب السائحين قوائم فرص الاستثمار فى المجتمع،مراعاة للغرفة التجارية ، فيبلغ رؤساءه الملكيين المثقلين بالمصاعب أن الهنود « صالحون لأن يحكموا ، وتوكل إليهم الأعمال ، ويفلحوا الأرض ويعملوا كل شىء آخر قد يكون ضرورياً ». ويضيف ملاحظة هامة قائلا : « إنهم جرد من السلاح » ، ولا « علم لهم بالحروب » وأنهم « هيابون إلى درجة أن ألفا منهم لا يستطيعون مواجهة ثلاثة » . ولكى يخفف وقع هذه الحقيقة الجريئة على ايزابلا المتدينة يشير إلى أن الهنود « شعب علينا أن ندخله ونحوله إلى ديننا المقدس » . أما بالنسبة إلى الطريقة المرسومة لخلاص نفوسهم الوثنية فقد كانت لتؤدى « بالمحبة أكثر منها بالقوة » . فهو يضع نفسه فى هذا فى موقف الشخص الثنائى الذى لا يتراجع والذى يرى أن الهندى يمكن أن يخلق منه شخص يكون رقيقاً ومسيحيا فى وقت معا ، مماسبب

الكوارث الكثيرة للساسة الذين كانوا يرسمون الأساليب الإدارية للإمبراطورية الإسبانية .

وفى كل مكان ارتاده الإسبانيون والبرتغاليون كان هناك هنود . وكان هؤلاء فى بعض الأحيان أفراداً فى جماعات لغوية صغيرة لا يعتد بهم ، دفعهم جيران لهم أشد بأساً إلى أرجاء لا يرغب فيها كثيراً ، ولكن غالباً ما كانوا ينتمون إلى واحدة من السلالات التى كانت تتجول ، أو التى قد توطد استقرارها فى أرجاء شاسعة كانت تعدملكا لهم . فموطن التوبى — جورانى كان يشغل ملايين الكيلومترات المربعة مما هو الآن البرازيل وجمهوريات نهر بلات . أما إمبراطورية الإنكا فقد شملت معظم مساحة اكوادور الحالية وبيرو وبوليفيا وامتدت حتى بلغ امتدادها الكلى من الشمال إلى الجنوب أكثر من ٤٨٠٠ كيلو متر[٣]. وفوق هضبة أناهوا فى المكسيك كانت شعوب الناهوا لا تزال فى حركة ، ولم يكن الأزاتقة قد توحدت فتوحاتهم بعد ، وهم شعب يتصف بالعدوان والسيطرة ، أو قد وصل إلى حدود توسعاته الطبيعية حينما أوقف الإسبانيون إتمام مصيرهم[٤]. فإذا ما اتجهنا إلى ما دون غابات البرزخ عاش شعب المايا والقبائل ذوات القربى مثل الكيشى منعزلين ومتناثرين فى الأراضى الممتدة من يوكاتان نحو الجنوب إلى مرتفعات جواتيمالا وهندوراس[٥].

وبصرف النظر عن الموطن الذى نزحوا منه — ومن المحتمل أن يكونوا قد أتو من آسيا عن طريق مضيق بيرنج — فإنهم سكنوا العالم الجديد فترة طويلة جدا قبل أن لقيهم الأوربيون . وقد كشفت فى أكوادور عظام بشرية فى نفس الطبقات التى خلفها الماموث والحصان البدائى . وعاش الهنود فى القارة فترة طويلة كانت كافية لإحداث اختلافات جذرية واضحة فى توعهم الجنسى . فقد كان هناك هنود صغار الأجسام مثل المايا ، وأناس أجسامهم كبيرة كقبائل الأونا فى بتاجونيا — ولو أنهم غير المردة الذين

ذكرهم الإسبانيون فى أول الأمر . وعلى الأنديز العالية تطورت صدورهم فاتخذت شكل البرميل ، مما ساعد الرئتين على استنشاق الأكسيجين من الجو المخلخل ، ووفقوا أجهزتهم الجسمية الأخرى إلى مقتضيات حياتهم فوق تلك الارتفاعات . وبينما كان معظمهم ذوى بشرة تميل إلى الحمرة المشربة بالسمرة كان بعضهم أدكن تماما ، وكان البعض الآخر ذا لون فاتح جداً . ووجد الإسبانيون أفراداً كثيرين ذوى لون يشبه لونهم ، وكان اختيار العناصر الأصلح للتزاوج بين أفراد الأسر الحاكمة فى بيرو والمكسيك قد أنتج طبقة مميزة تضم أفرادا ذوى سحنات أفتح وأطول قامة وأكثر وجاهة من العامة من هذه الأجناس . وعلى الرغم من أنه فى آلاف السنين الطوال التى استوطن فيها الهنود القارة قد فقدوا كل شىء يذكرهم بشخصيتهم وأصلهم الآسيوى — فى ظل أرض الأساطير والقصص الشعبى دائما — فإن الزمن لم يستأصل من أجسامهم بعض شوائب شرقية معينة كالعيون المنحرفة « والبقعة المغولية » التى يقال إنها توجد فى أسفل العمود الفقرى عند الأطفال .

بل إن الاختلاف الثقافى الذى حدث كان أكثر من الاختلاف الجسمى . ففى درجة الحضارة التى توصلوا إليها تراوحوا من الثقافة العتيقة التى اختص بها شعب الياغان البؤساء فى أرخبيل تشيلى إلى مستوى يقارن فى بعض النواحى بحضارة أوروبا فى القرن السادس عشر ، كما كانت الحال بين هنود المكسيك وبيرو ، وازدهرت بعض الحضارات ثم اختفت أو تدهورت أو فقدت شخصيتها بالانضواء فى كتلة شعوب أقوى شكيمة ، وإن كانت أكثر تخلفاً ، كالشعوب التى أقامت مدينة تياهوا ناكو الجبارة بالقرب من بحيرة تيتيكاكا ، وبناة تيوتهواكان المكسيكية القديمة(*) ، والشعب الذى اندثر وخلف وراءه الأعمال الفنية الجميلة المتناثرة فى وادى الأمازون الأدنى .

(*) Toltec حضارة المكسيك القديمة .

وكما حدث للإمبراطوريات المصرية القديمة كانت بعض هذه الشعوب تزدهر وتضمحل على دورات طويلة كما حدث لشعب المايا العظيم الذى انتهت آخر فترة ازدهار له قبل أن يصل الإسبانيون إلى شواطىء يوكاتان [٦] . وقد وقفت الحروب والأوبئة وازدياد نسبة السكان فى مواجهة مقادير الطعام المنتجة محليا وعملت على تقويض هذه الثقافات المزعزعة وكثيرا ما تركتها مبتورة فى دور تطورها.

طرق المعيشة عند الهنود

تباينت عادات وفنون المعيشة كثيرا بتباين مستويات الحضارة أو الثروة الفطرية للبيئة الطبيعية . فمن ناحية الطعام كانت القبائل الأكثر بداءة يأكلون أى شىء يجدونه حولهم ، من نمل وديدان ونباتات الأرض ، والأصداف يلتقطونها من على الشواطىء فى وقت الجزر ، أو بعض النباتات الغذائية كالتى تنمو طبيعيا فى الغابة . ومن هذا المستوى المنخفض تدرج غذاء الهندى إلى أطايب الطعام التى صورها برنال دياش غذاء يوميا لمونتسوما . فقد طور الهنود من الذرة والكاسافا والبطاطس النباتات الغذائية الرئيسية والتى لا تزال تكون الغذاء الأساسى لمعظم سكان أمريكا اللاتينية . ففطيرة الذرة (*) المكسيكية، ووجبة الكاسافا الخشنة السمراء المشهورة فى البرازيل، سبقت مجىء الأوروبيين بوقت طويل . وفى ذلك الوقت ، كما هو الآن ، قد يكون من الصعب ان نبالغ فى أهمية الذرة فى حياة أمريكا قبـــل مجىء كولمبس، ذلك لأنها لم تهىء لهم أساس مجتمع مستقر لملايين الناس فحسب، ولكن عمليات زراعتها كانت ، إلى درجة خارقة ، عنصرا أســـاسيا فى الأساليب الشعبية التى كان يمارسها الهنود [٧] . فقد كانت الذرة أكثر من طعام ، ذلك لأنها كانت دليلا على أسلوب معيشة . وفى جهات محلية

(*) Tortilla : تورتياء

مختلفة كان يحل محل هذه الأطعمة الأساسية البطاطا والفول والقرع العسلى وخضراوات أخرى وفواكه محلية كثيرة والأناناس وحبوب الكينا المغذية التى اشتهرت بها الأنديز ، والشوكولاته . أضف إلى ذلك السمك ولحم الحيوانات كلما أمكن ذلك . ومن حيوانات الصيد التى كان يكثر اقتناصها الجواناكو فى البمبا ، والأيائل (الغزلان) والقردة والديكة الرومية البرية وطيور أخرى مثل الموتوم وأنواع القوارض البضة التى تشتهر بها غابة الأمازون .

وفى مناسبات — وقد تكون هذه المناسبات كثيرة الوقوع — كان كثير منهم يأكلون زملاءهم مستمتعين باستساغة لحومهم . وقد يؤكل قلب الفريسة الضحية كمظهر من مظاهر الطقس الدينى لإله الحرب [٨](*) عند الأزاتقة ، غير أن الدافع إلى أكل لحوم البشر كان هو النهم الذى كان يفوق فى معظم الأحوال دافع الشعيرة الدينية . وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين الإسبانيين قد بالغوا فى حوادث أكل لحوم البشر وما تنطوى عليه من فظائع فإن الدليل على ممارسة هذه العادة واسع الانتشار بحيث لا يمكن تجاهلها . وإن لفظ «كانيبال» (**) الانجليزى نفسه أى آكل لحم البشر مشتق من قبائل الكاريب المتوحشين فى البحر الكاريبى ، والذين كانوا يفرطون فى حبهم له ويبدون استحسانا مسبقا للأجسام الإسبانية[٩] وكانت هذه العادة منتشرة بصفة خاصة بين قبائل البيخاو المتوحشين وقبائل أخرى فى مرتفعات كولومبيا ، ولكنها كانت أيضا ظاهرة عادية فى حياة شعوب الجواراني والتوپى[١٠] . وفى رواية إسبانية أن بعض قبائل كولومبيا كان يلتهم بعضهم بعضا بالمعنى الحرفى للالتهام [١١] .

واستساغ الهنود إثارة المشروبات الروحية كما يفعلون الآن [١٢] .

Huitzilopochtl (*)
Cannibal (**)

فشربوا البولكى التى استخرجوها من نبات الصبار الأمريكى فى المكسيك والسوبيا التى كانوا يستخلصونها من تخمير الذرة ومواد أخرى ، والعصارة القوية التى كانوا يأخذونها من أعناب الخرنوب ، أو الخلاصة التى استخرجوها من معظم النباتات غير السامة التى يمكن تخميرها . وقد أتاحت لهم الخمر فترات من البهجة أو الركود العقلى كفرجة من رتابة الحياة اليومية أو مصاعبها . وفى بعض الأحيان ، وتحت تأثير إثارة الكحول أو المخدرات ، كانوا يقيمون حفلات السكر والعربدة ابتهاجا بطقس قبلى معين أو لمجرد المتعة من إقامتها . وعلى الرغم من جهود القساوسة للحد من عادات شربهم الخمر فقد جاء الوقت الذى حرصوا فيه على مراعاة احتفالات الكنيسة الكاثوليكية بنفس الاستهتار الوثنى ، ولكن بما أضافوه إلى ميسرات السكر الجديدة التى قدمتها لهم معرفة قصب السكر والكروم .

وتراوحت مساكن الهنود، من المنازل الأرضية تحت السماء المكشوفة أو « أكواخ » من سعف النخل ينصبونها بسرعة فى الغابة ، إلى مساكن جماعية موضونة (*) عاشت فيها الجماعة فى جو مختلط ملىء بالدخان والروائح أو إلى دور كبيرة رصينة من الحجر المنحوت تقام للطبقات الحاكمة فى القبائل المتمدنة . وقد استغل الهنود مواد البناء الموجودة حولهم استغلالا جيدا . وعلى الرغم من نقص الأدوات المعدنية لديهم فقد أظهروا عادة مهارة فائقة فى استخدام تلك المواد فى مساكن أدت الغرض من إقامتها إلى درجة مرضية جدا . والقاعدة العامة فى مسكن المزارع المتوسط ، الذى يفلح الأرض لكفايته الذاتية فى جهات امريكا اللاتينية المدارية ، أن يكون مهيأ تهيئة فائقة لمقتضيات البيئة ، ومثاله « بوهيو » الأراواك الذى يقطنه الفلاح الكوبى (**) والذى يشبه سلفه ونموذجه الهندى .

وفى الجهات ذات المناخ الحار سار الهنود عراة ، إذا استثنينا ميدعة

(*) Imalocas: موضونة أى « مجدولة »
(**) Guaijiro : جواخيرو

قطنية صغيرة أو « الجراب » القديم الذى كان يستخدم لستر ما أسماه الإسبانيون « العورات » (*) وفى عهد الاستعمار تنازلوا بعض الشىء أمام احتجاج رجال الكنيسة الكاثوليك عن سيرهم عريانين ، فيما عدا الحالات التى حصلوا فيها على كميات كافية من القطن لقمص فضفاضة (**) كانت تستعملها نساء قبيلة الجوارانى . أما فى الأجواء الأقل حرارة فقد كانت الهندى يلبس أى شىء يمكن الحصول عليه لتغطية جسمه . وفى جنوب تاجونيا وتيرادل فويجو استخدم الفراء فى ملبسه . وفى معظم أرجاء القارة كانت النساء يلبسن جلابيب من أشجار القطن المحلية ، وعلى مرتفعات الأنديز جلابيب من صوف اللاما . أما صوف الفيكونيا (***) الناعم فقد كان يحتفظ به لملابس طبقة الانكا . وعندما أدخل الأوروبيون نبات القطن الحولى والأغنام أمكن الحصول على نوعين من الألياف المفيدة ،واستطاع الهنود بسهولة أن يستخدموها فى صنع ملابسهم . ووصل السكان الهنود الأوائل فى وديان بيرو الساحلية إلى درجة عالية خارقة من المهارة فى النسيج وصنعوا أقمشة على درجة عظيمة من الجمال والمتانة (١٣).

وكان لدى بعض الشعوب القديمة معلومات غزيرة اكتسبوها بالخبرة عن النباتات العلاجية . ولقد كان لفاعلية دليل الصيادلة الأهلى للإنكا وقع كبير فى نفوس الإسبانيين حتى إنهم أنشأوا كرسيا للطب الهندى فى جامعة ليما ، وكتب المبشرون الكاثوليك الرسائل فى هذا الموضوع ، كما أعيد طبع « مجموعة نباتات الأزاتقة » المشهورة من جديد فى عصرنا هذا . وشملت المواد الطبيعية عند الهنود علاجاً لسوء الهضم ولمعالجة أنواع العدوى التى تصيب الجسم من الخارج والأدوية القابضة لمنع النزيف واستخدام عقار الكوكا كمخدر . وبالإضافة إلى الكوكا أمدوا الطب الحديث بعقاقير منها

(*) Verguenzas
(**) Tupoy
(***) Vicuna نوع برى من اللاما .

لحاء الكينا وعرق الذهب وبلسم بيرو وسم السهام ومواد أخرى كثيرة ، وفى مضمار الجراحة هناك دليل على مهارة كبيرة عند الإنكا فى تربنة الجماجم فى حالات أمراض المخ. وبجانب رجال الطب المشعوذين ، الذين لامناص من وجودهم بين قبائل الغابة ، كان هناك فى كثير من الأحيان قدر كبير من المعرفة الطبية السليمة . ومن المحتمل أن الدافع إلى ممارسة السحر فى أثناء ممارستهم مهنتهم كان نفسانيا إلى حد كبير . وعلى الرغم من النقص فى تعليمهم الرسمى فإن خلفهم الحديث المعروف «بالمطبب» (*) كالقابلة الشعبية يؤدى خدمة فائقة دون شك بين السكان المتخلفين والمتناثرين الذين يقطنون فى قلب القارة حيث لا يمكن الحصول على خدمات الأطباء المدربين .

وعلى خلاف الرأى السائد ، لم يكن احتمال طول الأعمار كبيراً . أما الحالات التى طالت فيها الأعمار بدرجة غير عادية فحالات شاذة عن القاعدة العامة (١٤)، وكان معدل وفيات الأطفال مرتفعا دائما كما هو اليوم ، والأطفال الذين نجوا من بلايا الطفولة غالبا ما أظهروا تحملا كبيرا للأخطار العادية التى تصادفها حياة الهنود . ومع ذلك فحتى فى المجتمعات المتقدمة نسبيا والجيدة التنظيم، كمجتمعات بيرو والمكسيك، فإن أخطار العرى والحوادث كانت كثيرة وماثلة على الدوام . أضف إلى ذلك أنه لولا حنان المرأة الهندية وما اتصفت به من قلق لتفاقمت أحداث الهلاك إلى درجة كبيرة . وكثيرا ما عقب المؤرخون الأوائل والمسافرون من بعدهم على جمال منظر الأجسام الذى اتصف به من قابلهم من الهنود الذين بلغوا سن الرشد، وعلى قلة الأشخاص المقعدين أو المشوهين .

وكان الهندى متخلفا فى مضمار التطور الفنى ، فقد كانت تنقصه ملكة الاختراع والمهارة الغريزية فى معالجة المسائل الطبيعية . وقامت الشعوب

(*) Curandero

التى تقدمت على سلم المدنية بأعمال هندسية تدعو إلى الإعجاب بطريقة ميكانيكية لا تتعدى مرحلة البداءة . أما مدنهم — كشكو وكوپان ومتلا وبالنكى وشيشن إتشا — فقد نافست من ناحية الهندسة المعمارية المدن القديمة فى آسيا وشمال افريقية . فقد شكلوا ونقلوا كتلا هائلة الحجم من الحجر لبناء عمائر فخمة ، وأنشأوا فى الأنديز مجموعة من الطرق الممهدة حسدهم عليها الإسبانيون ، ولكنهم فشلوا فى صيانتها (١٥) ، وأقاموا الجسور الواسعة على البحيرة التى أحاطت بعاصمة دولة الأزاتقة والقناطر المعلقة المتينة فوق خوانق نهر أبوريماك العميقة وغيره من الأنهار ، وعليها كان يحرك الفاتحون جيوشهم وأرتال الدواب المثقلة بأحمالهم . وحفروا الأنفاق فى نتوءات الأنديز لتحويل الأنهار عن مجاريها ، ودرجوا سفوح الجبال حتى قممها وحفروا قنوات الرى على نطاق لم يكن معروفا فى ذلك الوقت فى أوروبا (١٦) . وقاموا بكل هذه الأعمال بالقوة البدنية مهما يبلغ تصورهم الجرىء لمشروعاتهم العظيمة . وكما كانت الحال فى مصر القديمة عوضت السهولة التى كانوا يحصلون بها على الأيدى العاملة الكثيرة والمطيعة النقص فى العدد والآلات . ويعد الصبر وفقدان الحاسة الزمنية من العوامل التى أخرت التطور الميكانيكى عندهم ، فلم تكن العجلة ولا العقد فى المبانى معروفين فى العالم الجديد قبل الكشف الكولمبى .

وكانت صناعاتهم المعدنية بدائية . وعلى الرغم من أن مدخرات هائلة من خام الحديد توجد فوق سطح الأرض أو قريبا منه فى جهات كثيرة من أمريكا اللاتينية ، فإن الهنود لم يتعلموا أبدا سر صهره كما فعل الزنوج الإفريقيون . وفى كثير من جهات القارة كان أمضى الأدوات فى القطع تصنع من حجر السبج(*) غير أنه فى حالة وجود الفلز فى حالة نقية كما فى أجزاء من بوليفيا استخدم الهنود أدوات النحاس المسقى .

(*) Obsidian : حجر زجاجى أسود

وإذا كان الهنود لم يشعروا بأنهم مضطرون لاختراع وسائل توفر لهم العمل باستخدامهم أحجاما كبيرة من الحجر والتراب ، فإن بعضهم قد ارتقى إلى درجة مشهودة فى مضمار العلوم البحتة ، وطبقوا كشوفهم فى الفلك والرياضيات فى عملياتهم الهندسية وخدمة الزراعة التى كانوا يمارسونها ، وفى تنظيم دورات أعيادهم الدينية التى كانت تطابق حياتهم الجماعية مطابقة صميمة . وكان تقويم المايا أدق من التقويم المستعمل فى أوروبا فى نفس الفترة من التاريخ . وعندما فكت رموز العلائم التاريخية المنقوشة على الآثار القديمة أمكن تحديد كثير من التواريخ الهامة عن سيرتهم ويدل تخطيط قلعة تيوتهواكان الضخمة فى المكسيك القديمة وغيرها من المبانى فى المكسيك وبيرو على معرفة بالهندسة ربما كانت تسدى فضلا إلى العمائر العظيمة التى أقيمت فى العصور الوسطى . وقد طور المايا طريقة الأرقام المبنية على العدد ٢٠ والتى تضمنت الفكرة المجردة عن الصفر .

السياسة والحرب عند الهنود

تنوعت النظم السياسية القديمة فى العالم الجديد من حالة الفوضى أو انعدام سلطة معترف بها كلية إلى مرتبة عالية من تطور الدولة عند الإنكا . وفى بعض الأحيان كانت الجماعة تنظم فى وقت الحرب فقط ، عندما يختار محارب فذ ليقودها إلى المعركة . وحتى قبائل الأروكانيان فى تشيلى ، الذين كانوا يثيرون الرعب ، لم يتقدموا إلا قليلا دون هذا الدور البدائى فى التنظيم . وفى أحيان أخرى ربما مارس الرجال كبار السن قدرا من السيطرة بوصف كونهم ملاذا وحفاظا على العادات والحكمة التى تزود بها الشعب ، ذلك لأن هذه الجماعات البدائية كانت محافظة أشد المحافظة ، وكثيراً ما كانوا يميلون إلى عدم تشجيع أى شيء مستحدث على أنه إساءة إلى الأرواح التى ترعى

القبيلة فى أوقات الرخاء والشدة. أما الشعوب الأكثر مدنية كالأزاتقة والإنكا فقد أظهروا مهارة مشهودة فى الإدارة العامة. فالسلطة فى دولة الأزاتقة الاتحادية وامبراطورية الإنكا كانت فى أيدى رجال الدين بمسئوليات متدرجة محدودة بوضوح، وتشمل القيام بالأعمال الفنية المتخصصة لحكم الشعوب التى كانتا تحكمانها. ولقد أعجب الإسبانيون بعبقريتهم السياسية واحتفظوا ببعض نظم الحكم التى ساروا عليها فى المراحل الأولى من نظامهم الاستعمارى.

وكانت الحرب أمراً عاديا فى جماعات ماقبل الكشف الكولمبى. فبعض الشعوب مثل الكاريب والشيشيمك(١٧) والأروكاريان(١٨) الذين لا يقهرون كانوا محبين للحرب كقبائل السيو أو الأيروكوا (*). وهناك قبائل أخرى كالتاينو فى الأنتيل والشيمو على ساحل بيرو والشبشا فى هضبة كولومبيا كانوا بغريزتهم محبين للسلام إلى حد كبير، وكان يفتك بهم جيرانهم من محبى العدوان، وربما كانت هذه الاشتباكات القبلية، فى أكثر صورها بداءة، مقصورة على الإغارة على قرى الأعداء للحصول على ضحايا قربانية، أو إمدادات من اللحم. وهذه كانت عادة شائعة عند التوبى وأقربائهم الجوارانى. وفى بعض الأحيان كان الدافع إلى الحرب هو استرقاق أعداء بالذات أو قبائل برمتها، كما كانت الحال بين قبائل البوتوكودو فى البرازيل. أما الأبيبونى، وهى قبيلة تقطن أمريكا الجنوبية، فبعد أن خضعت لسيطرة جيرانها تعلمت كيف تذلل الخيل الوحشية التى أطلقها الإسبانيون فى السهول ثم ردوا الكرة على مضطهديهم. فقد كانت الحرب أمجد اختبار للرجولة(١٩) فى مجتمع يضع الشجاعة الشخصية فوق كل الفضائل الأخرى.

(*) فى أمريكا الشمالية

أما بين الإنكا الأزانقة فقد اتخذت الحرب كثيراً من صفات المغامرات الحربية الأوربية . إذ هدفت حروبهم الإمبريالية إلى دوام إخضاع الشعوب الأخرى واغتصاب أراضيهم . فوجدت طبقة معينة من المحاربين تمتعت بمزايا وحقوق خاصة خصوصا فى المكسيك . وتطورت نظراتهم إلى الاستراتيجية بحيث فاقت كثيرا نوع الإغارة الليلية البدائية ، يتبعها أخذ الأسرى والانسحاب السريع إلى قواعدهم . فإن السرعة التى تعلم بها الأروكانيان خطط الإسبانيين الحربية وطبقوها كانت أحد الأسرار التى جعلتهم يصمدون أمام الفاتحين طويلا وبنجاح . ولكى يخضعوا أعداءهم دون إراقة دماء عمد الإنكا فى بعض الأحيان إلى أساليب الحرب النفسية، كما فعلوا مع شعب الشيمو على طول الساحل(٢٠) فقد تسرب عملاء الإنكا إلى عاصمة الشيمو ، وهناك نشروا بين الناس قصة المنعة التى اتصفت بها جيوشهم وتوكيدات المعاملة اللينة التى سيلاقونها إذا استسلم الشيمو دون مقاومة . ثم استكملت العملية الحربية بامتصاص الشعب المغلوب فى الوحدة المنظمة لإمبراطورية الإنكا الرحيبة التى لا مناص للتخلص منها بالثورة . فإذا امتاز الشعب المغلوب بكونه محاربا كشعب الكانيارى فقد ينضم إلى جيوش الإنكا كقوة محاربة من الانكشارية .

ولم يعرف عالم الهنود أى اقتصاد نقدى ، ولا أفراده أية فكرة عن الربح أو الثروة . فلم يكن هناك معنى عندهم لأن يكدس المرء رأس مال . وبين الشعوب الأكثر بداءة كانت الحياة عبارة عن وليمة أو مجاعة أو سعياً وراء قوت اليوم ، وقوامه مقادير قد لا تكفى من الفواكه أو صيد البحر والبر، أو زراعة بدائية أو غنائم الحرب . ولم يستخدم الذهب أو الفضة حيث وجدا لغرض التعامل ، بل استعملا فقط فى الفنون . ومن المحتمل أن أقرب شىء إلى العملة المتداولة كان استخدام حبوب الكاكاو فى المكسيك كمعيار للقيمة . وفى بعض الأقاليم كان هناك تبادل كثير بين بعض القبائل

وبعضها للسلع التى كانت ضرورية لحياة المجتمع التقليدية كالملح وحجر السبج ورياش الزينة وسم السهام . ووجد الإسبانيون فى عاصمة الأزاتقة أسواقاً عامة أدهشهم فيها تنوع البضائع وعمليات جيدة التنظيم فى البيع والشراء ، وكانت على درجة من النظافة قد تفوق نظافة الأسواق الحالية فى مدينة المكسيك إذا قورنت بها . وكانت جموع الشعوب المتمدنة مزارعين ، وكان اقتصادهم مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأرض ، حتى إنه اتخذ فى أكثر الأوقات صفة دينية أو ثقافية كما كانت الحال فى شعوب الإنكا فى الأنديز . فهنا وجدت دولة وراثية تعنى بالمشكلات الاقتصادية التى كانت تهم المجتمع الأكبر كتخزين مواد الطعام ضد إمكان حدوث المجاعات ، وموازنة المحصولات ضد احتمال حدوث قحط أو كارثة طبيعية أخرى فى مختلف أقاليم الإمبراطورية . وكانت الزراعة متأصلة إلى درجة كبيرة فى واقع البيئة العملى ، وعلى قدر ما كانت طرق فلاحة الأرض عند الهنود تبدو عتيقة للمزارع الذى يستخدم الطرق الآلية اليوم ، فقد أصبحت بصفة عامة عن طريق التجربة والخطأ الطويل ملائمة إلى درجة كبيرة للظروف الطبيعية التى كان الهندى يفلح فيها الأرض . وعلى سبيل المثال نجد المحراث الصلب الحديث قد يصبح كارثة إذا استخدم فى أنواع التربة الرقيقة الموجودة فى يوكاتان حيث غرس فلاح المايا الذرة وزرعها لألف سنة دون أداة أخرى غير عصا حادة الطرف(٢١) .

الثقافات الهندية

كان كل من الأزاتقة والمايا يستخدمون طريقة هيروغليفية من الكتابة ، ونظراً إلى أن مدنية الأزاتقة كانت قد بلغت أوج مجدها عند فتح الإسبانيين لبلادهم فقد كان من الممكن حل الرموز المكسيكية المنحوتة بدون عناء . ومن ناحية أخرى كانت ثقافة المايا فى ذلك الوقت قد وصلت

إلى درجة كبيرة من التدهور جعلت خلفاء أولئك الذين كسوا المعابد والأعمدة بالكتابة المنحوتة غير قادرين على قراءتها . وقليل من المخطوطات أو المجموعات الخطية التى كانت موجودة وقت وصول الإسبانيين هى فقط التى نجت من حمية التدمير التى اتصف بها الفاتحون الذين كانوا لا يرون فيها سوى أنها آثار من الوثنية . ولم يمض طلاب العلم قدما فى أية محاولة لتفسير كتابة المايا إلا فى القرن الحالى ، ولا تزال غالبية الحروف الهجائية غير مترجمة حتى الآن . وتتصل معظم النقوش التى أميط عنها اللثام بالمسائل الفلكية والطقوس ، ولذلك فهى تتسم بصفة التقويم الدينى ، وفيما عدا ذلك ، إذا استثنينا اختيارهم لتواريخ معينة تعد مفتاحا لمعرفة ماضيهم ، فإنهم لم يتركوا إلا ضوءا ضئيلا يوضح لنا التاريخ الغامض لهذا الشعب العجيب . فلم يطور الإنكا طريقة حقيقية للكتابة . ومع ذلك فبحلول اواخر القرن السادس عشر كانت قد تطورت طريقة العقد الحسابية البارعة التى سجلوا بها البيانات الإحصائية والتى أمكن بواسطتها توصيل أنواع أخرى من المعلومات ، ولو أن ذلك كان فى نطاق ضيق . وكانت طريقة العقد هذه عبارة عن خيط معتد فيه تختلف ألوان العقد وتنظيمها وعددها لكى تستخدم فى التعبير عن الحقائق الكمية . وعجب المؤرخون الإسبانيون الأوائل من مقدرة طريقة العقد هذه على تسجيل المدركات الأخرى غير العددية(٢٢). ولم يبتكر أى شعب من شعوب الهنود ألبتة أية طريقة تقترب من أبجدية صوتية .

أما الأعمال الفنية التى أنجزتها شعوب ما قبل الكشف الكولمبى فقد كانت عظيمة جداً ، وبدت من بعضها حاسة متطورة فائقة الجمال مصحوبة بمهارة فنية فى الإنجاز بوسائل مختلفة . وفى بعض الأحيان كانت الرقابة الدينية تؤدى إلى أسلوب تقليدى فى الفن كما هى الحال بين شعوب أخرى مثل

الإغريق البيزنطيين الذين سيطرت على ثقافتهم طبقة من الكهنة . فمثلا بين المايا نجد أن مثل هذه الرموز التى اكتسبت صبغة قانونية ، كالنمر الأمريكى والحية ، موجودة فى مظاهر الفن الذى يمارسونه ، ومن ناحية أخرى نجد كثيراً من الآنية الفخارية التى خلفتها شعوب الساحل البيروفى كالشيمو والنياثكا تبين أن لكل منها طابعها الخاص فى معالجة الأنماط والمناظر الشعبية .

وتشمل أشكال الفن الهندى الأوانى الفخارية والتصوير بالألوان والنحت وقطع الأحجار الثمينة ومصنوعات الذهب والفضة والرسم على الأقمشة والحفر على الخشب وتصفيف الأزهار والرياش(٢٣) . وهناك مجموعات ضخمة من هذه الكنوز محفوظة فى متاحف الآثار فى أمريكا اللاتينية ومتاحف الولايات المتحدة وأوروبا . وإلى عهد قريب كانت جمهوريات أمريكا اللاتينية لا تهتم إلا قليلا بتاريخها الهندى الماضى ، بل كانت تزدرى كنوزها الهندية كمخلفات بربرية . ولكن بازدياد تقدير الصفات الذاتية لهذه المخلفات والدور الذى تقوم به فى تطوير الثقافات القومية نجدها تعتز الآن اعتزازاً كبيراً بهذه المخلفات التى تركها فن ما قبل العصر الأوروبى ، وعادة ما تمنع خروجها من البلاد . وقد تدهور الإنتاج الفنى الهندى كثيراً منذ الفتح ، وبصفة خاصة منذ قدم الهندى مهارته فى زخرفة الكنائس فى المستعمرات . ويرجع هذا بدرجة كبيرة إلى فقدان اعتزازه بقومه والذى كان يلهم جهوده من قبل ، وإلى المحاباة التى كان يبديها سادته الإسبانيون والبرتغاليون نحو الفن الأوروبى ، وفى أيامنا هذه ، إلى منافسة السلع المصنوعة آليا . وقد نتج عن الثورة التى بدأت فى سنة ١٩١١ أن اعترف بفضل الهنود على الثقافة المكسيكية كما أحيا الفنانون والأنثروبولوجيون التعبير عن الحاسة الفنية الكامنة للشعب المكسيكى . وكما أن الإعجاب والاهتمام اللذين أبداهما طلبة العلم الأجانب كانا مسئولين

إلى حد كبير عن التحول فى وجهة نظر سكان أمريكا اللاتينية نحو الثروة الثقافية لخلفية تاريخهم الهندى ، فإن قلة من الأمريكيين - أمثال وليم سبراتلنج فى المكسيك وترومان بيلى فى بيرو - قد بذلوا جهداً كبيراً فى استرجاع النماذج الأصلية والمهارة الفنية القديمة فى تلك البلاد .

وبرعت شعوب المكسيك والمايا فى مضمار النحت ، ولو أن إقليم شافن فى الأنديز كان أيضا مركزاً للبراعة فى نحت الأحجار . وأكثر الأغراض التى كان يمارس فيها الفن هو الزخرفة المعمارية كالمشبكات الهندسية الرقيقة على جدران متلا وزخرفة أوشمال الوافرة والنقوش العربية الطراز فى شان شان ومعبر منحوت فى كوپان والرسوم المحفورة التى تشبه الكتابة المسمارية الأشورية عند معبر الشمس فى تياهواناكو . ومن بين الكنوز المحفورة الأخرى قرص حجرى محفور من جنوب شرقى المكسيك له شكل يشبه الصدفة المنقوشة لعملة قديمة استخدمت فى سيراكوس والنحوت المسرفة فى الإفراط على أعمدة كوبان وكيريجوا وحجر شباك بيدراس نجراس الفخم بصوره الثلاث عشرة .

وفى جهات كثيرة من العالم الجديد صنعت الأجناس الوطنية آنية فخارية لا حصر لتنوعها ، وكثيرا ما اتسمت بالجمال الفائق والبراعة الفنية . فقد صاغ أصحاب الحرف من بينهم ، بأيديهم الحساسة دون استخدام عجلة الفخارى زهريات وقوارير وأدنانا وأشكالا صغيرة محفورة تمدنا بمعلومات كثيرة عن تاريخ حياة شعوبهم وتطلعهم إلى إشباع رغبتهم فى الجمال خارج واقع حياتهم اليومية . وقد بلغ هنود المكسيك والمايا وساحل بيرو الذروة فى فنون صناعة الفخار ممثلة فى الزهريات المزدانة بالصور التى خلفها المايا ، وآنية الفخار والأشكال الصغيرة التى تعكس حياة الشيمو العادية ، والزهريات الواضحة المتعددة الألوان التى خلفها النيانكا فى جنوب

بيرو ، وكثير من أوانى الموشيكا والشيمو الفخارية اصطبغت بالفكاهة فى معالجة وقائع الأمور الشخصية . وبلغ التصوير الهزلى كذلك مستوى رفيعا بين بعض شعوب المكسيك ، كما فى تمثال صغير لرجل ذى أبهة وحيثية من إقليم شياباس صنع كروى الشكل ، والأشكال الصغيرة التى خلفها التاراسكان فى المرتفعات الغربية .

وعلى الرغم من فقدان أحسن ما وصل إليه الإنكا من المصوغات الذهبية عندما صهر الفاتحون فدية أتاهوالبا وسلب كشكو وباشا كاماك ، أو ما اغتصبه « صيادو الكنوز » من المقابر طيلة أربعة قرون بعد ذلك ، فقد نجا من جشع وتخريب العصور المتأخرة القدر الكافى لقستبين منه مهارة التعدين وحاسة الجمال اللتان اتصفت بهما بعض الشعوب الهندية . ولقد أظهرت الكشوف المثيرة فى مقابر مونتى ألبان فى إقليم أواهاكا فى المكسيك فى وقتنا هذا مجموعة أسطورية الجمال من القلائد الذهبية واللوحات المصورة و « الميداليات » تعد نصراً للعمل الفنى الدقيق المعقد . وفى كشكو وجد الإسبانيون قرصا للشمس من الذهب مرصعا بأحجار الزمرد فى واجهة أحد أبنية الإنكا ، وفى ليلة الاحتفال التى تلت نهب عاصمة الإنكا قامر به جندى برمية من لعاب « زهر » النرد فخسره ، وكذا حدث للحدائق الذهبية التى تناثرت فيها دمى الحيوانات والأشجار والتى حدق النظر إليها رسول بشارو متعجبا مذهولا فى قصر من قصور الإنكا فى تمبيس ، كذلك اختفت لوحة كشكو الشمسية فى مصهر صائغ إسبانى . وقد بقيت ، ضمن كنوز أخرى ، سنبلة قمح ذهبية تتدلى منها أوراق هداب « شواشى » من خيوط فضية . ومن بين الصياغ الآخرين للذهب شعب الكمبايا فى كولومبيا وقبائل إقليمى الكوكلى والشيريكى فى البرزخ الذين صنعوا الزخارف البديعة ، كالحشرة الذهبية وبلورة الكوارتز ، والمدلاة الذهبية المطعمة بالزمرد فى صورة حيوان يشبه التنين والمحفوظة فى متحف جامعة فيلادلفيا

وقد مارس الفنانون الهنود العمل فى الذهب والفضة والنحاس وفى البرونز والسبائك الأخرى . وشملت العمليات التى استخدموها طريقة الصب بواسطة «الشمع المفقود» (*) والنقش بالبارز ، والطرق ، وكساء المعادن ، والطلاء بالذهب ، والحفر ، والتطعيم ، والتغليف .

وكان المايا متفوقين على سائر الشعوب الهندية فى فن النقش على الحجر خصوصا فى حفر حجر اليشم . أما الشعوب الأخرى التى برعت فى قطع الجواهر فهم المستك وقبائل أخرى مكسيكية مارسوا فنا جميلا فى البلورات الصخرية ، كما فى تلك القطع التى يمثلها تمثال « الرجل فى الجمجمة » الموجود الآن بمتحف الإنسان فى باريس . وإن نقص الأدوات الصلبة القاطعة يجعل ما قام به الهنود من أعمال فى هذا المجال مثار مزيد من الإعجاب .

وكان النسيج البيروفى مرآة تنعكس عليها الغرائز الفنية التى اتصفت بها تلك الشعوب . وقد حفظ المناخ الجاف الذى يسود فى الأراضى الساحلية لحسن الحظ كثيراً من أنسجة عصر ما قبل الإسبانيين حتى وقتنا هذا ، وهى محفوظة الآن فى متاحف ليما . ونماذج الشيمو هذه ، وغيرها من المنسوجات ، تشمل الأقمشة المزركشة وحلل الحفلات والعبى والأثواب العادية كالبردة التى تتجلى فيها البراعة الفنية والدهشة والجمال الباهر فى التصميم واللون . ومنها أعمال التطريز والنسيج الحريرى المشجر ، وكذلك الأقمشة الرقيقة النسيج التى انفردت بإنتاجها الأنوال الهندية . وعلى الرغم من أنها كانت تعادل صناعة الشعب الساحلى فى بيرو فليس هناك امثلة لنسيج مبكر للشعوب الجبلية فى بيرو أو لشعوب المكسيك وأمريكا الوسطى احتفظ به حتى هذا العصر .

ومن بين الأمثلة الأخرى للفن الهندى الجدران المنقوشة فى الغرفات

(*) Cire perdue

الداخلية لمعابد تيوتهوا كان وشيشن إتشا وموتى ألبان والمخطوطات المزدانة التي كانت تشبه الأصول المخطوطية المضيئة والحفر البديع فى الخشب أو فى أية مادة أخرى صالحة للحفر يمكن الحصول عليها ، يعبرون فيها عن دوافعهم الفنية ، وكانت لدى كثير من الشعوب الهندية موهبة غريزية للتعبير التصويرى . ومن المحتمل أن أول مثل « لتصوير الأخبار » الذى نعرفه اليوم كان الأشكال المعبرة التى رسمها الإسبانيون والتى حملها رسل مونتسوما معهم عند عودتهم بعد أول مقابلة مع الفاتحين .

وكانت الجماعة الهندية بصفة عامة نظاماً بشرياً دائب العمل بهدوء إلى درجة فائقة . وفى علاقات الناس الإنسانية بعضهم ببعض كان هناك كثير من الظرف والتقدير المتبادل . وكان الهنود يخفضون من أصواتهم ويتلفظون بالعبارات الرقيقة عند الحديث . وكان هناك قليل من الشجار أو العنف بين أفراد القبيلة . وهكذا فإن الأدب الفائق الذى يتصف به الشعب المكسيكى هو وراثة من الأدب الهندى على قدر ما هو وراثة من الأدب الإسبانى(٢٤) . وكان سلوك الناس محكوما بقواعد معينة يتعلمونها فى الصغر. وكان النظام القبلى صارما إلى درجة أن القليلين كانوا يجسرون على انتهاك العادات الرئيسية للجماعة . وكان دستور السلوك هذا يهتم بمراعاة الأولوية التقليدية لرجال الدين أو السلطة التى تمارس فى القبيلة ، وبمسئوليتهم الجماعية عن استمرار بقاء الجماعة وحمايتها من الأخطار التى تهددها سواء أكانت حقيقية أم خيالية ، وبالتعامل العادل فى حياة الجماعة اليومية . ونتج عن هذا أن الاحتكاكات التى تقتضيها الحياة تضاءلت إلى أقصى حد ، وارتقت عادة التعاون فى شتى مجالات النشاط التى كانت تمارسها القبيلة إلى درجة عالية . ولما كانوا على ما هم عليه مجردين من حاسة الملكية أو غرائز حب التملك لما للغير ، كان الهنود يشاركون بعضهم بعضا فى صيد البر والبحر بحرية وإيثار . وكان يعاون بعضهم بعضا ، كما يفعلون فى هذه الأيام ،

فى الاعتناء بالمحصولات أو أى عمل لا يستطيعه رجل بمفرده .

وفى المجتمعات الراقية كمجتمعات المايا والإنكا كان هناك قدر كبير من الأبهة والفخفخة المتعلقة بالعبادات وتمجيد الحكام ، وقدر كبير من الاحتفال الشعبي بمناسبة موسم المحصول والمراحل الأخرى فى نظام العمل الذى يسود مجتمعا زراعيا . فلما جاء الفتح اختفت مناسبات تلك المظاهر المؤثرة والاحتفالات ، وقلت تدريجيا مناسبات الترويح والمرح، وتضاءل بازدياد عبء السيطرة الأجنبية على كواهل الشعب . وكانت هذه الفجوة الروحية الشيء الذى أرادت الكنيسة ملء فراغه باحتفالات الدين الجديد ، وبالموسيقى، والمواكب،والتمثيليات الدينية ، والطقوس المهيبة التى تمارسها البلاد المسيحية التى تعتنق الكاثوليكية .

الفتح

كانت وطأة الفتح على الحضارات الهندية بمثابه كارثة . وقد استمرت بعض هذه الحضارات فترة من الوقت لكى تذبل تدريجيا فى جو النبيذ الإسبانى الذى تردت فيه . ولكن ثمارها لم تعد بعد نفس الثمار القديمة . وفى بعض الأحيان نجدها قد تقاصت واندثرت كلية بنقص التنشيط الذى جعلها من قبل ما كانت عليه . وفى أحيان أخرى كانت الثمار التى حملتها الكروم المولدة مرة المذاق ، كما كانت الحال بين شعوب الإنكا . واختفت بعض منها مع الجنس نفسه أمام أول دفع قام به الفاتحون ، كما حدث لحضارة التاينو فى الأنتيل ، والبعض منها ، كالتوبينامبا فى البرازيل ، أنقذت حضارتهم لفترة من الوقت بالهروب إلى الداخل البعيد[٢٥] . وقاوم الأروكانيان بضراوة ونجاح ، لدرجة أنهم استطاعوا الاحتفاظ بنمطهم التقليدى لحياتهم القبلية . غير أن حضارة الأزاتقة القديمة لم تسترجع كيانها أبداً بسبب التحطيم المادى الذى قام به الفاتحون وبسبب الأوبئة المختلفة التى أتى بها

الإسبانيون . ولم يصمد سوى بقايا مهيضة الجناح لا روح فيها من شعب متباه ليعملوا كفلاحين للمنتصرين .

ولم تسعف الشجاعة اليائسة التى طالما أبداها الهنود شيئا أمام تفوق الإسبانيين الحربى ، لأن حجافلهم غير المنظمة كانت تقف أمام جندية اجتاح فرسانها شعوب أوروبا فى القرن السادس عشر . ولم يكن الأمر مجرد مسألة أسلحة متفوقة وقصص تروى عن الفرسان الإسبانيين ، أو حتى الصفات الحربية الفائقة التى تحلى بها مشاتهم ، ولكن يضاف إلى ذلك قادة رؤساء الفرق مثل كورتيس . فقد كانت جميع الظروف فيما عدا الناحية العددية ضد الهنود أما عدم التكافؤ فى الأعداد فلم يعن شيئا لأولئك الأبطال الذين زحفوا إلى تينوشتتلان وكاخاماركا[٢٦]

وقلما قام الهنود بتمرد على نير الحكم الإسبانى بعد الفتح الأول وبعضهم كالشيشيمك قاوموا مدة أطول من جيرانهم ، وبعضهم كالكاريب لم يكن بد من شن حرب دموية ضدهم فترة طويلة حتى خضعوا . وعندما وصل الإسبانيون إلى يوكاتان انسحبت قبائل الاتثا (*) نحو الجنوب إلى جزيرة فى بحيرة بيتين ، ولم يخرجوا منها متدفقين إلا بعد قرنين من الزمان . أما الشعوب التى قاومت الإسبانيين بعناد زائد ، كبعض القبائل المتوحشة فى مرتفعات كولومبيا ، فقد كان من الممكن إفناؤهم جزاء ما اقترفوه من متاعب . أما الشيريجوانو ، أبناء عمومة الجوارانى ، وهم الذين صدوا جيوش الإنكا وأبعدوهم عن الإقليم المنخفض إلى الشرق من إقليم كيناو فى بوليفيا ، فقد صدوا حملة يقودها نائب الملك العظيم توليدو وأرغموها على التقهقر نحو الهضبة ، ولكن لتخضعهم فيما بعد إرساليات الجزويت التبشيرية . وقاومت شعوب الأنديز مرتين فى ثورتين يائستين ضد القوة

(*) من شعب المايا

الإسبانية : المرة الأولى فى القرن السادس عشر فى وقت لم تكن حدة الفتح قد هدأت بعد ، ثم مرة أخرى فى القرن الثامن عشرعندما بدأ أفول إمبراطورية إسبانيا الاستعمارية . وفى كلتا الحالتين كان القائد سليل أسرة الإنكا — فى الأولى مانكوكاباك ، وفى الثانية توباك أمارو(٢٧). أما الهنود المتوحشون فى بمبا أرجنتينا فلم يتخلص منهم إلا بعد منتصف القرن الماضى. وبعد فترة طويلة من الإغارات والقتل والقتال لم يعط فيها فريق للآخر أية هوادة ، دفع بقايا هذا الشعب المقاوم إلى جنوب ريو نجرو بعد حملة قادها جنرال روكا ، وتركوا هناك للزمن والمجاعة تكفلان إفناءهم . ومن ذلك الوقت فقط أصبح النهوض بموارد البمبا فى سلام ممكنا .

والتفكير فى مصير إمكانيات هذه الحضارات البتراء ، إذا لم تكن قد استؤصلت بقسوة إبان تطورها ، موضوع عقيم ولكنه محير فلم يكن بها عالم الإنكا إلا مجرد ذكرى عندما جاء الإسبانيون . وإنه لمن المسائل المشكلة القول بأن عظمته كان يمكن أن تسترجع مجدها بعد طول الركود الذى خيم عليه بعد الإمبراطورية القـــديمة . أما بالنسبة إلى المايا فالشىء الكثير كان متوقفا على ما إذا كانوا قد أمكنهم حل مشكلة موارد الطعام التى يحتمل أن يكون نقصانها قد أدى إلى انهيار حضارتهم القائمة على الذرة . أما الأزاتقة فلم يكن عندهم متسع من الوقت لتجميع فتوحاتهم وتوحيدها . فقد كان الأمر كما لو أن كابوس ماريوس قد فشل فى إحلال الهزيمة بقبائل السمبرى قبل أن يتمكن الرومان من الخروج من شبه الجزيرة ليبدأوا فتوحاتهم الإمبراطورية . فشعب التاپوتك وغيره من الشعوب التى كانت تعيش على حافة ممتلكات الدولة الاتحادية فى اتجاهات مختلفة بقوا حيث هم لتتناقص أعدادهم قبل الوصول إلى الحدود الطبيعية فى عمليات التوسع . وفى أراضى دولة الأزاتقة كانت هناك بقاع مقلقة كدولة تلاشكالا الصغيرة المشاكسة. ومادامت دولة الأزاتقة تقوم إلى درجة زائدة على الخوف ،

فإن مطالب إله الحرب الدموية عندهم لم تكن لتوفق بين الشعوب الخاضعة لهم أو رعاياهم من الشعوب وتسمح بسلام دائم كانوا فى حاجة إليه . وعلى الرغم من تفوقهم من الناحية السياسية فربما لم يكن من المفروض أن فتح الأزاتقة للمكسيك ليس هو آخر موجات الفتوح التى شاهدتها تلك البلاد فى العصور الوسطى الأوروبية والسؤال الذى يدعو إلى مزيد من التحدى هو ماذا كان مصير إمبراطورية الإنكا إذا لم يأت الإسبانيون[٢٨] ؟ فقد كانت ، كدولة الأزاتقة ، لا تزال حديثة إذا أخذنا فى الاعتبار أعمار الأمم . فإلى موت هواينا كاپاك وتقسيم الإمبراطورية المشئوم كانت أمورها تساس بتعقل غير عادى ، وذكراها ذات احترام فائق لدى المتأملين من الإسبانيين[٢٩] . وعلى الرغم من أنها كانت تقيم فضائل الأمان أكثر من تقدمها الخاص فقد سارت شوطا بعيداً نحو حضارة نبيلة حقاً ، إذ كانت تتضمن تطلعاً كبيراً لإمكانات النمو ، ولا يستطيع المرء إلا أن يحس أنها ربما كانت على أبواب عهد ازدهار باهر . فاندثارها كان أكبر كارثة سببها الفتح الإسبانى . أما فيما يتعلق بالقبائل التى تقطن غابات العالم الجديد فقد كانت ثقافاتهم راكدة لفترة طويلة ، فعزلتهم وعدم اتصالهم بالحضارات العظمى ونمط حياتهم الاشتراكية ، مصبوبا فى قالب جامد من العادات ، جعلت التطلع إلى مستقبلهم مجرد امتداد لا نهاية له لماضيهم البدائى .

ومن جميع النواحى العملية تم الفتح قبل نهاية القرن السادس عشر بوقت طويل ، وسرعان ما اعترفت معظم الشعوب الوطنية بعدم جدوى الاستمرار فى المقاومة المسلحة . عندما اقتيد زعماؤهم أو أغروا للذهاب إلى معسكر الفاتحين بالزواج أو الإنعام بالألقاب ، وعندما ضربت الأماكن الحرام التى كانوا يتعبدون فيها فى غضبة المسيحية المدمرة ، أصبحوا شعبا مهيض الجناح ، ثم غمروا فى بحر من الجمود والحزن حتى استسلموا لمصيرهم كشعب خاضع . وتخلصت أعداد كبيرة من حياتهم مفضلين الانتحار على

المعيشة فى ظل سيطرة غريبة . وقلت أعداد الهنود تدريجياواتخذوا موقف المقاومة السلبية التى أدت دورها فى حفظ آثار هامة من ثقافتهم وشخصية جنسهم بالذات إلى وقتناهذا،خصوصا فوق مرتفعات الأنديز فى بيرو .

وفى تلك الأثناء اضمحل السكان الأصليون جوهريا فى مساحات شاسعة[٣٠]. فقد قتلت أعداد كبيرة فى المذبحة التى جرت فىعاصمة الأزاتقة وفى حصار الهنود فى كشكو ، لأن خسائر الأهالى فى المواقع الحربية كانت دائماً متفاوتة . وقد استأصل اضطهاد المستعمرين الأوائل أمثال رولدان فعلا قبائل التاينو فى الأنتيل . وفى كل مكان حاول فيه الهنود استمرار المقاومة كما فعل الكاريب فى فنزويلا والقبائل المتوحشة فى وادى نهر كوكا فى كولومبيا لم يقابلهم الإسبانيون بأىقدر منالرحمة،ولما رفضبعضالقبائل الخضوع لهم أبادوهم فلم يبقوا منهم أحداً . ومع ذلك فليس هناك شك فى أن من ماتوا منهم بالجدرى وأمراض أخرى جاء بها الأوروبيون كانوا أكثر ممن ماتوا فى المواقع الحربية ، كما عملت المجاعة عملها فى الأقاليم التى اضطرب فيها الاقتصاد الزراعى للهنود من جراء ظلم الفاتحين . وفى بعض الأحيان تعمد الهنود رفض فلاحة الأرض حتى لا يستطيع الإسبانيون حصادها .

الاسبانى والهندى

أقام الإسبانيون فى وقت مبكر نمطا من استغلال الأراضى والمناجم مع الهنود كقوة عاملة اضطرارية . وكان هناك تنوع فى الطرق التنظيمية لاستخدام الأيدى العاملة الهنــــدية . ففى بادىء الأمر ، وبترتيب بسيط يعرف « بالتوزيع الجديد » (*) يخصص عـدد من الأهالى ليعملوا لإسبانى بالذات ، أو قد يحيد المستعمر عن رسميات أخرى فيجمع من الهنود فى

(*) Repartimiento

الأماكن المجاورة من هو فى حاجة إليهم لخدمته . وفى أسوأ الظروف - وكان هذا أمراً مألوفا بدرجة كافية - تمخض النظام عن رق مشروع . فأخذت أعداد جمة من الهنود كرقيق على طول الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية ونقلوا إلى سانتو دومنجو لسد العجز فى الأيدى العاملة المنهوكة فى هسبانيولا . وفى جنوب البرازيل كانت إغارات المولدين من البيض والهنود (*) لجلب الرقيق موردا عاديا للحصول على الهنود لفترة طويلة . وكانت المظالم الجائرة المترتبة على هذا النوع المفكك من الإجبار هو الذى أدى إلى ابتداع «وثيقة الأرض» (**) التى استمرت خطة لتنظيم العمال الزراعيين طوال عصر الاستعمار . واتخذت الوثيقة شكل منحة معلومة لقطعة من الأرض ومعها حق استخدام العمال الهنود الذين يقطنونها . وتلبية لالتماس من الكنيسة ، صدرت فى وقت مبكر مجموعة منمقة من القوانين لتأمين حقوق الأهالى . ومنحت الوثيقة للمستلم الأصلى مدة حياته فقط ، ولكن بعد ثورة جنثالو بثارو ، احتجاجا على ما يسمى القوانين الجديدة لحماية الهنود ، أخذ مفعولها يزداد إلى أن جاء الوقت وأصبح المنحدرون من الممنوح الأصلى يملكون الأرض ملكية فعلية . أما «قانون العمل» (***) الخاص بالهنود فطريقة ابتكرت خصيصا لتقدم موردا منتظما من العمال لاستغلال المناجم . وكانت نوعا من السخرة فيه تستدعى الجماعات من مركز معين للتعدين ، مثل بوتوسى لتسهم بتقديم الهنود للعمل فى المناجم . وحدد القانون المسافة التى يقطعونها من منازلهم إلى مكان العمل وفترة العقد وأحوال أخرى متعلقة بالخدمة .

وفى عصر نائب الملك المشهور فرانسسكو دى توليدو (١٥٦٩ – ٨١)،

(*) Mamelucos
(**) Encomienda
(***) Mita

الذى وضع النظام النهائى للحكم فى الممتلكات الإســـبانية ، تحدد مركز الهندى فى حياة بيرو الاجتماعية والاقتصادية طيلة الحكم الإسبانى . وكان توليد و إداريا كفئاً ، لكنه كان فظا ، فرق الجماعات الهندية القديمة لكى يركز سكانها فى أماكن حيث يمكن حكمهم بطريقة فعالة . وكان جهاز الإدارة فى أيدى ممثلى الملك (*) فى المدن ، وكانوا مسئولين مباشرة أمام نائب الملك .

وفى قانون المستعمرات الإسبانى « قوانين الهند الغربية » (**) يتبلور التشريع المحكم الرحيم الذى صيغ ليحمى الهندى من ظلم سادته الإسبانيين، إذ لم تبد دولة استعمارية أخرى قلقا نحو صالح رعاياها من الشعوب كما هو مدون فى هذا القانون المشهور. وكانت بعض القوانين عامة عند تطبيقها ، وبعضها كان يهدف إلى مساوىء معينة وضح أن الهنود قد تعرضوا لها ، فمثلا لم يكن الهنود ليجبروا على الحفر للعثور على كنوز فى مقابر أسلافهم ، أو على قص شعورهم قصيرة عند التعميد ، أو على حمل إسبانى فى شبكة نوم أو محفة إلا فى حالة « المرض الواضح » ، أو على نقل الجليد من الجبال إلى ليما . وأمرت المحاكم الشرعية والمدنية « ليحابوا ويساعدوا » الهنود فى القضاء . وهناك قانون ينص على أن « الجرائم التى ترتكب ضد الهنود تعاقب بقسوة أشد من الجرائم التى ترتكب ضد الإسبانيين »[٣١] . وهناك قانون آخر تكرر ست مرات بين ١٥٢٦ وسنة ١٥٤٨ ينص على أن « الهنود يجب أن يكونوا أحراراً ولا يكونوا عرضة للعبودية » .

وكان تنظيم العمل الذى يؤديه الأهالى الشغل الشاغل للحكومة الإسبانية . وفى هذه الناحية تتنازع الرأى الرسمى وجهتا نظر، إحداهما

(*) Corregidor

(**) Laws of the Indies وهى متضمنة فى « قانون المستعمرات الإسبانى » الشهير

الرغبة فى حماية الهندى من الاستغلال والقسوة الواضحة ، ومن جهة أخرى كان الإسبانيون يدركون أنه إذا لم يعمل لهم الهنود فإن الامبراطورية الإسبانية كلها تصبح عالة ، وقد يكون من المستحسن أن ترد ثانية لأصحابها الأصليين . وحتى الموالون للهنود من الإسبانيين فى محاولتهم التوفيق بين هذين النقيضين أزعجهم إحجام الهندى الظاهرى عن إرهاق نفسه نظير ميزة مالية — أو ما أطلق عليه أحد القوانين : « إحجام الهندى عن العمل » . ونص قانون آخر على أن « الهنود عليهم أن يعملوا فى مهنهم وفى الحقول وحرف أخرى، وعليهم أن يرتدوا الملابس» . ويمضى القانون فينص على أنه « عند الضرورة عليهم أن يجبروا على طرح الكسل مادام العمل ذا أهمية فى حياتهم وصحتهم والحفاظ عليهم» . ونص قانون آخر على «وجوب معاملة الهنود بالحسنى لدرجة تكون ذات طابع يجعلهم لا يتوقفون عن تأدية الخدمات والعمل» . وبعبارة أخرى وجب أن يعامل الهنود معاملة طيبة ولكن لا يدللون . ويضيف نفس القانون شرحا مؤداه أن « الهنود يلقون خسائر وأضراراً وظلما فى أشخاصهم وممتلكاتهم من بعض الإسبانيين وممثلى الملك والرهبان والقساوسة الذين يؤدى لهم الهنود كل أنواع العمل ، ولكن نظراً إلى أنهم أشخاص تعساء فإنهم لا يقاومون أو يدافعون عن أنفسهم ، ويقومون بأداء كل ما يطلب منهم من أعمال » واتخذت الاحتياطات الكثيرة لحماية كل أنواع العمل التى ينتظر من الهنود القيام بها ، سواء أكانت فى المناجم أم فى الحقول أم الخدمة الشخصية للإسبانيين . ولم يكن للهنود أن يعملوا فى مصانع النسيج التى كانت بمثابة « دكاكين الحلوى» فى ذلك الوقت ، أو فى حقول القصب التى كانت تعد من أعمال الزنوج . وبالنسبة إلى العمال الذين يأتون للعمل ويقطعون مسافة تصل إلى عشرة فراسخ(*) فإنهم يتناولون أجورهم أولا فأولا وكانت عادة تحميل الهنود

(*) ثلاثين ميلا .

مالا يطيقون من الأثقال يندد بهـا « كعائق لهدايتهم وتـكاثرهم وصحتهم» وصدر الأمر بمنعها . غير أن الهنـــدى كان من دواب الحمـل قبل مجىء الإسبانيين ، ولا يزال كـذلك فى بعض جهات أمريكا اللاتينية ولو أنه الآن سيد نفسه .

وهذه القوانين الخيرية الإنسانية كانت من إيحاء الـكنيسة خصوصا المذهب الدومنيكى الذى اتخذ فى وقت مبكر صفة حامى الهنود . وجاهد أتباع المذهب الفرنسسكانى والجمعيات التبشيرية الأخرى بشجاعة فى صف الهنود ، كما فعل الجزويت فى وقت لاحق . فلم يقتصروا على إنقاذ طبيعة الهندى الروحية من الحضيض الحقير الذى تردى فيه إثر الفتح ، بل أفسحوا له أبواب الراحة التى تهيئها له المسيحية إذا اعتنقها . ففى الفترة المبـكرة من حكومة نائب الملك المكسيكية بنوا مدارس عظيمة يتعـــلم فيها ، وحموه بشجاعة من قسوة الحـكام أمثال نونيودى جوشمان ، كما فعل الأسقف ثومراجا ، وضد الشراهة والقسوة من جميع الطبقات المدنية الإسبانية . وكانوا يسيرون على انفراد بين القبائل الهمجية التى لم تـكن قد أخضعت ، وتعلموا لغات الهنود ، وكتبوا الرسائل العلمية عن تاريخهم وعاداتهم كما فعل الأب موتولينيا الفرنسسكانى والأب توركيمادا والأب ساهاجون . أما فاسكودى كيروجا ، أسقف مشوا كان ، ومن أتباع سير توماس مور ، فقد حاول تطبيق فلسفته الـكمالية فى خلق دولة هندية مثالية فى الأراضى الخاضعة لأسقفيته فى غربى المكسيك . أما الراهب الدومنيكانى المشهور بارتولومى دى لاس كاساس فقد أعطى فرصة لتطبيق آرائه الدينية والاجتماعية فى ولاية فيراپاث فى جواتيمالا حيث كان الهنود يحكمون دون وساطة السلطة المدنية وقد كان لاس كاساس هو صاحب الـكـتاب المثير الذى ترجم إلى معظم لغات غرب أوروبا والذى عليه تقع مسئولية « القصة السوداء » التى تحكى عن القسوة التى عامل بها الإسبانيون الهنود ، والتى لطخت اسم إسبانيا

إلى الآن بما حوته من مبالغات وفى المحكمة الملكية فى الدومنيكان كان الهنود يجدون وكلاء يدافعون عن قضاياهم أمام الهيئات صاحبة الشأن . حقا لقد كان النصف الأول من القرن السادس عشر فترة مجيـــدة فى تاريخ الكنيسة .

أما بالنسبة إلى الجزويت ، الذين بدأوا نشاطهم فى ميدان التبشير فى وقت متأخر عن المذاهب القديمة ، فقد بلغت طريقة التبشير عندهم فى قيادة الهنود اجتماعيا ودينيا درجة الكمال . فقد أقامت الأخوة الدولية العظيمة سلسلة من الإرساليات كونت حلقاتها امبراطورية دينية فى قلب أمريكا الجنوبية . وتتابعت بعثات الجمعية ممتدة بعرض القارة من إقليم ما يناس الواقع فى حوض الأمزون الأعلى ، الذى كان مسرحا لنشاط الأب صمويل فرتش فسهول بنى حول ترنداد وإقليم الشيكيتو النائى شرق بوليفيا إلى باراجواى وأراضى المسيونى والشروا فى أرجنتينا على نهر بلات . ووصلت مجموعة مثلها من البعثات إلى الشمال الشرقى نحو المنطقة الساحلية للبرازيل . وعلى الرغم من أن الأسلوب الذى اتبع كان متشابها إلى حد كبير ، سواء أكان فى كاليفورنيا السفلى أم على ضفاف نهر أوروجواى ، فإن أحسن ما عرف عن هذه الجمعيات ما كان يطلق عليه اسم « التصفيات » الباراجوية ، فيجمع سكان منطقة معينة فى مقر البعثة حيث يصبحون رعايا نظام تثقيف خاص من نظم الآباء اليسوعيين . وهناك كان أفراد هذه التجمعات الأبوية الدينية يعوضون عما فقدوه فى حرية الحركة والتصرف التى كانوا يمارسونها من قبل بما كسبوه من الأمان وزخارف المعيشة الجديدة . وفى ظل توجيه القسيسين اللذين كانا يديران البعثة أقاموا الكنائس الكبيرة التى كانت مراكز لحياة المجتمع . وبالإضافة إلى التعاليم الدينية العادية تعلم الهنود مبادىء الموسيقى والرسم وحرفا يدوية معينة أظهروا فى جميعها استعدادا كبيرا حماسيا . وكان الرجال يقتطعون كثيرا

من وقتهم فى الحقل أو فى العناية بقطعان الحيوانات التى تمتلكها البعثة ، ولما كان الجزويت هم أحسن الزراع فى أمريكا اللاتينيـة فإن اهتمام الهنود كان يضمن لهم مورداً فياضاً من الطعام . وكان الفائض عن حاجات السـكان الذين تضـــمهم البعثة ، أيا كان ، يباع فى أسونثيون أوبوينس أيريس ، ويشترى بالثمن الأدوات التى لا يمـكن إنتاجها محليا وفى هذه الواحات الأركادية كان الهنود معزولين تماما عن المؤثرات الفاسدة التى يتصف بها الإسبانيون المدنيون ومغريات العالم الخارجى بوجه عام . ومع ذلك فعندما طردت جماعة يسوع من المستعمرات الإسبانية والبرتغالية فى سنة ١٧٦٧ ، وحولت البعثات إلى بعثات علمانية ، فقد الهنود قدرتهم على الإبداع وعجزوا عن مواءمة أنفسهم لأساليب حياه أسلافهم أو لأساليب حياة الإسبانيين الدنيويين الذين كانوا يعيشون فى البلاد والمدن . وعطل كثير مما قام به الجزويت من عمل فى سنوات الفوضى والتفـكك هذه التى تلت خروج الآباء . ولـكن دماثة مجتمع البعثات جعل من أفراد شعب الجواراني فيما بعد رعايا طبيعين لحكام جمهورية باراجواى المطلقين . ولذلك فقد بترت التجربة اليسوعية لتحويل شعب قبل أن يصبح من الممكن ملاحظة فرصها النهائية للنجاح . أما مجموعة البعثات الفرنسسكانية التى تركزت فى كاليفورنيا العليا فى أواخر القرن الثامن عشر فلم تضف شيئا إلى النمط الأصلى للطريقة التبشيرية التى طورها أسلافهم المنفيون فى الميدان .

وأكبر المساوىء التى عومل بها الهنود كانت تتصل بطريقة العمل الإجبارى « قانون العمل » . وعلى الرغم من أن طريقة مشابهة كانت سائدة فى إمبراطورية الإنـكا ، وخصوصا فى إنشاءات المرافق العامة ، فإن الرؤساء المنوط بهم العمل كانوا من نفس الجنس ، وكانت المصاعب الملازمة لهذا النوع من العمل يخفف من وطأتها اهتمام الإنـكا الإنسانى بصالح رعاياهم ، أما تحت إدارة الإسبانيين فإن السيطرة التى تلازم العمل فى المناجم تؤدى

بطبيعة الحال إلى مساوىء كبيرة، نظرا إلى الدافع الأساسى فى الصناعة ، وإلى الظروف الصعبة التى كانت لا تنفصل عن العمل فى المناجم . ولما كان الهنود يتجمعون غالبا من مسافة بعيدة، فإنهم كانوا يستبقون فى المناجم بعد فترة العمل المقررة بالقانون ، ويطلق سراحهم وصحتهم مضعضعة ، وبعد أن يكون فصل الزراعة قد انقضى لغرس محصولاتهم فى الحقول التى جلبوا منها . وكانوا يجبرون على حمل أثقال كبيرة من الخام من قاع المنجم إلى مراق شديد الانحدار ويعملون طول اليوم فى دهاليز ضيقة فاسدة الهواء غالبا ما كانت تنسد عليهم للنقص فى عملية صلب الطبقات جيدا بالأخشاب . وفى بعض الأحيان كان يغلق عليهم فى داخل المناجم طيلة الأسبوع ويسمح لهم فقط بالخروج يوم الأحد لحضور القداس فى كنيسة قريبة[٣٢]. وفى مناجم الزئبق فى هوانكا فليكا فى بيرو بنيت كنيسة فى داخل المنجم ، فلم يكن من الضرورى التوجه بعيداً لترضية الروح فى الصلاة المقدسة . وعادة ما كانت ظروف العمل فى مصانع النسيج على نفس الدرجة من السوء ، فقد كان من المألوف فى هذه الصناعة أن يحتجز العمال دون أجل محدود ، وكانت زوجاتهم يأتين لهم الطعام كل يوم إلى مقر احتجازهم .

وتخلصت طريقة « الوثيقة » من أسوأ الأخطاء التى كانت ملازمة « لقانون العمل » . فكان الهندى يعمل على الأرض وتناط به الواجبات التى كانت مألوفة لديه دائما . وفى المساء كان يمكنه العودة إلى أسرته ، وفى ساعات فراغه كان يمكنه الاجتماع بزملائه لممارسة العلاقات العادية . وفيما دون ذلك كان مصيره متوقفا إلى حد كبير على سلوك المالك « صاحب الوثيقة »(*) الذى يمتلكه ، وعلى ما إذا كان هذا الشخص يعيش على

(*) encomendero

الأرض الموثقة أو يترك إدارتها إلى الخولى(*) . فقد ظهرت مساوىء الملكية التى يغيب عنها صاحبها مبكرة فى العالم الجديد حيث تزايد استسلام ملاك الأراضى إلى مباهج الحياة فى المدن ، لأن الحياة المدنية أصبحت أكثر جاذبية . وفى مثل هذه الأحوال كان الهنود أكثر تعرضاً لأن يعانوا أشد العناء من قسوة المراقبين المولدين الذين كثيراً جداً ما كانوا يصبون جام فشلهم الاجتماعى على رؤوس بنى جنسهم من أمهاتهم . وكان صاحب الأرض الإسبانى بصفة عامة سيدا يتصف بالإنسانية والإنصاف [٣٣] .

وفى أسوأ الظروف يمكن القول إن قلقه على مصالح أجرائه الهنود ، كموجودات عظيمة لها قيمتها ، كان إجراء تمليه المصلحة الأنانية . وكان للطريقة التى يمثلها إمكانات عظيمة للخير ، ربما كانت عاملا على استبقاء بعض القيم الرئيسية لمدينة الإنكا التى كان قد كتب عليها الضياع إلى غير رجعة بعد عصر توليدو ، أو على الأقل ، ربما كانت تنزع إلى الاحتفاظ بكثير من الأسس المتينة للمجتمع الهندى فى وجه العوامل التى مزقته فى عصر النظام الاستعمارى . غير أن حكومة الامبراطورية الإسبانية لم تسمح أبداً لنظام الوثيقة أن ينمى إمكاناته الطبيعية كقوة محافظة فى الحياة فى ظل الاستعمار حتى أصبح الوقت متأخراً إلى درجة زائدة . ولم يكن يسمح لمالك الأرض أن يشعر بالأمان بدرجة كافية تجعله ينفرد بشخصيته فى أراضيه وبين أتباعه ، كما كان يرتضى أن يفعل عدد كبير من طبقته دون شك . ولم يكن أبداً واثقاً من أن اليوم قد يجىء دون أن يلغى الملك حقه فى امتلاك أراضيه خوفا من أن سـادة الأراضى قد يكون لهم فى المستعمرات مصلحة مقررة قوية ومدبرة ، أو نظراً إلى اعتبارات إنسانية غير موجهة توجيها سليما .

(*) major — domo

وكثير من مساوىء النظام الاستعمارى الإسبانى ، كما قاسى منها الهنود ، كانت نتيجة جشع ممثلى الملك الذين كانوا نوابا للتاج فى المدن . فبالإضافة إلى سلطاتهم البوليسية التى جعلتهم مسئولين عن حفظ النظام فى هذه المراكز التى كان يكثر فيها الشغب ، كان عليهم واجب تنفيذ القوانين الخاصة التى كانت تطبق على السكان الوطنيين . وهذا الامتياز كان سببا فى استصدار لائحة قانون العمل والعمال الهنود عامة . وتواطؤا مع أصحاب المناجم وأفراد آخرين من الأقلية الحاكمة وكثيراً ما كان ممثل الملك يتجاوز عن انتهاكات قانون الهنود لمصلحته المالية الخاصة . وتحت ستار معين أو آخر قد يفرض الأموال على أولئك الذين قدم لهم العمال الهنود أو على الهنود أنفسهم . وفى بعض الأحيان كان يقوم بعملية تجارية لنفسه ويجبر الهنود على شراء سلع من عنده ليسوا فى حاجة إليها ، أو سلع لا يستطيعون دفع أثمانها من كفاف أجورهم . أما القضاة الهنود(*) ، وقد تخلصوا من الخضوع لنظام حكامهم السابقين وأبدوا حماسة للتزلف للموظفين الملكيين ، فكثيراً ما اقترفوا مظالم صغيرة نحو بنى جلدتهم .

وعلى العكس ، فإن « القصة السوداء » ، وهى السجل الذى يحكى عن المعاملة التى كان يلقاها الهنود على أيدى الإسبانيين والبرتغاليين ، ترجح كفة هؤلاء إذا قورنت بمعاملة الإنجليز والأمريكيين ، فمن ناحية الكم كانت المشكلة مختلفة ، لأن عدد السكان الهنود فيما هو الآن أمريكا اللاتينية كان أكبر بكثير منه فى أراضى الولايات المتحدة الحالية ، ولذلك كان الهندى يمثل للفاتحين والمستعمرين الإسبانيين مشكلة أصعب بكثير نسبيا من المشكلة التى كان يمثلها للمستعمرين الإنجليز فى أمريكا الشمالية . فعندما كان يموت الهنود من سوء المعاملة التى كانوا يلقونها من الإسبانيين

(*) Curacas

كان العدد أكبر ، ولذلك فمن الناحية الإحصائية ، كان سجل قسوة الإسبانيين أكثر سواداً ، كما هو الشأن فى موت ألف من الناس ، فإنه يحتل عناوين أكبر ويحتل مكانا أهم فى الصحيفة من موت مائة . وفضلا عن ذلك لم يوجد لاس كاساس انجليزى يكتب بخياله تقريراً عن « تدمير الهنود » فى ولايات أمريكا الثلاث عشرة .

وكان الهنود الذين لقيهم الإنجليز « متبربرين » ، وهذه هى الصفة التى ألصقها الإسبانيون بالهنود الذين كانوا على مستوى مشابه من الثقافة . فعلى خلاف السكان الوطنيين المتمدنين فى المكسيك وبيرو لم يثيروا اهتمام الإنجليز وهم ماضون فى خططهم الاستعمارية وتنمية الأراضى الواقعة بين شاطىء الأطلنطى ومرتفعات الأبلاش . فقد كان المستعمر الشمالى لا يتطلع إلى أية مساعدة من الهندى لأنه كان على استعداد للعمل بيديه لا بيد غيره . أما المستعمرون الأكثر أرستقراطية إلى الجنوب من نهر بوتوماك فقد وجدوا فى العبد الزنجى القوة العاملة التى كانوا يحتاجون إليها فى مزارعهم . وكما حدث بالنسبة إلى سكان البمبا فى سهول أرجنتينا وهنود كولومبيا(*) كانت قبائل الايروكوا والديلاوير مجرد عقبات فى سبيل الرجل الأبيض ، وكانوا يعاملون على هذا الأساس . وفى مثل هذه الأحوال كانت الوسائل المستخدمة مشابهة تماما : تدمير الملجأ الأخير لشعب الملك فيليب فى وادى كنكتيكت بالحديد والنار والتدمير الفعلى للشعوب الستة فى وادى موهوك . وإذا استثنينا بضعة أفراد مثل صاحب الغبطة جون اليوت وروجر وليامز ووليم بن لم يجد الهنود أصدقاء أو مدافعين عنهم بين المستعمرين الإنجليز ، ولا توجد مجموعة تشريع رحيمة فى التشريع الاستعمارى الإنجليزى كما هو موجود فى قانون المستعمرات الإسبانى .

(*) Pijaos

ولم يتحسن مصير الهندى بعد الاستقلال . فقد نزح إلى ما وراء مرتفعات أليجانى ، وترتب على ذلك أن ازداد مجال التوسع ، وأسرع الهندى إلى التردى ، وبقيت الوسائل والغايات كما هى . فقد ساق جنرال وين « أنتونى المجنون » الهنود منهوكين وطردهم من أراضى نهر أوهيو . ومن هناك استمرت عملية المطاردة إلى الجنوب نحو الخليج وإلى الغرب نحو جبال روكى دون انقطاع إلى نهايتها حتى حبس الباقون من الجنس فى معسكرات الاعتقال المبجلة التى يسمونها متحفظات . وجزء كبير جدا من القصة عبارة عن إغارات ، وحروب ، ومعاهدات مبتورة ، وممارسة القسوة والغدر والجشع ، مختلطة بفورات النزعة الإنسانية . فقد كان الهندى عقبة فى طريق الرائد ومن جاءوا بعده ، ولذلك فقد لزم إبعاده . أما عبارة « الرجل الأحمر النبيل » ، وهى الخرافة العاطفية التى ابتدعها كوبر وغيره كما ابتدعها جوسيه دى ألنكار فى البرازيل ، فقد جاءت متأخرة كثيرا لكى تنقذ الهندى من مصيره المحتوم . لذلك لم يكن الإسبانى ليستطيع أن يقوم بالمهمة بإتقان أكثر مما قمنا به ، ويعبر أعضاء الطبقات الحاكمة اليوم فى جمهوريات أمريكا اللاتينية التى لا تزال أغلبية سكانها من الهنود عن حسدهم لنا على الختام الذى أنهينا به مشكلتنا « نحن » الهندية .

اختلاف الشعوب

جاء بعض الاختلاف نتيجة انتشار أكثر للتزاوج فى المستعمرات الإسبانية والبرتغالية. فقد نتج عن اختلاط الزواج على نطاق واسع خلق جنس جديد من المولدين(*) اختلط فيهم دم الهندى بدم الفاتحين . ولم يكن لدى الشعوب الإسبانية أى تعصب جنسى، كما أن قليلا من الفاتحين الأوائل

(*) mestizos

كانوا قد أحضروا نساءهم معهم وكان امتثال النساء الهنديات السهل ، وهن فخورات حتى باقتران وثيق مع سادتهن الجدد أو مستسلمات لمصيرهن كغنيمة من غنائم الفتح ، كافياً لإيجاد الظرف الضرورى لعملية التهجين . واستمر الاختلاط بسرعة أكبر ، وبدرجة أتم ، فى بعض الجهات عنها فى البعض الآخر ، خصوصا فى البرازيل وباراجواى . ففى جميع أنحاء البرازيل انطلق البرتغاليون دون ضابط تدفعهم الشهوة الجنسية ، وترتب على هذا الجنون الحيوانى إيجاد طبقة ضخمة من المولدين الذين يعرفون اليوم باسم الكابوكلو(*) . وفى إقليم ساوباولو كانوا هم طبقة المولدين الذين اتصفوا بالإقدام والذين استرقوا أبناء أخوالهم فى الإقليم الداخلى حتى حدود البعثات التبشيرية اليسوعية عند شلالات جوايرا (على نهر مانويل) على حدود باراجواى . وفى باراجواى نفسها انغمس الإسبانيون الذين اتبعوا مجرى النهر نحو الشمال من موقع بوينس أيريس المهجور مع نساء الجوارانى فى عيد المرافع الداعر ، مما بلور قالب الشعب فى باراجواى فى وقت مبكر . فإن باراجواى اليوم دولة من المولدين تتساوى فيها أهمية عناصر الثقافة الهندية ، بما فيها اللغة ، مع العناصر الموروثة من الثقافة الإسبانية ، بل تفوقها فى بعض النواحى . فقد كان التزاوج المختلط على نطاق كلى ، لأن كل إسبانى كان يحتفظ بحريم من المحظيات حول المستعمرة النامية كما نمت أسونثيون سريعا بالنسل من الأطفال المولدين الذين هم نتاج هذه الزيجات المتضاعفة . وعندما وصل هؤلاء الأطفال إلى سن الرجولة فاق عدد المولدين كثيرا عدد آبائهم المسنين . ونظراً إلى حيويتهم وتبرمهم فقد أعطوا للمستعمرة صيتها وسيطروا على حياتها الناشئة . وظلوا فترة من الوقت تتجاذبهم إسبانيا وأرض أمهاتهم من نساء الجوارانى ، لا لشىء إلا لترجيح كفة تعلقهم ، مما أدى إلى الاحتفاظ بمستعمرة باراجواى ضمن

(*) Caboclos

الإمبراطورية الإسبانية ، ولكن على حساب حضارة كانت مولدة إلى درجة تامة كدرجة دمائهم . وأدى نشاطهم تحت قيادة زعماء إسبانيين أقوياء مثل مارتينيث دى إرالا إلى أن يجدوا مخرجا مثمراً فى المشروعات الجريئة نحو الجنوب . فقد كان المولدون الصغار من اسونثيون هم الذين أسسوا سانتافى على نهر بارانا الأدنى ، وباندفاعهم مع مجرى النهر أعادوا بناء بوينس أيرس سنة ١٥٨٠ بزعامة هوان دى جاراى . وعندما أصبحت المستعمرة النامية مركزاً ثانويا للتوسع انتشر أبناؤها فى ارض الكوريتى على أحد جانبي النهر العظيم ، وغربا عبر شمال أرجنتينا ليقابلوا التيار الاستعمارى الذى انحدر جنوبا من بيرو ، وتحت قيادة انيوفيودى شافيس عبروا من نهر باراجواى الأعلى إلى سهول شرقى بوليفيا ليؤسسوا سانتا كروث دى لاسيرا . وفى وقت لاحق تحرك فريق من الإسبانيين المخاطرين والمولدين من باراجواى وبيرو وأراضى نهر بلات من الجنوب ومن تشيلي وولاية كويو فى الغرب إلى فيافى اليمبا المكشوفة . وهنا ، بثورة من القسوة العارضة ، اغتصبوا نساء القبائل الهندية الذين قاوموا اعتداءاتهم بإصرار ، وخلفوا وراءهم سلالة الجوشو المشهورين ، الفرسان الذين طردوا الهنود نهائيا من سهول أرجنتينا . وحدث مثل ذلك فوق الأنديز فى وادى تشيلي وطول الحدود المضطربة لولاية أروكو . فهناك تسبب هذا الهياج البيولوجى فى خلق طبقة من الأشداء(*) هى التى كونت الأساس الشعبى لجنس قوى فى تشيلي .

وكانت المصاهرات بين الفاتحين الإسبانيين ونساء الطبقات الأرستقراطية من الأهالى مثلا لمستوى أعلى أمام الرتب الدنيا من الجنود الذين لم يأبهوا بالطموح ، ولو أنهم لم يكونوا أقل شهوانية . فكان لكل ضابط

(*) Roto

كبير(*) عشرات من « أميرات » الأزانقة والإنكا أصبحن محظيات أو زوجات شرعيات لقواد الفتح . وكان كثير من رفيقات الفاتحين هؤلاء نساء ذوات تربية مهذبة وعادات دمثة وأيضا جاذبية جسمية فائقة ، تؤهلهن للتقدم لأية طبقة من النبلاء . وكان تعلق بالبو بالابنة الخاصة لحاكم من حكام الهنود المحليين فى منطقة البرزخ هو الذى جعله يتردد أمام الزواج العرفى من ابنة عدوه بدرارياس دافيلا . وكان هذا أحد الأسباب التى أدت إلى مصيره المحتوم على يد حميه الافتراضى . وفى نفس المنطقة أنجب دييجو دى ألماجرو ، شريك بثارو ابنا شجاعا قاد حزب والده فى حروب بيرو الأهلية . وكان لفرانسسكو بثارو نفسه ، وهو الذى لم يتزوج أبداً ، لا فى بيرو ولا فى جزر الهند ، بضع بنات من نبيلات أسرة الإنكا اللائى كن لفترة محظياته وتزوجت إحداهن من هرناندو أخيه غير الشقيق (والشرعى الوحيد) وأصبحت سيدة عظيمة من سيدات إسبانيا .

وأشهر المولدين فى فترة الفتح هو جارسيلاسو إنكادى لافيجا . وكان أبوه ، الذى انحدر من أسرة من ألمع الأسر فى إسبانيا ، أحد الفاتحين لبيرو . وكانت أمه أميرة من أميرات الإنكا وأصبحت محظية لأبيه جارسيلاسو دى لافيجا ، ولكنه هجرها عندما تقاعد وعاد إلى إسبانيا وتزوج امرأة من أسرة نبيلة إسبانية . نشأ جارسيلاسو الصغير فى منزل والده فى كشكو حيث عاشر مولدين آخرين وشبانا إسبانيين من أسر عريقة . واستاء من التحقير الذى كان يلحق بطبقته والذى كان قد بدا فعلا على شكل استعلاء جنسى ، وعد نفسه أقرب إلى أهالى بيرو منه إلى كونه إسبانيا ، ولو أنه قضى شطراً كبيراً من رجولته فى إسبانيا ومات هناك . وكتب فى « تعليقات الإنكا الملكية » قصة الشعب الذى انحدرت

Pocahontas (*)

منه أمه ، وكتب أيضا تاريخ الفتح الإسبانى لبلادها ، وهو عمل من المرجح أنه أدق مما كتبه وكسب شهرة أكثر .

وكما حدث فى بيرو انطلق فاتحو المكسيك يتخذون زوجات من نساء الأرستقراطية الأهلية،وعندما دخل كورتيس بجيشه الصغير بلاد حلفائهم من قبائل تلاسكالا مهرت المعاهدة بتقديم صبيات هنديات عريقات المحتد كمحظيات للضباط الإسبانيين . وفى وقت لاحق أصبحت أميرات الطبقة الحاكمة من الأزاتقة زوجات أو محظيات لبضعة من الفاتحين . فدونيا مارينا ، وهى سليلة أسرة محلية من أعيان منطقة البرزخ ، وخدمت كورتيس خدمة جليلة كمترجمة ومستشارة ، أنجبت من سيدها اللامع ابنا اسمه مارتن .

ولم يكن نظام المحظيات ظاهرة تنتهى بانتهاء فترة الفتح . فعلى الرغم من جهود الكنيسة والتاج لتهذيب عادات السكان الإسبانيين استمر شيوعه طيلة عهد الاستعمار ، مما أدى إلى تضاعف عدد السكان المولدين، وأضاف إلى تدهور العادات المرعية ، فقد استمر هذا النظام فى الواقع كظاهرة مسلم بها فى مجتمع أمريكا اللاتينية ، ولو أنه أحيط بنوع معين من العرف يقلل من آثاره على حياة الأسرة .

الهنود فى ظل الجمهوريات

كان لحركة الاستقلال فى المستعمرات الإسبانية والبرتغالية أثر ضئيل على أحوال الهنود (٣٤) . وإذا استثنينا ثورة الأب هيدالجو المشئومة فى المكسيك ، بقى الأهالى ، بصفة عامة ، متفرجين فى حروب التحرير التى اندلعت فى القارة . وإذا احتلت الجمهوريات مكان النظام الاستعمارى بإداراته المختلفة من القمع والحماية ، ترقب الهنود ببلادة مصيرهم تحت

الإدارة الجديدة . وفى ظل « الحكم الاستبدادى الرشيد » لشارل الثالث فى إسبانيا والماركيز بومبال فى البرتغال كان قد بدأ فى إدماج السكان الأصليين فى المجتمع المدنى . فحل المجتمع المدنى (*) محل البعثة التبشيرية خصوصاً فى جميع الأماكن التى أجبر فيها الجزويت على التخلى عن سلطانهم الدينى، ولو أن حياة جديدة بدأت تدب فى كل لحظة لتخلق نظاما تبشيريا بقدوم الفرنسسكان إلى كاليفورنيا . وقلما كان الانتقال بالنسبة إلى الهندى سببا يدعو إلى الرضاء فقد ذهب عنه ولى أمره الذى ألفه ليجد نفسه يتيما ، ليس إلا ، فى عالم غريب قدم إليه نزرا حقيقيا من التعويضات مقابل ماتخلى عنه ، وكثرت فيه المشكلات الجديدة التى لم يألفها من قبل حتى يوائم حياته فيه . فلم يكن على استعداد للحياة المدنية بالمعنى الأوربى .

نعم لقد ترك الهنود وشأنهم سنوات عدة بعد الاستقلال . وفى بعض الجهات أفادوا من الفوضى التى سادت تلك الفترة فاسترجعوا آثارا من ثقافة سلفهم ، ولكن ثبت أن مكاسبهم كانت تافهة وبذت يومها . لقد كان الوقت متأخرا لاسترجاع القوة الدافعة التى سبق أن فقدت عند الفتح فى القرن السادس عشر ، ولو أنهم استطاعوا بقوة الاستمرار وطول تمسكهم بعاداتهم أن يحتفظوا بما قد استبقوه طيلة عهد الاستعمار . لقد مرّ بهم قدر زائد من الأحداث لم يستطيعوا معه أن يرتقوا ماتقطع من الخيوط فى نسيج نمطهم الثقافى .

وفى الحقيقة كان على الهنود أن يدركوا أنهم قد استبدلوا مجموعة من السادة بمجموعة غيرها . فقد كان عليهم أن يبرهنوا أن لعملهم قيمة كبرى لدى ملاك الأرض ومديرى المناجم ورجال الصـــناعة والكبار من ملاك غابات المطاط ليتمكنوا من أن يسمح لهم بحل مشكلة إنقاذهم اقتصاديا واجتماعيا خارج جهاز الجمهوريات الحديث . وتراكمت المساوىء

Pueblo (*)

حينما جىء بالهندى إلى الميدان الاقتصادى الجديد . وكان الأرستقراطيون والرأسماليون المحليون عادة قساة القلوب فيما يتعلق بالهنود ، وكان رجال الدين ، حماتهم التقليديون، قد فقدوا تحمسهم التبشيرى والإنسانى القديم . وكثيراً ما أصبحوا مستغلين صغارا للهنود ، كما كان كثيرون غيرهم فى اواخر عهد الاستعمار . وفقدوا الفرصة لزعامة معنوية كان يمكن بواسطتها إنقاذ العناصر الأفضل من الثقافة الهندية كتماسك الأسرة . وفى وقت لاحق كان على القساوسة أن يظهروا من جديد فى طبيعتهم الأصلية عندما بدأت بعثات تبشيرية جديدة تخدم حاجات القبائل الغابية وتخلق منهم أبطالا يتحدون مستغليهم .

واختلف مصير الهنود فى الجمهوريات اختلافاً كثيراً ، ولو أن فرصة تحسينه ظلت فترة طويلة غير مواتية فى جميع الجهات . ففى أرجنتينا طرد « المنبرون » من البمبا وتركوا ليهلكوا على حدود بتاجونيا الماحلة (٣٥) . وفى بعض الأحيان كان موت الباقين من الجنس يستحث بطرق شيطانية . أما فى الشمال فقد استغل آخرون فى حقول قصب السكر فى توكومان ، وفى الأراضى الجديدة في إقليم شاكو الأرجنتينى .

ولقد كان فى إقليم الأمزون بالذات أن بدىء فى استدعاء الهنود للدخول فى العصر الصناعى بمنتهى الغلظة . وتجمعت الظروف التى ساعدت على استغلال الهندى : ارتفاع ثمن المحصول ، النقص المتكرر فى الأيدى العاملة المتناوبة ، عزلة الإقليم ، قصر الإشراف من جانب الحكومة . ومن المحتمل أن هذه الاعتبارات كانت أسوأ بين قبائل الهيتوتو فى حوض نهر بوتومايو وبين قبائل الكامبا بين نهرى جاماري وهواياجا وعلى طول نهرى يوروس وأيونا وفى إقليم بنى فى بوليفيا ، أى فى أبعد أرجاء الأمزونيا ، حيث كان عدد الأهالى من السكان الهنود أكبر بكثير من عدد المولدين .

وبعد أن بدأ القرن العشرون اهتمت بعض الحكومات بحالة السكان

الأصليين . وكان الدافع فى بعض الأحيان إنسانيا خالصا، وهو الاعتراف المتأخر بمسئولية إسعاد جميع مواطنى الدولة . وفى بعض الأوقات كانت الرغبة فى إدماج الهندى بدرجة أكبر فى حياة الأمة الاقتصادية تستحث تطبيق هذه السياسة فتزداد الإفادة من قيمتهم الذاتية كقوة عامة وكمستهلكين للسلع . وتشتمل الدساتير الجديدة المتحررة على عبارات دينية خاصة بالهندى عادة ما كانت ذات علاقة ضئيلة بما هو واقع . فإن « أيام السكان الأصليين » التى أدت خدمات كلامية للأهالى الأصليين فى الجمهوريات تقابل بالارتياب الذى تستحقه . لحزب الأبرستا فى بيرو قد عظم اهتمامه الصادق بالهندى ، ولكن نزقه السياسى قد منع ترجمة مثله العليا إلى عمل .

وقد كان ضمن المبادىء الأساسية للثورة المكسيكية استرجاع مكان الهندى فى الحياة القومية ووضعه فى مكان يتناسب مع عدد الهنود وتراثه الثقافى العظيم . وقد قام بعض فلاسفة الثورة بالعمل والكتابة لصالح الهندى أمثال سوتو أى جاما ، ومانويل جاميو ودكتور أتل علماء الآثار . ومع ذلك فمن جميع القواد والسياسيين الذين شاهدوا مسرح الحياة المكسيكية منذ سنة ١٩١١ نجد أن الشخص الوحيد الذى أظهر اهتماما زاد على مستوى عدم الاكتراث بمستقبل الهندى كان لاشاروكارديناس . وعلى الرغم من أن الكثير قد بذل لصالح الهندى باسترداد أراضى الجماعة وبالتعليم فإن الثورة أعطته أقل بكثير مما كانت قد وعدت به . فمن كلتا الوجهتين الجسمية والروحية لا يزال بعيداً عن التيارات الرئيسية للحياة الأمريكية ، وغير واثق من المولدين منتهزى الفرص السهلى الانقياد الذين يحكمون الجمهورية .

وكان المناليون المكسيكيون مسئولين إلى حد كبير عن الحركة

« الهندية » (*) التى تشمل كل « البلاد الهندية » فى نصف الكرة . ولهذه الحركة أيضا أتباع كثيرون فى دول الأنديز مثل لويس فالكارسل فى بيرو . وقد أثبتت طقوس الأهالى هذه أنها أصبحت موضوعا مشتركا تتجمع حوله مظاهر نشاط المعهد الهندى للدول الأمريكية .

وهذه الجمعية ، ومقرها الرئيسى فى مدينة المكسيك ، هى جزء من الجهاز الرسمى لجميع دول الأمريكيتين، ولها برنامج متقن ، بعضه عملى جدا ، يستهدف تحسين مصير الهندى وتبجيل مكانته فى حياة الأمريكتين . ومن بضع سنين مضت أصدر مؤتمر « للهنود » مسودة ميثاق للهندى ، واجتمع المؤتمر فى مكان لائق جداً على شواطىء بحيرة باتشكوارو فى الدائرة الأسقفية للمطران المشهور فاسكو دى كيروجا الذى توقع أهم المواد التى جاءت فى البرنامج من أربعة قرون مضت ومن المرجح أن أكثر السياسات الهندية فطنة وإنسانية لأية حكومة وطنية هى سياسة البرازيل . فالإدارة الهندية البرازيلية (**) ليست فقط مرآة تنعكس عليها إنسانية الشعب العميقة ، بل تعكس بوضوح أكثر شخصية جنرال كانديدو ماريانودا سيلفا رندون الرجل العظيم الذى أسسها . الجنرال رندون ، يكاد يجرى فى جسمه جميعاً الدم الهندى ، وقد كشف الجهات التى تكسوها الأدغال فى ماتو جروسو والأراضى الواقعة إلى الشمال من نهر الأمزون حيث كسب ثقة القبائل الغابية المتناثرة . وتضمن برنامجه حماية السكان الأصليين من الاستغلال وتحرش جامعى المطاط وتحسين الأحوال الصحية بينهم وإدماجهم إذا هم رغبوا ، لا لسبب آخر ، فى حياة الجمهورية . وقد عمل رندون ومن خلفوه فى الإدارة الهندية بصبر كثير وفهم للأمور ، وغالبا ما تعرضوا للاثارة القاسية من القبائل الأكثر ميلا إلى الحرب والريبة .

(*) Indianistas

(**) The Brazilian Indian Service

ولقد عقدت قبائل الشافانت ، وهى آخر القبائل التى قبلت عروض الإدارة الهندية ، أخيراً الصلح مع الحكومة البرازيلية .

ومها تكن الوسائل التى تتخذ لحماية الهندى ومجتمعه البالى فإن الأيام والسنين التى سيحياها محدودة . فجميع القوى والتطورات التى تميز العالم الجديد تعمل ضد استمرار بقائه منعزلا ، وإن اندثاره كوحدة اجتماعية فريدة سيؤجل إلى أقصى مدة حيث لا يزال فى منعة من التأثيرات المباشرة الحديثة ، كما بين القبائل التى تقطن غابات حوض الأمزون ، أو حيث تكثر أعداده نسبيا كما فى دول الأنديز . غير أن يد الحكومة تمتد إلى أعماق الغابة وتمنحه الخيار ، مهما يكن برفق ، إما قبوله نمط المدنية الغالبة وإما اندثاره النهائى . وسوف يتفكك آخر معقل للهندى ، وهو عالم الانكا الخيالى بين مرتفعات الأنديز ، كما هو حادث الآن فى المكسيك(٣٦). والقوى التى تجعل مصيره النهائى محتوما ، على الرغم من القصور الذاتى لآلاف السنين ، هى المضى بعناد فى سير عملية التهجين ، والتغيرات التى تطرأ على الاقتصاد المحلى سواء طبقت طوعا من قبل الأهالى ، شعوراً منهم أن فى ذلك مصلحتهم مباشرة ، وإما إملاء من قبل سادتهم ، والتسرب الخفى للآراء عن طريق التعليم أو الاحتكاكات الشخصية أو مذياع الراديو فى ميادين القرى ، أو عن طريق زحف غواية العادات المنبثقة من المدن وتنتقل إلى الخارج ، إلى الجماعات الأكثر عزلة بشتى وســـائل المواصلات الحديثة ، ويمضى الوقت واليأس بين شعوب فقدت الدافع العاطفى من أمد بعيد .

وهناك كثير من المثـالية عند أولئك الذين يتزعمون قيادة العملية لكيلا تهدم أو تضار تلك القيم الهندية التى يجب الحفاظ عليها لزيادة ثروة المجتمع

الأكبر، ولكنهم قلما يشغلون مراكز القوة وهناك رجال « عمليون أكثر » قد يملون شروط التحول فى أثناء ما تكتسب سرعة التطور من القوة الدافعة . وفى عالم قد يقبل الهندى على قدم المساواة بالآخرين ، على الهندى أن يبذل كثيرا من المهارة الكامنة والكد ، ومن الإخلاص ومن تعلقه الشديد بالأرض ، الأمر الذى يتطلب منه بالتأكيد اهتمامه القلبي .

هوامش الفصل الثاني

(١) عن علاقات كولمبس بالهنود انظر

Samuel Eliot Morison, "Admiral of the Ocean Sea : A Life of Christopher Columbus". (2 vols., Boston 1942), passim.

والفقرات المقتبسة هي من :

"The Spanish Letter of Columbus to Luis de Sant'Angel Escribano de Racion of the Kingdom of Aragon Dated 15 February, 1493" (Eng. tr. published by Bernard Quartich, London, 1893).

وأيضاً

"Christopher Columbus : being the Journals of his First and Third, and the Letters concerning his First and Last Voyages, to which is added the Account of his Second Voyage Written by Andreas Bernaldes (tr. and ed. by Cecil Jane, London, 1930)".

(٢) أهم مؤلف عن هنود أمريكا الجنوبية هو المجموعة الضخمة والعلمية

"Handbook of South American Indians (edited by Julian H. Steward and published by the Smithsonian Institution, Washington, D. C., in 6 volumes, 1946—1950).

(٣) عن حضارات الإنكار في بيرو انظر

Philip Ainsworth Means, "Ancient Civilizations of the Andes" (New York, 1931).

ومع أن الدراسات الأركيولوجية الحديثة قدغيرت بعض النتائج التي توصل إليها Prescott في كتابه "Conquest of Peru" فلا تزال الفصول الأولى من هذا الكتاب ودراسته المرافقة للمكسيك تثير اهتماما كبيراً بثقافة الأزاتقة والإنكا .

(٤) عن الأزاتقة انظر

George C. Vaillant, "Aztecs of Mexico" (Garden City, New York, 1941).

وقد كتب فيلانت عن الازدواج المتناقض فيما أسماه Alfonso Reyes العالم المكسيكي « ذلك الشعب الفنان والقاسي » .

"The Position of America and Other Essays".

وترجم عن الإسبانية ، نيويورك ، ١٩٥٠ ، ص ٥ :

« أصالة فى التفكير ، حرية فردية ، ثروات شخصية ، هذه لا توجد ، ولكن الناس كانوا يعيشون وفق قانون سرى مفعوله بنجاح وعلى الدوام عبر القرون . ولو أن فردا من الازانقة شاهد العزلة الواضحة فى حياة الفرد فى عالمنا الغربى لاعتراه الفزع » ص١٢٢ ، ولم يكن الأزانقة بأية حال متوحشين جبناء يرثى لحالهم . فقد عاشوا على أطعمة مختلفة ألوانها وشهية ، وسكنوا بيوتا مريحة جيدة التهوية . وشجعهم لباسهم على ممارسة الارتضاءات الزوجية دون ارتباك مع ما يسببه الغرور من تعويض . ومكنتهم طريقة حياتهم من أن يفيدوا من استعداداتهم الشخصية واستبدال ما ينقصهم من أى شىء مما تنتجه أيديهم . فكانت الأدوات التى يستخدمونها فى حياتهم اليومية وفى الحفلات يصنعونها بعناية الصانع الممتاز الذى يحب عمله . وفى الحقيقة قلما كانت هناك سلعة لم تكن تحمل طابع اللمسة التزيينية الصغيرة التى تجعل من الادوات العادية أشياء يسر المرء اقتناؤها » . ص ١٣٨ .

(٥) عن حضارة المايا انظر

Sylvanus G. Morley "The Ancient Maya" (Stanford University, Colifornia, 1946).

وبناء على آراء مورلى ، من الخطوات الخمس الأساسية فى ترقى الإنسان :

١ — السيطرة على النار . ٢ — كشف الزراعة .

٣ — استئناس الحيوانات . ٤ — الأدوات المعدنية .

٥ — كشف نظرية العجلة .

« كان المايا على علم بالخطوتين الأوليين فقط ونموا باستخدامهما » . ص ٤٤٨ . « فعندما نحكم على إنجازاتهم الحضارية جملة فى ضوء (حدودهم الثقافية المعروفة) التى كانت تعادل إنجازات إنسان العصر الحجرى الحديث فى العالم القديم ، فقد نطمئن إذا نحن أشدنا بالمايا القدماء ، دون خوف من اعتراض لاحق ، فقلنا عنهم إنهم أذكى شعب بدائى عاش فوق هذا الكوكب » . المرجع نفسه ص ٤٥٥ . ومارس الإنكا جميع الخطوات ما عدا الخامسة . ويقول خورجى باسادر العالم البيروفى عن الإنكا : « لم تكن هناك حضارة فى التاريخ القديم بين أيديها مثل هذه الوسائل المحدودة » .

Jorge Basadre, "Peru . Problemas y Posibilidad (Lima, 1931), p. 16.

(٦) « توجد بالقرب من قرية كوبان بضعة أبنية كبيرة تاريخها موغل فى القدم ... ومن بين هذه الأطلال أشياء غير عادية ونثير العجب ... وتثبت هذه الأطلال ... أنه فى وقت من الأوقات كان يسكن هذه الأرجاء شعب على قدر عظيم من الذكاء والنشاط والقدرة . والمدن العظيمة التى محا معالمها مرور الزمن » .

Antonio Vazquez de Espinosa, "Compendium and Description of the West Indies (tr. from the Spanish, Washington, D. C., 1942).

وكان الأب فاسكيث فى أمريكا لوسطى فى أوائل القرن السابع عشر .

(٧) انظر

Lesley Byrd Simpson, "Many Mexicos" (New York, 1941), Capter II, "The Tyrant الطاغية" .

وأفاض همبولدت فى الكلام على الذرة فى المكسيك

"Political Essay on the Kingdom of New Spain" (tr. From the German, 4 vols., London, 1811), II, p. 307 ff.

وعن أهمية الذرة بين المايا : « من ٧٥ — ٨٥ ./ من كل شيء يأكله الشخص من المايا مكون من الذرة فى صورة أو فى أخرى — Morley, op. cit., p. 142 « أنا مقتنع بأن ٧٥ ./ كاملة من جميع أفكارهم لا تزال تدور حول نفس هذا النوع الهام من الحبوب » . ص ١٤١ .

وعن الذرة فى بيرو : « وظلت لذرة على الدوام بهجة الهنود » —

Jorge Juan y Santacilla and Antonio de Ulloa", A Voyage to S. America (tr. from the Spanish, 2 vols., London, 1806), I, 465.

(٨) فيما يتعلق بالضحايا البشرية التى تقدم لإله الحرب عند الأزاتقة وأكل لحوم البشر اللازم لها انظر

Bernardino de Sahagùn, "Historia General de las Cosas de Kueva Espana (reprint, 5 vols., Mexico, D. F., 1938), I, 136 ff.

ويكتب الأب ساهاجون أيضاً عن العبيد الذين كانوا يباعون فى السوق فى أتسكابوتثالكو للأكل . قال إنهم كانوا يطهون مع الذرة ، ولكن بدون أن يتبلوا بأنواع الفلفل الأحمر — نفس المرجع ص ١٤١ · وعن الضحايا المقدمة لإله الحرب انظر

James George Frazer, "The Golden Bough" (abridged edition, New York, 1925), pp. 587—92. (قتل الاله فى المكسيك) .

وعن دوافع أكل لحوم البشر عند الازاتقة : « قام تقدم المكسيك على نظام من الاغتصاب المستمر من دافعى الجزية الذين لا يحميهم شيء ، وعلى نظام من الحرب المستمرة تشن بلا رحمة ضد الشعوب المجاورة ، وغرضها الظاهرى هو الحصول على ضحايا يقدمون قربانا ، ولكن فى الحقيقة لتقديمهم كطعام من اللحم للطبقة الممتازة التى تخوض غمارها . وانتشرت هذه العادة الطقوسية لكى تضمن لهم ، بتصريح مقدس ودائم ، عيدا لأكل لحوم البشر يكاد لا ينقطع » .

E. J. Payne, Blanco Villalta, "Antrofagia Ritual Americana (Buenos Aires, 1948).

(٩) « وأشد أكلة لحوم البشر ضراوة أولئك الجدد الذين يعيشون على اللحم الآدمى ، قبائل الـكاريب ، أو الـكانيبال كما يسمون » :

Peter Martyr d'Anghiera, "De Orbe" (tr. from the Latin), I, 315.

« كانوا يقتلون كلا من الإسبانيين والهنود وجميع من يلتقون بهم فى طرقهم المتثنية ، لا يبقون على مواطنيهم اذا استطاعوا بسهولة اللحاق بهم » .

John Hawkins, in Hakluyt, "Voyages" (Everyman Edition), VII, 24.

وفى سنة ١٥٧٨ و ١٥٨٠ عبر اللانوس « حشد من أكلة لحوم البشر » من الـكاريب وغزوا إقليم فالنثيا فى مرتفعات فنثويلا الذى أجلاهم عنه نهائيا ضابط إسبانى مشهور اسمه جارسى جنثاليث .

Humboldt, "Viaje a las Regiones Equinocciales del Nuevo Continente", II, 353.

(١٠) كان لدى هانزستادن الذى عد جزءا من احتياطى إمدادات اللحم عند الجماعة بوصفه أسيرا لإحدى قبائل التوبى فى البرازيل ، بطبيعة الحال ، شىء كثير يقوله عن ممارسة أكل لحوم الآدميين وقد شاهدها حوله فى كل مكان . وقد أدهشه عدم الاكتراث الذى كان الضحايا يقابلون به مصيرهم كما لو كانوا يخسرون فى لعبة من الألعاب . وكتب عن الاستعدادات التى كانت تتخذ لخنق أسير بالحبل يقول : وافق الرجل على أن كل شىء كان منظما إلا شيئاً واحداً فقط وهو أن الحبل كان قصيراً أكثر من اللازم ، فقد كان يحتاج إلى ست قامات فى الطول ، وأضاف إنه بين شعبه ربما كان تدبير ذلك الأمر أفضل . وكان يتكلم ويتصرف كما لو كان ذاهبا إلى حفلة مرح » .

"The True Story of the Captivity of Hans Straden 1557" (tr. from the German, New York, 1929), p. 92.

ويذكر كيف أنه فى ليلة من الليالى كان اثنان من المولدين يشويان فى المعسكر الذى كان ينزل فيه أسيرا وأطلق على أحد الضحيتين اسم « هيرونيموس » وكتب يقول : « وقد قضى هذا الرجل بطوله يشوى هيرونيموس فى مكان لا يكاد يبعد خطوة واحدة عن المكان الذى كنت أرقد فيه » — نفس المرجع ، ص ١٠٨ .

(١١) يخبرنا هيريرا عن قبيلة فى نيوجرانادا عادت من إغارة يحملون أطرافا لاثنين من جيرانهم . كتب يقول : « ونظراً إلى نهمهم لم يكن هناك وئام بين الأب وابنه أو الأخ وأخيه » .

"Historia General" (5 vols,. Madrid, 1726—30), decada VI, libro 8, p. 172.

وإذا كان الأسرى نحافا أكثر من اللازم فقد جرت العادة أن يوضعوا فى أقفاص حيث يسمنون كما يقول أوفييدو « مثل الديكة المخصية فى أراندا دل دويرو » .

وعن فظاعة أكل لحوم الآدميين فى العـــالم الجديد لم يكتب فصل أكثر مقتا من قصـــة أوفييدو عن الإسبانيين فى حملة انييجو دى فاسكونيا فى فنثويلا ، وقد عكفوا على أكل لحم الآدميين على طريقة الهنود الذين كانوا يقاتلونهم .

"Historia General y Natural" (4 vols., Madrid, 1851—55), II, 289, 291.

(١٢) « لقد شاعت رذيلة شرب الخمر فى الهند الغربية » .

Herrera, op. cit., p. 172.

وعن هنود بيرو كتب الملازمان هيرندن وجبن يقولان : « إن شرب الشيشا (خمير الذرة) كان جزءاً من العبادة الفطرية عند السكان الأصليين . ولا شك فى أنهم كانوا يعتقدون مخلصين أنهم كلما جلبوا على أنفسهم سعادة أكثر وهم يبتهلون وقاراً إلى خالق كافة الأشياء تزايد رضاؤه » .

"Exploration of the Valley of the Amazon" (2 vols., Washington, D. C., 1854), I, 166.

وكتب أولرخ شميدت عن الجواراني يقول : « لا يعرفون من مظاهر البهجة سوى شن الحرب والسكر ليل نهار والرقص » .

" Viaje al Rio de la Plata" (tr. from the German, Buenos Aires, 1942), p. 97.

« اقترب المساء ونحن نهبط من الطرف الجانبي للبركان ، وقابلنا بضع مئات من الهنود عائدين من احتفالات الأسبوع المقدس (كتسالتنانجو ، جواتيمالا) ، وكانوا يفوقون فى درجة السكر جميع الدرجات التى قابلناها حتى ذلك الوقت » .

John L. Stephens, "Incidents of Travel in Central America, Chiapas and Yucatan" (2 vols., New York, 1849), II, 219.

«يرى الهنود أنه لا توجد متعة تحت الشمس أرقى ولا أكثر تمجيداً من السكر والكسل» .

F. Depons, "A Voyage to the Eastern Part of Terra Firma, or the Spanish Main, in South America, during the years 1801, 1802, 1803 and 1804" (tr. from the French, 3 vols., New York, 1806), I, 202.

وقالت مدام كالديرون دى لاباركا عن الهنود المكسيكيين : « إن الهنود إذا لم ينتهوا

غالبا بعراك مهلك فليس هناك شيء أكثر تسلية من مراقبتهم وهم مقبلون على درجة النشوة من تعاطى الخمر » .

"Life in Mexico During a Residence of Two Years in that Country" (Everyman Edition) p. 261.

وقد أعطانا الكولونيل مانسيا صورة واضحة عن حفلات السكر الهائلة التى كانت تقيمها قبائل الرانكيلى والتى كان يجبر فيها على مشاركتهم : « طالما كان هناك شيء يشرب فقد كانوا يتناولونه ، فى ساعة ، فى يوم ، فى يومين ، أو شهرين » .

"Excursion a los Indios Ranqueles" (Buenos Aires 1942,) pp. 120, 134.

(١٣) هناك معروضات كثيرة للنسيج البيروفى القديم فى متحف مجدلينا فى ليما .

(١٤) تختلف الملاحظات حول طول أعمار الهنود اختلافا كثيرا . فيكتب الآب فاثكيث عن قبائل المايا يقول : « إن هنود هذه البلاد (يوكاتان) . . . يعيشون حتى يمتد بهم العمر ، وفى الحقيقة ، عندما كشفها الإسبانيون ، وجدوا هناك كثيرين من المسنين ، ومن بينهم رجل بلغ سن الثلثماية ، كما تثبت ذلك سجلات الهنود ، وآخر عمره ١٤٠ عاما وكان نشيطا جداً » — المرجع نفسه ص ١٢١ . وبناء على رواية سلفانس مورلى ، يموت ٧٠٪ من جميع أطفال المايا قبل أن يبلغوا الخامسة ، و٩٠٪ من جميع شعب المايا يموتون قبل الأربعين . ومع ذلك فالراشد من المايا قوى وشديد ولا يستسلم للمرض » .

"The Ancient Maya", op. cit., pp. 23—24.

وكتب وليم ستيفنسن عن الأحوال فى بيرو يقول : « إن طول العمر ظاهرة شائعة بين هنود بيرو ، ولقد شاهدت دفن اثنين فى قرية صغيرة أحدهما امتد به العمر إلى ١٢٧ عاما والآخر إلى سن ١٠٩ أعوام . ومع ذلك فكلاهما كان ينعم بصحة لم يشبها مرض حتى بضعة أيام قبل الوفاة . وعند فحص سجلات الأبروشية فى برانكا وجدت أنه فى سبع سنين دفن أحد عشر هنديا بلغ مجموع أعمارهم مجتمعين ١٢٠٧ أعوام » .

"A Historical and Descriptive Narrative of Twenty Years' Residence in South America" (3 vols., London, 1825) I., 405.

وقال أولرخ شميدل الجندى الألمانى إن من بين قبائل السوروسوسى فى باراجواى لم ير هنديا زاد عمره على ٤٠ أو ٥٠ عاما — نفس المرجع ، ص ٦٦ .

وكتب خوان وأيووا عن هنود الأنديز يقولان « أما الذين ينجون من هذه العلل (الجدرى الخ) أو يشفون منها فيمتد بهم العمر طويلا ، وكلا الجنسين يقدمان أدلة كثيرة على طول الأعمار الفائق . وكنت أعرف شخصياً بضعة أناس فى سن المائة كانوا لا يزالون يحتفظون بشدتهم ونشاطهم » . نفس المرجع ، الجزء الأول ، ص ٤٢١ .

(١٥) قال الأب فاثكيث دى إسبينوسا إن الطرق العمومية المشهورة التى شقها الانكا

هواينا كاباك ، الذى مات سنة ١٥٢٣ ، كانت أطلالا بعد قرن من وفاه . » وكانت هذه إنجازات جديرة بملك حكيم هام ، وربما كان من التعقل والحكمة لو أن عناية بذلت لصيانة الطرق ، فلقد كان ذلك مما يفيد منه الاسبانيون ، ولكن لما لم يكن أحد ينظر إلى ما دون مصلحته الخاصة إلى الصالح العام ، فكل شىء سائر إلى خراب » — نفس المرجع ، ص ٥٨٦ . ويقوم فكتور و . فون هاجن الآن (١٩٥٣) بمسح على الطبيعة « لطرق الانكا العمومية » .

(١٦) « لا أعتقد أن هناك شعبا ما أو أمة ما فى العالم تستطيع أن تحفر قنوات رى فوق أماكن وعرة وصلبة كما يفعل هؤلاء الهنود » .

Pedro de Cieza de Leon, "The Travels of Cieza de Leon, A. D. 1532—50" (tr. from the Spanish, London, 1864), pp 314, 319.

(١٧) طبقا لرواية جيوفانى جيميلى كاربرى الأقرباذينى الايطالى الذى طاف حول العالم والذى رأى أربعة من محاربى الشيشيمك عراة وموشمين فى قصر نائب الملك فى مدينة المكسيك «إنهم يرغبون فوق كل شىء فى قتل الإسبانين» .

Churchill, "A Collection of Voyages and Travels" (4 vols., London, 1704), IV, 545.

انظر :

Philip Wayne Powell, "Soldiers, Indians, and Silver : the Northward Advance of New Spain, 1550—1600" (Berkeley and Los Angeles, 1951).

(١٨) كان الأب أكوستا يسمى الأروكان « شعبا خشنا وصديقا للحرية » .

"The Natural and Moral History of the Indies (tr. from the Spanish, 2 vols., London, 1880), I, 170.

وكان المرشد البرتغالى لوبيس فاز ، وهو من بحارة فرانسس دريك يقول لرتشارد هاكلويت إن الأروكان «هم أشجع الشعوب وأشدها ضراوة فى جميع أرجاء أمريكا الجنوبية» .

"Voyages", VIII, 193 (Everyman Edition).

وقال فرانسس برتى وكان واحدا من رجال كافندش فى رحلته حول العالم :

« هؤلاء الهنود يستقتلون إلى درجة فائقة ، ولا يبالون إذا هم هلكوا فى سبيل استقلالهم وحريتهم » . نفس المرجع ص ٢١٧ . « وليست الحرب عائقا أو خسارة تنتابهم ، بل إنهم يرونها فى الواقع حرفة محببة إليهم إلى درجة كبيرة » . خوان وأيووا ، المرجع السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٧٨ .

وكتب كابتن ف . ب . هيد ، وهو مهندس مناجم بريطانى وكان فى أرجنتينا وتشيلى فى

العقد الثالث من القرن التاسع عشر عن هنود اليبا ، أبناء عمومة الأروكان يقول : « كانت حرفة حياتهم هى الحرب ، وكانوا يعدونها الوظيفة النبيلة ، ولا يفوقها شىء فى كونها طبيعية وبوصفهم شعبا حربيا فقد كانوا مثارا للاعجاب ، وأسلوبهم فى الحرب أنبل وأساس وأكمل فى طبيعته من أسلوب الحرب التى يشنها أى شعب آخر فى العالم » . F. B. Head

"Rough Notes Taken During Some Rapid Journeys Across the Pampas and Among the Andes" (London, 1826), pp. 121—33.

(١٩) عن الأزاتقة كتب الفاتح المجهول يقول : « إنهم يمتازون ببسالة حربية فائقة ، ويواجهون الموت بعزيمة لا تضارع » .

"Narrative of Some Things of New Spain and of the Great City of Temestitan, Mexico" (tr. from the Spanish, New York, 1917), p., 19.

(٢٠) طبقا لرواية جارسيلاسو دى لافيجا ، كانت القبائل التى يحاربها الإنكا كاباك يوبانكى « ترى أنه فى مرات كثيرة كان يستطيع أن يدمرهم ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل إنه عندما كان فى مقدوره أن يحاصرهم ويضيق عليهم ، فحينذاك قدم لهم الصلح فى اعتدال وحلم فائقين » .

"Comentarios Reales de los Incas" II., 29.

(٢١) « إن الطريقة الحديثة التى ينج بها المايا الذرة هى نفس الطريقة التى اتبعت من ٣٠٠٠ سنة أو أكثر» .

مورلى ، المرجع المذكور ، ص ١٤١ .

(٢٢) انظر جارسيلاسو عما ذكره خاصا بحيرة الإسبانيين أمام النتائج التى توصل إليها الهنود بواسطة خيط العقد الحسابية .

"Historia General", I., 199.

وفى أوائل القرن التاسع عشر وجد وليم ستيفنسن عجوزا هنديا فى ريوبمباقى إكوادور « يستطيع أن ينظم العقد ويفسر معنى الخيط» .. المرجع المذكور ، الجزء الثانى، ص ٢٦٩ .

أنظر وصف أنطونيو دى لاكالانشا لخيط العقد الحسابية .

Antonio de la Calancha, "The Golden Land : An Anthology of Latin American Folklore in Literature" (New York, 1948), pp. 67—70.

(٢٣) يرتب مورلى الإنجازات الفنية والتكنولوجية التى كانت الشعوب الهندية يمارسونها على النحو الآتى : العمارة ، المايا — الخزف ، المايا أو الإنكا — التصوير ، المايا —

النسيج ، بيروفى (الناتـكا) — نقش الاحجار الثمينة ، الأزاتقة — صناعة المعادن ، الأزاتقة وشعوب أخرى فى المكسيك الوسطى — الطرق العمومية الإنـكا — المرجع المذكور فى مواضع كثيرة .

(٢٤) «فى الخدمات التى يؤدونها وفى أحوال الناس ، نجد أن طريقة حياتهم تـكاد تـكون هى نفسها السائدة فى إسبانيا ، وبنفس درجة التنسيق والنظام ، ولو أننا أخذنا فى الاعتبار أن هؤلاء الناس متبربرون وبعيدون عن معرفة الله والشعوب الأخرى المتمدنة فما يثير العجب أن ندرك ما توصلوا إليه فى جميع النواحى » .

"Letters of Cortes", I., 263.

راجع النصيحة التى أسداها والد من الأزاتقة إلى ولده فى :

Sahagun, op., cit., I., 529.

وكتب مايلز فيليبس وهو أحد رجال هوكنز عن الأزاتقة يقول : « وبين هؤلاء الهنود تعلمت لغتهم أو اللغة المكسيكية إلى درجة الـكمال ، وتعرفت على كثير منهم عن كثب فوجدت شعبا مؤدبا وودودا وحاذقا وعظيم الإدراك » .

Hakluyt, op., cit., VI., 323.

وكتب بدرو دى ماجاليس فى القرن السادس عشر عن المجاملة التى كان الهنود البرازيليون يعاملون بها الأفراد من نفس القبيلة يقول : « يعيش الجميـــع فى كل بيت فى توافق دون ما خلافات بينهم ، بل على العكس ، هم على وئام الواحد مع الآخر لدرجة أن ما يملـكه الفرد يعد ملـكا للجميع ، وإذا حصل المرء على شىء ليأكله مهما صغرت كميته فإن جميع جيرانه يشاركونه فيه » .

"The Histories of Brazil" (tr. from the Portuguese, New York, 1922), p. 87.

« يعامل الهنود بعضهم بعضا بأدب فائق » .

Herbert Corwin, "These are the Mexicans" (New York, 1947), p. 37.

(٢٥) قابل الأب كريستوبال دى أكونيا الذى هبط من إقليم كيتو إلى الأمزونيا فى سنة ١٦٣٩ التوبينامبا على الجزيرة الـكبيرة فى نهر ماديرا الأدنى والتى كانت ملجأهم الأخير .

"Descubrimiento del Amazonas" (reprint, Buenos Aires, 1942), p. 95.

(٢٦) كان الأب أكوستا يعتقد فى استحالة فتح المكسيك وبيرو لو أن الهنود كانوا متحدين ويكتب عن مقاومة الهنود فيقول « لا تزال تشيلى صامدة . . . حيث لا يستطيع جنودنا الإسبانيون الاستيلاء على قدم واحدة من الأرض على الرغم من أنهم شنوا الحرب هناك مدة

نزيد على خمسة وعشرين عاما دون أن يدخروا وسعا ما . لأن هذا الشعب الهمجى بمجرد أن أصبح لا تفزعه الخيل ولا الرصاص وبعد أن عرف أن الإسبانيين يسقطون كما يسقط غيرهم من الناس برمية حجر أو مزراق أصبحوا يخاطرون بأنفسهم ... فكم من سنين جند الإسبانيون الرجل فى إسبانيا الجديدة وأرسلوهم ليقاتلوا الشيشيمكو وهم عدد قليل من هنود عراة مسلحين فقط بالأقواس والسهام ، ومع ذلك فحتى اليوم لم يستطيعوا قهرهم ... بل بالعكس ، إنهم يزدادون استقتالا وعزما ثابتا يوما بعد يوم . ولكن ماذا نقول عن الشونشو أو الشيريهوانو أو البلكوسونى وجميع شعوب الانديز الآخرين ؟ ألم تكن هناك كل خلاصة بيرو وقد أحضروا معهم تلك المؤن الضخمة والأسلحة والرجال كما رأينا ؟ (وقد صحب الأب أكوستا نائب الملك توليدو فى حملته النكباء ضد الشيريجوانو) . . . فماذا فعلوا ؟ . . . لقد عادوا تغمرهم السعادة إذ أنقذوا أنفسهم من الهلاك بعد أن فقدوا أمتعتهم . ولا يظنن أحد أنهم أناس تافهون ، فلو أن مونتسوما فى المكسيك والإنكا فى بيرو كانا ثابتين فى مقاومة الإسبانيين وصدهم عن التوغل فى البلاد لتقدم كورتيس وبثارو قليلا بعد نزولهما إلى البر ، ولو أنهما كانا ضابطين فائقين » . المرجع المذكور ، جزء ٢ ، ص ٥٢٩ .

(٢٧) عن ثورة توباك أمارو انظر :

Vazquez de Espinosa, op. cit., p. 596.

(٢٨) انظر .

Arnold Toynbee, "The Study of History" (Abridged Edition), pp. 33, 271.

(٢٩) كتب سييثا دى ليون عن الإنكا يقول : « إنهم قاموا بإنجازات عظيمة وحكموا البلاد بحكمة بالغة حتى إن قليلا من الحكام فاقوهم فى ذلك المضمار . وكان ذكاؤهم مفرطاً وتعلموا دون أن تكون لهم أبجدية ، لأن الأبجدية لم تخترع من قبل فى الهند الغربية . وأدخلوا عادات حسنة فى جميع الأقاليم التى فتحوها ... وشغل تفكيرهم كثيرا خلود الروح وأسرار أخرى من أسرار الطبيعة . وآمنوا بأن هناك خالقا لجميع الأشياء .... وكانوا يتمتعون بفطنة زائدة ودهاء فى تحويل أعدائهم إلى أصدقاء دون اللجوء إلى الحرب . » — «Travels»,op.cit.p136

« ويبدو لى أن لدى شعوب قليلة فى العالم حكومة خيراً من حكومة الإنكا . Ibid., p. 220

وقال الأب فاذ كيث دى إسبينوسا عن الإنكا : « إنهم كانوا ينظرون إلى شعوبهم بعين الاعتبار ، وكانت أوامرهم مطاعة ، ويحترمهم الناس ، بل إن أتباعهم جميعاً كانوا يعبدونهم » .op. cit., pp. 557

وطبقا لرواية روجر مريمان ، « ربما لم يحدث فى أية جهة فى العالم أن عملت تجربة جماعية على نطاق واسع ، وأحرزت قسطاً أكبر من النجاح . وإنه من المحقق إلى درجة كبيرة أن توجد تجربة تنال مثل هذا القسط مستقبلا . » وهو يعزو نجاحها إلى الظروف الآتية : (١) كانت الحكومة حكومة استبدادية مطلقة ، (٢) باستثناء رجال العلم الذين كانوا فى خدمة الانكا ، أى الدولة كان هناك مستوى وحيد النسق من العلم والثقافة ، (٣) لم تكن هناك علاقات خارجية .

"The Rise of the Spanish Empire in the Old World and in the New" (4 vols., New York, 1918—34), III., 551.

وعن حنين الهنود الى الوطن كتب هيرندن وجبن يقولان : « إن تذكر جنس الهنود الحالى ، والذى يجلب الى نفوسهم الرضا ، للعطف والدماثة والإنسانية التى كان الحـكام من الانــكا يولونها أسلافهم ، كثيراً ما كان يقارن بالاستياء بصنوف البؤس والحرمان التى يرون أنهم ذاقوها من الحـكومات المتعاقبة . » op. cit., I,77 .

(٣٠) كان الإسبانيون ، بصفة عامة ، يتحررون فى إيرادهم للاحصاءات ، كما فعل الأب لاس كاساس فى كتابه «Destruction of the Indies» . وطبقا لرواية أوفييدو اختفى أكثر من ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ هندى فى إقليم كاستيا دى أورو فى البرزخ بين سنة ١٥١٤ ، وسنة ١٥٤٢ .op.cit.,III,P.125 وقال إنه بينما كان هناك على وجه الاحتمال مليون هندى فى الجزر إبان الـكشف ، لم يزد الذين بقوا من السكان الأصليين فى سانتو دومنجو على خمسين . — Ibid.,I,7I . لاحظ تعليقات سييثا دى ليون عن تناقص السكان فى أقاليم أمريكا الجنوبية : « هناك هنود قليلون فى تخوم بنا ، لأن جميعهم تقريبا قد أهلـكتهم المعاملة السيئة التى لقوها من الإسبانيين والمرض » . "Travels", op. cit., p, 17 ، « فجميع هذه المروج والسهول (إقليم يوبا يان) كانت عامرة بالسكان من قبل ... والآن يوجد هنود قليلون بسبب الحرب مع الإسبانيين وعادتهم فى أكل بعضهم بعضا ، وأيضا بسبب المجاعة الشديدة التى نجمت عن عدم زرعهم محصولاتهم مؤملين أنه بسبب عدم وجود الطعام فإن الإسبانيين ينزحون عن بلادهم » . Ibid., p. 109 . وعن ولاية شنشا فى بيرو : « كان الوادى عامراً بالسكان الى درجة أن كثيراً من الإسبانيين يقولون ، عندما فتحها الماركيز ، إنها كانت تستوعب ٢٥٫٠٠٠ رجل . وأعتقـد الآن أن بها ٥٫٠٠٠ أو أقل » . Ibid., p. 261 . « واكتظ الهنود فيما مضى فى ولاية أنداهوايلاس هذه ، ولـكن الحروب قد أنقصت من أعدادهم كما أنقصت من عدد الهنود الآخرين فى هذه المملـكة » . Ibid., p. 317 . انظر أيضاً سييثا "The War of Chupas", p. 339. .

« وأنا أعرف من تجاربى التى اكتسبتها خلال إقامتى الطويلة فى الهند الغربية أن كثيراً من أشد صنوف القسوة والإضرار قد لحق بالأهالى » . انظر ما قام به من دراسة .

Sherburne F. Cook and Lesley Byrd Simpson, "The Population of Central Mexico in the Sixteenth Century" (Berkeley and Los Angeles, 1948).

« وفى أقل من قرنين من الزمان نقص عدد السكان الهنود (فى إقليم الأنديز) إلى أكثر من النصف » .

George Kubler, "Handbook of the South American Indian", op. cit., II, 337.

(٣١) طبقا لرواية هنرى هوكس ، أحد رجال جون هوكنز الذين تخلفوا فى فيرا كروث ، « كان للهنود حظوة كبيرة لدى قضاة البلاد ، وكانوا يسمون اليتامى . وإذا حدث وألحق أى

إسبانى بأحد منهم أذى أو سبب له إضراراً بأن يغتصب منه شيئاً . . . أو ضرب أحداً منهم ... فإنه يعاقب بالمثل كما لو أن إسبانياً أساء إلى إسبانى » .

Hakluyt, op. cit., VI, 293.

(٣٢) انظر :

Vazquez de Espinosa op. cit., p. 624.

وطبقاً لرواية الأب فاسكيث كان لمناجم بوتوسى الحق فى استخدام ١٣٣٠٠ هندى يجمعهم الحاكم المحلى من جميع أرجاء الكوياو ، « وبعد أن يتناول كل تعيينه ، فإنهم يصعدون التل ، كل إلى منجمه ، ويدخلون المناجم ويمكثون فيها من تلك الساعة حتى مساء السبت دون أن يخرجوا منها . وتحضر نساؤهم لهم الطعام .

(٣٣) اعتراف بأن ذوى السلطة قد « ارتكبوا صنوفاً من القسوة والإساءة نحو الهنود » فى أثناء الفتح . قال سييثا دى ليون : « كما لا أقرر أن جميع المسيحيين قد أساءوا معاملة الهنود ، لأنى شاهدت كثيراً من الرجال المعتدلين والذين يخافون الله يحسنون معاملتهم ويعالجونهم ويقصدونهم إذا مرضوا ويؤدون لهم خدمات خيرية » .

"Travels" op. cit., p. 12.

ولاحظ سييثا تحسناً كبيراً بعد أن خفت حدة الغزوات العنيفة التى صحبت الحروب الأهلية بين الفاتحين ووضحت آثار « القوانين الجديدة » . أذكر أننى عند ما كنت فى ولاية خوخا منذ بضع سنوات قال لى الهنود بامتنان كثير : « إنه لوقت سعيد كما كان أيام توباك إنكا يوبانكى ، وهو ملك من ملوك الأزمنة القديمة يحملون لذكراه الإجلال والتبجيل » . Ibid., p. 13. « إن حكومة هذه المملكة فى هذه الأيام صالحة إلى درجة أن للهنود السيادة الكاملة على سلعهم وأشخاصهم . وقد انتهى بمشيئة الله الظلم القديم والمعاملة السيئة اللذان كان يلقاهما الهنود » . Ibid., p. 425 . وعن الأحوال التى كانت سائدة فى حياة فرانسسكو بثارو انظر سييثا "TheWar of Las Salinas" p. 230 : « أنصف قليل من الكتاب الأجانب الحكومة الإسبانية بالدرجة التى تستأهلها على حسن معاملتها للهنود Op. cit., I,22.

(٣٤) كتب جون ستيفنز عن الإجراء الذى اتخذته الجمعية التأسيسية فى جواتيمالا يقول . « أقرت الجمعية وجوب تطبيق القاعدة (ضد الهنود) بالقوانين الإسبانية القديمة ، تلك القوانين الصارمة التى كانت أحد الأسباب القوية للثورة فى جميع البلاد الإسبانية . فقد كان هناك شىء مروع فى ذلك التشريع الرجعى » . op. cit., I, 302 . وطبقاً لرواية مدام كالديرون دى لاباركا ، التى كانت زوجة أول سفير إسبانى فى المكسيك والتى كانت فى تلك البلاد فى العقد السادس من القرن التاسع عشر : « حقاً لم يطرأ تحسن ملحوظ فى حالتها منذ الاستقلال . فهم لا يزالون كما كانوا تماماً فقراء وجهلة وعلى نفس درجة الانحطاط التى كانوا عليها سنة ١٨٠٨ ، وإذا زرعوا قدراً صغيراً من الحبوب لحسابهم الخاص تفرض عليهم الضرائب بحيث تصبح الميزة كأنها لم تكن » . Op. cit., p. 368 . وقال خوان بوتستا ألبردى

الفيلسوف السياسى فى الفترة الأولى من العهد الجمهورى : « نحن نتهمهم (الإسبانيين) بأنهم كانوا قساة نحو المتوحشين الهنود . فهل نحن أكثر إنسانية من الإسبانيين فى معاملتهم لمواطنينا الهنود الذين بقوا فى البلاد ؟ » فى

Wililam Rex Crawford, "A Century of Latin American Thought" (Cambridge, Mass., 1944), p. 24.

(٣٥) « بلغت الحرب درجة من الفظاعة لا يمكنها معها الاستمرار ، يقتل المسيحيون كل هندى ويرد الهنود على ذلك بالمثل ، يقتلون المسيحيين » .

Charles Darwin, "The Voyage of the Beagle" (reprint, New York, 1906), p. 98

وكان دارون فى أمريكا الجنوبية بين ١٨٣٢و١٨٣٥ قال إن الحرفة المفضلة لدى جنرال لوبيث فى ولاية سانتاق كانت تصيد الهنود . ومن مدة قصيرة سبقت قتل ٤٨ منهم وباع أطفالهم رقيقاً الواحد بثلاثة أو أربعة جنيهات Ibid., p. 111 .

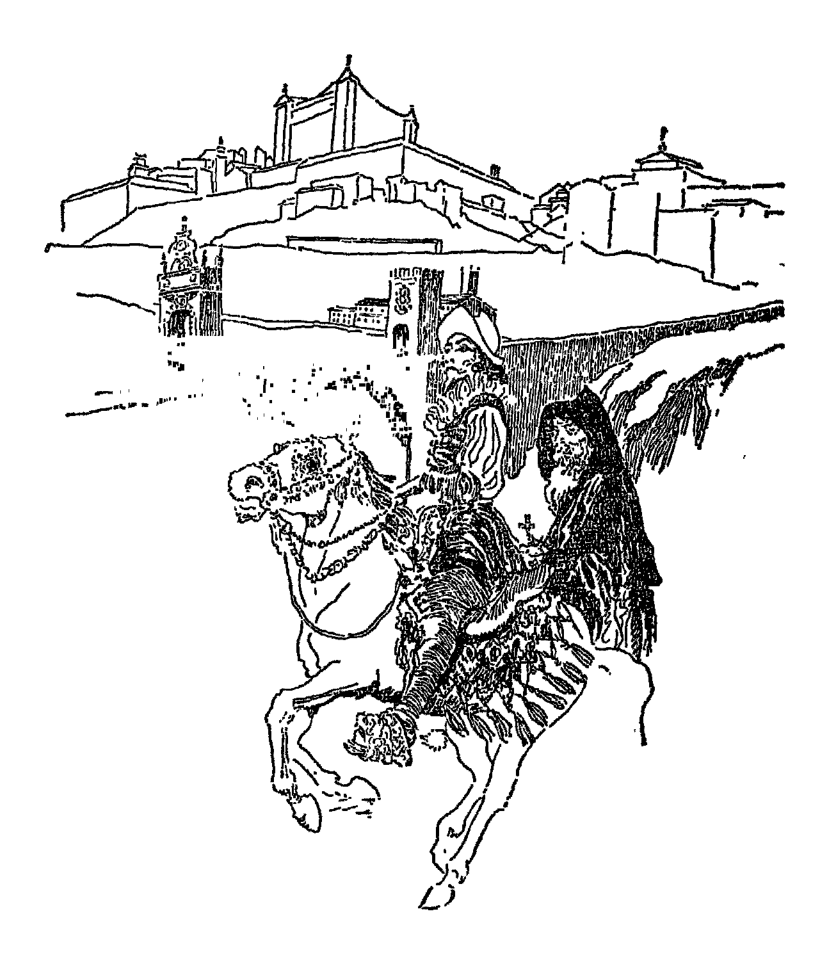
(٣٦) يقوم قسم الأنثروبولوجيا فى جامعة كورنل بدراسة واسعة لهنود الكيشوا فى كاييخون دى هوايلاس فى بيرو ، والهدف هو تحديد مدى استطاعتهم التقدم . وقد أبدى الملازمان هيرندن وجبن ، اللذان أمضيا وقتا طويلا بين هنود أقطار الأنديز فى منتصف القرن الماضى . ملاحظات دقيقة بخصوص الهنود فى مختلف أرجاء أكوادور وبيرو وبوليفيا التى زاراها . ففى بعض الجهات علقا على ســـعادة الهنود الظاهرية واستطاعتهم جلب السرور لأنفسهم ، ولـكن ذلك كان فى الأماكن التى كانوا فيها أكثر تحرراً من الاعتماد على مشيئة « الأوروبيين » . ومع ذلك فقد توصلا فى النهاية إلى أن الحضارة الهندية قد توقفت تماماً ولا تتطلع إلا إلى قليل من التقدم . إلا أنهما أعجبا أيما إعجاب بالفضائل القطرية التى تحـلى بها الهنود . «فهم يقولون الصدق ويتحلون بالأمانة ويحترمون بعضهم بعضا ولا يداهنون . فهناك يوجد العطف والأدب المنزهان عن الأغراض فى حالة نقية » . op cit., I, p. 83 .

أما بيتس ، الذى سجل تأملات شائقة عن الهنود والسلالات المختلطـة فى وادى الأمزون ، فقال . « من المحتمل جداً أنه قبل امكان إصلاح الهنود بأعداد جمة يكونون قد انقرضوا كجنس ، غير أن هناك صعوبة أقل بخصوص المولدين الذين يبدون فى بعض الأحيان قدراً من الإقدام والتحرر حتى ولو كانت نسبة الدم الأبيض فيهم صغيرة » .

"The Naturalist on the Amazons (Everyman Edition), p. 278.

انظر بصفة خاصة ص ٢٦٠ عن أخلاق الهنود .





الفصل الثالث

الإسبان

ثمان عشرة من الجمهوريات العشرين فى أمريكا اللاتينية أمريكية — إسبانية . وهى جميعا تشغل ٥٧ ٪ تقريبا من مساحة أمريكا اللاتينية ، أو حوالى ٤٫٤٠٠٫٠٠٠ ميل مربع من الأرض ، وحوالى ٦٤ ٪ من مجموع السكان — ويبلغون حوالى ١٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠(*) — هم ورثة لمدنية يمكن القول عنها إنها إسبانية ، أو قل أقرب إلى الإسبانية لا أبعد ، إذا استثنينا الدول التى يغلب فيها الهنود . فقد تركت إسبانيا سمتها على خريطة العالم

(*) تقدير سنة ١٩٦٥

الجديد من كوردوفا وفالديث فى ألاسكا إلى تيرا دل فويجو . وتركت سمتها عميقا فى عقول الناس وفى لغاتهم فى البلاد التى استعمرتها فترة طويلة من الزمن .

وعلى الرغم من انتماء الإسبانيين إلى أصول جنسية معقدة — مركب من جنس « أيبيرى » أصلى ، وإغريقى ، وفينيقى — قرطاجنى ، وروماني ، وعربى ، وألمانى ، وإفريقى شمالى ، وشوارد جنسية مثل الباسك(١) ، فقد بلغوا درجة فريدة فى كونهم قوما غير معقدين . ومن المرجح أن أخلاق جنس شبه الجزيرة الأصلى كانت متأصلة منذ أقدم العصور ، لدرجة أن موجات الفاتحين والمستعمرين لم تستطع أن تغيرها تغييرا جوهريا . لذلك ، فكما وصف كتاب العصور القديمة الكلاسيكية أمثال اصطرابون الإسبانيين ، نجدهم اليوم كما وصفهم إلى حد كبير . ولم يضف الوافدون بعد ذلك سوى تفصيلات ضئيلة إلى النمط العام الذى تبلور نهائيا منذ أمد بعيد . وإذا انتهى القتال وقبل الإسبانيون حكم روما لم يترتب على تكامل العناصر الإسبانية والرومانية أية مشكلات جدية . وبمرور الوقت أصبحت إسبانيا رومانية أكثر من إيطاليا، ذلك لأن الفريقين اشتركا فى كثير من الأمور، وعلى قدم المساواة عاشا متجانسين وباحترام متبادل . وفى وقت لاحق لقى التسرب الكثير من دم سكان شمال إفريقية فى الجنس الإسبانى الأصلى وسطا يرتاب فى تقبله وبدا كأنه يقاومه باللجوء إلى تمسكه بأجداده الأولين بيولوجيا .

وهناك قدر كبير من قوة الاستمرار والمتانة تتصف بها إسبانيا . ففى مدريد وبرشلونة تسببت الاحتكاكات العالمية فى تشذيب العادات المتبلورة القديمة قليلا ، وخضع الناس بعض الشىء خضوعا سطحيا للأساليب الغربية . ولكن فى المدن القديمة التى هى روح إسبانيا — أمثال أريفالو

وكوينكا وروندا(*) — استمرت الحياة من قرن إلى قرن بتغير قليل فى أساسياتها ، وعندما غامر برو وجاب إسبانيا فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لاحظ أن الناس والأشياء لابد انها كانت مشابهة إلى حد كبير لما كانت عليه لتسعة قرون خلت من قبل .

وأسهل على المرء أن يفهم الإسبانيين من أن يفهم ، على سبيل المثال ، الألمانيين، أو فى هذا الصدد ، أن يفهمنا نحن الأمريكيين . وهذا بالنسبة إلى الشخص الذى يرضى قبول آراء الإسبانى الغريبة عن العقيدة ، أو الذى لا يحاول تطبيق معايير سلوكه على شعب له أسلوب نفسانى آخر ومجموعة مختلفة من القيم . فمن الواضح أن الإسبانيين قوم مخالفون لتعاليم الكنيسة وجانحون ، بحيث لا يتشجع الأجانب من أول وهلة أن يجهدوا أنفسهم فى تحليل النفس الإســـبانية بالأسلوب المألوف لديهم ، بل يسلمون فقط « كمبدأ عام » بأنهم شعب غير منطقى وغير عادى . فليس هناك صفات مرضية ولا مقبولة فى الطبع الإسبانى ، بل هناك صفة واحدة تسيطر على كل شىء — وهى الفردية — فالإسبانى لا يتصرف مع نفسه لتحقيق أغراض متعارضة ، كما نميل نحن أن نفعل فإذا وضع فى مجموعة ظروف معلومة فمن الميسور التنبؤ باتجاه مسلكه ، فهو إسبانى تماما فى جوهره . ويستطيع المرء أن يتأكد أنه سوف تصدر عن ذلك « إسبانيات » — تلك الأشياء التى يمكن أن تحدث فى إسبانيا فقط — أشياء ذات صفة مميزة ، إذا تكلمنا عن صفات الشعب ، كالصينية أو الأيرلندية ، وكثيرا ما تكون غير مفهومة للأجنبى .

ومع ذلك فهناك كثير من الأمور المتضاربة المتناقضة حوله[٢] . فهناك انقسام الشخصية الأبدى بين دون كيخوت وسانشوبانثا ، أو الجمع المتباين ظاهريا فى نفس الشخصية ، الصفة العملية وغير العملية ، الواقعية

(*) ملجا (مالقا) .

والخيالية ، الحقيقية والمثالية فإذا لبس ثوب الكيخوتية فإن أية محاولة لتجعل من أفعال وردود أفعال الإسبانى ، شيئا معقولا ، يسهلها أن نفترض ، من أول وهلة أنها بالنسبة للأجنبي لا تحمل أى معنى مطلقا . فإذا سلمنا بهذا الافتراض الأساسى يتضح الباعث الذى يدفعه إلى سلوكه ، كما يتضح دائما الشيء غير المعقول . وهكذا بعد أن بدا لجنتالو خمينيث أنه حقق كل ما تمناه قلبه ، وبلغ من العمر ما يجعله يستقر ويستمتع بذلك ، غامر بكل شيء حققه بأن ذهب فى مطاردة طائشة إلى الفيافى بحثا عن مروج الذهب (الدورادو)[٣] . وفى فتح تشيلى تآمر بعض رجال فالدفيا لإرسال الذهب إلى بيرو مخالفين بذلك أوامره . فلما سمع عن خططهم واستولى على الذهب فى أثناء شحنه فى إحدى السفن اندفع أحد الجنود ، وكان موسيقيا كما كان مقاتلا ، فى نزوة من الكبرياء الهائج وحطم قيثارته الثمينة على جدار السفينة ، وعندما غزت الجيوش الفرنسية إسبانيا فى حروب شبه الجزيرة أرسل قاضى(*) أو عمدة موستوليس وهى قرية فى قشتالة، إلى نابليون بونابرت إعلان حرب خطيرا باسمه خاصة . وفى أثناء الثورات فى المكسيك لجأ أحد الجنود الصغار من فرقة مهزومة إلى إحدى الأشجار ، وكان الأعداء على وشك أن يرموه بالرصاص من محطه حين صاح قائلا : « أنا شاعر » ، وعند ذلك أمر ضابط الجماعة رجاله أن ينكسوا بندقياتهم . هؤلاء بضعة من سلالة إسبانيا الخالدة الذين تملكتهم الصورة الخيالية المحبوبة التى رسمها سرفانتيس . وينتهى بنا الحديث إلى أن نقرر أن الإسبانى يدرك أوهامه كأوهام ، ولكنه مع ذلك يعتز بها لأنها توحى إليه رؤيا الكمال التى لا يستطيع إدراكها . فهو يحلم وعيناه مفتوحتان ، فى حين تتشبث قدماه ثابتتين على الأرض .

(*) alcalde

ويمتاز الإسبانيون بدرجة فائقة بفضيلة « الأخلاق » ، فهم شعب قوى جدا وحى إلى درجة زائدة ، وتتملكهم حكمة عميقة بخصوص الحياة لم يستقوها من الكتب لأنهم شعب لا يقرأ ، ولكن استقوها من كونهم عاشوا زمنا مديدا للغاية ، ومليئا للغاية ، وقريبا للغاية ، من حقائق الوجود المادية .

وتتجلى فلسفة حياتهم الدنيوية والمادية فى مدخراتهم الزاخرة بالأمثال ، فكما تفوه سليمان الحكيم « بثلاثة آلاف مثل » فكذلك تعود الإسبانيون أن يتحادثوا بالأمثال . فالعبارات البسيطة كثيرا ما ترتجل بلغة تيسر إلقاؤها موزونة ، وتعكس تجاربهم اليومية مع الأشياء والناس ، وهى الميزان الذى اكتسبوه بالخبرة عن هزائمهم وانتصاراتهم .

وفى الإسبانى بقية من صفات بدائية أو وحشية . وهذه مرجعها فى الغالب إلى إيمانه بالقضاء والقدر واستخفافه بالموت ، وإحساسه بفواجع الحياة وعدم استقرارها . فهو متشائم منذ ولادته ، وفى دوام توقعه أسوأ الأمور كثيرا ما لا يخيب له رجاء . ويمتاز مظهره الخارجى كذلك بالبساطة والاستقامة وصرامة المتوحش . وطالما كانت الحياة صعبة بالنسبة إليه ، ولذلك لم يكن فى يوم من الأيام رقيقا أو مهذبا إلى حد زائد نتيجة يسر الحياة ونعيمها . ولم يعرف أبدا معنى « للأمان » فيما عدا ضمان كفاحه الذى لا يفتر ضد نوائب القدر المثقلة . وما هو فى حوزته إنما حصل عليه بكده وذكائه ، وحظ واتاه ، ومعروف أداه إليه أصدقاؤه وإذا استثنينا قلة من الناس ، لم يكن هذا شيئا كثيرا ، لأن هناك وفرة قليلة فى إسبانيا . ولكنها كانت كافية لتهيىء البقاء لهذا الشعب الشاحب الوجه الصلب العود ، وبفائض كاف لتكسبه عبقريته القومية . ومع ذلك فحوادث التاريخ تركت فرصة ضئيلة للغاية لاقتباس السلوك المهذب ودماثة الأخلاق الخارجية التى يتصف بها الفرنسيون والإيطاليون . وحقيقة الأمر

أن الإسبانى يستطيع أن يرجع إلى الوراء فى كهوف التاميرا ويشعر آنذاك أنه « فى موطنه » دون أن يحس بصدمة شديدة عندما يوفق حياته معها من جديد .

ومبدأ المحافظة الأساسى عنده وعدم ثقته بالأجانب والدخلاء عموما هما كذلك دليل على صفات الرجل الفطرى . فالإسبانى لا يغير بسهولة طرق حياته ويستبدل بها طرق غيره ، أو ينقل حيل المعيشة أو آليات الشعوب الأخرى دون تمحيص متناه فى دقة وريبة غريزية فى نفعها . فمن الصعب تحويله إلى أى شىء . كتب دوق ولنجتن فى سنة ١٨٢٠ عن كراهية الإسبانيين الشديدة للأجانب يقول : « ليس هناك بلد فى أوروبا يستطيع الأجانب التدخل فى شئونه بفائدة ضئيلة كما هى الحال فى إسبانيا . وليس هناك بلد فيه يشتد بغض الأجانب مثلها ، بل يحتقرون ، وفيه يقل تلاؤم أحوال الناس وعاداتهم بنظائرها فى أمم أوروبا الأخرى»(٤).

والإسبانى شخص شهوانى(٥). وليس من الضرورى أن يكون متظاهرا أو قوالا أو عنيفا بخصوص ذلك . فقد تتأجج النار فى قلبه فلا تبدو لشخص آخر ، ولكنها تتأجج عنيفة مع ذلك . ولهذا فقد لا يسلك مسلكا يمليه العقل أو المنطق أو تقدير هادىء للأمور ، لأن عقله غير منتظم أو مرتب ، ولكن على هدى البديهة وبدافع الاحساس الشديد(٦) . وقد يفعل شيئاً بلا غرض معقول مطلقا ، ولكن بدافع النزوة ليس إلا ، ثم تراه يتصرف تحت تأثير « تحرك الروح »(*) ، وقد اقترح انجيل جانيفيه متهكما أنه لكى تستوفى « المثالية الشرعية » للأمة « يجب على كل إسبانى أن يحمل فى جيبه ميثاقا للحقوق الخاصة(**)، بشرط واحد — أن هذا الإسبانى له أن يفعل مايشاء » ، فإذا أراد أحد أن يؤثر فى هذا الشخص فيجب عليه أن يلجأ

(*) gana
(**) fuero

إلى العاطفة أو الاقتناع ، لا إلى العقل ، أو حتى إلى المصلحة ، والإسبانى لايخضع للتفكير ، ولا يرتضى أن يفقد شخصيته فى « قالب الفكر الشاحب» — التفكير غير الهادف الذى لا ينتهى أبداً إلى فعل — أو فى الموازنة الحريصة بين إجراء ما وبديل له .

والمثل الأعلى للإسبانى كان ، ولايزال ، السمو فوق تأثيرات الظروف الخارجية . فلقد تاق إلى أن روحه يجب أن تكون محصنة « ضد منغصات الحياة ونكباتها » ، أى جميع الأشياء التى تحطم صغار الناس وتدفعهم إلى المذلة . وفى هذا الصدد من المهم أن نذكر أن لوشيوس سنكا ، وهو الرواقى(*) المفطور على الإسبانية كان ، ولايزال، فيلسوف إسبانيا المفضل، ويكاد يوضع فى منزلة قديسى الكنيسة . والرسالة القرطبية « حول ثبات الرجل العاقل»(**) هى موعظة من فضائل البلادة إزاء حلول المصيبة ، وقد لاقت قبولا شديدا لدى أسلافه كمبدأ إسبانى عجيب للسلوك والطريقة التى نفذ بها سنكا أمر نيرون له بالانتحار ساعدت كذلك على زيادة هيبته بين الإسبانيين . فقد اعتقدوا أن واحداً فقط من بينهم قد استطاع ، بعد أن هوى من تلك المنزلة العالية ولقى ذلك المصير المفزع ، أن يموت بقدر كبير حقا من عزة النفس ورباطة الجأش . ومع ذلك فقد كان عليهم أن يدركوا أن أهالى العالم الجديد كانوا يستطيعون أن يكونوا رواقيين أمام الموت العنيف ، كما تظاهر أمامهم كوايو تمك وتوباك أمارو وآلاف غيرهما فى ساعة الموت .

وعلى الرغم من أن الموت كان يعد الاختبار النهائى للأخلاق فقد كان إجراء عقيما للغاية ، إذا أريد من ناحية عملية ، فيما عدا كونه مثلا للغير

(*) انظر القسم التالى .

(**) «De Constantia Sapientis»

كيف يموت الإنسان فى سبيل شىء جدير بالتضحية . ولكن الإسبانيين اهتموا قليلا بالنواحى العملية للموت . فقد تملك مشاعرهم قرب حلوله ، وكانوا على يقين من أنه آت لامناص منه، ويتوقون إلى الحفاظ على شخصيتهم الانفرادية واسمهم خارج القبر. وكانت حقيقة الموت تشغل بالهم، وفى بعض الأحيان يميلون إلى التعمق فيه بالحاح وبيل ، كما فعلوا بفنونهم الدينية . ولكنهم كانوا على استعداد لتقبله إذا حضر وبدون أن يبدوا نوعا من البطولة أو الهوس ، لأن من واجب الإسبانى أن يموت على ذلك النحو . فهم شعب شجاع جدا فى حضرة الموت ، وقد اعتبرهم البعض شجعانا أكثر منهم عقلاء ، كما فعل براشيودا مونتونى زعيم مغامرى بيروجيا الذى كان فى خدمة ملك الأرجون فى الحروب الإيطالية . فقد خاطب الجنود الإسبانيين المتهورين قائلا : « إنكم تظنون أنه من الشرف أن يمزقكم عدوكم إربا ، فهذا أكرم من الهروب بحياتكم والاحتفاظ بأنفسكم ليوم الانتقام » . وقال الجنود الفرنسيون الذين رفضوا أن يقاتلوا قوات القائد العظيم كونسا لفودى، كوردوفا : « هؤلاء الإسبانيون المجانين يقدرون شرفا ضئيلا ينالهم أكثر من ألف حياة ، ولا يستطيعون أن يتمتعوا بهذه الحياة » . ولمصارعة التيران سحر لدى الإسبانيين بوصف كونها عيداً للموت(*) لأن الموت يتجسم فى قرنى الثور، ويستطيع المصارع أن يحتال لكيلا يفترسه بالشجاعة والرشاقة والمهارة .

الرواقية** الاسبانية

بالنسبة إلى شعب يضرب به المثل فى كونه لا يهتم كثيراً بظروف الحياة المادية، نجد أن المذهب الرواقى قد حصنه ضد ظروف الفاقة والآلم والمعاملة

(*) Fiesta de la muerte

(**) الرواقية مذهب فلسفى اسسه زينو (مات حوالى سنة ٢٦١ ق٠م) وخلاصته عدم الاكتراث بالسرور أو الالم والرضاء والقناعة وتبلد الاحساس .

القاسية التى كان يلقاها من الغير ، تلك الأشياء التى كانت بصفة عامة تعد أموراً عادية وغير لافتة للأنظار ، ولكن قد يضطر المرء لأن يعيش بين أحضانها طول حياته . ولذلك عاش الإسبانيون عيشة متقشفة ومعتدلة . وقد جاء إليهم نكران الذات سهلا ، ويتحملون صنوف الحرمان أكثر بكثير من معظم الشعوب لأنهم تعودوا أن يقنعوا بالقليل . ومن المهم أن نلاحظ القدر الضئيل الذى أضافته ثروة جزر الهند فى القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى تيسير الحياة وبحبوحتها فى إسبانيا . فعلى خلاف طبقة التجاريين والرأسماليين فى مدن شمال أوربا خلال نفس القرنين المذكورين كانت هناك فرصة قليلة للوصول إلى الرفاهية على الرغم من الكنوز التى تدفقت فى إسبانيا من العالم الجديد . فقد استجدت قصور خاصة قليلة العدد جدا ، وبقيت حتى مساكن الطبقة الميسورة جرداء كما كانت دائما . وكانت كل الكنائس الكبيرة تقريبا قد بنيت من قبل أن يكتشف كولمبس أمريكا، غير أن أموالا كثيرة صرفت على تزيينها داخليا زيادة فى تمجيد العذراء . ومن المؤكد أن الإسبانيين لم يسرفوا فى الأكل ، ومن المحتمل أن مقادير الطعام المتداولة فى القرن السابع عشر كانت أقل منها فى القرن الخامس عشر . ولكن شد الأحزمة على البطون لم يتسبب أبدا فى ثورات من أجل الطعام بين هذا الشعب المتزن العفوف الذى لم يعرف طوال تاريخه سوى القليل من الانغماس والترف . وفى تخاطب الإسبانيين قلما يسمع المرء عبارات مثل « رخاء » أو « ربح » لأنها عبارات غير مألوفة لديهم . فإذا بدا « الرجل الصغير » فى إسبانيا ، وكثيراً ما يبدو ، شرها و« يده مغلولة إلى عنقه » فمرجع ذلك فقط إلى أن قسوة شظف العيش كثيرا ما تكون ذات وقع شديد عليه ، ولذلك لا يستطيع أن يكون على استعداد لأى نوع من الإسراف . ومع ذلك فحتى فى كفافه يبدى علائم الجود التى يتصف بها الأمراء أمام شخص آخر . وليس هناك سخاء فى العطاء أو كرم الضيافة

فى شتى أرجاء العالم الغربى كما هو بين هذا الشعب الهزيل . فليس هناك أناس غيرهم يعطون للأشياء اقل قيمة ، ولغنى النفس أكبر قيمة .

وعدم الاكتراث الذى يبديهالإسبانيون خاصابمصيرهم المادى مسئول إلى حد كبير عن صفاء الروح أو سكينتها التى يقضون فيها معظم حياتهم . ولربما كانت هذه الفلسفة منعشة ومريحة فى عالم كدر يتقطب فيه الجبين وتعض فيه الأنامل . ومن الناحية الأخرى ربما تؤدى إلى الاستسلام لظروف قد يكون من الممكن تغييرها بسهولة إذا مورست العزائم الهاجعة قليلا . ولكن تحسين الحال قد لايستأهل من الإسبانى الاكتراث . أما الشكوى من أن عدم اكتراثه هذا يضر بالأعمال،وقد يعنى القضاء على التطور ، فلا تحرك منه ساكنا بطبيعة الحال . وفى هذه الحالة يضع حدا للمناقشة بقوله : « لايهم ! » (*) وبعلائم مناسبة لإنهاء الحديث .

وبالنظرة الرواقية إلى الحياة أصبح هناك تحكم فى المظهر الخارجى للشعور(٧) . فيجب على الرجل المهذب(**) أن يكون متمالكا شخصيته ، أى ثابت الجأش(***) ما أمكن ومتحكما فى مسلكه ، ويجب عليه أن يحتفظ لنفسه ويحبس سر عواطفه الداخلية فلا يفشيها ، كما فعل فيليب الثانى عندما جاءته أخبار كارثة الأرمادا . وإن صفة التحفظ هذه هى التى تجعل وجوه الإسبانيين فى لوحات العصر الكلاسيكى تبدو جامدة ومتحجرة للغاية. وإذا استثنينا قدرا معلوما من الغطرسة فقلما تخبرنا هذه اللوحات عن أى شىء يجرى وراء القناع . فمثلا لانجد شيئا مطلقا وراء وجوه الملوك الذين رسمهم فيلاسكيث ، ولكن قلما يقال هذا بالنسبة إلى الصورة التى رسمها للأمير الدوق أو أمير البحر بوليدو باريخا .

(*) No importa

(**) Caballero : كاباييرو

(***) Contenido

أنماط إسبانيا

كانت هناك، وتوجد الآن، بضعة أنماط لإسبانيا: قشتالة القديمة وقشتالة الجديدة، أراجون، غاليسيا، استورياس، الأندلس، كتالونيا، فشكايا، وهكذا. وقليل منها، مثل الأندلس، لم تكن فى يوم من الأيام وحدات سياسية، بل كان معظمها من قبل ممالك مستقلة (ويعادى بعضها بعضها) . وكانت كل منهما، منفصلة عن الأخرى، تمثل انعطافا نحو التباعد وأنواع الولاء المحلى التى تعد انعكاسا للفردية الإسبانية . وعندما وصل دور توحيد البلاد الطويل إلى نهايته فى أواخر القرن الخامس عشر، بقيت إحدى الولايات القديمة خارج الدولة الجديدة باسم البرتغال، وظلت أخرى مثل كتالونيا وولايات الباسك فى حالة تبرم داخل بناء إسبانيا المركزى .

وشارك رجال الأنماط الإسبانية، ولو بدرجات متفاوتة، فى فتح واستعمار العالم الجديد وفى تطويره من بعد ذلك، كما لا يزال يفعل القادمون المتأخرون من شبه الجزيرة . وفضل بعضهم أقاليم بالذات، فضلوها، بصفة عامة، لتشابه حقيقى أو وهمى للولايات المحلية التى جاءوا منها، ففى مستعمرة بيرو مثلا بقى أهالى الأندلس وغاليسيا عادة على الساحل . أما الباسك ومواطنو استريمادورا ففضلوا الأراضى الجبلية وبعد أن أشار الكسندر فون همبولدت إلى نبوغ الأندلسيين وأهالى جزر كناريا فى فنتويلا، وأهالى أستورياس والباسك فى المكسيك، وأهالى كتالونيا فى بوينس ايريس، أبدى — فى أوائل القرن الماضى — الملاحظات الآتية على رسوخ الصفات الإقليمية الإسبانية فى العالم الجديد قال: «إنهم يختلفون اختلافا أساسيا فى استعدادهم للزراعة والفنون الآلية والتجارة ومجالات النشاط الأخرى التى تعتمد على نمو الذكاء . واحتفظ كل من هذه الشعوب بسحنته الخاصة ودمائه أو خشونة أخلاقه واهتمامه الزائد أو القليل بالربح وبكرمه الحانى، أو قد يندفع إلى العزلة» .

والاختلافات الإقليمية ذات مغزى أكثر خطورة من كونه لافتا للأنظار حتى بالنسبة إلى الباسك والكتالونى اللذين يختلفان ، ومعهما الأندلسى ، اختلافا كثيراً عن النموذج القومى(٨) . فهناك دائما وراء مظاهر الإقليمية — الملابس المميزة والعادات ، والصفات الغريبة فى الكلام أو الأشياء الخارجية الأخرى، كما تظهر فى الفنون الحائطية لسوروريا فى متحف نيويورك الإسبانى — إسبانى من نوع ما . وفوق كل شىء فهو سيد نفسه مهما يكن أصل موطنه .

وقد كانت قشتالة النواة المتوسطة التى اتحدت معها الأقاليم الأخرى تدريجيا لتكون إسبانيا ، وتعودت السيطرة والنزعة الامبريالية التى قدرت لها الزعامة فى زمن مبكر . وكنموذج أصلى تجسم فى أصل قشتالة « الإسبانيولية »(*) أى اتحاد الصفات التى تميز الإسبانيين بعضهم عن بعض إما نوعا وإما درجة . أما أشد منافسيهم فى الزعامة فهم أهالى أراجون ، وهم قوم أشداء ، يتصفون بالخشونة ، كونوا لأنفسهم سيطرة على شعوب تختلف عنهم كثيرا كأهالى كتالونيا الواقعيين، وأهالى بلنسية الذين يتصفون بالعنف والذين كونوا لأنفسهم امبراطورية فى إيطاليا قبل أن يكشف كولمبس جزر الهند بوقت طويل لحساب قشتالة وأهالى كتالونيا قريبو الصلة بالفرنسيين فى مقاطعة لانجدوك ومن المرجح أنهم ،دون سائر الإسبانيين، على طرفى نقيض من ناحية الطبع مع أهالى الأندلس فى الركن الآخر من شبه الجزيرة ولما كانوا قوما بحريين ، وجوههم نحو البحر وظهورهم نحو بقية إسبانيا ، فإن اهتماماتهم كانت أكثر صلة بالبحر المتوسط منها بالقارة . ونظراً إلى خضوعهم لأراجون يرجع إليهم ، إلى حد كبير ، الدافع الذى كان يكمن وراء بناء الامبراطورية التى أنشأتها تلك المملكة فى إيطاليا . وعلى الرغم من

(*) espanolismo

أنهم يتصفون بالمغامرة وبالعقلية التجارية، فقد كان لهم شأن ضئيل جدا بفتح العالم الجديد أو بالاستغلال المبكر لموارده .

ويكمن لغز الباسك جميعه فى أصلهم الجنسى ، لأن هؤلاء القوم الذين يتصفون بالصراحة والاستقامة لا يستسلمون إلاقليلا للخداع والاعوجاج. وإذ اتصفوا بكونهم قوما شجعانا أشداء وذوى أخلاق متينة جدا ويعتمد عليهم كل الاعتماد ، نراهم أشد الناس جميعا كبرياء ، ولكن كبرياءهم كانت أقرب لأن تعد تعبيرا عن إحساسهم العدوانى العنيد بتفوقهم الجنسى والمساواة الفردية عن كونه موقفا مصطنعا وادعاء بسمو مركزهم . وقد جاءوا إلى العالم الجديد متأخرين ، ولكنهم ، مع أهالى استورياس كان عليهم أن يقوموا بدور الرائد فى تنمية أقاليم التعدين الرئيسية فى المكسيك وبيرو . وفى وقت لاحق وقع عليهم القيام بدورهام جداً فى حياة تشيلى .وفى الركن الشمالى الغربى النائى من شبه الجزيرة تقع غاليسياالإسبانية . وأهالى غاليسيا اكثر شبها بالبرتغاليين فى عاداتهم وفى لهجة كلامهم ، وهم شعب مثابر ويعتمد عليه على الرغم من أن ملكة التخيل عندهم ضعيفة ، وقد أضاف جدهم قدرا قيما إلى كوبا وأرجنتينا وإلى البلاد الأخرى التى استقر فيها أعداد منهم .

الأندلس

القبيلة الأندلسية من أعظم قبائل إسبانيا إثارة للاهتمام . وقد تكيف الأندلسى باتصالات طويلة وحميمة — بما فى ذلك الاتصالات البيولوجية — بشعوب كثيرة ، وخصوصا ببنى عمومته المغاربة فيما وراء المضيق . وبضعة آلاف من السنين أقامها الأندلسى فى موطن جذاب طبعت مظاهر هذا الوطن التى لاتمحى فى نفسه العتيقة والانفعالية . وفى مظهره وطرق معيشته ، كما فى الآثار المبعثرة فى أرضه المشمسة — مناجم النحاس التى تنتمى إلى عصر البرونز فى ريو تنتو ، أطلال ايتاليكا ، والحمراء والقصر

وقادس نفسها — يقف المرء على أسلافه مختلق الجنس . وتردد على سواحله أبطال الخرافات أو التاريخ — أوديسيوس وربابنة السفن الذين لاتعرف لهم أسماء ، والذين قدموا إلى تارشيش المذكورة فى الإنجيل ، وهانيبال وقيصر ، والقديس جيمس وطارق بن زياد ، وكولمبس وماجلان ودل كانو ، والأبطال الذين فتحوا العالم الجديد . والأندلسيون ، كالصينيين ، متناهون فى القدم ، ولذلك ، فكما لاحظ أورتيجا — ى — جاسيه ، أفنوا إمبراطوريات وسيطرات كثيرة ومحنا أخرى ، ومن ثم يكفيهم مايقدم لهم فى يومهم دون أن يقلق بالهم ماقد يأتى به الغد . فقد وقعت أبصارهم على أشياء كثيرة جدا لدرجة جعلتهم لايتسترون على خديعة ما . وليس هناك افتنانات أو ألغاز تحيرهم ، وأنعموا النظر فى وجه أبى الهول وسبروا جميع أغواره . ولما كانوا شعبا مرنا فقد تعلموا كيف ينحنون للأعاصير البشرية التى كانت ترسل عليهم .

وهم يجمعون بين الوقاحة تارة والتعصب تارة أخرى ، كما لو كانوا لايعتقدون فى شىء اعتقادا راسخا . فأهالى أشبيلية — لكونهم يجيدون التمثيل — يستطيعون أن يتحولوا من الجدية الطاغية التى يتصف بها أسبوع الآلام(*) إلى مساخر الاحتفالات فى الإجازات بتغيير بسيط فى تعبير الوجه ، دليلا على تغير المزاج . ويشك الغريب أنهم فى أعماق أنفسهم يحتفظون بهيكل وثنى خاص بهم يشتمل على مذابح لجميع الآلهة التى عبدوها عبر العصور — عشتروت (**) وافروديدة وايريس وباكوس(***) ورع + وبان الإله الجدى ++ مما يرضى غرائزهم المتقلبة ، وربما

(*) Semana Santa

(**) إله الخلقة .

(***) إله الخمر .

+ إله الشمس

++ إله المرعى .

يشتمل كذلك على حرم للإله بعل (*) والإله مثرا (**) وإله مرح من آلهة الغجر(***) الجوالين . وبتأثير سحر القمر فى منزلة الهلال قد يتجهون إلى قرطبة التى كانت مقر حكم الخلفاء ليؤدوا التحية اللائقة لمحمد عليه الصلاة والسلام .

وهم يتقبلون الحياة كما يتلقونها ، ويسخرون بلا اكتراث من كل شىء يمثل حولهم على مسرح الحياة . وعلى الرغم من أنهم يمتلكون النزر لا لشىء إلا ليحميهم من غوائل الزمن ، والشمس ، وقوة روحهم ، فإن لديهم مقدرة أبيقورية + للتمتع والابتهاج. فبلادهم هى البلاد الكلاسيكية للرقصات العظيمة بالنسبة للعالم ولأهالى قادس وأشبيلية الرشقاء الذين يؤدونها ، وللثيران المصارعة والرجال النور الذين ينازلونها ، ونواح أغانى الغجر على موسيقى القيثار . وهناك فى كاندرائية أشبيلية الكبيرة وحدها دون سائر البلاد المسيحية يرقصون مرة فى كل عام ، وعلى الرغم من أن الرقص متزن وله صفة الطقوس الدينية ، فهو رقص على كل حال ، ويعدّ لذلك إذعانا للوثنية الكامنة فى الأندلس .

ونظراً إلى ما اتصف به الأندلسيون من الشهوانية وعدم البخل ، والروغان والهرب ، والتراخى والخمول ، وأصبحوا شعبا لايبالى ، منحهم الله رؤية الحياة بوضوح ، وقد جردت من كثير من المظاهر التى يختبىء وراءها ذوو النفوس المزعزعة خوفا من صدمات القدر . وبوصف كونهم أقل الإسبانيين بداءة ، فقد اتصفوا بالتباهى الغريزى الذى تبديه قطط الطرقات ، واتصفوا كذلك برقة القطط فى حركاتهم .

(*) إله فنيقى أفاق .

(**) إله النور عند الفرس .

(***) Romany

(+) نسبة إلى فلسفة أبيقور القائلة بأن السعادة تأتى براحة البال عن طريق العيشة الفاضلة .

وبينما تعد أشبيلية كعبة كل إسبانى يميل إلى الهرب من فشل وقصور فى بلده أو فى قرارة نفسه ، وبينما أصبحت أحب المدن فى أرجاء إسبانيا ، فإن الإسبانيين العابسين وأقوياء العزيمة خارج الأندلس لاينظرون إلى أهلها المرحين نظرة مفرطة الجدية ، بل يشاركهم الأندلسيون أنفسهم فضلا عن ذلك ويسخر الغير من حديثهم المستهجن ، ومن سلوكهم المتكلف ، وثرثرتهم ، واللامبالاة الظاهرية التى يبدونها فى كل المناسبات ، وشقشقة اللسان التى تنزلق فيها مبالغتهم انزلاقا طبيعيا ، ونفورهم من تضحية أنفسهم فى سبيل أية معتقدات قد يستمسكون بها .

وكون الأندلسيون قسما كبيرا من الجند فى فتح العالم الجديد(٩) . وقد امتازوا بذكائهم السريع ، وسعة الحيلة ، وقدر من شهامة يشوبها الخيلاء ، وأيضا بأساليبهم غير المسئولة ، ورفضهم قبول الرواية الرسمية لأى شىء كحقيقة منزلة . وقد أظهروا دائما ذكاء مشهوداً للتغلب على الخلافات ، ولطفا فى معالجة الأمور خفف من تأثير الغلظة التى اتصف بها بنو جلدتهم الإسبانيون فى كل مكان التقوا فيه ، كما فعلوا فى العالم الجديد ، فى جوادا لاخارا وهافانا وليما .

الأسبانيون فى العالم الجديد

كان للأثر الإسبانى فى الأمريكيتين وقع مباشر لفترة تزيد على ثلاثة قرون ، ففى بادىء الأمر اتخذ ستار الفاتح والمستعمر ، وبعد مدة من الزمن كان على هيئة الحاكم والقس ومعلم الشعوب الرعايا ، ودائما فى صورة الجد الأول للأجناس المختلطة ، وأخيرا ، وبعد أن نالت البلاد استقلالها ، كمهاجرين إلى أقطار لم تكن بعد ملكا لهم ليحكموها . ففى الأرجنتين وكوبا كان تسرب الدم الإسبانى الجديد هذا أكثر مما كان فى عهود الاستعمار ، وأكسب أخلاق تلك الشعوب طابعاً خاصا . وفى أثناء عبور الأطلنطى

طرأت على الأخلاق الإسبانية بعض تغيرات . ولم تنتقص شدتها فى أثناء عملية الفتح ، ولكنها توزعت على مساحة شاسعة وسكان عديدين ذوى عادات غريبة . وكانت عوامل التحويل إلى الإسبانية دائماً قليلة للغاية ، ولا مناص من ضياع شيء عند نقلها . وكان الجزء الضائع عادة هو درجة من القوة،أكثر من أن صفة قديمة وذاتية من صفات إسبانيا استبدلت بها كلية قوة سلبية « لروح المكان » الجديد . وربما لم تكن الخميرة مركزة بدرجه كافية لتعطى نكهة إسبانيا الكاملة للحضارة الوليدة الناشئة ، فقد طرأت عليها تأثيرات خففتها البيئة الطبيعية ، العناصر الجنسية الغريبة والمتنوعة التى أضيفت إلى الخليط ، أثر الثقافات الخارجية كثقافات فرنسا والولايات المتحدة ، وكذلك التجارب التاريخية .

واختلفت الحبوب التى ألقيت فى المطحن إلى درجة لم ينتج معها عند طحنها نمط موحد لأمريكى إسبانى . فقد أصبح هناك كوبيون ومكسيكيون وتشيليون وهكذا ، كل بصفاته المميزة . ولكن على الرغم من التشعبات ، فقد كان هناك « تشابه عائلى » قوىّ بينهم — نوع من التضامن الروحى له جذوره مغروسة فى إسبانيا . لقد كان هناك نمط عام مشترك للتفكير والسلوك وراء كل التغيرات التى نمت فى العالم الجديد . وفوق كل شيء بقى أثر الفردية الإسبانية العميق بتفرعاته فى مجال تصرفاتهم . وكيفما كان ، فقد دبر « الرجل » طريقة للتغلب على جميع القوى التى تعمل على انقراضه كوحدة منفصلة فى المجتمع القومى ، ولو أنه لم يكن مستقلا فى وقت ما أو مكان ما كما هو فى إسبانيا ، حيث لايزال يتحدى الدولة، أو أى تكتل للناس لامتصاص شخصيته ، أو ليجعله شخصاً عاديا كسائر الأشخاص .

ولم يصبح القشتالى فى الفراغ المنعزل الذى تتصف به پمبا الأرجنتين أو الغابة المشبع جوها بالبخار فى إقليم شوكو فى كولومبيا ، بأية حال

من الأحوال ، هو نفس الشخص مرة ثانية . فقد قلت فيه صفة الإسبانية وزادت فيه صفة كونه رجل العالم الجديد ، لأن أخلاقه الصخرية لم تعد تمنع عنه قوة الطبيعة الناخرة أكثر من سفح تل معرض لنحت الأمطار المدارية وكذلك كان من العسير أن ننتظر إمكان احتفاظ الحضارة الإسبانية بكل نقاوتها الأصلية مع وجود الثقافات الأصلية الهندية . وبعض هذه الثقافات ، كثقافة الإنكا ، كانت على درجة عالية من النظام ، حتى إن المواطنين الذين كانوا يمارسونها لم يجدوا سببا معقولا ليستبدلوا بها أساليب معيشة الإسبانى ، فأخذوا من هذه الأشياء التى قدمت لهم مالاءم أهواءهم وارتاحوا إليه ، وكل هذا فى الوقت المناسب بالنسبة إليهم ، كما استعار الإسبانى بعض تركيبات الأدوية وطرق الطهى من الهندى ، وأحيانا لفظا مناسبا من اللغات الوطنية . وفى بعض الأحيان ، كما وضح جليا فى المكسيك ، تشابه قلبا الهندى والإسبانى فى أمور كثيرة ، حتى إن غرس الحضارة الإسبانية كان عملا ميسرا. ويكفى هذا عن المستعمر الإسبانى الذى لم يختلط دمه والذى يميل بطبيعته إلى الأصول والقيم فى شبه الجزيرة .

ومع ذلك فقد نشأ عن كاثوليكية الإسبانى الوراثية أن كان هناك — ولايزال — فى الهند الغربية مختلطون ومولدون أكثر من إسبانيين أنقياء من سلالة إسبانيا ، وأصبحوا تتنازعهم الثقافتان اللتان انحدروا منهما . ولم يكن الأمر كله مسألة اختيار عن طواعية ، أى الثقافتين تسود ، لأن المولد لا يستطيع الهرب بتاتا من « نداء الدم » . وبعد أول لقاء بين الإسبانى والهندى تنتقل خلايا الوراثة الناتجة مناصفة مع كل جيل لاحق ، ولكن الميزان البيولوجى يتزايد ميله إلى الجانب الهندى خصوصا إذا تشبث خط الوراثة بالطبقات السفلى فى المجتمع . وليس هناك ، بطبيعة الحال ، قانون دقيق يبين القدر من الإسبانية الذى قد يكون عليه شعب أو شخص إذا هيئت له مجموعة معينة من ظروف موجودة من قبل . فالدرجات الممكنة للإسبانية مختلفة لا اعداد لها . وكثير من العوامل التى

تلابس المشكلة عوامل شخصية ولا يمكن تطبيقها ، أو قد تكون عرضية كلية عند حدوثها. ومع ذلك فبمرور الوقت يمكن للمرء أن يلاحظ فى سكان قطر بالذات أن عملية الاختلاط فى الزواج استمرت تعمل وقتا طويلا وانتهت بأن أدت إلى تقريب التشابه العام من ناحية المميزات الجسمية والأوضاع الثقافية . وقد تحققت هذه المرحلة من التطور ، على سبيل المثال ، فى بلاد المولدين القديمة مثل تشيلى وباراجواى وكولومبيا وسلفادور ، أو فى مراكز معلومة «مستقرة» اجتماعيا فى جمهوريات أخرى كما فى الانديز فى فنزويلا واللانوس فى شمال الأرجنتين . ومن جهة أخرى فإن الهنود من زمن بعيد كان قد استوعبهم البيض الأكثر عدداً كما فى أوروجواى أو ، فيما عدا ذلك، زحزحوا كعامل ثقافى منفصل كما حدث فى بمبا الأرجنتين : أما الأقاليم التى يغلب فيها التركيب الجنسى الهندى ، كما فى المكسيك وجواتيمالا وبيرو وبوليفيا،فالوقت الآن مبكرا جدا لكى نحصل على توازن محدود بين العناصر الجنسية الكبرى فى عملية اختلاط الأجناس. فهناك نزوع فى هذه البلاد إلى انسحاب السكان الأصليين المقصود ، ليعيشوا معاً بعيداً ، ولو أن الاختلاط مستمر فى الطبقات الدنيا لمجتمعهم القومى ، لدرجة أن خلق جنس منفرد نهائيا قد امتد أجله كثيراً فى المستقبل البعيد . وفى هذه الأثناء تعرضت تلك الثقافات، وهى فى طور نشأتها إلى تأثيرات غريبة نابعة بصفة خاصة من الولايات المتحدة وفرنسا ، — وعن طريق الهجرة على نطاق واسع — من إيطاليا . ومن تفاعل كل هذه القوى المعقدة ينشأ فى النهاية شئ لا يقال عنه « إسبانى » تماما ، ولكن حوله شىء كثير من إسبانيا (١٠) . وفى أى مكان يتلاقى الناس فى تلك الأرجاء لا يتقابلون كغرباء تماما ، بل ينجذب بعضهم إلى بعض انجذابا غريزيا يشد من وراثة مشتركة .

ولم تتمسك إسبانيا ، كأم ولود للشعوب ، بشىء من أبنائها فيما وراء

البحار[١١] . وهى وإن كانت لم تعطهم حرياتهم السياسية فذلك لأنها لم تكن لديها هذه الحريات لتعطيهم إياها ، وإذا كانت قد قيدت تنميتها الاقتصادية حيث كان من الممكن أن تتنافس معها، فقد اتبعت هذه السياسة جميع الدول الاستعمارية الأخرى فى ذلك العصر . وفيما عدا ذلك فقد أعطتهم كل مملكت ، وبلا تذمر ، أعطتهم لغتها القوية الجهورية ، وتشريعات روما الإسبانية الصبغة وتقليد ونمط المدنية كطريق نهائى للحضارة، وجميع ماتبقى من إطار النظام والمتع التى تتصف بها الحياة الإسبانية . فقد أعطتهم دون كيخوت ، ولاس كاساس ، وكالديرون ، وسانتا تريزا وأخذت منهم عوضا عن ذلك الأخت يوانا إينيس ، والاركون ، وجارسيلاسو الإنكا ، وهيريديا .

الفردية الاسبانية

الفردية أو الشخصية هى مفتاح عبقرية إسبانيا . فالإنسان هو مركز الكون الإسبانى. وليس هذا مبدأ فلسفيا للإنسان أو لبنى البشر ، كأشخاص وهميين ، ولكن لشخص من لحم ودم ، لديه مايحب ومايكره[١٢] . فأولا الشخص نفسه هو الذى يهم ، سواء أكان خوان جوميثه أم فرناندو الفاريث دى توليدو ، دوق ألبا . ومن هذه الذاتية المتمركزة حول نفسه قد يتحرك اهتمامه نحو الخارج ليضم أفرادا آخرين مرتبطين معه بروابط الحب أو القرابة أو الصداقة . ولا يخترق بصره الأجهر الحالكة المبهمة المجتمعة خارج دائرة اتصالاته العاطفية المحدودة ، لأن جيرانه وإخوانه المواطنين والغرباء — وكلهم شخصيات مجردة مجهولة — يسكنونها، إلا إذا تصادف واعتدى أفرادها على شخصيته ، وقد يكون ذلك لبرهة أو قهراً . فطوال حياته نجده يتربص لأولئك المجهولين الذين يتدخلون من وراء دائرته المألوفة .

ومثل هذا الشخص يعاف أو يعجز عن إدماج شخصيته مع الآخرين لمجرد أنهم يعيشون قريباً منه أو فى نفس البلاد ، فما بالك بمن هم على سطح هذا الكوكب نفسه[١٣] ؟ فالشخص هو الذى يصنعه هو من نفسه بمساعدة قليلة من أسرته أو أصدقائه على الأكثر ، وهو ليس مدينا بشىء يؤديه للمجتمع ، ومن الصعب عليه أن يضحى بمصالح شخصيته للمطالب التى يستلزمها العمل أو المشروعات الجماعية . وهو مجرد من الفضائل المدنية أو مراعاة حق الجوار . ولا يريد أن يكون دعامة من دعائم المجتمع ، فإذا انغمس فى الدعائم والعمد فهمّه عمود من النوع الذى كان يجلس على قمته سانت سميون ستايليتس فى الصحراء السورية . ويفضل فى ميدان الفكر الإنسانيات — دراسة الإنسان — على الدراسات الاجتماعية . فليس لديه « عقلية اجتماعية » ، ويهتم قليلا بالتصالح فى المنازعات والارتباكات التى تعترى المجتمع ، ولا يرغب فى أن « يكمل » أو « ينسق » أى شىء أو أى شخص . والاتحادات والجمعيات ، والنوادى ، واللجان ، والاجتماعات ، والمؤتمرات ، وأى شكل قد يتخذه تجمع الناس بحرية لغرض جاد ، كل ذلك لا يروق له . أما أقوى نظامين فى حياة إسبانيا ، وهما : الجيش والكنيسة فمدينان بقوتهما إلى انهما يجسمان مبدأين — الشرف والدين — اللذين — يسيطران سيطرة غير عادية على الشعب الإسبانى . غير أنه فوق كل النظم تأتى الأسرة ، التى إذا أهملت أواصرها انحدرت إسبانيا إلى فوضى اجتماعية . والمشاركة فى تنظيم ما تسلب من ذاتية الإسبانى الشىء الكثير . ولكونه فى قرارة نفسه ذئبا منفرداً نجده عند تصفية الأمور لا يستطيع الوثوق إلا بنفسه . فإذا تصادف وكان للجمعية أثر فعال ، فمن المرجح أن يزول عنها التحمس التلقائى الذى تسبب فى تكوينها ، فيتركها جامدة لا روح فيها ، وإذا كانت عديمة الفاعلية ساد الاضطراب والاختلال لنقص التنظيم ، وما كان يجب عمله لا يعمل ، أو يؤدى أداء سيئا . وهكذا ماتت

فى بدء تكوينها مشـــروعات كثيرة جميلة ومرجوة بدأت بآمال عراض وحماسة .

إن التنظيم والتعاون وهما الدافع الأساسى للتقدم « الحديث » يعنيان قليلا للإسبانى ، بل هما فى الحقيقة متنافران مع طبيعته .

فإذا انتقلنا إلى الميدان السياسى ، على الأقل إلى ماوراء حدود المدينة ، نجد أن ممارسة الديمقراطية قد برهنت حتى الآن على أنها غير ممكنة فى إسبانيا . وعلى الرغم من أن هناك مساواة اجتماعية عالمية — وهى التى تسير دون وعى الحياة فى إسبانيا — فإن التجارب التى اتبعت مع حكومة شعبيةفىإسبانيا قد باءت بالفشل،فلم يهيأ بعد الجو الملائم لممارسةالديمقراطية السياسية . وقبل كل شىء ينظر الإسبانى نظرة ساخرة وبارتياب شديد نحو الحكومةورجال السياسة. وإذا استثنينا فترات قصيرة جدا ،كان هوأفضل دائمامن أولئك الذين تولوا حكمه ، ذلك لأن نظاماًسياسياً وحيداً — وهو حكم فرديناند وإيزابلا — كان جديرا بالشعب الذى يحكمه . ومن المرجح أن أسوأ انحرافات طباعه موجودة فىالبيروقراطية التىيعدها جهازاً مكونا من جماعة من الوصوليين أو النفعيين الذين لا يضمرون له أو للبلاد خيراً . فإذا أبعدنا الاضطرار أو الإجبار ، يود الإسبانى أن يتعامل مع الحكومة فى أقل الحدود الممكنة . يقول ماداورياجا : « كل مجهودات رجال الدعاية السياسيين لإشعار الإسبانى بمواطنته قد باءت بالفشل ، فهو يشعر كرجل — ثم يقتبس من أونامونو — « لاشىء أقل من رجل برمته »(١٤)

وينزع كل إسبانى إلى أن يكوّن من نفسه حزبا سياسيا خاصا به ، وليس من رأيه أن تساس الحكومة بالحلول الموفقة أوالإذعان ، بل أن هذه تعد علامات ضعف . «فالنقاش» ليس إلا فرصة مهيأة له لنشر آرائه بين أولئك الذين ينصتون حتى يجىء دورهم للكلام . وتهبط القرارات السياسية ،

إن عاجلا أو آجلا ، إلى مسائل شخصية وتصبح مفهومة لدى جماهير الإسبانيين فمبدأ الانفرادية هو القاعدة . أما الحكومة فهى مسألة أشخاص أكثر منها مسألة قوانين أو مبادىء . وهكذا فالرئيس (*) أوالزعيم(**) بالمعنى الأوسع —هو القالب الطبيعي للنظام السياسى الإسبانى. وفى ظل هذا النظام نجد أن الزعيم أو الرئيس (الرئيس السياسى فى أمريكا الإسبانية) هو المهيمن أو قائد الجماعة ، كالراعى فى العلاقات الأخرى . والصلة بينه وبين المواطنين فى دائرته صلة شخصية ، بمسئوليات واضحة بجلاء فى كلا الجانبين . وهى ليست ديمقراطية ، ولكنها تساعد فعلا على إيجاد قدر من النظام لدستور السياسة الإسبانى ، وهو عادة غير كامل . فإذا اعترضت العلاقات الرسمية أو الكهنوتية المقررة بالقانون طريق هذه العلاقة الشخصية المحببة كثيراً إلى طبيعة الأهالى،فإن ذلك يكون اعتراضا عابراً أو جانبيا . ثم إن الأعمال قد تؤدى « على قاعدة شخصية » :الأعمال التى لا يمكن تأديتها باتباع القواعد اللاشخصية ، ذلك لأن الأشخاص ، فى نهاية الأمر ، أهم من القوانين — وهذه هى القاعدة التى تفسر لنا كيف أن المحاكم الإسبانية كثيراً ما تلجأ إلى الحكم بالقسطاس لكى تخفف من قسوة العدالة القانونية .

وبنفس الطريقة نجد أن فردية الشعب فى حرب مع إدارة المشروعات الاقتصادية ذات النطاق الواسع . فعلى الرغم من أن الإسبانى يفضل مبدأ المشاركة فى الإدارة على التعاون اللاشخصى (***) فقد يكون العمل ضخما إلى حد لا يسمح بممارسة الفردية — أو نزواتها المحتملة —فيصبح التنظيم أهم

(*) Caciquismo
(**) Caudillismo
(***) Sociedad anonima

من أى شخص . وعند هذه الدرجة من التطور الصناعى قد يجد الإسبانى نفسه غير ميال ليمضى مع حقائق الموقف ، بمعنى آخر ، متخلفا عما يعده جحيما اقتصاديا . ولم يعد المشروع لعبة أو ساحة يمارس فيها بسالته الشخصية . ويرى من المستحيل أن يشعر بأى ولاء نحو تعاون لا حياة فيه . وقد تنفصل ممارسة العمل عن إدارته ، فيترك لتقليب أوراق وحساب أرقام أكثر من سيطرته على العمال أو ضبطه للآلات . وفى الحقيقة قد تصبح الآلة هى السيد — وهذه مسألة تثير سخط الإسبانى إلى الحد الأقصى.

وكما يكره اللاشخصية الإجبارية للمشروع الكبير ، فهو كذلك لا يميل إلى مسايرة الآلة التى تعمل فى مدنية الصناعة الحديثة . وهو ميؤوس منه من قبل رجال الإعلان والعلاقات العامة وخبراء الكفايات . وبمعنى آخر هو لا يحتاج إلى طبيب نفسانى يتحسس فى خفايا عقله أكثر مما قد يرضى بمراسل ينشر القيل والقال عن أمور الناس وينشر على الغوغاء أموره الخاصة .

فإذا تخلص من ضرورات الاقتصاد وقوة العادة ومستلزمات النظام، فغريزة الإسبانى هى أن يعمل وقتما يطيب له العمل . وقد ينزع إلى القلق من ناحية النتائج وتركه عملا دون إتمامه . ويعتريه السأم ، أو يخفت نشاط عزيمته لفترة ما . وإذا لم يكن الدافع الأصلى قد تسبب فى قوة مستمرة فإن المهمة التى بدأها قد لا تكتمل أبدا . وقد يترقب إلهاما لا يتحقق ، أو يركن إلى ارتجال مخرج من ورطته . وهو يرفض أن يمجد تلك الفضائل التى يتصف بها المجتمع الصناعى كالنشاط والمثابرة ، وهو ليس كادحا، ولكنه يفضل العمل بالتحفيز وفقا لنغم ما ، وعندما يكون رائق المزاج (*) . ولذلك كثيراً ما يصبح إيقاع مجهوده بعيداً جدا عن الانتظام ولا يمكن

(*) Cuando se le de la gana

لأحد أن يتنبأ به ، وبعيدا جدا عن الطريقة العملية . فهنا تتعاقب ذرى النشاط البركانى مع الوديان العميقة — من الخمود . غير أنه فى بعض الأحيان ينزع الخمود إلى المظهرية أكثر من كونه حقيقة واقعة ، لأنه حتى إذا كان الفرد سلبيا وعديم الحركة من الناحية الجسمية ، ففى استطاعة العقل أن يكون فى شغل استعدادا لدفعة نشاط جديدة.

وتعيش إسبانيا نفسها وفق إيقاع مشابه « يتأرجح بين أقواس متباعدة تفصل بين بعضها وبعض قرون ، فى فترات متعاقبة من نشاط واسع ، وأخرى من سبات قومى وعدم اكتراث . وهكذا نرى تدهور القرن السابع عشر قد أعقب بهاء القرن السادس عشر . ولو أن حيوية القرن السادس عشر لم تؤت أكلها فى الفن والأدب كاملا حتى النصف الأول من القرن السابع عشر وتكررت معالم نهضة لم تدم طويلا فى أواخر القرن الثامن عشر ، ولكنها كانت مصطنعة إلى حد بعيد ،وسرعان ما انطفأ وميضها . ومنذ ذلك الوقت عاشت خاملة كما لو كانت تترقب شرارة تلهب نوعا من تحمس جديد يحيى كل القوة الكامنة المختزنة فى خفايا روحها(١٥) وفى أثناء ذلك يمر العالم بأبوابها المغلقة وهى لا تهتم إلا قليلا بما يجرى فى الطرقات فى الخارج وفى فترات اضمحلالها وتبلدها يتأثر مزاج المواطن كفرد وتضعف عنده ملكة الابتكار والحماسة عما تكون عليه بلاده فى أوج عظمتها ونشطت فى القرن الحاضر حركة مضمونها استرجاع الكيان القومى بقيادة مجموعة يحتمل أن تعد من أعظم المفكرين التحليليين ، وتضم أونامونو وجانيفيه،وفرانسسكو جينيه دى لوس ريوس وابن أخيه فرناندو دى لوس ريوس ، وأورتيجا إى جاسيه ، ومينانده بيدال ، ومادارياجا .

وليس الإسبانى كسولا ، إلا إذا أخذنا فى الاعتبار معايير الشعوب الأكثر تنظيما ، بل إن مجموع ما ينجزه من أعمال قد يبلغ قدراً مساوياً

لثمرة مجهود أكثر انتظاما واستمرارا ويستطيع أن يؤدى أضخم الأعمال إنتاجية ولنضرب مثلا: لوبى دى فيجا مؤلف الروايات التمثيلية فى العصر الذهبى ، فقد ألف أكثر من ١٨٠٠ كوميديا و ٤٠٠ رواية « بوليسية » . (١٦) (*) وفى ذات مرة أتم خمس روايات هزلية فى خمسة عشر يوما . ويقال إن رواياته كانت تمثل فى بعض الأحيان على المسرح خلال أربع وعشرين ساعة بعد البدء فى تأليفها . وتتواتر نفس الأنباء عن خوسيه توريبيو ميدينا المؤرخ الشيلى ، وأول مؤرخى أمريكا اللاتينية ، فقد كتب أكثر من ثلاثمائة كتاب فى حياته الخلاقة إلى درجة غير عادية ، ولو أن كتاباته تختلف فى نظام توقيتها .

فشعب شديد الازدراء للروتين التقليدى قلما يصبح أفراده عبيداً للساعات والدقائق . وليس هناك أناس حديثون تنقصهم الحاسة الزمنية مثلهم ، وليس هناك أناس عديمو الاكتراث بمعرفة كم الساعة أو الوقت المحدد لإنجاز عمل واجب الأداء . فالتدقيق فى مراعاة الوقت لا يمت إلى فضيلة ما ، والبطء فى إنجاز الأمور ليس رذيلة . فإذا كان للفظ معنى مزدوج فاهتمامهم بمعنى « الوقت » منحصر فى الطقس أكثر منه فى الزمن . فعبارة « غدا إن شاء الله » هى العبارة التى يلقونها من جعبتهم بسهولة إذا سئلوا عن التزامات اليوم أما الإسراع فهو فقط لأولئك الذين لا يستطيعون أن يؤخروا عملهم أو لا يجرءون على تأخيره . والنتيجة هى أن ممارسة الأعمال والحياة الاجتماعية فى الدنيا الإسبانية مرتبكة بسبب عدم مراعاة الوقت بصفه عامة ومع ذلك ففى بعض جهات أمريكا اللاتينية تتجه النية جديا نحو محافظة الناس على المواعيد التى يرتبطون بها ، وقد يحدد الميعاد المتفق عليه بالضبط ، أو كما يقال « ميعاد إنجليزى » (**) .

(*) actos sacramentales
(**) hora inglesa

وفى الحرب نجد أن كل جندى إسبانى فى صميمه جندى غير نظامى فدائى. ومن الألفاظ التى لها مغزى أن لفظة جيريلا (*) (حرب عصابات) نفسها إسبانية الأصل، بل إن التاريخ الحربى الإسبانى عبارة عن أسطورة لمآثر بطولية قام بها جنود فرديون. وحتى أعظم قواد إسبانيا كانوا يتولون قيادة مجموعات صغيرة جدا من الرجال يمكن إدارتها على المستويات الإسبانية، وفيها لم يفقد الجندى ذاتيته الفردية. ويعد تدوين برنال دياث بالاسم للذين شاركوه فى فتح مكسيك الأزاتقة مثلا كلاسيكيا لفزع الإسبانى من إغفال اسمه وتمسكه بحقه فى الخلود. أما الجيوش الضخمة التى نعرفها فى هذه الأيام والتى لا يعد الجندى فيها أكثر قليلا من رقم مكتوب على شريط فليس فيها مكان لهذا المحارب المستقل الذى كان ولا يزال يشعر بالزحام، وأنه فى غير مكانه فى أى جيش يزيد على فرقة. إن إسبانيا متخلفة عن فن الحرب الحديث، كما هى عن الاقتصاد الحديث.

وفى مجالات النشاط الأخرى نجد أنه من الصعب على المرء أن يحظى بعشرة موفقة ومرضية مع الآخرين على قدم المساواة ما لم تكن هناك أواصر صداقة سابقة. فمثلا أنتجت إسبانيا والأراضى الإسبانية فى العالم الجديد رسامين ذوى مواهب عالية، ولكن قلة ضئيلة منهم أسسوا مدارس قد تداوم على نقل عبقريتهم أو أسلوبهم الخاص. وكذلك لم يخلف فلاسفتها العباقرة ولا علماؤها الآخرون وراءهم جماعة من الأتباع ليخلدوا طريقة للتفكير. والإسبانى الوحيد الذى نجح مرة فى تنظيم جماعة كبيرة وباقية من الأتباع هو اجناسيودى ليولا الباسك مؤسس جمعية يسوع. وفى الموسيقى يتفوق العالم الإسبانى فى العزف المنفرد، سواء فى الغناء أو العزف على الآلات الموسيقية، ولكنه ضعيف فى الغناء الجماعى أو الاشتراك فى

(*) guerrilla

فرقة للعازفين (الأوركسترا) . وفى الألعاب والتمرينات الرياضية ليس من السهل على الأشخاص الذين يجرى فى عروقهم الدم الإسبانى أن يتقبلوا القيود التى يفرضها « العمل الجماعى » على ذاتياتهم الثائرة .

وتجمع الإسبانيين لا يتنافى مع مزاجهم الانفرادى كما قد يبدو . وعلى الرغم من أنه لا يوجد أناس أكثر تفانيا منهم فالإسبانى بطبيعته « اجتماعى » ويستمتع بصحبة الآخرين . فهو يحب الحديث ، ويحب أن يتبارى فى إظهار حصافته فى المناقشة . وليس هناك شعب أكثر طلاقة أو تعبيراً عن مكنونات أنفسهم بطلاقة أوقوة مثلهم ففى حجرة مملوءة بإسبانيين يتجاذبون الحديث يحس المرء فى بعض الأحيان أنه فى حضرة وميض برق صوتى ، إذ أن الأفكار والآراء تموج رائحة جائية حتى تصبح متوهجة وقابلة للانفجار . ومن الصعب أن يتخيل المرء إسبانيا معقود اللسان أو يحار من وجود الألفاظ لأية مناسبة . وموهبة ذلاقة اللسان هذه نقلت إلى العالم الجديد فى قوتها الكاملة ، ولو أنه فى بعض الأماكن كان عليها أن تتخذ الطابع المدارى الزاهى. ولكن حيثما ازدادت وطأة الإسبانيين على السكان فإن نفس السهولة اللغوية والطلاقة تمكنتا من البقاء وازدهرتا وسببتا الخوف والارتباك بين السكان الأصليين الذين اتصفوا بقلة الكلام واينه

واللغة نفسها وسط ملائم للتعبير لمثل هذا الشعب الذى يتصف بالرجولة. فليس فيها أطراف لينة ، كما أنها ملأى بالحروف الساكنة القوية الصلبة تفصلها بعضها عن بعض حروف متحركة موسيقية . ويبدو أن الأصوات تنبعث من سندان وأجراس برونزية لها أنغام عميقة وطبول من الأوانى والصنوج ، ولكن قلما تبدو متنافرة بصرف النظر عن عدد من يتجاذبون الحديث فى نفس الوقت . وحتى فى الجهات التى طغى عليها البرابرة كما فى الأندلس وأرجنتينا فقد استبقت قوتها الأصلية ووقارها وعظمتها . فهى لغة الرجولة ولغة الإمبراطورية ، وقال عنها شارل الملك الإمبراطور

وهو الذى ارتفع إلى طبقة الأصوات الحلقية الفلمنكية : إنها اللغة الوحيدة التى يمكن أن يخاطب بها الملوك والرب .

والديمقراطية الاجتماعية الحقة هى إحدى النتائج المتفرعة من الفردية الإسبانية . فبصرف النظر عن التمييزات الطبقية أو غيرها من المسميات ، اعتاد الإسبانيون أن يعامل بعضهم بعضاً كأفراد [١٧] . وفى هذه العلاقة يتجلى سلوك الناس على سجيتهم وإنكار ذواتهم دون اتخاذ موقف « أنا كفء مثلك » أو خنوع من ناحية ، أو تنازل أو تعاظم من ناحية أخرى . والغريب حقا أننا لا نجد لهذه العلاقة أى أثر فى الديمقراطية « السياسية » . وهى تنبعث على الأرجح من إدراك الإسبانى العميق أن الناس إخوة ، ويرجع هذا الإدراك فى أصوله إلى العقيدة المسيحية . وبهذا المعنى أكسبت الشخص أهمية كبرى كحق ذاتى له ، كما أكسبت الفرد وقاراً طبيعيا . والقبول الضمنى لهذا التنظيم المتعادل من كلا الجانبين يحد من الاحتكاكات الطبيعية التى تحدث بين الطبقات ، والتى تقوض المجتمع فى معظم البلاد . وجدير بالملاحظة فى هذا الصدد أن المظالم فى إسبانيا اقتصادية أكثر منها اجتماعية . ويسرى تطبيق هذا البروتوكول بين المتخاصمين وجها لوجه ، من العلاقة العادية لرئيس الخدم فى أسفل درجات السلم الاجتماعى إلى العلاقة القديمة لنبلاء قشتالة العظام .

الزهو الاسبانى

من المألوف لدى جمهور الناس أن إسبانيا والزهو كانا ولا يزالان صنوين من زمن قديم (١٨) . وفى الإسبانية كلمة زهو (*) نفسها يصحبها تعال ورنين ، عات . ولكون الإسبانى واثقا من نفسه ومتيقنا إلى الدرجة القصوى نجده متحررا من مركب النقص الذى يتفشى بين سكان أمريكا

(*) Orgullo

الإسبانية الذين يجرى فى عروقهم الدم المختلط . ومهما يخامر قلبه من شكوك ومخاوف أحيانا فهو يخفيها وراء جدار زهوه هذا . وشغفه بالأمجاد وألقاب الشرف ، كعنوان وعـــلامة لتفوقه ، هو مجرد تثبيت لاعتداده بنفسه .

وإذا زاد زهو الإسبانى على الحد فقد يتحول إلى عجرفة ، أو غرور ، أو حسد ، أو يصبح ستارا يخفى وراءه نفاقه . وقد يكون الفارق ضئيلا جدا بين أن ينظر الإنسان لنفسه نظرة صادقة وبين الخيلاء ، كما هو بين الاعتزاز المتواضع والغطرسة . وبطبيعة الحال كانت هناك مناسبات رسمية قام التكبر أو التعاظم ، أو موهبة ما تدعو إلى التباهى ، بخدمات جليلة للإسبانى أو إسبانيا بين الشعوب السريعة الانفعال . ولكن إذا لم يكن هناك مناسبة لإظهار الفخفخة فإن الغرور قد لا يصبح سوى مباهاة يقصد منهـــا ، كما تتبختر الديكة الرومية ، التأثير فى أفراد المجموعة وتخويف الديكة الأخرى .

ومن نقائص الإسبانيين وبالأخص الأمريكيين المنحدرين من أصل إسبانى أن يحسدوا أولئك الذين يعملون فى نفس ميدان العمل ، سواء فى ميدان الأدب أم الفن أم إحدى المهن . والمنافسات لاترحم ، ومن اليسير أن تنشأ العداوات الشخصية من المنافسة فى المهنة . فإذا لم يكن للشخص حظوة فربما كانت إنجازاته وانتصاراته باباً للسخرية والتشهير . أما إذا كان ذا حظوة فينزع أتباعه إلى الإسراف فى مديحه . ويكتب ميننديث بيدال عن « الحسد » ، وهو عنصر ظاهر من عناصر الخلق الإسبانى فيقول « ليس هناك شخص يود أن يشيد بعمل الآخرين ، لأنه يبدو أنك إذا أثنيت على شخص فذلك يعنى أنك تبخس نفسك . وقد أطلق بلتاسار جراسيان ، فيلسوف القرن السابع عشر اليسوعى ، على النزوع إلى بخس

الناس أشياءهم « الحقدالإسبانى » (*) وقال كونتارينى سفيرفينتسيا (**) إلى بلاط فيليب الثالث : « ليس هناك أمة تقاسى من الحقد المتبادل مثل إسبانيا » .

وفى مثل هذا الميدان الملىء بالشعور الحاد يصبح النقد الموضوعى أمراً مستحيلا فليس للانفعالات التى تثارآثار حميدة . وجميعها لجة وغير مهذبة. فإما أن يستحسن المرء أو يحب ، وإما أن يكره كما يكره المصارع الثيران التى يتربص بها فى ساحة المصارعة . فليس هناك فتور أو توسط فى الأمور فى هذا الشأن . فأنت فى هذا الجانب أو فى ذاك . وإسبانيا نفسها هى وحدها التى تتمتع بميزة الحياد .

وتوكيد الإسبانى الزائد على مبدأ الشرف كان تعبيراً عن زهوه واستقلاله . يقول كالدرون فى روايته التمثيلية : «قاضى ثالاميا» (***) : « إن ما يملكه المرء من متاع وحياة فللملك ، ولكن الشرف وقف على الروح ، والروح منأمرربى وحده » فهى الدرع الواقية التى تحيط بشخصيته وتحميها من الإساءة وقد تضمن الشرف وجود دستور متبادل وشخصى للسلوك — للأفعال التى قد لا يؤديها الآخرون نحو المرء ، والأفعال التى قد لايؤديها المرء نحو الآخرين . وعلى هذا النحو كان بمثابة « قاعدةذهبية » ذات تطبيق محدود . وترجع المأساة المريرة التى كثيرا ما تتكرر فى الأدب الكلاسيكى فى إسبانيا إلى الانتقام من جراء التعدى على قانون الشرف . فإذ أثيرت « مسألة الشرف » (+) فقد يكون الانتقام سريعا ولا رحمة فيه . وحيثما كان الأمر ماساً بالشرف الشخصى لامرىء ما خرجت العقوبة من يد الدولة ، وسرعان ما يتوارى الشخص المعتدى من تعداد سكان

(*) malignided hispana

(**) البندقية

(***) « El Alcalde de Zalamea»

(+) pundonor

إسبانيا بالقتل فوراً أو بإعطائه « فرصة للنزال » فى مبارزة (١٩) . وفى مناسبات مماثلة كان « الرجل الضعيف » الذى لم يستطع تحمل عبء دستور الشرف يتخذ من الإجراء ما يراه لائقا ومناسبا فى تلك اللحظة ولا يكلف نفسه مؤونة إدراك ما فعل . فالضعفاء وقليلو الحيلة هم فقط الذين يلجأون إلى العدالة اللاشخصية التى تجريها السلطة ويستغيثون بها فى تصحيح الخطأ .

ومن مظاهر الحياة العادية الاهتمامات الحفلية وتقديم الهدايا للأشخاص من قبل فئات المعجبين والأصدقاء . وقد تحـــدث هذه « التحيات » أو « التبجيلات » عند رحيل شخص إلى خارج البلاد أو عودته من بلاد أجنبية ، أو قد تكون احتفالا لنجاح شخصى أو تشريف ، وقد تكون أموراً خطيرة تكثر فيها الخطابة ويتبادل الناس فيها الإطراء وتشرب الأنخاب . وقد يضفى الناس قيمة أكبر على مثل هذا التقدير المشرف للمجهود العظيم أو النبوغ من أى جزاء وقتى قد يكون آتيا عن قريب . ففى شعب يتصف بكونه راضيا إلى درجة فريدة (٢٠) تعوض إلى حد كبير النقص فى إحراز جزاء أوفى . وهكذا الحال فى التشبث الذى يبدو زائدا على الحــــد ويتمسك به الناس بالدبلومات والألقاب والنياشين والرتب والاستدعاءات الرسمية والتشريفـات وعلامات الأهمية أو دلائل الهيبة .

وكذلك تتصل بتمسك الإسبانى بزهوه الأهمية التى يعلقها على مظهره الشخصى . فهو يرغب دائما فى أن يظهر ويحوز أكبر قدر من القبول — وفوق كل شىء ، يلبس لباس الرجل المهذب حتى لو أدى ذلك إلى التضحيات المادية فى أشياء أخرى . وحتى فى يوم قائظ فى مدريد أو فى الجهات المدارية فى كولومبيا يفضل أن يكون فى ضيق من أن يخلع عنه معطفه ، لأن المعطف عنوان الطائفة التى ينتمى إليها . واقتصر فيما مضى على أن يكون معطفا أسود كان يضفى على مرتديه احتراما قائما فى جميع الأوقات والفصول .

زد على ذلك أنه كان يؤدى غرضه كاملا فى فترات الحداد الطويلة التى تفرضها الرسميات الإسبانية والتى قد لا تنقطع فى أسرة كثيرة العدد . ولم يبدأ الناس المنحدرون من أصل إسبانى إلا حديثا فى تحرير أنفسهم من ربقة أسلوب أملته التقاليد الاجتماعية . وإلى حد ما جاء التغيير نتيجة للتأثيرات الأجنبية من جهة ، ومن جهة أخرى نتيجة وعى جديد خصوصا بين الأجيال صغار السن الذين يرون أن الجسم أهم من الملابس التى تكسوه، أو حتى من مراعاة نظريات مجحفة قديمة . ويوجد فى بعض جهات أمريكا اللاتينية نوع من الطقوس ممثل فى رباط رقبة يعد شعاراً للتحرر من الوصمة الاجتماعية التى يقتضيها العمل اليدوى . والحقيقة هى أن ما ترمز إليه الملابس من الناحية الاجتماعية ، إذا فرقنا بينها وبين وظائفها التزيينية ، أو ما تخفيه تحتها ، أكثر وضوحا بين الشعوب الإسبانية منها فى الولايات المتحدة .

وكان العمل باليد ينزل بقدر الشخص إلى مستوى الرقيق(٢١)ولا يزال التحيز ضد العمل اليدوى قوياً فى إسبانيا . ولقد أثر الإسراف فى منح ألقاب النبالة فى العصور الوسطى ، وهى الألقاب التى تعفى مستحقيها المنتفعين بها من عار العمل البدنى ، تأثيرا عميقا فى تعليم واقتصاديات شعب يتصف بالزهو . وفى التعليم الفنى كان التوكيد الزائد على الكتب أكثر منه على المعمل . وفى الاقتصاد سبب تفرقة فى العمال وقسمهم إلى أغنام يدفع لهم الرواتب وماعز يتناولون الأجور . وإذا كان الشخص فى مركز ليصدر الأوامر فإنه يمتنع عن أن يلمس عدة أو يدير آلة ما لم تكن إنسانا آليا أوآلة كبيرة يهتم بها الناس . وهكذا لايحب الإسبانى ذو الياقة البيضاء أو الأمريكى الإسبانى أن يحمل حتى ربطة صغيرة أمام الناس . وكل هذا ينزع إلى اعتبار إسبانيا أرض الخادم ذى الزى الخاص الذى لا يعلم ، والذى من واجبه أن يريح الأشخاص من ذوى الحيثية من الأعباء التى تقلل من حيثيتهم .

وفى هذه البيئة التى تمجد الشخص نجد أن أى بخس يصيب الشخصية يعد إهانة عظمى . فقوانين القذف والتشهير لها من الصرامة ما ليس لها فى معظم البلاد الأخرى. فالتشهير العلنى بشخصية لها سمعة طيبة، فيما عدا أفراد الطبقة المتواضعة من المجتمع ، مجلبة للعقاب ، إما بواسطة القضاء ، وإما بالعقاب الشخصى. وعندما تكون الذنوب التى يرتكبها الشخص أو الجرائم التى يقترفها شائعة ورديئة السمعة — أو ليس للشخص أية مكانة اجتماعية — فلا أحد يبقيها سرا مكنوما من أجل الصالح العام . فالنقد قد يجد له مخرجا فى القيل والقال الذى يمكن أن يكون فيه من السم ومن هدم « الأخلاق » ما لا يوجد فى جهة أخرى فى العالم . فإذا أراد شخص تجنب مناسبات الذم أو السخرية فإنه يأخذ الحيطة لكيلا يضع نفسه فى مواضع الشبهات أو الارتباك أمام الجمهور . فلا يسمح لخبر خاطف يحط من قدره أن ينشر فى الصحف ، ويحاول دائما أن يكون على حذر ، وإلا فقد عرض جانب ضعف مكشوف للعالم جميعا . وهو يصر على السرية فيما يتعلق بحياته الخاصة ، ويثور غضبا لأى اعتداء على حدودها. وهكذا يقلل من نطاق ذاتيته المعرضة للتحقير أو الفضيحة . فالاعتداءات على الشئون الخاصة والحريات الأخرى للفرد ، والتى يتقبلها الأمريكيون بلا اكتراث أو استسلام لا حيلة لهم فيه ، قد لا يحتملها شخص منحدر من أصل إسبانى .

ولنضرب مثلا لوجهة نظر إسبانية فريدة فى مضمار تدوين المذكرات الشخصية . فعندما يدون الإسبانى مذكراته فهى «تبرير» (*) مدروس لما قام به من أعمال . ويشتم منها قليل من نقط الضعف الإنسانية الكامنة فيه . فهذه لا تسجل إلا بعد وفاته بوقت طويل من مراسلاته مع أصدقائه الحميمين ، كما أخفى فيليب الثانى حتى محاسنه عن العالم إلى أن مرت قرون

(*) apologia

وعثر على خطاباته التى كان يرسلها إلى بناته ونشرت . وعلى الرغم من أن التجربة الغرامية بصفة عامة تعدهفوة بسيطة فى قصص أمريكا اللاتينية، فإن الأوصياء الرسميين الذين عنوا بالشهرة العظيمة التى لحقت ببوليفر والمهرة الذين ألهوه ذهبوا بعيداً إلى الحد الذى أعدموا فيه مراسلاته مع عشيقته مانويلا سايتث (٢٢) وعلى كل حال فقليل جدا من الأشخاص المنحدرين من أصـــل إسبانى هم الذين كتبوا تراجم حياتهم فى وقت من الأوقات .

وأخيراً ، وليس آخرا بأية حال ، نجد أن التأدب مظهر آخر من مظاهر الفردية الإسبانية .فآداب السلوك واجب الفارس . وهى جزء من دستور الرجل المهذب . كما أنها تكسبه مركزا أعلى فى نظره وفى نظر الآخرين الذين يفترض فيهم أن ينطبع عليهم فى نفس الوقت الاحترام الذى تقابل به أشخاصهم . وتنزع الملاطفة إلى أن تكون شكلية ورسمية بين الأصدقاء الحميمين ،ولكن مع ذلك فهى أكثر إخلاصا من التأدب فى أية بلاد أخرى. ففى إسبانيا أصبحت الملاطفة عامة لدرجة أنها خلقت شعبا من الأشخاص المهذبين . وعادة ما تلطف واجبات الفروسية (*) من حدة المثيرات الكامنة التى يسببها الزهو الإسبانى فى علاقات الناس بعضهم ببعض . فتحترم المشاعر، كما لو أن شعبا نشيطا يتصف أفراده بالأمانة والاستقامة نحو أنفسهم ونحو الغير ، يرتابون فيما تنبس به شفاههم من ألفاظ . وهكذا يهون التعامل الاجتماعى بين الناس ويتجنب الناس انفجار الانفعالات . ولما كان قدر ضئيل من خشونة الطبع فى جميع مستويات السكان فهناك قدر أقل من الأذى الذى لا مبرر له ، وقدر أكبر من الطيبة فى معاملات الناس العادية بعضهم مع بعض .

(*) Caballerosidad - الجنتلمانية

هوامش الفصل الثالث

(١) « تجمعت فى أراضى إسبانيا نزحات جنسية كثيرة حتى يكاد يكون من المستحيل تحديد التركيب الإثنولوجى للشعب الإسبانى » .

Richard F. Pattee, «Introduccion a la Civilizacion Hispano — Americana» (Boston, 1945) P. 32.

(٢) يقول سلفادور دى ما دارياجا عن الأخلاق الإسبانية : « إنها جافة وإنسانية ، مستسلمة وثائرة ، نشيطة ومتبلدة » .

«English, Frenchmen, Spaniards: An Essay in Comparative Psychology» (London, 1928), P. 43.

(٣) يعلق ماريانو بيكون — سالاس الفنثويلى على تبرم الفاتحين أو « حنين الخطر » الذى ساقهم إلى الإفراط المفجع فى المغامرات ، فى حالة كورتيس نفسه وهير ناندو دى سوتو وبدرو دى ألفارادو و ديجو دى أورداث وجنثالو بثارو وكثيرين غيرهم .

«A lo sanchesco del disfrute, se mezcla el quijotismo de la aventura permanente.» De la Conquista a la Independencia (Mexico, 1944), P. 46.

(٤) اقتبسها ونستون تشرتشل فى كتابه

«The Second World War.»

(٥) يطلق ما دارياجا على الإنجليزى « رجل العمل » ، وعلى الفرنسى « رجل المنطق » ويرى رافائيل ألتاميرا المؤرخ الإسبانى المشهور أن يسمى « العنف والتعصب والمبالغة .. ثمرات الشهوة ... وهى من النزعات المميزة لشعبه » .

«A History of Spain, from the beginning to the Present Day.» tr. from the Spanish by Muna Lee (New York, 1949), P. 358.

(٦) من صفات [الشعب الإسبانى] . . . التخيل والبصيرة والبداهة والسماحة والذكاء الفطرى والسيطرة وإدراك الحقيقة والقدرة على التصرف السريع بنشاط يكاد لا يعرف حدودا —
Madariaga, «The Genius of Spain» P. 32

« عاشت إسبانيا كشعب لا هو بالحزين ولا هو بالمرح ، تسيطر عليها فكرة الوقار الذاتى وطموح إلى الأبدية » —

Fernando de los Rios, «Spain in the Epoch of American Colonisation» in Griffin, ed., Concerning Latin American Culture (New York, 1940), P. 47.

(٧) كتب برو عن « رجال إسبانيا الصامتين المتحفظين »
George Borrow, «The Bible in Spain» (London, 1943). P. 55.

وكتب كابتن بازل هول ، وهو ضابط فى البحرية البريطانية قضى فترة طويلة على الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية خلال حروب الاستقلال ، كتب عن سلبية تصرف الإسبانيين يقول: « الإسبانيون شعب بصير بالعواقب فى كل شىء ما عدا السياسة . ولما كان خلفاؤهم يشتركون فى نفس هـذه

الروح الحذرة فليس من السهل فى أى وقت من الأوقات أن تثيرهم إلى الحد الذى يعبرون فيه عن انفعالهم الشديد !

«Extracts from a Journal Written on the Coasts of Chili, Peru and Mexico, in the Years 1820, 1821, 1822» (2 vols. Edinburgh, 1824), II, 8.

(٨) يذكر ما داراجا من بين العناصر الإقليمية فى مركب أخلاق إسبانيا : « الشدة والجدية ونقص السماحة العجيب فى الباسك، والثقافة الذهنية والذكاء السريع فى مواطن كتالونيا وإحساس مواطن بلنسية بفصاحة القول وصيغة الأسلوب اللتين يمتاز بهما سكان البحر المتوسط، والتلقائية السمحة وذات المغزى العميق أحياناً التى يمتاز بها الأندلسى، والإلهام الجاف، ولكنه متحمس، لدى القشتالى، والقوة التى جبلت عليها أراجون، وعذوبة غاليسيا الموسيقية، وتلك الفتنة الكلاسيكية التى تجمل من أستورياس مملكة تقف وحدها متميزة عن باقى ممالك إسبانيا ».

«The Genius of Spain» (London, 1923), P. 71.

ويوضح أوليفرا مارتنس، المؤرخ البرتغالى، الاختلافات الإقليمية فى الأخلاق الإسبانية هكذا « مواطن كتالونيا المجد، مواطن بلنسية المكتئب والملازم الجلوس المرتبط بأرضه مواطن غاليسيا الصبور المثابر، مواطن أراجون النبيل المتغطرس فى أعماله، الباسك الشكس والنشيط الذى يزهو بوثائقه التى تقرر حقوقه، مواطن قشتالة الوقور الكسول، الأندلسى العجاج الخفيف الروح

«Historia de la Civilizacion Iberica» (tr. from the Portuguese, Madrid, n.d.), P. 21.

ويذكر فرانسسكو جارسيا كالديرون، العالم البيروفى، عن الاختلافات فى الأنماط الاقليمية : «صلابة أستورياس .... انتظام الأندلس التوقيعى .... اندفاع إستريمادورا .... جدب كتالونيا تماسك الباسك .

Latin America, its Rise and progress (London, 1915). P. 31.

(٩) لما كان الأندلسيون قد تفوقوا فى عددهم على الرجال الذين قدموا من أى جزء آخر فى إسبانيا فى الفتح، « فقد بدت هناك مسحة أندلسية واضحة فى الحضارة الإسبانية فى الأمريكيتين » — .

Charles E. Chapman, «Colonial Hispanic America : A History» (New York, 1933), P. 32.

(١٠) « إن روحها [الإنسانية روح إسبانيا] وتأثيرها الاجتماعى راسخان بقوتهما وضعفهما كقوى متحكمة فى حياة نحو خمسين مليون أمريكى إسبانى اليوم » .

Herbert Ingram Priestley, «The Coming of the White Man 1492 - 1848» (New York, 1929), P. 117.

(١١) «أتت إسبانيا إلى أمريكا فى نزاهة وأعطت أمريكا كل ما كان لديها من نظم سياسية وتنظيمات اجتماعية واقتصادية ومؤسسات ثقافية وفنون ودين »

Fernando de los Rios, «The action of Spain in America», in Griffin ed; « Concerning Latin American Culture» (New York, 1940), P. 52.

« ومع أن المستعمرات الأمريكية أعلنت وكسبت استقلالها السياسى فإن اللغة والثقافة اللتين

وراثتهما من البلد الأم باقية لها كحيازة دائمة . وإذا قيست الإمبراطورية بمقاييس أخرى غير المقاييس السياسية والاقتصادية ، فإن أراضي أمريكا اللاتينية لا تزال جزءاً من الصورة ، وإن المجد الذى كسبته فى استقرارها وتحضرها سيظل مرجعه دائماً إلى إسبانيا » .

Roger B. Merriman, «The Rise of the Spanish Empire in the Old World and in the New» (4 vols., New York, 1918 - 34), IV, 676.

« وتبقى جميعها [جمهوريات أمريكا الإسبانية] إسبانية من ناحية ... فهى أكثر قربا الواحدة من الأخرى عن قرب السكان فى أمريكا الشمالية من الانجليز وهى تشترك فى المظاهر العامة للأخلاق والطباع الإسبانية حسب العبارات الرنانة ، سرعة التأثر التى تبدو تجاه المودة أو الإساءة ، الإحساس بالوقار الشخصى ، الشجاعة الثابتة فى الحرب وقوة الاحتمال والصبر. وفى وسط رجال التربية والفكر يبدو أساس السلوك الفكرى والشعور بالقيم المعنوية واحداً ومتينا » .

James Bryce, «South America : Observations and Impressions» (New York 1916), P. 445.

(١٢) يقول مادارياجا عن أعظم أربع شخصيات فى الأدب الأوربى إن هاملت « حلم إلى حد زائد » وفاوست « فكرة إلى حد زائد » ولكن دون كيخوتى ودون خوان رجلان « سيعيشان وينموان ما دام الرجال يتأثرون بحب العدالة أو حب النساء »

«The Genius of Spain,» P. 15.

ويقول أونامونو عن دون كيخوتى : « أنت تسأل . .. وماذا ترك دون كيخوتى؟. إنه ترك نفسه ، ترك رجلا ، رجلا حيا وأبديا ، يعدل كل النظريات وكل الفلسفات . ولقد ترك أناس آخرون نظما وكتبا ، ولكننا تركنا نفوسا ، فسانت تيريزا تعدل أى نظام ، أى نقد منطقى خالص . »

«The Tragic Sense of Life in Men and in Peoples» (London, 1931), P. 323.

وفى مكان آخر يقول أونامونو عن دون كيخوتى : « ربما كان من واجبنا أن نبحث عن بطل الفكر الإسبانى لا فى فيلسوف حقيقى من دم ولحم، ولكن فى تصويره فى قصة، رجلا يعمل ، وله وجود حقيقى أكثر من جميع الفلاسفة

Ibid., P. 313

(١٣) « فى إسبانيا لا يتفق شخص مع آخر ..

Rufino Blanco - Fombona.

«El Conquistador Espanol del Siglo XVI» (Madrid, 1922), P. 27.

وقال جورج سانتايانا ، وهو إسبانى ، : « الإسبانى شخص فردى ، وقد يكون ورعا متصوفا ... ولكنه ، اجتماعيا وخارجيا ، لا يثق فى شىء أو فى أحد حتى ولا فى نفسه وملوكه

(١٤) مادارياجا

«Englishmen, Frenchmen, Spaniards,» P. 135.

الإسبانى واقعى إلى حد زائد حتى إنه لا يولى اهتماما كثيرا بصوته الانتخابى، وفردى إلى حد زائد حتى إنه لا يرى أهمية فى ضم صوته ليتعاون مع أصوات الآخرين P.166

(١٥) « فترة السبات الطويلة من الانانية والبلاهة التى انتابت تاريخنا طيلة الثلاثة القرون الأخيرة »

Ortega Y Gasset. «Inverteliate Spain» (New York 1937. P. 39

قال مانويل جالفيث ، الروائى الارجنتينى « إسبانيا مزينة فى العالم الحديث لأنها على طرق نقيض مع مثلها ، وهى تعلم أن أساليبها ليست أساليب هذا العالم الجديد والقوى » . التبس هذه العبارة :

William Rex Crawford, «A Century of Latin American Thought» (Cambridge, Mass., 1944), P. 154.

(١٦) كتب لوبى دى فيجا وحده عددا من الروايات التمثيلية تعدل كل ما كتبه المؤلفون فى عصر إليزابث وجيمس الاول مجتمعين .

Somerset Maugham, «Don Fernando,» P. 150.

(١٧) « لايسب أحد الفقر أبدا أو يزدريه .... وليس هناك شعب فى العالم يظهر أفراده فى اتصالاتهم الاجتماعية شعورا أحق مما يلزم لتبجيل الطبيعة الإنسانية أو أكثر تفهما للسلوك الذى يليق بشخص اتباعه نحو زملائه »

Borrow, op. cit., P. 139

« للإسبانيين الحق فى ان يعدوا أنفسهم أكثر الشعوب ديمقراطية »

Ellery Sedgwick, «The Paradox of Spain,» The Atlantic, September, 1952.

لاتزال إسبانيا أكثر البلاد ديمقراطية

Havelock Ellis, op. cit., P. 12

ولما كانت الفردية الإسبانية لاتثق بسلطة الكهنوت . فقد خلقت نظما اجتماعية وديمقراطية. فالتقاليد والمذاهب والعادات والقوانين دلت على شعور صحيح بالمساواة الإنسانية ... فالملك يرأس ديمقراطية من الفرسان والمتصوفين والمغامرين والأوغاد

Francisco Gareca Calderon, op. cit., P. 37.

(١٨) الزهو هو شهوتنا القومية ، وأعظم ذنب نقترفه . وليس الإسبانى شرها كالفرنسى ولا ثملا وغبيا كالإنجليزى ، ولا شهوانيا ومسرحيا كالإيطالى ، فهو يزهو ويزهو إلى حد لانهاية له

Ortega Y Gasset op. cit., P. 146

(١٩) « يقال إن بين العار وانتقام المرء لإساءة لحقته بعدا شاسعا ، بل إن عدم الانتقام هو العار ، لأن الناس يرون أن من تلحقه إساءة لا يجدر به أن يظهر بينهم حتى ينتقم لنفسه »

«The Diary of Samuel Pepys (for the year A.D. 1667) (Wheatley edition, 10 vols., New York, 1942), VIII, 396.

(٢٠) الإسبانى عاجز بفطرته عن قبول الخدعة القائلة إن أحسن الأشياء فى الحياة قد تشترى بالمال ، أو إن ثروة الانسان هى كثرة مايمتلكه »

Haveloch Ellis, op. cit., P. 5

(٢١) يقتبس التاميرا من تعليقات الأجانب المعاصرين على العادات الاسبانية فى النصف الثانى من القرن السابع عشر : هم يرون أنه لا يليق بوقار الإسبانى أن يعمل ويدخر للمستقبل والاسبانيون فقراء لأنهم مهملون وكسالى

«Historia de Espana y de la Civilizacion Espanola» (4 vols., Barcelona, 1913, 3d ed.), III 493

(٢٢) انظر

Viotor Wolfgang Von Hagen. «The Four Seasons of Ma nuela : A Biography» (New York, 1952)



الفصل الرابع

الفاتح

كتب برنال دياث دل كاستيو : « أنا فاتح حقيقى ، وأقدم الفاتحين قاطبة » . وكتب كثير من الفاتحين عن أعمالهم والأشياء التى رأوها كما فعل المحارب العتيق كورتيس ، كتبوا بأمانة ، كالتى اتصفوا هم بها ، وبالقدر من الإخلاص الذى سمحت به انفعالاتهم .

وإذا كان الغرور والتفاخر قد تملكا الفاتحين فى بعض الأحيان كما تملكا برنال دياث فقد كان ذلك سهل الفهم . كتب الفاتح الهرم يقول : « حضرت مائة وتسع عشرة معركة واشتباكا ، وليس أمراً شاذاً أن أمدح نفسى لأن ما أقوله هو حق صرف » . فلابد أنهم كانوا يشعرون بأنهم ليسوا أشخاصا عاديين . وإن الأشياء التى رأوها لم تكن أشياء عادية . ثم أردف دياث يقول : « ثم اتجهنا إلى طريق المكسيك الذى كان غاصا

بجموع الاهالى ووصلنا إلى ممر إثتابالابا الذى يؤدى إلى العاصمة . وعندما شاهدنا عددالمدن الآهلة فوقالماء وعلىالأرض الصلبة وذلك الممرالعريض الممتد باستقامة واستواء إلىالمدينة لم نستطعأن نقارنه بشيء سوى بالمناظر الخلابة التى قرأنا عنها فى قصة البطل أماديس (*) من الأبراج والمعابد العظيمة ، والمبانى الأخرى المشيدة من الجير والحجارة ، والتى تبدو قائمة فوق صفحة الماء . وكان كثير منا يبدون فى شك : أنحن نيام أم أيقاظ ؟ وكذلك الحالة التى أعبر فيها عما تكنه نفسى من الإعجاب ، لأن « .. المرء حتى الآن لم يشاهد أو يسمع أو يحلم بشيء يشبه المنظر الذى بدا لنا فىهذا اليوم » . ومن ذكرياته عن شعب الأزاتقة فى يوم مقابلة مونتسوما كتب يقول : « كل ما شاهدته فى تلك المناسبة مطبوع فى ذاكرتى بوضوح شديد حتى لكأنه حدث بالأمس فقط » . أما جون فسكى فقد اطلق على أول نظرة إلى مدينة المكسيك من الممربين التلال : « أعظم لحظة خيالية فى جميع عصور التاريخ ، تلك اللحظة التى وقعت فيها عيون الأوربيين لأول مرة على مدينة العجائب » . وأما كورتيس فقد كان يفكر مليا فيما سيجيء به الغد ، ولذلك فقد مر مروراً عابرا على تلك اللحظة فى سرده للحوادث . كتب يقول : « تتبع الإسبانيون الطريق حتى وصلوا إلى قمة الجبال التى يمر بينها الطريق ، ومن هناك شاهدوا سهول كولوا ومدينة تمشتيتان والبحيرات الواقعة فى تلك المقاطعة » .

وكانت العجائب فى بيرو عظيمة كما هى فى المكسيك . ولقد مشى أحد جنود بثارو لابسا درعه بين الأشجار والأزهار الذهبية والفضية فى حدائق الإنكا فى تومبيس . وبعدمسيرة يمكن أن تعد أكثر سفرة فىالتاريخ على ظهور الخيل حملق هرناندودى سوتو وبدرودل باركو إلى « الثروة

(*) Amadis of Goul .
اسم بطل عشر روايات كتبت فى القرون الوسطى باللغات الإسبانية والفرنسية والإنجليزية

التى لا يمكن تصديقها ، فى كشكو قبل أن يجردها زملاؤهما من كنوزها . ولابد من أن المنظر كان مذهلا ، كما ذكر أوفييدو (١) ، عندما جاءت عصابات الإسبانيين المتجولة بفدية الإنكا وبالأوعية الذهبية والفضية من خوخا وباشا كاماك وأماكن أخرى ، وجعلوا منها كومة فى كاناماركا . غير أن أوفييدو استقى روايته عن غيره ، فلم يكن هناك برنال دياث أو سييثا حاضرا بين الفاتحين الشرهين ليحكى عن هذه العجائب قبل صهرها إلى قضبان من الذهب والفضة . ويقول أوفييدو إنه بين تلك القطع كان هناك مقعد ذهبى ، لابد أن صاحبه كان نبيلا عظيما ، وكان الماء ينساب منه إلى بحيرة صغيرة تسبح فوق سطحها الطيور . وحول النهر كان الرجال يسكنون الماء . وأضاف قائلا : « إن كل ذلك كان مصنوعا من الذهب ، وهو شىء جدير حقا بالمشاهدة . »

وفى بعض الأحيان ألف الفاتحون كتابا — أو كتبا ، كما فعل برنال دياث وسييثادى ليون وأوفييدو المؤرخون . وبعضهم مثل كورتيس وفالدفيا كتبوا رسائل مطولة للملك أو إمبراطور ، إذا جمعت هذه تعد كتبا من ناحية المادة أو التنسيق . ثم إن هناك آخرين كتبوا تقارير مطولة ومتقنة عن أعمالهم وملاحظاتهم ووجدت هذه التقارير طريقها أخيرا فى سجلات الهند الغربية فى إشبيلية . أما بالنسبة إلى أولئك الذين لم يستطيعوا الكتابة أو لم يجدوا أبدا فرصة للكتابة ، مثل بثارو ومن شاكله ، فقد ملئت فجوات القصة بواسطة كتبة الكنيسة مثل بيتر مارتر ، ولاس كاساس ، وجنثاليث مارموليخو ، والأب سيمون ، الذين إما شاهدوا وإما سمعوا من سواهم عن الأشياء التى كتبوا عنها مع المؤرخين الرسميين مثل هيريرا ، أو متفرجى الصف الأمامى ورواة الأخبار الأصليين مثل جارسيلاسو الإنكا ، وبيجافتا من أهالى البندقية ، والذى انضم إلى ماجلان فى سياحته . وعلى ذلك فإننا نستطيع القول بأننا نعرف عن حملة الفتح

وعن الذين اشتركوا فيها أكثر من معرفتنا عن أية سلسلة من المغامرات الحربية التى حدثت حتى ذلك الوقت أو ، إذا أخذنا فى الاعتبار هذه الناحية ، حتى حروب نابليون .

واستقى بيتر مارتر ، الذى أرخ الفترة الأولى من الفتح ، قصصه كما فعل ها كلويت فى لندن أيام إليزابث ، من شفاه الفاتحين والمستكشفين عند عودتهم . يقول : « لم يقصر أحد ممن جاءوا إلى البلاط فى إرضائى بأن يقدم إلى شفاها أو كتابة تقريراً عن كل شىء عمله » . وقال برنال دياث : « أنا أروى ما شاهدته عيانا ، لا تقارير تافهة أو تقولات » ، وكتب سييثا يقول : « لقد اهتممت اهتماما كبيرا بالدقة فى تاريخى ، وفيما كان يخص الإسبانيين تخيرت رجالا حكماء كانوا صادقين لكى يستقوا المعلومات ويحصلوا على التقارير التى تدون عن الحوادث التى لم أشاهدها أنا بنفسى عيانا » . وقال أوفييدو : « أنا أروى ما رأيت » ، ويجتر استمتاع الجمهور بكتاباته فيقول : « آمل أن يرضى القارىء عما رأيته وما لاقيته من أخطار كثيرة ، فى حين يتمتع بما قد كتبت ويفيد ، دون أن يلحقه خطر ما ، فهو يستطيع القراءة دون أن يتحمل الجوع والظمأ والحر أو البرد وغير ذلك من صنوف الحرمان التى لا عداد لها ،ودون أن يترك مسقط رأسه ، ودون أن يغامر وسط العواصف فى البحار ، أو مخاطرا بالنكبات التى تصيب الناس على الأرض اليابسة .لقد ولدت لتسليته والترويح عن نفسه، وفى حوالى شاهدت هذه الأشياء » . وكتب هذا المؤرخ العجوز يقول : « لقد رأيت كولمبس أمير البحر الأول ومستكشف هذه الأرجاء ومعظم المستعمرين الأول ، وعرفت زعماء الرجال الذين جاءوا إلى هنا فى تلك الأيام ، وأيضا أولئك الذين أتوا منذ ذلك الوقت بمناصبهم الرفيعة ومسئولياتهم » . وكتب جارسيلاسو الإنكا عما بذله من مجهود ليدون مذكراته موضوعيا يقول : « إن الالتزامات التى يرتبط بها شخص يكتب عن

الحوادث التى تقع فى حياته وعليه أن يرويها للعالم جميعه تضطرنى وتجبرنى على ان أدون الحقيقة عما حدث دون هوى أو مصلحة[٢]» .

إن الموضوع الذى كتبوا عنه هو أعظم مغامرة إسبانية ؛ لأن الفتح كان عملا من الأعمال ذات الشأن العظيم ، ولأن الرجال الذين اشتركوا فيه كانوا رجالا كاملين . فلم يحدث ألبتة أن قامت العزيمة الإنسانية المحضة والمقدرة الشخصية بعمل جسيم قام به عدد قليل مثلهم على مسرح شاسع . ولم يضف الفاتحون عالما جديدا إلى قشتالة وليون فقط ، بل إن كشوفهم وانتصاراتهم سببت ثورة اقتصادية واجتماعية عالمية ، غيرت نمط الحياة جميعاً تغييرا جذريا فى أوربا وفى ممتلكاتها فيما وراء البحار .

الموت والفاتحون

كان معدل الوفاة فى فتح أمريكا مرتفعاً جداً ، فقد مات الآلاف من الجوع والمرض أو فى معارك مع الهنود[٣] وتبدو الخسائر أكبر بالنسبة إلى الأعداد الصغيرة التى كانت تتألف منها القوات التى قامت بالحملات . ومن المرجح أنه فى ثلاث مرات فقط فى أثناء الفتح تجمع أكثر من ألف إسبانى فى مناسبة واحدة تحت قيادة مندوثا على نهر بلات ، وعند دخول جنثالو بثارو ليما فى سنة ١٥٤٤ ، واحتلال كورتس مدينة المكسيك نهائيا . وكان معدل الوفاة فى حملة أوخيدا المبكرة إلى دارين ثمانين فى المائة ، بل أكثر من ذلك فى حملة نيكيسا . كما أباد الهنود كثيراً من القوات الإسبانية الصغيرة العدد . وفى «الليلة الكئيبة»(*) فقد كورتيس أكثر من مائة وخمسين من رجاله ، وفيهم ضابط من أقدر ضباطه هو فيلا سكيث دى ليون . وعندما وصل خمينيث دى كيسادا إلى هضبة كولومبيا بقى حيا مائة وستة وستون من رجاله فقط ، وكان عددهم تسعمائة رجل تقريباً حين بدأوا مسيرتهم .

(*) Noch Triste

من الساحل . وعندما أخلى مكان مستعمرة مندوثا فى بوينس أيريس وصل أقل من ربع العدد الأصلى إلى المستعمرة الجديدة فى أسونثيون(٤) . وطبقا لرواية جيرولامى بنثونى : « من أولئك الذين ذهبوا إلى بيرو مات ثمانون من كل مائة » .

ومن المحتمل أن تكون نفس النسبة العامة للناجين من الموت منطبقة على قادة الفتح* فمن بين الذين قتلهم الهنود بدرو دى فالديفيا فاتح تشيلى ، وفرانسسكو دى فياجرا أحد ضباطه ، وخوان دى أيولاس ، ودييجو دى سوليس ، وخوان دى جاراى رواد أراضى نهر بلات ، وخوان دى لا كوسا الملاح المشهور ، وخوان بونسى دى ليون مستكشف فلوريدا ، وشريف عينى ، وصانع السلام فى بورتوريكو ، وانيوفيو دى شافيس الذى فتح سهول شرقى بوليفيا باسم إسبانيا ، وفرانسسكو هيرنانديث دى كوردوبا مستكشف يوكاتان وقبائل المايا ، وخوان أصغر آل بثارو . ومن بين الذين أعدمهم زملاؤهم الإسبانيون فاسكو نونييث دى باليو ، وكريستوبال دى أوليد الذى فر من كورتيس فى أمريكا الوسطى ، ودييجو دى الماجرو وابنه ، وبلاسكو نونييث فيلا أول نائب للملك فى بيرو ، والثوار الذين شقوا عصا الطاعة على السلطة الملكية فى بيرو — جنثالو بثارو وفرانسسكو كارباخال وردريجو أورجونييث وفرانسسكو هرنانديث جيرون .

واغتيل فرانسسكو بثارو وأخوه غير الشقيق بدرو الكانتارا وردريجو دى باستيداس من أوائل الفاتحين للجهات الساحلية الشمالية لأمريكا الجنوبية (الأرض الصلبة)(٥)** . وخورجى روبليدو أحد فاتحى كولومبيا ، ومن حكام بيرو ، ويظن أنهم ماتوا بسم من أعدائهم ، ودييجو سنتينو ، ودييجو دى الفارادو ، وكذلك دييجو دى أورداث ، وهو أحد ضباط

(*) adelantado
(**) Tierra Firme

كورتيس ، بعد عودته من الغارة المشئومة التى شنها فى الأراضى الواقعة خلف نهر أورينوكو . وممن فقدوا فى البحر فى مياه العالم الجديد ، وغيرهما كثيرون ، دييجو نيكيسا والمنحوس بانفيلوا دى نارفايث . وصعق البرق هرنان بيريثدى كيسادا أخا فاتح كولومبيا . أما بدرو دى ألفارادو ، الفاتح الخالد ، فقد ظل يقصعه حصان حتى مات . ومات البعض منهم منهوكى القوى من صنوف الإجهاد والحرمان مثل سباستيان بنالكاثار فاتح إقليم كيتو ، وهرناندو دى سوتو وجنثالو ساند وثال ضابط كورتيس المحظوظ .

ومن العجيب أن يبقى حيا العدد الكبير الذى نجا مع المجازفات التى تعرضوا لها . ومنهم كورتيس العظيم ، ولو أنه مات قبل الأوان لشخص فى نشاطه الجسمى . أما خمينيث دى كيسادا فقد مات من الجذام فى البلاد التى فتحها بعد أن بلغ من العمر ثمانين عاما . وقليل جدا نجوا من لعنة بيرو ، من بينهم ألونسو دى ألفارادو ولورنثو دى الدانا وجارسيلاسو دى لافيجا ، أبو مؤرخ الإنكا . وأما هرناندو بثارو ، وهو أصغر خمسة إخوة فقد قضى فترة تقاعده مسجونا فى قلعة فى إسبانيا حيث لم يستطع أعداؤه النيل منه . وعاش حتى بلغ سن نضج الشيخوخة ، أربعا ومائة سنة . ويحكى الأب فاسكيث دى أسبينوثا عن أحد فاتحى فنثويلا ، وهو دييجو دى هنارس لوثانا ، وقد مات فى سن الخامسة عشرة بعد المائة تعلوه السنون وألقاب الشرف . ومن أعظم الفاتحين تحملا المحارب فرانسسكو دى أجيرى الذى مات فى سن تتراوح بين الثالثة والسبعين والحادية والثمانين بعد حياة طويلة هى فى الواقع جيش فاتح يقوده رجل واحد . ومن مائة وعشرة ذهبوا إلى تشيلى مع فالدفيا عمر واحد إلى ما بعد المائة ، وستة بين ثمانين وتسعين سنة ، وتسعة عشر بين سبعين وثمانين ، وثلاثة وعشرين بين الستين والسبعين . وبعبارة أخرى عاش نصفهم تقريباً إلى سن الستين على الأقل ، وهو رقم قياسى غير عادى لطول العمر إذا أخذنا فى الاعتبار الأخطار غير العادية

التى استلزمتها الحرب مع التيهويلتى . وعاد بدراورياس دافيلا ، وهو العبقرى الشرير الذى فتح منطقة البرزخ وكان قد تقدمت به السنون ، إلى إسبانيا ليطول عمره عن أعمار ألف وخمسمائة كانوا رافقوه إلى دارين ، وليموت فى سن التسعين وعاش دومنجو مارتينيث دى إيرالا ،مؤسس باراجواى، ومن أكفأ الفاتحين فى الإدارة فى مستعمرته الإسبانية رئيساً بين شعبه المختلط وواحداً من آباء الشعب ، بما فى هذه العبارة من معنى حقيق .وشخص آخر فاق معظم رفقائه ومعاصريه فى طول العمر هو الرواقى والشجاع الطائش(*) ألفار نونييث كابيثا دى فاكا أحد رجال الفتح غير العاديين، وكان منافسا لفترة ما لمارتينيث دى إيرالا فى السيطرة على مستعمرة باراجواى(٦)

وروى أوفييدو عن أحد فاتحى فنثويلا الذى توقف عن الحروب اللانهائية مع الكاريب بزيجة هنية من أرملة ثرية فى هسبانيولا . يقول أوفييدو : « ولما أدرك تخريبات العالم ، وأنهكه الكفاح والعمل بلا جدوى، وإذ رغب فى أن يفيد مما بقى من عمره من سنين فقد صمم على الزواج »،ولذا « فقد وهب الرب هذا المحارب المضنى صحبة امرأة طيبة توافق سنه » . وأردف باعتبار آخر قال إنها كانت تملك « مقومات الأكل ومنزلا مناسبا وستة آلاف رأس من الماشية وأرضاً واسعة » . وهنا وجد « السلامة والأمن اللذين طالما افتقدهما كجندى يبحث عن كنوز الميتا الأسطورية».

وكثير من جنود الفتح ، وكانوا أسعد حظا من معظم قادتهم، استقروا مع ذكرياتهم فى «الأرض الموثقة»(**) جزاء ما أدوا من خدمات ، أو فى بلد من البلاد الخاملة الذكر .وفى هذه الأماكن ،كانوا يقصون على أحفادهم القصص اللانهائية عن الحروب التى خاضوا غمارها عندما يأتى المساء فى صحن الدار أو الميدان ، وكانت قصصهم تطول كلما تطاول بهم العمر .

(*) نسبة إلى دون كيخوت المشهور .
(**) encomienda .

ومن هؤلاء برنال دياث الذى خلد اسمه فى الرابعة والثمانين بإصدار كتابه « القصة الحقيقية لفتح إسبانيا الجديدة » ، وهى أعظم قصة كتبها جندى فى تاريخ الحرب . وقد كان فى ذلك الوقت عضو مجلس شورى(*) أو مستشاراً فى مدينة جواتيمالا يعيش وسط مجموعة كبيرة من نسله يعنى بهم من أملاكه المتواضعة . وكان ينعى حظه ، شأنه فى ذلك شأن كل محارب عظيم ، وكتب يقول : « بقى حيا من رفقاء كورتيس خمسة فقط ، ونحن الآن طاعنون فى السن ، واحدودبت ظهورنا من العاهات وأصبحنا فقراء جداً ، ولنا أبناء كثر ، علينا أن نعولهم ، وبنات علينا أن نزوجهن ، وأحفاد نرعاهم ، ودخول صغيرة لنقوم بهذه الأعباء ، وهكذا نقضى بقية أيامنا فى ألم وكد وغم » .

ويروى برنال دياث مصير بعض من رفاقه فى الحرب : ثلاثة فقط أثروا فوق المستوى العادى ، منهم خوان دل اسبنار الذى أصبح « رجلا غنياً جداً » و « عاد » كل من خوان جوميث وواحد من أسرة فيالوبوس « إلى قشتالة بعد أن جمعا ثروة كبيرة » . ومن ناحية أخرى خمسة ممن أصابهم بعض الثراء تنازلوا عن ثرواتهم ليحيوا حياة دينية ، واثنان أدارا فندقين فى الطريق بين فيرا كروث ومدينة المكسيك ، وهو عمل كان لاشك مربحا فى تلك الأيام . أما جسبار دياث ، وهو واحد من المحاربين المحنكين ، فقد وهب ثروته وصار ناسكا مشهورا ومقدسا فى غابات جواشوسنجو الصنوبرية ، وواحد من أسرة إسكالانتى « وهو جندى كفء ذو مزاج مرح » انضم إلى المذهب اليسوعى ثم عاد جندياً ولكنه أمضى أيامه الأخيرة راهباً . ويذكر برنال دياث فى مجمل حديثه سبعة من بطانته القديمة أصبحوا كهنة .

وفى إسبانيا الجديدة كان توفيق المحاربين القدامى الذين اشتركوا فى الفتح لمطالب حياة السلم أسهل كثيراً عما كانت الحال عليه فى بيرو ، حيث كانت الحروب المدنية الطويلة بين الحكام تنزع إلى أن تكسب الجنود وحشية وأن

(*) Regidor

تجعل الكثيرين منهم غير صالحين للحياة المدنية . وعلى أحسن افتراض أصبحوا لا يتقنون شيئاً و « لاحيلة لهم » ، أو على أسوأ تقدير أصبحوا عرابيد ومشاغبين مزمنين يزعزعون باستمرار قواعد الأمن الذى كانت حكومة نائب الملك تحاول فرضه على البلاد المضطربة . هؤلاء كانوا « الرجال الأشقياء » الذين اتخذوا مقامهم على الحدود الجديدة والذين كانت السلطات المنزعجة تحاصرهم أحيانا وتنظمهم جماعات يرسلونهم فى مطلب محال إلى أعماق الغابة فيما وراء الجبال بحثا عن مدينة ذهبية ما حتى يتخلصوا منهم نهائيا . وأشهر هؤلاء المتهورين لوبى دى أجيرى « ذو العينين الشبيهتين بعينى الحية المجلجلة » وحياته الإجرامية المخجلة فى الأرجاء الداخلية لأمريكا الجنوبية تعد إحدى أساطير القارة الخالدة .

الجندى الاسبانى

أقلية فقط ممن اشتركوا فى الفتح كان لهم سابق تجربة باستخدام الأسلحة ، ولو أن قلة مثل فالدفيا وكارباخال كانوا محاربين قدامى فى حروب آل أراجون الإيطالية . ومن أقواهم شكيمة فرانسسكو بثارو ، وكان راعى خنازير ، وخمينيث دى كيسادا فاتح كولومبيا ، وكان رجل قوانين ومحاكم . وكان بالبو شابا خليعا جذابا فى بلاط أحد نبلاء الأرياف . وهكذا كان الجنود العاديون . ومن رفقاء برنال دياس كان يوجد « رجال أعمال » ، وكان فى الوقت نفسه مدرس كمان ورقص و « بهلوانا » . وكان للتاريخ الشخصى علاقة ضئيلة بمركزهم فى صفوف الفاتحين . وقليل جداً منهم انحدروا من أسر ذات تقاليد حربية مثل جارسيا دى باريدس ، وهو الابن الشرعى لقائد مشهور فى الحملات الإيطالية . وقليل كان لهم حتى صلة بعيدة بأسر العظماء(*) إذا استثنينا بونسى دى ليون وبدرو دى مندوثا . ومعظمهم كانوا لاشىء ، بل كانوا أناسا لم يسجل لهم ماض . وعلى أحسن افتراض

(*) grandesa

كانوا نفرا مجهولين من سادة الأرياف ، لا يعرفون خارج المنطقة التى ولدوا فيها . ومعظمهم مثل فالدفيا وبدرودى الفارادو لم يعرفوا حتى محل ميلادهم . أما الماجرو وبنالكاثار فكانا مجهولى الاسم ، وكانا يعرفان بالاسم المحلى لبلديهما. وقال برنال دياث إن معظم رفقائه كانوا من أشراف إسبانيا(*) ولكن الأشراف كانوا لا يساوون شــيئاً (**) فى إسبانيا فى أواخر القرون الوسطى .

والحقيقة الهامة أنهم كانوا إسبانيي القرن السادس عشر ، ولذلك فقد كانوا مادة محاربة فائقة . وإذا تركنا جانبا الصفات التى ميزتهم كإسبانيين ، فقد كانوا ، كإسبانيين ، الحصيلة النهائية لقرون قضوها استعداداً لجهود جماعى عظيم أملته الإرادة الإنسانية . وطوال عصور عدة قاتل أهالى قشتالة أهالى أراجون وحارب كل منهما الآخر أو حاربوا المسلمين . ولم تكن فترات السلام طويلة ألبتة لدرجة تكفى لتهدئة الأعصاب المتوترة التى كتب عليها القتال . ثم تآلفت الظروف فى أواخر القرن الخامس عشر ونتج عن هذا التآلف أن تهيأ الوضع وحلت المناسبة للمغامرة الكبرى التى هيىء لها من قبل كل شيء آخر . واتحدت قوى المملكتين بزواج فرديناند وإيزابلا وطرد العرب من آخر معقل لهم فى شــبه الجزيرة . وأرهفت حروب فرديناند الإيطالية سيف إسبانيا وعبأت عقليتها للتحدى الذى كان قادماً ، وكشف ملاح من جنوفا فى خدمة قشتالة أرضا بكراً مهيأة للاستيلاء .

وعلى الرغم من أن كتالونيا قدر لها أن تقوم بدور صغير فى فتح العالم الجديد فإن الأعمال الأسطورية التى قامت بها «الجماعات الحرة» من كتالونيا

(*) Hidalgos

(**) (maravides) نسبة إلى عملة نحاسية قديمة (القرنان الحادى عشر والثانى عشر) ذات قيمة تافهة .

(***) جنوة .

فى الشرق الأدنى كانت خيوطاً لامعة فى قماش إسبانيا الحربى ، ورسمت مغامرات روجير دى فلور وبيرنجير روكافور صورة خادعة للحقيقة فى قصص الفروسية التى كانت القراءة المفضلة للفاتحين . وبعد ذلك بفترة طويلة شنت أراجون الحرب على صقلية ونابولى وأكملتها فى شمال إيطاليا بقيادة الإمبراطور شارل ، وهى حروب متصلة اتصالا وثيقا بمجرى الفتوحات فى الأمريكتين ولقد كانت هذه الحملات، وخصوصاً الانتصار على الفرنسيين فى رافينا ، هى التى جعلت لإسبانيا هيبة حربية عظيمة فى غرب أوروبا . ومنها أيضاً بزغ نجم جنسالفو دى كوردوبا « الكابتن العظيم » الذى أحدث انقلاباً فى فنون الحركات الحربية وتنظيمات الجيوش الإسبانية . ومن هذه الحروب نشأ جيش جديد كان بعد ليصبح الأداة التى ينفذ بها ملوك هابسبورج خططهم فى القارة . وكان أساس هذا التنظيم الحربى الجديد هو « الوحدة الحربية »(*) وهى الضم المحكم لمختلف الأسلحة فى وحدة قتال فردية كان مفروضاً فيها أن تكون فى مرتبة الفيلق المقدونى والفرقة الرومانية فى تاريخ العمليات الحربية . وظلت « الوحدات » الجندية الخيفة مدة قرن من الزمان تجتاح غرب اوروبا حتى شتت الفرسان الفرنسيون شملهم فى ركروا. وهؤلاء كانوا الرجال الذين يظهرون فى « غابة الحراب » فى اللوحة التى رسمها فيلاسكيث لاستسلام بريدا (١٧٩٣ — ١٧٩٤) وعندما شاهد الكاتب الفرنسى برانتوم(**) محاربى «الوحدات» الإيطالية وهى تتقدم نحو الشمال بدا له كأن أفرادها جميعا من الضباط . كتب يقول : «كان يمكن للمرء أن يقول إنهم كانوا أمراء ، وكان سلوكهم فى زهو وخيلاء وحركة رشيقة جداً» .

وكانت سلالة الفاتحين من نفس هذه السلالة المتعجرفة المتعاظمة كتلك

(*) tercio

(**) Sieur de Brantome

التي تبعت ليفا والفا ، وبعضهم كان قد « اشترك في القتال في فلاندرز » — أو في إيطاليا ضمن تلك الفئة المختارة . ولكنهم حاربوا في عالم آخر وضد أعداء غرباء فاسدي العقيدة ، طريقة نزالهم أقرب إلى حرب العصابات الإسبانية الحقيقية منها إلى دقة « الوحدات » . وعلى ذلك فقد كانت معاركهم على الأرجح هي خلاصة الضربات والدفعات التي كان يقوم بها بضع مئات من « الأفراد » صمموا على إفناء أعدائهم .

ويجسم الفاتحون بدرجة فائقة عبقرية إسبانيا الخاصة . ففي فرديتهم الطافرة ربما استطاعوا أن يكونوا لا نظاميين إلى حد الفوضى ، كما كانوا في بيرو في معظم الأوقات ، حيث أدى تصادم العزائم الحديدية الثائرة إلى حرب أهلية(٧) . ولم يستطع أحد سوى زعيم في مستوى كورتيس أن يروض لفترة طويلة نفوسهم المملوءة بالزهو والضراوة . وإنه لما يستحق الإشادة بمستوى الزعامة الفائق ، بصفة عامة ، بين حكام الأقاليم(*) أن الفتح أنتج هذا العدد الكبير من الزعماء مثل بالبو ، والماجرو ، وفالدفيا ، ومارتينيث دي إيرالا ، وخمينيث دي كيسادا ، وسوتو الذين استطاعوا أن يلهموا إخلاص أتباعهم في تلك الظروف الشاقة . فعندما طلب رجال كيسادا منه أن يعود راجعاً إلى الساحل أخبرهم أن «مثل هذا الوهن لا يسمح به الإسبانيون». وعلى الرغم من استقلال الفاتحين فإن جانباً من جوانب أخلاقهم المتناقضة كان إخلاصهم الذي لا شك فيه للحاكم : إخلاص الإسبانيين الكيخوتي في العالم الجديد ، حتى للملك أبعدما يكون استحقاقا له ، وجاحد إلى أقصى حد ، إخلاصا استمر ثابتا حتى النهاية المريرة التي آل إليها العهد الاستعماري .

ولا ترجع صفة الفتح البطولية إلى ضخامة المشهد والأخطار فقط ، بل إلى البسالة الأسطورية للجماعات الصغيرة من الأبطال الذين ثلوا عروش أمم عظيمة ومحاربة . وكانوا يحتقرون الأخطار احتقاراً كليا ، كما حدث عند أوتمبا وكاخاماركا وفي المعارك ضد الأروكاريان . وأظهروا استهتارا

(*) Adelantados

طائشا للأخطار التى لم يستطيعوا رؤيتها ، وتوغلوا برعونة دون حساب للتبعات فى الجبال والأدغال حيث يمكن بسهولة إيقاعهم فى كمين أو إبادتهم وعندما أجبروا على الاستسلام تحت ضغط الكثرة العددية ، ليس إلا ، فإنهم لم يخضعوا مطلقاً للهلع . وكانت أجسامهم مهيأة تهيئة صالحة لتجارب الفتح وإجهاداته بأسلوب معيشتهم المتقشف الذى تعوده جنسهم . وكان جلد الجندى الإسبانى وتحمله يدهشان أعداءهم الهنود الذين تعودوا المعيشة فى بيئتهم .

وكانوا متحمسين لعقيدتهم ، ويبتهجون عند تدمير الأصنام الوثنية التى تمثل الرمز المرئى للسلطان الذى يفرضه الشيطان على أعدائهم . وكان ينقصهم بطبيعة الحال شعور بالقيم الأركيولوجية المستقبلة . وفى حروبهم الصليبية ضد الكفرة لم يعودوا يحترمون المعابد المهيبة المخصصة للعبادة الرسمية فى شولولا والمكسيك ، وفى كشكو وباشاكاماك ، كما لم يحترموا المزارات المتواضعة على جانبى الطرق والتى كان يقصدها العـــامة من الناس . وكان يشاركهم فى حملاتهم قساوسة يماثلونهم فى الشجاعة مثل الأب ألميدو الذى كان فى جيش كورتيس ، يشاركونهم فى مصاعبهم ويؤدون لهم احتياجاتهم الدينية وعندما كان أحد الجنود يأخذ امرأة هندية محظية له ، فسرعان ما كان القس يدخلها فى المجتمع المسيحى ويطلق عليها اسماً مسيحياً مألوفاً .

وكان المؤرخون من الجنود يكشفون عن صفات السلالة التى انحدروا منها والظروف التى حاربوا وعاشـوا فيها . كتب سييثا دى ليون يقول : « أما بالنسبة إلى المصاعب والجوع الذى واجهوه فلا تستطيع أمة أخرى فى العالم أن تتحمله . وقد بلغت جرأة الإسبانيين درجة عظيمة إلى حد أن لا شىء فى العالم يخيفهم » . كتب سييثا ذلك دون تفاخر ثم أضاف : « لا يوجد شعب آخر يستطيع التوغل فى مثل هذه الأراضى الوعرة ، ومثل هذه الغابات الكثة ، ومثل هذه الجبال العظيمة ، والصحراوات ، وفوق هذه الأنهار العريضة ،

كما فعل الإسبانيون دون مساعدة من الغير، بل بشجاعتهم الشخصية وبمراسهم الذى اتصفت به سلالتهم ليس إلا . ففى فترة سبعين عاما غلبوا وفتحوا عالما آخر دون أن يأخذوا معهم عربات للمؤن أو مخزنا للحقائب أو خياما يستريحون فيها أو أى شىء ماعدا سيفا ودرعا وحقيبة صغيرة يحملون فيها الطعام » .
وكتب أوفييدو : « لقد منح الله إسبانيا فرسانا شجعانا كثيرين وأشرافا لامعين ، وجعل أهلها على مستوى عال من الشجاعة والعزم ومن الفطرة الحربية » .

وكانت الأخطار فى بعض الأحيان من الضخامة بحيث لا يستطيع الرجال تحملها . قال متكلم باسم إحدى الفرق التى توغلت فى الأراضى الخلفية فى فنثويلا مخاطبا قائده : « نحن لا نريد ذهبا ، بل نحن نموت هنا . خذنا بعيداً عن هذه الأرض الملعونة ، ولو أنك أردت أن تعود إلى هنا ثانية فاذهب بنا إلى كورو فقط حتى نسترجع صحتنا ونحضر ملابس جديدة وأسلحة ، لأننا مجردون من الملبس وفى حاجة إلى كل شىء . وياسيدى سنعود معك بعتاد جديد وبفرصة أقرب إلى النجاح مما لو داومنا على المسير الآن ولذلك فعلى حالتنا هذه لسنا فى حاجة إلى ذهب أو أى شىء آخر، اللهم إلا أرواحنا فقط ، ولا نريد أن نهلك أنفسنا دون هدف ، نحارب السماء ونتحدى المستحيل(٨) » .

القصة السوداء

لم ينقطع اتهام الإسبانيين منذ الفتح بالجرائم المروعة التى ارتكبوها فى حق سكان العالم الجديد الأصليين . وهذه « القصة السوداء » التى تحكى القسوة الإسبانية نشأت مبكرة جداً فى المبالغة الدعائية المنسوبة للاس كاساس المشهور الذى ناصر قضية الهنود ضد طغيان حكامهم . ولما كان كتابه « تدمير الهنود »(*) قد أمد الأحقاد التى كان يضمرها لإسبانيا جميع

(*) La Destruccion de las Indias .

حسادها بموضوع مناسب ، كان هناك تهافت على ترجمته إلى لغات أوروبية أخرى . وكانت النتيجة أن تلك الأمم ، التي لم يكن لديها هي هنود لتظلمهم، استطاعت أن تشيد بما هي عليه من التهذيب والاستقامة على حساب الإسبانيين . وأصبح هذا التواتر اللعين مؤكداً كالأسطورة التي أوحى بها سوتون(*) يقول فيها «إن الدعارة التي عمت الإمبراطورية الرومانية مسئولة عن سقوطها» . وفي عصرنا هذا نجدها باقية للأجيال القادمة في لوحات دييجو ريفيرا .

وليس هناك شعب احتكر لنفسه القسوة أو احتكر الرحمة في القرن السادس عشر . وعلى الرغم من نواهي المسيحية والكرامة الجديدة التي أكسبتها النهضة لشخصية الإنسان الفرد ، فقد كان العصر عصراً خشناً عديم الرأفة. فتحت المسحة الجديدة التي جاءت بها المدنية الغربية كان لا يزال هناك كثير من القسوة والوحشية كاللتين ظهرتا فيما بعد في الحروب الدينية في أوروبا . وحدث أن الإسبانيين والبرتغاليين كانوا أول أوروبيين يلقى بهم للاتصال بالأجناس «الأدنى» ، ومن المرجح أنهم عاملوهم بإنسانية كما يفعل أي شعب أوروبي آخر في نفس الظروف . وعلى ما كان بينهم من أحقاد متبادلة ربما كانوا قساة بعضهم نحو بعض ، كما كانوا في وقت ما نحو الهنود .

وفي أول موجة من موجات عصر الكشف اجتاح الإسبانيون الجزر الكبرى في الأنتيل . وإذ أضحوا واقعيين من ناحية الثروة التي ترقبوا العثور عليها ، ونظراً إلى غرائزهم في التلذذ بممارسة القسوة التي أثارتها دماثة الأهالي سلك كثير منهم مسلك رولدان القاسي . وعندما أخذ سكان هسبانيولا يتناقصون بسبب سوء المعاملة والمرض جيء بالعبيد من ساحل القارة لكي يسدوا الثغرات في القوة العاملة بالمستعمرة. وشاهد لاس كاساس — وهو نفسه مستعمر مدني ويستخدم العمال الهنود قبل أن ينقلب راهباً دومنيكانيا —

(*) (Suotonius) .

هذه المرحلة من الفتح ، وأوحى إليه ماشاهده أن ينشر مقالاته الملتهبة ضد بني وطنه من الإسبانيين .

وعندما عمت هذه المرحلة من الفتح فوق القارة لاقى الإسبانيون مقاومة الأعداء الجمة من الهنود المحاربين الذين أجبروا الإسبانيين على احترامهم بسبب صفاتهم المقاتلة . وفى عنف الحروب التى تلت غزو القارة لم يرحم أحد من الفريقين الفريق الآخر ، بل عامل أحدهما الآخر دون أدنى مراعاة لقواعد أو مبادىء الإنسانية أو العدل . وكانت وحشية الهنود تستلزم الرد بالمثل ، كما حدث فى كولومبيا ، أو عندما قـــدم الأزاتقة أسرى الحرب الإسبانيين قربانا لإله الحرب أمام زملائهم . واختلف الفاتحون على ما بينهم من تباين اختلافا كثيرا بالنسبة إلى معاملتهم للهنود . فقد كان نونيو دى جوثان الذى اجتاح إقليم بانوكو فى شمال المكسيك سفاحا وصياد عبيد ، استدعاه الأسقف ثومراجا ليحاسبه على ما اقترف من جرائم . أما كورتيس وقد ألجأته الضرورة الحربية إلى القسوة فى أثناء اشتداد فترة الفتح ، فقد كسب بعد ذلك ثقة الشعوب الهندية فى المكسيك باعتداله .

وحدث مثل ذلك بالنسبة إلى بالبو . فبعد أن انتهت صرامة الأعمال العدائية الأولى حافظ على الســـلام فى جميع أرجاء إقليم دارين بمعاملته العادلة لمختلف زعماء القبائل فقط ليهدم بدرارياس دافيلا ماقام به من عمل . وعلى الرغم من أن الأراضى الساحلية لأمريكا الجنوبية ظلت مدة طويلة وكراً فتاكاً لسهام الكاريب المسمومة ، تصوب نحو أى إسبانى يجرؤ على النزول إلى الساحل فإن بدرو دى هيريديا مؤسس كارتاخينا استطاع أن يوجد علاقات عمـــل مرضية مع الهنود المجاورين . وفى بيرو ، وبصفة خاصة فى الجهات الساحلية منها ، قاسى الهنود كثيراً فى أثناء الفتح والحروب الأهلية التى صاحبتها . وبعد كاخاماركا كانوا دائما يتوقعون أسوأ معاملة من فرانسسكو بثارو ، وقلما خاب لهم رجاء . وكسب جنثالو شهرة

أكبر بكثير مع الهنود مما كسب أخوه ، أما الماجرو،شريك بثارو ،فعرف كيف « يسلك طريقه » مع الهنود كما سلك مع رجاله(٩) .

وإذا كانت القسوة تغلب على الإسبانى فى وطيس الفتح فإنه ، بتوقف القتال ، وعندما يتحول الفاتح إلى مستعمر ، ينقلب مصير الهندى إلى تحسن بصفة عامة . فإذا استقر على أرض موثقة فإن الهنود الذين كانوا يعيشون على الأرض يصبحون « تبعاً » له . وكان يشعر ، بوصف كونه وليهم ،بأنه مسئول عن سعادتهم ، وكان يفضل أن يراهم سعداء فى التفافهم حوله ،لأن سعادتهم كانت تزيده راحة بال وفى هذه العلاقة الجديدة كانت صفة العدالة والإنسانية المتأصلة لدى الإسبانى تنزع إلى إثبات وجودها . وعلى الرغم من حدوث استثناءات فردية فإن دستور الوثيقة ، مع الضمانات التى وضعتها القوانين الجديدة ، كانت على وجه الاحتمال إطاراً مرضياً على قدر المستطاع للتوفيق بين مصالح الحاكم والمحكوم فى ذلك العصر البعيد عن الكمال(١٠) .

وعندما لحق بالهنود سوء معاملة كان الإسبانيون أول من يحتج ، سواء منهم رجال الدين والعلمانيون . وإنه لما يذكر بالفخر لإسبانيا على الدوام أنه كان هناك قساوسة مثل مونتسينوس ، ولاس كاساس ، والدومنيكان الأوائل ، والفرنسسكان فى المكسيك ، ورجال ضمن الفاتحين أنفسهم ، مثل سييثا وأوفييدو وكابيثا دى فاكا يرفعون أصواتهم فى جانب الهنود ، ولم تكن هناك أمة أخرى قد سنت دستورا من القوانين لحماية رعاياها ، كما فعلت إسبانيا ومن بينها جميعا لم يوجد شخص يحمل على عاتقه عبء المحافظة على القيم الخاصة بحضارة الأهالى بالحكمة البالغة والإخلاص والإدراك فى وجه أثر القوى الجديدة مثل : فاسكودى كيروجا أسقف ميشواكان ، وأحد تلامذة توماس مور . وتبقى الحقيقة الكبرى ، وهى أن معظم الناس فى أكثر من نصف جمهوريات أمريكا اللاتينية لا يزال يجرى فى عروقهم الدم الهندى .

البحث عن الذهب

كتب كثير عن لهفة الفاتحين الشديدة على الذهب ، كأن الشراهة رذيلة خاصة بالإسبانيين وحدهم . ولـكن الغرض الأساسى للفتح لم يكن بهـــذه السهولة . وكان اقتصاد الفاتحين غير معقد . فإذا استثنينا بضعة من القواد ، نجد أن معظمهم كان لايملك مالا ولا أرضاً . فإذا بدوا كأنهم يقدرون لحيازة الذهب قيمة طاغية ، فلأن هذا المعدن كان يغطى كل مدركاتهم الأولية عن الثروة ، كما أن ثروة الهند الغربية كانت قد وعدتهم بالتخلص من الفقر الذى عانوه فترة طويلة . فلما رأوا الذهب يتدفق فى أيديهم — نصيباً لهم من غنائم الفتح — صرفوه بتحمس مماثل للتحمس الذى دفعهم من قبل إلى البحث عنه ، حتى إذا جاء الغد رأيتهم فى غالب الأحيان فقراء كما كانوا يوم أن غادروا إشبيلية(١١) . ولما آلت إليهم الثروة فجأة بسطوا أيديهم كل البسط ، وعندما قامروا بما نهبوه من كسكو قبل طلوع فجر اليوم التالى كانوا قد قامروا بالصور الذهبية من معبد الشمس ، كما لو كانوا يقامرون بريالات(*) فى حانة على الطريق فى استريمادورا(١٢) . يقول سييثا عن ازدراء الإسبانيين للنقود إذا حصلوا عليها : « إذا كانوا فى حاجة إلى أى شىء فإنهم لا يفـكرون فيه ألبتة ، فقد اشتروا الخنازير وهى فى بطن أمها قبل ولادتها بمائة بيسو وأ كثر (**) .

وكثير من فاتحى بيرو أصبحوا أغنياء لفترة من الفترات ، غير أن قليلين عاشوا ليفيدوا من ثرائهم ، فالثروة كالحياة نفسها ، كانت ابنة يومها فى تلك البيئة . وقد مول الماجرو حملته إلى تشيلى من نصيبه من غنيمة الإنكا الأصلية . وكان يعطى الذهب لكثير من أتباعه لكى يستطيعوا تجهيز أنفسهم

(*) real : عملة قديمة تساوى ربع بيسيتا .

(**) peso : ٥ بيسيتا .

ثم لما وصلوا إلى وادى تشيلى ألغى كل التزام له عليهم فى حركة غطية خاصة به . وحمل سوتومعه الثروة التى نظم بها حملته الدهياء فى الجزء الجنوبى مما هو الآن الولايات المتحدة . وحتى أولئك الذين كانوا من جشعهم يحسبون المكاسب مثل لويس دى لوجو ، من حكام نيوجريتادا (*) الأوائل وقد كان قاطع طريق حقيقيا ، فلم يعمروا للتمتع بما جنوه من أموال فى حياة طويلة . ولكن عندما قسمت غنيمة حملة فاديلو فى كالى كان نصيب سييثا الشاب خمسة بيسات ونصف بيسو . « هكذا »، قال سييثا ، « كان الجزاء عن كشوف تمت بهذا العمل المضنى » . وعلى طرف نقيض ، عندما قسمت فدية أتاهواليا أنصبة بين رجال بثارو فى كاخاماركا تسلم كل جندى مترجل ٤٤٠ بيسو من الذهب و ١٨١ ماركا من الفضة ، وضعف هذه المكافأة لكل من الفرسان . وقال برنال دياث إن جنود كورتيس العاديين كانوا غير قانعين بتوزيع كنز الأزاتقة . وكتب عن « ذهب مونتسوما الذى وزع توزيعاً سيئاً واستخدم استخداماً أسوأ »، « أخذ ضباطنا سلاسل من الذهب صاغها لهم صناع الملك . وصيغ لكورتيس مثل هـذه الأشياء ، ومعها « طاقم » لأدوات المائدة . وكثير من جنودنا الذين ملأوا جيوبهم جيداً فعلوا نفس الشيء ، واستمرت المقامرة نهاراً وليلا . وهكذا أمضينا وقتنا فى المكسيك » وبعد الاستيلاء النهائى على عاصمة الأزاتقة احتفل الجنود بالحادثة التاريخية فى جمع كبير مشاغب فى كويوسان وكانت قد وصلت حمولة من النبيذ ولحم الخنزير من كوبا فى الوقت المناسب للاحتفالات . وبينما اشتد المرح ، « أقسم العامة من الجنود أنهم سوف يشترون خيلا بطقوم ذهبية ، ورماة السهام ألا يستعملوا إلا السهام الذهبية ، وكان على الجميع أن يكونوا ذوى ثروات . وعندما أخلى المكان من النضد ، رقص الجنود وهم مرتدون الدروع مع السيدات ، مع العدد الموجود منهن ، ولكن التفاوت فى العدد كان كبيراً

(*) كولومبيا .

جداً . وقد خزى الأب الطيب القلب الميدو مما كان يحث . وتبعت تقسيم الغنائم موجة من التضخم كما حدث فى بيرو . وسرعان ما أصبح الجنود فقراء كما كانوا عند وصولهم إلى المكسيك من قبل . ولكى يخفف من حدة الموقف أعلن كورتيس تأجيل دفع الديون بين رجاله مدة سنتين(١٣) .

وكانت حاجة الفاتحين إلى القوة والتعبير عن شخصياتهم أكثر من حاجتهم إلى الذهب . فهما ميدان العمل المناسب لذواتهم الهمجية . وكانت إسبانيا جميعها فى ثوران، واجتاح البلاد من أقصاها إلى أقصاها تبرم شديد، واحتاج الناس إلى ميدان أوسع لفائض نشاطهم من الميدان الذى كانوا يمارسون فيه أنواع النشاط المحلية البسيطة . وقد كان هناك ميل لأن يأتى اليوم شبيهاً إلى درجة كبيرة بما كان عليه اليوم الآخر فى باداخوس أو ميديين، حيث كان الماضى يتحكم فى الحاضر، وحيث ضاع هنالك المستقبل، وحيث كان الشباب يتوقون إلى المغامرة والتخلص من سأم الحياة ورتابتها فى بلد ريفى كئيب، ولذلك فقد نزحوا نحو الميناء فى اشبيلية حيث كانوا يقلعون منها إلى الهند الغربية ، وكثيراً ما كانوا يحملون معهم سيفهم ، متاعهم الوحيد ، فلربما حملتهم السفن إلى القوة والثراء ، ولكن دائماً إلى المغامرة والفروسية .

وكتب فرناندو دى لوس ريوس: « يمثل الفاتحون أروع نموذج معروف فى عصر النهضة المضطرب للعزم على الوصول إلى القوة . ففى هذه الفترة تجسم فى الفاتحين تمجيد الأفراد والثقة التى لاحد لها فى قيمة كل مايقوم به الإنسان من عمل والرغبة فى الوصول إلى القوة والمجد . ولربما لم يحدث ألبتة فى التاريخ من قبل أن كان هناك مشهد لقوة العزيمة ... الصلابة التى لاتصدق والتهور الذى به قاموا بأعظم الأعمال جرأة . وإذ وجدوا أنفسهم معزولين فى وسط مجهول همجى ، ومعاد فى أغلب الأحيان إلى درجة فظيعة، نظروا بلا وجل إلى عينى أبى الهول ، إلى أفق المستقبل الصامت . وبدلا من أن يشعروا بالخوف أحسوا بجاذبية السر الغامض ، ولذلك فقد مضوا فى طريقهم ، فقد كان عندهم ثقة عمياء فى قيمـــة قوة عزيمتهم فى

« البطولة الطائشة »(*) التي جسموها ، والمهمة السامية التي كانوا يشعرون أنهم يؤدونها ، غير واعين في بعض الأحيان(١٤) .

مشروع الفتح

نظم الفتح وموّل إلى حد كبير كما ينظم ويموّل أي مشروع اقتصادي(١٥) وعلى الرغم من أن ملك إسبانيا كان شريكاً في الأرباح إلى مقدار الخمس من المشروع الكلي ، فقلما كان يسهم في رأس المال الأساسي للمشروع . أما الاعتماد الأساسي فعادة ما كان يديره قائد الحملة الذي قد يودع كرهينة أية أموال يملكها أو يعطي الدائن حق الحجز أو السجن لأداء الدين . ولقد مون بدرو دي مندوثا حملته الكبيرة إلى نهر بلات بنصيبه في سلب روما . وبتراكم رءوس الأموال في كل خطوة لاحقة من خطوات الفتح ، أصبحت، مصدراً مستمراً للقيام بعمليات توسع أخرى وعلى ذلك أصبحت سانتودومنجو وكوبا والمكسيك في الشمال ، وبنما وبيرو وتشيلي في الجنوب على الترتيب ، ميادين للتجنيد ومراكز لتمويل حملات إلى أراض جديدة . وسحب بدرو دي ألفارادو من أرباحه في فتح المكسيك لتمويل فتح جواتيمالا ثم من أرباح هذا المشروع نظم جيشاً لينضم إلى فتح بيرو، باعه بـ ١٠٠،٠٠٠ بيسو نقداً للفاتحين الذين كانوا في الميدان . وكان فتح بيرو قد جمعت له الأموال المحلية في منطقة البرزخ قام بتدبيرها القس لوكي وهو شريك موص لألماجرو وبثارو . وفي وقت لاحق استغل هرناندو دي سوتو ، وكان مساهما كبيراً في الشركة البيروفية ، فوائد رأسمالية ليدفع نفقات حملته على الأراضي القارية لأمريكا الشمالية ، كما فعل بترو دي فالديفيا في فتح تشيلي .

وكان من المقرر أن الظروف التي تتم فيها كل حملة من حملات الفتح تدون في وثيقة رسمية اسمها «معاهدة تسليم»(**) وكانت هذه تصريحا بالفتح

(*) eroici furori .

(**) Capitulation .

ولـكن ليست ترخيصاً لاصطياد الهنود فقدكان الملك يؤكد دائماً لأصحاب التراخيص ضرورة معاملة السكان الأصليين بالروح المسيحية . وكان تجنيد وتجهيز القوة التى تتـكون منها الحملة مسئولية يقع عبؤها على الحاكم وحده ، ويعين القائد عادة بالاسم فى العقد . وبينما احتوى عقد «التسليم» على النص المألوف بتخلى الملك عن أية تبعات يستلزمها مشروع الفتح ، فقد أوضح أن الملك يتوقع الخمس من أية أموال تأتى من جانب الإيرادات فى المغامرة. وحددت كذلك ، بغموض شديد ، المساحة التى كان من المقرر أن تعمل الحملة فى أرجائها . والغموض الذى حاق بهذه النقطة ، وكان لامفر منـه نظراً إلى الجهل بجغرافية القارة فى ذلك الوقت ، كان السبب فى السخط الذى نشأ وأدى إلى الانشقاق بين ألمـاجرو وبثارو ، والذى عجل بمأساة الحروب الأهلية فى بيرو . وكانت ألقاب الشرف تمنح بتقتير شديد ، وعادة ما كان منحها على سبيل المـكافأة أكثر منه على سبيل الإغراء . وفى هذه الناحية ، على الأقل ، كان كولمبس أكثر المستكشفين والفاتحين الذين أصابهم منح الألقاب . فهو لم يرق إلى درجة أميرال البحر ــ المحيط فقط ، ولـكن أيضاً إلى درجة دوق فيراجوا ، وهو لقب لا يزال يحمله خلفه من أشراف إسبانيا وكان ابنه دييجو أول نائب الملك فى الهند الغربية . وأنعم على كل من كورتيس وفرانسسكو بثارو بلقب الإمارة(*) . أما خمينيث دى كيسادا فقد منح لقبا طنانا ، ولـكنه فارغ ، لقب مارشال مملـكة نيوجرانادا . وأشبع غرور الآخرين ببراءة الفروسية فى نظام من النظم الحربية . ومنح البعض شعار النبالة ، وكان تمجيدا كافياً لإشباع زهو أى شخص فى حالات بضعة رجال مثل سباستيان إلـكانو ، أول من طاف حول الـكرة الأرضية ، ودييجو منديث أحد ملاحى كولومبس الشجعان(١٦) .

وبعد أن وصلت إلى إسبانيا أول أخبار عن فتح المـكسيك كانت هناك

(*) marquisate .

مشكلات قليلة بالنسبة إلى تجنيد المتطوعين . ذلك لأن حانات إشبيلية كانت تغص عادة بالشباب المختالين ، يتوق كل منهم إلى رتبة من صفوف كورتيس ما جديد . ولقد جند كورتيس قوته هو فى كوبا من أولئك الذين كانوا قد عادوا مثله إلى الحياة المدنية فى المستعمرة الجديدة . وكان من المقرر أن كثيرين ممن تبعوه إلى المكسيك يشتركون فيما بعد فى فتح بيرو ، وحتى فى أراض أبعد مسافة . غير أنه فى ذلك الوقت كان يفد إلى الهند الغربية من شبه الجزيرة سيل من المتطوعين الجدد .

ولقد كان فتح العالم الجديد من عمل قشتالة . أما الأم ذات الحظوة التى أنجبت الفاتحين فهى مقاطعة إستريمادورا فى قشتالة ، وهى تقع على جانب المملكة متاخمة للبرتغال(١٧) . ومن بين الفاتحين العظام كان كورتيس ، وبثارو ، وفالدفيا . والمحاربون ألفارادو ، وبالبو ، وسوتو ، من مواطنى إستريمادورا . وكذلك كان ساندوفال وأوريانا ، وأيضاً من الضباط الآخرين فى فتح بيرو سنتينو ، وهينوخوسا ، وجارسيلاسودى لافيجا ، وجوميث دى توردويا ، وبيرالفاريث هولجين . وأخيراً ، وليس بأية حال آخراً ، من بينهم كان برنال دياث من مدينا دل كامبو ، مصدر كثير من الفاتحين . ومن جهات أخرى فى قشتالة جاء أوخيدا ، ومونتخيخو ، ونارفايث وفاسكيس دى كورونادو ، وفيلاسكيث دى ليون ، وجيل جنثاليث دافيلا . أما خمينيث دى كيسادا فكان من جرينادا ، وأما كابيثادى فاكا فمن خيريث دى لا فرنتيرا . وكان مارتينيث دى ايرالا وخوان دى جاراى من الباسك . واشترك بضعة من الباسك والبرتغاليين فى معظم الحملات . فقد كان هناك بضعة من البرتغاليين بين الفاتحين الحقيقيين للمكسيك « رجال شجعان » كما وصفهم برنال دياث . وكما كان مرتقبا كان العنصر الغالب بين الجنود العاديين أندلسيين من إشبيلية ومن بلاد أخرى فى وادى الوادى الكبير .

وبالإضافة إلى « رئيس المعسكر » و« الضباط » والجنود المسلحين العاديين الذين كانوا عماد كل جماعة ، كانت الجهود تبذل عادة لتجنيد بضعة أشخاص من الأخصائيين الذين كانت خدماتهم ذات منفعة خاصة للحملة . فلا تكتمل أية قوة مالم يكن بها صانع الأسلحة ، الذى كان كذلك يؤدى عمل الحداد للفرسان الملحقين بالجيش . وربما كان صانع سفن من الباسك سبباً فى تجميع بقية سلاح المهندسين وكانت الخدمة التى يؤديها القسم الطبى ، كما كانت الحال فى معظم جيوش ذلك الوقت ، رديئة جداً . ففى بعض الأحيان كان الجندى الذى يقص لحى زملائه عندما يزيد طول الشعر على حدوده يقوم بدور الحجام(*) أو الفصاد على الطريقة العلاجيـة المتوارثة من العصور الوسطى . وعلى كل حال فقد كان معظم عمل الطبيب هو تضميد الجروح وترك شفائها للزمن وسـلامة البنية . ويخبرنا برنال دياث عن اسكوبار الأعزب « صيدلى وجراح وطبيب » لجيش كورتيس الصغير . ويضيف أنه « أصيب بالجنون » ، ولاعجب فى ذلك نظراً إلى المرضى الذين كان عليه أن يعنى بهم .

وكان هناك دائماً محرر لتسجيل أعمـــال شعب يتصف بالشكليات والوسوسة . وكان يناط به الحفاظ على طويتهم القانونية كما يناط بالقس الذى يصحب كل حملة الحفاظ على طويتهم الأخلاقية . وهؤلاء القساوسة كانوا عادة يأخذون مسئولياتهم مأخذ الجدية الصارمة ، وكثيراً ما كانوا قوة رادعة للرغبات الطائشة التى كانت تصدر من أتباع أبروشياتهم الأتقياء . ويشيد برنال دياث كثيرا بفراى بارتولومى دى ألميدو ، الذى رافق كورتيس فى فتح المكسيك ، ويبدو أنه سـلم من مواجهة جميع أخطار الحملة ضد الأزاتقة . وعلى رواية برنال دياث : « لم يكن من رجال اللاهوت العظام فحسب » ، ورجلا مقدساً ، بل كان يجيد الغناء ، وكان رفيقاً طيباً .

(*) sangrador .

وكانت الحاجة إلى المترجمين ماسة جداً فى التعامل مع الهنود . ففى بعض الأحيان كان الهندى يختطف مقدما ويعطى منهاجاً سريعاً فى اللغة الإسبانية لا لشيء إلا أنه غالباً مايتبين أنه تكلم اللغة الخطأ وأن معلميه قد أضاعوا وقتهم معه . وأجدى من هؤلاء جميعا كان المترجمون أمثال دونيا مارينا ، التى قامت بخدمات لاتقدر فى فتح المكسيك ، والإسبانيون الذين عاشوا سنين بين الهنود مثل خيرونيمو أجيلا الذى عثر عليه كورتيس فى يوكاتان وكذلك ، بتقدم الفتح واستطالة طرق المواصلات أصبح للرسل والكشافة أهمية خاصة فى تحركات وإمدادات جنود الفتح القليلة . واشتهر بضعة رسل فى فتح بيرو وفى فترة القلاقل التى حدثت إثر الفتح قال سييثا عن أحدهم ،وهو بيرو كاييجو : «كان مشاء سريعاً ، وعرف البلاد معرفة جيدة» . ورسول آخر هو ألونسو جارسيا ، الذى كان يتخفى فى زى الهنود . وكان يحمل الرسائل من فا كا دى كاسترو إلى ألماجرو . وبعد فترة تعقبه خوان دينى، وهو أشهر من عرف من الجواسيس الرسل وقبض عليه .

العدالة فى الفتح

من مظاهر أية حملة فتح(*) جديدة جيدة التنظيم قراءة «الإعلام»(**) على أول جماعة يقابلونهم من الهنود . فإذا ترك الهنود المكان قبل بدء الحفل أوسئموا الإجراءات ورحلوا والحفل مستمر،فإن تلاوة «الإعلام» لاتنقطع على أية حال وكانت هـــذه الوثيقة غير العادية وذات الصفة الإسبانية النموذجية جزءاً من البروتوكول أوالشكليات الرسمية للفتح ،وكان الغرض منها تعريف المستمعين إليها بحقائق الحياة الجديدة ممثلة فى الفاتحين وهكذا ليهيئوهم لما كان مقررا حدوثه على الأرض إن لم يكن فى السماء . وابتدأ الأسلوب الكيخوتى فى المجادلات بنبذة عن الخليقة ، ومن هـذه

(*) entrada .

(**) requerimiento .

النقطة دخل فى العهد القديم ثم رأساً إلى العهد الجديد وفى أثناء هذا السرد يشار إلى مبدأ الثالوث المقدس الذى لا يفهمه حتى الإسبانى العلمانى ، ثم يتلى ملخص لتاريخ البابوية بشىء من التفصيل ، ثم أفهم الناس بوضوح أن البابا وهب العالم الجديد رسمياً إلى ملك إسبانيا ونائبه المعتمد، وأن الإسبانيين الموجودين قد حضروا للاستيلاء على الممتلكات وحق الانتفاع بريعها البشرى والمادى ، وبجانب هذا ليجعلوا من السكان الضالين مسيحيين صالحين . وهذا الخليط المسهب من اللاهوت والفقه كان يلقى بالإسبانية مما كان يدخل الحيرة والفزع فى نفوس المستمعين. وكان الجنود الإسبانيون يقفون ووجوههم مشدودة فى أثناء إلقاء المسجل « للإعلام » ، ولكن بعد انفضاض الاجتماع يعطون الفرجة لينفجرا فى الضحك الهوميرى(*) كما يروى أوفييدو عن تجربته الخاصة . فإذا لم يظهر الهندى أنه قد استجاب لتوه لهذا « الإعلام » الرنان ، رغم أنه لايفهم ، كما كان حاصلا فى أغلب الأحيان . أحس الإسبانيون وقتئذ أنهم فى حل من ممارسة العمل الذى جاءوا من أجله .

وعلى الرغم مما قد يبدو لشعب آخر أن هذا مجرد استعراض للكيخوتية الإسبانية ، فإن « الإعلام » كان دليلا على اهتمام الأمة الإسبانية العميق والمخلص بعدالة الفتح الأصولية . وكانت مسألة العدالة والفضيلة المتعلقة بالفتح تثقل كثيراً ضمير إسبانيا ، كما كان هناك بحث كثير لاسترضاء القلب والعقل عن الناحية الأخلاقية للمشروع العظيم الذى بدأه الإسبانيون بحماسة شديدة وآمال عراض . أما أنهم توقفوا لكى يأخذوا فى الاعتبار بكل جدية هل لهم حق ، أم أنهم مخطئون فى العمل الذى كانوا على وشك القيام به قلما يعلو بعظمة إسبانيا الخالدة ، كما كان إنجاز المغامرة البطولية نفسها . فلم تكن الكنيسة وحدها هى التى أسمعت صوتها القوى فى صالح الهنود ،

(*) بصوت عال ومختلط .

ولكن رجال الفقه والسياسة درسوا العاقبة بهدوء وموضوعيا ، وبذلوا جهداً زاهياً لإيجاد حل للتوفيق بين مصالح الشعبين . ولم يكن كافياً أن «بابا» إسبانياً قد قسم من قبل العالم الجديد بين إسبانيا والبرتغال دون أخذ رأى سكانه ، والإسبانيون فى منأى ، فى حين كان فرانسسكو دى فيتوريا الذى كان ، على الأرجح ، أكفأ سياسى ومفكر فى عصره ، وأميرال البحر دييجو فلورس دى فالديس يتحديان حق البابا فى إصدار قراره . وكان الناس يسألون أنفسهم بصراحة : أى حق لهم فى حرمان الهنود مما كان لهم أو فرض قانون وعقيدة إسبانيا عليهم ؟ فهذه الجماعات الهندية كما كانوا يفترضون ، قد تكون حقوقهم فى أراضيهم قانونية كحقوق قشتالة فى مملكة غرناطة . وأمر نائب الملك توليدو ، لكى يرتاح من شكوكه ، أن تجرى بحوث شاملة عن الطريقة التى سيطر بها الإنكا على رعاياهم من الشعوب . ومن الأمور التى لها مغزى فى القوة الرادعة للتشريع الإسبانى أن الذين يبررون الفتح حاولوا أن يلصقوا بجميع أشراف الإنكا والأزاتقة وصمة المغتصب والظالم .

ولقد كان هناك إسبانيون مفكرون يرفضون أن يقبلوا الرأى المريح الذى يقول إن الهنود كانوا همجيين، ولذلك لم يكن لهم حق يلتزمون باحترامه ولقد عرف الفاتحون والرهبان الذين صحبوهم من وقت مبكر أن هناك هنوداً وهنوداً ، وأنهم لم يكونوا جميعاً أكلة لحوم البشر أو إخوة للوحوش ، بل إن كثيرين منهم كانوا يبدون أناساً معقولين(*) فعلا، منحوا ، كما منحوا هم العقل والمروءة . وكانت لهم حكومات فائقة التنظيم كالإنجليز والفرنسيين . وكانت حضارتهم فى بعض النواحى تبدو كأنها تفوق حضارة أوروبا، كما لاحظ برنال دياث فى تينوشتتلان .

وبعض هؤلاء الشعوب الذين التقوا بهم كان لهم مجتمع منظم ،وآداب

(*) gente de razòn .

رقيقة ، وحاسة جمالية عميقة ، ومبادىء عالية تميز بين الحق والضلال. ومثل هؤلاء الشعوب كانوا يستحقون مصيراً أفضل مما كان مقدراً لهم مع المعاملة الوحشية التى جاء بها الفتح(١٨) . فقد كان للفاتحين كلمة الفصل فى المساجلة ، وفى طريق العنف الذى سلكه الفتح تناثرت أطلال حضارة بتراء فى أرجاء العالم الجديد .

الفتح بوصفه حربا

كانت مشكلة الفتح الحربية مختلفة جداً عن النمط التقليدى لمشكلات الحروب التى تعودها الإسبانيون فى أوروبا. وإنه بفضل مرونتهم وبراعتهم وكذلك قوتهم وتصميمهم الغاضب ، قد لاءموا أساليبهم التى تعودوها فى القتال للظروف الجديدة بنجاح كبير ، بل إنهم كانوا أحيانا يظهرون تفوقاً على الهنود فى أسلوب قتالهم وكان الجندى الإسبانى قد أعدته فرديته وسعة حيلته واكتفاؤه الذاتى إعداداً عجيباً لأسلوب « ساعد نفسك فى القتال » ، الذى كان قاعدة متبعة فى العالم الجديد ، حيث انقلبت المعارك فى وقت مبكر إلى ملاحم وحشية عادة ، ليس لها خطة ، ويختلط فيها الحابل بالنابل . أما أهم مقومات الإسبانيين الأخرى فقد كانت : الأسلحة الصلبة ، والبارود والخيول ، والكلاب .

واختلف نمط العمليات الحربية فى العالم الجديد باختلاف الأراضى واختلاف العادات الحربية والبسالة التى كانت تبديها الشعوب الوطنية . وعلى الرغم من الصورة التى رسمها لاس كاساس فقد كانت الحرب متوطنة فى دنيا الأمريكتين قبل الفتح الكولومبي . ومهما يكن الدافع إلى الحرب — نشوة القتال ، السلب ، النساء ، التنافس على أرض الصيد ، المجد المتزايد لطبقة المحاربين ، الأسرى الذين يقدمون قربانا لآلهة نهمة ، كما بين الأزاتقة ، اللحم الآدمى اللازم لقائمة الطعام ، أو تحريض إمبراطورى ،

كما بين الإنكا — فإن شعوب القارة كانوا دائماً يحاربون بعضهم بعضا . وجاء الإسبانى فلم يعطل أية قاعدة بريئة للسلام . وبوصف كونه عدواً غريباً لا يعرف أصول الحرب ، فإنه لم يضف سوى نوع جديد من الأسلحة والخطط فى ميدان قتالهم ومشاغباتهم .

ولم يكن الفتح معجزة صنعتها وساطة سانتياجو راعى الأسلحة الإسبانية كما قد يحاول بعض المؤرخين من الكهنوت أن يقنعونا ، ولا حتى نتيجة جنود لا يقهرون . فإذا كان الأمر قد انتهى بأن القادمين الجدد قد انتصروا على معظم الشعوب الهندية فلم يكن السبب الأكبر فى ذلك أى تفاوت فى الصفات المقاتلة للفرد ، بل تجمع ظروف كثيرة كانت فى جانب المعتدين . فإذا أخذنا رجلا نداً لرجل — لرجل من الأزاتقة والشيشيمك فى المكسيك أو الكاريب على سواحل القارة ، أو الكالشاكى فى شمال أرجنتينا ، أو الجوارانى فى أراضى نهر بلات ، أو الأروكازيان فى تشيلى وأقربائهم فى البمبا — فقد كان خصما أهلا للإسبانى المقدام . ولكن قلما كانت المعركة تدار بهذه البساطة ، بل كان هناك عوامل خارجة عن الشجاعة البشرية لتحسم النتيجة .

وفى فتح المكسيك تعرضت أهمية القوة الحربية النسبية لاضطراب خطير من عوامل نفسية ذات صفة خارقة للطبيعة . فقد لاءمت أسطورة عودة « الإله الأبيض » كتنا لكوتل من وراء الأفق الشرقى ، برعاية من الله ، خطط كورتيس الذى كان لا يفوت فرصة مواتية يقتنصها لنجاح مشروعه الجرىء والمزعزع . فبينما كان مونتسوما ، وقد أوهنت عزيمته المخاوف ، يستشير العرافين الرسميين ، وملأ التطير والإشاعات جو عاصمة الأزاتقة المضطرب ، أصاب الشلل العزيمة والقوة اللتين يتصف بهما شعب مقاتل فلم ينتهوا إلى قرار . وفى الوقت الذى أيقن فيه الأزاتقة أن الإسبانيين ليسوا آلهة

زمرة آلهتهم ، بل بشر يموتون وقد سعوا إلى حتفهم ، كانوا قد ضيعوا على أنفسهم فرصة المبادأة ووقتا ثمينا وفى بيرو كان هواينا كاپاك العجوز، آخر أباطرة الإنكا العظام ، تساوره ملحة نذر الشؤم بالأخطار التى سوف تحيق بأمته ، وكان يمكن أن يعجل بمعرفتها بالتقارير التى ترد عن الغرباء الغامضين الذين بدأوا يظهرون فى أرجاء أخرى من القارة .

وفى فترات الفتح العصيبة قامت سلسلة من الحوادث العرضية لمساندة الإسبانيين . فمثلا وصلوا إلى بيرو فى وطيس حرب أهلية كانوا هم وحدهم المنتصرين فيها . وكان هواينا كاپاك قد جزأ إمبراطوريته ومهد الطريق لتدميرها بتقسيمها بين اثنين من أبنائه ، هواسكار واتاهوالبا (١٩) . وفى هذا الجو من الوحدة المنفصمة والولاءات الموزعة لعب الغزاة نغمة معبرة عن عزيمة صارمة لبلوغ هدف موحد ، وكانت حاسمة. وفى المكسيك أيضاً كان الحظ مواتياً للفاتحين . فعندما علم كورتيس أن كل شىء لم يكن على مايرام فى أناهواك ، وأن استقلال قبائل تلاسكالا المتحاربين كان جرحا لايندمل فى جسم الأزانقة ، فقد استغل ضغينة تلاسكالا ضد مضطهديهم لمصلحته . وبهذا كسب حليفاً كانت مساعدته ضرورية لازمة للصراع اللاحق المرير وغير مضمون العاقبة . وفى كل مكان وجدهم الإسبانيون فى العالم الجديد أفادوا مما بين أعدائهم من شقاق ، كما فى المنافسة بين أشراف الشبشا فى كولومبيا . فقد كان هناك عادة جانب واحد فى الحروب المحلية راغب فى الحصول على المساعدة الفعالة من الإسبانيين ثمنا لتعاونهم ضد أعدائهم . وقد لاحظ أحد الفاتحين ذات مرة أن المساعدات الأهلية اصبحت ذات أهمية فى متابعة الفتح كأهمية الكلاب لفريق الصيد .

واكتشف الإسبانيون لفورهم نقطة الضعف فى تركيب المجتمع الكهنوتى وكيف كان يؤثر فى القوة الحربية فى الدول الهندية المتقدمة ، وكانت هذه هى المجموعة الكبرى من الجند والرعية الذين لايصبح لهم حول ولاقوة

إذا ما أسر أو قتل قائدهم المعظم ، كما شوهد ذلك فى أوتومبا وكاياماركا ومناسبات أخرى . وفى نفس الظروف استمر الجندى الإسبانى ، وهو الذى يتصف بالفردية الصارمة ، فى القتال على مسئوليته الشخصية .

وميزة أخرى للإسبانيين كانت تكمن فى قيادتهم الفائقة . فأمام العبقرية الحربية التى اتصف بها كورتيس ، وقيادة بالبو المتقنة والخمسة بثارو(*) والماجرو وبنالكاثار ، وحتى ضابط هاو مثل خمينيث دى كيسادا ، كان أحسن قادة الحرب من الأهالى عادة لا يزيدون إلا قليلا على شجاعتهم وتفانيهم . وحتى كوابوتمك ومانكوكاپاك اللذان أحييت ذكراهما بنصب أقيمت لهما فى المكسيك وليما كانت تنقصهما لمسة العظمة الإضافية اللازمة فى المحك النهائى على « الممر » وفى حصار كشكو . ولهذا فهم يدخلون باب التاريخ كقواد عظام لقضايا خاسرة مثل فرسنجيتوركس (**) ، ولوبنجولا الزولو ، وهندى آخر هوپونتياك ، والإسبانى الصميم سيد(***) ولعل زعيمى الأروكانيان الجبارين : لوتارو وكوپوليكان ، كانا أصلب عودا ، رغم أن الحظ جانبهما فى اللقاء النهائى مع الإسبانيين .

وقد كان للمهارة الفائقة وسعة الحيلة اللتين اتصف بهما الجندى الإسبانى وزن كبير فى ترجيح كفته ، وعلى الرغم من أن المحاربين القدامى فى الجزر كانوا ينظرون إلى الشبان الصغار الجاءين تواً من إسبانيا نظرة ازدراء ، فإنهم سرعان ماتعلموا من تجاربهم ، بل إن تعلم أساليب الحرب الجديدة كان هو الفرصة الوحيدة للبقاء . يقول أوفييدو إن معارك بالبوفى الأدغال كانت مدرسة حقيقية لتخريج الفاتحين . وسيطر

(*) فرانسكو وجنسالو وهرناند ووخوانوبيدور .

(*) قاوم يوليوس قيصر عند فتحه بلاد الغال وأسر وسيق إلى روما حيث أعدم .

(***) Rodrigue Dioz de Binar Cid Compeader فارس إسبانى لمع فى حربه ضد العرب ومات سنة ١٠٩٩

الإسبانى على فن الهنود فى القتال فى الغابات ، وتعلم كيف يحافظ على حياته فى ساحات القتال المضنية هذه ، كما فى القتال الخطير بصفة خاصة على طول السواحل الشمالية للقارة . فهنا كان الفتح سلسلة لاتنتهى من مناوشات العصابات ، تنوسيت فيها جميع فنون الحرب التقليدية ، ولم يكن هناك مجد ينال، بل تقدير ضئيل لهذا النوع من القتال حيث مات مئات من الإسبانيين بالكزاز(*) الذى سببته الأسهم المسممة التى كان يصوبها الكاريب ، وقلما كانوا يرونهم ، أو نتيجة الأشواك المسممة السنان التى كان ينصبها لهم الهنود فى كمائن طرقهم الغابية العفنة فتقعدهم ، ويا للفظاعة (٢٠) . وكان الجندى الإسبانى يدثر جسمه بلحاف سميك من القطن حماية له من أفتك سلاح لدى الهندى ، لأن قوسه يمكن أن يكون سلاحا مروعا،سواء رمى « خمر الساحرات » التى كان يستخدمها الكاريب فى أوردة الإسبانى ، أم أسهم أجنكورت التى كان هنود « فلوريدا » يحاصرون بها الرجال والخيل فى حملة سوتو . وعلى النقيض من ذلك لم يجد الهندى مطلقا الحماية الكافية من الأسلحة الصليبية التى كان يستخدمها الإسبانيون . وعندما اقتبس أسلحة عدوه قلما تعلم كيف يستخدمها بنجاح ملحوظ . وعندما وقعت فى يده القربينة (**) أفاد منها قليلا فيما عدا فرقة مدوية ، ولم يصبح أبدا رجل سيف ، ولو أنه كان يستطيع تطويح هراوته الحربية فى القتال المتلاحم فيدمر عدوه . واستخدم الأروكانيان وبعض هنود السهول فى أرجنتينا الرمح الإسبانى وزادوه طولا . واستخدم الأروكانيان،الذين أظهروا مهارة كبيرة فى تحويل أسلحة وخطط الإسبانيين لمصلحتهم ، الرمح فى صفوف متراصة كدفاع ضد سلاح الفرسان الإسبانى . أما قبائل البمبا ، الذين إذا ما استأنسوا وامتطوا الخيول البرية فى أرضهم ، فقد استخدموا الرمح

* التتنوس .

(**) harquebus سلاح نارى من طراز قديم .

كسلاح يهاجمون به فى إغاراتهم . واعتمدوا فى دفاعهم على القوس والسهام الموجودة فى كل مكان ، وعلى المقلاع (*) الذى كانوا يعرقلون به أرجل خيول الإسبانيين ، أو يصطادوا بالحبل راكبيها وهم يمتطونها .

وكان الإسبانى سريعا فى تغيير أسلحته كلما استدعت الحال ذلك ففى قتال الأدغال كان ينزع إلى ترك السيف التقليدى والحربة ، ويستخدم المدية الثقيلة السكوبية التى تشبه سيف البحارة القصير ، والتى لا تزال السلاح الذى لاغنى عنه فى غابات أمريكا اللاتينية المطيرة . وفى مثل تلك الأوقات كان يحمل على الدوام خنجراً فى نطاقه يستخدمه فى العراك المتلاحم أو حمايته من الأعداء فى الظلام . ولم تكن عنده ثقة ألبتة بالأسلحة النارية المربكة التى كانت تستخدم يوم ذاك ، رغم أنه كان يقدرها نظراً إلى تأثيرها السيكولوجى على الهندى . كما استخدمها ضد بنى قومه فى المعارك المكشوفة فى الحروب الأهلية فى بيرو .

ولم تقم الحيوانات بدور هام فى العمليات الحربية منذ استخدام فيلة هانيبال أو خيول المغول الصغيرة الجسم ، كما فعل الحصان فى فتح العالم الجديد . وبينما كانت ألوان الإسبانيين هى وحدها الشىء الجديد ، كان الحصان غريبا ووحشا مروعا كالحصان المقرن إذا شوهد فى إسبانيا فى ذلك الوقت . وفزع الهنود لمجرد رؤيتهم حجمه وقوته ، وعندما كان يصهل أو ينفخ بمنخره كانوا يختبئون حماية منه . واجتهدوا أن يلاطفوه عند الغضب بتقديم الهدايا والطعام الذى لم يستطع تناوله (٢١) . وكانت الصدمة الأولى التى سببها الحصان فى المعركة سيكولوجية كما كانت مادية :

(*) bolas وينتهى عادة بحجرين .

الفزع المروع الذى أثاره وحتى بعد زوال أثر القنطور(*) وحقيقة الحصان وراكبه ، ظل الحصان مدى طويلا شيئاً مفزعاً ، يتجنبونه أو يخطبون وده .

واستغل الإسبانى سلوك الهندى نحو الحصان إلى أقصى حد . ففى حمى وطيس المعركة ينطلق فرسانه يهاجمون الهنود عديمى الحيلة دون رحمة . وفى أوقات كان ينمى عقيدة الهندى الخرافية عن الحصان ككائن خارق للطبيعة منحه الله العقل وقدراً كبيراً من العاطفة. شجع الهندى على أن يقف على مسافة حتى لا يمكنه من معرفة حدود تصرفاته ويتعلم سر سيطرته ، ولكنه لم يستطع منع القبائل الجوالة فى الجزء الجنوبى من القارة من السيطرة على القطعان البرية وتوجيهها ضد أعدائهم الإسبانيين .

وعلم دراسة الخيل الخاص بالفتح من أكثر الأمور أهمية فى التاريخ المبكر للإسبانى فى العالم الجديد . ففى تاريخ الخيل ربما لم يكن هناك بيان بالخيول الممتازة كما فى قائمة برنال دياث عن مطايا ضباطه ورفقائه . فقد كان الجندى العجوز يتذكر أسماءها ولونها وأمزجتها بوضوح ، كما يتذكر طبائع زملائه الجنود. فلم يقدر الإسبانى لحصانه قيمته كوسيلة للمواصلات وكقوة إضافية لسلاحه المتين فحسب ، بل كان يعزه كرفيق ملازم له فى تجواله ومغامراته وكقائد ، كان يميل إلى الإفراط فى العناية والاهتمام بحصانه أكثر من عنايته واهتمامه بالجنود الذين تحت إمرته والذين كان مفروضا فيهم ، بحق كإسبانيين ، أن يثقوا بأنفسهم وأن يكون فى مقدورهم أن يهتموا بحاجاتهم .

ولما كان الإسبانى ولعا ولوع العربى بحصانه فقد كان يشاركه كذلك

(*) فى الخرافات الاغريقية نصفه الأعلى لإنسان والأسفل لحصان.

فى احتقاره للكلب. وقد كانت الكلاب قوة مساعدة فى الفتح ، كالحلفاء من الهنود وكتائب العمل ، وعندما كان البعض ينال نصيبه من الغنائم ، كما كان بيسيريو ، كلب بالبو ، فقد كان ذلك وفاء للخدمات التى أنجزت، وقد كان التعلق العاطفى بهذه الكلاب الضخمة وكلاب الصيد ضئيلا . وكانت تدرب للهجوم على الأعداء من الهنود وتمزيقهم إرباً ، واقتفاء اثر الأسرى الهاربين ، وحراسة المعسكر ليلا . وعندما انتهى القتال انقلبت أسراب من هذه الكلاب التى لاعمل لها متوحشة وأصبحت نقمة لقطعان الماشية والأغنام التى يمتلكها المزارعون الإسبانيون . وبعد ذلك، وياللتهكم الغريب ، نظراً إلى ولع الهندى بحيوانات التدليل نجده قد اغتنم الجراء(*) ورباها لمصاحبته ومتابعته فى رحلات الصيد. وقد عبر آباء كثير من الكلاب المهجنة التى نراها تحوم اليوم حول المستعمرات الهندية المحيط مع الفاتحين .

ويبدو أن مشكلة الغذاء (**) كانت دائما تشغل بال الفاتحين الإسبانيين؛ فقد كانت دهياء يتكرر حدوثها فى تاريخ أوفييدو . وكان قد سبقت له تجارب كثيرة فى هذا الصدد . وفى بعض الأحيان كانت الحاجة إلى الطعام شديدة لدرجة أن الطعام كان أكثر أهمية من الذهب . كتب بالبو إلى الملك يقول : « نحن مهتمون حتى الآن بالطعام أكثر مما نحن مهتمون بالذهب ، لأن لدينا ذهباً أكثر مما لدينا من صحة ، وكثيراً ما كان يسعدنا أن نعثر على سلة من الذرة من أن نعثر على سلة من الذهب ». وفى الحملات التى كانت تنظم بشىء من الإهمال إلى البلاد الوعرة كان كل جندى يكلف بأن يصبح هو مصلحة التعيينات التى ترعى شئونه من هذه الناحية ، وسرعان ما أصبحوا ماهرين جداً فى جلب الطعام بالنهب وسرقة الماشية .

(*) جمع جرو : الكلب الصغير.

(**) rancheria

وعاشوا نظام حياتهم مابين شبع الولائم وحرمان الفاقة ، ولكن أيام الرخاء كانت أقل من أيام الشدة . وفى أكثر الأحيان لم يكن لديهم ألبتة قدر كاف من الطعام لشهور متتالية ، وكثيرون ماتوا جوعا.وكانوا يأملون فى بادىء الأمر أن يجدوا حلا لمشكلتهم الغذائية على حساب الهنود . وفى بعض الأحيان ، عندما بدت من الهنود علامات الصداقة وكرم الضيافة كان الجنود يسلكون مسلكا كريما مابقى لدى مضيفهم مايمونهم به من الطعام . ولكن بينما لا يبقى لهم ضيوفهم شيئا فعلا يبدأ الهنود فى إخفاء مالديهم ويحثون هذا الجراد البشرى على الإغارة على مخازن جيرانهم . ومن العادات التى نبذها الإسبانى ، أشد مايكون ، مسألة الأكل . فقد تعلم أن يأكل مايمكن أكله،واقتبس من وقت مبكر كثيراً من طهو الأهالى.وعندما كان هناك لحم أو سمك فقد كان يستعيض بهما عن طعامه . وساقت بعض الجيوش معهـــا قطعانا من الخنازير لكى يحصلوا منها على اللحم « الطازج » . وكان بنالكاثار فى مسيرته الطويلة شمالا من بيرو فى إقليم كوكا فى كولومبيا يربى أكثر من ثلاثمائة خنزير عشار ، وأصبحت مخازن الدهن المتجولة هذه ظاهرة عادية للإغارات الأحسن تنظيما والأكثر احتياطا .

وقد كانت هناك أربعة أقاليم مستقلة للفتح:المكسيك ، وبيرو ،والجهات الساحلية الشمالية للقارة ، ونهر بلات. وأهم اثنين فى الأقاليم الثانوية للفتح هما : تشيلى وأمريكا الوسطى . وقد كانت هناك مناطق هامشية مثل أراضى الكالشاكى فى شمال أرجنتينا حيث تداخلت حركات الفتح ، بل والتحمت فى بعض الأحيان . والواقع أن فتح أمريكا الوسطى تدهور لفترة ما إلى حرب أهلية ثلاثية الجوانب بين عصابات من الفاتحين ، من الشمال ، ومن الجزر ، ومن البرزخ ، أو أتباع كريستو بالدى أوليد،وجيل جنثاليث دافيلا ، وبدرارياس على الترتيب .

فتح المكسيك

كان لفتح المكسيك صفة تمثيلية فريدة إلى حد بعيد فى تاريخ الفتح البطولى جميعه . وكان فى جملته ملحمة واحدة كما قد يدونه الإغريق ، بخلاف فتح بيرو المتناظر معه . وكان موضوع الخطة هو الاستيلاء على دولة غنية وقوية ، وكانت المساجلة واضحة وموحدة ، وكان الممثلون جديرين بأسخيلوس (*) فقد كان تسلسل الحوادث المثير عملا عبقريا — إحراق السفن ، الضربة المحكمة فى تلاسكالا ، دخول تينو شتتلان ، القبض على مونتسوما ، خداع قوة نارفايث التأديبية ، الفرار من فوق الممر فى « الليلة الكئيبة » ، الصعود إلى المستحيل فى أوتومبا ، العودة ، والمعارك الهوميرية من أجل المدينة المحاصرة والتى كتب عليها سوء الطالع .

وسيطرت على فتح المكسيك شخصية كورتيس التى فاقت التصور . فلقد أصبح واحداً من الضباط العظام فى التاريخ بجيش قوامه خمسمائة رجل ، لما اتصف به من الشجاعة وحسن الإدراك وسعة الحيلة فوق مستوى الآخرين . وكان ضباطه — الفارادو واورداث وساندوفال — جنوداً لامعين ، ولكنهم انصاعوا لقيادته فى ثقة ، وماداموا فى متناوله كان يسيطر على ضباطه المتهورين أمثال أوليد وألونسو دى افيلا . وبقيادته صدرت سلسلة من القرارات السديدة حددت مجرى الفتح ، وكانت هذه القرارات تصدر أحيانا بسرعة زائدة لدرجة أنها كانت تبدو حمقاء لو أنها صدرت لرجال أصغر (٢٢) . فقد كان يجلله شىء من المهابة حتى فى طريقة زهوه وانغماساته (٢٣) . وفى وقت لاحق استطاع أن يخاطب إمبراطوره بزهو كند له وقد كان الوحيد بين الفاتحين الذى كان شارل يشعر وهو

(*) شاعر إغريقى ٥٢٥ — ٤٢٦ ق . م .

فى حضرته بشىء من القلق . ومن المؤكد أنه كان أكفأ رجل أنجبته إسبانيا الحديثة — بل قد يكون أكفأ من عرفهم العالم الجديد . فهو أكثر من أن يكون أول الفاتحين . ونظراً إلى ما كان عليه من البراعة فى نواح كثيرة فقد كانت له مواهب السياسى ، وأرسى النمط الذى حكم المكسيك حتى الاستقلال ، كما فعل طيف نائب الملك الكفء توليدو فى بيرو حتى ايا كشو . ولم يتسام فاتح آخر إلى منزلته . ويأتى فالدفيا أقرب الفاتحين إليه ولو أن بين الاثنين أمداً بعيداً، وربما سما بالبو إلى هذا المستوى لولا أنه اجتث من الميدان مبكراً .

وعلى الرغم من أن برنال دياث كان يستنكر عبادة جومارا(*) لبطولة كورتيس فإنه لم يحمل له ضغينة ، كما لايحمل المؤرخ الرسمى عندما يؤدى دينه نحو رؤسائه . قال : « كانت سعة حيلته لاتنفد ، وكان له قلب وعقل هما أهم مافى الأمر » . وعلى الرغم من أنه « كان محبوبا من جميع ضباطه وجنوده ... فقد كان نظامياً صارماً » ، و « عندما كان يأمر كورتيس لا تفيد مع أوامره اعتراضات » ، ولذلك « لايوجد قائد فى العالم يطيعه مرءوسوه أكثر منه» . ويضيف برنال دياث : « عندما كان علينا أن نقيم حصنا كان كورتيس أنشط العمال فى الخنادق . وعندما كنا نخوض المعركة كان يتقدم الصفوف كأى فرد منا » . وفى الواقع كان كورتيس رجلا يقود الناس فى كل مكان ، بل إنهم تبعوه حتى إلى نهاية حملته الفاشلة إلى هندوراس التى كانت أعظم محك لقيادته. وحتى عندما هدد ساندوفال الفترة بالعودة إلى المكسيك ، أجاب كورتيس أنه إذا رفض رجاله أن يتبعوه «فلا يزال هناك جنود فى قشتالة ». وكما كتب هو بنفسه إلى الإمبراطور: « الحظ دائما موات للشجعان » .

(*) مؤرخ فتح المكسيك .

فتح بيرو

كان فتح بيرو أقل إحكاما وأقرب إلى كونه إسبانيا فى الصميم عند إنجازه . فقد توافرت فيه نفس الجرأة والشجاعة اللتين فاقتا مستوى البشر . وازدادت الأرض وعورة وتكاثرت أرجاؤها الوعرة ، وطالت المسافات ، كما زاد مدى الارتفاعات مما أجهد أجسام الناس . وبدت جميعاً كأن لها أربعة أبعاد ، ولابد أن مرت أوقات ظن الإسبانيون فيها كما لو كانوا يجولون فوق كوكب آخر . فقد كان منظر العالم حولهم يبدو غير مألوف وغير حقيقى إلى حد بعيد . وأضحت بيرو للفاتحين شيئا أكثر فائدة وأشد فتكا فى وقت معا . وكان فتح بيرو كذلك أكثر ربكة وأقل تنظيما من فتح المكسيك ، لأنه بمجرد أن حقق هدفه الرئيسى وهو سقوط كشكو فقد لتوه ما كان فيه من وحدة وهوى إلى جرف التنافس على السلطة . بل إن وحدة المشروع فى الحقيقة كان مقضياً عليها بسبب قيادتها المنقسمة .

وبعد الهجمة الجريئة على كاخاماركا والزحف صعوداً إلى قلب إمبراطورية الإنكا الخامدة انتشر الإسبانيون — وكان عددهم جميعاً بضع مئات — فوق الأراضى البراقة بحثا عن مزيد من الكنوز . وانتهى الفتح فيما عدا حصار مانكو كاپاك الطويل لكشكو . وثل الفاتحون عرش دولة شاسعة وقضوا بضربة مميتة على حضارة من أعظم الحضارات التى شاهدها العالم تدبيراً للمكائد ، ولكن لم يستطيعوا أن يلموا شعثها ثانية أو يقدروا قيمة لما دمروه تدميرا فعليا .

وظلت بيرو فترة طويلة بؤرة نشاط شاسعة كثيراً ما كان ينبثق منها فى كل اتجاه . فبدت كما لو لم يكن فيها ما يكفى للعمل فى بيرو وأنها مكتظة ببضعة آلاف من الرجال . ولذلك أصبحت مركزا ثانوياً للفتح ، كما كانت الجزر والمكسيك والبرزخ . فمن تاهنتنسويو القديمة فى بلاد الإنكا تحرك الناس

شمالا سح بنالكاثار وخنازيره ماراً بإقليم كيتو حتى وادى نهر كوكا وعبر السلاسل الجبلية إلى إقليم شبشا ، حيث كان هناك إسبانيون غيرهم ، وانتشروا فى جنوب البحيرة فوق إقليم كياو المرتفع حيث أصبح حاكم شاركاس بمرور الوقت مكلفا بحكم بيرو العليا ، وحيث أسسوا مدنا مثل (لاباز) وشوكيسا كا أو سوكرى ، وكوشابمبا ، وفوق الجميع ، بوتوسى . وتدفقت فرق منهم فى الخوانق (*) المنحدرة من الهضبة نحو البمبا وممتدة نحو فروع نهر بلات حيث تلاقوا مع رجال باراجواى . وإلى الغرب من توكومان وسفوح تلال كويو ، وفيما وراء حائط الكورديليرا الشاهق قام الماجرو بإغارته البطولية إلى وادى الشيلى النائى ، ومن بعده عبر فالدڤيا إقليم أتاكاما ليرسى قواعد مقاطعة متعاظمة الشأن جديدة لإسبانيا . وبدت الفيافى المتلبدة الخضراء إلى الشرق من الجبال كأنها تثقل نفوس الفاتحين بسحرها السقيم. واستسلم عدد منهم لسحر الغابة ، كما فعل خمينيث دى كيسادا بعيدا فى الشمال ، وجميعهم لاقى نفس المصير المفجع ، إذ رفضوا أن يتعلموا من التجارب كما رفض الإنكا . ولم يظهر أحد حكمة وسلامة رأى ســـوى الونسو دى ألفارادو ، وهو رجل كفء ويعتمد عليه ، عندما غامر ونزح من الجبال العالية فى اتجاه الأمزون . فقد التزم الجهات الجبلية (**) شبه المدارية التى تحتفظ فيها الطبيعة ببعض القواعد التى يفهمها الإسبانى . ولم يسمح لنفسه أن يضل فى الأرض المنخفضة فيما دون الجبال ، وخلف وراءه مدنا مثل شاشابوياس وموبوبمبا اللتين بقيتا حتى هذا اليوم ، واللتين لايزال سكانهما إسبانيين أكثر من معظم المدن فى بيرو . أما الآخرون بما فيهم جنثالو بثا روبيرانثوريس وبدرو دى كانديا ، وكان الأخير إغريقيا فى المدفعية واتصف بالعناد وبطء الفهم ، فلم يتركوا وراءهم سوى أوهامهم وعظام معظم أتباعهم . فقد اندفعوا فى الغابة بحمالهم الهنود —

(*) Quebradas الأودية العميقة.

(*) montana

وبعضهم مع نساء الإنكا الظريفات(*) — وبالخيل والكلاب وعندما بلغ بهم الجوع نهايته أكلوا خيلهم . وتسرب الهنود فى الغابة بعيداً بسبب الجوع ، ولأن أجسامهم لم تهيأ للجو الثقيل الذى تتميز به السهول المنخفضة أو أنهم اختفوا وانقلبوا إلى حياة الوحشية . أما أولئك الذين عادوا إلى الجبال فكانوا أطياف رجال بالية . ومن الذين لم يعودوا فرانسسكو دى أوريانا، ضابط جنثالو ، وحوالى خمسين آخرين كشفوا الأمزون وعبروا القارة فوق مياهها .

وبانتهاء الفتح لم يحل السلام على الأرض التى فتحت . وبدلا من ذلك تدهورت مغامرة الفتح الكبرى إلى فوضى حرب أهلية ، حرب وحشية حرة يخوضها من شاء من رجال ينتمون إلى أصل واحد . فقد غرست بذور الشر والشقاق، ولم يجن الناس منها سوى الحقد والخيانة والموت . فنى بادىء الأمر كان الصدام بين أتباع الماجرو (**) «رجال تشيلى» ضد أتباع بثارو أو ضد فا كادى كاسترو ، رجل الملك ، ثم حدث تمرد جنثالو بثارو ضد السلطة الملكية التى كان يمثلها نائب الملك نو نييث فيلا، ثم بدرو دى لاجاسكا وأخيراً ثورة الغاضبين تحت قيادة هرنانديث جيرون مع عصبته المسلحة من العبيد السود وفرقة « ملعبه » من العرافين ، والراجمين بالغيب ، والمنجمين ، وقارئى الكف ، ومحضرى الأرواح(٢٤) . فقد انتهى الفتح إلى نهاية مؤسفة ، وكان الوقت مواتيا لنائب الملك توليدو لإصلاح الأمور ولو أن روح الشغب التى انبثقت من الحروب الأهلية قدر لها أن تبقى وتقاوم قمع جاسكا وتوليدو ولتجد متنفسا مستمرا فى الحياة المضطربة فى بوتوسى .

وقد روى سييثا دى ليون قصة الفوضى وفساد الآداب قال : « بدأت

(*) Coyas

(**) almagristas

من ذلك الوقت فترة فيها أطيح بالثقة والعقيدة . ونظر الرجال إلى الحرب الأهلية القاسية كحرفة مربحة » ، وقال إن الجنود فى بيرو انضموا إلى ثورة جنثا لوبثارو « لأنهم كانوا يبتهجون بالحرب ويمقتون السلام » . وصاح المكتئب نونييث فيلا : « هذه الأرض هى الشيطان . لقد تكاثرت الشرور حولها ، ولا يعيش الناس الذين يقطنونها أبدا فى سلام أحدهما مع الآخر » . ثم تساءل يائسا : « بمن أثق؟ » وكرهت الأحزاب بعضها بعضا ، وامتلأت قلوبهم ضغينة وحشية . وبعد كارثة لاس ساليناس قال ألماجرو لسجانه ألونسو دى تورو : أخيرا سوف تشرب من دمى ، فرد عليه عدوه قائلا : « وهذه أعظم نعمة من الله بها على » . وكتب سييثا عن معركة تشوباس الوحشية حيث اسودت قلوب الناس حقدا : « كانت السيوف تهوى على الخوذات فتذهل أصحابها وتقطع سترات الزرد ثم يتوقف الرجال فترة قصيرة يحملقون بعضهم فى وجوه بعض كالثيران فى فصل التهيج (٢٥) » . وفى أثناء الليل قد يأتى قطاع الطرق الهنود فيجردون الجرحى من ملابسهم فى ميدان القتال ويتركونهم ليموتوا من البرد وشيئا فشيئا ، بمرور السنين قدم قادة الفتح كلهم تقريبا قربانا لحمية شهواتهم وعنفهم أنفسهم — أعدموا أو اغتيلوا أو سقطوا قتلى فى المعركة . واتجه سوتو شمالا وفالدفيا جنوبا وكلاهما مات قبل الأوان . وبالمصادفة الغريبة — أو برحمة الله ؟ — كان الضباط الثلاثة الذين بقوا أحياء وسط أخطار بيرو الكثيرة — وهم لورنثو دى الدانا والونسو دى ألفارادو ووالد جارسيلاسو الانكا — من بين أنبل الفاتحين .

وكان فرانسسكو بثارو شخصية تقل مقاما عن كورتيس ، فيما عدا عزيمته الحديدية . فبمجرد أن خفت وطأة الخطر المشترك لم يستطع السيطرة على قوات الطرد المركزية التى كان لابد من فرض أنفسهم تحت إمرته ، ولا أن يكسب هذه الإرادات الوحشية إليه بسحر شخصيته كما كان فى

مقدور كورتيس أن يفعل، أو كما كان فى مقدور بالبو إذا لم يقبض عليه بثارو تلك الليلة فى دارين منذ فترة طويلة سبقت فلم يكن له سياسة يدير بها الأراضى التى فتحها وعرف معاصروه عنه قليلا من الفضائل ليرووها. فعلى سبيل المثال قال أوفييدو عنه، دون أن يتشكك فى شجاعته الشخصية : إنه لم يصلح لحكم الآخرين، وكانت تنقصه الحنكة والاستعداد العقلى اللازم لمركزه الرفيع فى بيرو. وكما يقول هيريرا « كانت أفكاره غريبة على وعوده ».

ومن إخوة بثارو كان هرناندو أكفأهم، وقد منع من التنقل فى دور مبكر من أدوار الفتح، وسجن فى أمنع قلاع إسبانيا. ومع ذلك فقد مكث فى بيرو وقتاً كافياً ليصبح نابغتها النحس. ولما كان رجلا متعاظما وحاسما ضخم الجسم، متغطرسا، قاسى القلب، عديم الثقة، سلط اللسان، سلط النكتة، فقد أقصى عنه رفقاءه، وكان ينظر من تحت أنفه الأحمر المنتفخ باحتقار إلى أخيه الأكبر غير الشقيق، سائق الخنازير النغل (*)، الذى أصبح أميراً إسبانيا.

وطبقا لرواية أوفييدو، خرج الإخوة بثارو من إسبانيا « وهم فى زهو كما هم فى فقر ». وإذا استثنينا خوان الصغير الذى كان قائداً محبوباً من رفقائه وقتل فى حصار كشكو، كان جنثالو أكثر إخوته جاذبية. وكان يتصف بقدر من الشهامة، وفى شخصه تبدو نفخة الفروسية، كما كان يتحلى بها بدرو دى ألفارادو. وكان الجنود متحمسين له، وهذا مديح عظيم لأى من حكام بيرو. وقد حير البلاد بتمرداته، وربما كان ذلك يؤدى إلى نتيجة افضل لو أنه أنشأ مملكته المستقلة على أساس أن يكون نصفها إسبانيا ونصفها من الإنكا. ولقد كانت فكرة جريئة سواء منه أم من كاربافال. وعلى الرغم من أن النسبة كانت تكون عرضة للتغير فيما بعد، فربما كانت تبقى

(*) غير الشرعى.

على ما كان يجدر الإبقاء عليه من الحضارة الأهلية . ولكن نظراً إلى ما كان ينقصه من الشجاعة الأدبية والإدراك الذى يمكنه من اتخاذ الخطوة النهائية، ولأنه هو أيضا بعد اعتبار كل الأمور مجرد جندى ، ولو أنه جندى عظيم ، فقد فشل ، وأصبحت بيرو بدلا من ذلك ولاية إسبانية لفترة تقرب من ثلاثة قرون .

وكان دييجو دى ألماجرو حاكم نيوتوليدو ، وشريك الأمير فى الأصل قائداً للرجال بفطرته وجنديا أصيلا ، وأوليسيس (*) دما ولحما . غير أن كل هذا لم يكن كافيا ، لا لإنقاذه ولا لصالح بيرو . وكان يثق فى أواصر الزمالة القديمة التى لم تدم طويلا . وكان يفتقر إلى الخداع ليقابل الإخوة بثارو على أرضهم أنفسهم . وامر هرناندو بإعدامه شنقا بعد موقعة لاس ساليناس . وأشعل موته شرارة بدء المعارك الدموية بين الفاتحين مما سمم جو بيرو لسنوات عدة .

ومات كذلك فى لاس ساليناس رود ريجو أورجونييث ضابط الماجرو الوفى المخلص، والمحارب العظيم الشأن ، الذى حث قائده على التخلص من هرناندو وجنثالو عند ما كانا فى قبضته، سلم نفسه للجنود فى الميدان فضربوا عنقه . يقول هيريرا : « أحاط به كثيرون وحاربهم جميعا وجرح منهم عددا كبيرا » .

وكان فرانسسكو كارباخال جنديا من قبل أن يولد معظم زملائه الفاتحين بزمن طويل ، وأصبح حكيما إلى درجة لا حد لها فيما يتعلق بفنون الحرب . ولم يكن له ، كضابط ، ند من أولئك الذين حاربوا فى بيرو سوى فالدفيا . ولكن على الرغم من أن القائد الشجاع (**) كان خصما يجبر الناس على

(*) بطل حرب طروادة وكان يتصف بالحكمة

(**) قائد لمجموعة من مائة جندى فى العصر الرومانى والعصور الوسطى

احترامه فلم يكن أبدا كفئا للمحارب المخيف العجوز . ولما كان معروفا بين معاصريه الشياطين « بمارد الإنديز » و « عدو الجنس البشرى » ، فقد كان كارباخال الحقود قاسيا عديم الشفقة بجميع من هم فى الجانب الآخر ، سواء أكان هذا الجانب فى وقت ما جانب الملك أم جانب الثورة . وكان الرجال الأشداء يرهبون حضرته المسيطرة ، وكان يظهر حصافته فيبدون كأنهم مدر أصم ، كما أن لسانه اللاذع كان يترك الرجال وقد جردوا بشكل غريب من زهوهم وثقتهم بأنفسهم (٢٦) . أما الشخص الوحيد على الكرة الأرضية الذى كان يهتم دائما باعتراضاته فكان زوجته البرتغالية . واستسلم للمزاح المتجهم حتى فى أكثر المناسبات المفجعة ، بما فى ذلك المناسبة التى أعدم فيها هو نفسه . وفى سن الرابعة والثمانين ، حينما جاء أجله ، كان لا يزال رجلا فيه نشاط ، لا يمل ، وجلد هائل ، ينام حينما كان يضطر إلى النوم ، فى كرسى جامد أو محنيا رأسه على السرج وهو يقود رجاله فى الجبال ليلا كشخص يتخبطه الشيطان من المس . وكان مظهره الغريب يجعله فى منأى عن زملائه . لم يضع فوق رأسه خوذة لامعة ، ولا على جسمه درعا ، بل قبعة متهدلة بريش من الديكة بدلا من حزمة الريش المألوفة ، ودثارا للكتفين قديما أسود اللون . ولم يركب جوادا عربيا كما كان يصر على ذلك الفاتحون ، بل بغلا كان ، كسيده ، لا يبالى بنفخ الأبواق والبهرجة ، بل الوصول سليما إلى حيث وجهت مسيرته .

الأقطار الناتية

بدأ فتح « الأرض الصلبة » أو السواحل الشمالية للقارة(*) من البرزخ المجاور حتى شبه جزيرة باريا وما خلفها من الأراضى بحملات أوخيدا ونيكيسا فى سنة ١٥٠٩ . واستمرت كسلسلة من المغامرات المتقطعة حتى أبيدت القبائل الهندية المختلفة أو أخمدت ثوراتها ، أو ، فيما عدا هذين الإجراءين ، قبلت الدخول فى الحكم الإسبانى . وإذا أخذنا فى الاعتبار ترامى أطرافها وطبيعة الأرض والحاجة إلى دولة وطنية قوية تحكم تلك الأراضى الشاسعة ، فلا يمكن أن تكون هناك وحدة فى فتح هذا الإقليم الكبير . وتتابعت سلسلة الحملات المتقطعة نحو الداخل من أمكنة على الساحل الطويل مثل دارين ، أو أورابا ، أو كارتاخينا ، أو سانتا مارتا ، أو كورو ، أو كومانا . وكانت أشدها إثارة ، وأكثرها نجاحا بصفة عامة، حملة خمينيث دى كيسادا إلى المرتفعات الكولومبية . وكثير من هذا الطور من الفتح كان قتال أدغال وتلال فى أسوأ الظروف . وكان الهنود عادة متوحشين ومحاربين إلى أقصى حد ، وكانت الحرب كذلك قاسية ولا تعرف الرحمة من كلا الجانبين . وإنه فى هذه الجهة وما خلفها من الأراضى كان مسرح عمليات بالبو ، وانداجويا ، وباستيداس ، وهيريديا ، وسيزار ، وفاديو ، وروبليدو .

ويأتى بالبو الأول بجدارة بين هذه المجموعة المنتقاة . قال أوفييدو الذى كان يعرفه حق المعرفة إن « فاسكو نونييث كان كل شىء » فى البرزخ . . . وكان يتفوق كثيراً جداً على الآخرين » ، وكان طموحا و « وجه أفكاره نحو السلطة ، فلم يخلق ليضيع وقته فى خمول » . وبقراءة رسالة بالبو المطولة

(*) Tierra Firme

للملك ، المدونة فى ٢٠ من يناير سنة ١٥١٣ ، يستطيع المرء أن يتبين كم فقدت إسبانيا وإمبراطوريتها فى العالم الجديد بموت هذا القائد الذى امتاز بالحكمة والقوة الفائقتين فى وقت مبكر .

وتشمل أراضى بر بلات مساحة شاسعة فى أرجنتينا وأوروجواى وباراجواى وبوليفيا وتقدم الإسبانيون نحوهذا الفراغ جاءين من اتجاهات مختلفة — من الشمال عن طريق النهر الأصلى نفسه ، أو عن الطريق البرى من الساحل البرازيلى ، أو منحدرين من أراضى شاركاس المرتفعة فى بيرو العليا أو بوليفيا ، ومن فوق الأنديز فى تشيلى . وبعد الفشل الأول فى بوينس أيريس أصبحت أسونثيون المركز الذى تتشعب منه الجماعات بعيداً وعلى نطاق واسع لكى يؤسسوا مدناً جديدة مثل سانتافى وسانتاكروث دى لاسييرا ، أو يؤسسوا من جديد مدنا مندثرة مثل بوينس أيريس .

ولم تكن هناك أمم هندية كبيرة وجيدة التنظيم ليقاتلوها . وتعلم الإسبانيون أحيانا كيف يعيشون جنبا إلى جنب مع الهنود بعد العداوات الأولى كما فعلوا فى باراجواى . وكان الإسبانيون من زمن مبكر جدا مستعمرين بقدر ماهم فاتحون فى أراضى الحدود المكشوفة هذه . وتبين أن الذهب والفضة اللذين كانا السبب الأساسى فى نزوحهم ليسا إلا وهما . ولذلك نزعوا إلى الاستقرار فى بقعة بهجة يمتعون أنفسهم بقناعة الريف فى حياة غير محدودة : وحيث وجدوا أنفسهم أحرارا يجوبون البلاد بلاهدف عندما كان يعاودهم مزاجهم القديم ، فقد كانت الأرض مفتوحة أمامهم ، وتدفقت الأنهار تستضيفهم عبر الأراضى ، وقد توافرت لديهم الخيول .

وكان فتح تشيلى امتداداً لفتح بيرو . ولم تكن حملة الماجرو - منحدرا برجاله من خلف الجانب الشرقى للجبال ، ثم فوق الممرات فى أرض المابوشو ثم مرتدا إلى صحراء كشكو القاسية — إلا مجرد إغارة ، غزوة استطلاعية ،

لكنها كانت من أعظم ما فى الفتح جميعا . فقد أنجز بدرو دى فالدفيا وضباطه ومن خالفوهم — أجيرى ، وفياجرا ، ومونروى ذو الركابين الذهبيين ، وهورتادو دى مندوثا — العملية الأساسية فى الفتح ، أو قل بدءها على الأقل . فلم تكن قد أنجزت تماما .

وكان هذا آخر حد للفتح . وهنا على حافة العالم القاصية كان وادى تشيلى فى الحقيقة جزيرة مغربية تحيط بها من أربعة جوانب الصحراء والجبال والغابة والمحيط . وكانت الغابة موطن الأروكاريان ، ولكنهم ما كانوا ليرغبوا حتى فى الذهاب إلى إقليم الأرخبيل الذى تكتسحه العواصف . فقد استمر فترة طويلة لا يقدم لمن يرتاده إلا قليلا فيما عدا الأخطار والصعاب . وكان الجزاء قليلا إلا للشخصيات القوية ، وهذه قد أتى بها الفاتحون معهم ، وانتهت بهم الحال إلى حيازة شىء أكثر قيمة من الذهب والفضة ، ألا وهو هذه الأرض المفضلة ذاتها . ولكن ثمن البقاء لسنوات عدة كان هو اليقظة والحذر الدائبين . ولم يكن هناك سوى بضعة أشخاص من الإسبانيين فى أى وقت من الأوقات ، غير أن مركزهم اليائس كان يتطلب منهم شجاعة تفوق القدر الذى يحتاج إليه جنسهم . فقد كان أعداؤهم غلاظ القلوب ، يدمرون مستعمراتهم ، وكانت مواقع حامياتهم المنعزلة تكتسح ، ومع ذلك فبمعجزة ما من الصلابة الإسبانية ، بقى المجتمع الصغير صامدا لم تسحقه يوما ما الأعداد التى كانت تهدد بالإطباق عليه بين آونة وأخرى . وأخيراً فإن جذور هذا المجتمع كانت عميقة فى الأرض بحيث لم تقتلع فى وقت من الأوقات .

وكان هناك مائة وخمسون رجلا فى الفرقة الأصلية ، وامرأة واحدة هى إينيس سواريث ، محظية فالدفيا . واتسمت بالشجاعة كالآخرين . ومن بين أربعة عشر مخلدا من فاتحى تشيلى : خوان فالينتى الزنجى ، وهو عبد آبق من المكسيك ، وأحد أفراد جيش الماجرو . ومات ثلث الجملة فى المعركة

مع الهنود ، وسبعة شنقوا ، واثنان ضربت عنقاهما ، وأربعة آخرون ماتوا ميتة نكراء ، وأربعة عشر تركوا تشيلي ، معظمهم إلى بيرو ، ولم يعودوا. وعاش الباقون في المستعمرة التي أسسوها . وجاء فالدفيا إلى تشيلي سنة ١٥٤٠ بعد خمس سنوات من حملة الماجرو . وبعد مضى ربع قرن ، أى فى سنة ١٥٦٥ ، لم يكن هناك أكثر من ١٥٠٠ إسبانى فى تشيلي وبقيت نسبة من ماتوا فى الحرب كما هى ،وفى ذلك طبقا لرواية كاتب من تشيلي، كان هناك على الأرجح ٢٠٫٠٠٠ مولد فى الإقليم. وكتب شخص مقيم فى سانتياجو فى تلك السنة أنه كان يوجد من اثنين إلى ثمانية من المولدين فى كل بيت فى المدينة .

وكان نموذج فاتحى تشيلي فرانسسكو دى أجيرى . وهذه الشخصية الجبارة كان شريفا من أشراف استريمادورا ، ولما ترك البلاد إلى الهند الغربية كان قد عد محاربا قديما ، فقد اشترك فى الحروب الإيطالية ، وكان ممثلا للملك(*) فى بلدته الأصلية تالافيرا دى لارينا. وأخذ ابنه البالغ من العمر ست سنوات معه إلى العالم الجديد حيث وافته هناك بعد ثلاث وعشرين سنة زوجته وأربعة آخرون من أبنائه . وفى هذه الأثناء ، وكأب لخمسين طفلا مولداً على الأقل ، قام بعمل كبير لصنع جنس تشيلي جديد . ووصل إلى بيرو واشترك بكل قلبه فى عملية الفتح . وعندما قام فالدفيا بحملته على تشيلي قابله أجيرى فى أتاكاما بخمسة وعشرين من الفرسان واشتركوا معه فى المسيرة . وكان أحد المؤسسين وأول قاض(**) لسانتياجو ، والحاكم العسكرى للمستعمرة ، ومؤسس لاسيرينا ، ومحافظ توكومان على الجانب الآخر من الجبال وكان أكثر أدبا من معظم زملائه . وفضلا عن ذلك فقد كان مقاتلا لا يقهر . وعاش وحارب بابتهاج عظيم . لقد كانت الحرب لعبة بالنسبة إليه . وكانت تشيلي وكثير من أنحاء أرجنتينا ملعبه . وجعل

(*) corregidor

(**) Alcalde

من بينه حصنا ، فى أية جهة كان له فيها بيت ، بمدفع فوق السقف ، ولكنه كان شخصا لا يخلد إلى الراحة ، وكان يفضل أن يقضى وقته فى الطريق إلى الحرب مع جماعة صغيرة من ضباطه يرهبون قلوب أعدائهم سواء من الهنود أم الإسبانيين . وكان آخر عمل حربى له يهدف إلى هزيمة جماعة من رجال دريك الذين نهبوا فلباراييسو وردهم إلى سفينتهم . وبعد ثلاث سنوات توفى فى مدينة لاسيرينا الجميلة بكل ما يليق به من وقار . وكان هذا فى سنة ١٥٨١ أى بعد أكثر من أربعين سنة من قدومه إلى تشيلى مع فالدفيا ، وقد جاوز سن السبعين بسنين . وكان جهورى الصوت وسبابا . وقد جلبت له أيمانه الغليظة مشكلات طويلة مع محكمة التفتيش التى كان يخرج من براثنها فى كل مرة أقل وقاراً من ذى قبل . وقبل وفاته كان قد فقد من أبنائه الأربعة الإسبانيين ثلاثة فى خدمة الملك ، وصهرا ، وثلاثة من أبناء الأخ — وثروة أمير .

-

مهمة الاستعمار

انطفأ لهيب الفتح وقضى معه الرجال الذين صنعوه . بذلوا ما لديهم من نشاط فى ألف معركة ومسيرة مضنية خلال الصحراء والجبال والأدغال . ولقد ظفروا بالهدوء ، وكان من حسن حظ مستقبل الإمبراطورية الإسبانية الجديدة أنهم كانوا على استعداد للتقاعد . فمنذ البداية الأولى ، حينما كانت الحروب تهدأ لمدة طويلة ، وحيث لم يكن هناك أمل فى الحصول على ذهب ما ، كانوا يمارسون الزراعة أو تربية الحيوانات أو التجارة ، وكثرت أعداد الحيوانات كثيرا فى الجزر . وعندما أوقدت النار لحملة جديدة ، كانت هناك خيول متوافرة ولحم خنزير وشرائح اللحم البقرى المجففة (*) لإطعام

(*) charqui

القوة فى المراحل الأولى من الحملة . وقد انتهى كل هذا فى ذلك الوقت ، واستقروا إلى الأبد ، ورجع بعضهم إلى الأرض التى كانوا دائما يشعرون بحنين شديد نحوها فإذا كان قد نالهم أرض موثقة مكافأة لهم على خدماتهم فقد عاشوا فيها وسط أتباعهم الجنود والمستأجرين . وفى بعض الأحيان كانوا يمارسون التجارة من جديد كما كانوا يفعلون فى الفترة التى سبقت الحروب . وعلى أية حال كان الفاتحون هم أول المستعمرين(*) . وانقلبوا شيئا فشيئا إلى أساليب نظام الحياة المدنية الجديد وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منه . وعندما سأل خوان خوفرى أحد ضباط فالدفيا الملك فى سنة ١٥٥٣ عن قطعة على سفوح ثرودى سان كريستوبال ليبنى فوقها مصنعا كتب له يقول: « أنا فاتح ومستعمر ، وأعول أسرة — من أوائل الذين خدموا جلالتكم فى هذه المقاطعة — وتزوجت هنا ، وأرجو أن أعيش هنا على الدوام » . ومع ذلك فبقدر ما كان يلائم الزهو والشراسة كالمحاربين القدامى ، استمروا بلا انقطاع يندددون بالكيفية التى كانت الرسميات الجديدة الواردة من إسبانيا تدار بها الأمور .

وربما جاءت أوقات رضى الفاتحون فيها كثيراً عن حياتهم فى الزراعة وتربية الحيوانات ، الحرفتين اللتين أدخلوهما فى البلاد ، رضاهم عن أمجادهم الحربية(٢٧) ولقد كان برنال دياث فخوراً جداً بأنه أول من غرس أشجار البرتقال فى المكسيك . وكان اهتمامه بمثل هذه الأشياء تعوض عن شىء من أعمال بثارو . ويروى لنا سييفا زيارة الشخص الذى يغتال الفاتح فيما بعد لحديقة منزل بثارو فى ليما : « ثم اقتطف الأمير بيده نفسه ست برتقالات من الشجرة بوصف كونها أول شجرة أثمرت فى تلك البلاد ، وأعطاها إلى خوان هيرادا » . وترمز هذه الحادثة إلى التغير الذى طرأ على بيرو منذ

(*) pobladores

الشقاق الذى شجر بين أتباع بثارو وأتباع الماجرو «رجال تشيلى» . ولفترة قصيرة كان هناك وعد بالسلام فى بيرو ، وفى تاريخ هيريرا : « بدأ هناك جنى القمح والشعير ومحصولات كثيرة أخرى من محصولات قشتالة — وكان هناك نظام حسن وهدوء فى مدن القشتاليين » . وأول قمح وصل إلى بيرو هو الذى جاءت به دونيا ماريا دى اسكوبار زوجة أحد الفاتحين(٢٨) . وقد والت تكثيره لبضع سنوات من الحبوب القليلة التى أحضرتها إلى أن أصبح عندها ما يكفى لتوزيعه على المزارعين فى الجهات المجاورة . وأول أعناب غرست فى بيرو غرسها فرانسسكو دى كارافانتيس . وفى وقت لاحق غرس كابتن بارتولومى دى تراثاس الكروم بالقرب من كشكو ، وعندما بلغت حجما كبيرا أرسل ثلاثين هنديا محملين بالأعناب إلى والدجارسيلاسو الإنكا .

ومن فترة مبكرة فى الفتح جاء الناس إلى العالم الجديد ، لا كجنود ، بل كمدنيين . ولقد حاول كولمبس أن يحضر مزارعين يكرسون كل وقتهم فى العمل على الأرض ، كما حاول لاس كاساس أن يؤسس مستعمرة زراعية من الإسبانيين . وتبين سجلات الأشخاص المرخص لهم بالذهاب إلى الهند الغربية أسماء وحرف كثير من أصحاب الحرف والصناع المهرة ، وتوضح الأحوال المعقدة التى كانت تتزايد فى المجتمعات المدنية التى كانت قد تطورت فى المستعمرات . ومن الذين رخص لهم بعبور الأطلنطى فى سنة ١٥٠٩ جورجى فيتوريا ، مزارع ، ودييجو بيريث ، مزارع ومكارى(*) ، وبيرو سيد تاجر ، وأنطونيو وريث ، محترف فلاحة بساتين . ويتضمن كشف السنة التالية صيدليا ، وأربعة من صانعى الأحذية ، وصانع آلات قاطعة ، وسباكا . وفاحص معادن من فلاندرز . وبعد ذلك يصبح كشف المهنيين أكثر تنوعا بانتظام . وفى سنة ١٥١١ منح نجار ، وحلاق ، وحفار ، وحائك

(*) muleteer : بغال

ملابس، ونقاش، وحداد ، وصانع أحذية تصريحات للهجرة إلى المستعمرات وفى السنة التالية أضيف صانع جوارب ، وصانع عربات . وفى سنة ١٥١٣ تظهر الحرف الآتية فى السجلات لأول مرة : صانع فضيات ، صيرفى ، صانع شموع ، معدن ، ملاط ، خياط . ومن المهاجرين الآخرين السيد خيرونيمو « جراح خلع الأسنان » وابنه ومساعد وخادم . وفى نفس السنة هاجر دييجو جارسيا من أشبيلية بجماعة مكونة من أخته إينيس ، وإينيس فرنانديث كقهرمانة(*) ، وسباستيان دى مندوثا ، وربما كان هذا الشخص هو أول راعى ماشية محترف(**) يذهب إلى العالم الجديد ، وألونسو مارتن ، راعى غنم ، وألونسو دى اندوخار ، زارع فاكهة ، وفرانسسكو ، سائق بغال ، واثنان آخران . وفى سنة ١٥١٤ عبر ميجيل ريث ، حلاق أشبيلية ، مع حلاق آخر وثلاثة نجارين . وكانت هناك حاجة إلى كثير من البنائين لبناء المدن الجديدة الرصينة . وفى سنة ١٥١٠ هاجر ثمانية بنائين « لبناء وإقامة الكنائس الجديدة فى هسبانيولا » . وتظهر فى الكشوف حرف أخرى هى الخراطون والمطرزون وحدادو الأقفال والخبازون والخزفيون وصانعو الصهاريج والدروع والسيوف . وفى سنة ١٥٣٥ عبر السيد هرناندو ، وهو معلم مبارزة بالسيف إلى الإقليم الساحلى للقارة . وفى نفس السنة صرح للسيد استيبان ، وربما يعد أول طباع فى أمريكا الجنوبية ، بالاشتراك فى حملة مندوثا إلى نهر بلات . وذهب أيضا دكتور هرناندو دى ثامورا كطبيب خاص لمندوسا . وعندما عين جارسيا دى ليرما حاكما لسانتا مارتا فى سنة ١٥٢٨ ، ضمت مجموعته خمسة بنائين، ونجاراً ، وملاطين ، وصانع سيوف ، وصيدليا . وحلاقا ، وخياطا ، ورئيس خدم ، وخباز فطائر[٢٩].

(*) duenna

(**) vaquero

ويوضح التطور الذى طرأ على المجتمع المستقر فى پاراجواى مثلا شائقا للانتقال من الفتح إلى الاستعمار . فقد أسست اسونثيون بواسطة الرجال الأشداء الذين بقوا من مشروع مندوثا الطموح . والذين صعدوا على طول مجرى النهر حتى وجدوا موقعا يلائم هواهم ولفترة خاضوا حربا لا هدف لهـا فى الغالب ضد قبائل الجوارانى المختلفة صعودا ونزولا على طولى مجرى النهر وفى داخل وخارج الأراضى التى تقع خلفه . ومع ذلك فلم يكن لدى الهنود شىء يطمع فيه الإسبانيون فى الواقع فيما عدا النساء ولما كن متوافرات للتنقل هنا وهناك ، ونظراً إلى وجود فضاء كاف للمعيشة ، فقد جاء كلا الجانبين إلى قبول وجود أحدهما مع الآخر دون ماجلبة جديدة . وكان المستعمرون الجدد فيما بينهم بعضهم وبعض زمرة تحب الشجار والشكوى ولـكن البلاد التى أتوا إليها كانت غنية وجذابة . وأخيراً روض التقدم فى السن ، ونسوتهم الرقيقات ، وسحر البـــلاد ، وحشيتهم القديمة . كتب هيريرا يقول : « إنها بلاد بهيجة جداً ، مياهها وغاباتها كثيرة ، وهى خصبة وجميلة » . وعاشوا سنين طويلة فى دوامة الفتح السارة هذه منعزلين عن العالم الذى تركوه وراءهم ، ونسوا جميع أحلامهم فى الوصول إلى المجد والثراء . وتلاشت ذكرياتهم عن إسبانيا شيئا فشيئا بمرور السنين . فقد كان هذا هو موطنهم ، وقد أفادوا منه إلى أقصى حد . ولم تـكن هناك كماليات ، ولـكن كانت هناك وفرة مخشوشنة ، وكانت كل الحاجات البسيطة التى تستلزمها الحياة فى المتناول . أما الزخرف الذى جاءوا به فى الأصل فقد بلى ، وارتدوا سراويل من القطن وقبعات ذات حافات عريضة مصنوعة من القش أما الأحذية فقد صنعت من الجلد المدبوغ من قبل . عادوا إلى ممارسة الحرف القديمة التى تركوها من مدة بعيدة وتعلموا مهارات جديدة استلزمها اقتصاد المستعمرة البدائى . فمنهم النجارون وصانعو البراميل ، والنشارون ، وصانعو السفن ، وصانعو الحبال والسلال ، والحدادون ، وصانعو الأحذية . وكان رتشارد لنكولن من بليموث فى

انجلترا من أنفع مواطنى أسونثيون ، وكان واحداً من ثلاثة حدادين ، وفى دكانه كان يوجد مسبك وسندان وثلاث مطارق وملقاطان . وكان هو وزملاؤه يصنعون المسامير والصنانير وأدوات أخرى خفيفة من الحديد لاحتياجات المستعمرين اليومية ، كما صنعوا «الحدوات» لخيولهم ، والمهامين لركاباتهم. وعندما ولى كابيثادى فاكا حاكما قدم طلبا بألا يسمح للمحامين بالمجيء إلى المستعمرة «لأنهم فى الأراضى المستعمرة حديثا يبذرون بذور الشقاق والتقاضى بين الناس» . وكان بالبو يصر كذلك على إقصاء المحامين عن دارين ، ولنفس السبب . ويقول برنال دياث أيضاً إن تقريراً رسمياً من حكام المكسيك طلب من الملك أن «جلالته قد يسره ألا يكلف أى طالب علم أو أدباء ليحضروا إلى هذه البلاد لكى يلقوا بنا فى خضم من الاضطراب بما تعلموه وبالمغالطات والكتب» .

وبمرور الوقت اتخذت المستعمرة الصفة الخاصة التى لاتزال تتصف بها حتى الآن وترعرع الأطفال المولدون الذين أنجبهم الفاتحون فى مثل ذلك الفيض حولهم ، وتسلموا منهم فى حيوية جديدة وإقدام ماتركه لهم آباؤهم . وأخيراً لم يصبح هناك إسبانى أو جوارانى ولكن باراجوانى ، واستكملت العملية .

وكانت تجرى عمليات مشابهة فى أرجاء أخرى من العالم الجديد على الرغم من أنها قلما استكملت نفس النهاية ، بل باختلافات كثيرة أخرى وفقاً للعوامل المحلية الخاصة . وكقاعدة عامة احتفظت الأقلية الإسبانية بشخصيتها كطبقة حاكمة بسبب الهجرة من شبه الجزيرة والتى كانت تجددها بانتظام . أما كستاريكا ، حيث كان الإسبانيون يكونون الأغلبية ، فقد عاشت خاملة لقرون ، أركاديا منسية ، ومزورة عن الطريق الذى يسلكه المستعمرون . وباستمرار عملية التهجين ، مع التوتر الذى لا حد له مع الأروكاريان ، اتخذت تشيلى كذلك الشكل الذى قدر لها أن تحتفظ به .

وفى المكسيك وبيرو بقى تركيب مجتمع المستعمرين أكثر تعقيداً كتركيبهم الاجتماعى وتنظيمهم الاقتصادى . ومهما تكن العناصر الإثنوجرافية والثقافية فى الموضوع ، فقد كان ضغط إسبانيا على عادات الناس أقوى دائماً فى مراكز السلطة مثل مدينة المكسيك وليما منه فى البلاد التى كانت كربولية (*) أو هندية صريحة فى الجو والمزاج مثل أسونثيون أو كشكو . ولكن الضغط لم يكن ألبتة شديداً أو ملحاً بدرجة تكفى لتحويل هذه المجتمعات المختلطة فى صورة إسبانيا حتى لو أن إسبانيا قد سلكت الطريق الأحمق لفرض إرادتها . ولهذا فقد احتفظتا باختلاف كاف ليميز الواحدة عن الأخرى على الرغم من أن قانونهما ودينهما واللغة الغالبة أصبحت إسبانية ، ورغم أن عبقرية إسبانيا الخاصة قد تعمقت جذورها فى تفكير الناس وفى طرق معيشتهم .

البرتغاليون فى البرازيل

كان أخذ البرتغاليين للبرازيل مسألة احتلال واستعمار أكثر منه فتحا صريحا . فلم يكن فتحا فى الواقع أكثر من فتح الأمريكيين للغرب ، ولنفس الغرض فى أكثر الأحيان . وكانت هناك مساحات شاسعة من الأراضى لا يقطنها إلا سكان قليلو العدد من الهنود البدائيين . فلم تكن هناك ضرورة لعمليات حربية على نطاق واسع . وكان هدف البرتغاليين الوحيد أن يمضوا فى العمل الذى قاموا به بسرعة ـ وبفائدة ـ بقدر الإمكان . وكان عددهم قليلا . ولم يشاءوا أن يعلنوا للعالم عما يقومون به ، كما فعل الإسبانيون فى عدم اكتراثهم المتعالى بالشعوب الأخرى جميعاً ، وكان لديهم ما يكفى من المتاعب وهم يحاولون إبعاد الفرنسيين عن الميدان . وكذلك لم يثقوا فى أبناء عمومتهم الإسبانيين فى مراعاة « خط للتقسيم »(**)

(*) Creole : مولود من أبوين أوروبيين خارج أوروبا (فى أمريكا وافريقية) .

(**) Line of Demarcation : فى سنة ١٤٩٣ عين البابا خطا وهميا يمتد من القطب الشمالى إلى الجنوبى ويمر بنقطة تبعد مائة فرسخ غرب جزر ازورس بحيث تكون الأرض فى غربه مجالا لكشوف إسبانيا والأرض فى شرقه مجالا لكشوف البرتغال ثم زحزح هذا الخط فى السنة التالية نحو الغرب لصالح البرتغال .

ولذلك فقد انطلقوا عبر الفيافى، وعينوا حدودهم بحصون حجرية متباينة أقاموها فى الغابة . وكانوا قد اكتسبوا تجارب فى بلاد الشرق ، ولذلك لم ينتظروا حينذاك أن يعودوا بكنوز نخفاخة أو مغامرة من هذه الأرض التى توجد فيها غابات الصباغة والببغاوات والنساء العاريات اللائى قدمن لهم التحية على الشواطىء المترامية . فقد كانوا شعبا عمليا ولم يعبروا الأطلنطى للتسلية ، وانكبوا ليجعلوا من مستعمرتهم البكر العظيمة موردا للاستثمار المجزى بالسكر والبضائع العادية التى كانت لها سوق منتظمة ومربحة فى أوروبا . وفى أثناء هذه العملية أقاموا مجتمعا ريفيا أسسوه على استخدام الرقيق الزنوج بعد أن فشلوا فى استخدام العمال الهنود . وقد نجح هذا المجتمع نجاحاً فريداً فى خدمة الغرض الذى أسس من أجله . أما أولئك الذين نزعوا إلى المغامرة فقد اندفعوا إلى الفيافى المجهولة يستكشفون الجهات الداخلية فى البلاد ، (*) هؤلاء هم رجال الحدود الأشداء الذين أمنوا مستقبل البرازيل كدولة واحدة .

(*) Bandeirantes : حاملو الأعلام .

هوامش الفصل الرابع

Gonzalo Fernandez de Oviedo y Valdés, «Historia (1) General y Natural de las Indias, Islas y Tierra Firme del Mar Océano» (4 vols., Madrid, 1851-55), IV, 185.

من الأبحاث الفرعية الشائقة عن اقتصاديات الفتح ما رواه أوفييدو. وقد قدرت القيمة الكلية لفدية أتاهوبا بـ ١ر٣٢٦ر٥٣٩ بيسو قيمة الذهب مضافا اليها ٥١ر٦١٠ ماركو من الفضة . ومن الأمثلة على تضخم الأثمان الناجمة عن قوة الفاتحين الشرائية التى ازدادت فجأة : حصان بيع بمبلغ يتراوح بين ٢٥٠٠ ، ٣٥ر٠٠٠ بيسو ذهبا ، دن من النبيذ ٦٠ بيسو ، لفاع فلمنكي من ١٠٠ ــ ١٢٠ بيسو ، سيف من ٤٠ ــ ٥٠ بيسو، فص من الثوم بنصف بيسو

Ibid., pp. 200-01.

(٢) من المرجح أن أحسن تاريخ من جزء واحد كتب عن الفتح هو :

F. A. Kirkpatrick, «The Spanish Conquistadores» (London, 1934).

وعن التحليل الشائق لأخلاق ودوافع الفاتحين انظر :

Rufino Blanco Fombona, «El Conquistador Espanol del Siglo XVI» (Madrid, 1922) especially pp. 15, 201, 241-44, 263-64.

(٣) يخبرنا أوفييدو عن مصير الجماعة الكبيرة التى خرجت الى البرزخ مع بدراریاس . كثير منهم مات فى الاغارات ضد الهنود . « هذا القنص وهذه المطاردة الشيطانية » وفى مدينة سانتا ماريا دل أنتجوا دى دارين التى تطل على البحر والتى أنشأها بالبو سقط كثير منهم فى الشوارع جوعا . ومات من خمسة عشر الى عشرين يوميا فى المدينة التعسة حتى هلك أكثر من ٥٠٠ فى فترة وجيزة .

Op. cit., III, 37.

(٤) طبقا لرواية أولروخ شميدل الجندى الألمانى الذى كان واحدا ممن بقوا أحياء ، حينما أخذ خوان دى أيولاس الباقين من قوة مندوثا فى الرحلة نحو منابع النهر .

«Viaje al Rio de la Plata» (tr. from the German, Buenos Aires, 1942), pp. 22, 23.

فى وقت لاحق ضرب أيولاس حتى الموت فى حملة طويلة الى الغرب من نهر باراجواى ، ومعه ٨٠ اسبانيا ، قتله هنود كانوا قد أكدوا له صداقتهم .

(٥) من الجنود المتمردين الذين قتلوا باستيداس ابن للعالم فى اللغة والانسانيات أنطونيو دى لبريخا · وقد أطلق أوفييدو على الخـزى الذى لحق بأبيه « الشيء الفظيع الذى ينم عن العـار » ·

Op. Cit., II, 343.

(٦) (لقد كان رجلا لا مثيل له مطلقا فى جميع تاريخات الفتح · ولكن لولا نكسة من سوء الحظ والعداوة التى جلبها على نفسه بحمايته الهنود لسجل التاريخ اسمـه فى مقدمة الشخصيـات من بين جـميع الفـاتحين » ·

Robert Bontine Cunninghame Graham. «The Conquest of the River Plate» (New York, 1924), P. 5.

See also ibid., P. 158.

وعن مسيرته البرية من الساحل البرازيلى الى نهر باراجواى كتب أوفييدو : « فى هـذه الرحلة الطويلة لم يفقد رجلا واحدا ولم يحارب هنود هذه الأرجاء ، ولذلك فقد وصل بقوته سالمين الى أسونثيون » ·

Op. Cit., ii, 189.

وطبقا لرواية هيريرا ، « اهتم الثارنونييث اهتماما خاصا بالاحتفاظ برضاء الهنود ··· فقـد كان على معرفة جيـدة بطبيعة المتوحشين » ·

(٧) « وهؤلاء الرواد الذين كـشفوا بلادا جديدة انهـكوا أنفسهم بطيشهم وحروبهم الأهلية » ·

Peter Martyr (Pietro Martire d'Anghiera), «De Orbe Novo» (tr. from the Latin, 2 vols., New York, 1912), I. P. 217.

« ولولا تحاسد الاسبانيين الذين لا يستطيعون الاتفاق فيما بينهم ·· لكانت كل هذه الأرجاء قد خضعت للفتح ··· فكل منهم عدو علنى لرفاقه فى هذا العراك العكر من أجل الطموح ، والذى يغشى أبصارهم » . Ibid., P. 340. · أما فيما يتعلق بالحرب الأهلية الثلاثية فى أمريكا الوسـطى بين كريستوبال دى أوليد وجيل جنثاليث دافيـلا وضباط بدرارياس فيقول : « ان الاسبانيين الذين لا يستطيعون تحمل العمل متعاونين يقتل بعضهم بعضا بمجرد أن يلتقوا ·· II, 413

(٨) كتب سير والتر رالى الذى لقى صعابا كثيرة فى الأورينوكو يقول : « ولا أنا مغرم كثيرا بحب هذا المسكن ، والترقب ، والهم ، والخطر ، والأمراض ، والروائح الكريهة ، والطعام الردىء ، وكثير من الشرور الأخرى التى تلازم هذه الرحلات ، لكى أقدم على واحدة منها بعد ذلك ، لو لم أتأكد من أن الشمس لا تضيء على ثروة ضخـمة تعدلها فى أية جهة أخرى فوق سطح الأرض ·

In Habluyt, «Voyages» (Everyman's Library). VII, 327.

(٩) بعد اعدامه ، « حزن جميع الهنود قائلين ان الماجرو كان ضابطا كفئا وكانوا يلقون منه دائما معاملة حسنة • »
Cieza de Leon, «The War of Las Salinas,» ou. cit, P. 222.

وقال سييثا عن جنثـالو بثارو : « كان دائما عـادلا وميالا الى الرحمة ، فلم يأمر باعدام أى شخص دون محاكمة • وعند ما عاد الى ليمـا سن بعض قوانين عظيمة لحماية الهنود • واعترف جاسكا (الذى أعدمه) أن جنثالو بثارو كان حاكما عظيما » •
«The War of Quito», op. cit., P. 158.

(١٠) عندما مات لورنثر دى ألدانا ، وهو من الفـاتحين المفضلين الذين فتحوا بيرو فى ١٥٧١ ترك كل ثروته لكى تستثمر لدفع الجـزية أو ضريبة الرأس التى فرضهـا الملك على الهنود الذين كانوا يعيشون فى ضياعه •
Ibid., P. 74

(١١) قال دون كيخوتى : « ان الحـرب مدرسـة فيهـا يصبـح الجشعون أحرارا والأحرار سفهاء ، وان وجدت جنديا يده مغلولة الى عنقه فتلك احدى الأعاجيب التى لا تحدث الا نادرا » •

(١٢) « تلك الصورة والتمثال الذى يمثل الشمس (وهو مصنوع من لوح من الذهب) وقع عند أخذ الاسبانيين لتلك المدينة الامبراطورية من نصيب رائد شجاع اسمه مانسيو سييرا ليجيسامو • ويقولون انه كان مقامرا كبيرا ، فقامر بها وخسرها ذات ليلة مما أدى الى القول المـأثور : يقامر بالشمس قبل شروقهـا » •

Vazquez de Espinosa, op. cit., P. 561.

(١٣) كتب برنال دياث عن مصاعب الفاتحين المالية يقول : « كثرت بين جنود جيشنا عقود ديون ثقيلة ، فقد بيع قوس باثنى عشر جنيها ونصف ، وكانت البندقية تقدر بخمسة وعشرين جنيها ، والحصـان بمائتى جنيه بل أكثر ، واحتفظت جميع الأشياء الأخرى بارتفاع مماثل فى الأسعار • ثم ان جراحا اسمه ميستر خوان رفع أجره ، كما فعل طبيب اسمه مورسيا وكان صيدليا وحلاقا • وبجانب هذا فتحت أبواب أخرى لابتزاز النقود كان يلزم الانفاق فيها من أنصبتنا » •
Ibid., P. 365.

(١٤) In Charles C. Griffin, «Concerning Latin American Culture» (New York, 1940), P. 53.

كانت روح الفاتح تجمع بين الجراة والجشع ، وبين الاعتقاد فى الخرافات والقسوة ، وبين زهو الشريف الاسبانى وتقشف الناسك ،

وبين الفردية الشديدة والتلهف على المجد بايمان ثابت فى عظمة مصيره الشـخصى » .

Francisco Garcia Calderon : «Latin America; Its Rise and Progress» (tr. from the French, London, 1915). P. 45.

(١٥) « كان لزاما على قائد الفاتحين أن يكون ، فوق كل شىء ، رجل أعمال له رأس مال وائتمان ومشروعات » .

Carlos Pereyra, «Las Huellas de los Conquistadores» (Madrid, n. d.), P. 89.

وقد أطلق سير آرثر هلبس على كورتيس «رجل أعمال بلغ حد الكمال»

«The Spanish Conquest in America» (4 vols. London, 1855), III, 10.

ويدون جرمان أرسنييجاس كشفا « بأصحاب رءوس الأموال » الآتى ذكرهم بين المستكشفين والفاتحين الأوائل : دييجو فيـلا سكيث الذى تركه كورتيس فى مازق فى كوبا ، وباستيداس وفيرنانديث دى لوجو فى شمال القارة ، وبدرو دى مندوثا فى نهر بلات ، والاخوة بنثون ظهراء وزملاء كولمبس ، وصاحب التزام شارل الخامس الألمانى .

«El Estndiante de la Mesa Redonda» (Santiago, Chile, 1936), P. 93.

وبعـد أن صرف خوان دى فاديو ٥٠٠٠٠ بيسـو ذهبـا فى تجهيز حملتـه الى داخـل كولومبيـا تركه رجـاله عنـد كالى لينضموا الى بنالكاثار ، واستمر هو متجها الى بيرو ليجرب حظه من جديد » .

Op. Cit., II. 462.

(١٦) كانت درع الكانو تتكون من كرة منقوش عليهـا عبارة « أنت أول من أتم رحلة حولى » . وقد عبر دييجو منديث ، بعد أن تحطمت سفينة كولمبس على ساحل جاميـكا الى هسبانيولا فى زورق من زوارق الهنود ، ثم سار من ساحلها الغربى الى مدينة سانتو دومنجو يطلب النجدة للأميرال . « ومكافأة له على ولائه أعطاه الملك درعا منقوشا عليها نفس الزورق » .

Op. Cit., IV, 384-5.

(١٧) انظر جارسيلاسو دى لا فيجا .

«Historia General» op. cit., II, 378. Pereyra op, cit., pp. 266-7 — Charles Edward Chapman, «Hispanic America : Colonial and Republican (New York, 1937) P. 32.

يدون أوفييدو كشفا بأسماء وموطن ٥٤ رجلا هم أول من نزل الى الأمزون • فمن استريما دورا جاء أوريانا وثلاثة غيره من تروخيو وهى مسقط رأس الاخوة بثارو ، وجاء اثنان من باراخوث ، واثنان من جهة ميديين وكان هناك ثمانية من الركن الجنوبى الغربى للأندلس ، منهم ثلاثة من بالوس وأربعة من موجير • وجاء ثلاثة من الباسك وثلاثة من أستورياس واثنان من غاليسيا واثنان من البرتغال •

Op., cit., IV, 384 - 5.

(١٨) كتب كورتيس عن حصاره لعاصمة الأزانقة يقول : « ولما رأيت الناس فى المدينة تغمرهم روح الثورة ، وبدوا مصممين على الموت كما لم يفعل شعب من قبل ، لم أعرف أى طريقة أسلك ••• لأتجنب تدمير مدينتهم كلية وهى التى كانت أجمل شىء فى الوجود » •

Ibod., II, 107.

(١٩) فلو أن جواينكابا (هواينا كاباك) هذا كان على قيد الحياة عندما دخلنا نحن الاسبانيين البلاد ، لكان من المستحيل علينا أن نأخذها لأنه كان محبوبا جدا من جميع اتباعه • »

Pedro Pizarro, «Relation of the Discovery and Conquest of the Kingdom of Peru» (tr. from the Spanish, 2 vols., New York, 1921), I, 199.

(٢٠) قتل خوان دى لا كوسا وسبعون أو ثمانون من رجاله بالأسهم المسممة عند توريباكو على خليج أورابا • وأصيب أيضا ألونسو أوخيدا وهو من أشجع الفاتحين الأوائل بسهم مسمم ، واستخدمت قطع الحديد المتوهج على الجرح لكيه •

Pereyra, op. cit., P. 170.

وأخيرا مات أوخيدا ، وهو المشهور ببسالته الجسمية ، فى هسبانيولا من جروحه ومتاعبه والشدائد التى انتابتـه • « وعندما عرف أنه سيموت ، تدثر فى عباءة راهب فرانسسكانى منهكا ومريضا وحانقا على كل المحن والحظ العاثر الذى أصابه » •

Oviedo, op. cit., II, 423.

(٢١) ترك كورتيس فى رحلتـه الى هسـبانيولا حصـانا أعرج بين هنود شـمال جواتيمالا • « وعامل الاتثـا الحصان كأنه اله ، وقدموا له الدجاج واللحم وأكاليل الزهور مما أدى الى موت الحصان على هذا اللون من الطعام • وانتاب الذعر الاتثا عند موت الاله على أيديهم ، فنحتوا صنما من الحجر على شكل الحصان وعبدوه لكى يبرهنوا على أنهم كانوا غير مسئولين عن موته » • وعثر قسيس على التمثال فى ١٦١٨ فحطمه لأنه عـده دنسا •

Sylvanus G, Morley «The Ancient Maya» (Stanford University, California, 1946), P. 123.

(٢٢) « ربما كان أعظم عمل جرىء يسجله التاريخ هو القبض على مونتسوما فى وسط بلاطه وحمله الى المعسكرات الأسبانية ، وهو أجراء مذهل فى تصوره ، ولا يمكن تصديقه فى تنفيذه بحيث لا شىء ينقله من مجال الخرافة الى مجال التاريخ سوى الجم الغفير من الشاهدين الذين تتفق رواياتهم عن هذه الحادثة ٠

F. A. Mc. Nutt, introduction, Letters of Cortés, op. cit., I, 34.

وكتب برنال دياث يقول : « الآن فلندع الفضوليين يتأملون فيما تمنا به من أعمال بطولية : أولا فى تدمير سفننا وبذلك فقدنا كل أمل فى التقهقر ، وثانيا فى دخولنا مدينة المكسيك بعد التحذيرات المرجفة التى جاءتنا ، وثالثا فى جرأتنا فى أخذ مونتسوما العظيم أسيرا ، ملك كل تلك البلاد ، وفى وسط قصره يحيط به حرسه الكثير العدد ، ورابعا فى اعدام ضباطه حرقا علنا أمام قصره وتكبيل الملك بالحديد أثناء الاعدام»

Op. cit pp. 191 - 2.

وانتشرت شهرة المهارة التى أبداها كورتيس فى سائر أنحاء العالم الجديد ٠ وفى رأى سييثادى ليون فى بيرو : « أنه كان مرآة للحكام والضباط فى الهند الغربية » ٠

«The War of Chupas», op., P. 370.

(٢٣) فى حملتــه الجريئة فى أدغال جنوب المكسيك والجزء الشمالى من أمريكا الوسطى كانت حاشيته الخاصة مكونة من « خادم ، وصراف وأمين للأدوات المنزلية ، ورئيس ادارة المنزل ، وكبير الخدم ، وصانع الحلوى ، وحاجب ، وطبيب ، وجراح ، وعدد من الأتباع ، واثنين من حملة الدروع ، وثمانية من ساسة الخيل ، واثنين من مربى البزاة ، وخمسة موسيقيين ، وراقص على المسرح ، ومشعوذ ، ولاعب عرائس ، ومعلم خيل ، وثلاثة بغالين اسبانيين » ٠

Bernal Diaz, op. cit., P. 439.

ومات الراقص تعبا وقد أنهكه المشى ٠ وكتب برنال دياث يقول : « أما بالنسبة الى موسيقيينا المساكين بآلاتهم ، الأبواق والسناطير ، فقد شعروا أنهم افتقدوا ولائم أفراح وحفلات قشتالة ، فعند ذاك توقف عزفهم الا واحدا فقط تعود الجنود أن يسبوه كلما أخذ فى الأداء قائلين انها الذرة لا الموسيقى تلك التى يريدونها » ٠

Ibid., P. 444.

(٢٤) جارسيلاسودى لا فيجا
«Historia General», op. cit., III, 103, 157.

ادعى هيرنانديث جيرون انه كان يملك قوى خارقة للطبيعة لكى تشتد سيطرته على الرجال الذين يعتقدون فى الخرافات ٠ وكان من بين حاشيته شخص اسمه فياداريس زعم أنه يقرأ « نزوع » الناس بالنظر الى وجوههم وسيماهم ، وأوركيثو وكان يحمل معه « عجلة فيثاغورس مصورة على قطعة من الورق ، وكان يسخر بها على الناس ، ولوسيا المغربية ساحرة كبيرة ادعت أن الوحى ينزل عليها » وبيسرا الكاهنة التىَ كانت تجيب عن كل سؤال ، وفاسكيث القس الذى كان منجما وعرافا ، وكان أيضا قارئا للكف وادعى أنه يتنبأ بالمستقبل « بعلامات فى اليــد » ٠

(٢٥) «The War of Chupas», op. cit., P. 280.

كتب سييثا عن الليلة السابقة لموقعة لاس ساليناس يقول :

« عندما حل الليل بقى الجميع تحت السلاح تساورهـم الآمال والمخاوف التى قد يتخيلها القارىء ، ولكن لم يحدث أبدا أن بدا من أحد الجانبين أى اقتراح لمشروع صلح ٠ وهكذا كان الحقد الذى يدفع سلوكهم » ٠
«The War of Las Salinas», op. cit., P. 196.

ويقتبس سييثا ملاحظة شيشيرون أنه « لم يعرف أبدا سلاما سيئا ، بل ان سلاما سيئا أفضل من حرب جيــدة » ٠
«The War of Chupas», op. Cit., P. 254.

ويضيف أن للسلام قوة فائقــة وفريدة لدرجة أن العــالم يتوقف عن الوجود بدون سلام » ٠
«The War of Las Salinas», op. cit., P. 1.

وفى مكان آخر يقول : « لا يجب أن يقضى الفاتحون والمستعمرون لهذه الأرجاء وقتهم فى خوض المعارك والحملات يصيد فيها بعضهم بعضا، ولكن فى الغرس والزرع ، فهما أكثر فائدة » ٠
«Travels,» op. cit., P. 402.

(٢٦) لقد امتاز وانتصر على الذين ظنوا أنهم يستطيعون السيطرة عليه ، فلم يحدث أبدا حتى فى الأيام التى بلغت قوته فيها الذروة ، أن أظهر مثل تلك السيطرة والوقار والحضرة المهيبة كما بدا يوم سجنه »٠
Garcilaso de la Vega, «H'storia General» op. cit. II. 261. See ibid, pp. 88, 98. 133, 200, 268.

(٢٧) « لقد شرحت لجلالتكم انقيصرية الحاجة الى النباتات من كل صنف ، ذلك لأن كل نوع من الزراعة قــد يزدهر هنا ، ولكن شيئا لم تمدونا به بعد ٠ وأكرر رجائى الى جلالتكم أن تأمروا بالمؤن من بيت

التجارة فى اشبيلية فلا يسمح لسفينة أن تقلع دون أن تجىء بعدد معين من النباتات التى تؤدى فضلا للسكان وتسبب رفاهية للبلاد » ٠

Cortés, «Letters», op. cit., II, 218.

(٢٨)

Garcilaso de la Vega, «Comentarios de los Incas (2 vols., Buenos Aires, 1943), II, 267.

نشرت « المذكرات » لأول مرة فى لشبونة فى ١٦٠٩ ٠ وأدخلت أشجار الزيتون فى بيرو فى ١٥٦٠ ، أدخلها أنطونيو دى ريفيرا أحد مؤسسى ليما . أحضر ثلاث اشجار بذرية من أسبانيا وغرسها فى حدائقه التى كان يبيع منهــا العنب والتين والقــاوون والرمان والبرتقــال والليمون وفواكه وخضراوات أخرى أسبانية فى ســوق ليما بمــا قيمته ٢٠٠٫٠٠٠ بيسو سنويا ٠ وكان يستخـدم العبيـد الزنوج ورتلا من الـكلاب لحراسة أشجار الزيتون ، ولكن على الرغم من كل احتياطاته سرقت احــدى الأشــجار ونقلت الى تشيلى ، وهنــاك أخــذت منهـــا براعم للغرس ٠ وبعد ثلاث سنوات أعيـدت الى ليمــا وغرست سرا فى حدائق ريفيرا ٠ ويقول جارسيلاسو انه فى الأيام الأولى كان يحتفى بكل ضيف يحل فى منزل ريفيرا وتقدم له ثلاث زيتونات ٠ Ibid., P. 271. ويروى جارسيلاسو كيف أن جارسيادى ميلو أمين الخزانة الملكى فى كثكو أرسل ذات مرة ثلاثة جذوع من كشك المــاز هدية لوالده ٠ كتب يقول : « أمر أبى امعانا فى تبجيل هذا الصنف من الخضراوات الاسبانية بأن يطهى على موقــده فى مسكنه أمام ســبعة أو ثمانيــة من السادة الذين كانوا يتناولون معه الغذاء ٠ وعندما تم طهى كشك المــاز جىء بالزيت والخل ، وصار جارسيلاسو أبى يمرر الجذعين الكبيرين يعطى كل ضيف منهما قطعة ، واحتفظ لنفسه بالثالث مستسمحا اياهم أن يكون له نصيب الأسد هــذه المرة لأن الجذوع كانت شيئا أتى من اسبانيا ، وهكذا أكلوا كشك المــاز بتهلل وابتهــاج أكثر من تناولهم طــائر العنقاء ٠ ومع أنى كنت أخدم على المائدة وأحضرت عناصر الصلصة فانى لم أتذوق شيئا منه»٠

Ibid., P. 277.

(٢٩) كان جارسيا دىليرما واحدا من أسوأ الحكام الأوائل ، وقــد ألصق به أوفييدو صفة « الظالم ذى السمعة السيئة والذى لا يطاق » ، وقد كان يضفى على شخصه أبهة الأمير العظيم ٠ وقد حوكم أمام

محكمة العدل فى سانتو دومنجو على الجرائم التى ارتكبها فى أثناء ادارته ، ومات قبل انتهاء « التمحيص ، أو بحث فترة حكمـه • وكان جبانا ، كما كان محبا للمال ، فلم يحترمه الهنود الذين كانوا يسمونه « جالينا » أى فرخـة •

op. cit., II, 351.



الفصل الخامس

الـــزنجـــى



جاء الزنوج فرادى إلى العالم الجديد، كعبيد أو خدم، مع أول فوج من الفاتحين. وقد صحب زنجى، هو انيوفيو دى أولانو، بالبو عند ما كشف المحيط الهادى. ويقال إن زنجياً آخر كان فى فريق نارفايث هو الذى أدخل الجدرى إلى المكسيك. ويحكى برنال دياث عن زنجى فيقول عنه: «إنه شخص مضحك، رقص وصاح فرحا بعد أن هزم كورتيس نارفايث: أين هم الرومان الذين أحرزوا مثل هذا النصر المجيد بمثل هذه الأعداد؟»، وعندما قام فرانسسكو بثارو يستطلع شمال بيرو ترك زنجيا مع الهنود فى تومبيس، ومعه جندى إسبانى وخنزيرة وديك وفرخة. وفى وقت لاحق، عندما قطع رأس دييجو دى الماجرو، زميل بثارو، فى أثناء الحروب الأهلية فى بيرو، كان زنجى هو الذى أخذ جثته إلى الكنيسة للدفن. وكان يصحب ألفار نونييث كابيثا دى ڤاكا فى رحلته الطويلة فيما هو الآن الجزء الجنوبى من الولايات المتحدة زنجى اسمه استيفانيكو أو «ستيف الصغير»، الذى

خدم فيما بعد كترجمان للراهب ماركوس دى نيثا رسول حملة كورونادو إلى الجنوب الغربى .

وكان الزنوج فى أثناء الفتح يستخدمون كجلادين(*) ، وكان يصحب كارباخال « شيطان الأنديز » ثلاثة أو أربعة من «هؤلاء الجنود الإثيوبيين» واستخدمهم لذلك الغرض ، وشغل دومنجو ، وهو زنجى ، وظيفة مزدوجة : جلاداً ومنادياً لمدينة سانتياجو فى أيام فالدفيا . وبعد ذلك بزمن طويل ، عند ما كان هم. ولدت فى فنثويلا كان السياف العمومى فى كومانا زنجيا(١) .

وفى الدور الأخير للحروب بين الفاتحين فى الانديز كون فرانسسكو هيرنانديث جيرون جماعة موالية للحكومة يزيد عدد أفرادها على ثلاثمائة جندى جمعهم من بيوت ومزارع سادتهم .

تجارة الرقيق

كانت تجارة الرقيق أهم بكثير من هذه الحالات المتفرقة ، وكان الرقيق يجلبون إلى الهند الغربية كعمال فى المناجم وفى المزارع وقد بدأت هذه الحركة حوالى سنة ١٥٠٢ ، أى بعد عشر سنوات فقط من الكشف . وكان الإسبانيون قد زال وهمهم بالنسبة إلى قيمة السكان الأصليين كقوة عاملة ، وأوصى الرهبان الدومنيكان . تحت ستار حماية الهنود ، باستيراد العبيد الزنوج كأخف الأثمين . ومنح تصريح فى بادىء الأمر باستيراد العبيد المولودين فى أوروبا إلى الأنتيل فى سنة ١٥٠١ فى حكم أوباندو وفى سنة ١٥١١ أحضر خمسون عبدا من إفريقية مباشرة . وبعد شىء من التردد من جانب السلطات فى إسبانيا بخصوص لياقة الإجراء ، فتحت الأبواب على مصاريعها لاستجلاب الزنوج فى سنة ١٥١٧ . وفى ذلك الوقت منحت اتفاقية احتكار(**) لفلمنكى لاستجلاب ٤٠٠٠ من الرقيق سنويا ، على أن يكون ثلثهم من النساء لأغراض الإنجاب .

وفى فترة ما كان احتكار جلب الرقيق إلى المستعمرات الإسبانية فى

(*) Verdugos : عشماوى .

(**) Asiento

أيدى أهالى جنوة وفلاندرز والبرتغال وهولندة وانجلترا ، وكان هناك فى كل الأوقات تهريب جسيم للعبيد ، وكثيرا ما كان الموظفون الإسبانيون يتغاضون عنه . يقول هاكاويت عن رحلة هوكنز سنة ١٥٦٢ : « ولما تأكد ، ضمن تفصيلات أخرى ، أن الزنوج تجارة رائجة فى هسبانيولا ، وأن ذلك المورد من الزنوج يمكن أخذه بسهولة على ساحل غينيا ، فقد صمم (هو) أن يحاول هناك » . وتبين من المغامرة أنها مربحة جدا ، وفى رحلته الثالثة باع هوكنز مائتى زنجى فى ليلة واحدة فى ريودى لاهاشا على السواحل الشمالية لأمريكا الجنوبية ، وقال : « كان السكان الإسبانيون فى كل الأماكن الأخرى التى تاجرنا فيها مسرورين منا ، وتاجروا معنا عن طيب خاطر » وفى سنة ١٥٩١ استولى كريستوفر نيوپورت ، وهو قرصان آخر من قراصنة البحار فى عصر اليزابث ، على سفينة نخاسة برتغالية أبحرت من غينيا لكارتاخينا وفوقها ثلاثمائة زنجى ، باعهم فيما بعد بنقود إسبانية من فئة الثمانية الريالات (*) . وعندما رسا وليم دامبير ، القرصان الأديب ، فى ميناء جواياكيل رأى ثلاث سفن إسبانية فى النهر وعليها ألف عبد « جميعهم شبان وشابات أشداء » ، ولم يندم إلا لأن طاقمه من الملاحين ليس بالقوة الكافية ليأخذهم عنوة إلى دارين للعمل من أجل الذهب .

وفى الوقت الذى كشفت فيه أمريكا ، كانت تجارة الرقيق الزنوج موجودة فى البرتغال منذ نصف قرن ، فقد أحضر أنطونيو جنسالفيس أول فوج من العبيد إلى لشبونة فى سنة ١٤٤١ أو سنة ١٤٤٢ ، وتكونت شركة بعد ذلك بمدة قصيرة لتمضى فى هذه التجارة مع الساحل الغربى لإفريقية . وفى مقاطعة الجارفيس إلى الجنوب من نهر تاخو (**) ، حيث كان يغلب لفترة طويلة الدم المغربى ، أدى تدفق الزنوج فى وقت لاحق إلى تغير فى المظهر الثقافى واللونى للسكان . وتأثرت لشبونة نفسها بطابع لم تفقده حتى الآن ، وهو أنها المدينة الأوروبية الوحيدة التى نرى بين سكانها عنصرا زنجيا ضخما .

(*) pieces of eight

(**) التاجة .

ووجد البرتغاليون سوقا مشترية للعبيد فى جنوب إسبانيا ، وكانت أشبيلية لفترة مركزا لهذه التجارة . وإنه لمن هذا المورد من العبيد أن الزنوج الأول نقلوا إلى العالم الجديد ومع ذلك فلم يتأصل الرق أبدا فى إسبانيا رغم أن الإسبانيين تعودوا أن يسترقوا الشعوب البيضاء . وكان فك الرقاب تطوعا أمرا شائعا ، وبدأ تحرر الزنوج المولدين من وقت مبكر يظهر فى كشوف الأشخاص المرخص لهم من « بيت التجارة »(*) ، الذى كان يشرف على التجارة والسفر إلى العالم الجديد ، بالذهاب إلى المستعمرات . ومن أمثلة هؤلاء فرانسسكو الذى استقل سفينة إلى سانتو دومنجو فى سنة ١٥١٠ . وفى سنة ١٥١٢ حصلت المولدة خوانا ، التى أعلنت أنها ابنة فرانسسكو مارتن دى كاثلا ، وأنها امرأة حرة ، واسمها كريستينا ، مع ابنتها البالغة من العمر ثلاث سنوات ، على تراخيص بالسفر إلى الجزر . ويتضمن سجل المسافرين فى السنة التالية أسماء ستة حرروا من ربقة اللون . وفى سنة ١٥٢٧ عبر الأطلنطى عبد كبير أساقفة تاراجونا مع زوجته فرانسسكا . وفى سنة ١٥٣٦ تسلم « السيد خورجى » مع زوجته ماريا لوبيث وابنهما خيرونيمو تصريحاً بالعودة إلى سانتو دومنجو حيث كان عبداً للأسقف .

وكان البرتغاليون أكثر تراخيا من الإسبانيين فى كتابة التقارير وتدوين الوثائق عن مشروعاتهم فيما وراء البحار ، حتى إن تواريخ قليلة عرفت عن جلب الرقيق إلى البرازيل فى أول الأمر . أضف إلى ذلك أنه فى فترة تحرير العبيد فى سنة ١٨٨٨ دمر أنصار تحرير العبيد جميع السجلات الموجودة عن تجارة الرقيق التى أمكنهم العثور عليها فى باهيا وريو . وأول عبيد جلبوا من إفريقية رأسا وصلوا إلى البرازيل فى سنة ١٥٣٨ ، حيث أثار ذلك احتجاجات الأب نوبريجا المشهور . وطبقا لرواية زميله اليسوعى الأب أنشيتا كان هناك أكثر من ١٤٫٠٠٠ عبد فى البرازيل عند حلول سنة ١٥٨٥ ، وهى السنة التى بلغ فيها عـدد السكان غير الهنود فى المستعمرة حوالى

(*) Casade Contratacion

٥٧،٠٠٠ . ومنذ ذلك الوقت نمت التجارة بانتظام حتى توقفت بالأمر العالى الإمبراطورى فى سنة ١٨٥٠ . وفى الأربعين السنة بين ١٧٥٩ و ١٨٠٣ جلب ٦٤٢،٠٠٠ زنجى من أنجولا وحدها . وفى ذلك الوقت كان سكان البرازيل الملونون يعدون بالملايين ، وكانوا يكونون أكبر تجمع للسود فى نصف الكرة الغربى .

وجاء العبيد من المراكز التجارية البرتغالية التى امتدت من فورتى دى إل مينا وساو جاو دى أجودا (هوايدا) على ساحل غينيا ، ثم حول الرأس (كيب) إلى موزمبيق . وإذا أخذنا الناحية العددية فى الاعتبار كان المورد الأساسى للعبيد هو سلالة البانتو الشاسعة الانتشار فى وسط وجنوب إفريقية — فى الكنغو وأنجولا وموزمبيق حيث كانوا يسمون بأسماء الأقاليم التى كانت مسقط رأسهم(*) ونظراً إلى ما تحلوا به من الوداعة والأمانة كانوا يطلبون بصفة خاصة للعمـــل فى الحقول . وكان عليهم طلب شديد فى برنامبوكو(**) ومارانيا ووريو . وكانت باهيا تفضل دائما الزنوج الجائين من السودان الغربى ، إلا إذا كان المطلوب أن يؤدى العبد خدمات عادية ، أو من القبائل فى الأراضى الداخلية لساحل غينيا . وكان زنوج هذه المساحة الشاملة أكثر ملاحة وذكاء من عبيد البانتو . ومع ذلك فقد كانوا عادة أصعب انقياداً . وبعضهم كقبائل الهوسا والفولانى(***) المتعالين لا يمكن أن يؤخذوا أبداً قضية مسلمة ، ومن باب أولى تساء معاملتهم . وكان البرتغاليون فى باهيا يفضلون بصفة خاصة قبائل اليوروبا السودانيين الذين اشتهروا بالعمل الجـــدى وكانوا أحسن مزاجا من معظم الشعوب

(*) Congos; Angolas; Mozambiques.

(**) الآن رسيفى .

(***) يلاحظ أن الفولانى قبائل حامية بيضاء . ولعل المؤلف قد التبس عليه الأمر فضمهم الى الهوسا زنوج نيجيريا المشهورين .

الأخرى فى ذلك الجزء من القارة الذى كان يشمل الأشانتى والداهومى وكذلك الماندنجو المسلمين .

وبحلول سنة ١٦٠٠ كان العبيد الزنوج العامل الأساسى فى الاقتصاد الاستعمارى فى مساحات كبيرة[٢] . وكانت هذه حقيقة تتجلى بصفة خاصة فى الأقاليم التى تغلب عليها الأحوال المدارية . فحيث كان ينمو قصب السكر ، كما فى شمال البرازيل ، وفى أودية الساحل البيروفى التى ترويها الأنهار ، وفى أرضى المكسيك الحارة(*) ، وفى سانتودومنجو ، كانوا هم الأيدى العاملة التى لا يمكن الاستغناء عنها . وفى كوبا كان الزنجى عاملا جنسيا على درجة بالغة الأهمية . ولما كانت كوبا آخر مستعمرة إسبانية نالت استقلالها فقد تحصنت لفترة طويلة ضد المؤثرات التحررية التى أفاد منها الرجل الملون فى الجمهوريات . ولما كان أساس اقتصادياتها هو السكر فقد كان اعتماده غير العادى على الأيدى العاملة الزنجية . وفى وقت لاحق عندما ثبت أن الأيدى العاملة التى يمكن الحصول عليها محليا لا تتكافأ وحاجة الصناعة العظيمة ، فقد استلزم ذلك جلب السكان من هاييتى إلى البلاد أثناء فصل جنى محصول القصب(**) .

ولا يميل الهندى ، وينطبق ذلك على الإسبانى بدرجة أكبر ، إلى الركون إلى العمل المضنى فى حقول القصب . وفى السهل الساحلى لشمال بيرو ، ومنه صعوداً فى الأودية التى تتخلل سفوح الأنديز ، حل الزنجى من قديم محل السكان الهنود الأصليين ، كما فعل ذلك لفترة طويلة سابقة فى الجزر . وعلى الرغم من أن الزنجى كان خارج عنصره الطبيعى فى المناخ

(*) Tierra Caliente أى الأراضى المنخفضة التى تزداد حرارتها تبعا لذلك . وتسمى أيضاً الأراضى ذات المحصولات المدارية .

(**) Zafra

البارد الذى يميز الجبال العالية ، فإن كثيراً منهم استخدموا فى المناجم ، وخصوصاً فى كولومبيا .

وبينما كان للزنجى فى كل الأوقات أنصار من بين رجال الدين ، وحتى من بين العلمانيين ، كانت الفرق الدينية مؤلفة من بين كبار سادة العبيد . وفى القرن السابع عشر قام توماس جيدج ، الدومنيكانى الإنجليزى، بزيارة ممتلكات كبيرة تابعة لإحدى الفرق فى إقليم شياپاس فى جنوب المكسيك حيث كان يعمل « ما يقرب من مائتى زنجى » فى حقول القصب وطواحين الغلال . وبالقرب من بويبلا رأى عددا مماثلا من الزنوج فى ضيعة تنتمى إلى فرقته . وتلاقت سفينة إنجليزية باثنتين برتغاليتين تبحران من مصب نهر بلات فى سنة ١٥٨٧ ، وتحملان معا ثمانين عبداً زنجياً يساوون فى ذلك الوقت ٤٠٠ دوكات(*) للواحد فى بيرو ، وحمولة كبيرة من كتب دينية وأدوات أخرى وأربعة أو خمسة رهبان ، منهم راهب أيرلندى وأربع نساء برتغاليات . وكانت السفينتان والحمولة قد اشتراها عميـــل لأسقف توكومان فى البرازيل ، وكان فى ذلك الوقت يبنى ديرا . وكتب الأب جرڤاسونى اليسوعى تقريراً فحواه أنه فى سنة ١٧٢٩ كانت الكلية التابعة لفرقته فىبوينس أيريس بها أكثر من٣٠٠ عبد . وقدر أنه فىذلك الوقت كان ثلثسكان المدينة البالغ عددهم ٢٤,٠٠٠ منالعبيد الزنوج . وفىالسنوات الأخيرة من نفس القرن كتب كشكولوركورڤو « الإنكا » المتجول أنه شاهد فى كوردوبا مزادا لألفى شخص أسود من ضيعتين تابعتين لكليتين دينيتين ، وكانوا يباعون أسراً أسراً . ومنهم كان يوجد كثير من الموسيقيين وآخرون ذوو مهارات خاصة . وكان لراهبات سانتا تيريزا مزرعة مجاورة فيها ٣٠٠ عبد . وكانت بعض الأسر تمتلك ثلاثين أو أربعين عبداً يخدمون

(*) Ducat عملة أوربية قديمة ذهبية تعادل ما يقرب من نصف جنيه . وكانت فى إيطاليا دوكات فضية ذات قيمة أقل .

فى داخل المنازل . ويضيف الهندى اللوذعى تلميحا إلى أن النساء العبيد اشتهرن بغسل الملابس . وكتب سارمينتو ، وكان ضد الكهنوت ، بعد ذلك بفترة طويلة يقول عن نفس المحلة : «كان لكل دير ومنسك للعبادة ملك ملاصق ، فيه يربى ثمانمائة عبد تابعين للفرقة من الزنوج والثامبو(*) والمولدين» . وقد وصف الرئيس الأرجنتينى الوقح النساء المولدات الصغيرات السن قائلا : «عيون زرق ، وشعر أشقر ، وحركة متثاقلة ، وأرجل ملمعة كالرخام ، شركسيات(**) والله ، وهبن كل المحاسن التى تلهب العواطف البشرية ، كل ذلك للشرف العظيم والفائدة التى يجنيها الدير الذى تنتمى إليه هؤلاء الحوريات» .

وفى العقود الأخيرة للعصر الاستعمارى قام بعض المراقبين الأجانب والأوروبيين بعمل إحصاء للتركيب الجنسى للسكان ، ويظهر أنهم انتهوا إلى تقديرات موثوق بها عن العناصر التى يتألفون منها . وفى بدء القرن التاسع عشر كانت غالبية سكان البرازيل وكوبا وسانتو دومنجو زنوجا أو مولدين . وفى ذلك الوقت قدر العبيد فى فنزويلا بـ ٧٢٫٠٠٠ والمولدون بـ ٤٠٠٫٠٠٠ أو حوالى ٧٤٪ من سكان منطقة الحاكم العام . وكان فى البرازيل فى سنة ١٧٩٨ ، ٣٫٢٥٠٫٠٠٠ منهم ٤٠٦٫٠٠٠ محررين ، ١٫٥٨٢٫٠٠٠ عبيداً ، ومن هؤلاء ٢١١٫٠٠٠ مولدين ومن تقرير رسمى عمل بعد ذلك بعشرين سنة تبين أن مجموع السكان بلغ ٣٫٨١٧٫٠٠٠ ، وعدد المحررين ٥٨٥٫٠٠٠ والعبيد ١٫٩٣٠٫٠٠٠ ، ويشمل هؤلاء ٢٠٢٫٠٠٠ مولدين . وتناقص عدد الأشخاص المقيدين تحت بند «مولدين» يمثل نزوع المولدين الذين فى دمهم ثمن الصفات الزنجية ،(***) والمولدين الأكثر بياضا الذين فى دمهم ربع

(*) Zambo : مولد من أب زنجى وأم هندية أو العكس .

(**) نسبة إلى بلاد الشركس (الجركس) غرب القوقاز .

(***) Octoroons (octaroons)

الصفات الزنجية(*) إلى الاختفاء تحت بنـــد البيض . وهذه عملية تتزايد باستمرار بالسيولة الإثنوجرافية التى يتصف بها سكان البرازيل . وقد قدر الكسندر فون همبولدت ، الذى أمضى بضع سنوات فى أمريكا الإسبانية فى هذه الفترة ، السكان السود فى جزر الهند الغربية بـ ١٠١٣٠٠٠٠ شخص منهم ٢٣٠٠٠٠ كانوا عبيداً فى كوبا . وعلى أساس البيانات التى قدمت إلى برلمان قادس يقدر همبولدت عدد ١١٤٠٠٠ للسكان الأحرار « الملونين » فى تلك الجزيرة . ومع ذلك فلم تكن نسب الدم الزنجى ذات بال فى تشيلى وكستاريكا وباراجواى ، ولا فى المدن الجبلية مثل بوجوتا وكيتو وكشكو وبوتوسى . أما فى المدن الساحلية من فيرا كروث ، ثم بتقوس ماربكارتا خينا وباهيا وريو دى جانيرو وبوينس أيريس وليما وجوا ياكيل إلى بنما ، فكان السكان الزنوج والمولدون أغلبية فى كل مكان فيما عدا فالباراييسو .

الزنجى فى البرازيل

ليس هناك مكان ما ، اللهم إلا الطرف الغربى لهسبانيولا ، أثر فيه الزنجى على شكل الحضارة تأثيراً عميقا كما حدث فى شمال البرازيل . ولم يكن هذا بسبب ضغط أعداده فقط ، بل أيضا إلى قوة التقبل التى يتصف بها سادته البرتغاليون . فالبرتغاليون ، بخلاف الإسبانيين كانوا من أكثر الشعوب مرونة تشكيل .

وفى الوقت الذى تكفلت فيه البرتغال باستعمار البرازيل كانت قد نشرت القسم الأنشط من سكانها القليلين ، بكثافة قليلة ، فوق مساحة شاسعة فى مغامراتها فى آسيا . وكان معدل الوفيات فى التوسع الاستعمارى البحرى

(*) Quadroons . وإلى القارىء طبيعة عملية التهجين : أبيض + زنجى = مولد / أبيض + مولد = كوادرون / أبيض + كوادرون = أوكتورون .

عاليا جداً . وشعر البرتغاليون وقتئذ بالحاجة إلى الحفاظ على قوتهم البشرية المتداعية . وبعبارة موجزة كان هدفهم التقليل من الظروف التى تعرضهم للأخطار الحتمية التى تستلزمها الريادة المدارية . وبوصف كونهم متعهدى أعمال فى نظام إنتاج المزارع المدارية الكبير ، كان عليهم أن يبحثوا عن أيد عاملة رخيصة ومتوافرة . وقد تأكدوا من قبل من عدم لياقة هنود الغابة لغرضهم هذا ، وعلى ذلك فقد اتجهوا إلى العبد الزنجى الذى كان مألوفا عندهم فى البرتغال .

وعمل الزنجى فى حقول القصب ومعامل السكر . وعمل حداداً ، ونجاراً ، وميكانيكيا عاما فى جماعة «المنزل الكبير» المكتفية ذاتيا . وكان مجال أعماله فى المدن التى نمت على طوال الساحل يشمل جميع الحرف اليدوية تقريبا ، الحقيرة والحاذقة ، من حمال ومتعهد شحن وتفريغ سفن ، إلى خياط وحلاق . وكان يرتدى الملابس المزركشة وبذلك كان يكون جزءا من حاشية سيده فى جيئاته وروحاته حول باهيا وأولندا . وتكاثرت فى بيوت الوسية جماعة صاخبة ثرثارة من النسوة السود العبيد فى ترتيب هرمى مفكك من ناحية الأعمار والمهارات والمسئوليات ، مع الطباخة والخادمة الخصوصية «لسيدة البيت»(*) فى أعلى مراتب النفوذ والهيبة . وكان أطفالهن العراة ، والذين لا رادع لهم ، يتسللون باستمرار دخولا وخروجا ليزيدوا من الطنين والفوضى – والسرور – التى كانت تصدر من خدم المنزل العاجزين والمتزايدين العدد باستمرار .

ويرى البيض أن من أكثر أطوار الرق إفسادا للآداب الطور الذى كان يمثله فى البرازيل «العبد المتكسب» ، والذى كان له أيضا نظير فى مدن المستعمرات الإسبانية . وهذا العبد كان يؤدى شتات الأعمال فى المدينة .

(*) Donna de Casa

فى بعض الأحيان إذا كان العبد عاملا غير حاذق فلربما عمل حمالا أو عمل فى تحميل وتفريغ السفن أو حتى فى أعمال الخدم الحقيرة . وفى بعض الأحيان قد يكون على قدر مطلوب من المهارة ، وبذلك تزداد مكاسبه بالتالى . وفى كلتا الحالتين كان يطلب منه أن يسلم سيده مبلغا ثابتا فى نهاية كل يوم ، فإذا جاء بفائض فوق هذه « الحصة » فقد كان هذا الفائض من نصيبه هو عادة . وكثير من مواطنى باهيا وبرنامبوكو(*) من كان فى مقدورهم تدبير رأس مال كاف لشراء عبد أو أكثر عاشوا فى بطالة على دخلهم من هذا المورد . ومن بين هذه الطبقة من سادة العبيد الصغار زنوج كانوا عبيداً من قبل .

وعلى الرغم من أن كثيراً من مظاهر مجتمع الرقيق هذا يشبه النظام الذى كان سائدا فى جنوب الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية فإن الاختلافات كانت كثيرة وعظيمة الأثر . ومن المؤكد أن حظ الزنجى فى البرازيل كان أحسن بكثير . فلم توجد جهة فى العالم ، حيث كان السود يعملون كعبيد ، فيها كانوا يعاملون بقدر أكبر من الشفقة أو تنتهك الروابط فيها بأقل قدر [٣] فقد كان المزارع البرتغالى بصفة عامة متراخيا لدرجة لا يمكنه معها أن يكون قاسيا . وكانت العلاقة الشخصية بين السيد والعبد وثيقة جداً ، لا يشوبها زهو الجنس ولا التعصب اللونى . لأن البرتغالى كان قد هيأ نفسه ضد التعصب الجنسى لمدة قرون من التجارب بمعيشته مع الشعوب الدكناء . وكان البرتغاليون الجنوبيون وبصفة خاصة سكان الجارفيس والميتيجو مولدين بدرجة واضحة من ممارسة التزاوج المختلط مع المغاربة فى العصور الوسطى . وفى القرن السابق لاستعمار البرازيل أضاف العبيد الزنوج عنصرا إثنوجرافيا آخر إلى التهجين الموجود ليمتصه مجرى الدم ومجتمع البرتغال الزائد الترحيب . وفى غضون تلك الأثناء كانت

(*) رسيفى

مغامرات البرتغاليين فى الشرق قد وسعت اتصالاتهم بالشعوب الملونة الذين أظهروا نحوهم نفس سعة الصدر وسماحة الكاثوليكية ، سواء أ كانوا من التاميل الغبش الذين يقطنون ساحل ملبار ، أم الملايو السمر الذين يقطنون الجزر .

واستمرت عملية التهجين فى البرازيل لا تعوقها تحاريم أخلاقية أو تقاليد اجتماعية لانبثاق جنس جديد [٤] . وساعد على هذه العملية مجموعة من الظروف : شدة العاطفة عند الذكران البرتغاليين ، الإثارة التى يسببها المناخ المدارى ، حرية المجتمع الجديد الذى صاغ هو له قواعد السلوك ، النقص فى عدد النساء من بنى قومه بين المستعمرين الأول ، الفتور النسبى الذى اتصفت به المرأة البرتغالية المكبوتة والمحجوبة إلى درجة زائدة ، الامتثال السهل ـ أو الاستسلام ـ من جانب الزنوج ، الإغراء العاطفى للكوادرون والأوكترون الذين تميل بشرتهم إلى البياض كلما توالت مراحل التهجين للإسراع من فورة خلق جنس شيئا فشيئا . وكانت الأداة المفضلة فى عملية التهجين هى المرأة «الزرزور» (*) الجائية من السودان ، بسنائها وذكائها وكفايتها وتوددها ، فى دورها المزدوج الذى كانت تقوم به كسيدة ومدبرة شئون المنزل لكثير من رجال وشبان المستعمرة العزاب [٥] وكذلك النساء الأدنى مرتبة الجائيات من الكنغو وأنجولا ، فقد ساهمن كثيراً فى طهو « التورلى » (**) الذى كان يشكل منه الشعب البرازيلى .

وقد أدى الاختلاط الكبير خدمة غير مقصودة لفن السياسة ، لأنه خلق شعباً حيث لم يكن هناك شعب [٦] وبدت الحاجة ماسة إلى عدد من السكان أكبر من طاقة البرتغال ان تورده لملء الفراغ السكانى

(*) Mina (minah, myna) طائر

(**) Olla podrida

فى الفيافى البرازيلية . وكان خصب المرأة الزنجية ، وساعد الرجل الزنجى القوى ، وقوة احتماله وصبره ، هى التى ساعدت البرتغال على البقاء والنهوض بشمال البرازيل والسهل الساحلى الذى منع الاتصال بالمرتفعات الداخلية من البحر فى جنوب المستعمرة الشاسعة . فلولاهما ربما تمكن الفرنسيون والهولنديون من أخذ البرازيل من البرتغاليين .

ووائم الزنجى نفسه بسرعة لمطالب حياته فى البرازيل . فقد كان فى وطنه فى وهج الشمس[٧] وكان طعامه بسيطا ، وعلى الرغم مما كان ينقصه من تنوع ، فقد كان غذاء أفضل مما كان يتناوله سيده . ومن وجهة النظر الفيزيقية نجده قد ترعرع فى بيئته الجديدة . فقد تخلص من ربقة أصوله الثقافية فى إفريقية ولقد باعه بنو قومه أنفسهم كعبد رقيق ، وكم قاسى من محنة عبوره المحيط فى عنابر سفن العبيد المكتظة . فلا عجب إذا بدا فى بعض الأحيان مفكرا مكتئبا . ولكن روحه كانت بطبيعتها مرنة إلى درجة أنه فور شفائه من آثار « المعبر الوسيط » (*) وفور مضيه فى نغم وروتين وجوده الجديد ، كان على استعداد للانتفاع إلى أقصى حد من بلاد بعيدة عن كونها أردأ ما يمكن من بلاد . وحيثما كان ، فقد أشع روحا مرحة للحياة على حافة الغابة العظيمة (٨) . واستسلم البرتغالى للكآبة العاطفية ، فجاء الزنجى وأخرجه من كآبته العابسة بضحكه وأغانيه . ولا يزال تأثيره ينفذ من موسيقى البرازيل التى تختلف اختلافا كثيراً عن الأنغام الحزينة التى تتميز بها الموسيقى الشعبية البرتغالية ووضع نمط الاحتفالات للبرازيل ، وعلى الرغم من المهرجين (**) والراقصات (***) بين الطبقة الارستقراطية من المحتفلين ، فإن مهرجان ريو ، وهو أعظم مهرجانات العالم ، من صنع خلاعته الهمجية .

(*) Central Passage

(**) Pierrots

(***) Columbines

ومع أنه جاء إلى العالم الجديد وليس عليه سوى سروال من قماش ، فقد أحضر معه فى رأسه الأسود جميع المدخر من أساطيره الشعبية ومجموعة من الخرافات وأحاديث الجن وطقوس الغابة الدينية . وكما فعلت الثقافات المتماثلة فى الشمال : الفودون أو الفودو فى هايتى والنانييجو فى كوبا ، أعطت الماكومبا أو الكاندومبلى فى البرازيل شكلا ومعنى مألوفين لارتباطاته بالقوى الخارقة للطبيعة التى ملأت زوايا عقله البدائى . واختلط «بخرافاته» الخاصة به ما اقتبسه من عبادة الهندى للطبيعة وأساطيره الزاخرة . وأحضر الهوسا وقبائل أخرى من السودان الجنوبى معهم عقيدتهم الإسلامية ومعرفتهم بالقرآن الكريم .

وقبل الزنجى الدخول فى المسيحية رضا كما فعل الهندى . وتقبل منها ، كما تقبل الهندى ، ما كان فى مقدوره فهمه وما كان يلائم روحه البسيطة — المسيح (*) ، السيدة مريم (**) ، القديسين ، الطقوس الدينية البهيجة التى تتصف بها الكنيسة الكاثوليكية وتعلم أصول الدين بالأسئلة والإجابة عنها ، ولكن لم يكن فى وسعه فهم علم اللاهوت . وكانت الكنيسة تهتم كثيرا بإقباله على الدين ، وشجعه سادته البرتغاليون على تعلم مبادىء العقيدة الأولية . ولم يتوقع أى إنسان منه سواء أكان قسيسا أم سيداً أكثر من ذلك . وكان معظم اهتمام الجزويت ، وهم قوة كبيرة فى المستعمرة ، ينحصر فى تخليص الهندى . أما الخدمات التى كانت تؤدى للزنجى فقد تركت للقسيس الذى كان يرعى «البيت الكبير» ، والذى لم يكن قابلا لأن يصبح عالما متضلعا أو مستمسكا بالتعاليم . وفى هذا المجتمع الذى اتخذه دينه بالسهولة التى قبل بها حقائق الاختلاف الجنسى أضاف الزنجى إلى مسيحية البرتغال الوديعة دفئا وحسية خاصين به . وفى وقت لاحق أخذ يلطف من مراعاة

(*) the Bom Jesus

(**) المادونا: The Madonna

العقيدة و يقربها من الوثنية ، وقد اتصفت من قبل باللين والتسامح اللذين فاقا كل المذاهب الأخرى فى البلاد المسيحية .

وكان تحرير العبيد فى البرازيل فى تزايد(٩) . ولم يحدث وسط شغب ولم تصحبه حرب أهلية وما يتبعها من عقاب وتأديب كما حدث فى الولايات المتحدة . ففك الرقاب كان صفة أصيلة فى طبيعة الرق البرازيلى ، وكانت عملية التحرير فى الواقع معاصرة لتاريخ النظام نفسه . فقد كان الباب إلى الحرية نصف مفتوح دائما أمام العبد ، وكانت هناك مناسبات وحجج كثيرة أساسها العرف والقانون الإنسانيان ، لفتحه على مصراعيه .

وكان السيد عادة يحرر أطفاله المولدين إذا لم يكن فى أبوتهم أى شك . وقد جرت العادة كذلك أن يحرر عبدا محبوبا لديه فى احتفالات عائلية خاصة ، كالاحتفال بميلاد ، أو تعميد ، أو عقد قران ، أو عيد ميلاد السيد أو إجازة دينية(١٠) . وكان فى استطاعة العبد شراء حريته بأن يقدم لسيده الثمن الذى اشترى به فى الأصل ، أو يسترجع حريته فى بعض الأحيان بدفعه على أقساط . وكان الأطفال الذين يولدون من عبد زنجى وامرأة محررة يولدون أحراراً ، وأى عبد ذكرا كان أم أنثى له عشرة أطفال ، أو حتى أقل من عشرة أطفال ، يمكن أن يكون حراً . ولم يكن من العسير على عبد يعيش فى المدينة ويكون مجدا ولديه قدر من المهارة أن يدخر ما يساوى الثمن الأصلى الذى اشترى به . وبجانب أيام الآحاد كان هناك من الأيام ما يقدر بأربعة وثمانين يوما إجازة ، دينية ورسمية ، كان وقته فيها ملكا له . وإلى هذا الحد ، ربما كان للرق فى البرازيل نظام العبودية بالاتفاق الذى كان سائداً فى المستعمرات الإنجليزية ، وبمقتضاه كان الخادم الأبيض يعمل بما يساوى أجرة سفره إلى العالم الجديد . وأخيراً كان هناك دائماً من سادة العبيد من كانوا يعارضون حق الاسترقاق بالضمان ، والذى كان الضامن فيه يصبح فى حل من التزاماته مراعاة للضمير .

وإنه لمن هذه الفئة أن جاء بعض الدافع لحركة إلغاء الرقيق فى القرن التاسع عشر، ولو أن كثيرين من أعضاء جمعيات الإلغاء لم يكونوا مالكين لعبيد، كما كانت الحال فى الولايات المتحدة. وانطبق هذا بصفة خاصة على فريق أنصار الإلغــاء فى الولايات الجنوبية الامبراطورية، حيث كان اقتصادها يزداد اعتمادا على الأيدى العاملة الحرة. فلم يعول أنصار الإلغاء فى القرن الماضى عتق العبيد فحسب، بل إنهم عملوا على تحرير العبيد فى البرلمان الإمبراطورى وفى بلاط الأسرة الإمبراطورية التى كانت سريعة التأثر بالدوافع الإنسانية.

ولقد كانت هذه المجموعة القوية والدافعة بإلحاح هى التى مهدت الطريق، بسلسلة من الإجراءات السياسية، إلى تحرير العبيد النهائى لجميع من بقى فى الرق منهم فى سنة ١٨٨٨. وبناء على التحرير الإجبارى لجميع الأطفال الذين يولدون من أمهات إماء، فإن تحرير كل العبيد تلقائيا عند بلوغهم سن الستين، وإلغاء تجارة الرقيق، قد قضى على الرق على اية حال قبل أن تصدر نائبة الملك، الأميرة ليوبولدينا، المرسوم النهائى بتحرير العبيد.

وعلى الرغم من أن مركز الزنجى لم يكن ميؤوساً منه فى وقت ما، فقد كان عبــداً، والعبودية فى أحسن حال لها، كما كانت فى البرازيل لم تزل عبودية. وكان وقع الاستعباد ثقيلا على نفس العبيد الذين طبعوا على الزهو وعلى الشعور المرهف. وهرب كثير منهم متوغلين فى الأراضى الخلفية حيث كانوا بعيدين عن متناول الصيادين العاديين للعبيد الفارين، وقد كان هؤلاء أنفسهم عبيداً محررين أحيانا، ولكنهم كانوا عادة من المنبوذين. وفى القرن السابع عشر كون عدد كبير من العبيد الآبقين ما يسمى بـ « جمهورية بالماريس » بجميع أجهــزة الدولة ذات السيادة، السياسية والدينية. وكان قرب هذا المجتمع من اللاجئين زائداً

لدرجة كانت تغرى العبيد الآبقين ، مما جعل الناس يستغيثون بجميع رجال السلطة الحربية فى الشمال ضدها. ولم تدمر إلا بعد مقاومة طويلة حين جىء برجال الحدود (*) من مقاطعة بوليستا فى الجنوب واندفعوا أمام المتاريس. وفى العقود الأولى من القرن الماضى حدثت سلسلة من ثورات العبيد فى الأقاليم الساحلية خصوصا فى سهل باهيا (**) . وكانت القيادة عادة فى أيدى الهوسا المتغطرسين أو زنوج « المينا » الآخرين ، ولكن ثوراتهم جميعا أخمدت بقسوة . وبينما كانت ثورات العبيد هذه بلا نتيجة ، فقد ساعدت على تقوية سواعد أنصار الإلغاء فى الإمبراطورية بالتوكيد على المظاهر القاسية والظلم المتأصل فى نظام الرق .

وجاء استكمال دور التحرير ضربة ثقيلة للنظام الاقتصادى والاجتماعى الذى كان سائدا فى شمال البرازيل وعلى الرغم من أن بعض المحررين الجدد ، خصوصا من كبار السن ، قد فضلوا البقاء فى أراضى سادتهم الأول كأجراء ، فإن العلاقات القديمة قد انفصمت عراها كثيرا ، إلا حيث كانت قوة الاستمرار والعادة قد أكدتا سيطرتهما فلم تدعنا للانفصام . ونزح كثير من الزنوج فور تحريرهم إلى المدن ليضخموا أحياءهم الفقيرة وليخلقوا مشكلات اجتماعية جديدة ، أو أخذوا فى التجوال دون هدف فى البلاد ليضيفوا إلى مشكلة البرازيل المزمنة ، ألا وهى مشكلة السكان الرحل .

وبدافع الحرية الجديدة وما شجعته من حرية التحرك ، ازداد التهجين سرعة وكان الاتجاه إلى الامتصاص النهائى لشتى العناصر الإثنوجرافية فى جنس واحد من القوة بحيث لا يمكن مقاومته من جانب الارستقراطية البيضاء القديمة ، وأيضا بحيث لا يمكن لبعض أفرادها أن يتباهوا بأنهم من

(*) Paulista fontiersmen

(**) Bahian Reconcavo

نسب غير منقطع من سلالة البرتغال . وتقبل البرتغاليون على كره منهم أن يسلموا بوجود « مشكلة جنسية » متوترة فى البلاد ، بل إنهم حاولوا جاهدين أن يجدوا سبباً معقولا لوضع لم يستطيعوا تلافيه إذا هم أرادوا . وإذا أخذنا بنظرية أن الاختلاط الذى لاقيود له قد يمحو فى النهاية الصفات الجسمية الخاصة للأجناس الثلاثة التى يتكون منها السكان ، فقد كانوا ينزعون إلى اعتبار « تبييض » (*) لون البشرة بين السكان مثلا قوميا أعلى(١١) . وقد تؤدى بنا ملاحظة تفتح سحنة البرازيلى فى القرن الأخير شيئا فشيئا إلى إثبات هذا الافتراض . وبعبارة أخرى يدافع البرازيليون بأنهم يربون الزنجى بوصماته الخاصة تربية تخرجه عن جنسه . فهم لا يريدون أقلية جنسية فى بلادهم لتعكر صفو سلامهم الداخلى .

وفى هذه الأثناء يشعر الدخلاء فى البرازيل بعدم وجود التوترات التى توجد فى البلاد الأخرى حيث يعيش الزنجى والأبيض جنبا إلى جنب . فلا يوجــــد تمييز « جنسى » بالنسبة إلى الرجل الملون(١٢) . وينزع البرازيليون إلى تجنب ذكر كلمة « زنجى » أو حتى كلمة مولد ، ويلجأون إلى اصطلاحات أحب إذا تحدثوا عن أناس من أصل إفريقى .

وإذا كان هناك قدر ضئيل من التعصب الجنسى فهناك تمييز لونى فى البرازيل . وأساسه اقتصادى أو اجتماعى ، لأن الزنجى أو المولد الداكن اللون قابل لأن يكون فى مستوى معيشى أقل من البرازيلى الأبيض أو السليل النهائى لعملية التهجين ذى السحنة الفاتحة . فقد تكون بينه وبين البيض جفوة كالحد الذى يعين الفقر عند البيض . فإذا راعى أصول التربية الجيدة التى يقدرها البرازيليون كثيرا ، وإذا نجح فى التغلب على الصعاب التى

(*) branquemento

أحاطت بجماعته ، و نال قسطا من التعليم ومركزا محترما فى إحدى الوظائف فإن معظم أبواب المجتمع تتفتح أمامه .

وقد نال كثير من المولدين حظاً من الشهرة ومراكز مرموقة فى البرازيل . فما شادو دوى أسيس ، روائى البرازيل الكلاسيكى العظيم ، ولد من أب برتغالى وأم زنجية فى أحياء ريو الفقيرة .

ومن الشعراء جنسالفيس دياس وكاسترو ألفيس ، وأولافو بيلاك والصحفى ، ومن أنصار الإلغاء جوسيه دى پاتروسنيو ، والمهندس أندريه ريبوساس ، ورئيس الجمهورية نيلو بيسانيا ، والسيناتور وفايكونت الإمبراطورية فرانسسكوجى أكابايا دى مونتسوما . ومن أشهر المولدين البرازيليين المهندس المعمارى والمثال اللامع أنطونيو فرانسسكو لسبوا واسمه الأشهر اليجادينو . وعلى الرغم من أن الجذام أقعده فقد صمم وزخرف كثيرا من كنائس ميناس جيرايس ، وأنشأ مدرسة للفن الاستعمارى تشاهد أحسن نماذجها فى العاصمة القديمة المشهورة أوروبريتو .

وليست البرازيل جنة للملونين . ويحتمل أن يكون التعصب فى تزايد فى الجنوب المكتظ بالسكان والذى يمر بمرحلة تطور وتنمية . ففى ساوپاولو التى تنمو بسرعة فائقة يرى الناس أن العامل الملون النازح من الشمال على درجة من البطء لا تتمشى وسرعة خطاها ثم إن بعض الأوساط ذوى النفوذ لديهم حساسية للرأى الصواب الذى يأتى به الأجانب الذين يجيئون إلى البلاد ومعهم تعصبهم الجنسى . فالفنادق الفخمة التى تهتم بالحركة السياحية تميل إلى وضع حدود عند اللزوم ، كما لا يزال سلاح الضباط فى البحرية يجندون من طبقة البرازيليين البيض .

الزنجى فى المستعمرات الإسبانية

كان استرقاق الزنوج فى المستعمرات الإسبانية فى حاجة إلى قدر من صفة الرفق التى كانت القاعدة فى البرازيل ، حيث كان ينزع إلى التكفير عن الظلم الذى استلزمه النظام . ولم ينجح الإسبانى ، بصفة عامة ، فى إقامة علاقة حميمة كالتى كانت توجد بين السيد البرتغالى وعبيده . وكان مجتمع العبيد دائما أقل أمانا وأقرب إلى الانفجار . فلم يكن الإسبانى قد وطد نفسه من قبل على العيش مع الزنجى ، كما كان البرتغالى باتصالاته الطويلة مع شعوب السواحل الإفريقية . وعلى الرغم من تسامحه الجنسى فقد كان يضمر نحوه استعلاء فى الأصـــل كان قابلا لإثبات وجوده إذا تحدى احد سيادته . وكانت هناك إثارات أخرى خاصة بالمجتمع الإسبانى . قد خلق استخدام العبيد الزنوج فى عمل المناجم الشاق وضعاً قابلا للاشتعال كان يؤدى فى بعض الأحيان إلى التمرد أو الفرار الجماعى . وكثيراً ما كان قطاع الطرق الأغراب يفيدون من تبرم العبيد الزنوج ، وحولوا حفيظتهم ليستخدموها ضد سادتهم الإسبانيين ، فقلما كان فى مقدور الإسبانيين أن يتأكدوا من إخلاص هذا العنصر العديد فى السكان . أضف إلى ذلك وجود مجموعات كبيرة من الهنود الوديعين بجانب الزنجى فى إسبانيا الجديدة وبيرو ، مما عقد العلاقات بين بعض الأجناس الثلاثة وبعضها . فقد كان الهندى مورداً بديلا ومنافسا من الأيدى العاملة يستطيع الإسبانى أن يلجأ إليه عند الضرورة . ووجد الزنجى العنيف فى الهندى منفذا يصب فيه جام آماله الخائبة ، وادعى الإسبانيون أن الزنجى إما تحرش بالهندى وإما أفسده . وكانت هناك قوانين صارمة ، ولو أنها لم تكن ذات أثر ، أقرت لفصل الجنسين بعضهما عن بعض .

وكان الشامبو ، وهو المولد من الهندى والزنجى يعد من وقت مبكر

أنه هو العنصر الوحيد المشكل — وغير المرغوب فيه بتاتا — فى بوتقة المستعمرات . وإذ وجد نفسه مغلولا شرسا ممتهنا من الشعبين المسئولين عن نفسه المختلطة فقد أصبح منبوذا لا رجاء منه ، وعدوا طبيعيا للمجتمع الذى لا يريده . وبمرور الوقت ، وعندما تلاقى العنصران المتضاربان فى شخصيته وجد الشامبو وذريته من حين إلى آخر مكانا ما — وفى بعض الأوقات مكانا هاما — فى نظام الطبقات الهرمى الذى كان سائدا فى بلده . ومن المرجح أن أعداده كانت أكثر ما يكون فى الجهـــات الساحلية لبيرو ومنخفضات إكوادور والسواحل الشمالية للقارة وفى وادى الأمزون(١٣) .

وقبل حلول القرن التاسع عشر على الأقل ، كانت ثورات العبيد أكثر شيوعا فى المستعمرات الإسبانية منها فى البرازيل ، وقد شكا المؤرخون والمراقبون الإسبانيون مرارا من الاضطراب واختلال النظام بين السكان الزنوج . فقد كانت المدن فى بعض الأحيان يسودها الذعر من إشاعات عن قيام ثورة للزنوج لم تتحقق . كتب توماس جيدج عن زنوج جواتيمالا فقال إن « اليأس قد بلغ بهم درجة جعلت مدينة جواتيمالا كثيراً ما يملأها الخوف منهم . كما يملأ السادة الخوف من عبيدهم وخدمهم» . وبحلول منتصف القرن السادس عشر كان هناك ٢٠٫٠٠٠ عبد إفريقى فى الإقليم الحار حول كيرنافاكا وفيراكروث . وسببوا للإسبانيين قلقا أكثر مما سببه الهنود، مع أن هؤلاء كانوا يفوقونهم كثيراً من الناحية العددية. وقد شنق نائب الملك مندوثا عدداً منهم ليكونوا عبرة ، ولكن الإسبانيين لم يثقوا مطلقا بالزنوج . ففى السنوات الأولى من القرن التالى انتشرت إشاعة فى مدينة المكسيك فحواها أن الزنوج قد عزموا على القيام بثورة وسيذبحون الإسبانيون فى يوم معلوم . وفى ذات ليلة أخطأ الإسبانيون ، وقد علاهم الاضطراب ، فحسبوا صوت قطيع من الخنازير الشاردة فى الشوارع صوت الشؤم الصادر من الزنوج الحفاة وعقدوا العزم على إبادتهم .

وفى اليوم التالى أعدموا أكثر من ثلاثين من السود وهم فى ذعر مطبق .

ومن المرجح أن أول ثورة للعبيد فى المستعمرات الإسبانية حدثت فى سنة ١٥٢٢ . وبدأها زنوج تابعون لدييجو كولمبس ابن المستكشف ، وقد كان عامئذ حاكما لسانتو دومنجو . وانضم إلى الثورة زنوج آخرون ، وقد أخمدت بقسوة زائدة، ومن بعدها كانت الفرق الإسبانية المسلحة تطوف بالجزيرة لمنع تكرار هذا الاضطراب . وفى سنة ١٥٥٠ أحرق الزنوج بلدة سانتا مارتا على الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية وارتكبوا اعتداءات كثيرة . وكان لـ « جمهورية » بالماريس الزنجية فى الأراضى الخلفية لشمال البرازيل نظير فى فنزويلا فى منتصف القرن السادس عشر ، فقد فر زنجى اسمه ميجيل كان يعمل فى المناجم إلى التلال ، حيث جمع حوله عددا كبيرا من الزنوج . ووضع نظاما لدولة ، وتوج نفسه ملكا . وفى وقت لاحق هاجم بلدة نيفا سيجوفيا أو باركيسيميتو مع عصابة من أتباعه، ولكنه صد وقتل، وأعيد الباقون من زمرته إلى عبودية جعلها سادتهم الإسبانيون عبئا لا يطاق كما لم يحدث من قبل .

ومن ثم سنت قوانين تأديبية تتصف بالقسوة الوحشية، أصدرها مجلس الهند الغربية (*) لعدم تشجيع قيام العبيد بثورات بعد ذلك . وحددت سلسلة من العقوبات المتدرجة للعبيد الآبقين ، مبتدئة من خمسين جلدة والخناك (**) إذا تغيب العبد أربعة أيام ، إلى الشنق للذين يتغيبون ستة أشهر فى زمرة « زنوج متمردين » . وبعد أن لجأ الإسبانيون إلى عقاب التشويه القاسى صدر قانون ينص على أنه « لا يجوز بأية حال من الأحوال

(*) Council of the Indies

(**) آلة خشبية أو جهاز يقمط على العنق واليدين : pillory

تطبيق عقوبة بتر أطراف الزنوج الآبقين التى لا يمكن أن تعطى مصطلحا من باب اللياقة » . وبعد فترة الاضطرابات التى تلت الحروب الأهلية بين حكام بيرو خرج الزنوج عن حدود النظام ولم يذعنوا إلا بعد مجىء نائب الملك المتجهم توليدو . وبحلول هذا الوقت كان الناقوس الذى يؤذن بإجلاء الطرقات فى المدن من الزنوج عند حلول الليل قد عم انتشاره . وفى سنة ١٥٩٨ ثار بضعة آلاف من الزنوج كانوا يعملون فى مناجم الذهب الغنية بالقرب من ساراجوثا فى نيفاجراندا (الآن كولومبيا) فجأة وفى قوة اندفاع ، ودمروا المناجم وقتلوا مديرى وعمال المناجم الإسبانيين ثم تحدوا السلطات الإسبانية من وراء سياج أقاموه سريعا ، ولكن كما حدث لجميع هذه التمردات اليائسة والمخذولة أخمدت حكومة المستعمرات الثورة بعد أن خططت لها درجات من عقاب لا تعرف الرحمة إليه سبيلا . وعندما قام العبيد الزنوج بثورتهم الناجحة ضد سادتهم الفرنسيين فى سانتو دومنجو فى أواخر القرن الثامن عشر انتظر الإسبانيون فى كوبا أن يحذو عبيدهم حذو زملائهم . ووطد بعض المزارعين الفرنسيين الذين نجوا من غضبة الزنوج المتمردين أنفسهم على الهرب إلى شرق كوبا حيث أذاعوا قصة التمرد الدموية فى الجزيرة المجاورة . فاتخذ الحاكم العام أودويل إجراءات مروعة منعت السود الكوبيين من تقليد زملائهم العبيد على الجانب الآخر من مضيق وندوارد . ومن الأهمية أن نلاحظ أنه عندما أفاق الإسبانيون من ذعرهم أصبح المزارعون الفرنسيون الذين هربوا إلى كوبا عاملا ملطفا فى معالجة العبيد .

وكان العبيد الآبقون مصدر قلق دائم للإسبانيين ، لا بسبب الخسارة الاقتصادية التى يسببونها لسادتهم ، بل بقدر التهديد الكامن الذى يسببونه للسلام وأمن المجتمع . وكان العبد الآبق (*) بصفة عامة يرضى بالهروب

(*) Cimarron

من عبوديته وبأن يجد له ملجأ آمنا فى « الغابة » أو فوق التـــلال ، وربما يعيش آمناً من أن تمتد إليه ذراع إسبانيا الطويلة . وذهبت السلطات الإسبانية فى بعض الأحيان إلى عمل ترتيبات مع جماعات من الهاربين القدامى بأن يمسكوا ويرجعوا بالعبيد الآبقين من المدن والمزارع القريبة . ومر جيميلى كاريرى ، الصيدلى الإيطالى الذى جاب الأرض عدوا ، بقرية من الآبقين الودعاء (سان لورنثو دى لوس نجروس) على الطريق بين مدينة المكسيك وفيرا كروث فى سنة ١٦٩٨ . كتب يقول : « يبدو هذا المكان كأنه جزء من غينيا لأنه لا يقطنه جميعا سوى السود ، ولكنهم وجهاء ، ويعملون فى فلح الأرض» وكانت هناك بضع مستعمرات من العبيد الآبقين فى منطقة بنما .

وتذبذب الإسبانيون بين المراعاة الصارمة للقوانين التى تمنع تجنيد الزنجى والسياســـة الاستغلالية للانتفاع به ليقوى من وسائل الدفاع الضعيفة فى المستعمرات وكان الزنوج فى بعض الأحيان يقاومون نزول أفواج من الأجانب على مسئوليتهم فى بعض الأحيان ، وبخاصة على سواحل القارة الشمالية حيث كانت جماعات مرابطة من الميليشيا الزنوج مندمجة مع القوات الملكية . وفى القرن السابع عشر كان هناك جماعة من المدفعية السود قوامها ٦٠٠ رجل فى كارتاخينا . واستمتع الزنجى بالنفخ فى الأبواق والبزة التى تستلزمها الخدمة العسكرية . وكان مقاتلا كفئا فى طريقة الحرب الالتحامية غير المنظمة التى كانت سائدة على طول السواحل فى أمريكا الإسبانية . ولقد أصبح مستعمر زنجى يعيش منفرداً يعرف بكابتن خوان بلتران شخصية أسطورية فى جنوب تشيلى بحربه منفردا ضد هنود الأوركاريان الجبارين . وقام الزنوج البرازيليون بدور هام فى حرب التحرير ضد الهولنديين فى القرن السابع عشر . وفى وقت لاحق خدم كثير من السود فى جيوش بوليفر فى أثناء حروب الاستقلال . وقد عمل رماح

ضخم من الزنوج حارسا خاصا لبايث زعيم اللانيرو، الفرسان المتوحشين غير النظاميين ، فى سهول فنزويلا . واستخدم البرازيليون جموعاً كبيرة من الجنود الزنوج فى حرب باراجواى . ولقد كان رماح زنجى هو الذى قتل اويث دكتاتور باراجواى ، لينهى بقتله تلك الحرب الطويلة الدموية. وفى ثورات كوبا ضد إسبانيا فى القرن الماضى كان الزنوج يشغلون الصفوف الأمامية فى القتال . ويعد جنرال أنطونيو ماسيو ، وهو رئيس مغامر لفرقة من الفرسان واحداً من أبطال كوبا القوميين .

وكان الإسبانى يفضل الزنجى على الهندى للخدمة الشخصية. فلقد وجد صحبته خفيفة الظل . وكان الزنجى نفسه فى أسعد حال عندما يكون فى المدينة، فى حين كان الهندى قرويا فى الصميم . وبينما كان الهندى ينزع إلى السكوت والانطوائية كان الزنجى يضفى روحا خفيفة على جو الحياة الاستعمارية الذى كان يميل إلى الجدية بقدرته على الضحك ومحاكاة الغير وثرثرته ذاتها . وكان الإسبانى يتجاوز عن وقاحة عبيده أحياناً وعن حريات أخرى قد يمارسونها معهم لأنهم كانوا يروحون عنه ، وفى بعض الأحيان يواسونه فى شدته(١٤) . وكما حدث فى جنوب الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية كان الخدم فى المنازل ذوى تأثير عظيم فى شئون المنزل وحياة أفراد الأسرة وتعود الأوروبيون الصغار أن يقضوا وقتاً طويلا من طفولاتهم فى صحبة زنوج صغار كانت أمهاتهم يعملن فى منزل آبائهم . وقد لاحظ الإنجليزى ستيفنسن الذى مكث بعض الوقت فى ليما فى الجزء الأول من القرن الماضى أن «الزنوج الإفريقيين ، نظراً إلى المعاملة الرقيقة التى يعاملون بها ، يبدون سعداء إلى أقصى حد» . وأضاف : «وعندما يعاملون بالعطف والرحمة فهم أمناء ومخلصون ، وكثيراً ما تصبح لهم صلة شخصية بسيدهم . وعلى الرغم من أنهم فى بعض الأحيان يظهرون شيئاً من الامتعاض إذا كلفوا واجبات شاقة لخدمته ، فإنهم مع ذلك يضحون بأرواحهم فى سبيله

فى ساعات الخطر . وعلى العكس من ذلك إذا ساءت معاملتهم وظلموا ، يركبهم العناد إلى درجة قصوى : ولا يصبح السيد فى مأمن من عنفهم شخصيا إلا بما اتصف به العبد من عريكة لا تستقر على رأى وخوفه من العقاب .

الزنجى فى المجتمع الاستعمارى

حيثما عاش الزنجى وجدت الموسيقى . وكان يغنى فى بعض الأحيان ليخفف عن كاهله عبء الخدمة، ولكنه كان يغنى عادة لأنه ملىء بالأغانى . وعلى كل حال فقد كان يترك نفسه للغناء كيفما كان مزاجه(١٠) . وربما كان يغنى موسيقى الطقوس الكنسية ، أو قصصا شعرية من قصص إسبانيا أو البرتغال ، أو أناشيد من البلاد التى عاش فيها ، أو الألحان الفطرية التى كان قد أحضرها بنو قومه معهم من إفريقية ، أو ما يرتجله بنفسه . كان الزنوج الذين يعملون فى الحقول ، أو كحمالين ، أو عمال سفن فى المدن ، أو ملاحين على الأنهار ، يغنون أو يترنمون إلى إيقاع حركات أجسامهم . وقد استمع كدر إلى الزنوج فى شمال البرازيل عندما كانوا يغنون « أوه سوزانا » . وسمع كابتن بازل هول الضابط بالبحرية البريطانية عبيدا فى بنما يغنون أغنية وطنية من أغانى حروب الاستقلال والتى فيها يتكرر لفظ « الحرية » مرارا وتكرارا . ولاحظ أنه « كان هناك شىء منفر للشاعر فى كل هذا . ولقد كان مؤلما أن يسمع المرء هؤلاء الناس المساكين وهم يتغنون بمديح الحرية التى فاز بها سادتهم الذين لم يستبعد تفكيرهم بالتأكيد شيئا استبعادهم شمول عبيدهم بنفس النعمة » .

وكما كانوا يغنون فكذلك أيضا كانوا يعزفون على أية آلة موسيقية تصل إلى أيديهم ، أو أى شىء يستطيعون ضرب نغمة عليه . وكان المسافرون تتناوبهم البهجة عندما كان غناؤهم متوافقا ، أو الاشمئزاز عندما كان غناؤهم متنافرا . ولقد افتتنت مسز أجاسيس ، زوجة العالم المشهور ، عندما سمعت

موسيقى فرقة مكونة من أولاد صغار من الزنوج كانوا يرحبون بالأسرة فى غذاء فى مزرعة برازيلية كبيرة . وروى تيودور هينكى عن موسيقى فرقة زنجية فى ليما وقال إنها « صاخبة ومتنافرة » . أما همبولدت، وكان فى فنشويلا فى نفس الفترة ، فقد شكا من أن « البهجة المتوحشة » التى يمرح فيها العبيد الزنوج فى الفناء خارجا طيرت من عينيه النوم . ووجد عقيد مانسلا بين قبائل الرانكيلى المتغطرسين الذين يقطنون فى سهول البمبا الخارجية زنجيا يعزف على موسيقية اليد (الأكورديون) ، يتنقل بين الهنود وهو يغنى ويرقص قفزاً كالماعز ، ويسود كل ذلك اللعب المستمر بالأكورديون ، والنكات يطلقها على حساب كل شخص . أما كنكولور كورفو ، الطواف الهندى الذى لاحظ ما كان يجرى بين الزنوج فى الأراضى الواقعة بين توكومان وبوتوسى ، فقد كان يقارن بين طنين تنافراتهم الهمجية والموسيقى الناعمة الحزينة التى يمارسها قومه . وقال إن العربدة الجهنمية التى كانوا يصدرونها بواسطة عظمة فك لحمار ، وطبولهم الكبيرة ، تجعل حتى الحمير تولى فرارا مع كونها « أبلد الحيوانات وأقلها تهيبا . فغناؤهم ليس إلا عواء، أما بالنسبة إلى رقصاتهم فحركاتهم « ماهى إلا تلويات للبطن والأرداف فى شىء كثير من الفسوق» ومع ذلك فهو ينهى حديثه بقوله : « إن انحرافات كل من الزنوج والهنود تبدأ وتنتهى بلهو خليع مخمور » .

والزنجى فى المستعمرات الإسبانية ، كما فى البرازيل ، مدين إلى الكنيسة إلى حد بعيد . فقد حاولت بدافع من ضمير أن تحميه من أشد الإساءات التى تلحق به نتيجة حالة العبودية التى كان فيها . ومن أنبل الشخصيات فى المستعمرات القس اليسوعى الأب بيدرو كلافير ، وهو من كتالونيا ، ويعرف بـ « الرسول المبعوث إلى الزنوج » ، فقد عمل الأب كلافير جاهدا أربعين سنة فى كاتارخينا، أهم ميناء دخول لسفن عبيد المزارع(*) على التخفيف من

(*) asiento : مزرعة تستغل بالتعاقد على استجلاب العبيد .

فظائع تجارة الرقيق فى أسوأ أحوالها . وعندما مات فى سنة ١٦٥٤ ولول السود المنكوبون والذين كانوا موضع إخلاصه فى الشوارع يصيحون « مات القديس » . ومع أن الفرق الدينية نفسها كانت تمتلك عبيدا فقد اشتهروا بإنسانيتهم التى كانوا يعاملون بها أماناتهم . فمثلا كانوا يرفضون تشتيت أسر العبيد ، ولذلك كان الزنوج يعدون أنفسهم محظوظين إذا كانوا يتبعون الرهبان .

وأخذت الكنيسة كذلك قانون سنة ١٥٣٨ ، مأخذا جديا للغاية ، وهو الذى ينص على ان « العبيد الزنوج الأحرار والمولدين يلقون العقيدة المقدسة الكاثوليكية » . وكما أن نظرتها إلى الهنود لم تكن أبداً واهمة بخصوص مقدرة الزنجى على استيعاب لاهوت المسيحية الرومانية ، فإنها قصرت تعاليمها على طريقة الأسئلة والإجابة والمبادىء البسيطة للعقيدة الكاثوليكية . فكانت تعامله كإنسان فتحت له أبواب السماء واسعة ، كما فتحت للرجل الأبيض . فالقداس المؤثر ، وأداء الشعائر ، وأعياد القديسين ، وفخفخة وأبهة الطقوس راقت كل هذه طبيعته العاطفية والدينية . فإذا ما أكثر من خلط ما تبقى لديه من عبادة الجن ومن أساطيره الشعبية بعقيدة إسبانيا وروما ، فقد تعلمت الكنيسة كيف تكون متسامحة إزاء أوهامه الروحية . ومع ذلك ففى بعض الأحيان إذا أصبحت أية تعاليم مسيحية فى عبادته غير مفهومة ، فى الوقت الذى تأخذ فيه مخالفته لتعاليم الدين شكل السحر الوثنى ، فإنه يصبح متعصبا للأنواع المتعددة لديانة الفودو الإقليمية .

وسبب ميل الزنجى للظهرية مضايقة كبيرة لسادته ، وأدى إلى تعديل كبير فى تنظيم المصروفات وفى التشريع . وكان ولع المرأة الزنجية بالاستعراض كريها بصفة خاصة لسيدات الطبقة الحاكمة اللائى كن يرفضن تحمل أية منافسة فى التظاهر من طبقة يعتبرونها أقل منهن اجتماعيا . فقد كانت ، إذا سمح لها دخلها ، تلبس ملابس زاهية الألوان ، وتزين نفسها

بالجوهرات البراقة، وتعطر نفسها بأقوى العطور نفوذا ، وفى هذا الزخرف تعودت الظهور فى الأماكن العامة التى كانت تتردد عليها سيدات المستعمرات العظيمات ونتج عن الاحتجاجات الغاضبة التى قدمت إلى مجلس الهند الغربية قوانين كانت فى بعض الأحيان قاطعة فى موادها . فمثلا قانون سنة ١٥٧١ ينص على أنه « لا يجوز لزنجية، سواء حرة أم أمة ، أم مولدة ، أن تتزين بالذهب أو اللآلىء، أو تلبس الحرير ، ومع ذلك إذا تزوجت زنجية حرة أو مولدة من إسبانى فتستطيع أن تلبس قرطا من الذهب مرصعا باللآلىء ، وعقدا صغيرا وقميصا بشريط من القطيفة، ولا يجوز لواحدة منهن أن تلبس جلبابا فضفاضا (*) من الصوف الخفيف (**) أو من أية ألياف أخرى ، سوى لفاع (***) يمكن أن يصل قليلا إلى مادون الخصر، وإلا عرضت نفسها لعقوبة المصادرة ، وكذلك أية مجوهرات أو ألبسة حريرية تضبط بها، فإنها تؤخذ منها . وأصدر ملك البرتغال قانونا مشابها ، بل أكثر صرامة ، فى سنة ١٧٤٩، ليحدد نوع الجلباب الذى يلبسه السكان الملونون فى البرازيل. وعلى الرغم من أن المخالفين كانوا يضربون أو تنتزع بهرجتهم ، فقد كان يبدو على هذه القوانين التهاون فى التنفيذ ليس إلا إذ استمر الزنوج يلبسون قدر استطاعتهم . وفى منتصف القرن الثامن عشر ذكر خوان وايووا أن سكان كارتاخينا السود كانوا يلبسون فقط « قطعة صغيرة من القطن حول الخصر » ، ومع ذلك أضافا أن « بعض المولدين والزنوج كانوا يلبسون كالإسبانيين وعظماء الناس فى البلاد (١٦) .

وعلى الرغم من التوترات والإجهادات التى اتصف بها استعباد الزنوج فى المستعمرات الإسبانية ، فقد كانت الظروف مواتية لتحريرهم (١٧) .

(*) manto, manteau

(**) burato

(***) حرمـــة

فالتطورات والمناسبات المختلفة التى هيئت لعتق العبيد كانت مشابهة لنظائرها فى البرازيل . وإن ارتفاع نسبة الحرية التى منحت للضامنين فى السنوات الأخيرة للنظام الاستعمارى دليل على فعاليتها . وكان التشريع الإسبانى لفترة طويلة غير راض عن هذا النظام. ولقد عبر القانون التشريعى القديم (*) ، وهو القانون المشهور الذى أصدره الفونسو التاسع ملك قشتالة ، بوضوح ، عن الكراهية الإسبانية الأصلية للرق

وعلى الرغم من أن حرفية القوانين المنظمة للإشراف على استعباد الزنوج فى المستعمرات تبدو قاسية أحيانا ، فقد كان التهديد الكامن لتمردات العبيد على نطاق كبير ضد السلطة الإسبانية وضد مجتمع المستعمرين الإسبانى الصغير ماثلا على الدوام . وفى هذه الظروف لم يكن ينتظر سوى قدر ضئيل من الرحمة فى أى مكان فى العالم فى ذلك العصر . فلقد كان النظام نفسه شرا ، ولم يعتذر المسئولون عن الرق . وإن روح التسامح التى غالبا ما كانت تطبق بها القوانين القاسية (**) ونزوع الإسبانى إلى تجاهلها إذا ما انتهت فترة الأزمة، دليل على نفور الإسبانى من اتخاذ الإجراءات الصارمة . وكانت غرائزه الإنسانية وحاسة العدالة التى كانت تخفف دائما من حدة القانون الإسبانى تثبت وجودها فى الأوقات العادية . وكما كانت الحال مع البرتغاليين، كان الرأى الإسبانى ينظر إلى العبد، لا كمتاع مؤجر يملكه الشخص على الدوام، ولكن كإنسان انتابه سوء الحظ لفترة محدودة . وبناء على فلسفة كهذه كانت النهاية المنطقية الرق هى الحرية ، ولذلك سهل ضمير إسبانيا على العبد أن يصبح شخصا حرا ، وفور استعادة حريته لا تلتصق بماضيه أية وصمة. وإذا حدث أن كانت هناك عراقيل مقصودة فى سبيل مستقبله ، فقد كانت من صنع جماعات أو أشخاص ، فضل زهوهم أو مصالحهم الشخصية نظام

(*) Siete Partidas : الأبواب أو الفصول السبعة .

(**) Draconian : نسبة الى دراكو من حكام أثينا فى القرن السابع قبل الميلاد .

الأمور على ماهى عليه . ولكن الحكومة كانت قلقة على مصلحته ، ولقد نص أحد « قوانين الهند الغربية » على ان « المحاكم (*) الإسبانية عليها أن تستمع وتقيم العدالة لأولئك الذين أعلنت حريتهم » .

أما أولئك الذين بقوا فى ربقة الرق فقد كانت هناك قوانين تحميهم من سوء المعاملة . وأعظم هذه القوانين شمولا قانون العبيد الذى أصدره الملك فى سنة ١٧٨٩ . فبينما أقر الأمر الملكى لتلك السنة بعض التشريعات القديمة ، كانت هناك نواح جديدة ومتطورة عكست روح ذلك « العصر المستنير » فى أوربا . فقد نص على الاهتمام بصحة العبيد ومعنوياتهم ، وبالحفاظ على روابط الأسرة ، ورعاية العبيد الذين تقدمت بهم السن بحيث لا يستطيعون العمل ، واللجوء إلى المحاكم ضد العقوبات التى تلحقهم تحكميا أو بضراوة . ومع أن العبيد قد نالهم كثير من الخير دون شك وخصوصا بتدخل « محامى الفقراء » (**)، فقد جاءت الإصلاحات متأخرة لدرجة تؤثر تأثيرا جديا فى المساوىء المتأصلة الكامنة فى النظام نفسه .

المولد

أصبح المولد عنصرا هاما فى حياة المستعمرات الإسبانية . وزادت أعداده بانتظام ، كما ازداد تأثيره فى المجتمع خلال عصر الاستعمار وفى عهد الجمهوريات . وزادت عملية التهجير قوة رغبة المولد المتزايدة ، بعد التزاوج الأول بين الرجل الأبيض والمرأة السوداء ، فى التزاوج من الأكتورون ذات البشرة المائلة إلى البياض ، وهى خطوة ليس بعدها اعتراض من ناحية التطور اللونى(١٨). وتعاونت المرأة الملونة ، إن لم تكن دائما بتحمس ، وعلى الأقل سلبيا ، كزوجة أو كحظية أو كعامل فى تزاوج اتفاق طويل.

Audiencias (*)

hogado de los pobres (**)

الأجل ، فى خلق جنس جديد لم يعرف فروقا مميزة فى لون البشرة(١٩)
فى مدن مثل ليما وبوينس أيريس ومكسيكو ، التى كانت ذات يوم تعج
بالسكان العبيد ، كاد الزنجى يختفى تماما كعامل منفصل وظاهر عند بداية
القرن الحالى . أما فى كوبا فالرجل الملون كان ولا يزال ظاهرة أكثر
وضوحا . وفى الجهات الحارة ، فى كل مكان ، كما حول سواحل الكاريبى ،
حيث كان البيض أقلية باستمرار ، فإن الغالبية العامة قد أنتجت أخيرا
شعبا له صفات وخصائص زنجية واضحة . فهم يكونون قسما كبيراً من
السكان فى مدن مثل لاجوايرا وسانتا مارتا على سواحل القارة ، وفى مدن
أمريكا الوسطى الساحلية ، وفى أكابولكون (٢٠) وفيرا كروث فى
المكسيك ، وسانتودومنجو فى هسبانيولا ، وجواياكيل فى إكوادور .
وقد أثروا فى أسلوب المعيشة فى المنخفضات المدارية تأثيرا كبيراً فأضافوا
قدراً معلوما من عدم المبالاة والمراوغة والحسية إلى محيط المجتمع العام(٢١).
ويلاحظ المرء كيف أن مدى تأثيرهم محدود بالارتفاع إذا سار صاعداً فى
وادى نهر مجدلينا إلى مرتفعات كولومبيا ذات المناخ المعتدل البارد حيث
يحل محله مزاج الهندى الجدى . وكذلك يلاحظ المرء التغير بالمعكوس إذا
عبر من بوجوتا إلى كالى ذات المزاج الألطف ، التى تقع فى وادى كوكا
الدافىء المشمس . وهناك وجد الزنجى من قديم وطنا ملائما لا لشىء
إلا ليمتص نهائيا فى مجموعة السكان ، ولكنه يترك أثره على الروح السائدة
فى المكان . وليس هناك مدينة كبيرة مثل هافانا تعكس تأثير الزنجى باستعداد
سكانها للضحك ، والتسامح والإيقاع الغنائى الذى يميز كلامهم ، وعدم مبالاتهم
لما يحدث من أمور ، ومن ذلاقة لسانهم . وظاهرة الشوتيو(*) ، وهى ظاهرة
لا تنسى فى الحياة الكوبية — هبة السخرية والهجو الفورى فى مناقشات
المحادثة العادية — لها أصولها فى وقاحة الزنجى المرحة .

(*) choteo التنكيت

وتبوأ المولد مكانه فى المجتمع كعنصر مستقل فى خلال القرن التالى لسنة ١٧٥٠ . ومهما يكن من تحيز ضده فى تاريخ المستعمرات المبكر ، فقد خف منذئذ . ومع أن عظماء الرجال (*) فى المستعمرات ، هم ونساؤهم ، كانوا على كره من مجالستهم فى بادىء الأمر ، فقد جاء الوقت الذى تعودوا فيه قبول حضرتهم بوصفهم جزءاً من الترتيب المحلى للأمور . وتحسنت أحوالهم الاقتصادية كثيراً . وسيطروا على بعض المهن التى تحتاج إلى مهارة فى المدن ، وقدر لبعضهم أن يقتنوا ثروات عظيمة من أعمالهم . وانتهزوا كل فرصة سنحت لهم ليأخذوا نصيبهم من التعليم الذى فتح لهم الأبواب للوظائف ولمركز الهيبة الذى تضفيه الوظيفة على صاحبها . وارتقوا بمظاهر الكياسة الاجتماعية بما فى ذلك نوع من الاستعلاء المصطنع نحو أولئك الذين كانت بشرتهم أدكن من بشرتهم . واقتبسوا فن المحادثة ، وكثيراً ما كانت صحبتهم أفضل من صحبة الطبقة الممتازة أصلا فى المدن(٢٢) . وبرهنوا على مهارتهم فى استرضاء أولئك الذين عرفوا أنهم أصحاب النفوذ والمراكز فى المجتمع لينالوا حظوة عندهم . وأخيرا استقبلهم فى حظيرته ، أولا فأولا ، مجتمع كان قد فقد كثيرا من جموده وأنانيته المانعين ، استقبلهم كما هم — أفراداً كثيرا ما كانوا جذابين وموهوبين وعاملهم بما هم أهل له . وقدمت لهم حياة الجمهوريات السياسية ميدانا فسيحا ومرحبا لطموحهم ومواهبهم . وجاءت فطنتهم اللماحة وفصاحتهم المتأهبة وميلهم إلى الخطابة الفياضة ، والمرونة التى مكنتهم من الإذعان بسهولة لتيارات السياسة المفاجئة — كل ذلك جاء دليلا على ما لديهم من إمكانات فى هذا الميدان الجديد — وقد أفادوا من فرصهم المتاحة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا

(*) magnificoes

الزنجى فى هايتى

زنجى هايتى مسألة خاصة للغاية . فجمهورية هايتى هى وطنه « بالذات » . رغم أن الأقلية المولدة تقوم بمهمة الطبقة الحاكمة وقد أنشأها الزنوج نتيجة لثورة العبيد الوحيدة الناجحة فى نصف الكرة الغربى . وليس البيض بذوى بال من الناحية العددية ، وقد جاءوا متأخرين ، وأصولهم ضحلة — او قد لا توجد أصول ما — فى أرضها . أما العنصر الأجنبى فى الثقافة القومية فهو العنصر الفرنسى الذى حل محل الإسبانى .

وقد اتبع مجتمع هايتى الزنجى فى معظم تفاصيله النمط التقليدى لنظام المزارع فى المدارين . وكما هو الشأن فى البرازيل وكوبا أسس على الإنتاج الكبير للسكر . وفى الجزء الأخير من القرن السابع عشر عبر القراصنة الفرنسيون إلى الطرف الغربى لهسبانيولا من قاعدتهم فى جزيرة تورتوجا القريبة واستقروا هنالك . وتأكد حق فرنسا على تلك الجهة بأن احتلها هؤلاء البحارة المتقاعدون ، كما فعلت إنجلترا تماما وادعت حقا لها فى بليز عندما وجد قراصنتها هى أن قطع خشب الموجنى عمل أحسن — وآمن — من القرصنة . وفور الاعتراف بحقيهما بالطريقة الساخرة ، طريقة خذوهات ، فى صلح رزويك سنة ١٦٩٧ بدأ الفرنسيون جديا فى تنمية سانتودومنجو مستعمرتهم الجديدة . وكسبت المستعمرة ثروة واعتبارا بتدفق رأس المال من فرنسا والعبيد من أفريقية .

وعلى الرغم من الرفاهة والسحر اللذين يميزان الحياة الاجتماعية كانت الحالة فى أغنى مستعمرات فرنسا تهدد بطبيعتها بالانفجار . فقد جاءت المستعمرة متأخرة ، لأن « تنوير الأذهان » فى أوروبا كان يضع الأساس الفلسفى للنظر فى الحقوق الإنسانية التى تعارض مبدأ الرق ذاته . أضف إلى ذلك أن الفرنسيين ، وكانوا حديثين لتحمل مسئوليات ممارسة الرق ، كان عليهم

أن يتعلموا كثيراً كالإسبانيين ، وبصفة أخص كالبرتغاليين ، الذين مارسوه بالتجربة مدة قرنين من الزمان وكان التفاوت بين العبيد والبيض كبيراً إلى حد الخطورة - أكبر من عشرة إلى واحد قبل نهاية النظام فى سنة ١٧٩٠ ولكى تخفف التوترات التى لابد من وجودها كامنة فى مثل هذا النظام ، لم يتعلم الفرنسى أبداً كيف يملأ فجوة العاطفة المتضاربة التى خلقت صمام أمان فى العلاقة بين السيد والعبيد فى البرازيل . وبعبارة أخرى لم يتعلم مطلقاً كيف يعيش مع زنوجه كمجموعة كبيرة من الرجال والنساء . أما الطبقة المشكل من المحررين (*) ومعظمهم كانوا من المولدين ، وكثير منهم كانوا أفراداً مثقفين ، فكان يتناوبها التدليل تارة والقمع تارة أخرى . ونتيجة لعدم اطمئنانهم اجتماعياً والخيبة التى لحقت بمجتمعهم الوسيط لم يستطع الفرنسيون المنتفعون من هذا النظام أن يعتمدوا على ولائهم ، وعندما جاءت الأزمة انضم كثير منهم إلى العبيد .

وجاءت الثورة الفرنسية فدفعت بالمسائل الرئيسية إلى ذروتها بسياستها المتأرجحة ، إذ بعد أن فقد الفرنسيون مناصرة المولدين ، انتهز عبيد المزارع فرصة الجو المشحون فى المستعمرة ليقوموا بثورة صريحة فى سنة ١٧٩١ . وتلا ذلك عشر سنوات من الاضطراب والعنف زادهما خطورة غزوة للبريطانيين استغرقت وقتاً طويلا . وفى أثناء هذه الفترة المضطربة تنازلت إسبانيا لفرنسا عن الجزء الشرقى للجزيرة ، ولكن الحوادث توالت بسرعة زائدة لدرجة لم تمكن للفرنسيين الإفادة من مستعمرتهم الجديدة . وبدا من ثورة توسان اوفرتور (**)، وهو زنجى ذو مقدرة خارقة على الزعامة (٢٣) أنها قدمت أملا فى السلم فى سنة ١٨٠١ ، ولكن نقض

(*) affranchis

(**) Toussaint L'Ouverture

بونابارت الاتفاقات التى أبرمتها حكومة الإدارة مع الزعيم الزنجى أعادت الأمور إلى ما كانت عليه ، وضيعت فرنسا آخر فرصة لها فى استعادة مستعمرتها الغنية بفشل مجهودات جنرال ليكليرك (٢٤) التى كانت ترمى إلى إخماد الثوار بالسلاح ، وأيضا الغدر الذى لاقاه توسان لوفرتور من معاملة الفرنسيين . واتخذت الثورة ضراوة جديدة تحت زعامة جان جاك دسالين . وفى وقت لاحق فى سنة ١٨٠٣ ترك آخر جنود فرنسيين الجزيرة وفى وقت مبكر من السنة التالية ولدت جمهورية هايتى لتعيش حياتها المضطربة ، وبسط دسالين ، وقد عين نفسه حاكما مدى الحياة ، من وقت مبكر، مشكلاته الإدارية باستئصال البيض الذين لم يتدبروا الأمر فى الرحيل عن الجزيرة فى الوقت المناسب .

وأعد الميدان لدولة حرة ومجتمع زنجى حر . ونظر العالم الخارجى إلى الجمهورية الجديدة نظرة هلع أو اشمئزاز لقيامها على هذا الدم الكثير المراق (٢٥) . ولم يقدم أحد لها يد المعونة . ومضت فترة طويلة قبل أن تتنازل فرنسا ، وهى الأم الروحية لثقافتها الرقيقة الرفيعة ، وتقبل صحبتها. وإذ نظرت الحكومات الأجنبية إليها نظرة امتهان ، فقد استغل رؤساؤها الزنوج الطبقة الأرستقراطية الطبيعية من المولدين كجبهة احترام مع معاملاتهم من الحكومات الأخرى . وفيما عدا ذلك تركوا لمواردهم ، مع قصور فى جميع تجاربهم السياسية ، فلم يكن لدى مؤسسى الجمهورية شىء كثير يمضون به سوى ما جبلوا عليه من غرائزهم الفطرية وذكائهم الذاتى .

وفى هذه الخلفية لم يكن غريبا أنه لفترة قرن كان تاريخ هايتى عاصفا، وتطورها عملية مؤلمة إلى حد كبير (٢٦) وجاءت أوقات من الفوضى كانت مدنيتها فيها على حافة من النكوص إلى حياة الأدغال . ومع ذلك فقد كان الاضطراب الذى يسببه الحكم الاستبدادى نصف المتبربر مثل حكم كريستوف (٢٧) وسولوكى يخففه ، فى فترات ، حكم خير لشخصية عالية

تبصر الناس بأمل لمستقبل اسعد للأمة . ولم يتحقق هذا الأمل إلا فى هذا القرن .

والتركيب الطبقى للمجتمع الهايتى بسيط جداً . فحوالى سبعة وتسعين فى المائة من السكان فلاحون زنوج . والباقون ، وهم قلة ، يشملون الطبقة المختارة ، وأغلبهم مولدون(٢٨) ويتجنب أهالى هايتى فيمابينهم أية إشارة إلى اللون كحد اجتماعى يميز طبقة عن أخرى . فالزنجى لا يبالى إلا قليلا بلونه ، ولكن لدى المولد حساسية زائدة لما يبديه العالم « الأبيض » الخارجى من تعصب . وذوو البشرة المائلة إلى البياض مغرمون سرا بلون بشرتهم الفاتح ، ولكنهم يدركون أن تأثير البياض فى هايتى ، بعكس الحال فى البرازيل ، ضئيل لدرجة لا يمكن معها مطلقا أن يحدث تغييرا ماديا فى السحنة العامة للسكان . وعند ما يسافر أفراد الطبقة المختارة خارج بلادهم يفضلون زيارة البلاد التى فيها لا يعبأ الناس اجتماعيا بلون البشرة . فهناك فقط يمكنهم أن يفقدوا حساسيتهم، وأن يشعروا فى ارتياح بأنهم أناس محبوبون كما هم عادة .

وتعيش الكتلة الكبيرة من شعب هايتى فى تلاصق مع الأرض . ولم تعد الأرض بعد أرضاً طيبة رغم جمال المناظر الطبيعية . ويحصل الفلاح على كفاف من العيش من التربة الشحيحة التى أثرت فيها التعرية قرونا ، وكذلك من جراء استغلالها بلا اكتراث . وهناك أناس زائدون من بنى قومه للأرض التى يمكن استغلالها . وقطعة الأرض التى يستغلها لا تمده إلا بضروريات الحياة العادية . وهم قوم يتصفون باللطف والرقة (٢٩) ، طوروا فلسفة بسيطة للحياة مع ظروف حياتهم المحدودة . وهمهم الشاغل هو تجنب حوادث الاضطراب ، أى إنهم يجتهدون أن يكونوا على علاقات طيبة مع جيرانهم ، ومع الأرواح الخفية التى لديها القوة للتأثير فى حياتهم ، ومع ذوى النفوذ وهم يحرصون على مراعاة قواعد المجتمع الخاصة

باحترام الكبار بحسب تقدمهم فى السن وحيثما وجدوهم . ويسترضون الأرواح بإقامة شعائر الفودو ، أو الفودون ، التى بالغوا كثيراً فى مظاهرها المثيرة . وفى نفس الوقت يبدون الاحترام اللائق لأى قسيس ينتمى إلى الكنيسة الكاثوليكية قد يقيم بجوارهم . أما من ناحية موظفى الحكومة فهم يتجنبونهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ويحاولون تجنب وقوعهم فى شباك مع من يمثلون السلطة . وهم محافظون ، ويرتابون فى التغيير واقتباس الأفكار الغريبة عن محيط معرفتهم المحدودة . وباختصار فهم لا يرغبون إلا فى الحفاظ على القليل الذى يملكونه . أما من حيث اللغة ، فهم لا يتكلمون « الكريول » وهو خليط من كلمات فرنسية وإسبانية وكاريبية وبضع لغات أفريقية ، وليس لها قواعد نحوية . ولما كانت الكريول لغة لا آداب لها فى الواقع . فهم يعيشون خارج نطاق الكلمة المكتوبة ، وفى داخل حدود ثقافة مغلقة .

وفى بلاد قليلة جداً لا تزال هناك أرستقراطية حقيقية بالدرجة الموجودة بين الطبقة المختارة من سكان هايتى . فهم يمثلون الأمة أمام بقية بلاد العالم وهم وحدهم مستودع القوة السياسية والاقتصادية ، وهم « المجتمع » كما تعرفهم مدن هايتى . ويحتكرون كل شىء فيما عدا أحط مستوى فى التعليم الأولى . ويتكلمون الفرنسية ويفصلهم هذا الحاجز اللغوى فكريا عن عالم الفلاحين البدائى . ولهم ثقافة مكانها فراغ وظيفى بعيد إلى درجة كبيرة عن المشكلات المادية لحياة سكان هايتى . وهم يجيدون القراءة والكتابة ويعكفون على الحديث المفيد كتمرين عقلى . ويميلون ميلا شديدا إلى ما هو فرنسى فى اتجاهاتهم الثقافية ، ويناقشون إلى مالانهاية الأساليب السائدة للتفكير الفلسفى كما ترد من باريس . ويعيش الميسرون منهم عيشة راضية ، إن لم تكن مترفة ، فى قصورهم المطلة على بورت أوبرانس . وأخلاقهم حميدة ، ويلبسون ثيابا حسنة ولكن فى احتشام .

ويعتنقون العقيدة الكاثوليكية الرومانية ، ويتزوجون وفق طقوس الكنيسة ، بخلاف الفلاحين الذين يستغنون عادة عن الزواج الرسمى لأنه يكلف مصروفات لا طائل منها ، ولأنه تنازل خطير للحكومة ، وعقبة فى سبيل حرية التصرف .

ومع ذلك ، فمع كل المميزات التى تحيط بمركزهم فى النظام الاجتماعى الهرمى للبلاد ، ومع ميسرات حياتهم اليومية ، فإن هذه الجماعة الجذابة المثقفة مفعمة بالسخط العميق والقلق . فعلى الرغم من مواطنتهم العالمية المدروسة،فإن نظرتهم الإقليمية لا تخفى وراءها سوى القلق حول مكانة بلادهم الضئيلة فى العالم . فإن القيم التى يعولون عليها كثيرا تصبح طرازاً قديما أو تهمل فى عصر تسود فيه سياسة القوة والإنجازات المادية العظيمة . فهم يشعرون بأن لامكان لهم فى عالم تسيطر عليه القوى الاجتياحية المـاردة (*) ، وفيه تبدو مظاهر الفن والثقافة التى أنتجتها الروح الإنسانية وكأنها قد ألقى بها جانبا . وفى هذه الأثناء يمضون فى طريق حياتهم متلائمين ، فيقرأون پروست ومورراس،ويناقشون جدارة سارتر كما لو كان الحامل الجديد « للرسالة » ، ويقيمون معرضا دوليا لا يستطيعون إقامته على التمـام ، ومؤتمراً عالمياً للفلسفة يختالون فيه فترة قصيرة . وبينما يبدون قلقا حزينا لتتقبله سائر بلاد العالم المتمدنة وفق تقديرهم ، ويصغون بآذانهم إلى الطبول تدق فى التلال ليلا . فهناك تمضى حياة هايتى الصميمة فى طريقها البدائى .

(*) Cyclopean : من سيكلويس ، مارد خرافى له عين واحدة فى وسط جبهته (صقلى الأصل غالباً) .

الزنجى في حضارة أمريكا اللاتينية

البلاد التي يتبوأ العنصر الزنجى فيها اليوم أهم مركز هى هايتى والبرازيل وكوبا . وهو عامل هام كذلك فى سكان جمهورية الدمنيكان وبنما وفنزويلا، وإلى درجة أقل قليلا كولومبيا وهندورس ونيكاراجوا. وفى سهول أمريكا الوسطى تزايد العنصر الزنجى الأصلى كثيراً بنزوح الزنوج من الجزر التابعة لبريطانيا فى الكاريبى الذين أحضروا إليها كعمال فى منطقة القناة ، أو فى مشروعات المزارع فى الجهة الساحلية إلى الشمال من بنما . وتوغل زنوج من نفس الأصل فى وقت سابق بكثير إلى نطاق الغابة المطيرة على طول سواحل هندورس ونيكاراجوا فيما عرف بأراضى البعوض . وهنا اختلطوا بالسكان الهنود القليلين على طول مجارى الأنهار ليخلقوا جنسا جديدا من الثامبو ذا ثقافة مهجنة .

وقد كان له تأثير كبير فى ثقافة هذه الأقطار ، بدرجات متفاوتة بحسب أعـــداده النسبية ، وطول إقامته ، والمواقف السائدة للجنس الأوروبى المسيطر . وقد ترك أثرا فى الحياة لا يمحى ، كان مقصورا فى بعض الأحيان على المحلات التي كثرت فيها أعداده ، وفى بعض الأحيان اقتصر على ميادين معينة حيث كانت خدماته المتأصلة عظيمة بطبيعتها كما فى الموسيقى والرقص وتعبيرات أخرى عن حاسته العميقة للإيقاع . وأضاف لذخيرة الإسبانى والبرتغالى ، وإلى درجة مزاج الهندى الأدنى ، طبيعة عاطفية مظهرية وغير مقيدة . واعطى لمشاعره القوية دائما حرية أكبر للتعبير . فحيث أمكن للهندى أن يبتسم على أكثر تقدير، أمكن للزنجى أن يقهقه عاليا. وحيث كان الهندى قليل الكلام، أو يتكلم برفق، كان هو ذاق اللسان ثرثارا. ونظراً إلى ما اتصف به من الود والمحبة ، فقد استطاع أن يكون على درجة عظيمة من الولاء والإخلاص . وعلى الرغم من اندفاعه فى التفاخر والتباهى فى وسعه

أن يكون وقورا كالإسبانى أو الهندى الغبين (*) وهو مكتئب ومتقلب ، ولذلك تمضى أهواؤه أسرع من الهندى الأول تقلبا . فهو مخلوق لاندفاعاته أكثر منه للقواعد والمبادىء ، وعبوديته جعلت منه شخصا نهازا للفرص بالسليقة . ونمى إلى درجة عالية مشاعر حسية ، وأصبح بصفة عامة كائنا بشريا رقيقاً ، عالما إلى حد كبير جدا بطبيعة جسمه وما يستطيع أن يعينه به ليستمتع بالحياة . ولكونه حساساً بعصبية وسريع التهيج فإن ميله إلى عدم النظام كان يسبب للإسبانيين قلقا ملحوظا . وقد تأصلت هذه الصفات والقيم التى يتصف بها الزنجى فى الأخلاق والحضارة الإقليمية لأمريكا اللاتينية . وإذا استثنينا أولئك الذين تأثروا بالفلسفة « العنصرية » للكومت دى جوبينو ، فإن قليلا من سكان أمريكا اللاتينية فى وقتنا هذا قد يرتابون فى القيمة النهائية للزنجى فى مجتمع بلادهم القومى .

(*) الذى يتسم بالبلادة : بليد

هوامش الفصل الخامس

Vernon, «Pedro de Valdivia : Conquistador of Chile» (Austin, Texas, 1946), P. 63.

طبقا لرواية أوجستين ادواردز وصل أول زنجى الى تشيلى من سفينة جانحة سنة ١٥٤٤ ٠ وقبض عليه الهنود وغسلوه بماء فى درجة الغليان ثم فركوا جلده بقشور الذرة وبقروا بطنه ليروا ما بداخله ٠

«My Native Land» (London, 1928), P. 129.

(٢) قال جيرولامو بنزونى الايطالى الذى كان فى الهند الغربية فى منتصف القرن السادس عشر أن عددا كبيرا من الاسبانيين فى سانتو دومنجو تنبأوا بأن الزنوج سوف يستولون على الجزيرة

«Istoria del mondo nuovo» P. 158.

« لما كان الاسبانيون فى حاجة الى رجال يعملون لهم وليعنوا بماشيتهم ، فقد اضطروا الى استجلاب الزنوج من غينيا ، وهناك اكتظوا الى درجة أن الجزيرة امتلأت بهم الآن كما كانت ملآى بالسكان الأصليين ، والى درجة أن الاسبانيين ينقلون الزنوج من هذه الجزيرة الى القارة حيث يبيعونهم » ٠

Lopes Vas, in Hakluyt, op. cit., VIII, 164.

(٣) كتب جوهان بابتست فون سبكس العالم الألمانى الذى زار البرازيل فى عصر الامبراطورية يقول : « ان حالة هؤلاء العبيد أقل تعاسة بكثير عما يعتقده الناس فى أوربا ، فهم لا يقاسون من نقص فى الطعام ، ويلبسون ثيابا مناسبة لمقتضيات المناخ ، وقلما يرهقون بالعمل »

Spix and Martius, «Viagem pelo Brasil» (tr. from the German, 3 vols., Rio de Janeiro, 1938), II, 301.

قارن بملاحظات كتاب ومراقبين آخرين : « ليس هناك مكان ما ، حتى فى البلاد الشرقية ، حيث يشرب الشراب أقل ما يمكن من المرارة » ٠

Richard F Burton, «Explorations of the Highlands of the Brazil (2 vols., London, 1869), I, 270.

« وكانت العلاقة الانسانية والودودة بين السيد والعبيد ··· فى كل الاحتمالات ··· هى القاعدة العامة » ·

Donald Pierson, «Negroes in Brazil» (Chicago, 1942), P 50.

« ويبدو الزنوج ، سواء أكانوا سودا أحرارا أم عبيدا ، مرحين سعداء فى أعمالهم » ·

Maria Graham, «Journal of a Voyage to Brazil» (London. 1824), P. 170.

(٤) « كانت القوى المحركة للاختلاط الجنسى والمصلحة الشخصية أقوى من التعصب أو النظريات أو القانون أو العقيدة · وكان الاختلاف محصورا فى أن الناس فى البرازيل أقبلوا عليه كاجراء عادى ، وأصبح الى حد ما ، بمرور الوقت مسألة اعتزاز بالنفس » ·

Farnk Tannenbaum, «Slave and Citizen : The Negro in the Americas» (New York, 1929), P. 121

(٥) نسل هؤلاء النسوة ، الذين يصفهم فريرى « بالطول الفارع ومظهر الفرسان ووجاهة الأرستقراط »

«The Masters and the Slaves» P. 318

منتشرون اليوم فى باثيا · وتصف مسز أجاسيس التى زارت البرازيل فى العقد السابع مع زوجها العالم المشهور « الزرازير » (المينا) الذين رأتهم فى بائييا بأنهم « زنوج ذوو أشكال جميلة ، أقوياء ، وينتمون الى جنس أنبل ، على الأقل جسميا ، من أى جنس نشاهده فى الولايات المتحدة · فهم جنس له مظهر قوى جدا ، والنساء بصفة خاصة ممشوقات القد ولهن حضرة مهيبة » ·

«A Journey in Brazil» (Boston. 1869), P. 82.

(٦) « منذ أول لقاء لهم بالنساء الملونات اختلطوا بهن وأنسلوا أبناء مولدين ، وكانت النتيجة أن بضعة آلاف من الذكور الجريئين أفلحوا فى تثبيت انفسهم بقوة بامتلاك أراض شاسعة ، واستطاعوا أن ينافسوا شعوبا كبيرة وكثيرة العدد فى توسيع رقعة مستعمرتهم وفى كفاءة نشاطهم الاستعمارى » ·

Freyre, op. cit., P. 11.

(٧) كتب الضابطان هيرندن وجبن بالبحـرية الأمريكيـة ، اللذان قاما بمسح وادى الأمزون من الغرب ، يقولان : « ان تجاربنا مع فريق الزنوج قدمت لنا دليلا على أن نعتقد فى أن المناخ اكثر ملاءمة لهم عما هو للأجناس الحمراء أو البيضاء ··· فالهندى يلذ له ظل الأشجار فى الغـابة بينما يتهلل زنوجنـا فرحا فى حرارة الشمس » · وقـد لاحظنا أنه بينمـا يعيش قليل من الهنود الى ما بعد الأربعين فقـد وجد كثيرين من الزنوج المسنين فى البرازيل ، وكانوا لا يزالون محتفظين بنشاطهم وحيويتهم ·

«Exploration of the Valley of the Amazon» (2 vols., Washington, D. C., 1854), 1, 302.

قارن تعليقـات فريرى : « كان لدى الزنوج شىء من الاسـتعداد الطبيعى البيولوجى والنفسى للمعيشة فى المدارين · وخصوبتهم أكثر فى الأقاليم الحـارة ، يحبون الشمس ، والنشـاط ، ودائما تبـدو عليهم النضارة والجدة عندما يجدون أنفسهم فى الغـابة المدارية » ·

Herndon and Gibbon, op. cit., 1. 337.

(٨) « كان العبد الزنجى يبدو سعيدا جدا فى البرازيل · وهـذا ما كان يلاحـ.. جميع الأجانب » ·

Herndon and Gibbon, op. cit., 1, 337.

(٩) ساعد على ارتقاء المولدين ، كما ساعد على ارتقاء العبيد ، عملية التحرير التى كانت تتم بالتدريج أكثر منها طفرة ، وهـذه العملية حررت فى البرازيل معظـم الطبقة الدنيا للمجتمع من المركز الحقير ، تدريجيا وكأفراد ، فى ظروف ملائمة لاستمرار تلك الروابط الشخصية الودية التى ساعدت على خلق « شخص محرر جـديد » ·

Pierson, «Negroes in Brazil.» (Chicago, 1942), P. 171.

(١٠) كان تحرير الشخص لعبيده تقليدا فخريا ، وكان الناس يوفون به فى مناسبات عدة » ·

Tannenbaum, op. cit., P. 58.

(١) « الزنوج آخذون الآن فى الاختفـاء سريعـا فى البرازيل ، يمتصهم الجنس الأبيض ، وفى بعض الجهات يبدو أن الاتجاه هو نحو تثبيت الدماء المختلطة فى سلالة اتنوجرافية شبيهة بالبولينيزيين » ·

Freyre, «Brazil : An Interpretation», P 96

(١٢) يقول فرانك تاننبوم عن التسلح التقليدى البرازيلى ازاء اختلافات اللون : « للزنجى فى البرازيل ، وخصوصا المولد ، طريق مفتوح للثقافة ودور يقوم به فى الحياة الاجتماعية غير معروفين فى الولايات المتحدة • وقد وجد المولد فى مجالات السياسة وفى الفنون وفى المجتمع الباب مفتوحا قليلا ، حتى ولو لم يكن مفتوحا على مصراعيه وبدأت تنشأ بيئة اجتماعية مختلفة اختلافا واضحا • وحتى فى ظل الامبراطورية كان الزنجى والمولد ـ ومن الناحية الاجتماعية المرأة المولدة الجذابة ـ يحظون بقبول لا يمكن تصوره على مسرح الحياة فى أمريكا » •

op. cit., P. 4.

(١٣) « المولدون من هنود وزنوج (السامبو) أشد من المولدين من بيض وزنوج ، فهم يتصفون بالشراسة والعناد ، وفيهم كثير من أخلاق الزنجى الافريقى ، ولكنهم على استعداد لاقتراف رذائل أكثر • وترتكب هذه الطبقة من السرقات والاغتيالات عددا أكبر من جميع الطبقات الأخرى ما عدا المولدين من زنوج وصينيين (Chinos) فهؤلاء أسوأ طبقة مولدة فى الوجود : أفرادها قساة القلوب ، يدفعهم الانتقام ، لا يتسامحون ، دميمو الخلقة كما لو أن مظهرهم يعبر عن دخيلة نفوسهم ، كسالى ، أغبياء ، ويثيرون فى المرء الغيظ » •

W. B. Stevenson, «A Historical and Descriptive Narrative of Twenty Years Residence in South America» (3 vols., London. 1825), I. 309.

ويصف فراى فاثكيث دى اسبينوسا المستعمرة التى زارها فأثارت اهتمامه والتى كان يقطنها السامبو فى اقليم اسميرالداس • فقد كان الناس يعتقدون انهم انحدروا من عبيد جنحت بهم سفينة فنزلوا الى البر وقتلوا الرجال من الهنود فى ذلك المكان واغتصبوا نساءهم • ويكتب عن هؤلاء فيقول : « ان لهم شكلا جميلا ، وجميعهم يضعون فى فتحة الأنف وتدا ذهبيا ويضعون على صدورهم لوحات ذهبية مصورة وفى آذانهم أقراط ذهبية على شكل حلقات » •

«Compendium and Description of the West Indies» (tr. from the Spanish, Washington, D. C., 1942), P. 375

وكتب عنهم ستيفنسن : « طوال الاجسام ويميلون الى النحافة ، ويميل لونهم الى الحلكة الخفيفة ، ولهم شعر ناعم مجعد ، وعيونهم

واسعة ، وأنوفهم فطساء قليلا ، وشفاههم غليظة ، وتغلب فيهم صفات الزنوج على صفات الهنود » ٠

op. cit., II, 387.

(١٤) كتبت مدام كالديرون دى لا باركا تصف غذاء راقصا حضرته فى هافانا تقول : « بعد العشاء بدأنا نسلى أنفسنا بمشاهدة الزنوج والزنجيات يقدم بعضهم الى البعض المسكرات ويفتحون زجاجات الشمبانيا الطازجة ويشربون ويسيغون كل شيء على موائد العشاء دون أقل اهتمام نحو سيدهم أو سيدتهم » ٠

«Life in Mexico During a Residence of Two Years in that Country» (Everyman Edition), P. 16.

(١٥) « كان الزنجى مغنيا ، مغنيا متأصلا ولا يمكن تقويمه » ٠

Lins Alberto Sànchez, «Vida y Pasion de la Cultura en América» (Santiago, 1935), P. 53.

(١٦) Juan and Ulloa, op. cit., I. 1, 31 - 32.

كتب توماس جيدج يصف بعض تأثيرات الأنماط السائدة فى الملبس بين الطبقة الدنيا من النساء الملونات فى مدينة المكسيك يقول : « ان زى هذا النوع المنحط من شعب المغاربة السود والمولدين خفيف جدا وقاماتهن مغرية الى حد أن كثيرا من الاسبانيين ، حتى من الصنف الأفضل (الذين كانوا على استعداد لمباشرتهن) يتنصلون من زوجاتهم من أجلهن » ٠ وكما كانت القاعدة المتبعة يضيف تذييلا فيقول : « كانت ظهورهن العارية ونهودهن السمراء مغطاة بمدليات معلقة من سلاسل من اللؤلؤ ٠ »

Gage, «A New Survey of the West Indies, 1648» (New York, 1929), pp. 85 - 6.

(١٧) ان عدد الرجال المحررين كبير جدا : فالقوانين والعادات الاسبانية تحبذ تحرير العبيد فلا يستطيع السيد أن يرفض حرية عبد يعرض عليه مبلغ ٣٠٠ بيسو حتى ولو كان العبد قد كلفه ضعف هذا المبلغ ٠ وان عدد الأشخاص الذين يتركون فى وصاياهم تحرير عدد معين من العبيد يزيد فى ولاية فنثويلا عنه فى أى مكان آخر » ٠

Humboldt, op. cit., IV, 161.

(١٨) فى الحالة التى يكون فيها المولد نتاجا من امرأة بيضاء ورجل أسود فان الدافع الذى يساور المرأة هو عادة الانتقام من مغازلات زوجها للنساء المتعددات الأجناس • وعن وجهات النظر المختلفة فى هذه المشكلة أنظر

Depons, «A Voyage to the Eastern Part of Tierra Firme» (tr. from the French, 3 vols., New Tork, 1806), I, 160.

(١٩) كانت القيمة الاجتماعية الكبيرة التى تضفى على البشرة الفاتحة مشجعا على هذه الاتصالات • وبعد تصنيف التدرجات المتعاقبة للسكان المولدين فى كارتا خينا كتب خوان وأيووا يقولان : « ان كل شخص غيور على رتبة قبيلته أو طبقته الى درجة أنك اذا ألصقت بهم دون انتباه رتبة أقل من رتبتهم الحقيقية فانهم يشعرون باهانة بالغة لأنهم لا يتركون أنفسهم أبدا يقاسون من حرمانهم من هذه المنة العظيمة التى واتاهم بها الحظ » •

Juan and Ulloa, op. cit., I, 29 - 30.

وقد لاحظ كابتن وودز روجرز القرصان الانجليزى بعد نهب جواياكيل أن « ملك اسبانيا قادر على أن يبارى بجلود رعاياه الأمريكانيين أى لون بتنوع ودقة أكثر من استطاعة تاجر الأجواخ بقماشه وزركشته » •

«A Cruising Voyage Round the World» (London. 1928) P. 150.

وكانت السلطات الملكية لاعتبارات معينة تعطى شهادات رسمية ببياض بشرة المولدين • كتب مسيو ديبون يقول : « فى أثناء اقامتى فى كاراكس حصل جميع أفراد عائلة ملونة من الملك على كل المزايا التى تختص بالبيض » • ومن أكثر هذه المزايا تقديرا كان الحق فى الركوع على سجادة الكنيسة » •

Dupons, op. cit., I. 168.

(٢٠) « المناخ حار وضار ، ولو أنه صحى بالنسبة الى الزنجى والمولد • ولهذا السبب ، ولكونه ميناء غنيا يعيش كثير منهم هناك » •

Vazquez, op. cit., P. 169.

(٢١) ربما كان المولد الذى ينتمى الى الطبقة الدنيا ، كالزنجى الحر ، قد ساهم أيضا بأكثر من نصيبه فى الفوضى والجريمة فى كل من وعصرى الاســتعمار والجمهــورية • كتب هيرندن وجبن يقــولان : « السفاحون الزنوج فى طرق بيرو العامة أكثر تهورا وقسوة من كل من الاسبانيين أو المولدين من هنود وزنوج » ثم يقولان عن طاقم السفينة على الأمزون : « كنا نأمل أن نتخلص من أولئك الزنوج الأحرار الوقحاء أنصاف المتوحشين الذين رفضوا باصرار اطاعة سلطات المدينة (بوربا) •
Herndon and Gibbon, op. cit., I. 285, 312.

(٢٢) عقب المسافرون الفرنسيون الذين زاروا كوبا فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر فقالوا ان النساء الوحيدات فى الجزيرة اللائى يستطعن مداومة التحدث كن المولدات • وعن مركز المولد فى مجتمع ليما فى أوائل القرن التاسع عشر أنظر :
Stevenson, op. cit., I, 307.

(٢٣) كان المحور لتقريظ من وندل فيلبس الأمريكى المشــهور نصير حركة الالغاء •

(٢٤) كان جنرال ليكليرك ، بزواجه من بولين بونابرت ، صهرا لنابليون الذى كان فى ذلك الوقت قنصلا أول للجمهورية الفرنسية •

(٢٥) انظر

Richard Pattee, in Charles C. Griffin, ed., «Concerning Latin American Culture» (New York, 1940), P. 23.

ويعد باتى من أحسن الثقات الأمريكيين معرفة وتفهما لهايتى •

(٢٦) انظر
H. P. Davis, «Black Democracy : The Story of Haiti» (New York, 1928),
وأيضــا Spencer st. John, «Haïti» (London, 1889)
وأيضــا
Dante Bellegarde, «La Nation Haitienne» (Paris, 1938).

(٢٧) نودى بثــلاثة من حــكام هايتى ـــ دســالين وكريستوفه وسولوكى ــ ملوكا أو أباطرة •

(٢٨) أكثر المؤلفات استيفاء لهذا الموضوع هو

James G. Leyburn, «The Haïtan People» (New Haven, 1941).

(٢٩) معرفتك بمواطن هايتى العادى تشعرك بمحبة شديدة نحوه وليست حياته سهلة فى أى وقت من الأوقات ، ومع ذلك فهو يتحملها بروح جميلة حقا » .

Leyburn, op. cit., 295.

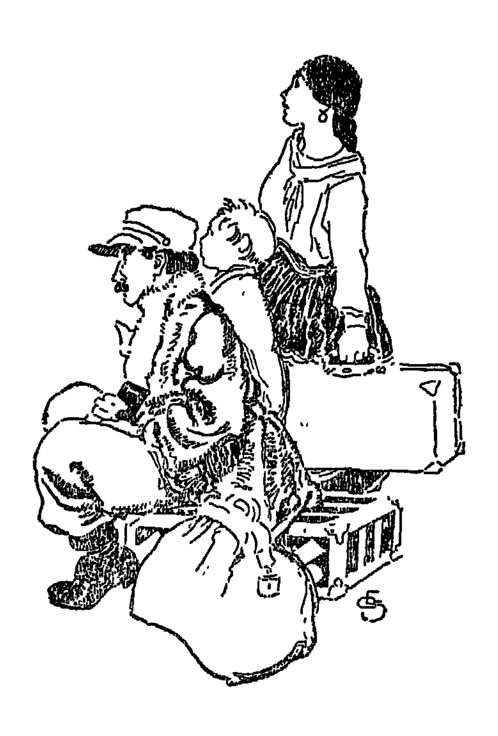
(٣٠) دبلوماسى فرنسى وعالم ، مؤلف

«Essai sur l'inégalité des race humaines,»

واذا أردت نموذجا لتأثير « نظريته الآرية » على الحركة الفكرية فى أمريكا اللاتينية أنظر .

Francisco Garcia Calderon, «Latin America : Its Rise and Progress» (tr. from the French, Lodon, 1915) pp. 355 - 62.





الفصل السادس

الأجنبي

نص أحد قوانين الهند الغربية على أنه « لا يجوز لأى أجنبي أو شخص محظور عليه أن يتاجر فى الهند الغربية أو يذهب إليها » ما لم يمنح مسبقا الجنسية ويصرح له من بيت التجارة(*) وكان هذا فى سنة ١٥٩٢ ، أى بعد قرن من الكشف . وكانت القوانين التى تمنع أو تراقب الأجانب منفذة من أوقات مبكرة ، ولكن مجموعة التشريعات التى سنت ضد الأجانب والتى صيغت فى وقت لاحق فى « المجموعة » (**) لم تبدأ فى الظهور كمراسيم ملكية (***) حتى بعد منتصف القرن السادس عشر . وتمشيا مع أغراض

(*) Casade Contrataciòn

(**) "Recopilaciòn de Leyes de los Reinos de las Indias" 1680

(***) Cédulas

القوانين المقيدة يمكن للأجنبي أن يكتسب الجنسية إذا كان قد عاش فى إسبانيا أو الهند الغربية عشرين سنة على شريطة أن يكون قد امتلك فى بحر هذه المدة منزلا أو متاعا تصل قيمته إلى ٤٠٠٠ دوكات ، وأن يكون متزوجا امرأة إسبانية أو ابنة لأجنبي مولودة فى إسبانيا .

وأشد قوانين المنع صرامة قانون سنة ١٦١٤ الذى ينص على تحريم التجارة مع الأجانب فى الهند الغربية تحت طائلة الإعدام ومصادرة الممتلكات . وليس هناك سجل ما يستدل به على تطبيق هذه العقوبة المتناهية الشدة ولو مرة واحدة . ونص قانون سنة ١٦٠٢ على أن الموظفين الرسميين فى المستعمرات عليهم أن « يطهروا الأرض من الأجانب والأشخاص المشبوهين فى الأمور المتعلقة بالعقيدة » . فجميع هؤلاء الضالين وجب أن « يطردوا إلى خارج الهند الغربية » ، لأنهم يهددون العقيدة الارثوذوكسية التى يعتنقها السكان الأصليون و« الناس الجهلة » الآخرون . وكإجراء وقائى كان على سلطات نائب الملك أيضا أن يبذلوا جهدهم لمنع الأجانب الذين استقروا فى الهند الغربية من إخطار حكوماتهم الوطنية عن أحوال الدفاع التى كانت عليها المستعمرات الإسبانية . أما الأجانب الذين يسمح لهم بالذهاب إلى الهند الغربية فقد كان محظوراً عليهم أن يبقوا فى المدن الساحلية ، وأما الأجانب غير المتزوجين الذين وجدوا يقطنون على سواحل أمريكا الإسبانية فقد وجب أن يطردوا فوراً من الهند الغربية ما لم يكن لديهم تراخيص من الحكومة بالإقامة .

ولم تطبق القوانين التى سنت ضد الأجانب على أصحاب الحرف التى كان يعلن عن مهارتهم بأنها « ذات قيمة للجمهورية » ، غير أن المقصودين منها فى أغلب الأحيان كانوا هم التجار . وقد نص على أن الغرض الأساسى هو « تطهير الجمهورية من الأشخاص غير اللائقين والإبقاء على أولئك الذين

هم نافعون وضروريون ، بينما تحمى سلامة عقيدتنا المقدسة الكاثوليكية » .
وكان على الموظفين أن يكونوا متساهلين عند تطبيقها على الأجانب الذين طالت مدة إقامتهم ، أو أولئك الذين أدوا خدمات نافعة فى فترة الكشف أو الحروب الأهلية أو « تعديلات » فى الفتح ، أو المتزوجين الذين أنجبوا أبناء وأحفادا . وكانت هناك دائما تنازلات خاصة بالنسبة إلى أولئك الذين أرسوا قواعد (*) فى المستعمرات . فقد يسر لمثل هؤلاء أن يحصلوا على الترخيص الضرورى أو « اتفاق » للبقاء فى الهند الغربية ، ولو أنه نص على شرط أن يعيشوا فى الداخل وأن يمتنعوا عن التنقل من منطقة نائب ملك إلى أخرى . بل كان فى استطاعتهم أيضا أن يحصلوا على هنود لمزارعهم .
وأعفى البرتغاليون مدة طويلة من تطبيق النصوص القانونية ضد الأجانب ولكنهم بعد سنة ١٦١٤ كانوا يعاملون معاملة الدخلاء .

تلك كانت سياسة إسبانيا الرسمية . وكانت دوافعها مكونة من ثلاثة اعتبارات ، سياسية واقتصادية ودينية : أمن الامبراطورية الاستعمارية ، واحتكار إسبانيا التجارة مع المستعمرات ، والحفاظ على الأورثوذوكسية الكاثوليكية ضد طغيان الضلالة . ويبدو أن القوانين التى تضمنت هذه السياسات نفذت بعدم اكتراث من قبل الموظفين الذين كلفوا بتنفيذها .
وكانت بعض المستعمرات مثل باراجواى ترحب بالأجانب على الدوام(١).
وكانت السلطات الاستعمارية قابلة للتأثر بمصالحها الشخصية ومتحفظة فى تفهم التشريع نفسه ، أو بروابط الصداقة ، وهى الدافع القوى الذى يسمو بسهولة فوق الالتزامات الرسمية بين الشعوب الإسبانية . وأدركت الحكومة فى إسبانيا أخيرا عدم جدوى مجهوداتها لضبط دخول الأجانب إلى العالم الجديد ، وفى سنة ١٦٦٧ أصدرت قانونا آخر تأمر فيه نواب الملك

(*) فى الأصل : جذور

والحاكم والمحافظين بحصر جميع الأجانب غير المرخصين ، فى دوائرهم وترسلهم « طردا » إلى « بيت التجارة » فى إشبيلية ويتص القانون على أنه « ليس هناك حظر تكرر مرارا أكثر من الحظر المفروض على الأجانب غير المرخصين الذاهبين إلى الهند الغربية كما يقرر دائما بالقوانين والمراسيم الكثيرة » ، ثم يضيف : « وليس هناك ماهو أهم من تنفيذها » . وفيما عدا دفعة وقتية فى التنفيذ ، ليس هناك مايدل على أن قوانين الحظر كانت تراعى بعد ذلك أكثر من ذى قبل ، ولو أن بعض كبار موظفى نواب الملك استمروا بين آونة وأخرى يأخذون على عاتقهم تنفيذها مأخذا جديا فى معاملتهم للأجانب . وفى ذلك الوقت كان الخوف من محكمة التفتيش أعظم رادع مخيف للأجانب غير المرخصين فى الهند الغربية الإسبانية . وكانت حماسة محكمة التفتيش على الأقل ثابتة ، كما لم تتعود أن تكسب صداقات .

وكان الإسبانيون فى العصور الوسطى ، شأنهم شأن معظم الأوربيين ، ينزعون إلى أخذ الحذر من الدخلاء . وكانت أوروبا ، فى تنظيمها ومظهرها وعلى ما كانت عليه من تقسيمات سياسية كثيرة ، مؤسسة على نظام الأبروشيات . ولم يكن هناك شعب كسكان شبه جزيرة أيبيريا ، مع انعزالهم عن الكتلة الأوروبية بحاجز جبال البرانس ، أكثر عقلية أبروشية منهم . فلم تكن الشعوب الإسبانية سيئة الظن بالشعوب الأخرى فقط ، ولكن أهالى البلاد التى تنتقل من سيطرة ملك إلى سيطرة ملك آخر يرتاب بعضهم فى بعض ، وكان اهالى قشتالة يعاملون الباسك ومواطنى كتالونيا ونافار بعد بدء عصر الإمبراطورية الإسبانية بوقت طويل معاملة الغرباء .

وكان بغض الأجانب الشديد الذى شارك فيه الإسبانيون الفرنسيين والألمانيين هو النتيجة الطبيعية لظروف تلك الأوقات . ففى عصر ساد فيه الاضطراب كالعصور الوسطى ، حينما كانت الجيوش المتجولة ، سواء

أكانوا من الفايكنج ، أم خرجوا من اسكنديناوة . أم جيوش المغول الجرارة النازحة من آسيا ، أم الفرق المغيرة عبر النهر ، تسبب على الدوام الإزعاج للناس الصغار وهم ماضون فى حياتهم ، كان طبيعيا أن يقرن الناس الغريب بالعدو . وبالنسبة إلى الطبقات الدنيا — ومعظم أوروبا كانت طبقة دنيا — كانت مبادىء العالمية وأخوة الإنسان للإنسان مبادىء لا يستطيعون إدراكها — أو تدخل فى دائرة حب استطلاعهم. وكذلك كان غير مألوف لديهم شعور القومية أو روح الوطنية التى يكون الولاء فيها لدولة مبهمة، ويكرهون من يعيشون خارج حدودها.

ووافق كشف وفتح العالم الجديد فى التوقيت سلسلة من التغيرات الخطيرة الشأن فى حياة إسبانيا قدر لها أن تصبح ذات أثر عميق فى مزاج شعوبها . ففى أوائل القرن السادس عشر انقلب ما جبل عليه الإسبانى من الزهو الغريزى إلى بغض الأجانب . وفى سنة ١٥١٣ قال فرانسسكو جيشيا رديى سفير البندقية فى البلاط الإسبانى ، وملاحظ أريب لعادات الإسبانيين : « فى قلوبهم للأجانب حب قليل ويظهرون لهم وقاحة زائدة». وفى ذلك الوقت كانوا قد أجلوا قبل فترة قصيرة فقط البقية الباقية من المغاربة فى شبه الجزيرة، وساقوا الفريق المعارض من السكان اليهود إلى المنفى للأبد. وأسسوا موطىء قدم حصين لهم فى إيطاليا ، وفتحوا عالما جديدا فيما وراء الأطلنطى . وأخيراً اتحدت الممالك الإسبانية فى شبه الجزيرة تحت حكام أقوياء وعقلاء ، استطاعوا أن يثيروا الإخلاص الحماسى الذى يكنه لهم رعاياهم . فلا عجب أن تأصل فى ذلك الوقت ما اشتهر به الجنس من زهو وانقلب إلى كبرياء جديدة واحتقار للأجانب ازداد باتساع دائرة الفتح . وعندما شاهد السنيور برانتوم الجند الذين لا يغلبون فى مسيرتهم قال إنهم كانوا فى استعراضهم يمشون منتصبين كالأمراء ، ذلك أن الإسبانيين

قد دخلوا فى « قرنهم الذهبى » رافعى رءوسهم عالية، وتعلو وجوههم أنفة ضد الشعوب الأخرى .

واتخذ الارتياب فى الأجانب من جانب البرتغاليين شكلا أخف كثيرا منه من جانب القشتاليين . فلقد رفعتهم علاقاتهم مع شعوب آسيا القديمة، والتى كانت على درجة عالية من الحضارة فى أوائل القرن السادس عشر ، مكانا مشهودا من ناحية التسامح قبل الأجناس الأخرى خلال فترة توسعهم فى العالم الجديد (٢) ، وكانوا ، كالإسبانيين ، شعباً معقداً من الناحيـــة الإثنوجرافية . وكانوا قد تأثروا كثيراً بالاختلاط مع الشعوب الأوروبية النازحة من الشمال فى أيام الحروب الصليبية . ومع ذلك يبدو أنهم مثلوا مختلف العناصر الغريبة فى تركيبهم الجنسى — المغربيـــة ، واليهودية ، والجرمانية ، وفى عصر أحدث بكثير ، الزنجية — مثلوها بدرجة أكبر من النجاح ، وبتوترات أقل من حيث النتائج المترقبة عما فعل الإسبانيون . أضف إلى ذلك أن زهوهم لم يكن يسانده أى شعور عن قوة بلادهم التى كانوا على علم بها دون ما أوهام . ولذلك فقد كانوا ينزعون ، فى كل من أوروبا والبرازيل ، إلى أن يظهروا عداء أقل بكثير نحو الشعوب الأخرى الذين اتصلوا بهم . وكان المقياس الوحيد الذى طبق للسماح للأجانب مقياسا دينيا (٣) .

ونتج عن حركة الإصلاح البروتستانتى والانشقاق الذى صاحب ذلك فى العالم المسيحى أن تشدد الإسبانيون فى عنادهم القومى كحماة للعقيدة الكاثوليكية . فلم يكن الغريب حينذاك محل ثقة لأنه ضال أو مشتبه فى دينه ، كما أنه أجنبى . وبتضاعف عدد الخوارج فى أوروبا وظهور الهرطقة(*)

(*) الخروج عن الدين والعقيدة السائدة .

حتى فى شبه الجزيرة تحت ستارات مختلفة ، نزع الإسبانى ، الذى لم يستسلم لقبول فروق مراوغة ، إلى إدماج جميع الغرباء مع مخالفى تعاليم الدين ، وزاد نزوعه هذا قوة . فقلما كان يرسم خطا للتمييز بين الاثنين ، كما فعل بدرو مينينديث دى أفيل عندما أباد مستعمرة للهيوجينوت فى فلوريدا وأعلن أنه عامل ضحاياه « لا كفرنسيين، ولكن كأتباع للوثر » وفى هذه الأثناء قوت جهود الكنيسة ، وبصفة خاصة جهود محكمة التفتيش ، فى محاربة الضلالة فى الممتلكات الإسبانية. روح عدم التسامح بين أفراد الأمة فلقد تقرر أن تصبح محكمة التفتيش فى ذلك الوقت الأداة الرئيسية فى معركة الحكومة ضد الأجانب ، لأن الخروج عن الدين والخيانة كانا فى عقلية الإسبانى واحداً ونفس الشىء .

ولقد خففت الفردية الإسبانية فى الواقع من روح العنصرية العدوانية للأمة . فبينما نزعت إلى أن تكون عدوانية نحو الأجانب فى مجموعها فقد تعود الإسبانى أن يحكم على الأجنبى منفردا بجدارته كشخص أكثر منه كغريب ، ويعامله وفق ذلك . أضف إلى هذا أن إنسانيته الأصيلة جعلته يكون منصفا للأجانب الذين كانت تنتابهم الشدائد ، وكانت هذه ظاهرة شائعة فى المكسيك من جراء المعاملة الكريمة التى كان يلقاها رجال هوكنز الإنجليز من المدنيين الإسبانيين فى المنطقة . فلم يقاسوا من الإهانات أو المعاملة القاسية على أيدى الإسبانيين إلا إذا وقعوا فى أيدى الموظفين الملكيين أو ، بصفة خاصة ، رجال محكمة التفتيش .

فإذا كانت محكمة التفتيش ، وهى جزء من أداة الإشراف السياسى الملكية معادية للأجانب معاداة لا تلين قناتها ، فقد كانت الأوامر الدينية تميل إلى أن تكون عالمية فى صياغتها ووجهتها . فقد كان هذا أمراً واقعاً بصفة خاصة بالنسبة إلى جمعية يسوع التى كانت صفتها الدولية أحد العوامل

التى أدت بالحكومة الإسبانية إلى حلها نهائيا . ويجد المرء من بين الإرساليات اليسوعية البارزة فى العالم الجديد كثيرا من الأسماء غير الإسبانية مثل فرتز ، وسونتاج ، وكينو ، وفيلدز ، وجرفاسونى .

الايطاليون فى الفتح

اشترك كثير من الإيطاليين ، بجانب الإخوة كولمبس : كريستوف وبارثولوميو وديجو ، فى كشف وفتح العالم الجديد . وكما لو كان منتظراً كانت أغلبيتهم من أهالى جنوة أو رجالا من أماكن أخرى على الساحل الليجورى . وكما لاحظ المؤرخ بيتر مارتر ، كان تأثير الأميرال ، وفى وقت لاحق تأثير ابنه ديجو ، كبيرا لدرجة مكنت زملاءهما الجنوبيين من الحصول على التراخيص اللازمة . فقد قاد ميشيل دى كونيو من سافونا ، وصديق للأميرال ، السفينة نينيا فى رحلتها الثانية عبر الأطلنطى وكان بارثولوميو فيسكى ، من جنوة ، قائداً للسفينة فسكاينا فى رحلة كولمبس الثالثة . وكان كل منهما ملاحاً قديراً وعلى خلق وشجاعة . ومن جنوة أيضا ، ومن نفس النمط ، جيوفانى باتستادى باستينى ، وهو « مرشد وفريق ثان للبحر الجنوبى » . وقد أدى خدمة لا تقدر لفالدفيا فى فتح تشيلى بحماية الاتصال البحرى مع بيرو . ومن رجال البر ربما كان جوسيى دلا دوريا أشهر أهالى جنوة ، وكان من أوائل المستعمرين فى ساوفيسنتى فى جنوب البرازيل . وقد كان أحد أفراد بيت لامع فى الجمهورية ، وأثرى من مزارع قصب السكر . وفى سن معرضة للخطر عاش حتى بلغ المائة من السنين . وتزوجت ابنته من جون هوتهول ، وهو شاب إنجليزى مغامر قدمت له بائنة مصنعا للسكر وعددا كبيرا من العبيد ، وكان كرم الضيافة الذى اشتهر به دوريا نحو الأجانب الشرد أسطوريا ، كما كانت أعماله الخيرية . ومن بين أعماله هذه

تأسيس فرقة الكرمل فى المجتمع (*) . وعمل شخص آخر من أهالى جنوة يعرفه الإسبانيون باسم بلاس تستانوفا كطبيب لمستعمرة أسونثيون الناشئة فى باراجواى ، كما فعل طبيب إيطالى آخر هو لورنسو مينانليوتى بعد ذلك بنصف قرن .

ومن الإيطاليين الآخرين ، أشهرهم تاريخيا أمريكو فسبوتشى وسباستيان كابوتو أو كابوت . أما فسبوتشى الذى سمى على اسمه العالم الجديد ، فقد كان من أهالى فلورنسة (**) وأول ما ظهر كان فى إسبانيا فى سنة ١٤٩٢ كمندوب بيت مالى لآل ميديتشى . وترجع شهرته كملاح إلى الرحلات الأربع التى ادعى أنه قام بها لإسبانيا والبرتغال . وعلى الرغم من أن تقاريره نفسها عن تلك الرحلات مضطربة وغامضة فى بعض الأحيان لدرجة تبعث الشك لدى المؤرخين الجادين، فمن الواضح أنه أمضى وقتا كافيا فى البحر حتى اكتسب قدرا عظيما من الشهرة كملاح وعالم فى جغرافية المحيطات، كان من جرائها أن عين مرشداً أكبر (***) لإسبانيا . وكان ابن أخيه جيوفانى فسبوتشى مرشدا لسفينة أمير البحر فى أسطول بدرارياس دافيلا التى قصدت البرزخ فى سنة ١٥١٣ . ووفقا لرواية بيتر مارتر «كان جيوفانى قد ورث مقدرة عمه العظيمة فى فن الملاحة وجمع الإحصاءات» .

وكان سباستيان كابوت بندقى الجنسية تبعا للجنسية التى اكتسبها أبوه المولود فى جنوة وكان بحاراً ذا حظ عظيم ، وكأبيه ، ملاحا بلغ درجه الكمال . وتناوب الخدمة البحرية بين إنجلترا وإسبانيا . وفى خدمة إسبانيا

(*) جماعة الرهبان البيض، أو جماعة سيدة جبل الكرمل فى فلسطين، وقد أسست هنالك فى سنة ١١٥٦ .

(**) فيرنتسى .

(***) Pilot Major of Spain

قاد حملة فى سنة ١٥٢٥ كان القصد منها اتباع الطريق الذى سلكه ماجلان حول أمريكا الجنوبية ولكنه تحول إلى نهر بلات ، وصعد المجرى حتى نهر بارانا بعد أن جاءته تقارير عن ثروات عظيمة فى داخل القارة . وبعد عودته إلى إسبانيا من رحلة عديمة الجدوى إلى حد ما ، فقد حظوته لفترة ، ولكنه أعيد إلى وظيفة مرشد أكبر التى كان قد شغلها فسبوتشى الأكبر من قبل .

ومرت سنوات كثيرة بعد أن سار كابوت شمالا فى نهر بارانا . ثم جاء تاجر من جنوة اسمه ليو بانكالدو ، وكانت وجهته بيرو ، ومعه حمولة من البضائع وبدلا من أن يذهب إلى بيرو سار صاعدا فى النهر إلى أسونثيون . وهناك باع بضائعه إلى المستعمرين الإسبانيين المتلهفين ، وفتح باب التجارة الخارجيه بين باراجواى والعالم الخارجى ومن بين الإيطاليين الآخرين الذين ينتمون إلى أنماط مختلفة ووجدوا فى العالم الجديد فى وقت الفتح فرانسسكو دى لنتن الذى زامل بالبو فى دارين ، وبترودى أومبريا وهو قائد لسكونية(*) تابعة لنيكيسا فى الكاريبى ، وفرانسسكو كتتا الذى اشترك فى رحلة بدراداياس دافيلا ، ونيكولاس الفلورنسى ، حلاق الجنود الإسبانيين الملتحين فى باراجواى ، وشخص اسمه « كوردوس » وهو عالم طبيعى درس الحياة النباتية فى الهند الغربية . أما انطونيو بيجافتا ، وهو نبيل من البندقية فقد صاحب ماجلان وأصبح مؤرخ تلك الرحلة البطولية (٤) . وهاجر إلى شمال البرازيل أحد أفراد أسرة كافالكانتى اللامعين فى عصر الاستعمار .

وتبين سجلات « بيت التجارة » عبور عدد أكبر من الإيطاليين إلى الأمريكتين فى أثناء فترة الفتح . ففى سنة ١٥١٦ منح شخصان من نابولى

(*) brigantine : سفينة من نوع الابريق .

ترخيصين للذهاب إلى الهند الغربية وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ صرح لثلاثة من جنوة بعبور الأطلنطى فى سفن إسبانية – واحد منهم سمح له بالبقاء فى المستعمرات مدة أقصاها عشر سنوات . وفى سنة ١٥٢٤ رخص لاثنين من جنوة وواحد من نابولى بالقيام بالرحلة . وفى السنة التالية حصلت جماعة من جنوة مكونة من سبعة أشخاص على تراخيص خاصة بالذهاب إلى إسبانيا الجديدة ، ورخص لاثنين آخرين من جنوة وميلانو بالاشتراك فى رحلة مندوثا إلى نهر بلات . وفى سنة ١٥٣٦ سمح لمواطن من فلورنسة بالدخول إلى سانتودومنجو .

وسجل فاسكيث دى اسبنوسا أحد عشر شخصا من جنوة وسبعة من كورسيكا قاطنين فى مركز كاستروفرينا التعدينى فى منطقة الأنديز فى بيرو فى سنة ١٦١٠ ، وبضعة تجار من فس الموطن فى مدينة شوكيساكا (الآن سوكرى) . وفى سنة ١٨٠٨ ، بالقرب من نهاية النظام الاستعمارى ، كان ثلاثة عشر إيطاليا يعيشون فى سانتياجو أكبر مستعمرة أجنبية فى عاصمة تشيلى الإقليمية(٥) . وإن إصرار الإيطاليين على الهجرة إلى العالم الجديد رغم الحظر الإسبانى المستمر على السماح للأجانب لدليل على الحظوة العامة التى كان يوليها لهم الإسبانيون كمستعمرين نافعين وقادرين على تهيئة أنفسهم ، ولأن وجودهم كمواطنين لدول إيطاليا المدن ، وهى دول ضعيفة نسبيا ، لم يمثل أى تهديد سياسى لأمن الإمبراطورية الإسبانية .

الفرنسيون

أما بالنسبة إلى الفرنسيين فكان الأمر مختلفا وليس من المدهش أن الفرنسيين الوحيدين الذين عرف أنهم حصلوا على تراخيص من « بيت التجارة » للعبور إلى المستعمرات الإسبانية كانوا خمسة خبازى فطائر ، رخص لهم بالمضى إلى إسبانيا الجديدة فى سنة ١٥٣٨ . والاقتصار على تدوين أسمائهم

جيوم، وبييرو ، وهنرى ، وريموند ، وبيير ، دليل واضح على أنهم اعتبروا غير ضارين إلى درجة أن لا خوف من جهتهم لتهديد أمن منطقة نائب الملك. وقبولهم فى المكسيك «كمعلمين لعمل الفطائر» (*) دليل على التغير الذى سبق أن حدث فى نمط المعيشة بين الإسبانيين المحليين . فقد كان الفرنسيون مواطنى أمة قوية وعدوانية لها خططها الامبراطورية الخاصة ، وكانت تنظر بقدر طفيف من الاحترام نحو حق الأبوة الذى ادعته إسبانيا لنفسها على ممتلكات فى العالم الجديد . وحارب الإسبانيون والفرنسيون على سيادة إيطاليا ، كما كان فرنسوا الأول ملك الفالوا وشارل الخامس يتنافسان على سيادة القارة . وكان قبول فريق كبير من الفرنسيين لمذهب كالفن سببا فى أن الحكومتين البرتغالية والإسبانية اشتبهتا أكثر من أى وقت مضى فى الشعب الفرنسى، وهما الحكومتان الأورثوذكسيتان إلى درجة فائقة ، خصوصا بعد محاولات الهيوجينوت المرتدين لتأسيس مستعمرات فى البرازيل وفلوريدا . ولم يبدأ الفرنسيون القيام بمشروعاتهم على نطاق واسع إلا بعد انهيار إسبانيا الذى تلا حكم فيليب الثانى . ولكن بحلول ذلك الوقت كانوا مشغولين بمصالحهم فى كندا والهند ، كما كان يهمهم أولا وبالذات أن تتاح لهم فرص التجارة مع المستعمرات الإسبانية . وبعد أن اعتلى أمير من أمراء البوربون العرش الإسبانى باسم فيليب الخامس فى سنة ١٧٠٠ ، أصبحت سياسة إسبانيا فى جانب المصالح الفرنسية أكثر من ذى قبل . وقام تجار بريتانى ونورماندى الشجعان المغامرون فى فترة من التاريخ برحلات تجارية كما شاءوا إلى الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية وأرجاء أخرى من الإمبراطورية الإسبانية . ومع أنهم ، بصفة عامة ، قصروا مغامراتهم على السواحل فقد توغل بعضهم إلى المدن الداخلية ، كما فعل أكاريت دوبسكى فى سنة ١٦٥٨ . ولكن أكاريت كان فى أمريكا الجنوبية قبل التقريب(**) بين الملكيتين ،

(*) maes tros de hacer pastel

(**) ''rapprochement''

وكان عليه أن يقاوم الاشتباه التقليدى للإسبانيين فى الأجانب . فقد عبر إلى نهربلات على سفينة إسبانية تحت اسم مستعار ، « لأنه فى إسبانيا ، لا يسمح إلا للإسبانيين المولودين فيها بالسفر فى سفنهم إلى الهند الغربية» . وفى ميناء بوينس أيريس وجد سفينة هولندية وسفينتين انجليزيتين محملتين بالجلود والفضة وصوف الفيكونيا ، وسمع فى وقت لاحق أن الهولنديين وهم مقلعون إلى المحيط من النهر استولوا على فرقاطة (*) فرنسية وأعملوا السيف فى كل من فوقها من البحارة كنوع من ملذات المنافسة التجارية التى كانت سائدة فى ذلك العصر . وكتب تقريراً يقول فيه إنه عاش فى بوينس ايريس « بضعة من الفرنسيين والهولنديين والجنوبيين ، ولكنهم جميعا عدوا إسبانيين ، وإلا ما استطاعوا أن يقيموا هناك خصوصا أولئك الذين تختلف دينهم عن الكاثوليكية الرومانية ، لأن لمحكمة التفتيش قواعد راسخة هنا » . ووجد قليلا من الأجانب فى بوتوسى فى بيرو العليا . وبالإضافة إلى الهولنديين كان هناك بعض الفرنسيين من سان مالو وبايون وبروفانس ، وقد تخفوا تحت ستار نافاريين وباسك .

وعلى الرغم من الفترات الطويلة التى ساد فيها العـــداء الصريح بين المملكتين ، فإن مكاسب الفرنسيين الإقليمية على حساب إسبانيا كانت قليلة جدا . واهم هذه المكاسب كان الطرف الغربى لهسبانيولا الذى أسماه الفرنسيون سانت دومنج . ولكن هذا الاستيلاء كان من صنع القراصنة الفرنسيين الذين يحتمل أنهم كانوا يعملون مستقلين عن السلطة الملكية . وكان القراصنة الفرنسيون فى بعض الأحيان ينهبون السفن الإسبانية ومدن الكاريبى الساحلية فى أواخر القرن السابع عشر ، ويشركون معهم الإنجليز

(*) frigate بارجة

أو الهولنديين ، وفى بعض الأحيان كانوا يعملون لحسابهم وحدهم . وفى سنه ١٦٩٧ استولى أسطول فرنسى ، عليه أكثر من ٤٠٠٠ ، على كارتاخينا وبقى فيها حتى تدفع الفدية . ولما تناقصت قوته كثيرا بسبب المرض أقلع الأميرال الفرنسى حينذاك ولم يبذل مجهودا ما للاحتفاظ بالمدينة الهامة . وبعد إقلاعه أغار ألف ومائتان من القراصنة الفرنسيين كانوا يخدمون فى الحملة كمساعدين بلا رحمة على المدينة المنكوبة .

وكانت الخطط الفرنسية بالنسبة إلى البرازيل أكثر جدية وتصميما من محاولاتهم ضد المستعمرات الإسبانية . وعلى الرغم من أن سفنا من دييب وسان مالو يعتقد أنها زارت البرازيل فور كشف البرتغاليين لهذه البلاد ، فإن أول رحلة مسجلة هى التى قام بها بينوبولمييه دى جونفيلى أوف هونفلير فى سنة ١٥٠٣ . وكان هذا لسنوات عدة قبل أن بدأ البرتغاليون جديا تنمية مستعمرتهم الشاسعة التى أهملت لحساب تجارتهم المربحة مع الشرق . وفى هذه الأثناء كان الفرنسيون يقومون برحلات تجارية إلى الساحل البرازيلى ، ولما حان الوقت لكى يولى البرتغاليون اهتماما للبرازيل وجدوا أن التجار الفرنسيين قد وطدوا أقدامهم فى أنحاء البلاد . وربما ضم ملاحوهم أنصاف القراصنة خليطا من البرتغاليين ومن بلاد الباسك وجنوة وكتالونيا وأيضا من بريتانى ونورماندى . وبالإضافة إلى خشب الصباغة الذى اشتقت منه البلاد اسمها ، والذى كان أهم سلعة فى التجارة ، فإن هذه السفن كانت تحمل معها إلى فرنسا القردة والببغاوات لتسلية السيدات فى البلاط الملكى ، وأنواعا مغايرة من الفلفل والزنجبيل وخشب الورد وقطن الأشجار ورياش الأرارا وغيره من الطيور ذات الريش الجميل وغير ذلك من السلع التى جلبتها ، وكانت فى ذلك الوقت غريبة على شعوب أوروبا .

وعلى الرغم من أن البرتغاليين حاولوا إجلاء الفرنسيين الدخلاء

فى سنة ١٥١٦ فقد استمر الفرنسيون فى نشاطهم على طول الساحل بعد أن أسس مارتن أفونسو دى سوسا قواعد المستعمرة فى سنة ١٥٣١ . وفى ذلك الوقت كان للفرنسيين مركز تجارى بالقرب من الموقع الحالى لمدينة رسيفى ، ثم مضت سنوات كثيرة استمروا فى أثنائها يقاومون فى مارانياو التى تبعد كثيرا نحو الشمال ، وكذلك عند مصب الأمزون الذى كان لويس الرابع عشر يطمع أن يستولى على واديه لفرنسا . وفى منتصف القرن السادس عشر أسس الفرنسيون مستعمرة فى خليج ريو ظلت تقاوم هجمات البرتغاليين ، كما سلمت من الخلافات الداخلية بين البروتستانت والكاثوليك فى المستعمرة مدة اثنتى عشرة سنة . وكان الفرنسيون فى وطنهم يولون اهتماما زائدا فى إمكانات إنشاء « فرنسا القطبية الجنوبية » . وقد نجت البرازيل بصعوبة من أن تصبح نظيراً جنوبيا لكندا أو « فرنسا القطبية الشمالية » . ولكن العوامل الحاسمة فى تقرير مصير البرازيل كانت عدم الاكتراث الذى تعودته الحكومة الفرنسية إزاء الفرص العظيمة التى كانت تسنح لها ، ومقدرة البرتغاليين على مقابلة الأخطار فى أى وقت كانت المستعمرة فيه تهدد تهديداً خطيراً . على أن الفرنسيين فى النهاية قد تركوا آثارا قليلة بشكل ملحوظ فى كيان وحياة البرازيل وقدر لفرصتهم العظيمة فى أمريكا اللاتينية أن تأتى فى ظل الجمهوريات ، وعند ذلك لم تأت فى شكل ميزة سياسية أو تجارية، بل فى التأثيرات الثقافية .

الانجليز

لم يكن بد من أن تتحدى إنجلترا التيودورية مركز إسبانيا فى الهند الغربية وفى كل الطرق البحرية التى كانت تؤدى إليها بوصف كونها قوة بحرية وتجارية لها أطماعها الإمبراطورية الخاصة . وزاد اعتناق هنرى الثامن للمذهب اللوثرى الضال من المنافسة الطبيعية التى انقلبت شخصية ولا تقبل مصالحة فى حكمى إليزابيث وفيليب الثانى الطويلين . وقد عقب

رتشارد هاكاويت على محاولة دريك الاستيلاء على كارتاخينا ، وهو صاحب التقارير التى لا تبلى عن قصة الرحلات الإنجليزية ، فيسمى « الإسبانى ألد وأخطر أعدائنا » . وكانت المناسبة التى جعلت إسبانيا أسبق من إنجلترا إلى كشف العالم الجديد جرحا بالغا فى كبرياء إنجلترا ، وأثار غضبها إثارة كبيرة سياسة إسبانيا المانعة التى حجبت أبواب الهند الغربية عن جميع الأجانب . قال هاكاويت « إن من يطلع على مادونه الكتاب البرتغاليون عن الهند الشرقية والغربية سوف يرى بصفة عامة أنهم يعدون سائر الأمم الأخرى قراصنة وجوالين ولصوص بحار . من منهم يزور أى ساحل يقطنه وثنيون يكون قد سبق لهم ذات مرة أن مروا به أو توقفوا ينظرون إليه » . وينعى لورنس كيمس الملازم المخلص لرالى فى رحلته الأخيرة إلى جيانا على هنرى الثامن رفضه تقديم كولمبس « يوتوبيا جديدة » ، ويضيف قوله : « إن كفارة تلك الريبة تثقل كواهلنا حتى اليوم » . ومع ذلك فربما كان يعبر عن رأى معظم الإنجليز فى عصر إليزابيث عن الإسبانيين عندما كتب يقول « ومهما يكن الأمر فقد كان العالم يعرف سبب إعجابه بثباتهم وأعمالهم العظيمة . وقد يحق لنا أن نخجل من طباعنا الخاملة اليائسة المتراخية التى يمكنها أن تجد مجالا فى أمة أخرى عقيمة جائعة لا تستطيع أن تمتلك مثل ماامتلكته إسبانيا من العالم » ، لأن إسبانيا كما يضيف « بدون الهند الغربية ليست سوى كيس بلا نقود ، أو غمد منقوش بلا خنجر » .

وفى ثلاثة أرباع القرن السادس عشر الأخير كان نشاط الإنجليز موجها ضد المؤسسات الإسبانية فى العالم الجديد . وفى بعض الأحيان ، خصوصا فى السنوات المبكرة ، كان نشاطهم علانية للغاية ، كتجار أو مجرد مهربين ، كما فعل جون هوكنز فى رحلاته لجلب الرقيق . وأغلب رحلاتهم كانت لمهاجمة ونهب السفن ، أو كانوا يعملون كقراصنة صرحاء ، لأن قانونية المشروعات البحرية كانت غامضة فى ذلك العصر . وحيثما كانت هناك

حالة حرب رسمية بين البلدين كان الإنجليز صرحاء لا يردعهم رادع فى أعمالهم العدائية ضد الإسبانيين .

وفى سنة ١٥٢٦ كان توماس تايسون ، ولا يعرف عنه ماعدا هذا إلا القليل ، يعيش فى أمريكا اللاتينية كعميل لتجار إنجليز كانوا على مايبدو مهتمين بالإمكانات التجارية للمستعمرات الإسبانية الجديدة ،وكان الانجليز أحيانا يذهبون إلى العالم الجديد على سفن فرنسية بل وسفن إسبانية ،وصحب بضعة منهم سباستيان كابوت إلى نهر بلات فى سنة ١٥٢٦ ، وكان مع مندوثا ثلاثة فى أول تأسيس لبوينس ايريس فى سنة ١٥٣٥ . ونظرا إلى مهارتهم الخاصة برهنوا فى وقت لاحق على أنهم نافعون جدا إذا ضموا إلى المستعمرة المكافحة فى باراجواى ، وهم : ريتشارد لنكولن من بليموث ، حداد ، وجون روت (*) من لندن ، صـــانع بارود ، ونيكولاس كولمان من هامبتن .

وأول إنجليزى يقلع فى سفينة إلى أمريكا الجنوبية هو وليم هوكنز ، والد سير جون بطل الأرمادا وبطولات أخرى . وإذا اقتبسنا عبارة هاكلويت : « العجوز مستر وليم هوكنز من بليموث ، وهو رجل ، نظرا إلى حكمته وشجاعته وتجاربه ومهارته فى البحر ، جعل الملك هنرى الثامن يقدره حق التقدير ويحبه . ونظراً إلى كونه أحد قادة البحر العظام فى أرجاء إنجلترا الغربية فى زمانه ، ولم يقنع بالرحلات القصيرة التى كان يقوم بها الملاحون فى سواحل أوربا المعلومة لهم فقط ، فقد تزود بسفينة طويلة وجميلة المنظر حمولتها ٢٥٠ طنا واسمها بول أوف بليموث ، وبها قام بثلاث رحلات طويلة ومشهورة إلى ساحل البرازيل . وكان هذا عملا نادرا جداً فى تلك الأيام وخصوصاً بالنسبة إلى أمتنا ، وقام هوكنز برحلته الأولى

(*) Rute or Root

إلى البرازيل فى سنة ١٥٣٠ . وبعد حوالى عشر سنوات دخل روبرت رينجر وبضعة « تجار كبار وأغنياء من سوثهامبتن » مضمار التجارة « الهام والمربح » . وكان بين البرتغاليين والإنجليز صداقة تقليدية ، وكانت سفن ديفون وهامشير تأتى وتغدو كيف شاءت على طول السواحل البرازيلية حتى ضمت إسبانيا إليها البرتغال فى سنة ١٥٨٠ . وحتى فى أثناء « الأسر » الإسبانى استمر البرتغاليون فى معاملة التجار والبحار الإنجليز معاملة طيبة كلما كانت لديهم حرية التصرف .

وتوضح تجارب وليم ويتهول فى سوفيسنتى العلاقات الطيبة التى كانت سائدة بصفة عامة بين الشعبين فى البرازيل خلال نصف القرن الذى بدأ بأول رحلة قام بها وليم هوكنز . وكان ويتهول ، وقد تزوج من وريثة محلية ، شخصاً ذا أهمية فى المجتمع حول سانتوس . كتب إلى صديق له فى إنجلترا فى سنة ١٥٧٨ يقول : « أشكر الله الحى على أن بوأنى هذا الشرف ومنحنى هذه الوفرة من كل شىء » . وقد اصبح برازيليا صميما . وأضاف بزهو : « وأنا الآن أجنبى حر فى هذه البلاد » . ونتيجة لنداء ويتهول نظمت فى لندن جماعة « المغامرين إلى البرازيل » وفى سنة ١٥٨٠ أرسلت سفينة محملة بالسلع إلى سانتوس ليستبدل بها السكر وسلع أخرى تنتجها البلاد ،وكتب وهو يسجل السلع التى قد يشتد عليها الطلب فى البرازيل : « إن هذه الرحلة عظيمة القيمة كأية رحلة أخرى إلى بيرو » . ومن بين الأصناف التى يقترحها للحمولة بضعة آلاف ياردة من القماش — أقطان مانشستر ، صوف ، تيل ، حرير ، قطيفة ، أدوات صلبة — مسامير ، مقصات ، سكاكين ، ٦٠٠٠ صنارة لصيد السمك ، أقفال ، أطباق من الصفيح ، بلطات ، بلطات قصيرة اليد ، وحديد الزهر ، وخليط من أدوات أخرى كان يشمل : « أوتار القيثار » ، « صابونا أبيض » ، توابل نبيذا ، قمصانا ، صدريات ، قبعات ، أربعة وعشرين حزاما من الجلد ،

أوانى زجاجية من البندقية ، ثمان وأربعين رزمة ورق للكتابة ، وستة وثلاثين « جلبابا مجعدا » . وبعد أن حدد أن أية مراسلة تكون باسم جون ليتون (ليتاو) ، وهو الاسم الذى كان يعرف به محليا ، أضاف أنه يرغب فى أن يحصل لنفسه على اثنى عشر قميصا . وبصفة عاجلة ، « ست أو ثمان قطع من صوف لأوشحة السيدات ، وهو ألزم شىء يمكن إرساله » . ويعد الرد الذى وقعه خمسة أعضاء من الجماعة من لندن ضمن أحسن تقاليد التاريخ التجارى الإنجليزى . فقد كتبوا : « إننا نعد من جانبنا على عهدتنا وإخلاصنا ألا نرتكب أى اعتداء فى البحر أو فى البر ، وألا نسمح لشخص بخداع شخص فى جماعتنا نستطيع الغلبة عليه ، ولكن يجدر بنا أن نحمى جميع التجار المسالمين مثلنا بسفنهم وبضائعهم » ، ويطلبون من ويتهول أن يخبر البرتغاليين « أن السبب الحقيق لحضورنا هو أن نتبادل السلع كتجار مسالمين لا كقراصنة يلحقون الأذى بهذا أو ذاك » . وعندما وصلت السفينة « منيون أوف لندن » بعد ثلاثة أشهر من إقلاعها من هارتش إلى نهر سانتوس ساد الابتهاج والرضا بدرجة زائدة بين السكان المحليين، وكانت فوقها هدية لويتهول وزوجتـــه عبارة عن سرير جميل من خشب الجوز « بظلة ودائر وستائره ونتوءاته الموشاة بالذهب » .

وهدد ملاحو سفن إدوارد فنتون غير النظاميين لفترة قصيرة ، وهى السفن التى كان قد أفزعها وأجلاها عن المياه الجنوبية الأسطول الكبير الذى كان يقوده دييجو فلورس دى فالديث ، بإفساد العمل الجليل الذى كان يقوم به ويتهول والتجار اللندنيون . وبعد ذلك فى سنة ١٥٩٤ داهم جيمس لانكاستر فى « رحلة محكمة وموفقة » برنامبوكو (*) وأغار على السفن البرتغالية فى الميناء ، وكل هذا بمعاونة السفن الهولنـــدية والفرنسية التى

(*) الآن رسيفى .

تصادف وجودها راسية فى المرفأ . وكإهانة أخيرة من جانب لانكاستر أجبر أربعين أسيراً برتغاليا على جر العربات محملة بالغنائم إلى الميناء ، « وقد أراحتنا هذه العملية كثيراً ، لأن الجو فى هذه البلاد حار جدا وردىء لشعبنا لكى يبذل مجهودا شاقا فيه » . وعلى الرغم من أن البرتغال كانت وقتئذ ولاية لإسبانيا ، فقد استمر البرتغاليون زمنا طويلا يذكرون عنف إغارة لانكاستر . وبعد أن استرجعت البرتغال استقلالها فى سنة ١٦٤٠ مضى بعض الوقت قبل أن يرحبوا ثانية بالتجار الانجليز . ومع ذلك فعندما رسا وليم دامبير ، الملاح المشهور والقرصان الذى هذب سلوكه ، فى باهيا (*) فى سنة ١٦٩٩ فى طريقه إلى استراليا لقى معاملة طيبة من جانب البرتغاليين . كتب يقول : « لقد قوبلت باحترام زائد ، ليس فقط من قبل هذا السيد (المشرف على الميناء) ، ولكن من جميع أفراد تلك الأمة هنا وفى الأماكن الأخرى ، والذين كانوا على استعداد ليقدموا لنا خدمات فى كل الظروف » . ووجد فى باهيا « شخصا اسمه مستر كوك ، وهو تاجر إنجليزى ، وكان سيداً متمدنا وله شهرة طيبة ، وقد حصل على ترخيص ليكون قنصلنا الإنجليزى » . وكان فى باهيا فى ذلك الوقت دانمركى واثنان من الفرنسيين . وكان التجار الإنجليز يتاجرون علانية فى الموانىء البرازيلية فى القرن الثامن عشر . فمثلا فى خلال خمسة عشر شهرا فى ١٧٩٣ — ٩٤ دخلت سبع وثلاثون سفينة معظمها بريطانية ميناء ريودى جانيرو .

وبدأ بضعة تجار إنجليز فى تجارة مرجوة مع أمريكا الإسبانية خصوصا المكسيك فى أواسط العقد الأول من القرن السادس عشر . وفى ذلك الوقت كان يبدو أنهم قد تعودوا أن يتاجروا بحرية كاملة مع إسبانيا . وهناك أقام بعضهم فى إشبيلية وقادس . وبدا أن اعتلاء مارى ، وهى نصف إسبانية ونصف كاثوليكية ، عرش إنجلترا فى سنة ١٥٥٣ ، ثم زواجها من فيليب

(*) الآن سلفادور .

الثاني في السنة التالية ، قد يخلق جوا مناسبا للتجارة في سلام . غير أن اعتلاء إليزابث العرش في سنة ١٥٥٨ كان من شأنه أن يقوض هذه المزايا شيئا فشيئا . وفي أثناء حكمها أصبحت العلاقة بين الإسبانيين والإنجليز ، في أحسن صورة لها ، تعد علاقة سوء النية ، وفي أردأ ما وصلت إليه ، عداوة مريرة إلى أقصى حد . فمن ناحية كان هناك الشعور ضد الأجانب الذي كان يتزايد في السياسة الإسبانية الاستعمارية ، والاضطهاد الذي كان يصيب الإنجليز من محكمة التفتيش ، ومن ناحية أخرى كان هناك تحول إنجلترا إلى البروتستانتية والاستعداد الذي كان يتزايد من الضباط البحريين لاستخدام وسائل العنف ضد الإسبانيين .

وحدث في خلال الفترة قبل أن تنقلب التوترات المتزايدة إلى عداوة صريحة أن كان الإنجليز يتاجرون مع المكسيك . ويحكي هاكلويت عن تجارب أربعة من هؤلاء التجار الإنجليز . فروبرت تومسون ذهب إلى إسبانيا سنة ١٥٥٣ ، وهناك قابل مواطنا إنجليزيا اسمه جون فيلد ، عاش من قبل في إشبيلية سنوات عدة . يقول هاكلويت : « وفي بيته بقي تومسون المذكور مدة سنة كاملة ، أو نحو ذلك ، لسببين : الأول لتعلم لغة قشتالة ، والآخر ليعرف فرق البلاد وعادات الشعب » . وبعد سنتين في إسبانيا عبر تومسون إلى المكسيك مع فيلد وأسرة فيلد الإسبانية . وتحطمت بهم السفينة تجاه الساحل المكسيكي ، فجاء أحـــد الإسبانيين الأثرياء واهتم بهم وجهزهم بجهازهم من جديد في فيرا كروث . وبعد سنة من النشاط في البلاد قبض على تومسون وقدم إلى محكمة التفتيش ، فمكث في السجن سبعة أشهر قبل أن يعاد إلى إسبانيا للاستجواب مرة ثانية . وأخيراً أطلق سراحه وتزوج من ابنة احد الإسبانيين الأغنياء الذين كونوا لهم ثروة من قبـل في المكسيك .

أما روجر بودنهام ، فبعد أن لبث في إشبيلية بضع سنين حيث تزوج ،

أخذ سفينته الخاصة وأقلع إلى إسبانيا الجديدة فى سنة ١٥٦٤ فى صحبة أسطول بدرو مينينديث دى أفيل مؤسس سانت أوجستين ، وعاد بعد سنة بحمولة مربحة لحسابه الخاص . وشاهد جون تشلتون من العالم الجديد أكثر مما شاهد أى إنجليزى آخر فى ذلك العصر . ونظراً إلى ما اكتسبه من معرفة قيمة بإقامته الطويلة فى إسبانيا ، ولأنه « راغب فى رؤية العالم » فقد قصد المكسيك . وعندما عاد اخيراً إلى لندن فى سنة ١٥٨٦ كان قد غاب عن انجلترا مدة خمس وعشرين سنة . وفى هذه الفترة كان قد سافر من أقصى ولاية فى شمال إسبانيا الجديدة « نحو مقاطعات كاليفورنيا » ثم إلى الجنوب مارا بكوبا وأمريكا الوسطى إلى كشكو وبوتوسى فى بيرو . وكان يتاجر فى كل مكان بلا عائق ظاهر . وعاد جون هوكس ، وهو آخر الأربعة التجار الذين كان مفروضا أن يقابلهم هاكويت فى سنة ١٥٧٢ بعد خمس سنوات قضاها فى المكسيك . وعلى الرغم من أنه لم يذكر شيئا عن تجاربه الخاصة فقد كتب ليعرف معاصريه وصفا رائعا عن حكومة نائب الملك فى إسبانيا الجديدة .

وفى غضون تلك الأثناء تصادم هوكنز ودريك مع الإسبانيين فى فيرا كروث ، وانتهت الفترة القصيرة التى سادت فيها المتاجرة السلمية . ومن ذلك الوقت ، ولربع قرن ، كان التجار الإنجليز يسطون على الطرق البحرية الإسبانية ويغيرون على سواحل أمريكا الإسبانية وعلى إسبانيا نفسها . وعندما دخـــل جون هوكنز الميناء فى بوربوراتا فى رحلته الثانية من رحلات جلب العبيد فى سنة ١٥٦٥ بنية المتاجرة فى سلام مع الإسبانيين « أجابوا بأنهم ممنوعون من قبل الملك أن يتعاملوا مع أية أمة أجنبية » . وبعد ذلك بسنتين فى أثناء مغامرة مماثلة مع فرانسس دريك بعد أن تصادم مع الإسبانيين فى ريودى لاهاشا على الساحل الفنشويلى ، التجأ إلى فيرا كروث فى المكسيك حيث كان يأمل أن يعيد تموين سفنه . وبدلا

من ذلك هاجمته سفن إسبانية فى الميناء، وأيضا حصن سان خوان دى أولوا وعومل معاملة سيئة جدا . وترك عدداً كبيراً من رجاله على الساحل فى أيدى الإسبانيين ثم عاد مع دريك « من رحلته المؤسفة هذه » على ألا يعود إلى ميدان عملياته التجارية ثانية مدة ربع قرن من الزمان .

وفى سنة ١٥٧٢ قام دريك برحلة مربحة إلى البرزخ لحسابه الخاص . وبعد خمس سنوات أقلع للسياحة حول الكرة الأرضية ، وفى أثنائها كان يغير على السواحل والسفن فى الساحل الغربى لأمريكا الإسبانية إرضاء لنفسه وللملكة . وفى سنة ١٥٨٥ أغار على مدينة سانتو دومنجو سلبا ونهبا ، واستولى على كارتاخينا واحتفظ بها حتى تدفع الفدية . وبعد ذلك بعشر سنوات أعد أسطول مشترك تحت قيادة دريك وهوكنز ، وقدمات كل منهما فى هذه الرحلة ، وقام بنشر عمليات السلب والهب فى جزر الهند الغربية وعلى السواحل الشمالية للقارة ، وتنفس الإسبانيون الصعداء فى الأرجاء الأمريكية عند موت « الدراكى »

وفى هذه الأثناء قام كثير من ضباط البحر الأقل شهرة « بالتجوال » إلى العالم الجديد ، ومن بينهم ريتشارد ، بن جون هوكنز ، والذى وقع فى قبضة الإسبانيين ، وجون اوكسنهام ، وهو أول إنجليزى يبحر فى المحيط الهادى . وقد أعدمه الإسبانيون فى ليما ، وكريستوفر نيوبورت الذى كان يعيش على السلب والنهب والذى طاف بجزر الأنتيل يشعل النار فى المدن ويسلب الإسبانيين نقودهم النحاسية وأجراس الكنائس والدجاج والماعز والخنازير والسكر والطباق ، والجرىء الذى لا يرحم سير توماس كافندش ، نقمة الشواطىء الإسبانية المطلة على المحيط الهادى ، والذى كان ثالث ملاح يطوف حول الكرة الأرضية .

ومن بينهم أيضا سير والتر رالى الظريف والواسع الخيال ، والذى

كان فى صميمه إيطاليا من إيطاليي القرن الخامس عشر . ولكنه كان قائدا غير كفء للرجال عند القيام بمشروعات تكون فيها الجرأة والمثابرة أكثر لزوما من أية فضيلة أخرى ونظراً إلى مكانته العظيمة فى إنجلترا ، فقد كان يستنكف السلب والنهب الذى يصيب الأشخاص والذى انغمس فيه زملاؤه فى عصر إليزابيث بتلذذ كثير . وكتب إلى لورد هوارد وسيرروبرت سيسل أنه لايليق به « أن يسرع من رأس إلى رأس ، ومن مكان إلى مكان ، من أجل سلب غنائم عادية . » وهو يفضل بدلا من ذلك أن يضع تحت أقدام الملكة « إمبراطورية جيانا ، تلك الامبراطورية العظيمة الغنية الجميلة، وتلك المدينة العظيمة والذهبية التى يسميها الإسبانيون الدورادو، ويسميها السذج مانوا ، — « إنها هند غربية أفضل لجلالتها من أية هند غربية لملك إسبانيا». وفى ذهوله برهن على أنه أسلم نية من أكثر الإسبانيين كيخوتية، وسلم بالفقه له الهنود والإسبانيون من خيالات كأنها حقائق، وكان غرضهم من هذا هو التخلص منه . فلقد كان الشرير فى المسرحية التى انهت باستخدام بلطة قاطع الرءوس فى البرج إسبانياً غامضاً اسمه أنطونيو دى بريو ، وكان دائما يبدو أنه يعرف أكثر مما كان يتفوه به . وبعد إرسال سفينة فى السنة السابقة لاستطلاع الإقليم دخل رالى أولا فى وادى الأورينوكو من من ترانداد فى سنة ١٥٩٥ . وقابل فى رحلته « ملوكا » من الهنود ، وكان يريهم صورة الملكة إليزابيث حتى وصل إلى نقطة تبعد ٤٠٠ ميل من البحر قبل أن يعود راجعا وكان الإسبانيون يتشاءمون من الأورينوكو ، وكانوا يطلقون عليه فى ذلك مثلا يقول « إن من يذهب إلى الأورينوكو إما أن يموت وإما أن يعود مجنونا (*) . ويبدل فى الحقيقة أن جنونا خفيا أصاب هذا الإنجليزى، ومهما يكن قد اعتراه من شعور عميق بزوال الأمل الكاذب

(*) loco

فقد استمر فى ادعاءاته المفرطة عن الأرض الأسطورية الواقعة إلى مادون الأفق الجنوبى . ولبضع سنوات بعد عودة رالى إلى إنجلترا استكمل رجال آخرون كشف سواحل وأنهار جيانا وفى هذه الأثناء زاد طالع رالى التعيس سوءا ، فماتت الملكة التى غمرته من قبل بصنائع المعروف . وسجنه جيمس الأول ثم أطلق سراحه شريطة أن يذهب إلى إلدورادو ويرجع بمادتها الذهبية إلى إنجلترا التى أصبحت كثيرة التشكك فى ذلك الوقت . وكان قد مضى على ذهابه إلى الأورينوكو عشرون عاما ، ومن المحتمل أن الإسبانيين وحدهم هم الذين كانوا يذكرون رحلته إلى فنثويلا . وكان السفير الإسبانى فى لندن ، جندومار ، على الأقل يذكرها . وبعد أن عاد رالى من رحلته المنكوبة ، كانت نتيجة إصرار جندومار أن أرسل آخر المغامرين العظام فى عصر إليزابيث إلى السجن .

وكثير من الإنجليز الذين كانت سفنهم تغرق على مسافة من الساحل يستطيعون السباحة فيها ، أو عادت بدونهم ، أصبحوا مقيمين فى الإمبراطورية الإسبانية . وكانت لديهم فرصة كبيرة للبقاء إذا تجنبوا الهنود المتوحشين الذين قد يقيمون بجوارهم ، ويكونون بمنأى عن طريق محكمة التفتيش ، حتى يستطيعوا أن يرتبوا أنفسهم للتحول إلى الكاثوليكية . وكانت الجماعات الإسبانية على استعداد لقبول أى أجنبى شارد عثر به حظه شريطة أن يترك ظهريا أية اتصالات أجنبية ويدخل قلبا وقالبا فى حياة المستعمرة ، وأحسن مثل لهذا بصفة خاصة كانت بيئة بارجواى المتسامحة فى عهدها الأول . وبالإضافة إلى الشرط الأساسى ، وهو قبول المذهب الكاثوليكى ، كان الزواج بامرأة من البلاد — ولا يزال هذا ساريا فى أمريكا اللاتينية — هو مصداق إتمام اندماج الأجنبى فى المجتمع . فمثلا عندما تحطمت السفينة التى كان يقودها جون دريك ، ابن عم سير فرانسيس ، فى

نهر بلات فى رحلة إدوارد فنتون ، استقر هو وبضعة آخرون من رجاله بين الإسبانيين . وبعد ذلك بخمس سنوات عندما ذهب كابتن وذرنجتون وكابتن لستر صاعدين فى النهر سمعا أن دريك كان فى توكومان وأن رتشارد فيروذو أحد رفقائه قد تزوج فى بلدة من البلاد الداخلية . وقيل إن جون دريك كان قد انتقل إلى ليما، وإنه ، على وجه الاحتمال ، قد تزوج بامرأة منها (*) (٦) .

ولاقى الرجال السبعة والسبعون الذين أنزلهم جون هوكنز إلى البر عند الساحل المكسيكى لتخفيف حمولة سفنه ، وهم الذين بقوا أحياء من الهجوم الإسبانى فى فيرا كروث ، معاملة سيئة على أيدى الموظفين الملكيين ومحكمة التفتيش . وقصة محنتهم الطويلة مدونة فى صفحات هاكاويت على لسان اثنين منهم هما مايلز فيلبس وجوب هورتوب . واختفى ثلاثة وعشرون منهم فى أثناء تجوالهم فى أراضى البانوكو . وقبض على الباقين وسيقوا إلى مدينة المكسيك . وهناك أدخلوا المستشفى وبقوا فيه مدة ستة أشهر ، وكان أهالى المدينة يغدقون عليهم الطعام ويولونهم بالرعاية الزائدة . وفى ذلك الوقت كانت حكومة نائب الملك المعادية على علم تام بوجودهم ، وأرسلتهم إلى دار للصنعة فى تشكوكو فى وادى المكسيك . ولما هربوا من السجن استأجرهم الإسبانيون لأية خدمات يستطيعون تأديتها . وأرسل فيلبس وبضعة آخرون إلى الشمال كرؤساء عمال فى مناجم الفضة حيث أيسروا . وعند هذه المرحلة من مصائرهم قبض عليهم جميعا من قبل محكمة التفتيش المكونة حديثا واعتقلوا مدة عام ونصف عام فى العاصمة يحقق معهم فى معتقداتهم الدينية . وبعد استجوابهم المديد أصبحوا هدفا للإعلان المنمق الأحكام (**) التى قضى عليهم بها وفق ما أعده قضاة المحكمة مناسبا لدرجة

(*) limena

(**) Auto — da — fé

كفرهم . فأعدم ثلاثة حرقاً علناً ومن بينهم شخص يدعى « كورنيليوس الايرلندى » . وحكم على بضعة نفر منهم بالجلد من مائة إلى ثلاثمائة جلدة وبالعمل كعبيد سفن فى إسبانيا لمدة تتراوح بين ست سنين وعشر . وسلم فيلبس إلى الرهبان الدومنيكان (*) ليقضى بينهم خمس سنين للتكفير ، وكان يلبس جلباب المرتدين المذنبين . غير أن الرهبان كانوا يعاملونه معاملة حسنة ، وأمضى مدة عقوبته فى مراقبة ما يقدمه الهنود من مساعدة فى أرض الدير . وكان يقول عن الهنود . « إنهم صنف لطيف من الناس ، ودود ، وحاذق ، وعلى درجة عظيمة من الإدراك » . وعندما أطلق سراحه نهائيا وسمح له بالعمل لشخصه تعلم حرفة نسج الحرير . وتزوج ثلاثة من رفقائه الإنجليز زنجيات ، وتزوج واحد مولدة (**) وآخر أرملة من الباسك ذات يسار ، وسمح لآخر بالذهاب إلى إسبانيا ، وهناك تزوج بإسبانية . أما فيلبس فكان همه الوحيد تجنب ذوى السلطة ومحكمة التفتيش (***) والبحث عن طريقة يهرب بها من المكسيك . وعندما نجح أخيراً ووصل إلى انجلترا كان قد مضى عليه ست عشرة سنة بعيداً عن البلاد . ومع ذلك فعلى الرغم مما كابده فإن سحر الهند الغربية لابد قد تملكه ، ذلك لأنه بعد خمس سنوات من هذا الوقت كتب جون سارا كل ، وهو تاجر اشترك فى رحلة وذرنجتون ولستر فى نهر بلات ، فى مفكرته اليومية : « أخذنا فى سفينتنا شخصا اسمه مايلز فيلبس كان قد تركه هوكنز فى جزر الهند الغربية » . وأما فيما يختص بجوب هورتوب ، صانع البارود من لنكولنشير ، « وقد ناء بالبؤس والشقاء » ، فقد أمضى ما مجموعه ثلاثا وعشرين سنة سجينا للإسبانيين بما فى ذلك خمس سنوات قضاها فى جب تابع لمحكمة التفتيش فى أشبيلية ، واثنتا عشرة سنة فى التجديف فى السفن الملكية ، وثلاث سنوات تعاقد فيها

(*) Blackfriars

(**) mestiza مولدة من أوروبى وهندية .

(***) Holy Office : (Inquisition)

ليعمل «خادما يؤدى الأعمال الشاقة»(*) فى بيت كان قد أقرضه خمسين دوكات ليشترى بها تخفيف العقوبة التى قضت بها محكمة التفتيش . وبعد ذلك لم يذهب الإنجليز إلى المكسيك .

وبعد القرن السابع عشر عصر القراصنة . وتجنب ملوك أسرة ستيوارت العداء السافر مع إسبانيا ، ولو أن جمهورية كرومويل التى خلا فيها كرسى العرش خاضت حربا بحرية حامية مع الإسبانيين (١٦٥٥ — ٥٧) . ومع ذلك ففى خلال الفترات الطويلة التى كان يسود فيها السلام رسميا استمر القراصنة فى حروبهم الشخصية ضد إسبانيا وجميع منشآتها . ومن المحتمل أن القراصنة بدأوا نشاطهم كمهربين مغامرين ، وكانت عملياتهم الممنوعة هذه يحبطها الإسبانيون . وفى بعض الأحيان ، حينما كان الإسبانيون يعرضون حرفتهم المفضلة والطبيعية للخطر أكثر من اللازم كانوا ينقلبون سائقى قطعان وجزارين يذبحون القطعان البرية فى سانتودومنجو ، أو حتى مستعمرين غير متحمسين ، أو حطابين أيا كانوا . وبدأوا تجربة فى التعايش الدولى فريدة فى ذلك الوقت بتكوين جمعيات تعاونية مثل الانجليز والفرنسيين والهولنديين . وكانت الرابطة بين هذه العناصر المختلطة هى روح المغامرة المشتركة والجشع ، وفوق كل شىء كراهيتهم لإسبانيا . وقد جعلوا من القرصنة مشروعا مربحا بصفة عامة ، حتى ولو أنه كان مع ذلك مجالا كبيرا للمضاربة . وكان ميدان نشاطهم فى بادىء الأمر فى البحر الكاريبى ، ولكنهم ، فيما بعد ، اقتحموا طريقهم إلى المحيط الهادى ، ووسعوا مجال عملياتهم من الساحل الغربى للمكسيك نحو الجنوب إلى تشيلى . وكان سلب وتدمير هنرى مورجان لمدينة بنما بدون شفقة فى سنة ١٦٧١ حدا بعيدا فى تاريخهم ، ولكن الخمس عشرة السنة التى تلت ذلك كانت هى نهاية اعتداء

(*) drudge « مرمطون » ،

القراصنة وقوتهم خصوصا على طول السواحل والطرق البحرية التى تملكها السفن فى البحار الجنوبية .

وكان القراصنة ، مع القسوة وعدم الرحمة التى كانوا يعاملون بهما الإسبانيين ينزعون بعد فترة من الوقت إلى الانحدار إلى مصاف «الفتوات» ورجال العصابات . وقد أثبتت عناصر تفككهم الكامنة أنها كانت أقوى كثيراً من أن يبقى هذا التآخى من أجل السلب والنهب فى عصر ساد فيه النظام عن ذى قبل . وكانت أوامر قادتهم لا يؤمن تنفيذها إلى درجة زائدة من قبل أتباعهم الأوغاد . وازداد ضيق حكومة إنجلترا والحكومات الأخرى التى كانوا ينتمون إليها ذرعا باعوجاجهم ، وأبعدتهم وحشيتهم خارج نطاق التحمل حتى فى عصر لم تبلغ فيه رقة الشعور حدا زائدا. ومع ذلك فهم مسئولون ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، عن الاستيلاء على المكاسب الاستعمارية التى أخذت من إسبانيا فى منطقة الكاريبى : بليزوكوراساو وجمايكا وسانتودومنجو .

وكان لابد من أن كلا من إنجلترا وإسبانيا تساق إلى حروب القرن الثامن عشر التى كان همها الأول الاحتفاظ بتوازن القوى فى أوربا . وكذلك كان لابد من امتداد هذه المصادمات إلى الهند الغربية الإسبانية . وفى خلال حرب الوراثة الإسبانية استولى أو دمر أمير البحر ويدجر أسطول السفن النظامى بالقرب من كارتاخينا فى سنة ١٧٠٨ . وفى نفس السنة ذهب كابتن وودز روجرز فى رحلة تجارية مربحة حول أمريكا الجنوبية وصفها فى وقت لاحق بترديد نغمى لجلبرت وسليفان . وعندما عقد الصلح انتزعت إنجلترا من إسبانيا احتكار (*) جلب العبيد إلى المستعمرات الإسبانية، بالإضافة إلى مزايا تجارية أخرى.

(*) asiento

ونال الإنجليز مجداً ضئيلا أو ربحا من الدور الذى قاموا به فى حرب الوراثة النمسوية. وقد لقى أمير البحر فرنون استحسانا من الشعب الإنجليزى بعد استيلائه على الحصن الإسبانى المتداعى فى بورتوبيو فى البرزخ سنة ١٧٣٩. غير أنه فى السنة التالية فشل فشلا ذريعا فى محاولاته أخذ المعقل الإسبانى العظيم فى كارتاخينا لا لشىء إلا ليكرر التجربة فى سنة ١٧٤١ أمام سانتياجو دى كوبا واستعادت البحرية البريطانية بعض شهرتها فقط بما قام به كومودور جورج آنسن فى إغارته المشهورة فى المياه الإسبانية فى المحيط الهادى. وانضمت إسبانيا إلى فرنسا فى وقت متأخر فى حرب السنين السبع. وفى سنة ١٧٦٢ استولت قوة انجليزية على هافانا لتعيدها ثانية إلى إسبانيا بمعاهدة الصلح فى السنة التالية. وتفتحت شهية انجلترا للمستعمرات بما كسبته فى أمريكا الشمالية والهند فى أثناء الحرب. وعندما تيقنت من ضعف وسائل الدفاع فى الإمبراطورية الإسبانية وتبرم المستعمرات ضد حكم إسبانيا صممت على أن تعوض فقدانها مستعمراتها الأمريكية بفتوحات على حساب إسبانيا. وقدمت سلسلة الحروب التى خاضها نابليون لها الفرصة التى كانت تحتاج إليها. ففى سنة ١٧٩٧ استولى الإنجليز على جزيرة ترنداد القيمة قبالة ساحل فنزويلا.

وفى سنة ١٨٠٦ عبرت قوة بريطانية، كانت قد استولت على كيب تون فى طرف أفريقية، المحيط الأطلنطى، واستولت على بوينس ايريس فقط لتجبر على الخضوع أمام ثورة من الأوروبيين الأرجنتينيين. وفى السنة التالية حاولت حملة أكبر كثيراً من التى سبقتها أن تستعبد بوينس ايريس بعد الاستيلاء على مونتفيديو فى طريقها إلى نهر بلات، ولكنها لقيت نفس المصير على أيدى الأرجنتينيين.

الايرلنديون

لم يتسبب الايرلنديون فى خلق مشكلة سياسية لسلطات إسبانيا لأنهم كانوا رجالا بلا وطن . أضف إلى ذلك أنهم كانوا يلقون ترحيبا خاصاً فى إسبانيا والمستعمرات لأنهم كانوا كاثوليكا ثابتى الإيمان وأعداء لإنجلترا . وفى فترات من التاريخ مثل حكم اليزابث وجمهورية كرومويل ، ونقض نصوص معاهدة ليمرك فى حكم وليم الثالث وآن ، ذهب كثير من الأيرلنديين إلى إسبانيا . وهناك تطوعوا للخدمة فى الجيوش الإسبانية فى الحروب الأوروبية وأصبحوا أعضاء فى الفرق الدينية العادية ، أو برزوا ، فى غير هذين المجالين ، فى حياة البلاد التى تبنتهم . وعبر البعض من أكثرهم حبا للمغامرة المحيط الأطلنطى إلى مستعمرات إسبانيا ، وهناك توجد أسماؤهم فى حرف متباينة خلال الفترة الاستعمارية ، ويتزايد تبوؤهم المراكز التى كانوا يشغلونها مسئولية فى خدمة إسبانيا الإدارية . وأكثر منهم دخلوا أمريكا الإسبانية وكونوا « فرقة » اشتركت مع القوات الوطنية فى حرب الاستقلال . ومن أشهر هؤلاء المتطوعين كولونل أوليرى مساعد بوليفر ، وجنرال أوبراين مساعد سان مارتن ، وأمير البحر وليم براون فى البحرية الأرجنتينية الجديدة للعهد . وأكثر من هؤلاء وهؤلاء عدد الإيرلنديين الذين هاجروا إلى الجمهوريات خصوصا إلى أرجنتينا خلال المجاعة الشديدة فى عام ١٨٤٦ — ١٨٤٧ .

ووصل بعض الأيرلنديين أو الإسبانيين الذين انحدروا من أصل أيرلندى إلى مراكز بارزة فى الخدمة الاستعمارية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . فقد كان كارلوس مورفى أو تشارلز ميرفى ، وهو ضابط فى الجيش الإسبانى ، حاكما من قبل الملك لمقاطعة بارجواى من سنة ١٧٦٦ — سنة ١٧٧٢ . وكان جوان أردونوجو ، وهو قائد جيش سابق فى الأندلس

آخر نائب ملك لإسبانيا الجديدة . أما جنرال ليوبولد وأودونل ، دوق نطوان ورئيس وزراء لإسبانيا مرتين ، فقد عين حاكما عاما لكوبا فى سنة ١٨٤٣ .

وأبرز الأمثلة للترقى فى الخدمة الاستعمارية فى الهند الغربية (*) كانت خدمة أمبروزيو أو أمبروز أو هجنز . وقد ولد فى ظروف غامضة فى فاليناري فى مقاطعة ميث فى سنة ١٧٢٠ ، وذهب إلى إسبانيا حيث كان يقيم عمه ، وهو يسوعى ، فى قادس ، فأخذ عمه على عاتقه تعليمه . وكان فى بوينس ايريس فى سنة ١٧٥٧ ، وفى وقت لاحق اكتسب معرفة بولايتى تشيلى وبيرو اللتين كانتا الميدان المقبل لحياته غير العادية . وعندما كان فى ليما يقال إنه كان يعول نفسه لفترة من الوقت بأن عمـــل بائعاً متجولا أو متنقلا . ولما عاد إلى إسبانيا أصبح مواطنا إسبانيا . وفى سنة ١٧٦٣ يظهر ثانية فى تشيلى كمساح فى خدمة الملك بحمولة من البضائع لبيعها لحسابه الخاص . ثم التحق بالجيش وأصبح عقيدا بحلول سنة ١٧٧٢ ، واشترك فى الحملات التى لم تنقطع ضد قبائل الاروكاريان الهندية . وبحلول سنة ١٧٨٦ كان حاكماً ومديراً لولاية كونسبسيون ، وبعد سنتين أصبح حاكماً عاما لتشيلى ورئيسا للمحكمة الملكية ومديرا لسانتياجو . ورقى إلى رتبة مشير فى الجيش الإسبانى وبارون فاليناري وماركيز أوسورنو فى قائمة النبلاء الإسبانيين ، وأخيراً رقى هذا المهاجر الايرلندى فى سنة ١٧٩٦ إلى أعلى مركز فى خدمة إسبانيا الاستعمارية ، وهو مركز نائب الملك فى بيرو . أما ابنه غير الشرعى ، برناردو ، وقد أهمله أبوه الذى كان يسعى وراء المجد ، إلا من ناحية تعليمه وإعانته ، فقد ترقى بمواهبه الخاصة وأخلاقه حتى أصبح قائداً للقوات الوطنية فى حرب الاستقلال وأول رئيس لجمهورية تشيلى الجديدة .

(*) Carrera de Indias

ومن أكثر الايرلنديين إثارة للاهتمام ، الذين يظهرون فى تاريخ أمريكا اللاتينية كان المغامر وليم لامبورت الذى يعرفه الإسبانيون باسم جيبين دى لامبورت ، أو الاسم المنتحل جيبين لومباردو دى جوثمان . وحتى إذا استبعد المرء بعض التفصيلات الخاصة التى كتبها عن حياته وهو فى السجن ، فإن البقية المفصلة والمثبتة من قصته الخيالية تعد أسطورية فى حد ذاتها إلى درجة تكفى لكى تضمن له مكانة خاصة فى أساطير العالم الجديد . فقد ادعى أنه ابن لفيليب الثالث من امرأة ايرلندية كانت تعيش فى إسبانيا وفر ، كما يروى هو ، من لندن تحت التهديد بالقتل من جانب شارل الأول ، فقط ليقع أسيراً فى أيدى القراصنة وهو فى طريقه إلى فرنسا . ومرت الأيام ، ووطئت قدماه أرض إسبانيا ، فقدم ماركيز مانسيرا له منحة لتلقى العلم فى غاليسيا . وبينما كان هناك رسا زملاؤه القراصنة فى ميناء قريب . وعند ذلك توجه لامبورت وبعض الرهبان الفرانسسكان وانتقلوا إلى ظهر السفينة وحولوا معظمهم إلى العقيدة الكاثوليكية ، وساقوا أمامهم من تشبث بعناده وكفره إلى محكمة التفتيش المحلية . وسمع الملك بهذا العمل فدعاهم إلى البلاط . فقدم أولا إلى النبيل دوق اليفارس صاحب السطوة عن طريق الشريف دوق مدينا سيلى . ولما نال الحظوة الملكية تلقى العلم لفترة فى سلامانكا ثم أرسل إلى فلاندرز فى بعثة رسمية . وفى طريقه شمالا فى سنة ١٦٣٤ يقال إنه وضع نموذج الخطة الحربية لموقعة نورد لنجن ، وهى آخر انتصار لوحدات المشاة الإسبانية للكاردينال الأمير دون فرديناند . وبعد أن اشترك فى معارك مختلفة أخرى فى البحر والبر نفى إلى المكسيك لحادث مع امرأة فى البلاط . وحمل النفى معه معاشا قدره ١٠,٠٠٠ بيسو سنويا ، لذلك فقد استطاع أن يستمر فى أسلوب معيشته الزاهى حين كان يعمل مدرسا للاتينية . وسرعان ما فطن إلى الضعف الذى انتاب الولاية ، فوضع خططه لتحريرها من ملك إسبانيا الذى ادعى أخوته من أبيه والذى لم يصبح حقه فى حكم الولاية شرعيا . وبمراسيم ملكية زورت بمهارة

تنادى به نائب ملك عزم على طرد كونت سالفاتيرا من قصر نائب الملك، ثم ينادى بنفسه حاكما للمكسيك وهنا عند هذا الحد من مؤامرته الجريئة قبض عليه من قبل نواب محكمة التفتيش، وقضى السنوات من ١٦٤٢ إلى ١٦٥٩ فى سجن محكمة التفتيش فيما عدا فترة قصيرة فر فيها هاربا فى سنة ١٦٥٠. وعلى الرغم من أن جريمته واضحة فإن قدراً كبيراً من الغموض يحيط بسبب سجنه مدة طويلة دون محاكمة وبالقلق الذى كان ينتاب البلاط الملكى من أجل سعادته فى السجن. وأخيراً حوكم وأعلن أنه مذنب ارتكب عدداً من الجرائم، ثم كان هدفا ماثلا لإعلان منمق لمحكمة التفتيش يقضى بإعدامه حرقا. وهكذا أنهى دون جوان الهند الغربية اللامع والعالم حياته القلقة جثة متفحمة فى ألاميدا المكسيك وملفا فى سجلات محكمة التفتيش.

وفى غضون القرن الماضى استمر الأيرلنديون فى القيام بدور هام، وفى بعض الأحيان تمثيلى، فى حياة الجمهوريات ففى أرجنتينا أصبح بعضهم أصحاب أراضى ناجحين مثل أسرة دجان. خرج واحد منهم واسمه ادواردكاسى فى سنة ١٨٨٥ وأسس بلدة فينادو توورتو فى سهول البمبا. فقد منح أرضا واسعة شريطة أن يستعمرها مع زملائه من المواطنين فى حدود وقت معلوم. فأحضر معه سفينتين محملتين بالمهاجرين من ايرلندة، غير أنه عندما انتهى الأجل المضروب لاستعمار الأرض الممنوحة، لم يكن قد وفى بجميع التزامات العقـــد. ولذلك فعندما جاء مفتشو الحكومة من العاصمة للتحقيق أسكرهم ومر بهم على نفس المزارع ثلاث أو أربع مرات. وفى بيرو كان هناك شخص اسمه كارلوس فيرمن فتزجيرالد، ابن مغامر أيرلندى اسمه فتزجيرالد وامرأة بيروفية، كون لنفسه امبراطورية فى بقعة اجتث منها الأشجار فى فيافى الغابة إلى الشرق من الأنديز. وبقوة شخصيته وبنيته المهيبة وذكائه العظيم أصبح القوة الحاكمة فى حوض نهر أوكايالى،

وامتدت مملكته من هنالك عبر الأراضي المجاورة في البرازيل وفي وادي نهر مادري دي ديوس عن طريق نهر مانو . وكان ألوف من الهنود وقوة كبيرة من البيض وجماعو المطاط والمولدون يخضعون لمشيئته . ومنهم أيرلندي من نوع آخر هو مستر كونروي المثقف والمهذب ، الذي أنشأ حديقة نباتية شاسعة على ضفاف نهر ريماك في ضواحي ليما ، وهي التي أصبحت مكانا محببا في العاصمة البيروفية يجذب الناس إليه . وفي المكسيك هجر جماعة من الأيرلنديين الجيش الأمريكي في غزوة سنة ١٨٤٨ لكي يشنوا حربا مقدسة ضد الحزب المعارض لرجال الدين في البلاد . وبعد ذلك بسنوات حارب أفراد من نسلهم ، وكانوا يعرفون باسم « البطارقة » بورفيريو دياث في بلاد التهوانتيبياك .

الألمان

ذهب ألماني واحد في جماعة بدرودي فالدفيا الشجعان ، اسمه بارثولوميس بلومنثال . وصيغ اسمه فلورس بالإسبانية . ولم يكن بلومنثال — أو فلورس — جنديا عظيماً فحسب ، ولكنه كذلك كان بناء ماهرا ، شيد أحسن المنازل في سانتياجو . وفي سنة ١٥٥٧ وصل ألماني آخر عرفه الإسبانيون باسم « لسبرجر » مع الحاكم جارسيا هورتادو دي مندوثا . وبعد قرن من هذا التاريخ جاءت دونيا كاتالينا دي لوس ريوس دي لسبرجر ، وهي من نسل كلا هذين الألمانيين وشهرتها الكنترالا (*) ابنة الفيرا دي تالاجانتي وبارتولومي ، زعيم من زعماء قبائل الموبوشو ، وأصبحت رمزاً لأعظم الجرائم شهرة (**) في تاريخ أمريكا اللاتينية . وكانت مزارعة (***) ثرية ، واتهمت بأنها قتلت والدها الهندي سما ، كما

(*) الزهرة الحمراء .

(**) crime celébre

(***) encomendera

قتلت عشيقها ، وتخلصت بطريقة ما من أكثر من اثنى عشر شخصا آخرين ونظراً إلى اتصالات أسرتها القوية ، وربما نظراً إلى ظروف أخرى لا تذاع فى سجلات المحكمة فى ذلك الوقت ، نجت هذه المرأة المصاصة الدماء ، والتى سيطرت على وادى تشيلى ، من العقاب ، وماتت فى جو من القداسة فى سنة ١٦٦٥ لتدفن فى كنيسة سان أوجستين فى سانتياجو(٧). وعلى الرغم من أن خدمات الألمان الفنية ، كجنود مدفعية وصناع مهرة ، كانت مقبولة لدى الإسبانيين ، فإن قليلين منهم نزحوا إلى العالم الجديد كمتطوعين فرادى فى جيوش الفتح . وأكثر منهم ذهبوا إلى الأقطار الأمريكية كعملاء أو موظفين للبيوت المصرفية والتجارية الكبرى التى امتاز بها القرن السادس عشر .

وأشهر تلك المشروعات كانت مؤسسات فوجر وفاسر كونها نواب مقاطعة أو جزبرج ، وانتشرت فروع هذه المنظمات العائلية القوية فى غرب أوروبا . ومول رجال البنوك الألمان هؤلاء حكام القارة الذين كانوا يقاسون دائماً من الإفلاس بسبب تقصير مكتب الإيراد الداخلى فى اغتصاب الأموال من رعاياهم . وبعبارة أخرى كانت تكاليف الإدارة الحكومية تفوق الطرق العتيقة فى جباية الضرائب والتى كانت سائدة فى العصور الوسطى . فجاء الألمان — والطليان — وسدوا هذه الثغرة المالية . وكذلك أداروا المناجم وتاجروا فى أية سلعة قد تدر عليهم أرباحا طائلة . ومن أشهر عملاء بيت فوجر التجارى كان أفراد أسرة هابسبورج ، وكانت لهم سمعة سيئة ، إذ كانوا مغامرين ومفلسين . وكانت الروابط بينهم وبين الامبراطور ماكسمليان تسمح لهم بالتدخل فى شئون إسبانيا عندما تزوج فيليب حاكم برجندى خوانا الابنة الحصيفة لفرديناند وايزابلا وأم شارل أمير جنت ولى عهد إسبانيا . وعندما أصبح أمير هابسبورج الصغير ملكا لإسبانيا باسم شارل الأول ، وتطلع إلى التاج الامبراطورى أقرضه إخوان فوجر

المال الذى وزعه رشوة للمنتخبين الذين جعلوه الإمبراطور شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسـة . وما إن ثبتت أقدامهم كصيارفة للإمبراطور الجديد الذى تقاسموا أرباح وخسائر حساباته مع شركة فلسر الأصغر ، حتى أصبح إخوان فوجر مهتمين بإمكانات اشتراكهم فى مشروعات إسبانيا المختلفة فيما وراء البحار .

وأقلع مع ماجلان عدد من الألمـان ، من بينهم اثنان أو ثلاثة كانوا ضمن الباقين الثمانية عشر الذين عادوا على السفينة «فيكتوريا» التى كان يقودها سباستيان الـكانو . وقد رووا لمواطنيهم الأعاجيب التى شاهدوها فى جزر الهند الشرقية . ولذلك فعندما كانت رحلتا سباستيان كابوت وفراى جارسيا خوفرى دى لوايسا تجهزان فى إسبانيا كشوف ماجلان فى الشرق ، وظف الصيارفة قراطيسهم المـالية فى هـذه المغامرات، وصحب عدد من الألمـان الأساطيل . وباءت الرحلتان كلتاهما بالفشل ، فرحلة لوايسا انتهت بكارثة فى البحار المائجة فى الطرف الجنوبى للقارة . أما كابوت فقد سمح لنفسه أن ينحرف عن هدفه ، تغريه متابعة السراب الفضى للملك الأبيض حتى المنابع المقفلة للأنهار الأرجنتينية . وأخرج إخوان فوجر من حساباتهم الخسائر ووضعوا خططهم وانتظروا ، وقد تآمروا مع الامبراطور وذوى النفوذ فى البلاط الإسبانى . وعندما منحوا أخيراً امتيازا لفتح وتنمية الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية من البرزخ شمالا إلى مسافة كبيرة فى بيرو ، اعتراهم الذعر ورفضوا الامتياز لأن عوامـل المصادفة كانت فوق مقدور رجال المال العقلاء والمحافظين . وبعد ذلك كانوا يرضون بجمع ريع الاستثمارات التى يعمل فيها الرجال الأشداء ، على حين كانوا يجلسون فى أمان على مكاتبهم فى اشبيلية ويرسمون علامتهم على قضبان الذهب والفضة لشحنها إلى ألمـانيا وفاء لديون الإمبراطور — الملك .

ومنحت شركة فلسر ، وهى أقل قوة وأقل حرصا من شركة فوجر

المقتدرين ، امتيازاً الحكم وكشف فنشويلا كضمان للقراطيس المالية التى قدموها إلى سيد ثروة الهند الغربية الذى كان يعوزه المال إلى حد زائد . وهناك يستتبع أغرب أدوار الفتح . فلفترة عشرين سنة تقريبا كان عملاء مصرف ألمانى سادة الجهات الشمالية للقارة — هم السادة العظماء والحكام والفاتحون (*) . وكان جنودهم إسبانيين خدموا الألمان ، لأن هذه كانت مشيئة الملك . وتوالى مجموعة من الرجال يخرج الكلام من حلقهم ، وأسماؤهم صعبة النطق على قرية كورو الصغيرة ذات المساكن الموضونة والتى تقع على ساحل الكاريبى الذى تلفحه الرياح والتى كانت عاصمة لهم . ومن هنا خرج جميعهم فيما عـــدا هانز سايسهوفر الكتبى الظريف المرح (**) والقعيد ، قادوا حملات فى الفيافى التى لا حدود لها فى الأراضى الخلفية لفنشويلا بحثا عن الذهب . ولسنوات تجول كل منهم بلا هدف فى تلك الأراضى الخلفية عبر سهول اللانوس الشـاسعة التى كانت تتوالى عليها فيضانات الأنهار ، أو يسفعها الجدب ، وخلال المستنقعات والغابة المدارية المطيرةوبين الجبال الوعرة . ولم يحرزوا أية فتوحات دائمة كما فعل الإسبانيون ، والبلدة الوحيدة التى أسسوها — ماراكيبو — تركوها فيما بعد ، ومع تكالبهم وجدوا ذهبا قليلا لسادتهم الجشعين فى ألمانيا إذا استثنينا ما وجدوه فى إقليم سانتا مارتا فى كولومبيا . وإذ كانوا قساة غلاظ القلوب فقد كانت سياستهم الوحيدة تجاه الهنود سياسة استعباد أو إبادة . وحيثما مروا تركوا وراءهم الدمار وذكريات الكراهية . وفى أثناء غزواتهم المديدة فى الفيافى كان لبطولة ومهارة بضعة ضباط إســـبانيين ذوى خبرة مثل استبان مارتن وپدرو دى لمبياس أن تمكنت الجماعات المغيرة أن يتحدوا ضد عداء الطبيعة والأهالى .

(*) Herren Adelantados and Gobernadores and Conquistadores

(**) Gemultich

ومن قادة تلك الإغارات المروعة فى قفار الأرجاء الداخلية الماحلة لأمريكا الجنوبية مات أمبروز أهنجر بسهم هندى أصابه فى حلقه . ونجا جورج هوهرموث من اختراقه نهر أبورى وأروكا وميتا ذات الذكريات المؤلمة ، وتحت السفوح الشرقية للأنديز ساءت صحته شيئا فشيئا حتى مات فى سانتو دومنجو . أما فيليب فون هوتن ، وهو فى صميمه (*) «رتر» العصور الوسطى وأنبل شخصية فى المجموعة ، فقد عاد بعد تجوال خمس سنوات بحثا عن الدورادو ليطرح رأسه على خشبة القصف تحت إرادة موظف إسبانى خلا قلبه من الإيمان ، ومات معه بارتولوميو فلسر سليل مغامر من أسرة رجال البنوك .

أما نيكولاس فدرمان من أولم ، وهو شخص يتصف بالشدة وقوة التحمل والمكر والعناد ، فقد توصل أخيراً إلى هدفه بعد طول بحث فى الهضبة الكولومبية مع جماعة من النواطير يلبســون جلود الحيوانات ليجدوا ، وياالسخرية القدر النهائية ، الجماعة الإسبانية التى كان يقودها خمينيث دى كيسادا ، وكان قد استولى على ثروة الشبشا المشتهاة . ولما اعتزل الميدان ليواجه الحساب من قبل موظفيه فى أوروبا وضع بيت فلسر ومجلس الهند الغربية حدا للمغامرة المنحوسة التى قام بها الألمان فى عملية الفتح .

وعندما قاد بدرودى مندوثا حملته المثيرة إلى نهر بلات فى سنة ١٥٣٥ كانت إحدى قطع أسطوله سفينة تجارية تابعة لسباستيان نايدهاردت وجاكوب فلسر من نورمبرج . وكان على السفينة حوالى ثمانين ألمانيا من الأراضى المنخفضة عاد معظمهم إلى ألمانيا بالإيراد الذى حصلوا عليه من تجارتهم . ومن الذين بقوا ليشتركوا قلباً وقالباً فى فتح الإقليم ، اولرخ شميدل

(*) كارل رتر لمع فى أوائل القرن التاسع عشر كجغرافى ومؤرخ مشهور ومسيحى مخلص واعترف له العلماء والمفكرون بالصدارة فى علم الجغرافيا .

مدفعی بافاری وفی وقت لاحق سار فی النهر نحو منبعه مع بقایا القوة التی کان یقودها مندوثا وأمضی ما مجموعه عشرین سنة بین مستعمرة بوینس أیریس المنکودة والمستعمرات فی باراجوای . ومع أنه کان جندیا جریئا ومحبا للنزاع فقد کانت لدیه قدرة عظیمة علی النجاة من الأخطار . فقد عاش لیعود إلی مسقط رأسه فی مدینة ستراوبنج بسرب من البیغاوات ورأسه البلید ملیء بالذکریات . وهناك کتب القصة العرجاء التی تحکی عن إقامته الملیئة بالمغامرة ، والبهجة فی بعض الأحیان ، بین قبائل الجوارانی .

وکان هانز ستادن شابا من هس من بلدة هومبرج التی تصنع القبعات . و « ارتأی ، بمشیئة الله ، أن یری الهند الغربیة » . وکان یختلف عن شمیدل المحارب رغم أنه عمل فی مدفعیة البرتغالیین فترة ، ویختلف عن هذا البافاری الکاثولیکی فی کونه معتنقا مذهب لوثر مما جعله محط شکوك البرتغالیین فی البرازیل . وکان معه علی ظهر السفینة التی حملته لأول مرة من لشبونة إلی ساوفیسنتی ألمانیان آخران هما هانز فون بروخهاوزن وهنریخ براندت من بریمن . وفی ساوفیسنتی التقی مواطنا آخر هو هلیدورس هاسوس مدیر مصنع من مصانع السکر التی یمتلکها جیوسب دلادوریا العجوز . وفی وقت لاحق کان علی هاسوس أن یقود جماعة مختلطة من المولدین (*) والهنود إلی ریو لمساعدة استاسیو دی سا فی محاربة الفرنسیین . وأمضی ستادن جزءاً کبیراً من زیارتین للبرازیل سجینا بین قبائل التوبینامبا حیث کانوا یسمنونه لولیمة یأکلونه فیها ، ولکن الولیمة لم تتحقق ألبتة . فقد فر من معتقلیه فی سنة ١٥٥٤ وعاد إلی ألمانیا حیث کتب کزمیله شمیدل کتابا مسلیا للغایة عن تجاربه بین السکان الأصلیین .

ومرت قرون بعد ذلك ، أی قرب نهایة العصر الاستعماری ، حین جاء

(*) mamelucos

لى العالم الجديد ألمانى يفوق كثيراً كل الألمان الذين سبقوا . وكان هذا الألمانى ألكسندر فون همبولدت ، وهو عالم طبيعى ومستكشف علمى وأول شخصية مفكرة فى عصره،وأول مواطن فى أوروبا . ففى سنة ١٧٩٩ نزل فى كومانا فى فنزويلا فى صحبة عالم النبات الفرنسى بونبلان . وكان هذا التاريخ بدء رحـــلات ومشاهدات استغرقت خمس سنوات على وجه التقريب فى أمريكا الإسبانية ،فى خلالها زار وادى الأورينوكو وكولومبيا واكوادور وكوبا والمكسيك .

الفلمنكيون والهولنديون

فى أثناء حكم الإمبراطور شارل الخامس لقى الفلمنكيون الكاثوليك الذين نشأ بينهم الإمبراطور مزايا خاصة فى الهند الإسبانية . فأسس بيتر ، من جنت ، وهو راهب فرانسسكانى ، مدرسة مشهورة فى مدينة المكسيك بعد الفتح بقليل . وفى السنوات ١٥٣٤ — ٣٧ صرح لكثير من الفلمنكيين من بروكسل وأنتورب وبروج ومدن أخرى فى الأراضى المنخفضة ، وفيهم بضعة أشخاص من ليل فى فلاندرز الفرنسية ، بالذهاب إلى المستعمرات الإسبانية . وفى سنة ١٥٢٨ أخذ جارسيا دى ايرما ، حاكم مقاطعة سانتا مارتا ، ستة من الفلمنكيين فى صحبته ، وخرج أيضا نحو أربعة عشر إلى نهر بلات فى سنة ١٥٣٥ . وفى وقت لاحق عمل واحد منهم يعرف باسم « ليونارد الفلمنكى » خياطا فى مستعمرة اسونثيون الإسبانية . ووجد هانز ستادن عميلا لتاجر من انتورب يقيم فى ساو فيسنتى فى جنوب البرازيل فى منتصف القرن نفسه ، ويبدو أن البرتغاليين ، بصفة عامة ، كانوا يضعون عراقيل قليلة فى طريق التجار الفلمنكيين . غير أن المركز الممتاز الذى حصل عليه الفلمنكيون فى المستعمرات الإسبانية كان قصير الأجل ، وبعد تنازل الإمبراطور عن العرش كان يسمح لقليل منهم بالدخول فى أقاليم نواب الملك فى العالم الجديد .

ومن جهة أخرى ، وجد الهولنديون من وقت مبكر جدا الأبواب موصودة أمامهم إلى ممتلكات إسبانيا فيما وراء البحار ، بوصف كونهم بروتستانت ومتمردين . وبعــــد أن كلل كفاحهم من أجل الاستقلال بالنجاح ، أصبحت السبع الولايات الشمالية فى الأراضى المنخفضة الإسبانية أعداء ألداء للاسبانيين حيث التقوا بهم . وكعمل تجارى كانت شركة الهند الغربية الهولندية تغير على السفن الإسبانية وتقوم بتهريب السلع على طول سواحل أمريكا الإسبانية تدر منه الأرباح . وفى سنة ١٦٢٨ قام أمير البحر بيت هين الذى خدم فى السفن الإسبانية مدة أربع سنوات بعملية من أكبر عمليات السحب المربحة فى تاريخ البحار عندما ساق أسطولا محملا بالكنوز بعيدا عن ساحل كوبا الشمالى .

ولما كانت البرتغال فى هذا الوقت تحت سيادة إسبانيا ، كانت البرازيل معرضة لهجمات من جانب الهولنديين . ورسمت شركة الهند الغربية الهولندية خططا طموحة للحصول على أرض شاسعة تثبت فيها أقدامها أبديا . وبعد الاستيلاء على باثيا فى أول الأمر فى سنة ١٦٢٤ أعيد الاستيلاء عليها مرة ثانية فى السنة التالية ، وبعد ست سنوات من هذا التاريخ أخذت أولندا وحصنها فى رسيفى ، ولم يتخذ الهولنديون خطوات جدية لدعم مركزهم فى شمال البرازيل حتى وصول موريس ، كونت ناسو ، كحاكم فى سنة ١٦٣٦ . ووضع هذا الأمير من آل أورانج للمستعمرة الجديدة إدارة حكيمة وفعالة ، ولكن طموحه فى تأسيس دولة هولندية كبيرة فى العالم الجديد لم يلق قبولا من مديرى الشركة الذين كانت تشغل بالهم الأرباح . وشن البرازيليون بمساعدة قليلة من البرتغال حربا مديدة وعنيدة ضد خلفائه حتى اضطر الهولنديون لمغادرة البلاد فى سنة ١٦٥٤ . وترك مشروع موريس أمير ناسوا وأساليبه السياسية السلمية أثرا لا يمحى فى تاريخ شمال البرازيل . فغنيت البلاد ثقافيا بالفنانين والبنائين الذين أحضرهم من الأراضى المنخفضة ،

فى حين امتزج بعض المستعمرين الهولنديين فى حياة الإقليم إلى درجة أنهم بقوا ليكونوا أسراً ، مثل أسرة فاندرلى ورولنبرج ولنس ، والتى قدر لها أن تبرز فى حياة البلاد الشمالية .

البرتغاليون فى المستعمرات الاسبانية

كان البرتغاليون عادة يعاملون الإسبانيين عملا بقوانين الحظر ضد الأجانب . كتب إسبانى غير معروف له اسم من كيتو سنة ١٥٧٣ يقول : « يوجد فى المدينة بعض البرتغاليين والأجانب » . وبالإضافة إلى ماجلان العظيم خدم كثيرون دون الرجوع إلى جنسيتهم فى الرحلات الاستكشافية الرسمية أو فى القوات الحربية التى قامت بالفتح ، كما تظهر مرارا أسماء برتغالية فى جميع المستعمرات كتجار ومستعمرين وأيضا كجنود (٨) . وتفوقت فرقة كبيرة من الفرسان البرتغاليين فى حملة دى سوتو المنكودة إلى داخل قارة أمريكا الشمالية. وفى حوالى سنة ١٥٢٦ عبر اليكسو جارسيا وهو أول أوروبى يصل إلى إمبراطورية الإنكا ، أمريكا الجنوبية من الساحل البرازيلى إلى بيرو عبر طريق باراجواى حيث جمع جيشا قوامه ألفان من محاربى الجوارانى . وفى أثناء الفترة المبكرة من الاستعمار الإسبانى فى باراجواى يبدو أن البرتغاليين فى البرازيل كانوا يروحون ويغدون بحرية بين المستعمرتين .

ولفترة طويلة بعد خط التقسيم البابوى بين منطقتى فتح إسبانيا والبرتغال ، كل فيما يخصه ، والذى عدل بمعاهدة تورديسياس ، كانت هناك فرصة ضئيلة للنزاع على الحدود بين القوتين فى العالم الجديد . وإذا استثنينا الجماعات التى كانت تجوب الداخل ، مثل أولئك الذين كانوا يبحثون عن الدورادو ، فقد كان مستعمرو كلتا الأمتين يلتزمون السواحل أو المراكز السكانية الإسبانية فى الانديز . وأخيرا أقيمت مراكز تماس على الأمزون

وعلى نهر بلات حيث أقام البرتغاليون مركزا أماميا فى كولونيا قبالة بوينس أيريس . وفى هذه الأثناء اندفع البانديرانتى عبر تلال البرازيل من مرتفعات ساوباولو وميناس إلى وادى ماديرا الذى وصل إليه الإسبانيون من الغرب عن طريق سهول ال بنى . وكان الجزء الأكبر من المنطقة الشاسعة الواقعة فى الوسط أرضا لا يملكها أحد(*) ، وتركت للمبشرين اليسوعيين فى عزلتهم وقلل الأسر الإسبانى للبرتغال من ١٨٥٠ — ١٦٤٠ فرص الاحتكاك التى كانت موجودة على طول الحدود بإخضاعه المستعمرات البرتغالية لسلطة إسبانيا . وكانت هناك فى معظم العصر الاستعمارى تجارة متقطعة وسفر بالبحر بين ساحل البرازيل ونهر بلات . وبهذا كان البرتغاليون يجلبون العبيد الزنوج والمواد الغذائية ، إما بغير ترخيص وإما بترخيص ، إلى الإسبانيين فى بوينس أيريس ، الذين كانوا معزولين عن الاتصال المباشر بأوربا من جراء السياسة الإسبانية غير الحكيمة ، وعن الأرجاء الداخلية لإقليم نائب الملك فى بيرو بطريق برى طويل معرض للأخطار .

ومن وقت إلى آخر اقتحم أناس من جنسيات أخرى النظم الإسبانية والبرتغالية المقيدة لدخول المستعمرات كجنود أو تجار أو مستعمرين . فمن جنود الجيش الأصلى الذى كان يقوده بثارو فى فتح بيرو اشترك الإغريقى بدرو دى كانديا ، وانضم هذا الكريتى الكبير فى وقت لاحق إلى جانب دييجو الماجرو فى الحروب الأهلية وأدى خدمات نافعة كرئيس للمدفعية فى سباكة المدافع وصناعة البنادق . ويقال إن بضعة رجال آخرين كانوا يساعدونه فى ذلك ، جاءوا من الأقطار المطلة على بحر إيجة . وعمل إغريقى آخر يعرفه الإسبانيون باسم « السيد فرانسسكو » جراحاً فى الجيوش الإسبانية فى بيرو . وقد هدده كارباخال الفظيع بالشنق بضع مرات . وكان

(*) مشاع no man's land

هناك عامل منجم تركى يسمى اميرسيجالا ، ويعرفه الإسبانيون باسم «كابتن ثاباتا» . وقد عاش فى بلاد التعدين فى الأنديز فى خلال القرن التاسع عشر . وفى تاريخ مبكر يرجع إلى سنة ١٦١٠ لقى فاثـكيث اسبينوسا شخصا من بلاد شرق البحر المتوسط يعيش فى كاستروفرينا . وفى وقت لاحق فى نفس القرن كان هناك بضعة تجار سوريين يعيشون فى بحبوحة من العيش فى ليما . وقد هـــددوا فى وقت من الأوقات سيطرة التجار الإسبانيين فى المدينة . وتزوج واحد منهم دونيا برنادا موررالس نيجريتى التى تبرعت لكنيسة «المعوزين» (*) فى ليما . وفى ســـنة ١٦٩٨ أسست مستعمرة للاسكتلنديين فى برزخ دارين فى تحد للإسبانيين وبدون مساعدة من الحكومة البريطانية أوعملائها فى الهند الغربية . ولم يكن من الممكن اختيار موقع أسوأ ملاءمة من ذلك ، وسرعان ماصرف النظرعن المشروع الذى صممه «الساحر» وليم باترسن رجل المـال المشهور .

وبالقرب من انتهاء العصر الاستعمارى ضعفت حدة قوانين الحظر كثيرا . وكانت السياسة الإسبانية عديمة التسامح تجاه الأجانب كما كانت دائما ، وفى مناسبات كان كبار موظفى حكومات نواب الملك يطبقون قوانين الحظر بشدتها القـديمة . ومع ذلك فإن السماح للعلماء الأجانب مثل لاكوندامين فى منتصف القرن ، وهمبولدت وبونبلان فى نهايته ، لدليل على الضعف الذى طرأ على التعصب التقليدى ضد الأجانب حتى بين الأوساط العالية فى أسرة البوربون المالـكة . ولأول مرة منـذ عصر النهضة تعبر الآراء المشتركة الحدود الدولية وتجد روح العصر الحديث فى أوروبا طريقها إلى العـالم الجديد . وجاءت فى كتب الفلاسفة الفرنسيين ، وكان يتلهف على قراءتها الشباب المفـكرون فى المستعمرات ، وفى قصص الجمهورية

(*) Desamparados

الأمريكية الحديثة العهد ، والتي كان يرويها سادة السفن القادمة من نيوانجلند والذين كانوا يجلبون الدقيق إلى فنزويلا ، وفي تحادث التجار الأجانب الذين بدأوا يستقرون في هـــدوء تام في أول الأمر في مدن أمريكا الجنوبية الساحلية، والتي كانت تعيها ، غير متقادمة ، ذاكرة الأوروبيين العائدين ممن كانوا يزورون أوروبا بأعداد متزايدة مثل بوليفر . وفي مثل هـذا الجو أصبحت روح العداء للأجانب غير ذات موضوع . وفضلا عن ذلك فإن القادمين الجدد جنوا فائدة من استياء المستعمرين المتزايد ضد إسبانيا الذى سبق عهد الاستقلال . وعندما جاءت الثورة الكبرى في أوائل القرن التاسع عشر كان لاشتراك كثير من المتطوعين البريطانيين والأمريكيين الفعال في القوات الثائرة الأثر في تزايد الترحيب بمواطنيهم فور الحصول على الاستقلال (٩) .

الهجرة في ظل الجمهوريات

كانت السنوات الأولى للجمهوريات فترة وئام مع الأجانب خصوصا الأمريكانيين والبريطانيين (١٠) . واستقر كثير منهم في الأمم الجديدة كتجار أو في إدارة المناجم أو أطباء أو مهندسين أو أصحاب سفن . وقد سدوا فراغا اقتصاديا خلفه اختفاء العنصر الإسباني في حياة الدول العملية . وكانوا قوة دافعة قيمة في تنمية الجمهوريات . وأثرى كثير منهم وتزوجوا نساء وطنيات ، وامتزجت حياتهم امتزاجا وثيقا ودائما بحياة المجتمع .

ولما أن ثبتت الحكومات الجديدة أقدامها ، وتكفلت باستغلال مواردها الطبيعية بأسلوب أكثر انتظاما ، أصبحت تدرك الحاجة إلى قوة عاملة أكبر وإلى مهارات خاصة للإسراع في تطويرها . وشملت معظم أراضيها قفارا (*) شاسعة قد تصبح مطمعا لاعتداء من دول أجنبية فيما

(*) despoblados

لو تركت خاوية . ولقد عبر الفيلسوف السياسي ألبردي عن الدعوة الحثيثة لاستقدام أناس أكثر من تهيئهم الزيادة الطبيعية للسكان المحليين بقوله المأثور « التعمير هو الحكم » (*)

وكانت النتيجة هي السياسات التي رسمتها الجهات الرسمية لاستقدام الأوروبيين . فنشطت البرامج الحكومية للاستعمار المنسق قبل منتصف القرن ، ولكن حركة الهجرة لم تصل إلى ذروتها إلا بعد سنة ١٨٩٠ . فبينما لم يحضر سوى مئات في عهود الاستعمار فقد قدر للملايين أن يحضروا . وفي بعض الأحيان كانت المبادأة تأتي من جانب المروجين أو جمعيات الاستعمار ، وفي بعض الأحيان من أجل مصالح خاصة كزراع البن في ساوباولو .

وكانت الهجرة إلى أمريكا اللاتينية مفضلة لنفس الظروف التي من أجلها نشطت حركة الشعوب الأوروبية في الهجرة إلى الولايات المتحدة في نفس الفترة : الفرص التي يتيحها العالم الجديد للمهاجرين لتحسين مصيرهم ، واستياؤهم من الأحوال السياسية السائدة في أوروبا كرد الفعل الرجعي الذي تلا فشل ثورة ١٨٤٨ الألمانية وحرية ممارسة تجارب اجتماعية ودينية في بيئة جديدة ومنعزلة ، كتلك التي أوعزت بتأسيس المستعمرة الاسترالية ــ الأمريكية الاشتراكية في باراجواي ومستعمرة المنونين(**) في جران شاكو في نفس البلاد ، وكذلك لمجرد حب المغامرة والتبرم بالظروف . وفشلت بعض المستعمرات أو تفككت بسبب سوء الإدارة ، أو لطبيعة المهاجرين ، أو عجزهم عن مواجهة ظروف الزيادة أو لنقص

(*) Poblar es gobernar

(**) مذهب بروتستانتي ، نسبة إلى مؤسسة منو سيمونز Menno Simons مات سنة ١٥٥٩ .

الأموال التى تجعلهم يتغلبون على المشاق التى قد يواجهونها فى أول سنة عجفاء ، أو اختيار مكان ذى موقع غير ملائم كالموقع الذى اختاره الاسكتلنديون على جزيرة شيلووى ، والجنوبيون فى نهر تاپاجوس الأدنى فى وادى الأمزون ، وفريق كاليفورنيا فى حوض پاشيتيا فى بيرو ، وفريق اوكلاهوما فى وادى بلكومايو الأعلى . ومن المرجح أن أكثر المغامرات نجاحا والتى قام بها المستعمرون على نطاق واسع كانت مغامرات الألمان فى جنوب البرازيل ، والمستعمرات المختلطة فى إقليم « المستعمرات » فى ولاية سانتافى الغنية فى أرجنتينا . ويرجع الفضل إلى المهاجرين فى فتح أرض جديدة فى أرجاء كثيرة ، ومن بين هؤلاء كان الألمان فى جنوب تشيلى وفى إقليم مسيونيس فى أرجنتينا ، والولش (*) فى وادى شوبوت فى بتاجونيا ، والاسكتلنديون والصقالبة فى تيرادل فويجو ، والمزارعون البولنديون فى ولاية پارانا البرازيلية ، والمستعمرون ذوو الجنسيات المختلفة الذين اجتثوا الغابات من إقليم شاكو الأرجنتينى وهيأوا الرقعة لزراعة القطن . وقد كانت المهارات الخاصة التى اتصفت بها بعض الجماعات دافعا لنشأة عدة صناعات ، كما فعل القادمون من مقاطعة كورنوال فى التعدين ، والغزالون من مانشستر فى صناعة الأقمشة القطنية ، والإيطاليون فى صناعة النبيذ فى ولاية مندوثا الأرجنتينية ، والسويسريون فى الألبان ، والبريطانيون فى النهوض بتربية الماشية ، والصينيون فى منتجات الحدائق ، ولو أن الفائدة فى هذه الحالة لم تكن خالصة . وقد بذل الأمريكيون جهداً كبيراً فى وضع أسس صناعة التعدين فى البرازيل الجمهورية ، كما أدت مجموعة المدرسين الأمريكانيين الذين أحضرهم الرئيس سارمينتو إلى أرجنتينا خدمة لا تقدر للتعليم الابتدائى فى تلك البلاد .

وكانت إيطاليا أكبر مورد منفرد للمهاجرين . فقد استقرت جموع

(*) القادمون من ويلز فى بريطانيا — بلاد الغال .

كثيرة من الإيطاليين ، عادة كأفراد أو وحدات أسرية ، فى ولايات ساوپاولو وريو جراندى دل سول فى أرجنتينا وأوروجواى . وارتقى كثير منهم إلى مراكز جلبت لهم ثراء عظيما ونفوذا فى تلك البلاد . ومن بين رؤساء جمهوريات أمريكا الجنوبية من أصل إيطالى كارلوس پاجرينى فى أرجنتينا وأرتورو ألساندرى فى تشيلى . وفى بيرو يشغلون مركزا فى مجتمع رجال الأعمال يفوق كثيرا نسبتهم العددية . وهم يندمجون بسهولة فى حياة الجمهوريات ، وحتى فى أثناء النظام الفاشستى فى إيطاليا كانوا يتسببون فى مشكلات قليلة نسبيا لحكومات أمريكا اللاتينية .

وما إن تلاشت أحقاد حروب الاستقلال مع الجيل الذى خاضها وتوثقت العلاقات السياسية مع إسبانيا حتى هاجر كثير من الإسبانيين إلى المستعمرات السابقة،وكذلك إلى البرازيل حيث برهنوا على أنهم عنصر نافع جدا فى السكان . وكان تدفق الإسبانيين إلى كوبا بعد الحرب الإسبانية الأمريكية كافياً لجعلهم عاملا رئيسيا فى تركيب سكان الجزيرة وفى حياتها الاقتصادية والاجتماعية . وكذلك فتحت البرازيل أبوابها بالترحاب للمهاجرين من الدولة الأم إلى حد إعفاء البرتغاليين من مجموعة القيود التى يفرضها قانون الهجرة وأدى بهم نشاطهم وكدهم واتزانهم إلى أن يصبحوا دائما مقبولا جدا فى كيان البرازيل الاجتماعى .

وإلى وقت حديث أبدت حكومات أمريكا اللاتينية اهتماما قليلا بدمج العناصر الأجنبية المختلفة فى الإطار السياسى والاجتماعى للأمة . ونزعت الشعوب القادمة من جنوب أوروبا ، نظراً إلى قرابتهم الثقافية لشعوب أمريكا اللاتينية إلى ملاءمة أنفسهم بسهولة تامة لظروف بيئتهم الجديدة حتى ينسوا ولاءاتهم القديمة ، ولم تكن الحال هكذا مع الألمان واليابانيين . فقد تركت جماعات منعزلة من المستعمرين الذين يعملون فى الزراعة يمارسونها بأساليبهم الخاصة ، كالمركز اليابانى فى منطقة سكة حديد سوروكابانا

فى ولاية ساوپاولو والمستعمرات الألمانية فى سانتا كاثارينا وريو جراندى دوسول وفى منطقة البحيرات فى تشيلى . ففى هـذه الجهات أسسوا نظما مطابقة لنظم أوطانهم ، بالكنائس والمدارس والنوادى والصحف . وبقى الجو فى المدن الكبيرة مثل بلومينو فى سانتا كاثارينا ألمانيا أكثر منه برازيليا . ومع ذلك فعلى الرغم من الإصرار على التمسك بالصلات القديمة كان من الممكن للمهاجرين الألمان وخلفائهم من بعدهم أن يتلقوا حقائق القومية البرازيلية بقبول أكبر إذا لم يرتبوا أنفسهم بمنطقية زائدة لخطط الإمبراطورية والنازية فيما وراء البحار . فقد جهد عملاء حكومة برلين المتعصبون لإحياء ولاءاتهم النائمة للوطن الأصلى فقط ليتسببوا فى وجود انقسام نصفى فى عواطف الجماعات الجرمانية . وقد كان اليابانيون ، الذين جاءوا متأخرين ، أكثرهم عنادا فى تعلقهم بوطنهم الأصلى (١١) . فقد كانوا عادة يعيشون فى أوطان يابانية متماسكة صغيرة تكمن فى كيان البرازيل الاجتماعى ، وهناك كانت الحكومة اليابانية تغرس فيهم وفق خطة مدروسة حب الوطن الأصـــلى . وتمشيا مع هذه السياسة شاهدنا ضباط وجنود مجموعة من السفن الحربية اليابانية فى زيارة للبرازيل تقوم بعرض مثير أمام مئات العمال اليابانيين الذين يعملون فى مزرعة بن كبيرة فى ولاية ساوپاولو . وقد خلق توارث هـذه الولاءات القديمة من جانب كل من الألمان واليابانيين مشكلات خطيرة متعلقة بالأمن للسلطات البرازيلية فى أثناء الحرب العالمية الثانية واستلزمت التخلى عن سياسات الهجرة المتهاونة .

ومنذ الحرب العالمية الثانية كان هناك ميل إلى الاهتمام بالاختيار أكثر من ذى قبل فى انتقاء المهاجرين المنتظرين وأهم القواعد التى ستطبق هى: (١) الفائدة الذاتية التى تجنيها التنمية الاقتصادية للبلاد خصوصاً الزراعة والصـــناعة ، (٢) إمكانية الاندماج بسهولة فى السكان الوطنيين ،

(٣) التخلي عن الانتماء إلى مذاهب سياسية أو اجتماعية لا تتمشى مع أيدولوجيات وولاءات الأمة . وأثرت الروح القومية الجديدة المتفشية في كثير من أرجاء أمريكا اللاتينية في مسلك الحكومات نحو الأجانب ، بل قد عكرت في بعض الأماكن صفو المودة التي كان يكنها الشعب نحو أولئك الأجانب الذين قد يعيشون بين ظهرانيهم ، وهذه الروح نجدها منعكسة في القوانين وفي مواد الدساتير الجديدة ، وبعضها صريح بالعداء ، وبعضها متحيز ، وكثيراً ما تكون تحت تصرف الموظفين العامين مثل مفتشي الجمارك والهجرة ورجال البوليس الوطني . ويثير هذا الشعور ضد الأجانب المنافسة الاقتصادية خصوصا عندما توظف أعداد ضخمة من الأجانب في البلاد في المؤسسات الأمريكية أو الأوروبية ، ويستغل هذا الشعور زعماء العمال ومثيرو الفتن المتطرفون .

وكراهية الأجانب ، مع نزعة خاصة ضد الأمريكيين عادة ، منتشرة في المكسيك (١٢) ، ولو أن ذلك بعيد عن الشمول ، لأن أهالي المكسيك بطبيعتهم شعب محبوب وودود . وهذه العاطفة هي نتيجة عدد من الظروف تشمل عدم الثقة بالولايات المتحدة ، وقد دامت قرنا من الزمان ، والتي أحياها لسوء الحظ الاستيلاء على فيرا كروث في سنة ١٩١٤ ، والغارة العقيمة التي شنها الجنرال بيرشنج إلى شيواوا بعد سنتين من هذا التاريخ ، والتي لم تهدأ حدتها تماما في وقت لاحق باتباع سياسة الكبح والاحترام الذي تظهره الولايات المتحدة في معاملاتها مع المكسيك . وتتبع أرجنتينا تقليدا قديما في قبول الأجنبي ، ولكن استمرار نظام سياسي وطني له صبغة عسكرية قد يؤثر في النهاية حتى على الرأي العام في العاصمة بوينس أيريس . وبينما نجد أن التعصب ضد الأجانب غريب كلية على جو البرازيل المرحب ، فإن هناك دلائل على أنه في بعض الأوساط لم يعد للأجنبي ذلك الترحيب الذي يناله عن جدارة كما كانت الحال من قبل .

وكان للاضطراب العميق الذى انتاب الثقة بين الدول بعضها وبعض والذى جاء على أثر انهيار نظام العالم القديم خلال الأربعين السنة الماضيات الأثر فى تحويل العقيدة الشاملة التى يعتنقها سكان أمريكا اللاتينية تجـــاه الإنسانية إلى داخلهم أنفسهم . وبينما تحصنت ذاتياتهم القومية ، نزعوا إلى تضييق وجهة نظرهم ومشاعرهم إلى مجموعة إقليمية من العلاقات والمصالح . وباتباعهم نموذج إسبانية إسبانيا فى ظل فرانكو هناك تأكيد يتزايد بين عناصر السكان الذين قويت عندهم روح القومية على الالتزامات الضيقة ، إما الإقليمية وإما القومية فى مداها ، بفكرة التشبث باللاتينية أو الأرجنتينية أو البيروفية (*) . والجزء الأكبر من هذا الشعور هو غلو فى الوطنية (**) ومبدأ انعزالى — أو قل صورة من « التهرب » (***) الدولى ، وهو مفهوم طالما كان تعبيرا عن النفور من التحول الذى طرأ على الشئون العالمية منذ ســـنة ١٩١٤ . فإذا كان كذلك فهو يمثل رغبة الجمهوريات لتعيش حياتها وفق نمط محلى من صنعها هى ، ولا علاقة له بتوترات العالم الخارجى . فالمفروض هو أن الأجنبى قد خدم أى غرض برر دخوله فيما مضى فى المجتمع والاقتصاد القومى . والرأى عند القوميين المتطرفين أنه الآن يجسم القوى المقلقة فى العالم ، وباتصالاته بوطنه قد يصبح تهديداً كافياً للأمن القومى والاستقلال الاقتصادى إن لم يكن لسلامة الكيان الثقافى للأمة . والأجنبى فى الواقع مكلف بالوقوف موقف الدفاع وحوله نطاق من القيود . وفى هذه الظروف عليه أن يثابر على الاعتماد على صفاته كفرد ، وقبوله على هذا الأساس من جانب الأفراد الذين يكونون الأمة التى يعيش فيها . ولذلك يصبح مركزه مركزاً شخصيا وتصبح

(*) على التوالى Hispanidad, Latinidad, Argentinidad, Peruanidad.

(**) شوفينية Chauvinism نسبة إلى شوفان Chauvin من محاربى نابليون زائدى الإخلاص .

(***) escapism

لقراباته الأجنبية أثر ضئيل فى نجاحه لمواءمة حياته لحياة البلاد . وقد كان هذا هو الشأن فى العصور الاستعمارية ، وهو كذلك اليوم . فلا مناص من أن يتنحى عن شخصيته كأجنبى ، فإذا تجنس بجنسية البلاد يقبل أن يكون مواطناً فيها وتيسر بعض الجمهوريات كثيراً عملية التبنى خصوصا أوروجواى وأرجنتينا . فدستور أوروجواى فى الواقع يجعل التجنس فعلا خطوة آلية للأجانب ذوى المسئولية بعد إقامة فى البـــلاد تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات (١٣). أما بالنسبة إلى أولئك الذين قدموا «خدمات تستحق الذكر» أو يكونون « ذوى جدارة فائقة » فقد تقصر المدة عن ذلك . وللأجانب الذين أقاموا فى الجمهورية الشرقية (أوروجواى) مدة خمس عشرة سنة الحق فى التصويت حتى لو رأوا الاحتفاظ بجنسيتهم الأصلية . وفى أرجنتينا وفقا لدستور سنة ١٩٥٠ ، للأجانب الذين أقاموا مدة سنتين فى البلاد الحق فى طلب المواطنة الأرجنتينية . وهم يحصلون على الجنسية الأرجنتينية آليا بعد خمس سنوات من إقامة مستمرة ما لم يعلنوا تفضيلهم لعكس ذلك .

وقد قام الأجانب بدور أهم بكثير فى حياة أمريكا اللاتينية فى ظل الجمهوريات من الدور الذى قاموا به فى عصر الاستعمار . وازدادوا كثيرا من ناحية الأعداد الفعلية ومن ناحية نسبتهم بين سكان الجمهوريات فى وقت معاً . ولهم نفوذ عظيم بصفة خاصة فى أرجنتينا والبرازيل وتشيلى وباراجواى واوروجواى . ونفوذهم أقل بكثير من ذلك فى المكسيك وكولومبيا وفنزويلا . وتعد أرجنتينا اليوم الحصيلة التى لم تكتمل للعناصر المختلفة التى دخلت البلاد منذ الاستقلال أكثر مما تعد وريثة إقليم نائب الملك أيام الاستعمار . فإذا أمكن إحصاء المورثات الحيوية فى مجموعة أفراد الشعب الأرجنتينى المختلط فقد نجد أن غالبيتهم من أصل أوروبى حديث أكثر من كونهم من أصل إسبانى أو هندى . ولم يطل العمر بالرئيس سارمينتو الذى كان ينتقد معنفا « بربرية » الأمة ليرى التغيرات العميقة

التى قدر لها أن تنتاب طرق شعبه بتأثير الأجنبى . ونظرة فاحصة فى دليل الهاتف « التليفون » فى أية مدينة كبرى مثل ساوپاولو وپورتو ألجرى فى البرازيل ، ومنتفيديو فى أوروجواى ، وبوينس أيريس وروساريو فى أرجنتينا ، وكونسبسيون وفالدفيا فى تشيلى ، قد تكشف لنا عن مدى « تأثرها بالعنصر الأجنبى (٥) فى هذه البلاد . وينعكس أثر المهاجرين ونسلهم فى حضارة أمريكا اللاتينية ، أولا وقبل كل شىء ، فى حياة الجمهوريات الاقتصادية ، ولكن أيضاً فى العادات السياسية والاجتماعية ، وفى صياغة القوانين فى الجماعات المنظمة ، وفى المجالات الثقافية للتعليم والصحافة وفن العمارة والموسيقى واللغة ، والطعام والشراب وقواعد اللعب والرياضة . ولقد غنيت حياة أمريكا اللاتينية كثيراً مما أحضروه وأضافوه إلى مدخرها الأصلى من القيم والتجارب .

هوامش الفصل السادس

(١) « تمتع الأجانب فى باراجواى بالحقوق كاملة تقريبــا كما تمتع الاســبانيون أنفسهم • فبمجرد أن يظفروا بدخول البــلاد تصبح قوانين تــبه الجزيرة التى سنت لتقييــد نشاطهم مهملة • ومنــذ بــدء الفتح يشترك كثير من الأجانب فى أحــداث العصر ••• ذلك لأن الميــل الى كرم الضيافة وعدم التعصب ضد الأجانب من أهم الصفات البارزة فى المجتمع الاستعمارى فى باراجواى » •

J. Natalicio Gonzalez, «Proceso y Formaciôn de la Cultura Paraguaya» (Asunciôn, 1938), P. 233.

(٢) « ان السخاء الذى كان يعامل به الأجنبى فى أمريكا البرتغاليــة فى القرن السادس عشر واضح لنــا • وهــذا سخاء يرجع الى الوراء ، الى جذور الأمة البرتغاليــة نفســها • فهو ليس مسألة فضيلة ما نزلت من السماء على البرتغاليين ، بل انه نتيجة شبه كيميائية للخلفية العالمية وغير المتجانسة لهــذه الأمة البحرية » •

Gilberto Freyre, «The Masters and the Slaves» (tr. from the Portuguese, New York, 1946), P. 199.

وعلق سيرجيو بواركى دى هولاندا على اســتعداد البرتغاليين لقبول الأجانب فى البرازيل بقوله : « أتت الى هنــا أعــداد جمــة من الانجليز والايرلنديين والألمــان ليفيدوا من هــذا التسامح » •

«Raizes do Brasil» (2nd ed., São Paulo, 1948), P. 153.

وكان فى استطاعة التجــار الأجانب أن يتاجروا على طول الســاحل شريطة دفع ضريبــة على بضائعهم مقدارها ١٠ فى المــائة والا يتاجروا مباشرة مع الهنود •

أنظر أيضــا : Freyre, op. cit., P. 40.

(٣) « فى القرنين الأولين للمستعمرة كانت ســياسة المملكة الخاصــة بالسماح للأجانب فى البرازيل سخية جــدا • وكانت القاعدة التى اتخذها البرتغاليون أساسا فى اختيار المستعمرين أقرب الى الدين شيئا ما أكثر من قربهــا للقوميــة ، أى حــالة كون المستعمر مســيحيا • ومع ذلك فالكاثوليك فقط هم الذين كانوا يعدون مسيحيين » •

Caio Prado, «Formaçâo do Brasil Contemporàneo» (Sâo Paulo, 1942). P. 228.

(٤) أنظر :

Pigafetta, «Magellan's Voyage around the World» (tr. from the Italian, 2 vols., Cleveland, 1902), originally published at Venice in 1534 (or 1536), as «Il viaggio fatto dagli Spagnuoli atorno al mondo.»

Augustin Edwards, «My Native Land» (London, 1928), P. 89.

(٥) كان هنــاك فى ذلك الوقت ثلاثة وعشرون أجنبيــا غيرهم يقيمون فى سانتياجو وتوزيعهم كالآتى : ثمانيــة فرنسيين ، وســتة برتغــاليين ، وخمســة أمريكانيين ، ونمسوى وألمــانى ودانمركى وسويدى • وفى ذلك الوقت أيضا كان هنــاك بضعة انجليز يعيشون فى فالباراييسو • ووصل دكتور جورج ادواردز مؤسس الأسرة التشيليــة المشهورة من انجلترة فى ســنة ١٨٠٥ وبــدأ ادوارز وانجليز آخرون فى تنميــة صناعة تعــدين النحاس فى شمال تشيلى • واستقر كثير من الأجانب فى ليما حوالى نفس هــذا الوقت خصوصا بعد سنة ١٨٠٨ ، ولم تتدخل السلطات الاسبانية فى شئونهم •

«A Historical and Descriptive Narrative of Twenty Years, Residence in South America» (3 vols., London, 1825). I, 353

(٦) على الرغم من أن هــذا كان أضمن طريقــة يجب أن ينهى بهــا رحلاته ، طبقا لسجلات محكمة التفتيش فى كارتاخينــا ، ففى سنة ١٦٥٠ حــذر شخص اســمه جون دريك من شروده عن طريق الأورثوذوكســية الكاثوليكيــة المستقيم : وحــدث هــذا بعد ٦٨ سنة من تحطيم السفينة فى نهر بلات • وعلى ذلك فلو كان هــذا هو القبطان الأصلى فى أســطول فنتون فلا بــد انه كان فى ذلك الوقت قــد تقدمت به السن كثيرا •

Zelia Nuittall, «New Light on Drake» (Habluyt Society Publications, London, 1916).

وفى سنة ١٧٣٧ كان يعيش فى ليمــا صانع قبعات انجليزى ، وهنــاك كان يصنع قبعات جميلة من صوف الفيكونيــا • وقضى بذلك على ســوق القبعــات المستوردة من أوروبا ، وعنــدما عاد الى انجلترة بعــد خمس سنوات لقن سره الى مولد (مستيسو) كان يستخدمه ، واســتمر المولد يمارس صناعة القبعات فى ليما •

Jorge Juan and Antonio, de Ulloa, «Noticiàs Secretas», II, 267.

(٧) انظر :

Luis Galdames, «A History of Chile» (tr. from the Spanish, Chapel Hill, North Carolina, 1941) P. 115;

وأيضـا :

Augusitn Edwards, «My Native Land» (London, 1928) P. 62.

(٨) « صدر أمر فى سنة ١٥٣٦ فحواه أن أى برتغالى متزوج تصحبه زوجتـه يسمح له بالذهاب فى حرية الى الهنـد الغربيـة » .

Irene A. Wright, «The Early History of Cuba, 1492 — 1586» (New York, 1916), P. 194.

(٩) عن موضـوع المتطوعـين الأمريكانيين والبرتغـاليين فى جيوش وأساطيل حركات الاستقلال انظر :

Charles Lyon Chandler, «Inter-American Acquaintances» (Sewanee, Tennessee, 1917).

وأيضـا :

William H. Koebel, «British Exploits in South America» (New York, 1917).

وأيضـا :

Alfred Hasbrouck, «Foreign Legionaries in the Liberation of Spanish South America» (New York, 1928).

وأيضـا :

Basil Hall, op. cit., I, 62.

(١٠) « منـذ ثلاثين عـاما كان التشيليون يرحبون بجميع الأجـانب بسخاء فياض وبحرارة فطرية وبساطة كانت تدخل البهجة فى النفوس ، وقلمـا يبـدو منهم مثل هـذا الترحيب الآن الا فى الأماكن النائيـة من البـلاد » .

Mrs. C. B. Merwin, «Three Years in Chile» (New York, 1863), P. 72.

اقتبست فى

Tom B. Jones, «South America Rediscovered» (Minneapolis, 1949) P. 84.

وقــد كان زوج مسز ميرون قنصل الولايات المتحــدة فى فالباراييسو فى ١٨٥٣ ٠

(١١) أنظر :

João Frederico Normano, « The Japanese in South America » (New York, 1943).

(١٢) « لقــد فعلت المكســيك ٠٠٠ كل شىء لتمنع الأجانب من أن يستقروا هنــاك ٠ أما الذين يعيشون فعلا فى المكسيك والذين انحدروا من أصل لا هو مكسيكى ولا هو اســبانى فيبقون دائما أجانب فى أعين المكســيكيين » ٠

Herbert Cerwin, «These are the Mexicans» (New York, 1947), P. 339.

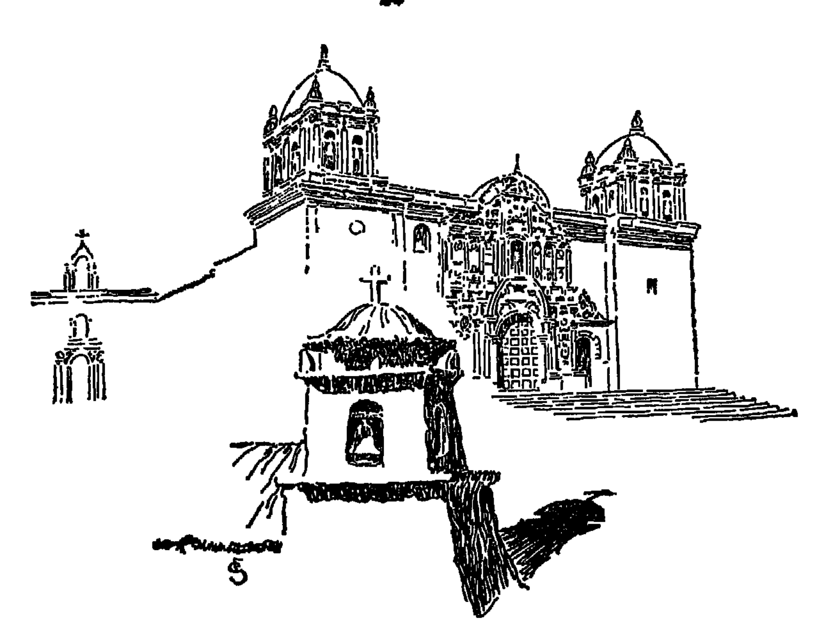
(١٣) أنظر :

Russell H. Fitzgibbon, ed., «Constitutions of the Americans» (Chicago, 1948), P. 721.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع

الكنيسة



من المعروف فى اللغة والبروتوكول الدوليين أن ملك إسبانيا كان « الملك الأكثر كاثوليكية » ، كما كان نظيره الفرنسى « الملك المسيحى » . وكان اللقب فى الحقيقة هو الجزية التى تؤدى للأورثوذوكسية (*) الراسخة التى تتصف بها الأمة الإسبانية . وكانت كاثوليكية الأوطان الإسبانية عقيدة مهيأة للقتال ، ذات صفة حربية ومتعصبة . وكانت دين الجندى ، كما أن الصليب الإسبانى كان سيفاً مصقولا من طليطلة ، مطروقا على سندان الحرب الدنيوية ضد الكفار . وكان نظام القديس جيمس (**) ، إله الحروب الإسبانى (***) ، التعبير الطبيعى لهذا التحمس الحربى بين الجنود . وكان

(*) الديانة السليمة أو الصحيحة [orthos : straight, upright—doxa : opinion]

(**) Santiaguismo

(***) Spanish mars : المريخ الإسبانى .

من المرتقب أن الفرق العسكرية يجب أن تفلح فى مثل هذا الجو وعندما تولى فرديناند أمر الفرق الأربع : السنتارا ، والمانسا ، وكالاترافا . وسانتياجو (*) ، تطوع بضعة آلاف فارس لتسجيل أسمائهم تحت ألويتها .

وسارت الأمور هكذا على الأقل بين الكتلة الكبيرة من الإسبانيين، وبصفة أخص فى اللحظة الدقيقة التى فيها كشف العالم الجديد . وقد كان لبعض الأمور التى استمرت تجرى من قبل فى العصور الوسطى بين مسيحى ومسلم شأن آخر (١) . ولكن من المهم أنه عندما قابل كولمبس الملكة قبل رحلته الأولى كان اللقاء فى المعسكر المسلح عند سانتا فى ، خارج غرناطة . وكانت إعادة فتح المملكة المغربية فى تلك السنة قد أتمت الطور الذى اكتمل فيه التوحيد السياسى والروحى الذى كان قد بدأ منذ قرون . وكان تحمس إيزابلا هو الذى رفع إلى الذروة إثارة الروح الأورثوذوكسية التى لا تعرف تهادنا ، والتى أصبحت رمزاً لإسبانيا فى القرن السادس عشر . وهنا فى الحقيقة يوجد لب حرب صليبية كبرى ، وكان على « الإيطالى المتجول » وفى رأسه رؤيا بعيدة الآفاق ، أن يمهد لها الطريق .

ولم يكن للكنيسة الإسبانية مثيل فى أوروبا ، كما أنه ليس لها الآن مثيل . وعلى الرغم من وجود حركة علمية جديدة فى إسبانيا تمثلها شخصيات لامعة مثل فرانسسكو سواريث ولويس مولينا وفيتوريا ، فقد كان أكثر اهتمامها منصبا على السلوك الإنسانى الذى كان يليق بعقيدة إسبانيـــة أكثر من انصبابه على نواحى الميتا فيزيقا . لأن الإسبانيين كانوا لا ينساقون إلا قليلا وراء فلسفة الإلهيات ، لكونها لا صلة لها بمشكلات الناس العملية . أما الإيمان الذى يعتنقه الناس فيغذيه نوع من الحماسة الداخلية ، ولم يكن

(*) مذاهب دينية حربية ظهرت فى القرن الثانى عشر فى إسبانيا .

هناك لزوم لتحصينه بأى نوع من التفكير المنطق . فقد كان دينا انفعاليا يدين به شعب سليم النية ، ولم يكن هناك شىء فاتر أو غير مكترث بشأنه . وقبل الإسبانى العادى الترجمة الرسمية للعقيدة ولم يلق أية أسئلة حولها ، كما لم تشجع الكنيسة أى تساؤل حول الأشياء المقدسة . فإذا لم يدرك مذهب الثالوث أنغض كتفيه وطواه فى مدركات عقله ضمن الأشياء الأخرى. وفوق كل شىء كان همه منصبا على خلاصه الشخصى ، لأن الدين الإسبانى يتملكه مبدأ العقاب مستقبلا . ولما كانت آراء رجال الدين الإسبانيين التأديبية مانعة بصفة خاصة كان هناك دافع قوى لمتناول العشاء الربانى أن يتبع الصيغة المقررة للخلاص .

وللطريق إلى الخلاص علاقة ضئيلة بمستوى الأخلاق . وإذا استثنينا عظة ومثلا لكاهن ذى قدسية،وهم كثيرون فى إسبانيا،اعتمد الإسبانى عادة على حاسته القوية فى معرفة الحق والباطل ، ولهذه الصفة جذور عميقة فى عادات الشعب . وقد تطورت بطريقة عملية — ونفعية إلى حد ما — من التجارب الطويلة التى اكتسبوها من معيشتهم بعضهم مع بعض . وربما اشتملت على فلسفة رواقية كثيرة وحكمة شعبية مثل عبارة سانشو «الأمانة هى خير سياسة » (*) قدر ما اشتملت عليه المسيحية . فالأخلاق فى إسبانيا ربما اتصفت بنفس العلاقة بالدين ، كالعدالة بالنسبة إلى القانون الرسمى . وكثيرا ما علق المراقبون الأجانب على التوكيد الطقوسى الموجود فى الدين الإسبانى بأنه ترضية شكلية لإهمال الروح . فكان الاهتمام فى أثناء العبادة بمظاهر الطقس الدينى — قصة القداس والأسرار المقدسة ،واللجوء الحسى إلى الفخفخة والمظهرية ، وإلى الموسيقى العظيمة ، والمواكب المهيبة،وجلال الكاتيدرائيات ، مثل كاتيدرائيتى أشبيلية وطليطلة اللتين تعتبران جديرتين بأن تكون كل منهما بيتا للرب .

(*) "Honesty isthe best policy."

ولاقى صلب المسيح هوى خاصاً من خيال الإسبانيين الدينى ، وحتى فى بعض الأحيان من جانب من اتصفوا بالبشاعة والتفكير السقيم . وربما كانت عبادة المسيح المتعذب فوق الصليب بالنسبة إلى الإسبانيين فى مثل تلك النشوة من الإخلاص تعذيباً روحيا للنفس . فهى المظهر المتجهم من المسيحية الذى ينعكس فى لوحات ريفيرا وثورباران ، تماما كما كانت صور المادونا التى رسمها موريو تمثل الانعكاف الشعبى المتزايد على عبادة مريم العذراء .

ويكفى هذا القدر من العقيدة الدينية التى تعتنقها الغالبية العظمى من الشعب الإسبانى . وكانت الاختلافات شائعة جدا بين الطبقة الممتازة فكريا وروحيا فى إسبانيا على نمط المذهب الدينى الذى يتقبله الناس عادة . وكان قدر المخالفة لتعاليم الدين فى الواقع كبيراً وفائق الأهمية فى تفهم التاريخ الثقافى للأمة لدرجة أن السنيور مينينديث أى بيلايو ألف فعلا مكتبة عن الموضوع . وربما كان من المستغرب حقا إذا كان هناك شعب مستقل كالشعب الإسبانى لم يخير فى تلقى عقيدته الدينية الشخصية وفق ما يقنعه به تفكيره ويوحى من روحه . ولقد كان هناك كثيرون من ذوى الحساسية الذين استيأسوا عندما بحثوا عن النفس الغيورة التى تتصف بها العقيدة المسيحية من بين جميع آليات الكنيسة المثيرة والثقيلة — الطقوس والشعائر التى طمست الحضرة المقدسة التى يتلمسون يدها الرحيمة وهديها . وعارض كثيرون التدخل الشكلى للقساوسة فى علاقتهم بالإله . وكاسبانيين كانوا يرغبون فى أن يكون تقربهم إلى الله العظيم من شأنهم الخاص بأنفسهم .

التصوف الاسبانى

إن تفشى هذا الدافع للتعبير الشخصى وانتشار التحمس الدينى هما السبب فى النمو غير العادى للتصوف فى إسبانيا . ولم يقم الصوفيون فى أى بلد أوروبى بمثل هذا الدور الهام فى حياة الأمة الدينية . ويضم عددهم أسماء لامعة مثل رامون لول المبشر الـكاتالونى وفيلسوف القرن الثالث عشر ، وسانتا تيريزا دى أفيلا المؤسسة التى لم يفتر لها نشاط لأديرة كثيرة والكاتبة الخصيبة للنثر المتألق وراعية إسبانيا ، وبالتأكيد إحدى نسائها العظيمات ، وصديقها الراهب الـكرملى خوان دى لا كروث ، وهو من أرق شعراء عصره ، واجناسيودى ليولا مؤسس المذهب اليسوعى ، وفراى لويس دى ليون . ونظراً إلى عقليتهم المتحررة فقد كانوا دائما موضع اشتباه من جانب السلطات الـكنسية يضطهدون فى بعض الأحيان لأنهم ضالون مستترون ، إن لم يكونوا ضالين بالفعل . ومع ذلك فقد جاهدوا كثيراً لإحياء الدين القومى بحماستهم وآرائهم الجديدة وبأعمالهم الخيرة الـكثيرة .

وغالبا ما كان المتصوفون فى سلوكهم وشخصيتهم أناسا عاديين تماما وعمليين للغاية . غير أنه على هامش عالم التصوف كانت تعيش سلالة أدنى رتبة من رجال ونساء « ملهمين » . وتبع بعضهم النفس الداخلية إلى زوايا مظلمة وخطرة ، وهناك بمرور الوقت ، لشدة أسفهم وانزعاجهم ، دخلوا فى صدام مع محكمة التفتيش . وعرف بعضهم باسم « المستنيرين » (*) أو «المتلألئين(**)». وإذا استثنينا الأشخاص الذين وهبوا فقط البداهة أو البصيرة بدرجة غير عادية وترتب على ذلك اتهامهم بالعرافة أو السحر ، فقد كانت هذه الحالات الهامشية تلعب على نغمة الانحراف العقلى من النزوات الصريحة

(*) Alumbrados

(**) Iulmina dos

بواسطة تخيلات ذات درجات مختلفة، من سلامة العقل أو الوضوح إلى الهستيريا واضطراب الأعصاب ، بل إلى الهذيان الصريح والتخبط من المس . وفى هذه الزوايا المريضة للنفس الإسبانية كان على محكمة التفتيش أن تتصيد كثيرين من ضحاياها .

ومن الأشكال الأخرى المنحرفة عن العقيدة الدينية وجد مذهب أرازموس قبولا كبيراً بصفة خاصة بين الإسبانيين ذوى العقلية الفائقة . ومن بين هؤلاء الذين كانوا يشغلون مراكز عالية وذات نفوذ ، والذين كانوا مشايعين علناً أو سراً لرجل الإنسانية الهولندى ، لاأقل من الإمبراطور شارل نفسه، ورئيس الأساقفة كارانثا رئيس وزراء المملكة . وانتقل تأثيره فى العالم الجديد إلى فاسكو دى كيروجا أسقف ميشواسان عن طريق كتابات سير توماس مور .

ولم تكن الأرازامية طريقة فلسفية أو مجموعة معينة من التعاليم ، لكنها كانت فقط تمثل الآراء المتمدنة الرفيعة التى كانت تصدر من أبرز رجل مفكر فى أوروبا . فقد كان المدافع عن العقل فى جو كانت المرارة فيه تتزايد من جراء الانشقاق الدينى فى البلاد المسيحية الغربية . وقدمت حكمته واعتداله وإنسانيته العالية البديل الوحيد للحروب الدينية ، كما أدركت القارة مؤخراً لأسفها الذى لاحد له . وفى هذه الأثناء تمسك شارل الخامس بطل المدنية الإغريقية — المسيحية — هو وزعماء سياسيون وأخلاقيون آخرون ، بحماسة ، برأى أرازموس كحل لهمومهم العميقة . وعلى الرغم من أنه رفض بحزم أن يميل بمكانته الفكرية والمعنوية إلى جانب الثورة الدينية التى بدأها لوثر وكالفن فإنه انتقد بشجاعة مساوىء وأخطاء الكنيسة التى كان يذمها الغير فى قلوبهم أيضا ، ولكن كانت تنقصهم الشجاعة للتشهير بها . وبعبارة أخرى فقد قام هو نيابة عنهم باستهجان كثير من العادات الدينية والأحوال السائدة فى ذلك العصر . ولربما كان يمثل حنين

الطبقة الراقية فى كل مكان إلى العصر الذهبي الذى بدت النهضة تعد به بإحيائها العلوم الكلاسيكية والرجوع إلى مسيحية بابوات الـكنيسة النقية وكانت آراؤه بالنسبة إلى الإسبانيين بصفة خاصة تفريجا إلى حد ما من وقر مبادىء العصور الوسطى التى قد تعرضها الـكنيسة ضماناً أكثر لسلامتها ، ولمحة من لمحات النهضة التى كانت الـكنيسة تخشى تحريرها للفكر . وكان الناس فى خشيتهم أن يتحدثوا عن رؤاهم فى دنيا كانت الأحلام تعد فيها لعنة ، يرغبون مع ذلك أن تنضم إلى جماعته الروحية المختارة كتوكيد صامت وممجد لمثلهم الخاصة التى يعلنون عنها . وفى إسبانيا كان لمجرد إدراك الناس لوجوده فى أوروبا وإدراكهم لقوته المعنوية أثر لا بد أن يكون قد لطف من حدة التعصب الذى كان يتزايد ضد الحركة المضادة للإصلاح الدينى .

الدولة والـكنيسة فى اسبانيا

لا يعد أى تفهم للـكنيسة الإسبانية كاملا دون تسليم بمركزها الفريد كملحق للدولة . وعندما عكف فرديناند وإيزابلا على تأسيس ملـكية مركزية قوية ، كانت إحدى العقبات الـكأداء التى وقفت فى سبيل تحقيق عرضهما هى الاستقلال والسلطة اللذين كـانا فى أيدى كبار رجال الدين . وغالبا كان الأساقفة ورؤساء الأديرة يسلـكون فى الأمور الدينية سلوك سادة الأراضى حتى فى قيادة أتباعهم إلى الحرب . وعندما تضاءل نفوذهم نهائيا هم وطبقة الأشراف(*) ، وقدموا فروض الطاعة للتاج ، أدخلت السلطة المركزية للرهبان ، بطريقة مرتبة ، التنظيم الكنسى ضمن جهاز الدولة . وامتد الدور الذى بدأه الملوك الكاثوليك إلى حكم شارل الخامس ، ثم بلغ اكتماله فى حكم فيلب الثانى . وبينما يعد فيليب شخصيا من أكثر الملوك

(*) grandez

الإسبانيين صلاحا لم تجرؤ الكنيسة أن تأخذ فى يدها أية حريات مع الحق الملكى فى القدرة على كل شىء خلال حكمه الطويل . وعندذلك الوقت كانت ممارسة هذه « الرعاية الملكية » (*) قد أعطت الملك قوة كبيرة فى السيطرة على الكنيسة . وكانت هذه ميزة « الرعاية » التى منحها البابا مغلولا لملك إسبانيا فى سنة ١٤٨٤ والتى بها تقرر وجوب تصديق ملك إسبانيا على جميع تعيينات الكهنوتية فى الكنيسة الإسبانية . وامتدت السلطة أيضا إلى اختيار كبار رجال الدين لمناصبهم فى المستعمرات . وهناك ورث هذا الإجراء للحكومات فى عهد الجمهوريات مما سبب فى وقت لاحق عنتا فى العلاقات بين الكنيسة والدولة .

ولم يهتم الملوك بمسائل العقيدة اللاهوتية كعقيدة لاهوتية — فهذه مهمة الأساقفة وقضاة محكمة التفتيش — ولكنهم اهتموا بوحدة الأمة الداخلية . وكان يرجى من الكنيسة أن تتخلى عن معارضة إرادة أو مصالح الملك ، كما فعلت ذات مرة برفق زائد الحد . ليس هذا فقط ، ولكن أيضا لتدرك أن للإسبانيين جميعا ، رأيا واحدا فى الأمور الدينية . وكما حدث ، فقد كانت هناك مصادر كافية للاحتكاك وخلاف بين الشعوب الإسبانية لإزعاج السلطة المركزية إزعاجا لا ينتهى . ولكنها فى معظم الأحيان كانت عبارة عن المظالم القديمة المألوفة التى كانت تعالجها الحكومة الجديدة فى وقتها المناسب وبطريقتها الخاصة .

الكفر ومحكمة التفتيش

كان انتشار الضلال الدينى فى المملكة هو الذى يخشاه حكام إسبانيا فوق كل شىء آخر . ولما لم تزل العقيدة محتفظة بحماستها من العصور الوسطى ، شغل الدين أذهان الناس أكثر مما يشغلها فى هذه الأيام ، حيث توجد الآن

(*) real patronato

أشياء كثيرة يختلفون عليها ، فكان أى زيغ جماعى عن الأورثوذوكسية يؤدى إلى إمكان تفجير فى المجتمع والدولة . فكانت أية انحرافات عن المعتقد التقليدى خطيرة كذلك ، خصوصا إذا اعتنقها عدد كبير من المنشقين . ولم يحدث فى وقت ما أن وجد فى إسبانيا عدد كبير من الخوارج على إدارة واحدة مثل أتباع كالفن ممثلين فى فرنسا . فإذا كانت هناك ضلالة أو مخالفة للدين أيا كانت ، فهى لم تسبب أية جبهة معادية للحكومة ، ولكنها تبعثرت بين مذاهب كثيرة أو عقائد أو ظلال من الفكر ، لدرجة أنه كان من الأيسر علاجها فرادى حسب خطورتها النسبية أو وجوب الإسراع بعلاجها ، وإذا استثنينا بعض البروتستانت الصرحاء ، وقد ضم هؤلاء كبير مفكرى تثليث الأقانيم ، والكافر مرتين ، وشهيد مذهب كالفن ، ميجل سيرفيتو ، فإن المشكلة الأساسية هى التى كان يمثلها أولئك الذين تحولوا عن دينهم فى وقت لاحق . وأطلق على هؤلاء اسم « المسيحيين الجـــدد » . وكان هناك اشتباه ذائع ، وربما بنى على أساس ، فى أن عدداً كبيراً من هذه الهوايات التى تمت فى الساعة الحادية عشرة لم تكن حقيقية ، لأن البديل كان هو الطرد من البلاد . وكان الدخول فى الدين أفواجا من هذه العناصر المشتبه فيهم ، والذى بدأ فى سنة ١٤٩٢ ، واستمر عدة سنوات ، هو العمل الأساسى لمحكمة التفتيش . وبدون هذا التحدى من جانب هذه الجماعات المتباينة المخالفة لتعاليم الدين أو الجماعات الحرة التفكير فإن طبيعة المزاج الإسبانى المتقلب والذى لا يمكن التكهن به قد تبدو أنها تخلق مبررا لتكوين جهاز مهمته عدم تشجيع التفكير المستقل وضبطه . ذلك لأن فى إسبانيا الامتثال لأى شىء لا يؤخذ قضية مسلمة ، وهذا ما كان يدركه ملوكها ، سواء أكانوا علمانيين أم من رجال الدين .

وكانت محكمة التفتيش هى ذلك الجهاز . واختلفت محكمة التفتيش الإسبانية كثيرا عن محكمة التفتيش البابوية فى العصور الوسطى التى أخمدت

حركة الضلال الألبيجية (*) فى جنوب فرنسا وانحرافات أخرى عن العقيدة المقررة (٢) . فقد كانت أكثر خاتصاصا فى فاعليتها . وفى أوجها كانت أكفأ تنظيم فى إسبانيا وأكثر التنظيمات أثرا فى أوروبا فى تنفيذ أغراضها. وكانت من صنع توماس توركيمادا ، راهب دومنيكى ،استغل مركزه كأب اعتراف لفرديناند وايزابلا لتعضيد خطته العظيمة والمروعة . وعندما تأسست فى سنة ١٤٨٠ كانت هى ما أراده توركيمادا .

وبدأت محكمة التفتيش حياتها بميزة ضخمة هى تعضيد التاج . وكانت فى الحقيقة أداة للسلطة الملكية فى الأساس ، وليست للبابوية . وكثيراً ما كانت على طرفى نقيض مع البابوات ، وكانت تتجاهل الاحتجاجات والحجج التى تقدمها روما كما لو كانت تخدم عقائد مخالفة تماما . ولم تكن هناك أية سلطة عليا يلجأ إليها الضحايا للتخفيف من سلطتها غير المكترثة والتى لاترحم . وككبير للقضاة أدار الراهب الحقود محكمة التفتيش بالنار والعضب فى سنوات نشأتها ، واستمر خلفاؤه من بعده فى سياساته وأساليبه حتى عم الضلال الدينى إسبانيا . وعمرت محكمة التفتيش طويلا بعد الدور الذى أدت فيه خدماتها . وأخيراً ، قضى عليها نابليون بعد أكثر من ثلاثة قرون من إنشائها (٣) وأخلاها من كل الأغراض العملية .

وخدمت المحكمة فى بادىء الأمر أغراض الدولة بإخمادها حركة الارتداد التى كانت تهديداً للسلامة القومية ، وأكدت للكنيسة الرسمية احتكارا واقعيا فى ميدان الدين . وكانت احتفالاتها تقدم للرعاع ترحيبا وطعاماً لأهوائهم وحبهم للشذوذ . وكانت مهامها ، إذا أردنا أن نعبر عنها بالنظم الأمريكية فى هذه الأيام ، هى الجمع بين مهام مكتب المباحث الفيدرالى

(*) فى القرن الثالث عشر ... نسبة إلى إقليم Albigeois أو مدينة Albi فى جنوب فرنسا .

من الشواذ ومختلى العقل كان طعامها المفضل يشمل اليهود والبرتغاليين و « المسيحيين الجدد » كأسرة كارفاخال المشهورة فى المكسيك، والقسيسين الذين كانوا يستقصون الأمور أو ينتهكون قدسية الاعتراف ، والمتزوجين باثنتين ، والملاحين الانجليز أو الهولنديين الذين يحدث أحيانا أن يبطئوا أكثر من اللازم فى العودة إلى سفنهم .

وفى سنة ١٥٤٨ ، قبل إنشاء محكمة التفتيش الملكية ، حكم بيرونيمو دى لوايثا ، أسقف ليما على مواطن فلمنكى بالإعدام حرقا بوصفه كافرا . وفى سنة ١٦٢١ ، بإعلان عام (*) مثل فى ليما ، جلس رواقى إنجليزى حكم عليه بالموت فى تاريخ سابق لاعتناقه اللوثرية على كومة من الحطب ، وبقى ثابتا لا يتحرك ولا يتفوه ، بينما اشتعلت الكومة وحاق به اللهب من كل جانب . وفى بعض الأحيان كان الأجانب المخالفون لتعاليم الدين ينجون من مخالب محكمة التفتيش باعتناق الكاثوليكية كبديل للإعدام حرقا أو السجن المديد ، وجميع صنوف العقاب هذه أوضحتها المصائر المتباينة التى أصابت البحارة الإنجليز الذين تركهم جون هوكنز عند فيرا كروث فى سنة ١٥٦٧ .

وكانت محكمة التفتيش أكثر رأفة فى العالم الجديد منها فى الوطن الأصلى . فقد كان هناك نشاط فكرى أقل كثيرا ، وما وجد منه كان ينزع إلى الأورثوذوكسية . وكما قال فريزييه الفرنسى عن فرع محكمة التفتيش فى بيرو : « أما بالنسبة إلى الكفار فأنا واثق أن أحداً منهم لا يقع فى أيديهم ، لأنهم هناك يدرسون قليلا جدا لدرجة أنهم لا يعرضون أنفسهم إلى السير فى طريق الضلالة بسبب فضولهم » . ففى القرون الثلاثة التى قضاها الحكم الإسبانى فى المكسيك حكمت محكمة التفتيش على ثلاثة وأربعين شخصا فقط بالإعدام . وفى نفس هذه الفترة فى بيرو مثل أمام المحكمة حوالى ٣٠٠٠

(*) Auto — da — fé

ولجان الكونجرس للتحقيق فى جرائم التخريب التى تقوم بها الجمعيات «المراقبة» والإصلاحيات الاتحادية وكانت اساليبها فى الإجراء تتضمن انتهار وتخويف الشهود ، والتشهير بالأخلاق بطريقة منظمة ، واستخدام عامل الاستفزاز لإدانة المشتبه فيهم ، واللجوء إلى التعذيب البدنى لاستنطاقهم الاعتراف أو الإفاضة ، وإذلال المشكوك فى أمرهم أو المجرمين علانية ، ومصادرة أموال الخارجين عن الدين — وهذه الأموال فى حد ذاتها دوافع لكشف الجريمة ، وحجز وتدمير الكتب الكريهة ، وإعدام الخارجين العاصين حرقا .

وبمرور الوقت أخذ الإسبانيون معهم محكمة التفتيش إلى العالم الجديد ، كما أخذوا جميع أمتعة الحياة الإسبانية الاخرى وأقاموها فى كارتاخينا وليما ومدينة المكسيك (٤) . وكان هذا حوالى سنة ١٥٧٠ ، ومن قبل هذا كانت أمور مخالفة التعاليم الدينية تعالج بين أيدى الأساقفة . وصحبت تأسيسها البركة الملكية والنفخ فى الأبواق ، وأمر المستعمرون أن يحيوا القضاة بإطلاق المدافع دفعة واحدة وغير ذلك من « التظاهرات غير العادية » .

وفى بادىء الأمر كان هناك شىء من الاهتمام خاص بإنقاذ الهنود من خطأ طرقهم فى التعرف على الله ، ولكن ، بزيغة من الزيغات الكيخوتية الخاصة بالعقلية الإسبانية أعفى الأهالى فى وقت مبكر ، وبرحمة ، من السلطة القضائية التى كانت تمارسها محكمة التفتيش . إذ لما كان الهنود أناسا غير «منطقيين (*) فقد كانوا لا يستطيعون إدراك العمليات العقلية التى تستوجبها محاكمة مخالفى تعاليم الدين . وإذا لم يكن من الهنود ضحايا تقدم للإله مولوك (**) الإسبانى فقد أشبع نهمه بقوت آخر . فبجانب الحصيد العادى

(*) gente de razon

(**) Moloch ; Molech إله تقدم له الأطفال قربانا عند الساميين .

شخص ، منهم ثلاثون فقط أعدموا . ومن هؤلاء الكفار العنيدين أحرق نصفهم أحياء . وأطلق سراح كثير من الباقين ، وربما احتجز المشتبه فيهم شهوراً فى انتظار المحاكمة ثم لا يحدث إلا أن يطلق سراحهم بتوبيخ وتحذير من المحكمة العليا المحلية . وحتى إذا برئوا من التهم الموجهة ضدهم فإن المحنة السيكولوجية التى تلازم الوقوف أمام المحكمة المشئومة كانت عادة كافية لمنع المتحررين من التقاليد والضالين من الارتداد . وآخرون كانت تفرض عليهم الغرامات ، أو تفرض عليهم عقوبات مختلفة تتراوح بين الإذلال العلنى بأن يلبسوا جلباب الاتهام عند إعلانه عيانا ، إلى عقوبة السجن مدى الحياة فى غياهب محكمة التفتيش ، وكان هذا نادرا . ويقارن هذا السجل مقارنة مفضلة جدا بالمجازر التى حدثت فى إسبانيا حيث يقال إن أكثر من ألفى شخص لاقوا حتفهم حرقا فى زمن توركيمادا وحده .

وتغيرت وجهة نظر السكان تجاه محكمة التفتيش كثيرا بمرور الوقت . ويقول الأب فاسكيث دى إسبينوسا ، الذى كان فى بيرو فى أوائل القرن السابع عشر ، إن الناس فى ذلك الوقت «كانوا يقدرونها ويوقرونها» فى تلك البلاد . ولما كانت فى مأمن بسبب مساندة التاج فقد عملت محكمة التفتيش لفترة طويلة كجهاز مستقل — وفى غالب الأحيان كجهاز أرفع منزلة — من جميع أجهزة الحكومة فى العالم الجديد . وأمر كل فرد فى ليما ، بما فيهم نائب الملك وزوجته ، وجميع الموظفين الملكيين ، والمسئولون فى الجامعة ، بالتوجه للحضور فى حفل إعلان علنى بدرجة خاصة فى ليما سنة ١٥٩٢ يمثل فيه أربعة قراصنة إنجليز وحوالى أربعين ممثلا مختلفين يمثلون أدوارا أدنى كوسائل تشويق وإن كانت منفرة فهى أقل من الأخرى. وكانت محكمة التفتيش فى أثناء هذه المرحلة من تاريخها فى المستعمرات قد وصلت إلى ذروة شهرتها . وكان الإعلان العانى يجذب الناس بشدة إلى تنوع من إظهار الغرائز الشائعة . فقد قويت الحماسة الدينية أو تعصب العامة ،

وأثبط أي إغراء للاندفاع في التأمل العقائدي الذي قد يكون كامنا في تفكيرهم وقدم تعويضا عن التلذذ بالقسوة الكامن الذي يجد متنفسا في عصور التاريخ في التأمل في قتال المصارعين ، وحفلات الاضطهاد الجماعي أو المنظر السقيم للمعلقين في حبال المشانق علانية . وكمظهر للترحيب بالمتفرجين قدم العرض كذلك كل تشويق مظهري ليوم من أيام «السيرك» فضلا عن اجتماع عتيق « دبت فيه الروح من جديد » . فإذا كان هناك أجانب بين الضحايا فقد هيأ ذلك فرصة للعكوف على كراهيتهم التي كانت عامة بصفة خاصة بين الإسبانيين في تلك الفترة .

وكان التلصص والتحرش والتجسس الدائم في حياة الناس الخاصة ، واضطهاد الأشخاص ذوي السمعة الطيبة في المجتمع ، وسلوك القضاة المشرب بالوشاية والذين انساقوا وراء المغريات وحصانة سلطتهم ، والجو الكريه النحس الذي كانت تعمل فيه محكمة التفتيش — كل ذلك كان سببا في تحول سلام العامة نهائيا إلى ازدراء عميق ونفور . ولما كانت المحكمة رقيباً عاماً وجهازاً دائب العمل ، فقد تعمقت في تدخلها في كثير من الكتب والخزائن . وأصبحت في القرن الثامن عشر « المستنير » والمتشكك ، في غير مكانها التاريخي . وقد عاشت مدة أطول مما قد أدت من نفع وأصبحت في ذلك الوقت ذات قيمة مقلقة ليس إلا ، بل أصبحت شيئا مخيفا بلا جوهر وهدفا للسخريات الوقحة . وعندما أزيلت السلطة الملكية التي كانت تستند إليها نهائيا في أثناء حروب الاستقلال انقلب عليها الناس يصبون جام غضبهم كما فعلوا في ليما . ويصف وليم ستيفنسن الذي شاهد المنظر فرحة سكان ليما وهم ينهبون مراكز محكمة التفتيش ويدمرون أدوات التعذيب التي كانت تستعملها . وكتب كابتن باز ل الذي كان في بيرو في هذه الفترة يقول : «كان ينظر إلى كل شيء يتصل بمحكمة التفتيش التي ألغيت حديثا بدرجة من الاحتقار والكراهية تسترعي الاهتمام في مدينة مزدحمة بالمؤسسات

الاكليركية ، وحيث تحتل رعاية الـكنائس مكانة عالية فى اهتمام الناس . ولـكن مهما يكن سبب هذا المصير الغامض فلم يكن هناك شىء قد عقد الناس العزم عليه أكثر منه » .

الكنيسة فى العالم الجديد

كان الفتح الدينى للعالم الجديد مسايرا فى توقيته للفتح الحربى ، وكان من جميع الأغراض العملية على نفس درجة الإتقـــان . ولم تـكن هناك مغامرة تبشيرية على نطاق شاسع ، على الأقل من حيث نتائجها العددية ، أكثر نجاحا منذ أدخلت الشعوب الوثنية فى شمال أوروبا فى الديانة المسيحية فى أوائل العصور الوسطى . ومهما تـكن نقط الضعف ، فهى حرب صليبية حقيقية شنت بحمية وإخلاص وشجاعة وتضحية شخصية . وإذا كان ذوو النفوذ فيها لم يعرفوا التسامح بالنسبة إلى الديانات التى عزموا على اقتلاعها ، فإن القرن السادس عشر لم يكن فى أى مكان عصر تسامح ، وفوق كل شىء فإن عدم التسامح كان هو جوهر أية حرب صليبية . وتفاوتت العقائد التى تهاوت أمام هجوم الصليب ، من أكثر عبادة للأوثان فطرة إلى نظم منمقة من الديانة ، بل إلى ديانة التوحيد التى اعتنقها الإنكا (٥) ، وفى موجة من تحطيم الصور والتماثيل دمرت المزارات المقدسة على جوانب الطرق ، وسويت بالأرض معابد كانت لها قدسية سانت صوفيا والـكعبة مثل معبد باشاكاماك على ساحل بيرو أو معبد تيوكالى فى بلاد الأزاتقة حتى لا تبقى آثار تذكرهم بالأديان القديمة . أما فى الجهات التى كانت فيها طبقة ذات نفوذ من القساوسة كما فى أرجاء المـكسيك التى كانت تشغلها قبائل الناهواتل فقد صفيت . وهـكذا وجد فراغ روحى وعاطفى كان على الـكنيسة أن تملأه بتمثيلية ولون مظهريتها الطقوسية ، وسحر علومها الإنجيلية ، وجلال الأماكن التى تقام فيها العبادة والفروض والتعازى المعنوية التى تصاحب العقيدة .

اما بالنسبة إلى الهنود فقد بدا كما لو أن آلهتهم الخاصة بهم خيبت آمالهم فى الأزمة الكبرى التى انتابت شعبهم ، ولذلك فى حالة الاستسلام المشوب بالانتهازية كانوا أكثر قابلية لتلبية نداء المبشرين . وسرعان ماتمت عملية التحول الدينى فعلا ، فيما عدا الأرجاء التى تحف بالأراضى التى استولى عليها الفاتحون ، وهنالك استمرت عدة قرون . وغالبا ما كانت الأفواج « تدخل » فى الدين جماعات ، تصدر لهم الأوامر من رؤسائهم حينما كان يمكن للآلاف أن يعمدوا فى حفل واحد . وطبيعى فى هذه الظروف ألا يوجد وقت للتفقه الكامل فى أمور العقيدة المسيحية . وقد أصاب المبشرون الإسبانيون ، إذ أدركوا الحدود الفكرية لدى الداخلين فى الدين ونبذوا من وقت مبكر أية مناقشة فى مبدأ فلسفة الإلهيات بوصفها دون مقدرة أتباعهم على التفكير فيها . وقد كان الدين الذى قدم للهنود بصفة عامة بسيطا وغير معقد ومقبولا (٦) ، وكان القساوسة فى بعض الأحيان يتغاضون عن الآثار الباقية من عقيدتهم الأصلية التى ألح الهنود أن يضمنوها فى العبادة المسيحية ، خصوصاً إذا أمكن شرحها بنظائرها الإنجيلية (٧). فإذا لم يكن الشىء الذى قدمته المسيحية لشعوب العالم الجديد مقنعا وأساسيا فلربما لم تثابر هذه الشعوب فى ولائها حتى يومنا هذا .

ولكى تؤدى الكنيسة أغراضها المتعددة — الخدمة الدينية ، التعليم ، الصدقات ، رعاية المرضى — أنشأت جهازاً تنظيميا ضخما فى العالم الجديد فضاعفت التنظيم المطرانى للعاصمة ، وأضافت إلى ذلك النمط الأساسى نظاما تبشيريا شاملا وشاسعا تحت إدارة الفرق الرسمية . وكان التنظيم الكنسى أدق من تنظيم الحكومة المدنية ، وربما كان موظفوه وقساوسته أكثر عدداً . وكان من بين رؤساء أسقفية المستعمرات كثير من المطارنة المشهورين ، وكانوا رجالا ذوى شخصيات قوية وجبارة ، شنوا معارك حامية ضد نواب الملك وقادة الجيش حول قضايا الأولوية والرأى ،

وكانت المنافسة الأبدية بين الكنيسة والدولة معقدة من جراء عادة السماح للأساقفة بأن يقوموا أحيانا بعمل نواب ملك مؤقتين ، وبذلك أعطوا مركزاً فى حكم المستعمرات .

أما الفرق الرسمية — الدومنيكان والفرنسسكان والاوجستنيان الخ — فقد دخلوا فى ميدان التبشير فى وقت مبكر جداً فى أثناء فترة الفتح . وفى وقت لاحق قدر لجمعية يسوع القوية أن تقدم الميدان الاستعمارى عنصراً خاصاً يتصف بالمعرفة الرفيعة ، وهيئة إدارية دولية ، ومهارة إدارية ، وسياسة قوية وجريئة . وبظهور كل فرقة من هذه الفرق فى العالم الجديد خصصت لها مساحات محدودة تكون بمثابة « مناطق » خاصة بها . وكانت هناك منافسات حادة بين الفرق على الأراضى المجزية من ناحيتين معاً ، النفوس التى تنضوى تحت لوائها ، والفوائد المادية التى تجنيها . وفى بعض الأحيان كانت تحدث فى المدن مشاغبات غير لائقة فى الطرقات بين الرهبان والأحبار الذين يتبعون الفرق المتنافسة وكثيراً ما كان المبشرون فى مناطق الحدود الممثلين الوحيدين للسلطة والحضارة الإسبانيتين ، كما وجد ذلك همبولدت فى السنوات الأخيرة لنظام الاستعمار عندما سافر من كاراكس متوغلا فى الأراضى الخلفية فى فنزويلا .

الجهاز التنظيمى

بحلول سنة ١٦١٠ كان للمدن الكبرى فى المستعمرات مجموعة منمقة من الكنائس والمؤسسات التقليدية . وتبارت الفرق فى أحجام وفخامة المبانى ، وكثير من الأموال التى كانت تغلها المناجم والزراعة كانت تصرف على بنائها وزخرفها . ويعد الدير الأوجستينى القديم فى أكولمان بالقرب من مدينة المكسيك نموذجا لهذه الإنشاءات الباهرة . وإن من يتمعن الفخامة الدارسة لمدينة أنتجوا فى جواتيمالا يتصور بوضوح القوة والثروة

اللتين كانت تحظى بهما الكنيسة فى ذلك الماضى البعيد . وكانت هناك مدن كنائسية احتفظت بمسحة دينية ومحافظة إلى الوقت الحاضر . وهى تضم أماكن مثل بويبلا فى المكسيك وكوردوبا فى أرجنتينا وسوكرى فى بوليفيا وأريكيبا فى بيرو (٨) وباهيا فى البرازيل وكوينكا فى إكوادور . وكان فى كوينكا ، وهى بلدة يقيم بها حوالى ٥٠٠ إسبانى أربعة أديرة للرهبان ودير للراهبات ومستشفى وبضع كنائس أبروشية ومزارات . ودخل كثير من السكان المحليين فى خدمة الكنيسة لدرجة أنها أصبحت تعرف باسم كوينكا الا كليروس (*) . وفى نفس الوقت كان لمدينة كيتو عاصمة الولاية كاتيدرائية وسبع كنائس أبروشية وثمانية أديرة للرهبان وثلاثة للراهبات بما فيها دير للاتى راهبة لسكان من ٣٠٠٠ إسبانى ومولد . ومن المدن الصغرى التى كانت مشهورة بجوها الكنسى : أولندا فى شمال البرازيل ، وشولولا فى المكسيك ، وقد كانت الأخيرة المركز الدينى لقبائل التولتك .

ووصف أنطونيو فاسكيش دى أسبنوسا ، الراهب الكرملى المتجول فى دائرة معارفه الملخصة (**) بتفاخر وتلذذ الأديرة ومناسك الرهبان الموجودة فى المدن المختلفة والتى كانت محطات كثيرة للتوقف عندها فى أسفاره المتواصلة . فيقول عن ليما ، وكانت وقتئذ عاصمة أمريكا الجنوبية : « فى هذه المدينة المشهورة أديرة دومنكية وفرنسسكانية وأوجستينية ومرسيدية ويسوعية . وفى ذلك الوقت — العقد الثانى من القرن السابع عشر — بلغ سكان ليما حوالى ٢٥,٠٠٠ شخص . وكان فى المدينة فى ذلك الوقت ستة أديرة وخمسة مناسك بجانب عدد من خلوات التأمل التابعة

Cuenca de los Clérgios (*)

"Compendium" (**)

للمذاهب المختلفة والتى كرس أعضاؤها أنفسهم للتأمل الدينى والعمل من أجل إسعاد الفقراء الذين كانوا يعيشون فى ضواحى المدينة . وفى الأديرة المركزية لفرقهم آوى الدومنيكان أكثر من ٢٥٠ راهباً . والفرنسسكان أكثر من ٢٠٠ راهب ، واليسوعيون حوالى نفس العدد ، وجماعة سانت أوجستين أكثر من ١٥٠ . وكانت لكل فرقة كنيستها الخاصة بها ، وبعض هذه الكنائس مثل لامرسيد لاتزال أماكن العبادة المفضلة لأهالى ليما . وكذلك كانت لكل فئة كليتها التى تخصصت بتوسع فى تعليم المناهج التقليدية السائدة فى ذلك الوقت والتى شملت اللاتينية والفلسفة واللاهوت والقانون الكنسى . وكانت أحسن الكليات الإكليركية سان مارتن التى أسسها نائب الملك إنريكيث والتى أدارها الجزويت فى وقت لاحق ، وسانت توريبو التى أسسها موجروفيبو رئيس الأساقفة المشهور لتدريب القساوسة . وأدار اليسوعيون أيضا مدرسة ملكية فى ضواحى ليما لتعليم أبناء الرؤساء الهنود وزعماء آخرين من السكان الأصليين . ويقول الأب فاسكيث . « هم يربونهم ويعلمونهم آداب السلوك والعقيدة المسيحية والقراءة والكتابة والموسيقى ، وهذه وسيلة هامة جداً تتبع للظفر باستئصال الوثنية فى هذه الأمة ، ولتلقينهم قدراً أكبر من معرفة وحب الآراء التى تتضمنها عقيدتنا المقدسة » . وكانت جامعة سان ماركوس الملكية والبابوية التى كانت علاقتها العامة بالكليات العليا (*) التابعة للفرق هى كنفس العلاقة بين الكنيسة الملكية(**) وكنائس الفرق ، تعلم منهاجا للدراسة يتضمن الطب والقانون المدنى .

وفى ذلك الوقت كان هناك ستة أديرة للراهبات فى ليما . وأكبرها

(*) Calegios mayores

(**) basilica

« لا إنكارناسيون » (*) وفيه أقام أكثر من ٧٠٠ شخص ، وفيهم راهبات يتبعهن خدمهن الشخصى من نساء ورجال . وكان بيتا أرستقراطيا للغاية ، ومن دخلته من الراهبات كان يطلب منها جمع بائنة قدرها ٢٠٠٠ بيسو عملة ذهبية وقد أنشأته دونيا منسيا دى المارات أى سوسا ، أرملة الثائر المشهور فرانسسكو هيرنانديث جيرون ، وزيدت هبته فيما بعد كثيرا بوصايا الخلف الصالح . وقد عنى بالموسيقى عناية كبيرة وكذلك بالأعياد الدينية خصوصا عيد القديسين الذى يمكث ثلاثة أيام يحتفل فى أثنائها بصعود العذراء ، وفيها تغير الراهبات ملابسهن ذات الخمر البيضاء ، ويلبسن « الجلابيب الرسمية الجديدة المزركشة » . وكما يقول الأب فاسكيث : « تبدو كل راهبة كما لو أن الوصف يعجز عن تصوير كمال زينتها وشذى عطرها الحلو » .

ويلى دير لا إنكارناسيون مباشرة دير لا كونسيبسيون (**) وكان يضم ٥٠٠ راهبة مقيمة وهيئة من الخدم . وكان يتبع الفرع النسوى لفرقة الفرانسسكان . وأسسته دونيا اينيس مونيوث دى ريبيرا ، من أشهر النساء فى تاريخ بيرو المبكر . وبعد اغتيال زوجها الأول فرانسسكو مارتن دى ألكانتارا ، وهو أخ غير شقيق لفرانسسكو بشارو ، تزوجت من أنطونيو دى ريبيرا أحد مؤسسى مدينة ليما ، وكان ذا ثراء واسع . وأكثر تواضعا من هاتين المؤسستين الفاخرتين . كان دير سانتسيما ترنداد التابع لفرقة سانت برنارد ، والذى أنشأته دونيا لوكريشيا دى سانسوبس ، ويصفها الأب فاسكيث فيقول : إنها امرأة ذات قوة عظيمة ونظام أخلاقى صارم ، ولكنها قاسية وشديدة التعصب إلى حد ما » . أما الأديرة الثلاثة الأخرى - سانتا كلارا ، والدير الفرانسسكانى للراهبات الحافيات (***) فى سان خوسيه ،

(*) التجسيد
(**) الحمل
(***) Barefoot nuns

وسانتا كاتالينا دى سانا ، وهو تابع للجناح النسائى لفرقة سانت دومنيك ـ فقد كانت أديرة من الدرجة الثانية . وفى منتصف القرن الثامن عشر ذكر خوان وايووا كشفا آخر بعدد من أديرة الراهبات فى ليما بما فيها تسعة بيوت للتأمل . وفى أيامهما كان يوجد كذلك أربعة أديرة أخرى لم تكن بعض الراهبات فيها معتزلات لعهد قطعنه على أنفسهن . وخصص أحد هذه الأديرة كملجأ للزوجات اللائى كن يرغبن فى الفرار من بعولهن .

وبالإضافة إلى المدارس التى كانت فى بعض الأحيان ملحقة بدير الرهبان كانت الفرق الرسمية تحتفظ بعدد من معاهد الرعاية التى عنيت بحاجات السكان فى ليما . ولم تكن هناك مدينة فى أوروبا فى ذلك الوقت ذات نظام أكثر ترتيبا . وربما كان من أهم هذه المؤسسات الخيرية دار الإخوة « لا كاريداد » (*) التابع للراهبات الكرمليات . وفى اندفاعة من الزهو أطلق عليها الأب فاسكيث « الدار العديمة النظير فى العالم » . وكانت دار الرهبنة المشهورة هذه تعمل مستشفى للنساء المريضات من الطبقات الفقيرة فى ليما . و « ملجأ ومدرسة عليا لا مثيل لها للشابات والبنات المعدمات » . وكانت بعض النزيلات يخترن ليصبحن راهبات . أما اللائى يتركن كاريداد فكن يمنحن بائنات للزواج . وكانت دار الأخوة كذلك توزع الطعام والصدقات على الأسر الفقيرة وتقوم بالزيارة وتعنى بالمرضى الملازمين للفراش فلا يستطيعون الحركة . وشاركت مع دار إخوة السجون أو دار سان بدرواى سان بابلو مهمة نقل جثث من نفذ فيهم حكم الإعدام من المشانق على قارعة الطرق العامة وتوريها التراب فى احتشام . وكان غرض هذه المنظمة القوية هو « الإعانة بلا حدود لمقدارها لجميع

(*) الإحسان : La Caridad

الفقراء من إسبانيين وهنود وزنوج ومولدين فى سجون المدينة والعاصمة سواء ، مع تقديم الوجبات الكافية » . ويضيف الأب أنطونيو : « وليس هذا فقط ، فقد كن يستقصين عن أحوالهم وإمكان إطلاق سراحهم، كما كن يعالجن مرضى الأجسام ومرضى النفوس » . وتضمنت هيئة المديرين الذين كانوا يتولون شئون دار إخوة السجون طبيباوجراحا واقربازينيا(*) لخدمة السجناء الذين يحتاجون إلى رعاية طبية ، ومحامين للدفاع عن المتهمين أمام المحاكم . ويختتم الأب فاسكيث بيانه بهذه الملاحظة : « ولذا يساعد الأشراف فى هذه المدينة دار الإخوة هذه » .

وكانت هناك جمعية إخاء أو دار إخوة أخرى تدير المستشفى الملكى فى سان أندريس الذى أقامه هورتادو دى مندوثا ، ماركيز دى كانييتى من نواب الملك الأوائل . وكان يديرها لفترة موظفون من قبل حكومة نائب الملك ولكن فشل هذه التجربة المبكرة فى « الطب الحكومى » كان واضحا ، لأنه ، كما يقول الأب فاسكيث : « لوحظ أن المديرين الذين عينتهم الحكومة لم يقوموا بالرعاية والإخلاص اللذين كانا المستشفى فى حاجة إليهما » . وبعد ذلك ، بناء على مبادأة من قس يسوعى ، تألفت جماعة من أفراد بارزين وأثرياء وتسلموا إدارة تشغيل المستشفى كمجلس للادارة . وانتخبوا مديرا عاما يعمل طول الوقت بمرتب ، وعينوا ثمانية مندوبين من بين المدنيين ليعمل كل اثنين منهم معاً بالتناوب لمدة أسبوع . ومن ذلك الحين أدير المستشفى بكفاية متزايدة . فقد كان كل مدير يهدف إلى التفوق على أحسن ما وصل إليه سلفه . وبحلول سنة ١٦١٥ كان بالمستشفى ٥٠٠ سرير موزعة على بضعة أجنحة فوق مساحة من الأرض . وكان يقبل الأشخاص « الذين يصيبهم أى مرض » ، وبالإضافة إلى تسهيلات العلاج الطبى كان يدير ملجأ للأمراض العقلية .

(*) صيدلية

أما مستشفى سانتا أنا الذى أسسه أول كبير للأساقفة فى ليما فقد اتبع نفس الخطط العام الذى كان متبعا فى مستشفى سان أندريس ، ولكنه كان أكبر، وكذلك كان يشتمل على جناح للنساء. وكتب الأب فاسكيث عن الملاجىء الأخرى التى تضمنتها مجموعة المستشفى يقول :

« السرائر مرتبة ونظيفة ، وصوان الملابس واسع إلى درجة يستطيع فيها أن يخدم متطلبات ١٠٠٠ سرير ، ولما كان الهنود قد اعتادوا تناول وجباتهم المكونة من الذرة والأعشاب المتبلة بالفلفل الأحمر (*) ، فإنهم يحضرونها لهم على طريقتهم . . . فهم يعنون بكل فرد بقلق واهتمام كبيرين ، ويحضر المندوبون عند معالجتهم، وعند تقديم وجبتى الغداء والعشاء ويراقبون الطعام المقدم لهم وتحضير الأدوية المقررة لهم » .

وكان مستشفى اسبيريتو سانتو (**) مخصصاً للبحارة . وكانت إعانته تأتى من الضريبة الخاصة التى فرضت على السفن والبضائع فى ميناء كايو ، أما مستشفى سان دييجو ، فقد خصص للناقهين من المرضى وكبار السن . وكان يديره رهبان سان خوان دى ديوس المتواضعون . . ولم يستطع الأب فاسكيث أن يذكر أسماء مؤسسيه ولكنه أضاف : « إن أسماءهم مكتوبة فى كتاب الحياة » .

وعلى الرغم من أن سكان مدينة المكسيك لم ينالوا شهرة سكان ليما فى الورع فقد كانت مزودة أكثر منها بجهاز المؤسسات الدينية . وكذلك كانت الكنائس بصفة عامة فى مدن إسبانيا الجديدة الإقليمية تفوق من ناحية العمارة كنائس بيرو . يقول الأب فاسكيث : « توجد فى مدينة المكسيك أديرة ضخمة ومشهورة ذات معابد فاخرة ، معداتها وافرة وكاملة،

(*) chili pepper : الشطة .
(**) Espirito Santo

ولها دخل كبير وتبرعات خيرية تعينها . وجميعها تشتمل على مدارس للفن واللاهوت وأهمها سانتو دومنجو من أحسن وأغنى المدارس الموجودة فى الهند الغربية ، وإنى لأشك فيما إذا كان لها مثيل فى إسبانيا . وتضم أكثر من ٣٠٠ راهب ، كثير منهم على درجة عالية من التعليم ، ووعاظ عظام ... وقد أصبحت الكنيسة كتلة فخم متوهجة من الذهب ، وعلى طول جوانبها سلسلة من المعابد يكسوها الجلال » . وفى جميع هذه المنشآت يدون كشف يحتوى على عشرين ديراً للرهبان ومنسك بندكتى واحد وستة عشر ديراً للراهبات . ويرجع تاريخ بضعة منها إلى عصر الفتح مثل مدرسة ومعبد سانتياجو دى تلالتيلولكو التى أسسها الراهب العلمانى الشهير بدرو دى جانتى ، الابن غير الشرعى للامبراطور شارل ، للتعليم بطريقة الأسئلة والأجوبة ولتعليم الأولاد الهنود . وفى أوائل القرن السابع عشر كانت تقوم بسد حاجات أكثر من ٣٠,٠٠٠ هندى من الناحيتين الروحية والتعليمية . وينقلب الأب فاسكيث فصيحاً بصفة خاصة عندما يصف الدير الذى كان يتبعه والذى كان قابعاً فى المكان الذى كان يعرف باسم ال ديسيرتو (*) فى الجبال التى تكسوها أشجار الصنوبر فوق مدينة المكسيك . فقد كتب يقول : « بقعة تبدو كأنها الفردوس » . وكتبت مدام كالديرون دى لا باركا فى منتصف القرن الماضى عن الانكارسيون ، وهو دير من أديرة الراهبات . تقول : إن هذا الدير فى الحقيقة عبارة عن قصر » . وتصف أشجار الفاكهة وحدائق الزهور والنافورات المتناثرة فى أفنيتها ومطبخه الكامل النظافة . ولكل راهبة خادم أو اثنان لشخصها تحت إمرتها ، « لأنه ليس من الفرق القاسية الصرامة . . . والدير غنى ،

(*) El Desierto : الصحراء

وكل مستجدة تدفع عند دخولها ٥٠٠٠ دولار لصندوق رأس المال العام، وهناك ثلاثون راهبة وعشر مستجدات .

وفي أوائل القرن السابع عشر كان هناك تسعة مستشفيات فى مدينة المكسيك . وكان مستشفى الهنود العام مؤسسة علمانية ، أسسه نائب الملك مونترى الذى خصص له ، بجانب أعمال خيرية أخرى لصالحه ، الدخل المتحصل من مسرح كوميدى أنشأه . ولوس ديسامبارادوس (*) وهو مستشفى « غنى وفخم » ، وكان مخصصا « لمعدمى » المدينة ، وكانت تديره فرقة سان خوان دى ديوس . وكان مشهوراً بصفة خاصة ببابه الدوار ، وعنده كانت الأمهات يتركن أطفالهن . ثم يأتى الرهبان ويهيئون لهم المساكن والآباء الذين يتبنونهم . وأسس الفاتح هرنان كورتيس مستشفى لاكونسبسيون لرعاية المرضى من فقراء المدينة ، وكان يصرف عليه بسخاء من دخل مزارعه الشاسعة . وسان هيبوليتو ، وكان مستشفى وملجأ لمعالجة الأمراض العقلية ، وقدّاهتم اهتماما خاصا بتلبية مطالب المسافرين الذين جاءوا إلى فيراكروث على أسطول السفن الذى كان يصل سنويا من إسبانيا . ولهذا الغرض كان يرسل قطاراً خاصاً تجره البغال محملا بالطعام والحاجات الضرورية الأخرى . وخصص أمور دى ديوس لمعالجة مرض الزهرى وحده بين الفقراء ، وسار لاثارو للعناية بالأشخاص الذين أصيبوا بأمراض مستعصية كالبرص ، بينما اقتصر مستشفى يسوع ماريا دى انديوس على علاج الهنود المرضى .

وانتشر نمط مشابه من الاكليركية فى معظم المدن الاستعمارية الأخرى، وكان المانع الوحيد من تعميمه راجعا إلى الموارد المحدودة أ أكثر منه إلى الحماسة « فمثلا بوينس أيريس ، وهى مدينة ظلت فقيرة حتى القرن

(*) المعدمون Los Desamparados

الماضى ، لم تكن بها كنائس ولا أديرة فخمة . وعلى الرغم من جميع الأعمال الطيبة التى أداها الرهبان والراهبات فان النمو المفرط فى نظام الأديرة فى العالم الجديد كان نموا سقيما ، فقدكان هناك تطفل على التقوى زائد على الحد ، وأشخاص عالة على العيال زائدون على الحد . وكانت الطاقات والمواهب التى نمت خاملة فى أروقة الدير مطلوبة للعمل من أجل عالم الاستعمار الثقافى والاقتصادى سواء. ولا بد أنه كان يبدو فى بعض الأحيان كأن الامبراطورية الإسبانية ملحق شاسع للكنيسة . وكانت حياة الأديرة مريحة جسميا ، ومهدئة عقليا ومرضية خلقيا . وهيأت الأمان فى عالم لم تكن فيه معاشات أو تأمين اجتماعى أو مزايا المحاربين القدامى . وهيأت الفرصة للتقاعد فى سن مبكرة للجيل الرقيق الذى جاء بعد الفتح . ولعل ندرة الأبواب المفتوحة للعمل فى ميادين أخرى ، وقد حددها عزوف الجيل الجديد عن مهن بالذات ، وكذلك بسبب قيود النظام الإسبانى ، هى التى حببت الناس فى الحياة المغلقة التى سادت فى تلك الأيام . ومن الجدير بالذكر أنه فى القرن الثامن عشر ، حينما تراخت الحكومة الإسبانية فى صرامة إدارتها السياسية والاقتصادية الاحتكارية ، اختارت قلة من الناس فى المستعمرات الحياة المغلقة .

وكانت النساء كذلك تغريهن الأديرة بصفير أنشودة الأمان، ويدفعهن أيضا التحمس الدينى . ذلك لأن اللاتى اتخذن الخطوة النهائية بعد قضاء فترة التحضير للرهبنة كن يلقين تعويضا عن العهود التى لاتنقض والتى قطعنها على أنفسهن ، بجانب الاطمئنان الذى يقدمه لهن الدير . وإذا كانت رئيسة الدير متسامحة فى إدارته، فقد يصبح النظام متراخيا . وكانت هناك موسيقى وطعام طيب وصحبة خفيفة الظل . وإذا كانت ملابسهن قد بدت ذات شكل رتيب ، فقدكان هذا ، بالنسبة إلى الراهبات البرازيليات على الأقل ، يشبه اللباس الخارجى للنساء المقصورات كالحريم فى « البيوت

الكبيرة ، وأقيمت أعياد مريم العذراء وأعياد القديسين الاولياء . وإذا جاء القس يوميا ليؤم صلاة الجماعة فى كنيسة الدير فقد كان هذا شيئا لطيفا يذكرهن بأنهن لسن كثرة من نساء مترجلات محبوسات فى قفص خال من الرجال . فإذا كن جائيات من الريف فقد كان يرضيهن أن تخلصن من أخطار الحياة على الحدود وارتباكاتها وعزلتها ووحشتها . واختارت كثيرات من بنات طبقة المزارعين الأرستقراطية فى شمال البرازيل الحياة الآمنة والبهيجة التى تحياها الراهبة ، لدرجة أنه كان هناك قحط فعلى فى البنات اللائى يمكن اتخاذهن عرائس لسلالة الأسر الحاكمة . وحقا أن العقم الذى أصاب عرضاً كثيراً من الأشخاص ، خصوصا الشريحة الرفيعة المنزلة من المجتمع ، نتيجة عزوبة رجال الدين الرسميين ، ذكوراً وإناثا ، كان بالتأكيد عاملا مساعدا له أهميته فى نمو السكان البطىء بين العنصر الأوربى فى المستعمرات .

رجال الدين

توقف نجاح الكنيسة فى تحقيق أغراضها الأساسية كثيرا على صفة رجال الدين . وإذا استثنينا القلة الاسبانية ، لم يكن هناك أساس متين لعقيدة عميقة يركن إليها . وحتى بين الإسبانيين والأوروبيين نزع الدين إلى أن يصبح فى نهاية الأمر مسألة عادة تقبل وتراعى بلا جدال . وكان شيئا محبوبا جدا بين نساء الأسرة ، وكانت أعياده الفخمة تفرج عنهن رتابة الحياة اليومية . ولكن ، فيما عدا أزمة تعرض فى شئون المرء ، لم يكن شيئا يثير ثائرته زيادة على الحد . لأن لدى المرء أشياء أخرى يفكر فيها ، وعلى كل حال كان فاترا إلى درجة زائدة فى بوتوسى أو بوجوتا لدرجة تستدعى كثيرا من التفكير العميق ، وحماسيا جدا فى بليم وبيورا ، وهذا كله يعنى أنه كان على القسس أن يحفظوا جذوة الإيمان من أن تنطفىء خصوصا فى المدن والقرى المنعزلة حيث كان تحذير الأسقف أو القس الإقليمى وهو

يومىء بإصبعه لا يصل إليها بسهولة . ولم يكن هذا بالأمر الهين ، لأن الجسد كان ضعيفا ، والشيطان يسرح فى كل مكان متخفيا يغرى بالفسوق حيا أو عديم الحياة .

وكان معظم المبشرين الأوائل الذين قدموا إلى العالم الجديد أناسا صالحين ، نماذج لجميع الفضائل الرسولية — الإيمان الثابت برسالتهم ، الشجاعة ، نكران الذات ، إذلال النفس ، وطيبة القلب . فقد كانوا رجالا ربانيين مخلصين بارين . وكانوا يروحون ويغدون بين السكان الأصليين دون تردد أو خوف ، لا يبالون إن كانت رعيتهم من الأغنام أو من الذئاب ، من التاينو أو من الكاريب . وعاشوا فى أكثر الظروف بداءة ، وكثيرون استشهدوا . ومن هؤلاء موتولينيا ، ولاس كاساس ، وفرانسسكو سولانو ، وپدرو كلافير « رسول الزنوج » ومئات آخرون (٩) .

وبمرور الوقت ، وبإتمام الجزء الأكبر من المهمة الأساسية فى تحويل الهنود إلى المسيحية ، فترت مظاهر الإجبار والضغط — والإلهام — التى امتاز بها عصر الكنيسة البطولى ، وأصبحت الكنيسة ، بل أصبحت معها الفرق المستجدية غنية من تدفق صدقات الصالحين ، ومنح الدولة ، وريع ممتلكاتها ، والعائد من استثمار الرهون والمناجم ، وبيع المحصولات والحيوانات من أراضيها فأصبحت الكنيسة غنية أكثر من اللازم لصالحها نفسها . وبحلول سنة ١٨٠٠ كانت أكبر مشروع فى المستعمرات . وهلك أفراد واندثرت أسر من القحل أو نتيجة نكبة . ولكن الكنيسة قد اكتسبت نعمة الاستمرار ، وما وصل إلى يدها بقى بالاصطلاح المضلل ، الا وهو الوقف ، أى ممتلكاتها غير القابلة للتحويل . ومثل هذا الجو غير مناسب لنمو التحمس الروحى .

ومع ذلك فكلما كانت هناك دعوة لمغامرة تبشيرية جديدة هبت الفرق الرسمية لتلبية التحدى . ولنضرب مثلا يوضح ذلك « الزحف » الكبير الذى قام به الفرانسسكان إلى كاليفورنيا العليا فى أواخر القرن الثامن عشر. وكانت هناك ميادين للتبشير فى مناطق حدود المستعمرات - أو فيما دونها - فى شمالى المكسيك ومقاطعة أروكو فى تشيلى وفى إقليم ميناس فى أمزونيا وفى الأراضى الخلفية لفنزويلا حيث كانت الحياة عبارة عن مغامرة روحية وجسمية معا . وكان هناك على الدوام رجال شجعان ومخلصون مثل يوسبيو كينو ويونيبيرو سرا ، وقد كانا على استعداد لفتح هذه الأراضى لإسبانيا والكنيسة .

ولربما كان أكبر إغراء لرجل الدين شخصيا هو الفرصة التى أتيحت له لجمع المال الذى كان متوافرا حوله . وفى هجاء فرنانديث دى ليفاردى الخادع الببغاء المتلهف (*) يتفوه أحد الشخصيات بهذه النصيحة: «تعلم لتكون قسيسا كما أفعل أنا ، لأنها أحسن الحرف على الإطلاق ، وتستطيع أن تغمض عينيك ولا تبالى ... والقس يقابل بالترحاب أينما ذهب ، والجميع يوقرونه ويحترمونه حتى لو كان مغفلا ! ويتغاضون عن نقائصه ، ولا يستطيع أحد أن يلومه أو يعارضه فى أى شىء . وله مكان فى أحسن حفلات الرقص وأحسن الألعاب ، وحتى فى حجرة استقبال السيدات لا ينكره أحد . وأخيراً فإنه لا ينقصه البيسو إطلاقا ، ولو اضطر إلى جمعه من صلاة أساء أداءها ، وبأقصى سرعة » . فإذا سمعت الكنيسة جريا وراء السعة فكذلك فعل الكثيرون من قساوستها . فقد شارك بعضهم فى أرباح الفتح . إما من الكنوز التى سلبت من الهنود كما فى بيرو ، وإما من عملية تموين الجيوش .

(*) The Itching Parrot

ومن الواضح جداً أن الأب لوكى ، الشريك الصامت لبثارو والماجرو فى فتح بيرو لم يحصل على رأس المال الذى استغله لهذه المغامرة المربحة، وهو يعمل ناظراً لمدرسة الأبروشية فى بنما . وقد أطلق أوفبيدو المؤرخ على فالفردى ، وكان قسيس حملة بثارو عبارة: «قس قلق البال متهيج وفاسق». ومن المشكوك فيه أن كاهناً تافهاً مثله قد يرفض نصيبا من فدية الانكا كاخاماركا . ويخبرنا أوفييدو عن كاهن آخر ، خوان دى سوسا ، الذى مول وقاد حملة لإقرار النظام فى إقليم فيراجوا فى البرزخ ، إطاعة لأوامر أرملة دييجو كولون التى كشف حموها ذلك الإقليم . وقد عرفه المؤرخ لسنوات عدة من قبل قسا فقيرا فى شمال القارة ، بينما كان هو نفسه قد ذهب فاتحا فى الأرجاء المجاورة . وقد جمع فى وقت لاحق ثمانية آلاف أوعشرة آلاف بيسو عملة ذهبية فى فتح بيرو ، وهى بيضة عش كبيرة الحجم يقتنصها أى شخص فى تلك الأوقات . ويعلق أوفييدو ذات مرة ، ولم يكن أبداً خارجا على الدين : «أنا لا أود أن أرجع الفضل أو أنكره لأرازموس أو كتاباته ، ولكن فى الهند الغربية هذه حدثت أشياء بين رجال الدين تجعلنى أفضل السكوت عنها على أن أثيرها» . ويخبرنا برنال دياث عن فرانسسكانى جشع ، هو فراى بدرو ماجاريخو دى أوريا ، وقد قدم إلى المكسيك فى أثناء حصار عاصمة الأزاتقة ، يقول : «لقد جمع الأب المحترم ثروة فى بضعة شهور ، وعاد إلى قشتالة» .

وقد وجد رجال الدين المستهترون والمتكالبون على الدنيا طرقا مربحة كثيرة لتجنب العهود التى قطعوها على أنفسهم للحياة فقراء . ففى بعض الأحيان كانوا يستغلون الهنود الذين فى عهدتهم بلا حياء كما كان يفعل حكام المدن أو رجال الملك فى المدن . ومن أقسى الإدانات التى وجهت إلى الأخلاق الكهنوتية ماوجهه الضابطان البحريان الإسبانيان جورجى خوان وأنطونيو دى أيووا اللذان أمضيا بضع سنين فى العالم الجديد فى أربعينيات القرن

الثامن عشر وعلى الرغم من دوام الاستغلال طول أيام السنة فقد كانت أيام القديسين تبدو كما لو كانت تهيء الفرصة المربحة لرجال الدين لفرض الجزية على أتباعهم فى الأبروشيات فى صورة أو فى أخرى . وقد أبلغ قسيس قرية فى مقاطعة كيتو خوان وأيووا أنه فى كل سنة كان يتسلم أكثر من ٢٠٠ رأس غنم و ٦٠٠٠ دجاجة و ٤٠٠٠ أرنب رومى (*) و ٥٠٠٠٠ بيضة من رعيته . وفى أيام الآحاد كانت كل امرأة هندية تحضر للأب بيضة ، فإذا انقطع الدجاج عن وضع البيض فتعطيه قيمة البيضة نقداً . ويساعد كل رجل بحزمة من الحطب ، ويحضر الأطفال حزما من العلف لحيواناته . ويبيع القس هذا المحصول فى المدينة . وبمرتب قدره ٧٠٠ أو ٨٠٠ بيسو استطاع أن يحصل على دخل سنوى يتراوح بين ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ بيسو . وعرف المراقبان الإسبانيان كذلك أن محظية نائب الخورى كانت تجبر النساء الهنديات فى المنطقة على أن يصنعن قماشا من القطن أو الصوف ينتفع به عشيقها ، وبهذا « حولت البلدة كلها إلى مصنع نسيج » . وكان هذا الاستغلال السىء موضوع قانون صدر فى سنة ١٦٣١ .

ولا بد من أن الحكومة المركزية فى إسبانيا كانت قلقة بخصوص السلوك الشاذ الذى كان يصدر من بعض رجال الدين ، ذلك لأن هناك مجموعة ضخمة من التشريعات خاصة بالموضوع . فلا يجوز أن يكون القس قاضيا أو عمـــدة للبلدة ، أو يمارس مهنة المحامى أو الموثق . ومنعوا من المتاجرة فى أية صورة من صورها ، ومن تشغيل المناجم كلية . فإذا استخدموا الهنود فى عمل ما فلا بد أن يدفعوا لهم أجورهم . وهدفت بعض هذه المراسيم إلى صور أخرى من التصرفات السيئة التى كان يقوم بها رجال الدين . ومنها قانون يأمر الأساقفة بأن يوقفوا الميسر بين القسس فى ابروشياتهم . ومن فوق منبر الوعظ عليهم أن يلتزموا « المبدأ والمثل » ،

---

guinea pigs (*)

وألا يثيروا الشهوات والاضطراب بين طوائفهم يلقون عليهم « الألفاظ الشائنة » . وأمر الأساقفة أن يطردوا من البلاد جميع القسس « المشاغبين والذين يحيون حياة شريرة » . وقد وجه قانون صدر فى وقت مبكر (١٥٤١) الرهبان الذين اعتادوا التشرد إلى وجوب إعادتهم إلى أديرتهم .

وكانت هناك مشكلة أخرى تسببت فيما كان يعرف بين المتقشفين والمكتهلين (*) من رجال الدين الإسبانيين بالشهوانية . فمن بين الذنوب السبعة الكبرى كان اللفظ يعنى الشهوة والنهم . ولما كان الإسبانيون بالضرورة شعبا معتدلا ينقصه الغذاء الكامل فقد نزعوا إلى اعتبار التخمة هفوة بسيطة جدا ، وإن كانت على الإطلاق صورة من صور الفساد . ومن حيث الذنب الذى ارتكبه الجسد فقد أصبح العكوف عليه شائعا بين رجال الكنيسة فى العالم الجديد . وكانت فرصة الوقوع فى الخطيئة مهيأة فى كل مكان . وعلى خلاف من الناس الجبليين فى قصة الرجل الذى قد يصبح ملكا التى كتبها كبلنج كان هناك شعور طفيف نحو ذلك الأمر . فلم يصبح نظام المحظيات عاما فحسب ، ولكن يمكن القول بأنه كان القاعدة عند بعض الجماعات . ولا بد أن الدعارة بين القسس قد بدأت فى وقت مبكر جدا من الفتح . ويذكر برنال دياث فرار الأب بنيتو مارتينيث الذى كان قسا لفيلا سكيس حاكم كوبا . فعند ما قدم إلى المكسيك سجنه الأسقف لأنه أتى معه بامرأة من إسبانيا اسمها ماريا ردريجيث . ويروى أوفييدو قصة شائنة بوجه خاص عن سلوك قسيس كان فى قوة جنثالو دى باداخوث فى فتح البرزخ .

ويكتب كابتن وودز روجرز القبطان البريطانى ، والذى كان شخصية فى « قراصنة بنزانس » مبتهجا عن حادثة وقعت « فى طريق تيكامس » على

(*) aging من تغيرت أجسامهم مع الزمن.

الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية فى سنة ١٧٠٩ : « أنزلنا الأب الصغير على الساحل وأعطيناه — بناء على رغبته — أجمل شابة زنجية أخذناها فى الغنيمة ، وبعض أعناب وأقمشة وأشياء أخرى نظير خدماته الجليلة فى المساعدة على ترويج تجارتنا للحصول على المؤن هنا . وأرسلنا كذلك زنجيا وكمية من الأعناب لقس تيكامس عرفانا بعطفه . وفارقنا الأب الصغير فى سرور تام . وبينما كان يخفى نظرة من تحت قلنسوته إلى الملائكة السوداء كنا نشك فيما إذا كان سيعصى معها إحدى الوصايا العشر ، ثم يغسل المعصية بصك من صكوك الغفران التى تبيعها الكنيسة » .

أما خوان وأيووا فيرسمان صورة قاتمة لفجور رجال الدين فى منطقة نائب الملك الجنوبية فى زمنهما . فقد كتبا فى تقريرهما السرى للملك : « يعيش رجال الدين ، الرسميون منهم والعلمانيون ، عيشة خليعة وشائنة وكما يروق لهم » . وقالا إن القسس يقيمون خارج الأديرة فى بيوتهم الخاصة حتى يستطيعوا أن يعيشوا مع عشيقاتهم دون إزعاج ، بل إن بعضهم كان يحتفظ بعشيقاتهم (*) فى صوامعهم فى الدير . ووفقا لرواية الرحالة الإسبانيين فقد كانت الأديرة فى الأماكن الصغيرة عرضة لأن تصبح «مواخير عامة» فقد انساق القسس إلى المعيشة الصاخبة . وكثيراً ما كانوا ينظمون حفلات الرقص وشرب الخمر (**) التى كانت تنقلب إلى حفلات للعربدة . وكل هذا كان ، كما يقولون ، « مقبولا كعادة مرعية » . ومما يشرف القسس أنهم كانوا يعترفون بأبنائهم ويحسبون حسابهم . وكتب فريزييه ، المهندس الفرنسى الذى كان فى الجهات الساحلية لبيروتشيلى فى أوائل القرن الثامن عشر يقول : « لا يزال رجال الدين (الرهبان) ، باستثناء اليسوعيين ، أكثر تقيدا من خدمة الدين (قسس الأبروشيات) ، وينغمسون فى

(*) barraganas محظيات

(**) fandangos

الفجور الذى يسهله كثيراً جداً احترام الناس الزائد كعادتهم » ويبدو أن البرتغاليين فى البرازيل كانوا متهاونين بصفة خاصة نحو دناسة قسسهم ذات السمعة السيئة . وكان هناك لفترة طويلة رأى عام للعلمانيين ورجال الدين يفضل زواج رجال الدين كاعتراف صحيح لحقيقة واقعة .

وترك المراقبون الأجانب صوراً كثيرة — وغالبا ما كانت متسمة بالعطف — عن رجال الدين فى أمريكا اللاتينية فى غضون القرن التاسع عشر . وكان بعض من قابلوهم من القساوسة ابيقوريين (*) ومترفين (**) وبعضهم كانوا كسالى ، والبعض جهلة ، وقلة منهم كانوا شريرين ، ولكن معظمهم كانوا طيبى القلوب . ومن الذين عرفوهم وأحبوهم كثيراً جون لويد ستيفنز ، محام ، وسائح حول العالم ، وعالم آثار عصامى ، وقنصل متجول للولايات المتحدة فى « حكومة » أمريكا الوسطى . ولما كانت واجباته الرسمية مهملة ، فقد قام برحلات شاسعة فى دائرة اختصاصه . وشمالا إلى الولايات الجنوبية من المكسيك . وفى بالنكى فى ولاية شياپاس اشترك فى رحلة مع أربعة آباء مرحين من القرى المجاورة . وبينما كان ثلاثة منهم يلعبون الورق (***) كان الرابع يلعب على قيثارته لتسليتهم . وكتب ستيفنز عن قسيس الناحية يقول : « ركبنا حتى وصلنا إلى منزله ، وانتظرنا إذ كان يثبت بعناية على ظهر جواد طويل ولداً صغيراً كان يشبهه إلى درجة عجيبة ، لدرجة أن الناس ، احتراما لالتزاماته أن يعيش أعزب ، كانوا يستحيون أن يسألوا : ابن من هذا الولد ؟ وبعد أن انتهى من عمله هذا ربط زوجا إضافيا من الأحذية خلف برذعته ثم انصرفنا يودعنا كل

(*) نسبة إلى أبيقور ، صفة تطلق على الشخص الأكول الذى يتأنق فى طعامه وشرابه .

(**) Sybarites نسبة إلى Sybaris ، مدينة إغريقية فى جنوب إيطاليا كان يعيش أهلها فى ترف مرذول .

(***) مونتى Monte لعبة مقامرة تلعب فى أمريكا الإسبانية .

سكان القرية». وعندما زار ستيفنز أطلال المايا معهم أحضروا طابورا كبيرا من الحمالين الهنود يحملون لوازم الفراش والمؤن و «أدوات متنوعة» . ويضيف أنه «بجانب ذلك قد امتازوا علينا بأن كان عندهم أربع أو خمس نساء» . ومن رفقائه الذين اتصفوا بالبهجة كتب ستيفنز : «كانوا جميعا رجالا أذكياء وطيبين ، أميل إلى فعل الخير وتجنب الأضرار ، وفى المسائل المتعلقة بالدين كانوا على درجة عليا من الاحترام ، وعملوا بنشاط فى دعوتهم ، ولم يلصق بهم أحد من أتباعهم أية ملامة» . وفى أوتاتلان فى نيكاراجوا لقى ستيفنز قسيس قرية كان يقهقه عاليا لأى شيء فيما عدا دينه . ويضيف ستيفنز : «وبزيادة معرفتنا به وجدنا فيه ذلك الميل إلى الفهم المتين والمعرفة . ولما كان متقاعدا بعد السن كان على معرفة تامة بالبلاد وبالرجال المشهورين . وكانت آراؤه سديدة من نظرة مجردة ، وهجوه لاذعا . ولو أنه خلا من الحقد لدرجة أننا طورنا لقبه فأطلقنا عليه اسم الفيلسوف الضاحك» وفى كتشالتنانجو فى جواتيمالا لعب خورى نغما من روسينى أمام ستيفنز وكاثروود زميله ، فى حين كان ٣٫٠٠٠ هندى يتعبدون فى الكنيسة . وكتب عن قسيس آخر التقى به يقول : «سنحت لى فرصة أرى فيها ما لاحظته بعد ذلك فى شتى أرجاء أمريكا الوسطى : تغاضى الخورى فى قرية هندية عن حياة الجد والمسئولية ، وقد كرس نفسه للناس الذين تحت رعايته . فبجانب قيامه بجميع الخدمات الدينية يقوم بعود المرضى ، ودفن الموتى . وكان كل هندى فى القرية ينظر إلى مضيفى الفاضل كمستشار وصديق وأب . وكان باب الدير دائما مفتوحا ، وكان الهنود يلجأون إليه باستمرار» . ووجد كابتن بازل هول فى وقت سابق قسيسا مماثلا فى تشيلى . قال : «ظل لمدة تزيد على خمسين سنة راعى قرية هندية نائية ، وهناك حصل بمواهبه وفضائله على قوة تأثير هامة وشاسعة فى الأهالى الذين حسن ظروفهم المعيشية كثيراً بتحويلهم إلى المسيحية وبإدخال التعليم جنبا إلى إلى جنب مع فنون الحياة المدنية» .

الكنيسة والدولة فى ظل الجمهوريات

سبب الاستقلال تصدعا جوهريا فى حياة الكنيسة فى أمريكا اللاتينية فقد بقيت الكنيسة فى عصر الاستعمار إسبانية صميمة ، وكانت الطبقات العليا فى النظام الكهنوتى يغلب فيها العنصر الإسبانى . وكانت ترتكز كثيراً على فضل ومساعدة التاج ، والآن وقد ذهبت سلطة إسبانيا برزت مجموعة خطيرة من الترتيبات الجديدة للتسوية . ولما كانت الكنيسة جهازاً غير مرن ، ولم تقف فى وجهها أية معارضة منظمة خلال ثلاثة قرون من وجودها فى العالم الجديد ، لم يطرأ عليها التغيير بسهولة . فلم تجبر أبدا على التنازل لأى شخص ، وبصفة خاصة للسلطة العلمانية

وفى ظل الجمهوريات ووجهت بموقف جديد لم يكن كثير من عناصره مواتيا لها . وبصفة خاصة لملحقاتها الدنيوية . لأن ثرواتها كانت إغراء للحكام الجدد الذين كانوا فى مأزق من ناحية المال لإدارة الدول الجديدة ، والذين قد ضحوا بثرواتهم الشخصية فى الحروب ضد إسبانيا . وظهرت الضغائن والذكريات المريرة لمضايقة الكنيسة ، لأنه بينما انضم قسم كبير من رجال الدين فى الأبروشيات إلى القضية الوطنية ، واستشهد أسقفان ، هيدالجو وموريلوس كزعيمين للثورة ، فإن عدداً كبيراً جداً من الأساقفة لم يخفوا عطفهم على الملكيين . وهكذا بدأت الكنيسة من جديد وفى طريقها عقبة ثبوت شخصيتها مع إسبانيا . فلم تقبل السلطة الكهنوتية النظام الجديد بكياسة ، ولذا جلبت على نفسها كثيراً من المضايقة .

وأصبحت الكنيسة مصدراً كبيرا ومقلقا فى السياسة . فما أريد منه أن يصبح التقسيم التقليدى بين حزبى المحافظين والأحرار أثار الكفاح المرير بين الكنيسة والدولة ، والذى أعنت الحياة القومية فى بضع جمهوريات وعلى رأسها المكسيك . فالأحرار اعتنقوا عادة سياسة مضادة للاكليروس ،

فى حين ناصر المحافظون الـكنيسة وحقوقها التى بجدتها الأيام . وتبلورت النتيجة عادة فى مسألة التعليم العام : هل يصبح تحت نفوذ المدنيين أو نفوذ رجال الدين ؟ ومسألة الخروج على الكنيسة القائمة ، ومشكلة الزواج المدنى . وغالبا ما كانت المشادة ممثلة فى أشخاص حكام مستبدين . ففى السنوات الأولى المضطربة من تكوين اتحاد دول أمريكا الوسطى (*) كان الأبطال الـكبار هم فرانسسكو موراثان فى جانب الأحرار ، ورافاييل كاريرا فى جانب المحافظين . وفى أكوادور حيث كانت المعركة بين المحافظين والأحرار تحتدم بحرارة نادرة لم يعوز جابرييل جارسيا مورينو إلا أن يحول البلاد بحماسته للـكنيسة إلى كهنوتية . وفى فنزويلا كاد أنطونيو جوشان بلانـكو يصل إلى الحد المقابل فى الاتجاه الآخر فى حربه ضد رجال الدين . وفى كولومبيا استمرت المشادة إلى وقت قريب . وفى أوروجواى تمادى جوسيه باتي إى أوردنييث المصلح الاجتماعى المشهور الذى كان رئيسا للجمهورية مرتين ، إلى أقصى الحدود بأن منع صحيفته أن تـكتب أول حرف من حروف لفظ الجلالة بالحجم الـكبير .

وجاء السلام الدينى فى بعض البلاد مبكرا عنه فى أخرى . ففى بيرو استطاعت الـكنيسة أن تمضى محتفظة بمعظم قوتها فى الأمة . ولم يحدث أبدا فى بعض الأحيان أن وصلت المشاعر فى أى من الجانبين إلى درجة العنف . فكان من الممكن فى مثل هذا الجو الوصول إلى تسوية معقولة ، كما حدث فى تشيلى ، حيث انتهى أسقف امتاز باعتداله مع حكومة ودية إلى أساس حكيم لتعايش سلمى .

ووصل النضال بين الـكنيسة والدولة إلى أقصى درجة وبيلة فى المـكسيك . فقد كانت ثروة الـكنيسة إغراء قويا للزعماء الأحرار إلى درجة لا يمكن

(*) Central American Union .

معها تجاهلها . والتهب الرأى على الطريقة المكسيكية ، وكانت من بادىء الأمر معركة لا تلين من كلا الجانبين . وبلغ الطور الأول للمعركة ذروته فيما يسمى « حرب الإصلاح » ، (*) وفى أثنائها استطاع بنيتو خواريث وانصار ليردو أن يجردوا الكنيسة من كثير من ممتلكاتها . وفى نظام حكم بورفيريو دياث الطويل استعادت الكنيسة ماديا مركزها القديم فى البلاد ، حتى إنه عندما ترك دياس المكسيك فى سنة ١٩١١ أعد الميدان لاستئناف المعركة القديمة . وكان من الأغراض الأساسية للثورة المكسيكية ضعضعة قوة وتأثير الكنيسة مرة واحدة وإلى الأبد . ولهذا الغرض حولت كل ممتلكاتها إلى الأغراض الدنيوية . وحول كثير من الكنائس والأديرة إلى مؤسسات للخدمات العلمانية . وحرم الاحتفال العلنى بالصلوات الدينية ، ولم يسمح لرجال الدين بلبس أثواب مهنتهم التقليدية . واتخذ كل إجراء لإذلال رجال الكنيسة . ووجه التعليم فى المدارس الحكومية بإحكام توجيها مضادا لاتجاهات الكنيسة ، و « اشتراكيا » ، مما أدى فى وقت لاحق إلى إثارة العداء ، لا مع الكنيسة فحسب ، بل أيضا مع أنصارها المحافظين من طبقة الحكام السابقين وطبقة الفلاحين ممن يعبدون السيدة جوادالوبى (**) . ولفترة قام الجنود بثورات مسلحة سببت ارتباكا خطيرا فى مجرى الحياة العادية فى بعض ولايات الجمهورية .

وتجسم الشعور العنيف فى الثورة ضد الكنيسة فى دستور سنة ١٩١٧ المشهور . ففى أسلوب ملىء بالازدراء تشير هذه الوثيقة العاطفية إلى « الجمعيات الدينية المسماة بالكنائس » ، وتنص على أن « حرية العقيدة سوف تراعى بالتحرر الكامل من أى مبدأ دينى ، وتكون مبنية على ما وصل إليه

"War of the Reform" (*)

(**) أعلن ظهور السيدة مريم الهندية فأصبحت لها قدسية ، وأيضا للمكان الذى ظهرت فيه السيدة جوادالوبى . والمكان خارج مدينة المكسيك ويحج الناس إليه .

التطور العلمى من نتائج ، وستكافح الجهل وعواقبه ، ومظاهر العبودية والتعصب الدينى والتحزب » .

وبلغت محنة الكنيسة ذروتها فى أثناء حكم كاييس وكارديناس ، ولكن فى رياسة أفيلا كاماشو تراخى الاضطهاد واستجيب لطلب الجمهور العام بأن تفتح الكنائس أبوابها من جديد للعبادة العامة . وبينما لا تزال الكنيسة المهشمة تحيا حياة مقيدة جدا بما تتكبده من الدولة ، فهناك أخيرا قدر من الأمان الدينى فى أرضه مضطربة .

وتمر الكنيسة فى أمريكا اللاتينية بمرحلة انتقال ، أى فترة الاهتمام بأمر نفسها (١١) . وحدثت أمور كثيرة فى أمريكا اللاتينية وفى العالم ، ويشعر زعماؤها من ذوى التفكير الحر بالحاجة إلى تلاؤمها مع الظروف الجديدة . وقد أبدت البابوية اهتماما متزايدا بمستقبل الكنيسة فى أمريكا اللاتينية ، واعترفت بأهميتها فى العالم الكاثوليكى بتعيينها عددا من الكاردينالات (*) من سكان أمريكا اللاتينية . ولسنوات عدة كان الكاردينال الوحيد فى أمريكا اللاتينية هو كبير أساقفة ريودى جانيرو . والآن يوجد عشرة كاردينالات ثلاثة منهم برازيليون ؛ ذلك لأن الكنيسة البرازيلية — مع هدوئها واحتشامها واعتدالها وتعلقها فى معاملتها مع الناس والحكومات — هى ابنة روما المفضلة . أما الكنيسة المكسيكية ، وليس فيها شىء من هذه الصفات ، لكنها قاست كثيراً من أجل العقيدة ، فلم تتشرف أبداً بأن وضع أحد من رجالها على رأسه قبعة الكاردينال .

وعلى الكنيسة إذا أرادت أن تتبوأ المركز الذى يليق بها أن تبدأ أولا فى حل مشكلات كثيرة . وإحدى هذه المشكلات اعتداء الدولة

(*) فى الكنيسة الكاثوليكية ٧٠ كاردينالا ، أو أقل ، يكونون مجلس الكرادلة الأعلى sacred College at Rome ينتخبون البابا الجديد .

المستمر على ميادين نشاطها الروحية والخيرية . كما انتقص وحدد مجال التعليم العام الذى تشرف عليه شيئا فشيئا . وتتسع مناشط الدولة المتزايدة فى الأعمار فتعتدى على ميدان الكنيسة التقليدى . وتسيطر وسائل الإعلام المجمعه للصحافة والراديو كأجهزة للدعاية الرسمية على الرأى العام أكثر من أى وقت مضى، وقد كان يتطلع إلى الكنيسة يسألها التوجيه . وتستميل روح التطرف فى الوطنية ، التى تتمثل فى القومية المتغالية فى كثير من الجمهوريات ، العواطف الكامنة لدى المواطن إلى درجة كبيرة حتى إن قدراً ضئيلا من الولاء يمكن أن يترك لتعلقات أخرى شخصية .

وليس هناك نمط واحد يحكم العلاقات بين الكنيسة والدولة فى العالم الجديد . وبينما قد لا يكون التوحيد الكامل فى هذا الصدد مرغوبا فيه ، فهناك فكرة الوقتية حول التنظيمات الموجودة بين السلطات العلمانية والدينية مما أدى إلى توترات لا لزوم لها فى علاقاتها . « أما الكنيسة فى بيرو ففرع من الحكومة القومية، ورجال الدين، كسائر موظفى الدولة من الكاردينال — كبير أساقفة ليما — نزولا إلى أقل قسيس رتبة فى الجبال ، يتناولون مرتباتهم من خزانة الدولة . وفى المكسيك تعيش الكنيسة كسجين فعلى للدولة ، يركن إليها حقيقة ، لكنها سجينة مع ذلك . وفى البرازيل وأوروجواى تنعم الكنيسة بمطلق الحرية والخروج على الكاثوليكية ، وتتمتع بحق الانتفاع غير المقيد بريع ممتلكاتها . ونجاح التسوية التى توصلوا إليها فى هاتين الدولتين يوضح كيف أن الكنيسة تزدهر إلى أقصى حد، حيث تنفصل عن الدولة ولا تعتمد على الميزانية القومية فى إعانتها .

ولم يعد للكنيسة الكاثوليكية احتكار للدين فى أمريكا اللاتينية . فمن وقت إلى آخر فتحت حكومات الأحرار فى الجمهوريات الباب للطوائف الإنجيلية ، كما نص على مبدأ التسامح الدينى فى معظم الدساتير . وعلى الرغم من أن سلطات الكنيسة الكاثوليكية تستنكر المنافسة من قبل المذاهب

الأخرى كما لو كانت تعتدى على ملكياتها ، فقد تصبح المنافسة على امتلاك النفوس دافعا قويا للكنيسة على تنظيم نفسها إلى أحسن . وقد أحسنت المنظمات البروتستانتية صنعا فى توزيع الإنجيل مكتوبا باللغات القومية(*)، وتحملت بعض الكنائس الإنجيلية مسئولية إنشاء المدارس الممتازة ، وكذلك المستشفيات ، ومراكز التجارب الزراعية . أما كبار القساوسة فى الطوائف البروتستانتية القديمة ، والأكثر مسئولية ، فقد تعلموا من ذلك الوقت أن يديروا أمورهم بالوقار واللياقة لكى يتجنبوا الاحتكاك بأية عداوات كامنة قد توجد فى البلاد ضد المشروعات التبشيرية الأجنبية . وليس من المحتمل أن تصبح البروتستانتية عقيدة لأكثر من أقلية السكان فى أى قطر من أقطار أمريكا اللاتينية . فهى تعمل فى ظروف غير مواتية لأنها قدمت متأخرة فى الميدان ، وليس هذا فقط ، بل أيضا لأنها دين « أجنبى » تمثله فى أكثر الأحيان الشعوب الجرمانية القادمة من شمال أوربا والمنتمون إليهم فيما وراء البحار . ولذلك فهى تعد شيئا تنقصه القرابة الطبيعية للمزاج اللاتينى على الرغم من تجربة الهيوجينوت فى فرنسا . وقد انتشرت البروتستانتية فى أغلب الأحيان لعوامل مختلفة فى البرازيل والمكسيك ، وهى ظاهرة لا علاقة لها بتاتا بكون أول صلاة بروتستانتية أقيمت فى العالم الجديد احتفل بها فى خليج ريو . فالبرازيليون غير مستمسكين فى مسائل الدين ويستسلمون للتجارب فى العقيدة ، كما فى الأقاليم الثقافية التى يزداد فيها التمسك بالدنيويات . فتخيرهم للأحسن ، من بين عوامل أخرى ، هو سبب مركزهم الفريد بالنسبة إلى الفلسفة الوضعية ، فلسفة أوجست كونت ، التى تعتنقها أقلية ممتازة ، وشعبية الروحانية فى مستوى اجتماعى آخر ، وجاذبية الحضارات الهندوكية بالنسبة إلى كثير جدا من البرازيليين . وقد

(*) vernacular

ساعدت الطوائف الإنجيلية فى المكسيك على ملء فراغ دينى جاء نتيجة كره نحو الكنيسة القديمة فى أثناء الثورة .

والكنيسة فى حاجة إلى رفع مستويات رجال الدين . وهذا يستدعى إصلاحات فى إدارة ومنهاج مدارس اللاهوت وتحبيب الكهنوتية للشبان ذوى الكفاية والأخلاق الذين يتخيرون مهنا أخرى لحياتهم العملية . وعلى الرغم من أنه من المرغوب فيه أن يكون هناك دائما مدخر من القسس الأجانب لكى تصان الكنائس القومية من الانحدار إلى أخطاء الإقليمية ، فمن صالح الكنيسة أن تقوى العنصر المحلى من الكهنوت وتعدهم للقيادة والمسئولية أكبر . وكان استدعاء جماعة من الآباء ماريثول من الولايات المتحدة قوة كبيرة لتحسين نوع الأداء الدينى ، وخصوصا فى الجهات النائية التى تهملها أحيانا السلطات الدينية ، ويتجنبها القساوسة الكبار بصفة عامة .

ويمثل عدم اكتراث الذكور من السكان بالدين مشكلة خطيرة للكنيسة . وهذه بصفة خاصة حقيقة بين ما يسمى طبقات المجتمع الوسطى والعليا ، أى بين القادة الطبيعيين للمجتمع . وقد يرجع بعض هذه الظاهرة إلى الدعوة العسكرية للمادية ومباهجها العقيمة أو إلى موقف هياب من التشكك والتململ . والجزء الأكبر منها عبارة عن مجرد قوة استمرار ، أو عدم وجود لذة فى الأشياء الروحية . وفى بعض الأرجاء قد تنتشر فكرة أن الكنيسة موجودة فقط للنساء وتعمل لتمنعهن أن يفلتن من يدها . وعلى الكنيسة أن تكون مرنة إلى درجة كافية فى ادعائها رعاية المطالب الدينية لجميع مستويات السكان — الطلبة الذين قد يعدون أنفسهم فوق حاجة الدين ، والعمال الذين هم عرضة للدعاية العكسية اللادينية للمنظمات اليسارية ، والهنود الذين لم يعتنقوا المسيحية حقيقة ويعيشون فى دنيا متوسطة بين العقيدة والخيال . وهناك مجموعة آراء علمانية لها أثرها ولها دراية حاذقة بهذه المشكلة ، وتعمل من الخارج لإحياء الكنيسة من جديد . وفى هذه الأثناء يوجد فراغ روحى ضخم لا يستطيع ملأه سوى كنيسة متيقظة .

هوامش الفصل السابع

(١) فى فترات كثيرة من العصور الوسطى كان الاسبانيون متسامحين الى درجة فريدة ، ولفترات طويلة بين الحروب عاشوا فى وفاق مع المسلمين فى شبه الجزيرة • وفى أثناء حكم الفونسو التاسع ملك قشتالة كان المسيحيون والمسلمون واليهود يستخدمون نفس الكنيسة فى طليطلة للاحتفال بطقوسهم الدينية وطبقا لرواية روجر مريمان ، « من المؤكد أن التعصب لم يكن صفة طبيعية متوطنة » ، وقال ان الملوك الكاثوليك وخاصة الملكة ، هم الذين كانوا يحرضون على التعصب بين أفراد الأمة » •

«The Rise of the Spanish Empire in the Old world and in the New» (4 vols., New York, 1918 - 34), I, 87 - 88. 90: III. 402 - 3.

(٢) أشهر حجة عن محكمة التفتيش كان تشارلز هنرى لى وأشهر مؤلفاته هى :

«History of the Inquisition in the Middle Ages» (3 vols. New York and London, 1888).

«History of the Inquisition of Spain» (4 vols., New York, 1906 - 7).

«The Inquisition in the Spanish Dependencies» (New York, 1908).

وكتب خوسيه توربيو ميدينا أيضا عددا من الدراسات العلمية الخاصة بمحكمة التفتيش فى أرجاء مختلفة من العالم الجديد •

(٣) القصة القصيرة التى كتبها ادجار ألن بو بعنوان « الحفرة والبندول » «The Pit and the Pendulum» تحكى عن اللحظات الأخيرة لمحكمة التفتيش الاسبانية •

(٤) كتب كدر عن محكمة التفتيش البرتغالية يقول: « على الرغم من أن البرتغاليين أكثر تسامحا من الاسبانيين ، فان حكومة البرتغال تمسكت بذلك الجهاز الملعون الذى استخدمه التعصب الرومانى حتى سنة ١٨٢١ » •

James C. Fletcher and D. P. Kidder, «Brazil and the Brazilians Portrayed in Historical and Descriptive Sketches» (Boston. 1857). P 52

(٥) عن الحصيلة النهائيـة للأديان الأصلية أنظر بيـانا عن عبـادة الملك نيثاهو الكويونل : « الله العظيم خالق كل شيء خاف ومجهول » كمـا يرويها فرناندو دى ألفا اختلخوشتل من الأزاتقـة الذين تحولوا الى الاسبانية فى

Harriet de Onis ed., «The Golden Land : An Anthology of Latin American Folklore in Literature» (New York, 1948), pp. 54 - 59.

وعن ديانة التوحيـد عنـد الانكا كتب جارسيلاثو يقـول : « وصـل الانكا ملوك بيرو فى النور الطبيعى الذى وهبهم الله الى ادراك صانع لجميع الأشـاء أسموه باشاكا ماك ومعناه خالق الكون وحافظه » .

Garcilaso Inca de la Vega, «Comentarios Reales de los Incas», II, 67.

وأيضا رد أتاهوالبا على خطاب الأب فالفيردى بخصوص الثالوث فى كاخاماركا : « الأول هو الله ، ثلاثة وواحـد ، وينتج عن هـذا أربعة ، وتسميها خالق الكون ، وبطريق المصادفة هى نفس ما نسميه باشا كاماك - فيراكوشا ... نحن نعبـد باشا كاماك فقط كاله أعظم ، والشمس كاله أصغر ، والقمر كأخت لهـا وزوجـة » .

Garcilaso, «Historia General del Peru», I, 71.

أنظر أيضـا

Philip Ainsworth Means, in «The Maya and their Neighbors», P. 439.

(٦) قال خوان وأيووا ان الهنود لم يذهبوا الى الكنيسة الا خوفا من العقـاب . وقـد صرحا بأنهم لم يتعلموا القواعد الأساسية للدين » . ومع ذلك فقـد عرفا بعض استثناءات : « هناك كثير من النـاس الذين يستوون بثقا تهم العقليـة وطهـارة أحوالهم ورقـة ضميرهم مع أكثر النـاس حكمة وحرصا » .

Jorge Juan y Santacilla and Antonio de Ulloa, «Noticias Secretas de América» (2 vols., Madrid, 1918), I, 410.

« لم يحدث أبدا أن مثل الهنود فى الواقع الـروح والجمـال اللذين تمتـاز بهمـا الديانة المسيحية » .

Herbert Ingram Priestley, «The Coming of the White Man 1492 - 1848» (New York, 1929), P. 106.

ويقول العالم البيروفى لويس فالكارسل : « على الرغم من أن الهندى عمد ، وبالتالى أدمج شكليا فى الكنيسة ، فانه لم يكن أبدا كاثوليكيا صميما ، فهو لم يعرف أبدا أسرار العقيدة ، كما لم يستطع أبدا أن يتعدى حدود الشكليات الصرفة للعبادة » ٠

«Ruta Cultural del Perù (Mexico, D. F., 1945), P. 101.

أنظر أيضا تعليقات جورج كوبلر على عملية تحويل شعب الكيتشوا الى المسيحية فى

«Handbook of South American Indians» (5 vols., Washington D. C., 1946 seq.), II, 400 - 3.

(٧) « كان للهنود عدد لا يحصى من الاحتفالات والعادات الأخرى التى كانت تشبه شريعة موسى ، وبعضها كان يشبه ما يمارسه العرب ، والبعض كان أقرب شبها بما نزل به الانجيل » ٠

José de Acosta, «The Natural and Moral History of the Indies» (2 vols., tr. from the Spanish, London, 1880; originally published in 1590), II, 369.

ومن بين هذه العادات والاحتفالات المتناظرة ذبح الحيوانات قربانا ، واطلاق البخور ٠ والاعتراف ، والطهارة بالماء لمحو الذنب ، وقيام القسيس بمراسيم الزواج ، وأديرة الراهبات ٠

(٨) كتب جيمس برايس عن اريكيبا يقول : « هناك عشرات من كنائس وأديرة أخرى أكثر بكثير مما يكفى مدينة سكانها ٣٥٫٠٠٠ نسمة وكان رنين أجراسها يسمع طيلة اليوم ورجال الدين بملابسهم يملأون الشوارع وفى كل مكان ٠ وما هو أجدر بالملاحظة أن الرجال ، وكذلك النساء ، كاثوليك محترفون ، فهم يحضرون الكنيسة بانتظام ، وهذه ظاهرة نادرة فى معظم أرجاء أمريكا الجنوبية ٠ وكانت المدينة قلعة اكليركية ٠٠٠ ومنذ قرنين ٠٠٠ كان ثلث مجموع السكان ، على الأرجح ، قسيسين ورهبانا وراهبات ، وكانت سيطرة الكنيسة لا تنازع»

(٩) قال برنال دياث عن الأب موتولينيا : « كل ما ناله من الصدقات كان يوزعه بنفس الطريقة وكثيرا ما كان يفتقر الى اللقمة يقوم بها أوده ، وكان دائما يمشى حافى القدمين فى ثياب بالية ، يعظ الأهالى دواما ، شديد الألفة بينهم » ٠

«The True History of the Conquest of Mexico». P 430

ويرجع الى طبعة سنة ١٩٢٧ ترجمة كيتنج نشرها

Mc Bride and Company.

وعن رهبان الارساليات أنظر

Fernando de los Rios, op. cit., P. 57.

(١٠) كتب رتشــارد بيرتن المستشرق المشهور الذى عمــل لفــترة ضابطا بالقنصليــة البريطانيــة فى البرازيل يقول : « كثير ممن نالوا قسطا وافــر من التعليم ، أن لم يكونوا من العــاميين ، يحبــذون زواج رجال الدين ••• ولا يعترض أتبــاع الأبروشــية كثــيرا على قسيس يتخذ له زوجة فيجعل من نفســه رجلا محصــنا • فالمنــاخ لا يساعد كثيرا على العفــة •

«The Highlands of the Brazil» (2 vols., London, 1869), I 406.

أنظر أيضــا

Fletcher and Kidder, op. cit., P. 381,

وكتب وليم ستيفنسن عن قسيس قرية قابلة فى احــدى قرى الأنديز يقول : « شكا الخورى بمرارة من حاجتــه الى حيــاة اجتماعية فى منفاه ••• وقال لو أن البــابا نفســه كان خورى قرية أوكروس لرغب فى أن تكون له زوجة تلاطفه وتجعله هاشا باشا » •

Op. cit., II, 27.

(١١) عن الأحوال الدينية المعاصرة والمشكلات فى جمهوريات أمريكا اللاتينية أنظر

Philip Guedalla and others, «The Republics of South America» (a report by the Royal Institute of International Affairs, London, New York, and Toronto, 1937), pp. 244-264.

وعن انطبــاعات علمــانى كاثوليكى عن حاجات الكنيسة فى أمريكا اللاتينية أنظر

Joseph F. Priviterra, «The Latin American Front» (Milwaukee, 1945), pp. 33 ff.

الفصل الثامن

المــــرأة



لا يعرف أحد من هي أول امرأة أوروبية قدمت إلى العالم الجديد، ولكن طيفها كان يتجول على الساحل المداري في جزر الكاريبي حتى ولا السيد برموديث بلاتا(*) كان يعرف من هي. ومن المرجح أنها كانت اندلسية، ويبدو أنها قدمت مع أسطول الإمدادات الذي كان يقوده انطونيو دي فلورس سنة ١٤٩٤ أي بعد سنتين من وصول الأميرال إلى الجزر. ولربما لم تكن من الأهمية بقدر كاف يسمح للمؤرخين بأن يولوها اهتماما. أو ربما كان الإسبانيون ينتظرون من نسائهم هذا القدر، ولم يؤمنوا بأن قدوم زوجة فلان (**) هذه إلى الهند الغربية أخبار تستحق التسجيل للأجيال القادمة. وعلى كل حال فإن

(*) مصنف الملفات الخاصة بالهند الغربية أخيراً .

(**) "Fulana de Tal"

إزابيلا، المستعمرة التي خرجت منها من السفينة الكريهة إلى عذوبة « فجر موردالشروق»في هسبانيولا قد حملت اسم امرأة مشهورة جداً . ومهماقيل عن شخصيتها ، ومهما تكن منزلتها ، فقدكانت امرأة تستحق الذكر وسامية الأخلاق ، وتستحق من إسبانيا والتاريخ أكثر مما كان لها من نصيب .

المرأة الهندية

وقبل أن تقدم إلى العالم الجديدكان هناك نساء أخريات ، ملايين‌منهن وكن جميعا هنديات — من مايا ، والكاريب ، والجوارانى ، والكيشوا ، وهكذا ، من عالم الشعوب البرونزية ، وكن عذراوات وثيبات ، أمهات وزوجات ، عاهرات وراهبات ، إماء وزعيمات وإمبراطورات ، كل الأعمال التى كانت النسوة يقمن بها فى أى مكان . وربما كان من بينهن المحاربات اللائى ذكرهن رجال أوربانا واللائى كان استقلالهن الذى كن يحمينه بالقتال (مما يروق فى عين الوجودية الآنسة سيمون دى‌بوفوار) كن لطيفات أو مفترسات ، رحيمات أو قاسيات القلب ، متواضعات أو متكبرات ، محبات أو يملأ الحقد قلوبهن — كأية امرأة أو كلهن . وكان هناك تنوع كبير فى مظهرهن وعاداتهن ، فى مركزهن فى مجتمعهن الأصلى ، وفى‌علاقاتهن برجال جنسهن . وكان التجانس فى‌الحقيقة أقل بكثير بينهن منه بين نساء إسبانيا .

وفى بعض الأحيان كن أحسن قليلا من الحيوانات المستأنسة — حيوانات الحمل التى انقلبت متوحشة من جراء العمل الذى لا ينتهى ومتطلبات عيشة حرجة فى مجتمع تهدده المجاعة أو الحرب على الدوام .

ولذا فإن كل ما كانت تأمل فيه المرأة هو أن تحفظ أفراد الأسرة احياء ومتماسكين بشكل من الأشكال . فإذا كانت تحس بعاطفة ما فلابد أن يكون هذا الإحساس نوعا من القرابة العنصرية إلى أمومة مشتركة من الحيوانات الأنثى التى تحوم حولها فى الغابة . وقد يكون لقبيلة ما قدر محدود من الطعام والأمان فى بعض الأحيان . ولذلك تشارك فى الفائض ويكون نصيبها أكبر من أنصبة أخواتها اللاتى أخنى عليها الدهر . وكانت هناك شعوب يبدو أن نساءها قد وجدن من الحياة أكثر من الكفاح والبؤس كاللاتى يروى عنهن هيريرا قوله إن الفاتحين قابلوهن فى كولومبيا . فقد كن « ذوات ملامح فاتحة » ، ويقول : « ولسن ذوات سحنة زائدة الدكنة، ولهن رشاقة تفوق رشاقة النساء الأخريات فى العالم الجديد .... ويضعن أكاليل الورد فى شعرهن وزهرات صناعية مصنوعة من القطن يصبغنها بشتى الألوان » . ولكن هذا الإسبانى يلاحظ « أنهن شعب منحل لأنهن يغنين ويرقصن ويكذبن كأى شخص آخر فى الهند الغربية » . وكتب الفاتح الذى لم يعرف اسمه عن الأزانقة : « ليس هناك شعب فى العـــالم ينظر إلى النساء نظرة أقل احتراما منهم. لأنهم لا يخبرونهن أبدا بما يعملون حتى ولو عرفوا أنهم قد يفيدون من ذلك بأخبارهن » . ومع ذلك ففى كولومبيا يقال إن هناك قبيلة كانت نساؤها يتكلمن لغة خاصة بهن ، وكن يخفينها عن رجالهن . وكانت هناك قبائل فيها الأعمال التقليدية المخصصة لكل جنس معكوسة ، فيما عدا الناحيه البيولوجية . وكانت النساء شخصيات هامة بحقوقهن الذاتية ، وفى بعض الأحيان أكثر أهمية من رجالهن الذين كانوا يمارسون الأعمال الشاقة التى تتطلبها القبيلة وسادت نظم الأمومة الحقيقية حيث كانت النساء يمارسن السيادة والرجال هم الخاضعين ، كما كانت الحال حول بحيرة نيكاراجوا. فهناك كانت النساء يذللن أزواجهن وكثيراً ما يضربنهم .

ولما برزت رؤيا الدورادو من مادة الفتح الغنية ، ظهرت أصول خرافة

المحاربات اللاتى حاربن الإسبانيين مع رجالهن جنبا إلى جنب فى بعض الأحيان ، وربما وحدهن فى أحيان أخرى . وقبل أن ينزل أوريانا بتاتا فى نهر مارانيون واشتبك مع بعض نسوة شكسات كن يصوبن السهام نحو رجاله ، كان الإسبانيون قد قابلوا مثلهن بين الكاريب وشعوب أخرى حول الكاريبى . وبعضهن كن ثابتات العزم وماهرات فى استخدام القوس كأى من الرجال . ويروى هيريرا قصة البنت الكاريبية فى المنطقة المجاورة لكارتاخينا التى قتلت ثمانية من الإسبانيين فى جماعة نزلت إلى الساحل قبل أن يتغلبوا عليها ، ومعركة أخرى فى نيوجراناد حيث خرجت شابة هندية من كوخ وجرحت أربعة إسبانيين بالسهام . وكتب أوفييدو عن هنود إقليم أورابا يقول : « إن النساء يذهبن إلى المعارك مع رجالهن ، وأيضا عند ما يكن سيدات البلاد ويحكمن ويقدن شعبهن » . وقال أيضا إن نقطة النساء (*) وجزيرة المحاربات (**) أمام ساحل يوكاتان أسماهما المستكشفون الأوائل باسميهما « لأنهم لاحظوا أن نساء تلك الجزر كن راميات بالسهام وحاربن بالأقواس كالرجال » . ويتكلم أوفييدو عن زعيمة هندية شابة اعتقلها مع عشرين امرأة أخرى ورجل بالقرب من سانتا مارتا . وماتت سجينة ، ويقول : « وفى رأيى أنها ماتت من الغضب الذى ساورها بسبب القبض عليها ، على الرغم من أنها كانت تلقى معاملة طيبة » وكانت هذه الزعيمه (***) وسيمة وبشرتها فاتحة لدرجة أنها بدت كما لو كانت امرأة من قشتالة .

واختلفت الشعوب الهندية فى العالم الجديد كثيرا فى مستويات سلوكهم الجنسى . وكما كان طبيعيا ، نظر الإسبانيون إلى عادات الهنود بالمنظار

(*) Punta de las mujeres
(**) Isla de Las Amazonas
(***) Cacica

الذى كانوا يرون به سلوكهم هم وفقا للمبادىء المسيحية ، كما فعل بالبو ، وقد كان شخصا رحيما بوجه عام ، عندما أعدم بعض الهنود لممارستهم الشذوذ الجنسى(*) . واتسمت بعض القبائل بالصرامة ، يدققون فى سلوكهم وعاداتهم . فمثلا شعب كومانا فى الجهات الساحلية الشمالية للقارة قيل إنهم كانوا « يقدرون البكارة عند البنت تقديرا ضئيلا » . وقد يكون الزنا إساءة كبرى للمجتمع ، أو فقط مناسبة لمزاح العصور الوسطى . وفى أحد أرجاء المكسيك ، فى رواية لهيريرا ، كانت مرتكبات الخطيئة يقدمن على المائدة ويؤكلن . وفى أواشاكا وميشتيكا كانت عقوبة الموت فى بعض الأحيان تخفف إلى قطع الأذنين أو الأنف . وكانت بعض الشعوب تمارس الزواج بامرأة واحدة كمبدأ ، وبين شعوب أخرى كان إشباع الغرائز بالزواج لأكثر من زوجة واحدة محدودا فقط باعتبارات اقتصادية أو اعتبارات لا أخلاقية أخرى مثل السن ، والقصور الذاتى ، وقانون العرض والطلب ، والحب . فمثلا فى أحد أرجاء شمال القارة(**) وفقا لرواية أوفييدو ، كان الهندى يمتلك كم يشاء من الزوجات ، وكن يعشن جميعهن فى نفس المنزل دون منازعات أو غيرة . وبين قبائل الأورابا الهندية كانت العادة أن تستبدل الزوجات بوسائل إغراء خاصة فى بعض الأحيان . ويقول أوفييدو إن الشخص الذى يأخذ المرأة الأكبر فى السن فى العملية كان يعد الأربح فى المساومة « فقد كانت أرجح عقلا ، وستقدم له خدمة أحسن ، وأيضا لأن الغيرة حولها ستكون أقل » .

واختلفت المرأة الهندية كفرد اختلافا كثيرا فى درجة جاذبيتها فى كل قبيلة ، ومن شعب إلى شعب . وكان مدى الانعطاف نحوها عرضة لأن يصبح عاما ، وبصفة خاصة فى أراضى الإنكا والناهواتل . ففى كل منهما

(*) Sodomy . نسبة إلى سدوم بلدة لوط.

(**) Tierra Firmey

كان هناك أرستقراطية نسائية امتاز أفرادها بالجمال والمقام عن سائر النساء العاديات فى البلاد . وفى بيرو كانت العضوية تنبنى جزئيا على أن يكون الميلاد بين أهل بيت من بيوت الإنكا وجزئيا على الاختيار من بين شعب التاهنتنسويو . وكان الإسبانيون يسمون نساء الطبقة الممتازة من الإنكا « الأميرات » (*) وبالحق الذى اكتسبنه بالتربية والآداب الممتازة كن « سيدات فضليات » ، فإذا عمدت إحداهن فإنها تصبح « دونيا » كأى شريف من أشراف قشتالة ، وكانت تقبل فى المجتمع على هذا الوضع . وبطور من الانتخاب الطبيعى على فترة طويلة من الزمن ظهرت طبقة ميزها الإسبانيون على سائر الطبقات لأنها أطول قامة ، وأبيض بشرة ، وأجمل شكلا فى الجملة ، وأكثر جاذبية عن سائر نساء الكيشوا .

وقال بدرو بشارو الذى كان سكرتيرا للفاتح — دون ما قرابة له — عن نساء الإنكا : « كانت بنات ملوك هذه الأرض ، وكن يسمين « المختارات » يطلبن كثيرا للزواج . وكن يحملن على الأكتاف (أكتاف الرجال) ، البعض فى محفات والبعض فى أراجيح . . . وكانت هذه النساء يعتنى بخدمتهن كثيرا ويخشين ، كما كن رقيقات الحاشية . وكن ينلن مايرغبن فيه ويحتجن إليه ... وكان بين السيدات فئة طويلات القامة ، لا من بنات الملوك ، بل من بين بنات الأوريخونى أقربائهن... وهؤلاء السيدات نظيفات جدا وأنيقات ، ويرسلن شعرهن الأسود طويلا على أكتافهن . وكن يعددن جميلات ، وتكاد جميع بنات الأمراء الأوريخونى يكن هكذا . أما نساء الجنود من قبائل الجوانكا والشاشابويا والكانيارى فكن النساء العاديات ، ومعظمهن كن مليحات . أما الباقى من نساء هذه المملكة فكن بدينات ، لا جميلات ولا دميات ، ولكن متوسطات فى مظهرهن .

(*) Coyas السيدات المحبوبات .

(**) Dona

أما الأهالى فى مملكة بيرو فكانوا سمر اللون ، وكان النبلاء منهم والسيدات الفضليات أبيض لونا من « الإسبانيين » .

ولم يتردد الإسبانيون ، بسبب عدم وجود نساء من نفس جنسهم ، فى أن يتزوجوا من السيدات الفضليات ، إما كزوجات وإما برابطة أكثر تحرراً من الرسميات وأقل التزامات ، وإن كانت فى بعض الأحيان باقية كالزواج . وفى كلتا الحالتين وجدوا فى هؤلاء الظريفات رفيقات درين على الفضائل العائلية ، وكن ، خلاف ذلك ، قد اكتسبن المواهب نتيجة الظروف التى ولدن وتعلمن فيها . وتجهمت الكنيسة إزاء هذا التعايش غير المقدس ، وشجعت وسهلت زواج الإسبانيين بالهنديات وفقا لطقوسها . وبمرور الوقت اختفت « الفضليات » كطبقة منفصلة . وقدمت نساء أكثر من إسبانيا . وكانت النتيجة أن أصبح التزاوج بين الإسبانيين والهنديات أندر ، ولو أن نظام المحظيات المختلط قد استمر طوال عصر الاستعمار .

وفى الطرف الآخر من عالم النساء فى المكسيك يروى ساهاجون تحذير الأبوين من طبقة النبلاء لابنتهما عند بلوغها « سن الرشد » ، فيتناوب كل منهما بدوره يحذرانها « بكلمات رقيقة جانبية » ، ويبينان لها ما قد تنتظره فى هذه الحياة وما تنتظره الحياة من مثل حسبها ومركزها وما تدين به من الواجبات نحو أسلافها وأسرتها . فهى ليست صورة وردية تلك التى أخذها أبوها وأمها من العالم الذى سوف تقدم إليه . يقول أبوها : « إن هذا العالم مملوء بالشرور والفواجع . . لا يجد المرء فيه مسرة حقيقية أو راحة من عناء ، ولكن فيه مصاعب ومصائب وعناء إلى حد الإرهاق ، فيه بكاء وأحزان وشقاء . . . ، وليس طريق الحياة صعبا إلى حد قليل ، لكنه صعب لى حد رهيب» . وعليها كأية امرأة أخرى من الشعب أن تتعلم فن النقش على القماش . وتخبرها أمها أن من واجبها أن تتحلى بالمظهر ، والأخلاق ،

والسلوك والكلام ، ووقار التصرف ، مما يليق بسيدة أصيلة . وواجب ان يكون ملبسها عنوانا على الذوق السليم والحشمة ، وثيابها لا «غريب الشكل» ولا خاليا من الجمال ، ولكن لائقا بسيدة من مقامها ، وألا تجمل شفتيها بالأحمر ولا تدهن وجهها بطلاء ، لأن هذا عنوان « المرأة الآثمة » ! وفوق كل شيء عليها أن ترعى مبدأ العفة والولاء لزوجها .

وفي وقارهما وعزة نفسيهما شيء من الصفات الرومانية القديمة في هذه التحذيرات الصادرة من أب وأم يساورهما القلق حول « ابنتهما البكرية المحبوبة » . فهي تعبير عن روح الشعب الذى نزح بعيداً على طول الطريق إلى ما قد يسميه فاتحو بلادهم من الأوروبيين حضـارة » . وهي أيضا تعبير عن الأثقال العنيفة التي توجد في مجتمع حربي لايزال يعيش بالحرب ولا يعرف سلاما . ولذلك فهناك أسى عميق وتشاؤم حولها . قال المؤرخ هيريرا : « أسدى السيدات الفضليات نصائح كثيرة إلى بناتهن يذكرنهن أنهن حملنهن وربينهن لكي يخدمن الآلهة خدمة جيدة . وواجب عليهن أن يكن نظيفات ونشيطات ويدرن أمورهن بحذر وبترتيب حسن وأشياء أخرى بديعة لا تمت إلى المتوحشين » .

المرأة الاسبانية في الفتح

كانت نساء إسبانيا لائقات جدا ليصبحن أمهات وزوجات للفاتحين. ومن « الصفات المميزة » التي تحلين بها كما يرويها هافيلوك إليس » الشجاعة ومتانة الخلق وثبات عواطفهن . فلا هن مغريات كما كانت كارمن ولا هن يوطأن بالأقدام « متعلقات بأزواجهن » كما يراهن من هم خارج البلاد .

ولا هن حادات المزاج ولا طائشات ، بل بالعكس يدفعن المرء إلى أن

يرى فيهن رباطة الجأش ورصانة الخلق وهدوء تعبيرات الوجه والاقتصاد في الحركات التي لا داعي لها ، والكبح المظهري الذي يخفي العاطفة الشديدة الملتهبة في أعماقهن . فإذا تصادف وبدت كما لو كانت تعيش في حياة الحريم المنعزلة فليس مرجع ذلك أساسا بسبب غيرة زوجها المغربية بقدر ما هي نتيجة للاضطراب الطويل الذي طرأ على التاريخ الإسباني والذي جعل من الخطر عليها أن تعيش خارج البيوت التي تشبه القلاع . وفي العصور الوسطى قلما أدت منجاتها من الأخطار التي كانت تحدث خارج الأسوار في تلك الأوقات إلى أن تكسبها صفة النعومة ، لأن تركيبها الجسمي كان شديداً ، وقد بقيت العادة بعد زوال نفعها ، خصوصاً بالنسبة إلى نساء الطبقة الوسطى ، ومع ذلك فإن الجماعات الغفيرة من النساء الإسبانيات عشن دائما من غير الأسوار ونمين الجرأة والاستقلال والاعتماد على النفس مما ميزهن منذ أيام روما .

ويضع هافيلوك إليس النساء الإسبانيات في مركز أرقى من الرجال ، لأن الحرب والهجرة إلى العالم الجديد أزالا الجزء الأكبر من العنصر الرجولي من بين السكان الذكور . ويقول المثل القديم : « إن قشتالة تصنع الرجال وتفقدهم » ، ولكن الحوادث لم تأخذ مكوسها من أعدادها وقوتها بقدر ما فعلت برجال إسبانيا . ولذلك فعندما انتهت الحروب كانت أكثر استعداداً لتحمل مسئولياتها عن الرجال الذين تخلفوا . بل في الحقيقة إنها تحملت بعض أعبائهم . وقد بلغت ذروتها في فترة الفتح ، إذ لم يسبق لها من قبل ، ولا منذ ذلك التاريخ ، أن قامت بدورها بنجاح وعلى مسرح بطولي كما فعلت آنذاك . فقد ارتفعت إلى التحدي السامي مع الزمن كقرين ورفيق لجيل من الرجال المثاليين (*) .

(*) Supermen

ولم تكن المرأة الإسبانية بالعشيقة السهلة أو المتقلبة ، فقد تفرقت كأم وربة بيت أكثر منها عاشقة . فالحب لديها له متطلبات لا تستطيعها ، ويستهلكها فوق طاقتها ليكون مجـــرد مغامرة خيالية أو بيولوجية ، بإحساسات عاطفية أوجسمية كمكافأة له ليس إلا . فلم تكن سهلة المنال إلا بعد فترة طويلة من الخطبة ، فلا « يحرك لها ساكنا » خاطب مندفع الشعور ولكنها تظل سيدة لأى موقف غرامى . وعلى سبيل المقارنة فإن كازانوفا بما له من تاريخ دولى كزير للنساء كان من المحتمل أن يصرف من الوقت فى خطبة دونيا اجناسيا المدريدية (*) المخلصة فترة أطول من أى من انتصاراته .

وتتخذ المرأة الإسبانية حبها مسألة جديدة ، والويل للرجل الذى قد يتخذه باستخفاف أو استهتار . وعلى الرغم من أن لها اليد العليا فى فترة الخطبة فليس هذا مقدمة لسيطرتها مدى الحياة على شريك حياتها . ووفقا للقول الإسبانى الصميم الذى تفوه به سلفادر دى مادارياجا : « إن كلا من الجنسين يلتزم بالأعمال الأصلية والطبيعية ... ومع أن النساء الإسبانيات عنيدات ومقتدرات ونشيطات — وغالبا ما يتصفن بالصفات الثلاث جميعا — فإنهن يلقبن بحكم العادة ، بل بحكم الطبيعة ، سيطرة الرجال . وليس فى هذا كله إلا الأمانة الغريزية للقوانين الطبيعية » . ولا هى ترغب فى أن تقضى حياتها تعمل الأشياء التى تعارف الناس على أن تكون من اختصاصات الرجال . ففى « حياة عملية » لا صلة لها بالرجل — الرجل المحبوب (**) — تشعر بأنها خارج عنصرها وغير سعيدة(٢) وفى ذخيرة الأمثال الإسبانية الغنية أقوال مأثورة تعبر فى اصطلاحات دنيوية عن التقسيم التقليدى لمسئولية كل من الرجل والمرأة فى الحياة الإسبانية .

(*) Madrilena

(**) hombre querido

وقدمت النساء الإسبانيات فى أعداد ضخمة قبل أن يتم الفتح بوقت طويل . وجاء بعضهن مع أزواجهن أو كن يلحقن بهم ، وبعضهن جئن ليجدن أزواجا أو عشاقا لمن ليس لهم نساء ، والبعض الآخر جئن لمجرد المغامرة كما جاء الرجال . ومهما يكن الغرض أو الملابسات التى من أجلها قدمن فقد كن يتصفن بالشجاعة لأن الأخطار التى واجهنها كانت عظيمة وكانت هناك صنوف من الحرمان يتحملنها .

وأحيانا لم يكن لديهن الكثير ليقلنه خاصا بذلك ، لأن أزواجهن أرسلوهن زرافات إلى الهند الغربية طوعا أو كرها لأنهم اضطروا إلى ذلك. فبحافز من الكنيسة ، وقد كان لها يد عليا فى إسبانيا ، كان موقف الدولة الإسبانية حازما تجاه الزواج . فقد كان يقلق بالها ما كان يحدث من الإسبانيين مع النساء الوطنيات فى العالم الجديد . فمثلا عند ما تسلم الحاكم أوباندو المستعمرة الجديدة فى سانتو دومنجو وجد أن الثلاثمائة رجل الذين تركهم كولمبس كانوا يعيشون جهارا مع بنات التاينو . وانتشرت العادة مع الفتح وتأصلت تماما قبل أن يحل دولاب البيروقراطية الإمبراطورية ليضع القوانين اللازمة لضبطها .

واعتقد التاج الإسبانى ، أو بعبارة أخرى مجلس الهند الغربية ، أن حضور الزوجات من شبه الجزيرة فى العالم الجديد قد يكون ذا تأثير مقيد لمشاعر الفاتحين المنطلقة والثائرة . وكذلك تشكك فى ولاء المولدين الذين قد يولدون من إسبانى وهندى ، وفضل أن يكون هناك أطفال جميعهم نتاج أب وأم إسبانيين بقدر الإمكان . وبعد حكم الملكة ايزابلا ، وهى نفسها أنموذج لفضائل ربة البيت ، وربما كان لديها أسباب وجيهة فى عدم وثوقها بإخلاص زوجها ، ولذا فبارتباط ذهنى ارتابت فى ثبات كل الرجال ، أثار رجال الكنيسة وحدهم مسألة المستوى الأخلاقى للتهجين بلا تمييز . وفى سنة ١٥٣٩ أعلن قانون تحت عنوان : « لا يسمح للنساء غير المتزوجات بالسفر

(إلى الهند الغربية) بدون ترخيص من الملك ، وعلى المتزوجات ان يصحبن أزواجهن » . ولا بد أن كان هناك تهرب من القانون لأنه أعلن مرة أخرى بعد ست وثلاثين سنة . فإذا أرسل زوج فى المستعمرات فى طلب زوجته فإنها تحتاج فقط إلى إذن بسيط من « بيت التجارة » أو بيت الهند . وإذا عاد هو إلى إسبانيا ليرجع بها فعليه أن يحصل على ترخيص ملكى . وكان يطلب من نواب الملك والموظفين الآخرين أن يأخذوا زوجاتهم معهم عندما يخرجون لتسلم مناصبهم للمرة الأولى . وكان بعض الفاتحين الذين بدوا فى غير عجلة لتصحبهم زوجاتهم يؤنبون بعنف من الموظفين الملكيين . وفى هذه الظروف كثيرا ما كانت الانفصالات الزوجية تستمر وقتاً طويلا جداً . وهكذا رجع فرانسسكو دى أجيرى فاتح تشيلى الباحث عن المشاغب إلى زوجته وبعض أطفاله الراشدين بعد مضى ثلاث وعشرين سنة . وفى هذه الفترة أنجب وأقر بمسئوليته عن خمسين طفلا مولداً على الأقل ، وعندما زار فالدفيا ، ضابطه الأعلى رتبة ، بيرو فى أثناء الحروب الأهلية أمره بدرو دى لا جاسكا ، الذى كان يمثل الملك فى تلك البلاد ، أن يضع حداً لاتصاله بإينيس سواريث وأن يستدعى زوجته لتعيش معه من جديد فى تشيلى . وقد نفذ فالدفيا ما كلف به من الاتفاقية . غير أن الأروكاريان قتلوه فى كمين فى توكابل بينما كانت زوجته فى طريقها بعد خروجها من إسبانيا .

وكانت إينيس سواريث ، مثل كثير من الفاتحين ، من استريمادورا(*) وفى سنة ١٥٣٧ خرجت إلى شمال القارة ، أو الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية ، بحثا عن زوجها ، وسافرت مع ابنة أخ لها ، شابة يختفى اسمها من التاريخ فى هذا الوقت . ومن فنثويلا مضت اينيس فى طريقها إلى بيرو

(*) Estremana

وهذا فى حد ذاته عمل ضخم لامرأة منفردة فى تلك الأوقات . وفى بيرو علمت أن زوجها قد مات ، ولكن بدلا من أن تعود إلى إسبانيا استقرت فى بقعة من الأرض بالقرب من كشكو تنتظر التطورات، وجاءت التطورات فى صورة پدرو دى فالدفيا ، وكان قد اشترك مؤخراً فى انتصار الإخوة بفارو على حزب ألماجرو وأهم من ذلك فقد قدر له أن يكون فاتح تشيلى . وكانت له زوجة فى إسبانيا ، ولكن إسبانيا كانت على منأى ، فإذا كان فى تشيلى فهى أكثر بعداً . ولذلك سار فالدفيا تصحبه الأرملة الشابة من استريمادورا بينما كان يرسم خطة إغارته الطويلة على أروكو . وعندما ترك كشكو متوجها إلى وادى تشيلى مع فرقته الصغيرة كانت اينيس سواريث تمتطى جوادها إلى جانبه .

اخترقت الجبال العالية ، وقطعت مسافات طويلة فى أرجاء صحراوية مع المائة والخمسين الخالدين حتى وصلوا إلى التل الذى قدر لسانتياجو أن تنشأ فوقه . وظلت عشر سنوات رفيقة لفالدفيا . واشتركت فى جميع المصاعب التى انتابت المستعمرة المحاصرة . وفى الحروب ضد الأروكاريان المتوحشين كانت تهتم بالجرحى وتطيب نفوس الجنود فى محنتهم . وجاءت أوقات كانت تأخذ مكان الرجال فى القتال . كتب مؤرخ من تشيلى عنها يقول إنها كانت « امرأة ذات نشاط وولاء عظيمين ، حصيفة ومتزنة ورحيمة ، ولذلك نعمت باحترام جميع الفاتحين » . وعندما وصل خبر أمر جاسكا من ليما قبل وصول فالدفيا صممت على ألا تغتنم شهور المهلة القانونية الستة المسموح بها قبل الانفصال ، فقد كانت تعرف أن الانفصال النهائى سوف يكون أصعب فتوجهت إلى قس كان صديقا لها فنصحها بأن تتزوج فاتحا آخر فى المدينة . وعندما عاد فالدفيا من بيرو وجدها قد تزوجت ردريجودى كيروجا ، وهو رجل طيب أصبح فيما بعد حاكما للمستعمرة .

وفى وقت مبكر نفذت الحكومة الإسبانية نظاما ترخص به لجميع

الاشخاص الذين كانوا يرغبون فى الذهاب إلى الأمريكتين ويمكن أن يجتازوا اختبار ضمان ، أساسه استيفاء معايير دينية وخلقية معلومة . ويمثل جهاز الإدارة اللازم فى « بيت التجارة » ، أو بيت الهند فى أشبيلية وخول منح تراخيص السفر . وقد استبعدت فئات من المسافرين من دائرة اختصاص بيت التجارة ، وطلب منهم أن يحصلوا على إذن من الملك لكى يتركوا البلاد . وواقع الأمر أن مثل هذه الحالات كان يعالجها مباشرة مجلس الهند الغربية أو سكرتيرية المجلس . وقد تعهد رئيس ملفات الهند الغربية بنشر قائمة مبوبة « للمسافرين إلى الهند الغربية » ومقره فى المبنى القديم لبيت التجارة . وبناء على ذلك فمن الممكن الآن تتبع هجرة النساء الإسبانيات إلى العالم الجديد من التاريخ الذى افتتح فيه السجل لأول مرة .

واول قيد فى سجل المسافرين كان فى سنة ١٥٠٩ عندما رخص لشخص اسمه دييجو ترنيرو و « زوجته » إلى الذهاب إلى جزر الهند ، وفى نفس السنة تسلمت ايزابل ردريجيث زوجة بيدرو لوبيس ماروكين من بيتا فى مقاطعة خاين ترخيصا بعبور الأطلنطى . وبحلول العام التالى خرجت زوجتان بأطفالهما للحاق بزوجيهما اللذين كانا على الأرجح فى سانتو دمنجو وإحداهما ، وهى تيريسا ساتشيث زوجة پدرو جاريدو ، أخذت معها ثلاث بنات صغيرات لها . وحصلت كاتالينا هيرنانديث من ميريدا فى استريمادورا على إذن للذهاب إلى الهند الغربية لمدة خمسة أشهر لتجمع ديونا(*) معلومة مستحقة لها ، وربما كان ذلك عقارا صغيراً خلفها لها زوجها المتوفى . ولأول مرة ظهر اسم امرأة غير متزوجة — ايزابل جالندا من فيالبا — فى سجل المسافرين .

وبعد سنة ١٥١٠ ازداد عدد النساء والأطفال الذين عبروا المحيط سنة

(*) maravedis

فأخرى . وكثر عدد النساء اللائى كن يسافرن وحدهن كما فعلت انا ديات ، ارملة دييجو سالشيث ، صانع براميل ، وبيتريس الفاريس ، زوجة حلاق برتغالى فى سنة ١٥١١ . وعبرت فى نفس السنة خمس عشرة زوجة وأرملة أخرى اصطحبت أربع منهن أطفالهن . واحدة منهن كانت أنطونيا جارسيا (الطاووس) (*) زوجة دييجو دى دينيا . وكذلك كان المسافرون الأغنياء يصحبهم خدمهم فى كثير من الأحيان . وفى سنة ١٥١٢ تذهب ايزابل دى كارديناس إلى الهند الغربية مع زوجها ومع خدمها ، زنوج وهنود . وفى نفس السنة تستقل ماريا هيرنانديث سفينة مع زوجها بدرو دى ليون وأطفالهما الخمسة جيومار وهيرناندو ودييجو وبيليتا وفرانسسكو الصغير .

وتفوقت السنوات الخمس من ١٥١٣ — ١٧ بالأعداد الجمة من النساء غير المتزوجات اللاتى حصلن على تراخيص الذهاب إلى الهند الغربية . وكان معظمهن من إشبيلية أو قدمن من بلاد مجاورة مثل ألكالا ونزلن فى الجزر فى الفترة الهادئة التى تلت أول اندفاع للإسبانيين فى الأنتيل والتى سبقت فتح المكسيك . ولا بد من أن المستعمرة الجديدة فى كوبا قد أنعشت بقدوم هؤلاء الشابات الأندلسيات (**) البهيجات ، واللائى كن منهن ينوين الزواج لم يكن يجدن ميدانا أرحب لمحاولاتهن . وكان على بعضهن فيما بعد أن يلحقن بأزواجهن الجدد إلى المكسيك قبل أن ينتهى القتال بوقت طويل . ومنهن من شاركن فى الأخطار الكثيرة التى تضمنتها تلك المغامرة العظيمة . فقد كن نساء الشعب ، نساء كاتالونيا (***) وليون (†) من أحياء كنيستى ماكارينا وتريانا ، وبدون تمييز لفئة ، مثل اينيس ريث ، وكان أبوها حلاقا

"la Pavona" (*)

Andaluces (**)

Catalinas (***)

Leonors (†)

فى أشبيلية ، وماريا جوتييريث وهى ابنة صياد . غير أن عدداً كبيرا من الرجال فى الأراضى الجديدة كانوا سعداء بقدومهن .

ويروى المؤرخان سوفانتيس سالاثار وهيريرا عن الزوجات البطلات اللائى رددن على كورتيس عند ماحاول أن يتركهن متخلفات فى تلاسكالا أثناء حصار تينوشتتلان قائلات : « إنه ليس من الصواب أن تترك نساء قشتالة أزواجهن إذا ذهبوا للحرب ، وإنه حيث كتب عليهم الموت فعليهن أن يمتن معهم » . وكانت من بينهن بيتريس دى بلاسيوس وماريا دى استرادا وجوانا مارتن وايزابل ردريجيث وزوجة الونسو فالينتى . وكانت ايزابل ردريجث فلورنس نايتنجيل حقيقيه ، عاشت فى القرن السادس عشر . كتب هيريرا يقول : « استمرت المناوشات والمعارك الفردية والمواقع المرسومة التى أريقت فيها دماء كثيرة ، وبسبب ما كان لدى الجرحى من الإسبانيين من إمدادات (طبية) قليلة ، وفى كل يوم كان هناك على الأقل مائة جريح ، منهم ومن حلفائهم الهنود ، أرسل الله امرأة من قشتالة تسمى ايزابل ردريجيث لتضميد جراحهم ولترسم علامة الصليب عليهم » . وبذلك شفى الكثيرون من جراحهم وعادوا إلى القتال حتى أدى ذلك إلى « مساجلة عنيفة بشأن أن الله كان فى جانب القشتاليين لأنه أعاد ذلك العدد الغفير إلى صحتهم على يدى تلك المرأة » . وأحياناً كان الرجال الذين أصابتهم جروح قاتلة مثل ماجلانس الجندى البرتغالى الشجاع يترنحون بجوارها ليلفظوا أنفاسهم الأخيرة بين ذراعيها ولتواسيهم كما تواسى الأم أبناءها فى سكرات الموت . وكانت بيتريس دى بلاسيوس الزوجة المولدة لبدرو دى دى اسكوبار . وكانت تورد الطعام له ولأصدقائه ، وتعد لهم وجبة الطعام بعد انتهاء قتال اليوم . وعندما ازداد ضغط الأزاتقة إلى ذروته انضمت إلى زوجها بين المحاربين . وعندما كان يجرح واحد منهم كانت تضمد جراحه ، وكانت تشد السرج على الخيل للرجال « وتقوم بكل الأشياء الأخرى التى يقوم بها الجندى » .

وخصص برنال دياث مكاناً أكبر للخيل التي كان رفقاؤه يمتطونها من المكان الذي خصصه لزوجاتهم . ومن الجدير بالذكر أن من الفرقة الصغيرة الذين فتحوا المكسيك اثنين قتلا من قبل زوجتيهما . ومن هذين المذنبين بقتل الزوجة ضرب الأكبر سنا منهما وهو سواريث زوجته على رأسها بطاحونة يد ، فكانت عاقبة ذلك مهلكة بالنسبة إليها . ورجل آخر قتل زوجته هو خوان بيريث . وأيضا شخص اسمه اسكوبار ، « رجل شجاع ولكنه كثير التهيج » وقدم أعدم شنقا لارتكابه جريمة مزدوجة : تمرد واغتصاب امرأة متزوجة ، وهذا خلل في العدالة ربما أمكن حدوثه بين الإسبانيين فقط . ويروى برنال دياث عن ثلاثة جنود تزوجوا ثلاث نساء هنديات: ألونسو دى جرادو الذى أخذ زوجـــة له ابنة من بنات مونتسوما الكثيرات ، وخوان دى كيلار ، وقد تزوج دونيا أناء ابنة لورد تشكوكو الجميلة » ، وألونسو بيريث ، « وهو جندى شجاع تزوج امرأة هندية مليحة من الجزر » . ويروى أيضا عن خوانا دى مانسيا ، بنلوبى(*) الفتح ، وهى التي حاول المندوب الملكى فى مدينة المكسيك أن يجبرها على الزواج من رجل آخر ، رغم أنها كانت تعتقد أن زوجها ما زال حيا مع كورتيس فى هندورس . وعندما رفضت ضربت كما كانت تضرب الساحرات ، وعند ما عاد الجنود من هندورس احتفلوا بها فى شوارع مدينة المكسيك وهى تمتطى جواداً « كرئيسة رومانية » مكافأة لها على ثباتها .

وفى نفس تلك السنين المشئومة أخذ خوان جيين صفا « طابورا » من إحدى عشرة أنثى إلى العالم الجديد مكونا من زوجته ماريا دى مالافير وبناتهما الثمانى وامرأتين لا تعرف شخصيتاهما . وعندما خرج ردريجو ثاميرانو إلى جزر الهند صحبته امرأته اينس وبناته الأربع وابنه. وكانت

(*) زوجة أوليس ، فى حرب طروادة ، وكانت تهدم ليلا ما بنته نهارا لكسب الوقت

الأسرة ، وهى المجتمع الأساسى لإسبانيا تنقل بكليتها إلى العالم الجديد . فقد كان هناك إسبانيون محتاجون إلى وجود نسائهم و أطفالهم حولهم، ولحقت بهم نساؤهم لأنهن كن أيضا إسبانيات ، وكانت الأسره أسرتهن يرعينها ويحافظن عليها . وفى نوفمبر سنة ١٥٣٣ دخل فرانسسكو بفارو كشكو عاصمة امبراطورية الإنكا . وفى السنة التالية تظهر أسماء القادمين الآتى ذكرهم فى بيت الهند فى اشبيلية : «لورنشا سانشيث مع زوجها جاسبار بيريث ، إلى بيرو » و « منسيا دل كامبو ، مع زوجها ، وديبجو دى ثامورا وثلاثة أبناء — لويس ١٠ سنوات ، وهرناندو ٤ سنوات ، وديبجو على صدر أمه — إلى بيرو » .

وهذه على وجه الاحتمال هى دونيا منسيا التى بعد أن ترملت فى أثناء الحروب ، تزوجت فرانسسكو هيرنانديث جيرون ، آخر المتمردين ضد النفوذ الملكى فى بيرو . وبناء على رواية جارسيلاسو كانت « شابة نبيلة وجميلة وتتحلى بالفضائل » . وقد صحبت زوجها من ليما إلى كشكو حيث نظم تمرده . وفى وقت لاحق استدعاها لتلحق به فى المعركة فى الجبال حيث شاركته فى جميع المصاعب وصنوف الحرمان التى كان يقاسى منها الجنود . وعندما دخل هيرنانديث جيرون كشكو مرة ثانية بعد انتصاره المبدئى حياها أنصاره « كملكة لبيرو » . ومرة أخرى تبعته فى الأراضى المنخفضة حيث هزمته القوات الملكية عند بوكارا . وهنا هجرها وتركها تحت رحمة المنتصرين وفر إلى الجبال ليقبض عليه ويدق عنقه ليس إلا . وكان كل شخص فى بيرو يكن لدونيا منسيا احتراماً زائدا لدرجة أنه بعد هزيمة زوجها وفراره رجعت إلى كشكو تقودها فرقة خاصة من ضباط الحرس الملكى ذوى الرتب العالية . وبعد ذلك بقليل دخلت ديرا فى ليما وأغلقت الباب على حياة من المغامرة والمأساة .

وفى الجانب الآخر من هذا التمرد أظهرت امرأة إسبانية أخرى نفس

الجلد ونبل الخلق . وهذه كانت دونيا فرانسسكا دى ثونيجا زوجة بدرو لوبيث دى كاثايا . وذهبت أيضاً إلى الأنديز ، وكما يقول جارسيلاسو : « لا لتخدم جلالة الملك ، بل زوجها . وعلى الرغم من أنها كانت امرأة رقيقة وعليلة ، فقد كانت تجبر نفسها على أن تقعد فى كرسى فوق بغل مسرج متنقلة فى أماكن وعرة وممرات رديئة فى هذه الطرق بيسر وتوفيق كأى فرد من الجماعة ، وفى المساء ربما جمعتهم جميعاً فى وليمة للعشاء ، ثم مرة أخرى للغداء فى وسط النهار تعدهما مما تطلبه من تموين من الهنود ، ثم تعلم النساء الهنديات كيف يعددن الوجبة .

وهناك نساء إسبانيات أخريات لا تظهر أسماؤهن فى سجلات « بيت التجارة » قدمن إلى بيرو خلال السنوات التى انقلب فيها الإسبانيون من قهر الهنود إلى الحرب يشنها بعضهم على بعض . ومن بينهن دونيا كاتالينا ليتون ، أو ليتياو ، وهى الزوجة البرتغالية لفرانسسكو دى كارباخال المحارب العجوز الذى لا يقهر ، والذى كان أهم ضابط فى حاشية جنثالو بثارو فى حربه مع الحزب الملكى . ونظراً إلى وحشيته « كشيطان الأنديز » كان كل شخص تقريباً فى بيرو ، ما عدا زوجته ، يفسح له الطريق . وكانت هى وابنتهما المتبناة خوانا الشخصين الوحيدين فى البـــلاد اللذين يجرؤان على إخجاله واللذين يكترث لهما . ويروى جارسيلاسو عن وليمة كبيرة أقامها كارباخال فى بيته فى كشكو احتفالا بانتصاره على دييجو سنتينو . وبحلول المساء امتلأ المكان بالسكارى والكلام الفضفاض حول المملكة الجديدة التى ينوى جنثالو إقامتها بمساعدة كارباخال . وعند ما اشتد الكلام ، وارتفع الصخب إلى الذروة ، دخلت دونيا كاتالينا الحجرة ونظرت نظرة استهزاء إلى الأشخاص السكارى حول المائدة وعلى الأرض وقالت : « ماشاء الله : يا لكم من جماعة من المغفلين الحقراء(*) لتحكموا بيرو ! » فأجاب زوجها

(*) "Haziendo escarnio"

قائلا : « اسكتى أيتها البنت العجوز ، إنك إذا أعطيتهم ساعتين ينامون فيهما يستطيع أى واحد منهم أن يحكم نصف عالم » .

ولنعد إلى قائمة المسافرين التى دونها بيت الهند : استمرت أسر أعدت نفسها للسفر فى الهجرة إلى الأراضى التى استقرت فيها الأمور من إسبانيا الجديدة التى أقر فيها النظام قبل بيرو بزمن طويل فيما عدا أراضى الشيشيمك . وفى سنة ١٥٣٥ ، وهى السنة التى أنشئت فيها ليما ، سافر خوان دى مونتيناس ، وهو صانع أحذية ، إلى المكسيك تصحبه زوجته . وفى السنة التالية قادت دنيا خوانا دى سوسا جماعة مكونة من سبع نساء وثمانية رجال وخادم إلى نفس الجهة ، وفى سنة ١٥٣٧ أقلع من إشبيلية إلى فيرا كروث بارتولومى فالديس وزوجته الفيرا وأربعة أبناء وعدد مماثل من البنات ، مضافا إليهم ألونسو ، خادم . وفى السنة التالية سافر شخص يدعى الدكتور روبليس ، وكان بلا شك موظفا ملكيا ، إلى الساحل الشمالى للقارة بأسرة حقيقية ، شملت زوجته خوانا خوفرى دى جيفارا ، وأمه ماريا دى هيريرا ، وابنتين : ماريا وخوانا ، وثلاث أخوات : كاتالينا وفرانسسكا وماريا ، واثنى عشر من أبناء الأخ والأخت .

ولقد حدث فى هذه السنة ، ١٥٣٨ ، أن أحضر دون بدرو دى ألفارادو ، ولا يسبقه فى فتح المكسيك سوى كورتيس ، وكان فى ذلك الوقت قائد جيش جواتيمالا وأحد الرجال العظام فى الهند الغربية ، أحضر زوجته الثانية إلى عاصمته الجديدة ، وهى دونيا بيتريس دى لاكيفا ابنة أخو دوق ألبوكيرك ، وسيدة عظيمة بما لها من حق ذاتى . ولإحدى عشرة سنة خلت من قبل ذلك التاريخ كان قد تزوج أختها دونيا فرانسسكا ، وقد ماتت بالحمى أمام ساحل المكسيك ، قبل أن تصل إلى جواتيمالا . أما العروس الجديدة فقد قدر لها أن تموت فى النهاية فى قصر الحاكم فى

ليلة مفزعة عندما أطلقت جائحة طبيعية الماء المختزن فى فوهة بركان على المدينة . ولكنها فى ذلك الوقت قد قدمت فى أبهة عظيمة تليق بسليلة العظماء (*) وزوجة سيد مملكة المايا كيشى الجديدة . ومع الحاكم وزوجته جاءت جماعة لطيفة من الخدم والأتباع ومن رجال مهمين تصحبهم زوجاتهم وأطفالهم ، بما فيهم رجل اسمه هيرنان الفاريث ، أرمل ، يصحبه تسعة أطفال ليجد لهم أمكنة فى العالم الجديد . وفى حاشية الحاكم كان هناك ثلاث وصيفات للمنزل واثنا عشر خادما آخرون ذكورا وإناثا .

كما قدمت دونيا أنا فادريكى وثمانى شابات أخريات من أسر كريمة وفى سن الزواج . واحتفل بعودة ألفارادو وحاشيته إلى جواتيمالا بمجموعة من الأعياد استمرت بضعة أيام . وفى أحد هذه الابتهاجات كانت الفرقة المحلية من الفاتحين القدامى بكليتهم حاضرين . ولما كانوا يجلسون على كراسى ذات ظهور صلبة على امتداد جدران الردهة فى قصر الحاكم كما جلس ملايين من سكان أمريكا الإسبانية منذ ذلك الوقت ، فلابد أن المحاربين القدامى كانوا يشعرون بالقلق فى حضرة كل هذا الزخرف الجديد القادم من إسبانيا . فقد شوهوا ، وقد تركت المعارك آثارا فى أجسامهم ، ولم تكن مظاهر سلوكهم الجماعية مرضية جداً على أية حال . ولعل برنال دياث الشجاع ومؤرخ الفتح ، والذى كان قد استقر فى جواتيمالا ، كان واحدا من الضيوف ، غير أن أحد المتفرجين الذين لا تعرف لهم أسماء هو الذى عمل مسجلا لحوادث المجتمع فى تلك الحفلة المسائية .

وبينما سيق المحاربون الذين اكتهنهم العمر إلى الردهة الكبيرة لاحظتهم الحسان اللائى قد أتين من إسبانيا من قبل من خلال باب فى ركن من أركان الغرفة . وصاحت إحداهن تبدى ملاحظة الأخرى : « يقولون إننا جئنا لنتزوج هؤلاء الفاتحين » ، وأضافت أخرى : هل « يقصدون

(*) grandeza

بذلك ان علينا أن نتزوج من هؤلاء الرجال الذين ضعضعهم العمر؟ إنكن فيما عداى تستطعن أن تفعلن ما شئتن أما أنا فلست أنوى الزواج من أى منهم . فليلقوا فى جهنم . ولا يدأنهم من جهنم . فهم يبدون كأنهم مقعدون، وبعضهم أعرج وآخرون منهم بذراع واحـــدة . وبعضهم قد فقد أذنا وآخرون عينا ، والبعض منهم له نصف وجه فقط ، وأحسنهم له آثار جروح طويلة فى وجهه » ! ثم أجابت الأولى : « نحن سنتزوجهم ، لا لرشاقتهم بل من أجل حروبهم مع الهنود ، ونظر إلى أنهم كبار السن ومنهوكو القوى فسيموتون سريعا ، ثم نستطيع أن نحصل على الأزواج الشباب الذين نريدهم . والمسألة شبيهة باستبدال قارورة قوية جديدة بأخرى مكسورة قديمة » .

وسمع أحد الفاتحين المسنين الحديث ، وكان يجلس ملاصقاً للباب ، ثم التفت إلى الشابات وصب عليهن جام احتقاره . ثم أخبر زملاءه بما قد سمعه وقال لهم : « تزوجوا من هؤلاء السيدات وسوف ترون كيف يرددن الجميل الذى صنعتموه من أجلهن » . ويقول جارسيلاسو : « عند ذاك ذهب إلى منزله واستدعى قسيسا وتزوج من نبيلة هندية ، وكان قد أنجب منها طفلين غير شرعيين » . وكان يريد أن يصيرهما شرعيين حتى يرثا الهنود الذين يمتلكهم ، لا سيدة (*) أيا كانت ، تنعم بما قد جناه من كد وقد تعامل أطفاله كخدم وعبيد .

وعلى الرغم من وفرة المغريات وحفلات العربدة والفجور فى أماكن معلومة ، لم تكن هناك أعياد للمتعة الجسدية فى سنوات الفتح الأولى . ولربما استجابت أميرات الأزاتقة والإنكا أحيانا إلى ما يتوق إليه الفاتحون من كل ما تستطيع النساء أن يعطينه ، لأن السيدات الأرستقراطيات عرفن

(*) Senora

مستوى شائعا من رقة الأنوثة ربما جعلهن لا يشعرن بكلفة فى مدريد أو باريس أو روما ، وقد جعلهن كذلك أحيانا . وحتى كاتارينا باراجواسو ، وهى ابنـة لشريف من التوب ، التى تزوجت ألفاريس كارامورو الرائد البرتغالى المبجل الذى ارتاد شمال البرازيل ، يبـــدو انها فتنت الطبقات الاجتماعية الراقية من غرب أوربا . وكانت أنا كوانا ، وهى كليوبطرة التاينو ذات القصة المفجعة ، سيئة الحظ لا لشىء ، إلا بسبب أن الإسبانيين الذين اعترضوا طريقها فى الأنتيل كانوا رجال جماعة رولدان — الحثالة البهيمية فى موجة الفاتحين الأولى — والذين وجدوا فيها انثى حيوان تشتهى . ولـكن الهندية (*) فى نظر كثير من الإسبانيين اشتهرت بكونها باردة ، وأحيانا كانت دمامتها تثبط من حماسة القادمين الجدد . وبظهور الزوجات والعشيقات الإسبانيات فى العالم الجديد هبط إغراء الهنديات نسبيا مع ظهورهن . ولم يستطع أوفييدو الذى ذهب فاتحا فى شمال القارة قبل أن يستقر فى سانتو دومنجو ليـكتب قصته عن الفترة الأولى للفتح أن يكون فريدا فى حبه العميق لزوجته . فعندما ماتت فى الهند الغربية كتب عنها يقول : « كانت قد شيدت منزلنا فى دارين وفقا لأذواقها . وكان يحتوى على مساكن جميلة فى أسفل وفى أعلى ، وكانت هناك حديقة جميلة غرس فيها كثير من أشجار البرتقال ونباتات أخرى على ضفاف مجرى مائى بهيج يتدفق بالقرب من المدينة . وعندما شاهدتها وهى ميتة كدت أفقـد وعيى ، ليس فقط لأنها كانت رفيقا عزيزاً لى ، ولـكنى كنت أود دائما أن أحيا حياة زوجيـة كمسيحى . ولم أتعود معيشة العشيقات كما كان يفعل جيرانى ، وأحيانا كان لـكل منهم اثنتان » .

وعندما وصلت أول نساء إسبانيات إلى الهند الغربية سرعان ما أضفين روحا من الاستمرار على المجتمع الجديد ، حتى على الرغم من أن وجالهن

(*) India

كانوا لا يزالون يقاتلون الهنود من حولهم . وبدأت هذه العملية عند ما أحضر دييجو كولمبس ابن الأميرال وأول نائب ملك فى الهند الغربية دونيا ماريا دى توليدو ، من أسرة ألفا المجيدة وابنة أخى الملوك الكاثوليك ، إلى هسبانيولا . ومعها قدمت سيداتها ، وأضاف بلاط نائب الملك الذى أنشىء فى سانتود ومنجو لمسة مألوفة لإسبانيا فى القفار المدارية وتأثيراً مهذبا انتشر فى شتى أرجاء الكاريبى . يقول أوفييدو . « قدم مع نائب الملك عدد من السيدات والعذارى من أسر كريمة وتزوجت فى هذه المدينة كل من كانت منهن شابة ، وفى هذه الجزيرة ، من رجال أغنياء ومهمين عاشوا هناك ، ففى ذلك الوقت كان هناك نقص فى نساء قشتالة ... ولذلك فإن مع هؤلاء النساء الإسبانيات اللاتى قدمن حينذاك ، قويت هذه المدينة كثيرا ، واليوم يوجد أطفال وأحفاد كثيرون من تلك الزيجات ، والذين يكونون الثروة الرئيسية لهذه المدينة .

وهناك سيدة أخرى كان لها نصيب فى نقل بعض قيم الحضارة الإسبانية إلى المستعمرات الجديدة هى دونيا إيزابل دى بوباديا . وقد انحدرت من نبلاء قشتالة العظام ، وكانت زوجة لبدرارياس دافيلا حاكم منطقة البرزخ . ولابد من أن يكون الطاغية العجوز المخيف قد أوحى إلى زوجته نوعا من التعلق الشديد به ، لأنه عندما ألح عليها بالبقاء فى إسبانيا نظراً إلى أخطار الحياة فى دارين كتبت إليه هذه الرسالة الرقيقة : « زوجى العزيز ، نحن اقترنا فى شبابنا ، كما أظن ، وهدفنا أن نعيش معاً ولا ينفصل أحدنا عن الآخر أبدا . فحيثما قادك القدر ... فعلى أن أكون رفيقتك . وليس هناك شىء أخشاه ، بل أى صنف من صنوف الموت قد يهددنى ، لا يمكن أن أحتمله أكثر من أن أعيش بدونك وتفصل بينى وبينك مسافة شاسعة . إن أفضل الموت ، بل يأكلنى المتوحشون عن أن أفنى نفسى فى حزن دائم وأسى مقلق أترقب ، لا قدوم زوجى ، بل رسائله . وليس تصميمى وليد الساعة

أو بدون تفكير ، ولا هي نزوة امرأة تلك التي تحركني إلى قرار موزون وله أحقية . والأطفال الذين وهبنا الله لن يمنعوني لحظة واحدة . سوف نترك لهم ميراثهم ومهورهم بالقدر الذي يكفيهم ان يعيشوا عيشة مناسبة لمركزهم . وبجانب هذا ليس عندي ما يشغل بالي » . وتزوجت واحدة من أطفالهما هيرناندو دي سوتو حاكم كوبا ومستكشف الجزء الجنوبي من الولايات المتحدة . وفي أثناء غيابه الذي قدر له ألا ينتهي عملت نائبة له في الجزيرة . وكتب عنها أوفييدو الذي كان يعرفها : « إنها امرأة تشع حضرتها الظرف ، طيبة القلب ولها رأي ممتاز » . وقدر لابنة أخرى أن تتزوج من فاسكو نونييث دي بالبو ، وقد قدم أبوها إلى بنما ليحل محله بالخديعة ويعد العدة لاغتياله وإنجاز الاغتيال . وعلى الرغم من إتمام مراسم الزواج فإن الزوجة المأمولة بقيت في دير في إسبانيا في حين كان الحاكم يعيش في هناء مع عشيقته الهندية ، ولم يكن الزواج قد تم بعد عندما دق عنق فاسكو نونييث في غسق شهر يناير في أكلا .

وعرف أوفييدو ، وكانت له شهرة كونه موظفا ملكيا كفئا وذا ضمير ، جميع المشتركين الكبار في الحوادث التافهة التي تتابعت بعد إعدام بالبو . فهو يشرح الأسباب التي من أجلها ترك الجو الملعون في البرزخ إلى سلام سانتو دومنجو في هذه الكلمات : « بعد أن قمت بعمل ترتيباتي مع بدرارياس ولكي استرد راحة ضميري ، وأضع حداً للمنازعات ، ولأني رغبت في أن آتي إلى هذه المدينة لأستريح مع زوجتي وأطفالي على علمي بالعدالة الضئيلة الموجودة في شمال القارة » .

وهناك امرأة لم تشأ أن تترك البرزخ هي زوجة بدرو دي لوس ربوس الذي كان حاكما في كاستيا دل أورو في أثناء الفترة التي كان فيها تيار الفتح يتحرك عبر منطقة دارين في طريقه جنوبا إلى بيرو . وعلى الرغم من أنه كان « سيداً مهذبا » كما يروي أوفييدو ، « فقد كان غير كفء لحكم بلاد استقرت

حديثا . فقد كان شرها ، كانت زوجته التي كان يحكم في ظلها ، لا يشبع لها جشع » . وعندما ذهب إلى إسبانيا ليتقاعد في مدينة قرطبة مسقط رأسه رفضت زوجته أصطحابه . ويضيف أوفييدو قوله : « بسبب بيرو كان هناك ذهب كثير في بنما ، وبماشيتها وأموالها الأخرى التي كانت تملكها ، جمعت لنفسها ثروة كبيرة لأنها كانت مغرمة جدا بجمع المال » .

ونزل بثارو في تومبيس في سنة ١٥٣٢ . وبعد ذلك بسنتين كان بيت التجارة يصدر بالفعل تراخيص للنساء الإسبانيات بأن يخرجن إلى بيرو . وهناك نساء أخريات قدمن مبكرات جدا ولا تظهر أسماؤهن في سجلات بيت الهند مثل إينيس مونيوث ، المعلمة ، والتي تزوجت في وقت لاحق من بدرو مارتينيث دى الكانتارا ، وهو أخ غير شقيق للحاكم . وعلى الرغم من أن بيرو لم تكن مكانا صالحا لسيدة فضلى سنوات كثيرة فقد كن يقدمن مع ذلك . وسواء أكن سيدات فضليات أم غير فضليات فقد قبلن الأخطار وصنوف الحرمان مع ارتضائهن أن يكن بجوار رجال يعزونهم وأول فرقة كبيرة من النساء الإسبانيات المصنفات وصلن إلى بيرو في سنة ١٥٤٤ مع نائب الملك المنكوب بلاسكو نونيث فيلا . وشمل الفريق ستا وثلاثين امرأة متزوجة وسبعا وثمانين بنتا سافرن مع آبائهن ، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك سلام حقيقي في البلاد الممزقة لعشر سنوات أخرى ، فإن هؤلاء النسوة وبناتهن هن اللائي أسسن المجتمع الإسباني في بيرو في عهد الاستعمار .

وهناك امرأة إسبانية لم تلق راحة في بيرو هي اينيس دى اتينثا ، وكانت أرملة بدرو دى أركوس ، وكانت صغيرة السن وجميلة إلى درجة لم تكن لتجلب لها خيرا ، وعاجزة عن أن تحمي نفسها بين الجنود الهمج والمثيرى للشغب الذين كانوا زملاء لزوجها . ووقعت في دوامة من النزوات الجامحة ، واكتسحت معهم كعشيقة لبدرو دى أورسوا الذى كان نائب الملك قد

اختاره ليقود المحاربين الخطرين الذين أوقدوا نار الحروب الأهلية فى مطاردة بلهاء إلى وادى الأمزون بحثا عن الدورادو وعندما اغتيل أورسوا على يد لوبى دى أجيرى المرعب حولت حبها إلى لوزنشودى سالدندو ضابط أجيرى وزميله فى الجريمة . وعندما زحزح سالدندو أيضا عن الطريق طعنوها حتى ماتت فى ليلة فى القفار بجوار النهر العظيم على يد اثنين من رجال أجيرى القتلة. فهى لم يعقد لها قران جديد بعد ترملها ، ونقضت إحدى قواعد هذا العصر المضطرب ، فلم تصبح بعد امرأة لرجل واحد .

وجرت العادة فى العالم الجديد أن الترمل ينتهى بزواج جديد مبكر بعد فترة معقولة من الحداد ليس إلا . ولم يكن هناك نساء متوافرات يسرحن، وكان الزواج يعد الحياة الطبيعية لأية امرأة . وحتى إذا أرادت أرملة أن ترجع إلى العزوبة . وهذا بديل قلما يروق النساء ذوات مزاج إسبانى مهما بلغت أعمارهن فإن مستلزمات المجتمع كانت تتضافر على أن تتخذ زوجا آخر. أما البديل الآخر الذى يتسم بالوقار فهو اللجوء إلى الرهبنة ، وإلا فليس هناك مكان آمن لامرأة تعيش وحدها فى ذلك العصر المضطرب . وهيئت لهؤلاء الأرامل فرصة لأن يكن « ميسورات » ، ويزداد يسارهن مع كل زوج يقترن به حتى إن إحداهن قدمت للفاتح المعدم ، مع مزايا الزواج الأخرى ، إغراء جديداً هو معاش التقاعد . وكم من فاتح وجد فى الحب الدافىء الخريفى الذى كانوا يلقونه من هؤلاء الأرامل الممتلئات صحة ملجأ صامداً من سنوات الحرب والعنف ، ومكافأة أغنى من ذهب الإنكا أو الوظيفة الكبيرة .

وربما تكررت قصة دونيا أنطونيا هيرنانديث فى جوهرها مرات عدة . ففى أول الأمر تزوجت من ميجيل دى جوميس ، واحد من فاتحى المكسيك الأصليين . وعندما استسلم أزواجها الواحد تلو الآخر لأخطار

الفتح تزوجت على التوالى من بلتاسار ردريجيث ، وبارتولومى دى بيرليس ، وخوان موسكوسو . وكان الزواج الذى يتكرر كثيراً يكفر عن العلاقات الشاذة بين الرجل والمرأة التى شاعت فى عالم تفككت عرى أوصاله التقليدية وهكذا قدمت اينيس مونيوث إلى بيرو كما رأينا كعشيقة لفرانسسكو مارتينيث ، وهو أخ غير شقيق لبثارو ثم تزوجته فى وقت لاحق . وبعد اغتياله تزوجت من أنطونيو دى ريفيرا وهو أحد أفراد ألمع الأسر فى ليما فى تاريخها المبكر. وفى سنة ١٥٧٣ أسست دير لا كونسيبسيون بهبة كبيرة قدمتها . ومما ينسب إليهـــا من ألقاب الشرف الأخرى أنها أحضرت القطة الأولى إلى بيرو ، وأنها غرست هى وزوجها أول أشجار للزيتون على ضفاف نهر ريماك فى أمريكا الجنوبية .

وقد حدث مثل ذلك مع دونيا كاتالينا الكونشل التى كانت عشيقة للقاضى (*) الونسو جوتييريث دى ايووا وأنجب منها طفلين . ثم تزوجت فى وقت لاحق من بابلو دى مونتيمايور ، وبعد موته بخوسيبى دى ريفيرا أى دافالوس ، وهو شخص بارز كان قاضيا أو عمدة لليما وابن نيكولاس دى ريفيرا الأكبر .

وأول نساء إسبانيات وصلن إلى منطقة بوجوتا قدمن مع الحاكم لويس دى لوجو ، وهو واحد من أكبر الشخصيات المنفرة فى الفتح . ويبدو أنه كان فى جماعته أربع زوجات وامرأتان أخريان غير متزوجتين . وأحضر كل من حكام نيوجرانادا الأوائل فى بطانته عدداً من أبناء بلده ، وكان هناك ثلاث زوجات بصحبة أزواجهن فى حاشية دكتور ميجيل دييث دى ارمانداريث الكبيرة وأرملتان تبحثان عن زوجين لكل واحدة منهما ابنة. ويبدو أن دكتور ميجيل استنفد الإمكانات المحدودة لمداعبة النساء فى الأوساط الإسبانية المحلية لأنه ، بناء على رواية جرمان ارسنيبجاس ، كان يتودد إلى دونيا آنا زوجة سباستيان دى هيريديا وإلى لا بيمنتالا وإلى

(*) قاضى محكمة التفتيش.

لوسيا دى الفاريث وإلى لا سوتومايور دى الكوسير . وكانت تنتمى لا إلى الكوسير فقط بل إلى بدرو دى اورسوا أيضا فى بعض الأحيان .

وفى هذه الأثناء حدثت فى جهة أخرى من كولومبيا إحدى المآسى التى كثيرا ما تتسلل إلى عشرة الإسبانى مع زوجته ، تلك العشرة التى لا تنفصم عراها بينهما . ففى سنة ١٥٤٥ وصل إلى سانتودومنجو من إسبانيا خورجى دى روبليدو وزوجته دونيا ماريا كارفاخال . وكانا يرعيان فى طريقهما إلى الجزيرة خمس عشرة أوست عشرة من الشابات « المهندمات » بعضهن كن قريبات لدونيا ماريا نفسها ، وكان البعض ينتمين إلى أسرة المارشال خمينيث دى كيسادا فاتح كولومبيا . وترك روبليدو ، وكان شخصا ذا جاذبية فريدة ، زوجته فى أمان هسبانيولا ، فى حين سار إلى شمال القارة ليشترك فى فتح أراضى الكوكا السفلى فى نيوجرانادا . وفى وقت لاحق طلب منها أن تلحق به فى كارتاخينا ، ولكن سرعان ما ترك الساحل فى حملة إلى الداخل كانت إلى غير رجعة . وذلك لأنه فى الأراضى الخلفية وقع فى صدام مع سباستيان بنالكاثار ، وكان قد جاء إلى مرتفعات كونديناماركا من بيرو عن طريق إقليم كيتو ، وأصبح روبليدو ضحية لغيرة الفاتح العجوز . ولاحقت زوجة روبليدو بنالكاثار ، وهى كسيرة الخاطر ، حاقدة عليه بلا هوادة ، حتى استجاب الملك لعرائضها واستدعاه للمحاكمة على القتل . وعندما مات فى كارتاخينا فى سنة ١٥٥١ ، وكان ينتظر سفينة تقلع به إلى إسبانيا ، كتبت دونيا ماريا قصة أخذها الثأر بالتفصيل .

ولم يكن بدرو دى اسكيفل فاتحا كبيرا ، بل كان واحدا من الأشبيليين الذين رافقوا بدرو دى مندوثا فى حملته المشئومة إلى نهر بلات فى سنة ١٥٣٥ وذهبت زوجته معه ، ايزابل دى جيفارا ، التى كتبت بعد إحدى وعشرين سنة رسالة إلى الأميرة خوانا كامرأة إسبانية تكتب إلى أخرى [٣] . غير أن أشياء كثيرة كانت قد حدثت فى هذه الأثناء فى إسبانيا لم تسمع عنها دونيا ايزابل .

وكانت الأميرة خوانا قد اعتلت عرش قشتالة وأصابها مس من الجنون، وترملت ، بل قد ماتت. وخرج بعض نساء أخريات مع ايزابل دى جيفارا: مارى سانشيث أوف كوريا زوجة خوان ساليرون ، وأنا مونيوث وربما لم نحصل على رجل لها شخصيا فى ذلك الوقت ، واخريات لم يتركن أسماء فى سجلات بيت التجارة .

وساءت الأحوال فى مستعمرة بوينس أيريس من بادىء الأمر . فقد كان هنود البمبا لا يرحمون، وضيقوا خناق الموت شيئا فشيئا حول المستعمرة على ضفة النهر . وفى داخل المدينة المحاصرة جاع الناس وماتوا جوعا . وتحتوى السجلات على إشارات غامضة عن أكل لحوم البشر . وكتبت دونيا إيزابل بعد ذلك بوقت طويل : « لولا شرف الرجال لاستطعت أن أفيض لمعاليك فى الحديث بصدق » . فقد أضعف الحرمان الرجال إلى درجة أن فئة النساء القليلة كان عليهن أن يتناوبن العمل الذى كانوا يقومون به حتى تصويب البنادق نحو الأسوار الخشبية حين كان الهنود يهاجمون . وقالت زوجة اسكيفل : « ولولا عنايتنا بهم وقلقنا عليهم لماتوا جميعا » .

وبعد أن هلك معظم المستعمرين ترك الباقون المكان وبدأوا يتجهون نحو منابع النهر إلى أراضى الجوارانى فى سكونتين . (*) وفى أثناء الرحلة الطويلة كان النساء يعنين بالرجال الذين كانوا مرضى ، وكن يواسينهم ويطهين لهم السمك الذى لا ينفد والذى كان طعامهم ، وليس هذا فقط ، بل إنهن كن يبهجنهم دائما ، وعندما كان يبدو منهم الإجهاد إلى درجة تمنعهم من الاستمرار كن يدرن السفينتين الثقيلتين عندما ينهار الرجال وهم يمسكون بالمجاديف . « فإن حياة الرجال كانت فى أيديهن » . و« كان الحب وحده يجبرهن » على القيام بكل شيء قمن به من أجلهم . وأخيرا عندما وصل الباقون منهم إلى موقع اسونثيون كان هناك على الأقل أمل فى وفرة التربة الغنية ، على الرغم من أن النساء كن هن اللائى يفلحن الحقول الجديدة

(*) السكونة ، Brigantine ، سفينة من نوع الإبريق .

حتى وقفت المستعمرة النائية ، على قدميها وشق الرجال من تناوب الاستكانة والعنف اللذين لقوهما فى الطرق التى سلكوها . وفى خطابها إلى المملكة خوانا لا لوكا تطلب ايزابل دى جيفارا لنفسها منحة دائمة من أرض وهنود ، ولزوجها ــ الذى تسببت خدماته للتاج « تناسى خدماتها هى » وظيفة ما وفقا لمؤهله ، فهو يستحقها من جانبه . وتضيف تعليقا له دلالته على اضطراب الحياة فى المستعمرة الجديدة على نهر باراجواى : « لقد أنقذت حياته ثلاث مرات والمدية مسلطة على حلقه » ولو أن أرجنتينا أرادت أن تقيم تماثيل لذوى الفضل فيجب أن تنصب تكريما لهؤلاء النساء المخلصات والبطلات .

الفاتح والمرأة الهندية

وعندما تلاقى الإسبانيون والبرتغاليون مع النساء الهنديات كانت العلاقة النمطية بينهم بسيطة جدا عادة، إذ لم يكن فيها تعقيد من أية محاولات لتهذيب أخلاقى أو تفكير منطقى من أى من الجانبين . فمن جهة كانت عناصر الموقف تتلخص فى رجال قد تركوا خلفهم فى أوربا نساءهم مع أية قواعد تهديهن فى علاقتهن المتبادلة ، ومن جهة أخرى كانت هناك نساء ينتمين إلى جنس آخر بأجسامهن القوية يستعرضنها باستمرار فى تلك الأراضى الحارة ، وليس لنزواتهن رادع من عادة أو دين ، وكما يوحى جلبرتو فريرى ربما تثيرهن اعتبارات جنسية (*) وكن يبدين قبولا للإطراء من اهتمام فاتحى بلادهم ، ويزداد اهتمامهن بازدياد رتبة الاسبانى. ومع ذلك ففى الشعوب المتحضرة فى المكسيك وبيرو كان الرجال والنساء ينزعون إلى البحث عمن فى مستواهم الاجتماعى من الجنس الآخر. فالجندى الإسبانى العادى الذى يأخذ « هندية »(**) من طبقته كشريكة لحياة طويلة كان غالبا ما يوليها من الحب والاهتمام أكثر مما لو كان سيدا وهى من طبقة أدنى . ففى جو يسود فيه الامتثال والتعاون لا ينتظر أن يكون

(*) Priapic : من Priapus إله القوة الرجولية.

(**) Caballero

هناك داع للجوء إلى القوة فى كثير من الأحيان . وأوضح دليل على هذا الخلط التناسلى هو فى المجال القارى للتهجين الذى نتج عن وجود مثل هذه الظروف المواتية . وذلك لأن عالما جديدا من المولدين قد تكون لإسبانيا ، وعالما آخر ، فى البرازيل ، للبرتغال .

ومن العوامل المساعدة فى العملية صعوبة إرضاء الفاتحين وجدية مقاصدهم . ولقد صنف بعض الذين جابوا أرجاء شاسعة فى تلك البلاد نساء القبائل المختلفة اللائى دخلن محيط معرفتهم وتجاربهم . وهناك اثنان من المعلقين ذوى الخبرة فى هذا الشأن هما پدرو دى سييثادى ليون وأولرخ شميدل : وكلاهما جنديان صغيران تنقلا كثيراً فى الهند الغربية . ولابد أنهما قابلا كثيرا من البنات المحليات حيثما ذهبا ، واحد من شمال القارة إلى بيرو ، والآخر فى إقليم نهر بلات . وقال سييثادى ليون عن الهنود فى إقليم دارين الذى تقطنه الأورابا حيث بدأ جولاته الطويلة : « نساؤهن أجمل وأحب من أية نساء شاهدتهن فى الهند الغربية . وهن نظيفات فى مأكلهن ، وليس عندهن شىء من العادات القذرة الموجودة فى الشعوب الأخرى » . وكان صغير السن جدا وشديد التأثر فى ذلك الوقت ، لأنه بعد أن مضت سنوات قال مثل هذا عن قبائل الشاشابويا الذين كانوا يعيشون فى المنطقة الجبلية من بيرو . ويضيف عن هذه القبائل قوله : « نساؤهن جميلات إلى درجة أن كثيرات منهن جديرات بأن يكن زوجات للانكا أو نزيلات فى معبد الشمس . والنساء الهنديات اللائى ينتمين إلى هذا الجنس إلى وقتنا هذا جميلات إلى درجة فائقة ، لأنهن شقراوات (فى هيئتهن) وذاوت أجسام ممشوقة » ، وكتب عن إقليم ارما فى كولومبيا يقول : « إن نساء هؤلاء الهنود أكثر النساء اللائى شاهدتهن فى جميع هذه الأرجاء دمامة وقذارة » . وكانت نظرته أحسن إلى نساء إقليم الكارابا فى كولومبيا ، واللائى أسماهن « ذوات طبع حسن ومحيا مليح وغرام ملتهب » . وهذا

هو رأيه فى نساء لاتاكونجا فى أكوادور وكافاماركا فى بيرو . وتذكر قبيلة الكانيارى فى نفس إقليم كيتو فيقول : « النساء جميلات جدا ومغرمات بالإسبانيين وصديقات لهم ، وهن عاملات عظيمات لأنهن هن اللائى يحرثن الأرض ويزرعن المحصولات ويقمن بالحصاد ، على حين يبقى أزواجهن فى المنازل ويحوكون وينسجون ويزركشون الملابس ويقومون بأعمال نسائية أخرى . وعندما يمر أى جيش إسبانى فى منطقتهن ، ولأن الجنود فى ذلك الوقت كانوا مجبرين على أن يهيئوا الأشخاص لحمل أمتعة الإسبانيين على ظهورهم ، فإن الكثيرين من رجال الكانيارى كانوا يرسلون زوجاتهم وبناتهم فى حين يبقون هم فى المنازل » . ومع ذلك كان محاربو هذه القبيلة هم الذين يكونون الحرس الامبراطورى لملوك الإنكا .

بل إن أولرخ شميدل يصنف باصطلاحات معينة نساء القبائل المختلفة على طول مجرى نهرى بارانا وباراجواى . فقد كان الرجال والنساء فى قبيلة الأجاسى على حد سواء يتصفون « بالوسامة وطول القامة » ، وكانت النساء يطلين وجوههن . وكانت قبائل الكاريو يمشون عرايا ، وفيهم كان الأب يبيع ابنته والرجل زوجته إذا لم تعجبه ، والأخ أخته . وكان فى وسع المرء أن يشترى امرأة بقميص ، أو سكين ، أو بلطة ، أو بأية سلع تجارية أخرى . وقد قدم نفس هؤلاء الهنود ست بنات وسبع أيائل (*) إلى خوان دى ايولاس القائد الإسبانى . وفى نفس الوقت أعطوا لكل جندى بنتين « لتعتنيا بنا كما يقول شميدل ، وتطهيا وتغسلا لنا ولتقوما بأداء أى شىء آخر نحتاج إليه » . وكما لو أن اثنتين لكل فرد لم تكونا كافيتين فقد استولى الجنود على عدد أكبر من هؤلاء النساء ، « وقد ساعدنا هذا الإجراء كثيراً » . وقال إن قبيلة السوروكورسى كانوا يحيون حياة عائلية كريمة بنسائهم الوسيمات وأطفالهم . وقد أعجب هذا الألمانى بالعادة التى كانت نساء الجيرو يمارسنها

(*) جمع ايل الغزال .

فى طلاء أجسامهن باللون الأزرق . وقد علق على هذا بقوله : « هذا الطلاء جميل جدا . وإن أى نقاش فى أوروبا عليه أن يعمل جاهدا ليصل إلى هذا المستوى . وللنساء منظر جميل على طريقتهن ، ويأتمن إذا وجدن الفرصة . ومع ذلك فأنا لا أريد أن أتكلم كثيرا عن هذا الآن » . ويضيف إلى هذه الصورة : « إن النساء يعشقن بحرارة وحنان وحماسة ، وعلى الأقل « فأنا » أرى هذا .

ويقول عن قبيلة المبايا إن نساءهم وسيمات، ويلزمن بيوتهن ولا يعملن فى الحقول ، لأن الرجل هو الذى يبحث عن الطعام . ويقوم النساء بغزل ونسج القطن وبطهو الطعام وإدخال السرور على أزواجهن وعلى أى من أصدقائهن الذين يطلبون ذلك . وبخصوص هذا الموضوع فلن أقول أكثر من ذلك حاليا . فإذا لم يصدقنى أحد فى هذا أو يحب أن يرى بنفسه فعليه أن يقوم بالرحلة » .

ولقد كان زعيم هذه القبيلة هو الذى أنعم على قائد جماعة شميدل « بثلاث شابات وسيمات » . ولقد طفح معسكرنا بشرا وتسلية لأنه « عندما انتصف الليل ، وخيم السكون ، افتقد القائد بناته الثلاث ، فلربما لم يكن ندا لهؤلاء الثلاث ، لأنه كان فى الستينيات من عمره ، وقد اكتهل . ولكن لو أنه وزعهن على الجنود فأنا على يقين أنهن ما كن يلجأن إلى الفرار » .

ومما لاحظه هذا الألمانى الفضولى على قبيلة الكوروكوتوكى أن نساءهم يلبسن قميصا فضفاضا بلا أكمام(*) . وهذا هو بالمصادفة القميص الفضفاض (*) الذى سوف يصبح الثوب المميز للمرأة فى إقليم باراجواى . ويضيف إن هؤلاء النساء يلزمن البيوت و « يحكن أشياء للمنزل » وكان الرجال يعملون فى الحقول ويحضرون الطعام .

(*) tipoy
(**) Mother Hubbard

وكانت هناك قبيلة اليوكاهوتتا من الباسكا الذين أنقذوا حياة لاثارو فونتى ، أحد ضباط خينيث دى كيسادا فى فتح كولومبيا . فقد اتهم فونتى بأنه حاول خديعة الملك بأخذه « الزمردة الملكية الخامسة » من مجموعة الزمرد التى كانت جزءا من غنيمة الشبكا . وعندما كان يحاكم للإعدام شنقا احتج زملاؤه وخفف الحكم إلى النفى بين الباسكا المتوحشين . فاقتيد وشد وثاقه إلى شجرة حيث يمكن للهنود أن يجدوه فيتأكدوا من موته السريع . غير أن البنت الهندية التى مالت إليه تبعته ، وعندما وصل الشجعان إلى الشجرة فى الصباح وجدوا البنت بجواره فى حالة دفاع عنه ، ثم أخبرتهم أن أعداءهم الإسبانيين قد أبعدوه لأنه عارض خطتهم فى إحراق القرية . وهكذا كسب الإسبانى حياته ، وكسبت البنت عاشقا ، وكسبت القبيلة فرداً له قيمته .

وكان هيرنان كورتيس ، وهو محارب عظيم ، عظيما أيضا فى عشقه . وبدأت حياته كدون خوان عندما كان طالبا فى سالامانكا ، واستمرت مدة إقامته فى جزر الهند . وعن هذه الفترة فى حياته كتب برنال دياث يقول : « لقد سمعت أنه عندما كان فتى فى هسبانيولا ، كان عنيفا فى حبه النساء » . وبينما كان فى المكسيك لم يفتر مطلقا « مزاجه البدائى فى تعدد الزوجات » ، كما كان يسمى ذلك أحد مؤرخى حياته . وفى كوبا ، وهى لم تكن مجتمعا يتصنع الحياء تماما ، حدثت سلسلة من المغامرات بدت كما لو هزت بشدة كل فرد فى المستعمرة ، فيما عدا بضع نساء يهمهن الأمر ومن لاكتهم الألسنة بصفة خاصة الحاكم البدين ديبجو فيلاسكيث ، وهو نفسه لم يكن « زير نساء » وكان يزجر الفاتح اللاحق على تعكيره صفو السلام العائلى فى الجزيرة . وعندئذ تزوج من زوجته الأولى كاتالينا خواريث فى ظروف توحى بنوع من الإرغام من طرف ثالث . وعندما أصبح فيما بعد سيد إسبانيا الجديدة العظيم تباطأ فى استدعاء دونيا كاتالينا لتلحق به ، وقد كانت وفاتها بعد فترة قصيرة من وصولها من كوبا مدعاة للهمز واللمز الخبيثين .

وأعظم النساء أهمية فى تاريخ الفاتح كانت دونيا مارينا المشهورة التى

كان هنود أنا هواك يعرفونها باسم مالنشى . وقد قدمها شريف محلى لكورتيس مع تسع عشرة امرأة أخرى عندما توقف عند شاطىء تهوانتيك في طريقه إلى المكسيك . ونظرا إلى نشأتها الأصلية من اعيان كامبيشى ، وذكائها الممتاز ، وتربيتها ، وشرف مقامها ، وجمالها ، فمن الواضح أنها كانت تتقدم على نساء أى جنس . وصارت الرفيق المخلص الوفى لكورتيس ، وأنجبت له أكفأ أبنائه . وعندما كتب عنها للامبراطور شارل سماها «المترجمة» التى لقيها فى بوتونشان . وقد كانت هكذا وأكثر ، وقامت بدورها فى نجاح الفتح فيما يخصها مثلما فعل ألفاراد وأوساندوفال . وكانت طلقة اللسان بلغة المايا والأزاتقة ولغة سيدها ، وكانت تحس بالبداهة مسلك الأهالى حيثما حل الإسبانيون وكانت خدماتها لا تقدر وهى تقوم بدور الوساطة فى التعامل معهم . وفى وقت لاحق تزوجت من خوان خاراميو «وهو ضابط ذو جدارة» كما يقول برنال دياث ، وصاحب مزرعة (*) خوشيملكو . وكان زواجا موفقا ، ولقد كانت كزوجة لقائد إسبانى عندما اشتركت فى الحملة الفظيعة إلى هندوروس . وكانت قد أصبحت سيدة عظيمة بحقها الذاتى ، الأولى فى المكسيك الحديثة ، ولما كان ملوك إسبانيا أحيانا يطلقون على أشجع مدنهم صفة « البطلة دائما » فكذلك أطلق على دونيا مارينا « البطلة دائما » (**) وأسماها برنال دياث « دونيا مارينا الممتازة » فقد كان لها بحق ميلادها تأثير شامل واعتبار فى هذه الأقطار ، وكانت ذات شكل جميل ، وطباع صريحة ، وذكاء حاضر ، وروح مقدامة ، كما امتازت فى معرفتها لغات كثيرة ، وخدمت كورتيس أعظم خدمة ، وكانت ترافقه دائما .

وأعطى مونتسوما كورتيس إحدى بناته ، عمدت باسم دونيا أنا ، وعاشت معه فى منزله فى تينوشتتلان — مع اثنتين من أخواتها وأميرة أخرى من أميرات الأزاتقة . ولقد لاقت دونيا أنا حتفها وكانت ذات

(*) encoméndero
(**) la siempre heroica

حمل ، فى الممر عند «الليلة الكئيبة» . ويقال إن اثنتين من بنات مونتسوما أنجبتا له أبناء ، وابنة ثالثة أنجبت بنتا . ويذكر فى وصيته ابنة أخرى غير شرعية من ليونور بثارو ، وقد تزوجت فى وقت لاحق من خوان دى سالسيدو .

وفى أوج شهرته تزوج كورتيس فى إسبانيا من دونيا خوانا دى سونيجا من طبقة الأشراف العليا فى قشتالة . ويقول مؤرخ حياته : «لقد كانت زوجة صالحة ، وأحبته كما أحبته تماما كاتالينا خواريث وجميع عشيقاته ، وكانت غرائزه التوددية تيسر شعوره بالسعادة معهن جميعاً على قدم المساواة ، وكان ودودا ورقيقاً ومكرسا نفسه لجميع أطفاله لا يفرق ، إلا بقدر ضئيل ، بين الشرعيين منهم وغير الشرعيين ، بطريقة أبوية حقيقية . وقد ضمن لغير الشرعيين نشرات بشرعيتهم من البابا ، وورثهم بسخاء فى وصيته» . وعلى الرغم من أن آلافا كثيرين من رجال أمريكا اللاتينية لم يتسع مجال توددأتهم بهذه الدرجة العالية فإنهم قد اتبعوا مثل الفاتح فى كل هذه النواحى .

وكما حدث فى بيرو حدثت أيضاً اتصالات كثيرة أخرى بين الإسبانيين والنساء الهنديات العريقات المحتد ، فلقد أمهرت المحالفة بين كورتيس و «جمهورية» تلاسكالا بهدية مكونة من خمس من بنات الحكام المحليين . وبناء على رواية برنال دياث : «كن وسيمات إذا قورن بنساء البلاد الأخريات ، يلبسن أفخر الثياب ، وترعى شئون كل منهن خادمة من الرقيق» . ولم تقم حفلة تقديم إلا بعد أن «حولن» إلى المسيحية وعمدن بأسماء أعلام إسبانية» . أما كورتيس ، وقد أظهر كبحا غير عادى فى هذه المناسبة ، فقد تنازل عن دونيا لويسا ابنة الزعيم الأكبر هيكوتنجا إلى ألفارادو . وتسلم فيلاسكيث دى ليون دونيا الفينا ، أجمل البنات الخمس . ونسى برنال دياث أسماء الأخريات ، ولكنه قال : «كن جميعاً سيدات فضليات(*) ، (و) كن من نصيب أوليد وساندوفال وأفيلا» . أما دونيا لويسا — وكانت على

(*) donas

ما يبدو تتحلى بأخلاق سامية ، كما كانت شخصية ذات أثر كبير فى دولة تلاسكالا — فقد أنجبت لألفارادو ابنا سمى بدرو أيضاً ، وابنة سميت دونياليونور . وتزوجت دونيا ليونور ، «وهى سيدة ممتازة» ، من دون فرنسسكو دى لا كيفا ابن عم دوق ألبوكيرك ، وبذا يكون قريباً لزوجتى ألفارادو كليهما . وبعبارة أخرى فقد تزوجت من طبقة العظماء ، وهى أعلى طبقة للأشراف فى إسبانيا . وأنجبت أربعة او خمسة أبناء «جميعهم فرسان وجهاء» . وربما كانت أكثر أميرات الأزاتقة تأهلا دونيا إيزابل، أرملة كوايو تيموك بطل المقاومة المكسيكية ضد الإسبانيين . وكانت ابنة أخرى لمونتسوما ، وقد تزوجت من قبل من كتلا هواتشن ، وهو أيضاً زعيم من زعماء الأزاتقة ، وبعد أن أعدم كورتيس كوايو تيموك تزوجت على التوالى من ثلاثة من الفاتحين الإسبانيين . أما زوجها الرابع ، خوان كانو . فقد قال عنها إنها تستطيع أن تثبت فى ذكائها وفتنتها مع أنبل سيدات إسبانيا .

وعلى الرغم من أن فرانسسكو بثارو ، فاتح بيرو كان فى مركز يمكنه من الانتقاء من أميرات الإنسكا، فلم يكن هناك شىء فى علاقته مع النساء ليفتدى به أخلاقه الشخصية من العار الذى كانت تستحقه . فقد كان لشريكه ومنافسه ديجو الماجرو ابن مولد لطيف ، وكان يحترم والده ، وقاسى لكى ينتقم من أعداء والده على يد بثارو . ولكن من الأرجح أنه لم توجد أبداً امرأة أو طفل أحب ماركيز بثارو وكانت دونيا إينيس ، وهى أخت للإنسكا أتاهوالبا ، عشيقته، وأنجبت منه ابنة سميت فرانسسكا أما السيدة الفاضلة إثاربای ، وكانت أيضاً أختا — وزوجة — لأتاهواليا وواحدة من عظيمات سيدات المملكة ، فقد لقيت حتفها مخنوقة تنفيذا لأوامر بثارو ، بعد أن غدرت بها عشيقة الحاكم

وعلى حسب رواية بدروبثارو ، الذى كان يعمل سكرتيراً للماركيز ، أمر بثارو بأن تشد زوجة الثائر مانكوكاباك إلى قائم وتضرب وتصوب

إليها السهام لقتلها ، لأن الإنكا كان قد أرسل هنودا لاختطافه ، ولأنه سرق حصانا وعبدا زنجيا كان يمتلكهما . ومن إخوة بثارو الآخرين تزوج هيرناندو سيدة فضلى ، وقد شاركته شبه سجنه الطويل فى إسبانيا ، واستطاعت ، كما يبدو ، أن تحتفظ بحب واحترام زوجها العنيف العاتى .

وإذا أخذنا النتائج فى الاعتبار فإن أهم المسائل بين الفاتحين الإسبانيين والنساء الهنديات فى بيرو كان زواج جارسيلاسو دى لافيجا من السيدة الفضلى دونيا إيزبل شمبو أوكيو وهى ابنة أخت لاتاهواليا . وكان واحداً من أكبر قادة الفتح أهلية للاحترام ، وسليل أسرة من أعرق الأسر فى إسبانيا وواحدا من الفضلاء القليلين فى رجال القوات الإسبانية فى بيرو . وعاشت دونيا إيزابل معه سنوات عدة فى المنزل الجميل الذى لا يزال قائما فى كشكو ، وكانت ربة بيت عرف بالكرم . وهناك أنجبت لسيدها الإسبانى الابن الذى أصبح فيما بعد جارسيلاسو الإنكا المشهور . وهناك ترعرع الصبى مع أبناء آخرين للفاتحين ، وبعضهم كانوا مولدين مثله . وقد قدر أن يكون مؤرخ حوادث الشعب الذى تنتمى إليه أمه ومؤرخ الأعمال التى قام بها شعب والده فى بيرو — والجزء الجنوبى من الولايات المتحدة . وعندما تزوج والده تم ذلك فى رحاب الأرستقراطية الإسبانية حيث تمتد أصوله إلى أعماق بعيدة . وكان يحز فى قلب الابن اللامع والحساس ألم ، لم يبرأ منه أبدا . شخصية منقسمة لم يستطع أن يوفق بين جانبيها ، ومركب نقص أصبح وصمة للشعوب المولدة فى العالم الجديد . وعلى الرغم من أنه كان مكرما فى الأوساط الأدبية والعلمية فى إسبانيا ، وعاش حياة محترمة متينة ، فإنه لم يصل تماما فى أى وقت إلى الهدف السابق الذى وضعه نصب عينيه .

ويروى فيليب إينسورث مينز قصة تستأهل تكرارها حرفيا كإيضاح لمختلف إمكانات وتفرعات هذه المسائل الخاصة باختلاط الأجناس : «كان

للإنكاسا يرى توباك وزوجته طفلة واحدة فقط هى الأميرة دونيا بيترس كلارا . وبعد موت والدها وضعت مع أمها فى منزل شخص مقيم فى كشكو اسمه أرياس مالدونادو ، لكى تؤثر فيها زوجته وبناته ويصيرنها إسبانية خالصة — وكانت دونيا بيتريس ، وقد ورثت ميراثا ضخما بثلاث مزارع فيها يعمل أكثر من ١٦٠٠٠ من دافعى الخراج و ٩٠٠٠ من الهنود العاديين وسمح مالدونادو لأخيه كريستوبال أن يغتصب البنت وكان عمرها أقل من عشر سنوات حتى يمكن إجبارها على الزواج منه . واستجابت ، ولكن الزواج ألغى فيما بعد وعندما بلغت الخامسة عشرة اختارت الأميرة زوجا لها ابن عمها المباشر الأمير فيليبى كسبى تيتو — وكان يلزم استصدار فتوى بابوية لهذا الزواج . وبعد وفاة الأمير فيليبى تزوجت الأميرة بيتريس كلارا فى سنة ١٥٧٢ بأمر الإنكاتوپاك أمارو الأول ، وهو دون جارسيا أوناث دى ليولا ابن أخى القديس أجناسيوس ليولا مؤسس اليسوعيين. وأخذت ابنتهما دونيا لورنثا أنا ماريادى ليولا كويا إلى إسبانيا بأمر من الملك ، وهناك تزوجت من دون خوان انريكيث دى بورخا ابن القديس فرانسس أوف بورخا ، وحملت فى سنة ١٦١٦ لقب ماركيزة أوروبيسا. ،ثم تزوج ابن وابنة لها فى أسرة أدياكيث ، نبلاء جرانادا ، وينتمى إليهم القديس فرانسسكو خافييه . وهكذا امتزج دم الإنكا بدم القديسين. فلنبتهل إلى الله أن يكونوا جميعا على الأرائك متكئين فى جنات النعيم » .

وعلى الرغم من أن آلاف الأطفال المولدين انطلقوا دون ضابط فى المدن الجديدة فى الهند الغربية بذلك القدر المحدود من الرعاية والرقابة الذى سمحت به لهم أمهاتهم اللينات ، فإن كثيراً من الإسبانيين قد حسبوا حسابا لأبنائهم الذين أنجبوهم عرضا، وأحيانا فى بيوتهم ومع أبنائهم الشرعيين . ومن الرجال الذين تقبلوا مسئولية نتائج عبثهم شخص اسمه دييجو دى أوكانا. ومن ضمن ما نص عليه من بضع الرغبات التى تضمنتها وصيته دون الفقرة الآتية :

« أقول إنى ذات مرة كانت لى اتصالات بأنطونيا المذكورة، التى أنجبت طفلا اسمه ألوسبكو . غير أن الرقابة عليها كانت ضعيفة ، ذلك لأنها كانت كذلك على علاقة بهندى يعمل فى منزلى . ومع ذلك فبالحكم على لون الطفل يعلن كل الناس أنه يبدو ابنا لمسيحى . فهو يبدو لى هكذا ، فلربما يكون ابنى، ولأنه فى حالة الشك يكون من الأفضل أن أعترف به من أن أتجاهله، فإنى آمر أبنائى أن يقوموا بتربيته وأن يتعهدوه بالتعليم ، ويفعلوا شيئا لخير مستقبله ، لأنى أعتقد أنه واحد من أبنائى وليس ابنا لهندى » .

ومن هؤلاء الذين حوصروا فى دنيا الظلال بين الجنسين ، ممتهنين من هذا وذاك ، نزع من زادت عنده الحساسية أو العنف منهم إلى أن يصبح « مجرما حدثا » . ولكى يعطى هؤلاء الأولاد المنبوذون أمانا فى المجتمع أنشأ نائب الملك الطيب القلب مندوثا مدرسة الأيتام فى سان خوان لتران فى مدينة المكسيك . أما فى باراجواى فإن المولدين الذين أنجبهم الفاتحون سواء اعترف بهم آباؤهم أم لم يعترفوا فقد انتهى الأمر بهم إلى أن تسلموا المستعمرة باسمهم ، ولحسن حظ إسبانيا ، باسم الملك .

وربما كانت الحالة فى تشيلى مماثلة إلى حد ما للحالة التى سادت بصفة عامة فى المستعمرات الإسبانية فى أثناء فترة الفتح . فقد كان هناك نفس النزوع إلى الفوضى الغرامية وتنوع الاتصالات الرفائية . ولم تكن ظروف الحياة المضطربة فى تشيلى تؤدى فى ذلك الوقت إلى مراعاة القواعد والعادات التى نظمت وثبتت العلاقات بين الرجال والنساء فى إسبانيا . وحتى ربات المنازل الرزينات والمحترمات فى مجتمع تشيلى المبكر يبدو أنهن كن أحيانا ينغمسن فى مسائل الحب « مما نتج عنه خلق نسل مسيحى جديد فى المستعمرة » . وحدث فى تلك الأثناء أن تمت اللقاءات من وقت مبكر بين الفاتحين والنساء الهنديات فى الأماكن المحيطة. وقلما كانت هناك عاطفة تكتنف هذه الأمور الاتفاقية وسريعة الزوال من كلا الجانبين . ومع ذلك فكم من مرة كانت

هذه اللقاءات منجبة لأطفال مولدين . وكثيراً ما كان الإسبانيون يكونون علاقات طويلة الأمد مع المولدات اللائى كن يصبحن فاتحات السحنة شيئا فشيئا ، جيلا بعد جيل ، وبصفة عامة ، أكثر جاذبية .

وأنجب الآباء المائة والخمسون الذين أسسوا تشيلى عدداً مجموعه ٢٢٦ طفلا مولدا « اعترفوا ببنوتهم » . وادعى فرانسسكو أجيرى المفرط بنوة خمسين منهم بأنهم ذريته هو ، مما يقلل كثيراً النسبة العددية لكل فرد من رفقائه . ووفقا لرواية ثاير أوخيدو يرجح أن كل إسبانى كان مسئولا عن طفل مولد فى المتوسط فى كل عام . وينتج عن هذا المعدل مجموع كلى يصل إلى ٢٠٫٢٨٤ بحلول سنة ١٥٦٥ ، وفيها وصل عدد الإسبانيين الذين استقروا فى تشيلى إلى ١٥٢٣ إسبانيا . وكتب كريستوبال دى مولينا فى تلك السنة يقول : إن المولدين كانوا متوافرين فى سانتياجو ، وكان هناك من اثنين إلى ثمانية منهم فى كل منزل فى المدينة .

ومن المائة والخمسين الأصليين تزوج ردريجودى أرايا فى تشيلى مجدلينا فيرنانديت ، وهى امرأة إسبانية ، وأنجب منها ابنة ، كما أنجب ابنا مولدا . وكان لسانتياجودى أثوكا خمسة أطفال شرعيين وأربعة أطفال مولدين . وتزوج بدروبونال من باربولافلورس وهى ابنة من البنات المولدات اللائى انجبهن بلومنثال الألمانى . وكان لبدرو دى ستر ناس عشرة أطفال شرعيين ومولد واحد . أما ألونسو دى كوردوبا فكان له ابنان من زوجته الإسبانية ، بالإضافة إلى ثلاثة أطفال من نساء هنديات ، وطفل مولد من زنجية . وتزوج خوان دافالوس جوفرى من كاتالينا دى ميو ، وهى مولدة من زنجية ، وربما كانت برتغالية وكان لها ابنة « كوادرون » . كما تزوج جارسى دياث دى كاسترو ، وهو شريف أندلسى ، وكان قدم فى اول الأمر إلى تشيلى مع ألماجرو ، من باربولا دياث لاكوبا ، وهى أميرة من الإنكا فى بيرو ، وكان لها أربعة أبناء يجرى فى عروقهم الدم الملكى . وتزوج خوان جاييجودى روبياس وهو على

سرير الموت امرأة هندية لكى يصير ابنهما شرعيا . وتزوج جيرالدو جل ، وهو خياط أندلسى من خوانا دى لشكانو ، وهى أمة مغربية معتوقة قد وصم وجهها من قبل وأنجبا طفلين ، وكان له هو ابنان آخران من نساء هنديات. وتزوج جارسى هيرنانديث من ابنة مولدة لدييجو جارسيا دى كاسيريس أحد رفقائه ، وأنجبت منه عشرة أطفال . وتزوج خوان خوفرى وهو واحد من زعماء المستعمرة من كنستانثا دى مينيسيس ابنة فرانسسكو دى أجيرى ، والتى جاءت مع أمها مع إسبانيا . ونتج عن هذا الزواج تسعة أطفال . وكان لخوفرى طفلان أكبر سنا من نساء هنديات . أما بدرو دى ليون ، وهو واحد من الإخوة الأندلسيين فى قوة فالدفيا ، فقد تزوج من ماريا مونيوث فى إسبانيا ، وأنجب منها ابنتين . وعندما بلغ سن المتر تزوج من هندية موشومة الوجه ، وبعد ذلك مسه طائف من الجنون ، وعاش إلى ما بعد المائة . وكان لجابرييل دى سالاثار سبعة أطفال من هنديات . كما تزوج دييجو سانشيش من دونيا اينيس دى ليون إى كارباخال ، وأنجب ستة أطفال من زواجه وثلاثة من خارجه . أما لويس دى توليدو من أشبيلية فقد تزوج من ايزابل ميخيا ، وهى مولدة من هندية ، وقد كونت له أسرة ثمانية عشر أو عشرين طفلا . وكان لفرانسسكو دى فياجرا ، وهو من الحكام الأوائل ، ابنة واحدة من زوجته الإسبانية كانديدا ديا مونتيسا . وكان ثلاثة له آخرون من امرأة إسبانية أخرى ، وواحد من امرأة هندية .

المرأة الاسبانية فى فترة الاستعمار

اتخذ مجتمع أمريكا اللاتينية فى خلال الفترة الاستعمارية الشكل الذى احتفظ به حتى بعد عصر الجمهوريات بوقت طويل. ثم جاءت مؤثرات جديدة لتعدل من تركيبه ومستوياته ، وتغيرت بعض العادات المتأصلة حينما فتح المجتمع أبوابه لتأثيرات القوى الاجتماعية الجديدة والغربية . وكان هذا امراً واقعاً بصفة خاصة فى المدن الساحلية الكبرى مثل بوينس أيريس وهافانا وريودى جانيرو ، حيث بدأت العادات تتطور شيئا فشيئا فى مجرى

بعيد عن طريق الحياة الذى كان لا يزال سائداً فى الأراضى الخلفية . ومن ثم التباعد النائى بين العاصمة والولايات، كما فى أرجنتينا و «التخلف الثقافى» المتزايد الذى علق عليه سارمينتو فى كتابه «المدنية والبربرية(*)» . وفى هذه الأثناء ظلت الأساليب القديمة باقية ، وازداد بقاؤها رسوخا فى الأماكن المزورة عن الطريق المطروق — مثل ميريدا فى فنزويلا ، وكوينكا وخاين فى أكوادور ، ومويوبمبا فى بيرو ، وسوكرى فى بوليفيا ، وباستوفى كولومبيا ، وكويابا فى البرازيل . فهذه المجتمعات ، لمجرد عزلتها ، كانت محصنة ضد البدع التى هددت سلامة النظام القديم .

وبحلول منتصف القرن السادس عشر انتهت مغامرة الفتح الكبيرة . وإذا استثنينا الجهات الواقعة على طول حواف الحدود الجديدة ، حيث كانت أطراف البلاد لا تزال مضطربة ولم تخلد إلى السلم الذى حل بها كما فى أروكو والكاريب المتوحشين وأراضى الشيشمك . وفى معسكرات التعدين مثل توسى ، أو على السواحل التى يجتاحها القراصنة ، فقد كانت هناك نهاية للهياج والعنف . فقد جاء الوقت حينذاك للحياة المستقرة ، والتودد إلى امرأة يختارها الرجل بدلا من الإمساك بامرأة سهلة المنال ثم ينساها سريعا ، ولتكوين أسرة تحمل اسمه بعد مماته ، وادخار ما يكفى المستقبل ، ولمجرد الجلوس والتحدث إلى الأصدقاء والتمتع بالمسرات الهادئة وما يرضى النفوس . فإذا أخرجنا من حسابنا الهنود والزنوج الذين كانوا ينتشرون هنا وهناك ، وكذلك الاختلافات فى البيئة الطبيعية ، فلربما تخيلنا أننا فى مدينة ما من المدن الإسبانية .

ولم يكن العصر عصرا بطوليا . ولكن الوقت قد حان لتهدئة أعصاب ازداد توترها وللمهمة العادية لبناء مجتمع جديد . وكان مجرى الحياة العادى

« Civilisation and Barbarism » (*).

يتوقف فى الفترات المنتظمة التى كانت تقام فيها الحفلات العائلية وأعياد الكنيسة ، ويوميا بنظام طقسى مزدوج : القيلولة التى زادت من الإبطاء فى سير الحياة والاستعراض حول الميدان فى الغسق . وهكذا كانت حال الحديقة المتوسطة فى عصر الاستعمار . أما فى العواصم الكبيرة مثل ليما ومدينة المكسيك ، فقد كان هناك تنوع أكثر ، وفرصة لاختيار أنواع النشاط وأحيانا كان هناك ثقل وقلق فى المدن الوخمة . وقد أديا إلى الضغائن بين الأسر ، وإلى القضايا القانونية التى تمتد آماداً طوالا ، والتى كانت تساعد على تفريج سأم المعيشة ، وإلى دسائس الحب والهروب التى كانت تتحدى تقاليد المجتمع الصارمة .

أما أولئك الذين كانوا يشعرون بالتضييق الشديد ، أو بدافع قوى للحنين إلى العهد الماضى ، ففروا إلى الحدود بعيدين عن متناول الأسقف أو حاكم المدينة ، وهنالك كان فى مقدور الرجل أن يفعل ما يريد ، إذا رغب فى دفع الثمن ، لأنهم إذا بقوا فى بيوتهم فلربما انقلبوا سفاحين (*) أو مشاغبين فى المدن ، وبذلك يصبحون مصدر تهديد للقانون والنظام فى مجتمع مهذب . وأحيانا كان الناس الذين لديهم وقت فراغ زائد ، وكثرت زياراتهم لجيرانهم ، ينزعون إلى التعبير عن يأسهم بالحسد والغل — الحيتين التوأمتين فى حديقة الفردية الإسبانية .

وفى القرون الحادثة التى تلت لجب وصخب الفتح بدأ بزوغ حضارة جديدة . أما العناصر التى كونت هذه الحضارة فهى ما أحضره الإسبانيون والبرتغاليون معهم ، وما أضافه الهنود والزنوج إليها على طريقتهم الخاصة . وفى أوقات بدا كما لو ان مجهوداً ضئيلا قد بذل فى العملية . فقد كان الإناء يغلى ، لأنه كان على الموقد الكبير ، وبدا الناس كأنهم فى تخوف من تحريك

(*) Bravos

النار أكثر من اللازم، وكانوا يأملون أن ما سوف يأخذونه منهم مفيد — وأن مذاق الطهو سوف يكون إسبانيا أكثر منه هنديا .

وكان الفتح من عمل الرجال ، ولكن عندما انتهى كان قد حل بالرجال التعب مما بذلوا من مجهود ، كما حدث لإسبانيا نفسها . ومع ذلك فلا بد من أنهم وجدوا من الصعب عليهم أن يتراخوا وعقولهم مفعمة بالذكريات ، لدرجة أن كثيرين منهم كانوا يمشون الليل خطوة فخطوة من الأرق ، كما فعل العجوز برنال دياث فى جواتيمالا . أما الأجيال الجديدة التى جاءت بعدهم فقد كانوا لا يريدون سوى الإبقاء على ما كسبه لهم أجدادهم من قبل . ولقد كان هناك من مجد الأسرة ما يكفى لفترة طويلة ، ومن الأرض وما تغله ما يكفى لكل شخص . ولذلك فقد تراخوا وأخذوا الأمور بلا مبالاة . وكثيرون منهم دخلوا الأديرة عندما كان هناك عمل زائد فى حاجة إلى إنجاز فى الخارج .

ولكن النساء لم يكللن ، وتسببت بلادة رجالهن فى وجود فراغ مضين فيه ، لا يقف فى سبيلهن عائق ، وبكيفية فعالة ، باذلات كل مدخرات نشاطهن وولائهن . فلقد كان هذا هو وقتهن رغم أنهن لم يخبرن أحداً بهذا ، على الأقل رجالهن ، وأفدن منه أكثر ما أمكنهن . فلقد كانت المؤسستان الكبيرتان فى المجتمع الجديد — الأسرة والكنيسة — مؤسستهن فواحدة كانت ، بمعنى واقعى جدا ، من صنعهن ، وكن يغذينها ويرعينها بمجرد إنشائها ، وعاشت الأخرى بتعضيدهن ومعونتهن . وبينما كانت النساء ظاهريا سلبيات ، ويمتثلن لاحترام التقليد الإسبانى الذى يقرر سيطرة الرجل ، فقد بقين المحافظات والقوة الموحدة فى المجتمع الاستعمارى وفى هذه الأثناء كان الرجال أحرارا فى التجوال بالمعنى الفيزيقى والروحى معاً . فبينما كانوا فى ضلالهم يتيهون ظلت الأسرة — ومصالحهم فيها — آمنة فى أيد قديرة .

وتبلورت العادات الاجتماعية خلال هذه القرون بين الفتح والاستغلال ، وأحيانا كانوا يبقون على العادات التي جيء بها من أوروبا كما هي غالبا إذ هي خدمت أهداف المجتمعات الجديدة . وقد غير المناخ بعض العادات القديمة ، وكذلك فعلت عزلة الجماعات التي جعلتها متأصلة في كثير من الأحيان . ولكن وجود العبيد من الهنود والزنوج ومسألة الجنس عموما ، ربما أثر ، أكثر من أي شيء آخر في تعديل أنماط المعيشة المستوردة من شبه الجزيرة ولقد كان هناك في إسبانيا خطوط فاصلة بين الطبقات ، ولكن الجميع — سواء الطبقة السفلى (*) والعليا (**) — كانوا إسبانيين ، ويحترم بعضهم بعضاً كرجال . أما في العالم الجديد فقد كانت الحال مختلفة جدا . فقد كان هناك عبيد ينتمون إلى جنس ولون آخرين ليخدموهم . كما كان هناك عدد غفير من سلالات مختلفة ، وتفاوت ودرجات مختلفة من التهجين على مستوى اجتماعي واقتصادي أدنى . وكانت الحدود بين الفئات الجنسية المتباينة تنزع إلى أن تكون أكثر وضوحا منها بين الطبقات في إسبانيا ، لأنها كانت مبينة باختلافات جسمية . فأصحاب البشرة البيضاء لهم مكانهم المنفصل ، وكانوا يعلون على أصحاب البشرة الملونة . غير أن الأطفال الذين ولدوا في إسبانيا كانوا أعلى درجة من الذين ولدوا في العالم الجديد . فهم وحدهم كانوا يرشحون لشغل المناصب الرفيعة في الخدمة الإمبراطورية ، كما احتفظ لهم بمزايا أخرى .

وهكذا أصبح الخلاسيون (***) فئة فاشلة . فقد كان اجدادهم رجالا عظماء في البلاد ، وبمغامراتهم أعطوا لإسبانيا هذه البلاد . والآن هم كالطواشي السياسيين ، ليس لديهم أمل أن يصبح أحدهم حاكم مدينة ، أو قاضيا ، او حاكم إقليم ، أو نائب ملك . ولم يكن هنالك مخرج مناسب لطموحهم

(*) arriera

(**) grandee

(***) Creoles الأوروبيون الذين يولدون في العالم الجديد أو أفريقيا .

للنبوغ أو النفوذ ، ولا مجال ملائم للممارسة التامة لفرديتهم الإسبانية .
ولذلك فقد حولوا نشاطهم إلى طرق غير جديرة بهم ، أو أصبحوا بلداء
تافهين . وفى كلتا الحالتين كان النساء يقاسين لفشل رجالهن ، ولأن الحياة
فى المستعمرات كانت لا تتطلب منهن أن يظهرن أحسن ما بهن من فضائل
فى أغلب الأحيان . ولذلك فواجباتهن فى لم شمل الأسرة والبيت معا أصبحت
أصعب . فأحيانا كان الرجال يخرجون هائمين فى مغامرات لإحياء ذواتهم
المتدهورة ، ويتهربون من مسئولياتهم المنزلية التى شاركوا فى بنائها .

وكان لدى الناس هذه الأشياء المادية أكثر مما كان لديهم فى إسبانيا ،
فقد كان العالم الجديد عالما واقعا على الحدود ، حيث يمكن الحصول على الكثير
إذا أراد المرء أن يأخذ ، وهناك آخرون يعملون ما يلزم عمله . وكان هناك
طعام أكثر للأكل ، وأرض أكثر للتملك ، وكثرة من كل شىء تقريبا
سوى الحرية والميزة السياسية . ومن هذا الجود الجديد أصبح الناس أكثر
تحررا وبسطة يد ، فقد أصبح فى وسعهم ألا يعبأوا بالمال حيث توافرت
الموارد الطبيعية .

وفى هذه السنوات تبلورت أساليب المعيشة اليومية البسيطة . ولنضرب
لذلك مثلا النوم فى أرجوحة (*) فى البلاد الحارة . وكان اللفظ نفسه
أراواك ، وتعلم الإسبانيون استخدام السرر الموضونة ، ففى الليالى الحارة
كان الهواء يسرى حولهم . وأحيانا كان تلاقى الجهات المدارية والأراجيح
والخدم يجعل المرأة الأوربية متراخية ، ولتعودهن العربى تناول الحلوى
كن ينزعن إلى البدانة . كتب خوان وايووا عن نساء كارتاخينا : إن « كل
أعمالهن التى يمارسنها فى البيوت هى الاضطجاع فى الأراجيح يطوحن
أجسامهن طلبا للنسيم ، وفى هذه يمضين معظم ساعات اليوم » . وفى بيت

(*) hammock

من بيوت جواياكيل - وهى الأخرى مدينة حارة - وجد الكابتن هول ثلاثة أجيال من النساء فى أراجيح تتدلى من سقف ارتفاعه عشرون قدما. قال: «إن المجموعة كلها كن يتطوحن بعيدا وبسرعة هائجة لدرجة أننا ارتبكنا، ودارت رءوسنا بحركات الأراجيح فى اتجاهات مختلفة».

وكذلك عادة القيلولة بعد أكلة الظهر، وهى عادة حسنة انتشرت فيما وراء حدود الأقاليم الحارة. والقيلولة خضوع للمناخ، وهى بتقسيمها اليوم إلى أربعة أقسام بدلا من قسمين، توزع توتر الأعصاب وتعب ساعات العمل على فترة أطول، وبهذا تخفف من عبئها. كتب مسيو ديبون الذى كان فى فنزويلا فى السنوات الأولى من القرن الماضى: «ليس هناك عادة تأصلت جذورها فى أحوال الإسبانيين أكثر من عادة القيلولة التى يمارسونها بعد الغداء. وليس هناك إسبانى واحد فى المستعمرات الإسبانية ليس من عادته أن يخصص ساعتين أو ثلاثا أو أحيانا أربع ساعات من وقته يوميا لينام، سواء أكانت الوجبة ثقيلة أم خفيفة». ولاحظ أن الأجانب بصفة عامة يحاولون جاهدين أن يظلوا يقظين حين ينام باقى السكان، وينتهى الأمر بأنهم يمارسون هذه العادة بحماسة، كما فعل الكابتن هول وهو فى طريقه بين سان بلاس وتيبك.

ومن بين الانغماسات كان التدخين أكثر انتشارا بين النساء فى عصر الاستعمار مما هو فى الوقت الحاضر. وكن يدخن السيجار الصغير، وهى عادة اقتبسنها من الخدم الزنوج فى المنازل. وقد أدى نزوع النساء شيئا فشيئا إلى رقة أكثر فى سلوكهن واستهجان الأجانب لهذه العادة إلى الإقلاع عن تدخين السيجار، إلا فى باراجواى، حيث لا يزال تدخينه شائعاً بين النساء. أما نساء بيرو من جميع الطبقات فقد تعودن أن يحملن معهن لفافة من طباق مضغوط يحككن به أسنانهن لتنظيفها. وأما نساء الطبقة الدنيا اللائى، كما يقول خوان وايوا «يعدن عادة عن أحسن الأشياء»،

فيحتفظن بحشوة من الطباق فى أفواههن ، ويتظاهرن بتمييز أنفسهن كلما كبر حجمها » . وكانت نساء الطبقة الراقية فى عهد الاستعمار قد انسقن إلى المقامرة خصوصا فى إسبانيا الجديدة . وجاء وقت وصلت فيه هذه الرذيلة فى مدينة المكسيك إلى حد جعل الملك يأمر سلطات نائب الملك لاتخاذ الإجراءات الصارمة لمنع هذه العادة . قال توماس جيدج الراهب الانجليزى : « كانت المقامرة شائعة بينهن لدرجة أنهن كن يدعين الرجال الفضلاء إلى منازلهن لا لغرض آخر غيرها » . وقد حدث فعلا أن سيدة « عريقة المحتد » حيث جيدج وراهبا آخر من شبا كيا واستدعتهما للدخول لجولة من المقامرة .

الليماوية(*)

وبمرور الوقت ، زادت الاختلافات فى نمط حياة المرأة ومركزها فى المجتمع . وربما كان أوضح الأنماط المحلية تطوراً امرأة ليما . ولما كانت المرأة الليماوية قدنالت إعجاب واهتمام المراقبين الأجانب الذين زاروا بيرو فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن الماضى ، فهناك مؤلفات ضخمة كتبت عنها . ومن سوء الحظ كانت الأزياء المتغيرة والضغط الذى تستلزمه وحدة الزى مسئولة عن قبول هذا الشكل الفريد الخبيث الذى اتخذ نهائيا طريق الإنكا والجوشو فى أرجنتينا . وفى ترويجها عن نفسها أعطت مسحة خاصة وأندلسية صميمة لعاصمة الملك ، وكانت ليما ملاذاً لمصيرها النهائى .

وكان سر جاذبيتها وسطوتها يكمن فى ملبسها العجيب الذى عاشت فيه كما لو كانت خلف قناع . فنى بعض صفاته يبدو واضحا أنه أخذ عن العرب ، فقد صمم ليحمى نساءهم من أعين الرجال . أما بالنسبة إلى الليماوية فقد

(*) Limena

أدى غرضا مضادا تماماً ؛ فقد أصبح ستارا لتدللها ولباس تخف لتلاعبها لا ينفذ فيه البصر . واللغة التى يمثلها ثياب النساء لغة أجنبية بالنسبة إلى الرجال ، ولكن من الذين حاولوا وصف ثوب التنكر المغرى الذى تلبسه « المرأة المقنعة » (*) ربما كان أكثرهم تفصيلا هوالكابتن بازل هول من رجال البحرية الملكية ، وقد قضى بضع سنوات على الساحل الغربى فى أواخر عهد الاستعمار . كتب يقول : « فى الجو المعتدل ولمدة ساعة ونصف ساعة تقريبا قبل الغروب ، تخرج النساء ويمشين وهن لابسات ثياباً ، فى رأيى منقطعة النظير ، وفى الحقيقة أنها خاصة إلى درجة فائقة بهذا المكان وتتكون هذه الثياب من قطعتين : السايا والمانتو . والأولى عبارة عن « تنورة » حيكت بحيث تلائم الجسم ، مشدودة ، لكنها مطاطة تماما فى نفس الوقت ، فإن شكل العضلات يصبح مرئيا بوضوح . أما المانتو أو العباءة فهى أيضا « تنورة » ، ولكن بدلا من أن تتدلى فوق الكعبين ، كما يجب أن تكون عليه كل العباءات المستقيمة ، تسحب إلى مافوق الرأس والصدر والوجه ، ويمسك الطرفان مضمومين جدا باليدين اللتين تخفيهما كذلك ، فلا يكشف من أجزاء الجسم سوى عين واحدة ، وأحيانا جزء صغير من عين واحدة . وكثيراً ما يعلق من حول الوسط إلى الأمام منديل حريرى ملون أو رباط حريرى ورساعة (**) . يتدلى تقريبا إلى الأرض . وكثيرا ما يربط إلى الحزام أيضا مسبحة مكونة من حبوب الأبنوس بصليب صغير من الذهب . وفى أحيان قليلة تعلق على جانب واحد ، ولو أنها عادة تتدلى من الرقبة » .

ولم يبذل ماكس راديجويه الفرنسى مجهوداً فى تحليل « السايا والمانتو » ، ولكنه انطلق فى نشوة يصف إيحاءاتهما . واهتم بعض الأجانب بلياقة هذا

(*) Tapada
(**) شرابة الزركشة .

« الأنسامبل » الذى ، كما يقول و.ب. ستيفنسن . « يلتصق تماما بالجسم ، ويظهر شكله إلى أقصى ميزة ممكنة » . وقال خورجى خوان وأنطونيو دى ايوو ا الضابطان البحريان الإسبانيان : « إن ثيابهن مختلفة جدا عن الثياب الأوروبية ويمكن تلمس العذر فى ذلك فى عادة البلاد وحدها ، حقيقة أنها تبدو شائنة للغاية للإسبانيين عند قدومهم لأول مرة » . وبعد أن علق الكابتن هول على « سماجتها فى نظر الأوروبى » انتقد المسافرين الذين يحكمون على العادات الغريبة بمستويات أوطانهم ، وأضاف : « وبالنسبة إليها ، ونحن ممن يأخذون جميع الأشياء كما يرونها ، فإن « السايا والمانتو » قد جلبا لنا تسلية كبيرة ، وأحيانا إزعاجا غير قليل » ؛ ذلك لأن النساء المقنعات كن يمارسن العادة المحرجة فى مبادرة الأجانب الذين كانوا فى ليما بعض الوقت ويذكرنهم بأشياء ربما فضلوا نسيانها . وكذلك كن يبهجن فى إحراج أزواجهن وعشاقهن ومنافساتهن والمتمتعين بالفخفخة والسلطة والتظاهر — أى جميع من كانوا عرضة للوقوع فى شراكهن ودعاباتهن . ومع إغفال أسمائهن وغموضهن صيرن ليما فى ثورة « كرنفالية » من جراء دعاباتهن الماجنة . فقد تغرى واحدة منهن زوجها إلى مغازلتها . وعندما يرتبط معها بوعد لقاء فقد تنزع « المانتو » من فوق وجهها كتوبيخ أخير على نزقه . وأحيانا كن ينطلقن غير مدعوات إلى حفلات خاصة فينعشن الجو بحضورهن المرح والوقح ، أو ينظرن من خلال النوافذ ويعلقن على الضيوف وزهوهم ونقائصهم . ولم تكن هناك حصانة من قلة حيائهن وفضولهن . وعلى أية حال ، ربما كانت هناك امرأة عظيمة متخفية فى قناعها . ولكن لما كانت النساء من شتى الطبقات قد انغمسن فى هذه العادة فربما كانت أكثر المبادىء ديمقراطية فى المدينة المتفاخرة . واتخذ نائب الملك إماء من بين مقنعات عصره عشيقة له ميكائيلا فييجاس ، واسمها الأشهر لابيريشولى ، وهى ممثلة مشهورة على على مسرح ليما وجعلها أشهر امرأة فى بيرو فى القرن الثامن عشر . غير أن

جميع الرجال لم يستطيعوا أن يكونوا نواب ملك ، بل كان رجال ليما محل السخرية الأول لهروب نسائهم . ولذلك كان هناك مثل شائع يقول: إن ليما كانت جنة للنساء ، ومطهرا للرجال ، وجحيما للحمير . وقال خوان وأيوا إن الليماويات كن مغرورات ومتغطرسات إلى درجة أنهن « قلما يخضعن لمشيئة أزواجهن . ومع ذلك فبحذقهن وبامتثالهن بالتلميح يكسبن التفوق عليهم كما لو تركن لفطنتهن ... ، وبالنسبة إلى الاستقلال الذى يتظاهرن به فليس أكثر من عادة متأصلة من زمن بعيد فى البلاد » .

وعلى الرغم من الحريات التى نالتها الليماويات لأنفسهن علانية فقد كانت هناك على الأرجح خلاعة أكثر قليلا فى ليما عنها فى أية عاصمة من عواصم المستعمرات الأخرى ، ولو أن الجو الجنسى كان بالضرورة مفعما إلى درجة أكبر منها فى مدن هادئة من كوردوبا ومدن الأنديز . وكان المراقبون المعاصرون ينزعون إلى نقد الليماويات على إسرافهن أكثر من نقدهن على أى نوع من الخلاعة . لأن اللائى استطعن — وبعض من لم يستطعن منهن — كن ينزعن إلى إنفاق مبالغ طائلة على الملبس والجوهرات والروائح الأجنبية التى قد تضيف إلى تجميل أشخاصهن الجميلة أصـلا . ونستشهد بالكابتن فريزييه ، المهندس الفرنسى ، الذى كان فى الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية بين سنة ١٧١٢ وسنة ١٧١٤ . فقد أبدى ملاحظات لاذعة على تبذير الليماويات . فبالإضافة إلى ما ينفقنه على « أغلى الحرائر » و« كمية الدانتل الهائلة » . فقد كن « لا يشبعن من ناحية اللآلىء والجوهرات للأساور ، والمتدليات وحلى أخرى » ، وكل ذلك على حساب تقويض « الأزواج وذوى الشهامة من الرجال » . وقال : لقد « رأينا سيدات عليهن ما يساوى ٦٠,٠٠٠ قطعة من ذات الثمانية من الجوهرات (*) ، وأضاف : « إنهن

(*) ، Pieces of Eight ريال إسبانى = ٨ ريالات .

بصفة عامة جميلات بدرجة كافية ، ولهن طلعة بهية وفتنة يتفوقن بها على سائر النساء فى البلاد الأخرى » . وهو يعد الليماويات رشيقات القوام بعيون وضاءة و « حديثهن جذاب » . وهن يرضين « بالشهامة المنطلقة » من جانب الرجال الذين يردون عليهم بإجابات مازحة ، وأحيانا بإجابات بعيدة عن الموضوع . وعندما كان الرجال يتقدمون « بعروض فاضحة » إليهن علنا كن يشكرنهم على إطرائهم جاذبيتهن ثم يذهبن لقضاء مهامهن . وكانت المرأة الليماوية تخور بقدميها الصغيرتين وأحيانا تصرف ثروة صغيرة ما بين صانع الأحذية وصانع الجوهرات لتزينهما . وذكر الفرنسى أيضا وجود ملجأ للنساء المطلقات أسسه أسقف سابق . وقال إن شاغلاته طلقن « لشكاوى من سوء التفاهم أو نقص فى الصحة أو التراضى . ومن عجب أكثر أنهن يتزوجن بآخرين فى وقت لاحق » .

ووعلى الرغم من أن مدينة جواياكيل من أقل المدن جاذبية فى أمريكا الجنوبية فقد اشتهرت من وقت طويل بجمال وسحر نسائها . ولقد أطرى بحاران إنجليزيان نساء جواياكيل روى أحدهما ، وهو الكابتن بازل هول ، عنهن قال : « إنهن كن إلى حد فائق أكثر من قابلناهم فى أمريكا الجنوبية مرحا وخفة روح ، بجانب كونهن أملح النساء وأرشقهن وأكثرهن وسامة . أما الكابتن وودس روجرز ، الذى عمل فى السفن التجارية التابعة للأسطول فى المحيط الهادى منذ من قرن من قبل ، فقد كتب عما كان يعمله البحارة فى جواياكيل . كتب يقول : « كانت المنازل حول المجرى الأعلى للنهر غاصة بالنساء . وفى مكان معين بالذات كان هناك أكثر من اثنتى عشرة شابة وسيمة ظريفة حسنة الهندام وهناك حصل رجالنا على بضع سلاسل واقراط ذهبية ، وفيما عدا ذلك كانوا يسلكون مسلكا مهذبا نحوهن لدرجة أنهن عرضن عليهم تهيئة الطعام وأحضرن لهم برميلا من الخمر . وكانت بعض سلاسلهن الذهبية الكبرى مختفية وملفوفة حول خصورهن وأرجلهن وأفخاذهن الخ

ولكن لما كانت السيدات فى هذه البلاد الحارة يلبسن الملابس الحريرية والتيلية الرقيقة ، وكان شعرهن مربوطا بالشرائط بأناقة ، فإن رجالنا كانوا يحسون بالسلاسل عند الضغط الخ يشيرون بأيديهم وبواسطة ترجمانهم يطلبون بأدب من السيدات خلع سلاسلهن وتسليمها . إنى أذكر هذا دليلا على عفة بحارينا واحتراما للمستر كونلى والمرحوم المستر سلكيرك حاكم خوان فرناندوس الذى كان يقود الجماعة . فلأنهم شباب كنت أرغب فى أن أنصفهم وآمل أن يرد الجنس اللطيف لهم المعروف عندما نصل إلى بريطانيا بسبب سلوكهم المؤدب نحو هؤلاء المسجونات الفاتنات اللائى قصدوا منزلهن للتموين عند عودتهم نحو مصب النهر . ولكونهم غاية فى الدماثة فى المرة الأولى فإنهم لم يقلقوا صاحبات المنزل الجميلات ، ولم يفاجئوهن عند الزيارة الثانية » . ويقابل الكابتن روجرز بوازع عدل من نفسه تحفظ بحارته الخجولين بمسلك « القراصنة الفرنسيين ، أو بالأصح لصوص البحار » .

وعلى الرغم من أن مدينة المكسيك لم تطور مطلقاً نمطاً مميزاً من المرأة كما فعلت ليما ، فإن الحياة الاجتماعية فى عاصمة إقليم نائب الملك الشمالى لم تنقصها النساء غير العاديات . فمثلا كان هناك دونيا ماريا دى مندوثا العجوز ، وهى حماة نائب الملك لويس دى فيلاسكو التى حاولت أن تدير شئون منزل نائب الملك والحكومة فى المكسيك ، والتى لم تكف عن الكلام حتى جاء يوم وهوى نائب الملك ، الذى قاسى طويلا ، عليها بشمعدان فضية . وكذلك كانت كثيرات من زوجات نواب الملك(*) نساء مهمات بحقهن الذاتى ، مثل دونيا بلانكا دى فيلاسكو ماركيزة فيا ماريكى . وفى ذات مرة أقام رئيس دير خوشيملكو ، فراى بدرو دى سان سباستيان ،

(*) virreinas

عيداً لبوكاشيو(*) استمر أكثر من أسبوعين . وقد أسرف الناس فى الشرب وإقامة المآدب والولائم والأفراح وغير ذلك من مظاهر العيد . وكانت زوجة نائب الملك وراهب من الرهبان يقذفان بعضهما بعضا بالبرتقال من القوارب السابحة فى القناة ، ثم قذف جميع المحتفلين بعضهم بعضا بمطر(**) الذرة إلى أن أصيب فارس من الفرسان فى أنفه ، وبدأ آخرون ينكفئون فى الماء . وبعد قرنين من هذا التاريخ كانت ملكة جمال مدينة المكسيك « لاجوئيرا » (ردريجيث) ، وهى سليلة أسر عريقة وممتازة فى العاصمة . وبعد مداعبات مع بعض شباب من ضباط فرقة المشاة أمرت « لاجوئيرا » وأختها أن تتزوجا بأمر نائب الملك السيء السمعة : ريفياجيجدو العظيم . وكان هذا فى سنة ١٧٩٤ . فتزوجت « لاجوئيرا » من خوسيه خيرونيمو لوبيث دى بيرالتا دى فيار فياميل ، وعاشت بعد موت زوجين آخرين حتى ماتت فى سنة ١٨٥١ . وأنجبت ثلاث بنات جميلات تزوجن زيجات موفقة . ويعتقد أنها المرأة الوحيدة التى كان ألكسندر فون همبولدت يتوقف من أجلها فقط عن متابعة بحوثه العلمية . وعندما تسلمت مدام كالدرون دى لا باركا — الزوجة الأمريكية لأول وزير مفوض إسبانى لجمهورية المكسيك — دعوة من « لاجوئيرا » وجدتها لا تزال محتفظة بجمالها وجاذبيتها .

خمس من نساء المستعمرات

المرأة الإسبانية فى عهد الاستعمار ، التى انحرفت إلى أبعد ما يمكن عن المثل الأعلى لبنات جنسها ، اختارت ، دون سائر الأشياء ، أن تكون جنديا ، واسمها كاتالينا دى اروسو ، ولكن اسمها الأشهر فى التاريخ

(*) الشاعر الإيطالى المشهور مؤلف « Decameron » — القرن الرابع عشر .
(**) جم مطر : « الكون » .

والقصص « الراهبة إنسين » . ولدت فى سان سباستيان فى إقليم الباسك ، ولما بلغت الرابعة فقط أدخلها أبواها ديرا من أديرة الدومنيكان ، هربت منه بعد إحدى عشرة سـنة لتتخذ الصورة التنكرية التى كانت علامة لشهرتها . وعندما بلغت الثامنة عشرة من عمرها أقلعت فى سفينة من إشبيلية إلى السواحل الشمالية لأمريكا الجنوبية . وهناك بدأت حياة مغامرة استمرت إحدى وعشرين سنة . وفى خلال أكثر هذه الفترة خدمت كحامل بيرق أو علم فى القوات الملكية ، ولفترة عملت تحت قيادة أخيها فى الجبهة ضد الأروكان فى تشيلى . ولما كان صدرها مستوياً وأردافها غير بارزة ، وعضلاتها مفتولة ، استطاعت أن تحتفظ بادعائها حتى تبرأت من تنكرها الرجولى ، فقط ، لتستأنفه بقية حياتها التى لا تمت بصلة إلى الأنوثة . ولما كانت تنزع إلى الشغب وحاذقة فى استخدام السيف والخنجر كانت تختال وتتفاخر فى تنقلها فى مدن الانديز . وأخيراً بعد وقوعها فى مأزق صاخب فى جوامانجا أو أياكوشو حيث اشتبكت مع حرس حاكم المدينة أدركت أن اللعبة قد انكشفت ، وألقت من على كاهلها الحمل ، بالإفضاء إلى الأسقف المحلى . وفى عدم ارتياحها وهى تلبس جلباب الراهبة غير المناسب لزمت ديراً محلياً فى سانتا كلارا حتى أمكن عمل الترتيبات لنقلها إلى إسبانيا . وفى وقت لاحق زارت إيطاليا حيث استقبلها البابا وأصبحت مثار العواطف فى جنوب أوروبا وبعد أن فترت حدة تحولها إلى السلوك الحسن ، وكتبت تاريخ حياتها ، انتابها القلق . وأخيرا عادت إلى العالم الجديد وأنهت أيامها الباقية فى إقليم نائب الملك الشمالى حيث امتلكت وأدارت قافلة من بغال الحمل على « الطريق الملكى »(*) بين فيراكروث ومدينة المكسيك . ولم تروض السنون الروح المحاربة التى اتصفت بها

(*) Camino Real

المكارية(*) المشهورة ، وأصبح مزاجها الحاد خطراً شائعا فى الفنادق المتناثرة على جانبى الطرق فى المكسيك كما كان فى أيام شبابها فى بيرو .

وفى أواخر عهد الاستعمار اتى ستيفنسن امرأة هامة فى وادى شانكاى فى بيرو ، وكانت تعرف باسم « بنت الحى »(**) وكان الناس فى الأرجاء المجاورة يحترمونها ويهابونها . يقول : « كانت قامتها تبلغ ست أقدام » وكانت « مغرمة جداً بالتمرينات التى يقوم بها الرجال . ولم يكن شىء أحب إليها من المساعدة فى القبض على العبيد الآبقين أو اللصوص الذين يقطعون الطريق بين هذا المكان وليما . وقد تمتطى جواداً خفيف الحركة — منفرجة الساقين — وتسلح نفسها بحزام معلقة به غدارات (طبنجات) ورمحاً ، فإذا انضم إليها ثلاثة أو أربعة رجال فقد تكون لعصابتها رهبة أكبر من رهبة ضباط شرطة الفرسان(***) . ولقد زرتها فى محل إقامتها ووجدتها أكثر إلماماً بالآداب من عامة النساء الوطنيات . وكانت صريحة ومفضالة ولطيفة ، وتدير مزرعتها الخاصة ، وهى مزرعة قصب سكر ، بأحسن ما تكون الإدارة ، وتشرف بنفسها على جميع مراحل العمل » .

وعاشت دونيا كاتالينا دى لوس ريوس دى ليسبرجر . وأشهر ما يعرف به اسمها فى تاريخ الشناعة « بالكنترالا » ، فى تشيلى فى العقد الأول من القرن السابع عشر . وكانت صاحبة مزرعة فى الأراضى الغنية فى الوادى الأوسط ، وامرأة لها نفوذ فى المجتمع الريفى فيما هو الآن ولاية اكنكاجوا . وكانت خليطا من ثلاثة شعوب — هندى وإسبانى وألمانى — وبدا كما لو أن الانفعالات تسلك فى طبيعتها مسلكا متناقضا . فقد كانت

(*) مربية البغال والحمير .

(**) La Nina de la Huaca

(***) encapados

سليلة بارثولوميس بلومنثال ، وهو ألمانى من أولئك الألمان الشاردين ، وكان يظهر بين آن وآخر فى الفتح . ولكى تكون له شخصية أكثر التصاقا بزملائه الإسبانيين ، غير مواطن نورمبرج هذا اسمه إلى فلورس . وكان له ثلاثة أطفال مولدون من الفيرادى تالاجانتى التى كانت ابنة زعيم من المابوشو فى الأرجاء المجاورة . وفى مكان من الفرجة بين بلومنثال ودونيا كاتالينا طعمت شجرة الأسرة بفرع إسبانى ، وكان ما حملته الشجرة المهجنة نهائيا ثمرة سامة .

وكانت « الكنترالا » سفاحة تتلذذ بالقسوة . قتلت أباها ، وقسيسا كان عشيقا لها ، وعدداً آخر من المدنيين اعتادوا ألا يترك أحد منهم منزلها وهو على قيد الحياة ، وفى مجتمع كان لا يزال يتخذ الموت شيئا عارضا تماما ، أصبحت العواقب المهلكة التى ترتبت على سخطها فى النهاية مثاراً للفضائح العلنية . وأدت إلى محاكمتها أمام محكمة عليا حكومية (*) . ولكن القضاة كانوا رحماء جدا بالقاتلة التى كان لها نفوذ فى الأوساط العليا ، وحكموا عليها بأن تلتزم دارها فترة من الزمن ليس إلا . وهناك انحدرت مرة ثانية إلى أساليبها القديمة ، ولكن ضحاياها منذ ذلك الوقت كانوا من الطبقة الدنيا الذين اعتمدوا عليها فى كسب قوت يومهم فى المزرعة ، ممن لم يكن لهم أصدقاء فى الأوساط العليا . وعندما توفيت ضمت يداها الآثمتان على صدرها ، ونقل جثمانها ليستقر فى الكنيسة الأوجستينية فى سانتياجو . غير أنه لفترة ما أصبحت الحياة أكثر أمنا فى تشيلى .

وولدت خوانا دى أسباخى إى راميريث دى سانتيانا فى سنة ١٦٥١ فى بيت فى مزرعة مكسيكية بالقرب من قرية سان ميجيل نيبانتلا . وعلى الطريق الرئيسى الذى يمتد اليوم من العاصمة ويمر من خلف البراكين ثم ينزل إلى

(*) audiencia

كواوتلا فى «الأراضى الحارة» ، توجد على جانب الطريق لافتة مكتوب عليها «نيبانتلا دى سورإينيس» ، فهى ، لوجه الله الذى وهبت له ريعان حياتها القصيرة ، وللأوساط العلمية والعالمية الذين كرست لهم ثمرات عبقريتها الشاعرية ، سورخوانا إينيس دى لا كروث ، راهبة ، و« أهم شخصية أدبية فى أمريكا الإسبانية فى عصر الاستعمار» . وكانت طفلة نابغة ، لها نهم لا يشبع فى كل ميادين العلم . وعندما اكتملت أنوثتها فى المدينة لم يكن شىء سوى حيوية عقلها وعذوبة خيالها هما اللذان أنقذاها من أن تصبح امرأة مدعية العلم فى بيئة كانت مكتفية أصلا بمدعى العلم . وعلى الرغم من شهرتها المعاصرة ، هناك فجوات كبيرة فى حياتها ، ولذلك فهى مثار لكثير من الآراء والجدل . فى سنة ١٦٦٥ — وكانت حينئذ قد بلغت الرابعة عشرة فقط — كانت وصيفة مفضلة لدى زوجة نائب الملك دونيا ليانور كاريتو ماركيزة مانسيرا ، وبعد سنوات من هذا التاريخ ، وكانت قد أصبحت راهبة ، قدر لها أن تكون صديقة وأمينة سر لزوجة نائب ملك أخرى هى كونديسة دى باريديس . وفى سنة ١٦٦٧ دخلت لأول مرة ديرا ، وبعد سنتين أصبحت راهبة فى فرقة الهيرونيميين(*) ، وكانت لا تزال فى الثامنة عشرة من عمرها ، وقضت الست والعشرين السنة الباقية من عمرها فى الدير . وأحضرت معها إلى الدير من العالم الذى أنعمت عليه بفضلها وسحرته القدر الذى سمحت به رئيسة الدير والأسقف والمعرف . وفى صومعتها ألفت مقدارا كبيرا من القصائد — أناشيد طويلة ودينية فى وحيها ، وروايات قصيرة للمناسبات الخاصة الرسمية . وعملت أيضا أمينة للمكتبة والملفات بالدير ، وقامت بنصيبها فى العمل الخيرى الذى كلفت به الراهبات .

ولم تبد حياتها مرة واحدة على نمط واحد أو ملكا لها فترة طويلة . إذ

(*) نسبة إلى سان جيروم — أسست فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

تعرضت شخصيتها لمؤثرات متضاربة لاعداد لها ـ الكنيسة ، وبلاط نائب الملك ، وصنوف التعصب والتقاليد المتأصلة فى المجتمع الإسبانى . فقدكانت من الناحية الفكرية فوق المجتمع الذى كانت تنتقل بين ظهرانيه . سواء أكان ذلك فى داخل الدير أم خارجه . ولم تنسجم عقليتها بعقلية أخرى سوى عقلية كارلوس دى سيجيونثا إى جونجورا الأديب الأول فى إقليم نائب الملك . كتبت ذات مرة تقول : « إن الدراسة أمر فيه خطورة للغبى ، لأنها مجرد وضع سيف فى يدى وحش ، فالتعليم — وهو الأداة النبيلة للدفاع — يصبح فى يده أداة للانتفاع الشخصى ولكثيرين غيره » . وكانت رائدة سابقة لأوانها من رائدات الحركات النسائية فى دنيا رجال محدودة ، وكانت تمتعض بمرارة أن سقط فى يدها عندما كانت تحاول تغيير الحال لصالح المرأة « تلك الروح المسكينة التى تعد خرقاء عادة» . ولعلها فى السنوات القليلة التى سبقت رهبنتها لم تقابل رجلا يروق لها أن تضحى من أجله شيئا من الاستقلال الذى استطاعت الحفاظ عليه إزاء مختلف الاضطرارات التى كانت تنوء بها روحها المتعالية . فحياتها العاطفية ، كحياة القديسة تيريزا دى أفيلا كان لابد أن تنتهى باللجوء إلى الورع الدينى . وقد تكون قصائد الحب الملتهبة التى كتبتها موجهة إلى فتى أحلام لم تحظ أبداً بمشاهدته .

وكانت مانويلا سايئث أشهر سيدة مجتمع كانت عشيقة لسيمون بوليفار ومع أنها لم تكن الوحيدة لعاشق النساء هذا ، فإنها كانت أطولهن مكثا . وقد ولدت فى « أسرة طيبة » فى مدينة كيتو فى سنة ١٧٩٧ . وعندما بلغت سن العشرين تزوجت من جيمس ثورن ، وهو تاجر إنجليزى ومدير لحركة ملاحية ، وكان يعيش فى ليما . وفى تلك السنين التى كانت تتدهور فيها سلطة إسبانيا فى بيرو عرفت الكثير عن الرجال والنساء معرفة قدمتها فى وقت لاحق لتكون تحت تصرف عشيقها الشهير . وفى أثناء ذلك تآمرت ، وهى الثائرة بالغريزة ، مع جمعية الوطنيين السرية فى ليما ، الأمر الذى استاء منه زوجها كثيرا .

وقابلت بوليفار لأول مرة فى مسقط رأسها كيتو فى مرقص احتفالا بانتصار بيشنشا على الملكيين . وكان هذا فى سنة ١٨٢٢ . وفى خلال سنوات المجد الثمانى — والتى انتهت بالحسرة — التى بقيت له — كانت مانويلا « مغفلته المحبوبة » المرأة التى لا غنى له عنها مهما تكن مداعباته الوقتية للنساء . ولما كانت هى شجاعة وذات عزة ولا تفكر فى تسلية أو راحة شخصية فقد كانت المثل الأعلى لرفقة محارب متبرم عصبى الإحساس مثل بوليفر . كما كانت سريعة البديهة بشكل غير عادى ، وبالتالى تقوم بدورها من وراء ستار ، أو تؤكده إذا دعت الحال . فقد حمت مصالحه وحياته ضد أعدائه الكثيرين ، الظاهرين منهم والخافين وفى السنوات الإحدى والعشرين الأخيرة من حياتها كانت تدير دكان طباق فى بايتا ، المدينة الساحلية الكئيبة فى شمال بيرو . ومن الذين قاموا بزيارتها هناك سيمون ردريجيث المدرس الغريب الأطوار الذى كان يعلم عشيقها المشهور ، وألكسندر رودن ، من سنسناتى ، وكان القنصل المحلى لأمريكا ، وجوسيبى غاريبالدى ، وهرمان ملفيل .

وعندما انفصلت نهائيا عن زوجها فى سنة ١٨٢٥ ، وهى السنة التى تلت أياكوشو ، كتبت إليه الرسالة التالية : « سيدى ، إنك ممتاز ولا تضاهى . ولكن ياصديقى ليس بالأمر الهين أن أتركك من أجل الجنرال بوليفار . إننى إذا هجرت زوجا ليس له مزاياك فقد يكون ذلك أمراً هينا . فهل تظن لحظة أننى بعد أن أحبنى هذا الجنرال سنوات ، وبالأمان الذى حصلت عليه من امتلاك قلبه ، أننى قد أختار أن أكون زوجة حتى للأب أو الابن أو روح القدس ، أو هم الثلاثة معا ؟ إننى أعرف جيداً أنى لا أستطيع أن أقترن به بحكم قوانين الشرف كما تسميها ، ولكن هل تعتقد أنى أشعر بأنه ينالنى شرف أكثر أو أقل بسبب أنه عشيقى وليس زوجى ؟ ! إنى لا أعيش من أجل أنواع تعصب المجتمع ، تلك التى فرضتها الجماعة واخترعتها لكى يعذب بعضنا بعضا ليس إلا !

« دعنى أعش يا عزيزى الانجليزى ، دعنى أعش . ودعنا بدلا من ذلك نعمل شيئاً آخر لأنفسنا . إن واجبنا أن نتزوج عندما تصعد روحانا فى السماء . أما على هذه الأرض — فلا — ، فى بيتنا فى السماء سوف نحيا حياة روحانية كلية ، وهناك كل شىء سيكون بريطانيا فى الصميم ؛ لأن السآمة هى من اختصاص أمتك فى الحب ، ذلك لأنهم أكثر هياما بإدارة الأعمال . فأنتم تحبون بلا متعة ، وأنتم تتحدثون بلا أناقة ، وأنتم تمشون فى غير عجلة ، وتجلسون باحتراس ، ولا تضحكون حتى على الملح التى تطلقونها بأفواهكم . هذه سجايا إلهية ، ولكنى بشخصى الفانى التعيس وأنا أستطيع أن أسخر من نفسى ، أسخر منك أيضا ، مع كل هذه الجدية الانجليزية ... » .

المراة والاسرة فى الجمهوريات

مع الاستقلال والجمهوريات بدأ عصر جديد فى مجتمع أمريكا اللاتينية. وحدثت التغيرات ببطء ، ولكنها بدأت مبكرة على طول السواحل حيث قامت المؤثرات الأجنبية بدورها فى حرية أكثر . فوصلت إلى بوينس أيريس قبل وصولها إلى كوردوبا وسولتا بفترة طويلة ، وإلى جواياكيل قبل وصولها إلى كيتو وكوينكا . وعلى الرغم من الهزة التى أتى بها الاستقلال فإن بعض الأساليب والأنماط الاستعمارية التى تمثلت فى إسبانيا كانت متأصلة إلى درجة جعلتها لا تتغير تغيرا نهائيا . وأدى كثير منها أغراضها بدرجة فائقة بحيث لم يصرف النظر عنها لمجرد أنها تذكرة للسيطرة الإسبانية . وكذلك كانت هناك عناصر رجعية فى المجتمعات الجديدة ، عقدوا العزم على الاحتفاظ بأكثر ما يمكن من النظام القديم . ولذلك فإن التلكؤ فى قبول التغير كان نتيجة للرضا بالعادات القديمة ، ورجعية الكنيسة التقليدية . وقوة الاستمرار السلبية ، والعزلة . ولكن الشىء المهم هو أن انواع القمع والكبح التى فرضها القانون والسلطة الإسبانية

تلاشت فى ذلك الوقت ، وأن الفجوة التى تركتها كان يمكن ملؤها بشىء مما يختاره ويصنعه الناس أنفسهم .

وكان الاختلاف الرئيسى هو فى الروح الجديدة التى غمرت الشعوب المحررة . وفى أغلب الأحيان لم يشعر الناس بها فترة من الوقت فى أول الأمر ، شأنها شأن أى شىء لم يتعوده الناس . وشيئا فشيئا بدأوا يشعرون أنهم أحرار فى صنع عالمهم من جديد إذا رغبوا فى ذلك . وعرف الخلاسيون مركزهم فى النهاية . وانتاب الناس إحساس جديد بأهميتهم ، فلم يعودوا بعد رعايا ، أو إسبانيين من الدرجة الثانية ، ولكنهم أصبحوا حينذاك مواطنين فى بلاد هى بلادهم ، لا بلاد ملك إسبانيا . وتفتحت أمامهم ميادين جديدة لأطماحهم ، واتخذت الحياة معنى أعظم بالنسبة إليهم . فلقد أصبحت شيئا أكثر من نمط من البهجة والألم ، أو اللحمة والسدى فى نسيج الزمن ، شيئا أكثر من مجرد طريقة لقضاء الفترة بين ميلاد الشخص ووفاته . وكان هناك أيضا سماحة نحو الشعوب المختلطة ، إدراك لشعور الأخوة الذى كان فى الواقع دينيا وإسبانيا ، ولكن عوقته فيما مضى الاعتبارات السياسية . حينذاك بدأ المولدون من هنود وغيرهم من المهجنين يجدون فى المجتمع والدولة المركز الذى تستأهله خدماتهم ونبوغهم . وأفاد النساء أيضا من الإحساس الجديد بالأهمية ومصالح رجالهن الجديدة ، وكذلك من الحيوية العامة التى طرأت على المجتمع والتى تبعت الاستقلال فى نهاية الأمر .

وفى خلال القرن الحالى كانت هناك صنوف شديدة متزايدة من التضييق على النمط العادى للعلاقات بين الرجال والنساء ، وعلى نظـــام الأسرة التقليدى بصفة عامة . وبعض هذه تمثل القوة المتراكمة للاتجاهات التى ظلت من قبل مدة طويلة تتطور فى ظل الجمهوريات ، وبعضها جديد نسبيا وأكثر ثورية فى طبيعته . ويتعرض مركز النساء فى الأسرة فى

علاقته بالمجتمع الأكبر الآن إلى عدد من المؤثرات ، بعضها خارجى ، وبعضها وطنى صميم فى نفس الوقت .

ولا مفر من أن يؤثر العدد المتزايد من الأمريكيات أوالنساء القادمات من غرب أوروبا ويقمن فى دول أمريكا اللاتينية أو يتنقلن فى ربوعها بضرب المثل على أحوال وعادات النساء المحليات اللاتى يراقبنهن أويقابلنهن بطريقة اجتماعية . ويمتد هذا التأثير ، لا إلى الأشياء الخارجية فقط ، كالملبس والأساليب المتبعة فى « عمليات التجميل » ، ولكن إلى مناشط معينة ، مثل احتساء الخمر ، وتدخين السجائر ، وقيادة السيارات ، والانغماس فى الألعاب الرياضية ، وبروتوكول الرقص المختلط ، وبصفة عامة ، إلى إهمال علنى للمحظورات القديمة . ويؤدى الجو العالمى السائد فى الحى الدبلوماسى المحلى وكذلك نادى الريف عمل المؤثر الكامن الذى يتفاعل مع العادات الاجتماعية ويلطف من حدة التعصبات .

وبطريقة مماثلة دخلت المؤثرات الأجنبية من خلال السبيل الذى سلكته نساء أمريكا اللاتينية اللائى عشن أوسافرن إلى الخارج . وكثيرات ممن تعلمن منهن فى مدارس الأديرة أو كليات مدنية فى أوربا أو الولايات المتحدة جئن ومعهن مدخر من الآراء الخارجة عن المنهاج لأغراض تجريبية . فقد اعتادت زوجات وبنات الدبلوماسيين ورجال الأعمال والمهنيين أن يذهبن بعيداً عن منازلهن فى جولات يشترين فيها ما يلزمهن ، وفى إجازات طويلة يقضينها فى بلاد ذات أساليب غير تقليدية . ولما كن ينزعن ، ويزددن نزوعا ، إلى السفر بدون أن يلازمهن رجالهن فقد كن مهيئآت ليتعلمن كثيراً مما له اهتمام مباشر ، وممكن تطبيقه ، فى حل مشكلاتهن الحالية ، مع أن كثيراً من نفس هذه الانطباعات يمكن اقتباسها من الأفلام الأجنبية فى صورة أكثر تمثيلا ، وإطار متفنن وهن مقيمات فى بلادهن . وعلى الرغم من أن مدى أثر هوليوود الكامل فى العادات

فى أمريكا اللاتينية مجال للأخذ والرد . فما لا شك فيه أن أثره فى العلاقة بين الرجل والمرأة هناك عظيم . كذلك فإن انتشار المجلات الأمريكية خصوصا الطبعات الإسبانية والبرتغالية من « المختار » ، عامل فى ترغيب الناس فى التغييرات الاجتماعية .

والمدن الكبرى هى العدو الطبيعى للأسرة التقليدية فى أمريكا اللاتينية. فإن نمو تلك المدن العملاقة ، مثل مدينة المكسيك وساوباولو ، لا يعد نذير خير للبيت الأبوى الذى مضى وقته . إن وضعه الطبيعى ، حيث وصل ازدهاره إلى الذروة ، كان فى بلد هادىء مثل أريكيبا وبائيبا فى عهد الاستعمار . أما فى المدينة التى لا تعبأ بالأفراد فقد فقد النظام كثيرا من سيطرته على أعضائه ، إذ كان عليه أن ينافس نداء الولاءات والاستمالات الدخيلة مثل مباهج النشاط التجارى ، وكان معرضا بصفة خاصة إلى النتائج المدمرة التى سببتها المؤثرات الأجنبية . وعلى الرغم من أنه استمر بكثير من قوته فى الأوساط الأهدأ من السكان ، فقد أحس بأن زمنه قد ولى فى المدن الجديدة فيما يتعلق بالأجيال الحديثة .

ولا تتمشى آلية الحياة الجديدة مع الأساليب القديمة . فقد كان سير الحياة بليدا وفى غير عجلة وفسيح الأرجاء ، فأصبح أكثر تعقيداً وموضعا للمقارنة وعاجلا . وفى « البيوت الكبيرة » التى امتاز بها النظام القديم كان هناك متسع من الوقت لكل شىء ، ومكان لكل إنسان — أفراد الأسرة الأقربين ، الأجداد ، والشرد من الاقارب ، والخدم . وكانت هناك أجزاء من المنزل للأبنـــاء المتزوجين ، فيها كانوا يعيشون مع عرائسهم حتى يستطيعوا أن يبنوا لهم بيوتا خاصة . وبالإضافة إلى الغرض الأساسى الذى أقيمت من أجله فقد قامت البيوت بوظائف الفندق ، ومحكمة تفصل فى علاقات ذوى القربى ، ونظام للتأمين الاجتماعى . ولقد أجبر اكتظاظ السكان فى المدن الناس أن يسكنوا فى « شقق » أومساكن غير مريحة تسمى

« فيلات » . ويختفي صحن الدار وكل شيء كان يمثله ، وبدلا من ذلك توجد الآن ردهات أمامية ، كما في المدن الأمريكية ، لا يجد المرء فيها مجالا للاسترخاء أو اللعب كما كانت الحال سابقا في الصحن الذي كان يشبه مكانا رحبا وملجأ آمنا في قلب الدار .

ولذلك فبسبب الثورة التي طرأت على الإسكان ، هناك أناس قليلون يسكنون تحت سقف واحد . أما الأسر التي عاشت معاً فيما مضى كفئة سلالية مكتفية اكتفاء ذاتيا ، فتنزع الآن إلى الانتشار حول المدينة والريف . ففي ريو دي جانيرو يستطيع المرء أن يلاحظ التغير في المقابلة بين لارانييراس وكوباكابانا ، وفي مدينة المكسيك التغير في المقابلة بين كويوسان ولوماس دي شابولتيبك .

وفي أمريكا اللاتينية ، كما هو الشأن في أرجاء أخرى من العالم ، أثرت انعكاسات الاقتصاد أيضا على مركز المرأة والأسرة . فقد فتحت الصناعات الحديثة الباب لوظائف تشغلها النساء ، وكثيرات من أولئك العاملات في المصانع يأتين من قرى الولايات ، وربما كن يعملن كخادمات في المدن لولا المصانع ، ومهما يكن المورد الذي يأتين منه فإن توظيفهن في الصناعة ينزع إلى إيجاد نقص في المساعدة في الخدمة المنزلية وإلى رفع أجور الخدم . ومن ناحية المهنة دخل النساء في أول الأمر في مهنة التعليم بأعداد جمة ، وأتاح انتشار التعليم في المدارس الإلزامية لهن فرصا كثيرة . ولم يجذبهن التمريض إلا بعد انقضاء وقت طويل ، ولكن آلافا منهن يعملن الآن في المستشفيات وخدمة الصحة العامة والنساء اللائي يعملن في المكاتب ظاهرة مألوفة في كل مكان في الأعمال التجارية والوظائف الحكومية ، ويزداد عدد البائعات حتى أصبحن القاعدة في محلات البيع بالتجزئة .

و «المرأة العاملة» — كما هي في الولايات المتحدة — المرأة غير المتزوجة ،

أو المتزوجة التي لسبب ما أو لغيره (الناحية الاقتصادية ، السأم ، الطموح، روح سنة ١٧٧٦ (*) ، أو عدم المبالاة بالرجال) تسلك مسلكها الخاص في العمل أو المهنة - هذه المرأة قد ظهرت في أمريكا اللاتينية ، ومع ذلك فليس الجو مناسبا حتى الآن لبلوغها الذروة في هذا ، ولم تعد بعد شاذة بدرجة تكفي لتصبح موضوعا للنقـــد من أخواتها اللائي يتمسكن أكثر بالتقاليد .

وهناك مجتمعات تعد النساء فيها عماد الاقتصاد المحلي أو جزءاً مهماً منه ؛ خصوصا الطبقات الدنيا . وأحيانا نجد النساء مجرد ناقلات لظاهرة تقسيم العمل التي كانت عادة مألوفة بين الهنود ، إلى نظام جديد وأكثر تطورا . وأحيانا كان نقص الذكران من السكان بسبب الحرب أو الهجرة يترك مسئولية بقاء الجماعة على عاتق النساء حدث هذا في باراجواي بعد الحرب ضد التحالف الثلاثي المكون من البرازيل وأرجنتينا وأورجواي . وربما تساعد نفس الظروف على تعليل تفوق نساء التهوانا في جنوب المكسيك . وقد يكون من العسير في الواقع أن نتخيل المكسيك بدون تأثير نسائها المثابر والموطد على الرجال، وقد جبل هؤلاء على التقلب والعنف إلى درجة كبيرة . وفي عاصمة بوليفيا أيضا تفوقت الطبقة العليا من النساء المولدات كثيراً على الرجال من نفس الطبقة . وكما هو الشأن في باراجواي فإن إدارة مختلف الأعمال التجارية البسيطة في لاپاز احتكار لهؤلاء النساء اللائي يلبسن القبعات الصلبة المطلية والأحذية ذات الرقبة والأزرار ، واللائي اتصفن بالجلد والاعتماد على النفس . وفي إقليم توبيثا في بوليفيا عادة ما تسيطر النساء ذوات العقلية الصارمة على الرجال ، ويدرن الأعمال في الحي . وأحيانا نجد أن عدم تمسك الرجال بالرسميات العائلية قد أسند

(*) إعلان توماس جيفرسون (٤ يولية سنة ١٧٧٦) بأن الثورة هي الوسيلة الوحيدة لضمان حق الحياة والحرية والرفاهية .

عبء الإشراف على الأسرة - والمجتمع المحلى — معا مناصفة على أكتاف النساء اللائى يركن إليهن .

وهناك ظاهرة عامة قد نفذت إلى محيط الأسرة ، ذلك المكان المقدس الداخلى فى الحياة الإسبانية ، وملجأ الإسبانيين الشائع مع ضغط نوائب الدنيا على النفس البشرية . وهى تقر بأن غرضها حميد — رعاية وحماية هذا النظام الأساسى للمجتمع الإسبانى وما يتعلق به من متع مساعدة ، مثل الزواج وتعليم الأطفال . ومع ذلك ، فإن النهاية المنطقية لهذا الاتجاه قد تكون بالتأكيد الإضعاف المتعمد للأسرة كمنافس لولاء المواطن الفرد .

وتبدى أحدث ثمرات الدساتير القومية اهتماما كبيرا بتحرير الأسرة. فقد نص فى القانون الأساسى لبوليفيا أن « الزواج والأسرة والأمومة تكون تحت حماية الدولة » . أما دساتير كوبا وبيرو وجمهوريات أمريكا الوسطى فتعبر عن نفس الفكرة فى نصوص مشابهة إلى درجة كبيرة . وتعد جمهورية سلفادور بسن وقوانين ونصوص لتحسين حالة الأسرة من النواحى المعنوية والجثمانية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية ، ولتشجيع الزواج » . وتعلن عدة دول نفسها مشجعة للزواج وتسهل الإجراءات القانونية لتحويل نظام المحظيات إلى زواج قانونى عادى . وبينما يعلن الدستور البرازيلى أن الزواج لا تنفصم عراه فإن الدستور الكوبى فيه نص على إمكان الطلاق فهو ينص على أن « الزواج يمكن فسخه بالاتفاق بين الزوج والزوجة أو عند تقديم دعوى من أى الطرفين » . وعلى الرغم من أن عدة دول تعترف بالمساواة القانونية بين الجنسين فإن الكوبيين بصفة خاصة يؤكدون هذا الأمر . وبموجب الوثيقة الكوبية : « تتمتع المرأة المتزوجة بمزايا الكفاية المدنية على قدم المساواة بدون ضرورة للحصول

على تصريح من الزوج ، أو تفويض لكى تدير ملكية ، وتمارس التجارة بحرية ، وتعمل فى صناعة من الصناعات ، وتحترف مهنة من المهن ، وتمارس فنا من الفنون ، وتشغل وظيفة من الوظائف ، وتتصرف فى حصيلة عملها » . ومن ناحية أخرى يتمسك أهالى نيكاراجوا بمسألة المساواة فى الحقوق ، وبعد إعلان مبدأ المساواة يضيفون تنازلا مضمونه عبارة « فيما عدا ما يختص بالنساء المبنى على الاختلافات الكامنة فى طبيعتهن أو فيما يتعلق بصالح الأسرة » . وبموجب دستور باراجواى « تنظم حقوق النساء المدنية بالقانون مع مراعاة وحدة الأسرة ومساواة الرجل واختلاف وظائفهما فى المجتمع كل فيما يخصه » .

وتبدى عدة جمهوريات اهتماما كبيرا بتأمين الأسرة اقتصاديا ، وتتخذ الخطوات لتأمين التوارث العائلى ضد الحجز التحفظى أو نقل الملكية . وليس هناك على وجه الاحتمال بلد من بلاد العالم تظهر الدولة فيه مثل هذا القلق لحماية سلامة الأسرة . وينعكس هذا فى جداول ربط الضرائب وقوانين الإيراد التى تنزع إلى أن تكون مواتية إلى درجة كبيرة لرب البيت ، والتى عند التطبيق الفعلى تؤمن فى واقع الأمر الملكية العقارية ضد الحجز بسبب عدم أداء الضرائب المستحقة . وتتمثل صورة شائعة من هذا التشريع فى نص من نصوص دستور باراجواى يعين أن « كل بيت فى باراجواى يجب أن يقام فوق قطعة أرض مملوكة » . وتنعكس الصرامة التى يحمى بها المواطنون فى أمريكا اللاتينية ممتلكات الأسرة العقارية ضد تدخل الحكومة والجمهور بوضوح فى نص الدستور البرازيلى الذى يقول : « إن البيت هو الملجأ المصون للفرد » .

وتعبر كثير من الدساتير عن اهتمامها بسعادة الأطفال ، وهى عاطفة قوية بين سكان أمريكا اللاتينية . ودساتير كوبا وبنما وأوروجواى صريحة بصفة خاصة فى هذه الناحية . فينص الدستور الكوبى على أنه « يجب على

الوالدين أن يعولا ويرعيا ويربيا ويعلما أطفالهما ، وعلى هؤلاء أن يحترموا ويساعدوا أبويهم » وهكذا يكون الالتزام فى الأسرة متبادلا . ويذهب القانون إلى حد إعلان أن « الأطفال والشباب فى حماية من الاستغلال ومن الإهمال الخلقى والمادى » . ونص الدستور فى بنما شبيه بنص الدستور الكوبى . وبموجب الدستور فى أوروجواى : « رعاية وتعليم الأطفال حتى يصلوا إلى ثقافتهم الكاملة الجثمانية والفكرية والاجتماعية هى واجب وحق الوالدين .. وسيتخذ القانون الإجراءات الضرورية لحماية الصبيان والأطفال من الآباء والأوصياء الذين يهملونهم جثمانيا وفكريا وخلقياً ، وكذلك ضد استغلالهم وإساءة استخدامهم » .

وتقرر كثير من الجمهوريات المساواة فى المعاملة بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين . ولما كان معدل الأطفال غير الشرعيين مرتفعا جدا فى معظم بلاد أمريكا اللاتينية فإن هناك نصاً من هذا النوع كانت له آثار اجتماعية بعيدة المدى وينص الدستور البوليفى حرفيا على أن القانون لا يعترف بعدم المساواة بين الأطفال » وهذا نموذج من فحوى الدساتير بصفة عامة . ويحدد دستور بنما أن « على الآباء نفس الواجبات نحو الأطفال الذين يولدون خارج نطاق الزواج كما هى نحو الأطفال الذين يولدون داخله » وفى حالة الميراث بلا وصية فإن كل الأطفال يشتركون بأنصبة متساوية فى بنما . أما فى إكوادور فإن الطفل غير الشرعى لابد أن يناله على الأقل نصف نصيب الطفل الشرعى . وهناك فى كل مكان نزوع إنسانى للإقلاع عن كل أنواع التمييز المجحفة للأطفال « غير الشرعيين » قد يصل إلى مدى فيه تمحى من سجلات ميلادهم أية نسبة إلى عدم شرعيتهم قد تقف فى سبيل تقدمهم .

وكما يتبين من الدساتير الجديدة ، هناك نزوع عام نحو منح النساء حق الانتخاب . ولا يرعى أو يشجع حركة إعطاء النساء حقَ الانتخاب أية

جماعة حربية من النساء ، لأنها لا توجد في أمريكا اللاتينية ، ولكن تساندها العناصر الحرة التي قد توجد في أية أحزاب سياسية . وتهيء جمعية نساء أمريكا اللاتينية منصات للخطابة في أرجاء القارة للاثارة التي تقوم بها بضع نساء رائدات ومنفردات ، ولكنها في الغالب ذات علاقة ضئيلة جدا بالمكاسب التي نالتها نساء أمريكا اللاتينية في الميادين السياسية والقانونية والاجتماعية . والقاعدة هي أن النساء حتى الآن غير « واعيات سياسيا » ، وعندما يغتنمن فعلا حق التصويت فإن الحصيلة الناتجة تنزع إلى أن تصبح سببا في مضاعفة الارتباكات العادية التي تنتاب السياسة . ومع ذلك فقد أعطى حق الانتخاب النساء أداة يستطعن بها التأثير في المشرعين الوطنيين كي يسنوا تشريعا للرفاهية هن في حاجة ماسة إليه . وفي عـــدة مناسبات لم يترددن في انتهار وتخويف المشرعين المترددين بتهديدهم أنهن سوف يقصونهم عن مقاعدهم في الانتخابات التالية . ومن بين جميع الجمهوريات اغتنم النساء أكثر فرصهن السياسية في تشيلي حيث لا يذهبن إلى صناديق الانتخاب بأعداد جمة فحسب ، بل إن كثيرا منهن يشغلن وظائف عامة ، بل قد نلن مقاعد في المؤتمر القومي .

وتنص قوانين الانتخاب في تسع جمهوريات صراحة على الانتخابات العامة بدون تمييز للجنس فبينما يحق لأي ذكر في جواتيما لا بلغ سن الثامنة عشرة أن يدلي بصوته ، فإن على المرأة كذلك أن تكون قادرة على القراءة والكتابة قبل أن يسمح لها بالتوجه إلى صناديق الانتخاب . وفي هندورس المجاورة فإن الانتخابات مقصورة على الرجال . أما النساء في بيرو فيستطعن الادلاء بأصواتهن في الانتخابات البلدية . ومع أن دستور سنة ١٩١٧ المكسيكي شمل النساء كمواطنات لهن حق الانتخاب فإن المؤتمر بعد ذلك اتخذ موقف تذمر إزاء تطبيق النص الدستوري ، ولم يصدر التشريع الذي خوله التطبيق إلا في سنة ١٩٥٣ فقط .

وعلى الرغم من تهديد القوى الجديدة المتربصة فقد وضح أن نمط الأسرة فى أمريكا اللاتينية ، قد تغير تغيراً ضئيلا فى أساسياته فلا تزال الأسرة تحتفظ بالقوة والتماسك اللذين قلما يوجدان بين السلالات الأمريكية القديمة فى هذه البلاد . فهى تدار بمجموعة مقبولة ومتزنة من المسئوليات والسلطات ، إلا بين الطبقات الدنيا حيث يحتمل وجود بحبوحة لا يستهان بها للأهواء والأمزجة الفردية فى روابط الأسرة . وفى مستوى المجتمع هذا هناك احترام قليل للعرف ، بل يوجد عادة زوع عملى حر وسهل فيما يختص بتقاليد وقواعد السلوك . فهناك فى الواقع يصرف النظر عادة عن رسميات الزواج، وليس هناك مستوى مزدوج كما بين أفراد الطبقة الذين «يفضلونهم» اجتماعيا .

ويؤدى الزواج غرضه الحقيقى بدرجة تفضل كثيراً ما هو عليه فى الولايات المتحدة فلا يقدم الشاب والشابة عليه باستخفاف وطيش أو بخيالية زائدة على الحد ، بل بحرص وجدية وبأمل كبير فى ارتضاءات عميقة وعلى مدى الحياة . فهو أكثر بكثير من باب لشهر عسل . وعلى الرغم من جهود الدولة لتحطيم احتكار الكنيسة لحفل الزواج ، تصل فى المنافسة إلى عرض رسوم أقل ، فإن المرأة العادية تعتقد أنها ليست متزوجة زواجا حقيقيا ما لم تؤد المراسيم المقدسة كاملة وبمباركة القسيس . وربما كان الإصرار على هذا الاعتقاد يساعد كثيراً على شرح متانة الزواج والعزم على اغتنام أكثر ما يمكن من إمكاناته .

وتتحسن تربية وتعليم المرأة فى أمريكا اللاتينية سنة بعد أخرى . وهى تتنقل هنا وهناك بمفردها ، ولا تربطها المحرمات القديمة بإحكام كما كانت الحال فى الماضى . وهى مشغولة بالأطفال وبإدارة المنزل ، وربما يشمل ذلك توجيه بعض الخدم ، وهم أكثر الناس إغاظة فى العالم . وإذا كانت تشترك

الآن فى مناشط خارجية أكثر من ذى قبل فإن ذلك ليس نتيجة سآمه أو قلق . وليست فى حاجة إلى ملء لجوات عاطفية فى حياتها بشرب الخمر لنسيان الدنيا المادية أو بتدليل الكلاب ، أو بالمعركة الصورية على مائدة لعب الورق . وتقدم لها حياتها جزاءات كثيرة . وهناك شك فى أن لديها دافعا يدفعها إلى الثورة ضد أى شىء بالذات . وتنزع النساء الأجنبيات ، اللاتى يرغبن أحيانا فى جعلها غير راضية بنصيبها ، إلى أن يرين فيها امرأة غير متعاونة إلى أقصى الحدود . ومن الأمور فى عالم مضطرب أن يجد المرء قسماً كبيراً من البشرية لا يطمح فى حمل الأعلام أو يشترك فى مسيرة احتجاج . فهى تتجنب أعمال الرجال وأحوالهم — وتعرف عن عمل ومصالح زوجها أكثر مما تعرفه المرأة الأمريكية العادية عما يدور فى رأس زوجها أو فى مكتبه ومن المهم فى هذه الناحية أنه عند وفاة زوجها تتسلم عمله « كأرملة فلان » (*) .

ولا يزال الرجل شيئا مهما جدا فى أمريكا اللاتينية فلم تبتلعه بعد المؤسسات الكبيرة أو المنظمات الأخرى التى تلتهم نفوس الرجال فى وجبة الإفطار . وتحاول الحكومات استرقاقه بطرق خفية ، بأن تقدم له « حياة أفضل » أو تشعره صراحة بقدرتها على تأديب المتمردين . ولربما كان فى نهاية الأمر يخوض غمار معركة ميئوس منها ضد المحتوم ، وفى يوم من الايام سوف يقيد بكل تأكيد ويوضع « فى مكانه » .

وفى هذه الأثناء هو سيد نصيبه الذى أسهم به فى خلق أمريكا اللاتينية أو على الأقل يظن نفسه كذلك ، وربما كان هـــذا هو الشىء المهم بعد كل شىء . فإذا حدث أحيانا وكانت سيطرته خداعاً فإن جميع المظاهر تراعى بحذق إلى درجة أن النتائج المترتبة على ذلك يكون لها تأثير الحقيقة . فهو

(*) Widow of Fulano de Tal

شخص يذ كر فى منزله الخاص وبين أسرته ، وهناك يعامل باحترام واعتبار . وإذا وقع باسمه كرئيس للأسرة فليس عليه جناح أن يضع هذه الحقيقة المتفاخرة بين ( ) . فهو قد يشعر ، إلى حين ، على الأقل فى دائرة المقربين إليه ، أنه « أنا الملك — أو الملك الصغير » (*) .

وأحيانا يغازل النساء . وقد يكون ذلك لماما أو قد يستمر سنوات ويكتسب صفة الدوام ، أو ربما يحيط به الاحترام الرزين . وبتناقض ظاهرى لا يفهمه غيره من الناس يمكنه فى أثناء ذلك أن يبقى « رب أسرة طيبا » وزوجا متوددا ورقيقا . فروابط أطفاله المتينة وسمعة الأسرة الحسنة تعين حدود مثل هذه الأمور المقررة ببروتوكول صارم . وعلى الرغم من أنه قد يتجول هائما على وجهه فى بعض الأوقات فقد تحين الفرص فى المرحلة المتوسطة من عمره ويصبح أكثر الأزواج كلفا بزوجته وبينما نجد الأمريكى ميالا إلى أن يعد الرجل فى أمريكا اللاتينية شخصا خليعا بشكل معيب فإن الأمريكى فى نظر مواطن أمريكا اللاتينية ، بفضل حصوله على الطلاق بسهولة ، يدخل ما يرتكبه من فسق فى سلسلة من التتابع الزمنى ليس إلا .

وتبدأ الثقافة الشعبية (**) والتشريع الخاصان بمسائل الجنس فى أمريكا اللاتينية بالافتراض شبه المعقول، وهو أنه لا توجد امرأة تأمن أن ينفرد بها رجل مدة عشر دقائق . وعلى هذه المظنة الأساسية توالت القوانين وجرى العرف لحماية الأسرة والمجتمع من عواقب الاندفاعات البيولوجية التى لا يكبح لها جماح . وبينما لا يراعى الناس دائما هذه القواعد فإنهم يحترمونها فعلا ولا يناقشون صلاحيتها . فهم أمناء وغير منافقين إلى درجة فريدة عندما يتناولون مسألة الجنس كلية . وقد عالجوا المشكلة علاجا حاسما إلى درجة

(*) "yo el rey" أو el reyezuea

(**) الفولكلور .

كبيرة فى مكانها المناسب فى حضارتهم ، ولذلك فهم يتحدثون قليلا عنها ، ويكتبون أقل . والكتب التى تؤلف فى الموضوع نادرة فى المكتبات ، وهى عموما من تأليف « الخبراء » الأجانب فى الميدان . فليس هناك أعمدة فى الجرائد بعنوان « نصيحة إلى من هجرته حبيبته » ، لأن الحب إذا كان ضائعا فالعاشق لا يذهب إلى عراف مهنته إسداء النصح أو تقديم العزاء .

فوجود الجنس قد ارتضاه الناس بلباقة من زمن بعيد مع قوى أساسية أخرى مثل الطقس والحكومة وكالطقس والحكومة يغتنم الناس منه أكبر قدر مستطاع فى حدود القواعد المرعية . فهم لا يعذبون أنفسهم حول الحلال والحرام فى مسألة الجنس أومظاهرة المختلفة أوحتى ما أسمته وزارة الخارجية الأمريكية (الانحرافات) ولما كان الجنس مسألة شخصية جدا فهناك مبدأ سليم فى قانون أمريكا اللاتينية مضمونه أن مايعمله شخصان بحيث لا ينتج عنه إضرار بالمجتمع ، مسألة تخصهما وتخص ضميريهما وحدهما .

هوامش الفصل الثامن

١ — يروى جميع مؤرخى الفتح الاسبانى تقريبا قصصا عن المحاربات بين الهنود . ويشير أوفييدو بصفة خاصة اليهن مرارا . وكتبت أنيتا برنر عن جيوش الثورة المكسيكية تقول : « تكاد توجد فى كل فرقة سيدة مشهورة برتبة عقيد أو نقيب ، بنت خشنة ، تلبس فى أذنيها قرطين ، ومسلحة الى اقصى حد ، وفى الصف الأول من بين المقاتلين المتهورين المغامرين » .

«The Wind that Swept Mexico (New York, 1943), P. 42.

٢ — « ان التخلى الطائش عن الذات الذى تبديه المرأة الراى . فى بعض الأحيان ، وهى تسعى وراء أغراض غير شخصية ، ونزوعها الى التجرد من أنوثتها بتقليدها أفعال الرجال أمران متعارضان الى درجة قصوى مع طبيعة المرأة الاسبانية التى تعد نشاطها وحكمتها شيئين شخصيين متأصلين الى درجة يصعب فيها دفعهما دفعا متصنعا الى طرق الرجال » .

Havelock Ellis, «The Soul of Spain» (Boston and New York, n. d.), P. 105.

٣ — انظر

A. Curtis Wilgus, ed., «Readings in Latin American Civilisation» (New York, 1946), P. 51.

وأيضا

Augustin Zapata Gollàn «Las Puertas de la Tierra (Santa Fé, Argentina, 1941), pp. 23 - 28.

٤ — Amédée François Frézier, «Relation du Voyage» (English tr., London, 1717), pp. 219, 257.

وطبقا لرواية خوان وأيووا « سيدة مكسوة بأغلى دنتلا ... تتلألا من يديها الى قدميها بالمجوهرات ، مفروض فيها أن ترتدى من الملابس ما يقدر بما لا يقل عن خمسة آلاف أو ثمانية آلاف جنيه . وهذه فخفخة مذهلة ، يدهش لها الشخص أكثر عندما يعرف أنها ظاهرة شائعة » .

Jorge Juan and Antonio de Ulloa, «A Voyage to South America» (tr. from the Spanish, 4 th ed., 2 vols., London, 1806), II, 60.

٥ ـ قال خوان وأيووا ان قطعة واحـدة من جلد ماعـز قرطبـة كانت تكفى لنعل الحـذاء ووجهـه • وكانت مشـابك الحـذاء ترصع بالمـاس واللؤلؤ ، كما كانت ترصع ربطتـا الساقين • وكتبا يقولان : « ان صانعى الأحذية ، ولم يكونوا على جهل بنقط الضعف عند الجنس اللطيف ، يولون اهتماما كبيرا لكى يصنعوها بشكل صمم ليؤدى خدمة عمليـة ضئيلة جـدا » •

Op. cit., P. 58.

٦ ـ « يقـال انه عنـدما تمسك الأم الأوروبيـة فى هـذه البـلاد (بيرو) طفلهـا بين يديهـا ••• فانهـا تخاطبه بقولهـا : « عزيزى الأسقف الصغير » أو « رئيسى » •

William Lewis Herndon and Lardner Gibbon, «Exploration of the Valley of the Amazon» (2 vols. Washington D. C, 1854), I, 56.

٧ ـ « منازل الأسر القديمة فى مدينـة المكسيك آخـذة فى الانقسـام والاختفـاء » •

Herbert Cerwin, «These are the Mexicans» (New York, 1947), P. 278.

٨ ـ (فى تهوانتيبك) « المرأة ـ وهى أجمـل شىء فى المكسـيك ـ سـيدة البيت » •

John L. Strohm, «I Lived with Americans» (Chicago. 1943), P. 343.

« وكما هى الحال فى تهوانتيبك ، فان قلب وروح المدينة (خوشيتان) يتمثلان فى السوق الصاخبة ، وحياتهـا وقلبهـا فى نسائهـا ، الدائبات النشاط ، اللائى جبلن على طيبـة القلب ، ولكن لا يرحمن فى الأعمـال التجارية ، فهن أنداد للمكر التجارى الذى يمكره التجار الأجانب » •

Miguel Covarrubias, «Mexico South» (New York, 1946), P. 159.

أنظر أيضا بيان كوفاروبياس عن تهوانا ، دونيا خوانا كاتا روميرو المشهورة •

Ibid., pp. 149, 226 - 37.

٩ ـ « المكسـيك بلد الرجال • ففى جميع الأمور الرجال رؤسـاء أسرهم • أما النساء •• فيقبلن بلبـاقة أن يقمن بدور قريب من المقاومة السلبيـة ثم يشرعن فى عمـل ما يرغبن فيـه ويحصلن على ما يحتجن اليـه • فالمرأة المكسيكيـة وهى محتـدة غضبـا شىء لا يسبب للرجل انزعاجا » •

Herbert Cerwin, Op. Cit., P. 28.

« مهمــا رغب الرجــال فى التفكير عكس ذلك فالمولينيرا (المـرأة الهنـدية) ···تسيطر عليـه وعلى الأسرة بلبـاقة » ·

Olive Floyd, «Doctora in Mexico» (New York, 1944) P. 248.

١٠ ـ عن نساء كستاريكا كتب ستيفنز : « فى ســان خوسيه ··· كانت السيدات جميعهن يشبهن من قـد يسمون رجـال أعمـال مهرة ، فكن يدرن الحوانيت ويشترين ويبعن البضائع ويتوقعن المساومة ، وكن يعرفن بصفة خاصة سلعة البن !!

«Incidents of Travel in Central America, Chiapas and Yucatan» (2 vols., New York, 1841), 1, 373.

Russell H. Fitzgibbon, ed., Constitutions of the — II Americans (Chicago, 1948) P. 52.

١٢ ـ حوالى ٢٥٪ من الأطفال الذين ولدوا فى تشيلى فى سنة ١٩٤٢ كانوا غير شرعيين · وكانت النســبة فى ســانتياجو ٢٠٪ وفى القسم الشمالى من هواسو كان أكثر من نصف مجموع المواليد غير شرعيين ·

Republic of Chile, Direccion General de Estadistica, De mografia y Asistencia Social Ano 1942 (Santiago, 1945).

ومن ٤٣١ر١٧٦ طفلا ولدو فى بير خلال العام يولية ١٩٤٢ ـ يونية ١٩٤٣ كان حوالى ٤٥٪ أطفالا غير شرعيين · وكان المعدل فى ليما اقل قليـلا ، وفى كثكو كان حوالى ٥١٪ من المواليـد لنفس العــام غير شرعيين · ومن عـدد الســكان الذين كانوا يزيدون على ملايين تمت ٢٦١ر٢٠ زيجـة فقط خلال ذلك العـام ·

Republic of Peru, Direccion Nacional de Estadistica, «Extracto Estadistico del Peru 1943» (Lima, 1951).

ويقتبس جون و · هوايت من أ · ف · بنج ما مضمونه أن « معدل المواليـد غير الشرعيين (فى أرجنتينـا) فى ازدياد ، بينما معدل المواليد نفســه فى تناقص !! وطبقـا لرواية هوايت نجـد أن معدل المواليـد غير الشرعيين فى مدينـة بوينس أيريس ١٢٪ ، ويصل الى ٤٣ و ٤٤ و ٤٦٪ فى ولاية توكومان وســولتا وخوخوى على التوالى · وفى بعض أرجـاء الدولة نجـد أن أكثر من نصف المواليـد غير شرعيين ، وفى بعض أراضى فورموزا يصل المعدل الى ٦٦٪ · وكان المعدل فى الولاية جميعها ٢٨٪ فى سنة ١٩٣٨

«Argentina : The Life Story of a Nation» (New York, 1942), P. 297

ويقول ت · لين سميث ان « سكان البرازيل يعيشون عيشة زوجيـة

بدرجة تقل كثيرا عنهـا فى الولايات المتحــدة » • فمن البرازيليين الذين بلغوا من العمر اكثر من خمس عشرة ســنة فى ســنة ١٩٢٠ ــ ٩ر٤٤٪ كانوا متزوجين بينما كانت النسبة فى الولايات المتحــدة ٩ر٥٩٪ •

T. Lynn Smith, «Brazil : People and Institutions» (Baton Rouge, La., 1946), P. 217.

١٣ ــ « قــد لا توجــد حاجة الى مزيد من التعاطف نحو نســاء أمريكا اللاتينيــة بسبب وضعهن • اذ تبــدو عليهن الســعادة ن. يحيين الحيــاة التى يرونهــا • وهل هن حقيقــة الخادمات الخاضعات للرجال ؟ » •

Charles E. Chapman, «Republican Hispanic» America : A History» (New York, 1937), P. 15.

وعنــدما أجرى مستر ومسز جون بيسانز عملية استفتاء بين نســاء كســتاريكا أســفرت النتــائج عن أن الشــابات وضعن اخلاص الرجل فى المرتبــة الخامسة من الصفات المطلوبة من الزوج • بل ان النســاء المتزوجات وضعنه فى المرتبــة الرابعة عشرة ! أما أهم الصفات المطلوبة فكانت الثقافة (Cultura) ، أى « آداب السلوك ، والتلطف ، وقــدر من التربيــة الشكلية » •

John and Mavis Biesanz, «Costa Rican Life» (New York, 1944), P. 62.

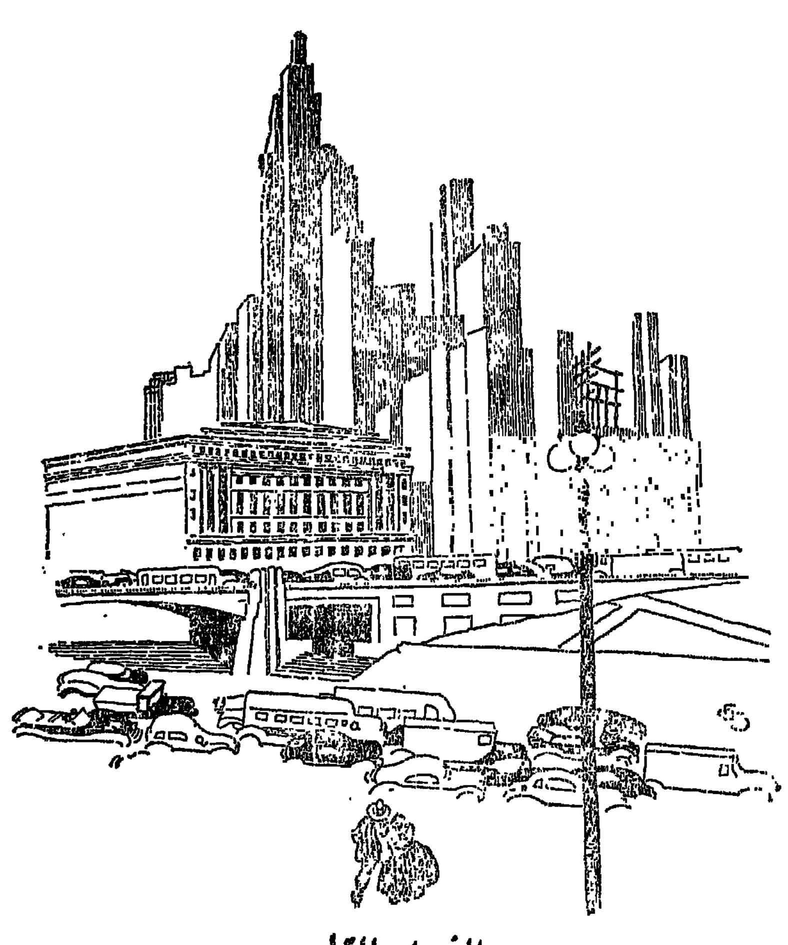
وعن الزواج فى أمريكا اللاتينيــة أنظر :

Elizabeth Borton de Trevino, «My Heart Lies South» (New York, 1953).

وهو مؤلف يشتمل على الملاحظات اللاذعة والشائقة لامرأة أمريكيــة تزوجت فى أسرة مكسيكيــة كبيرة تغمرها العاطفة والحب •

١٤ ــ « على النقيض من الصورة المزدهرة كثيرا التى نتخيلها للسيد الذى يعزف على القيثــارة كان جارنا الأمريكى اللاتينى يجــد الوفــاء محصورا فى الاحترام الزائد الذى يشعر به نحو زوجتــه والحب الشديد الذى يرعى بــه أطفــاله » •

Kurt Severin, «To the South» (New York, 1944), P. 203.



الفصل التاسع

المدينة

كانت حضارة إسبانيا حضارة مدن . فمنذ الوقت الذى استقر فيه الإغريق والشعوب القرطاجية(*) فى أيبيريا عاش الإسبانيون فى المدن وتحاشوا الريف المكشوف . فإذا تجنبوا المعيشة فى المدن تجمعوا فى البلاد والقرى للتآلف والحماية . وفى الشمال الغربى فقط — فى بلاد الباسك وفى استورياس

(*) Punic

وغاليسيا - كان الإسبانيون ينزعون إلى الانتشار فوق الأراضى كما كان يفعل البرتغاليون . وهناك نجد أن المدن ساحلية فى كثير من الأحيان ، مثل فيجو وكورونيا وبلباو ، وليس بها سحر خاص بها أو لذة ، ولكن بها أماكن صالحة لرسو سفن الصيد . وإنه لمن هذا الجزء من إسبانيا أن جاء رعاة الأغنام ليعنوا بأغنام المستا (*) ، ولا يزالون يهاجرون إلى الغرب الأقصى فى الولايات المتحدة ليمارسوا حرفة من أكثر الحرف عزلة . ولقد كان الرومان أيضا شعبا يسكن المدن . وإقامتهم فترة طويلة فى شبه الجزيرة أكدت لدى الإسبانيين الدافع الغريزى نحو سكنى المدن . وعندما جاء المسلمون نسى العرب صحاراهم والمغاربة جبالهم ليضيفوا سناء جديداً إلى قرطبة وغرناطة وإشبيلية .

وعندما جاء الإسبانيون إلى العالم الجديد أحضروا معهم غرائزهم وميولهم المدنية(١) . ولما كانوا لا يتصورون حضارة لا تقوم حول المدن، فقد بدأوا يؤسسون مدنا بالمعنى الحرفى بمجرد أن وطئت أقدامهم الأرض . وهناك اثنان من مؤسسى المدن الأوائل الذين كان لهم نشاط غزير فى هذا المضمار ، هما سباستيان بنا لكازار الذى خلف وراءه سلسلة من المدن الناشئة فى مسيرته من كيتو نحو الشمال إلى كالى فى كولومبيا ، وبدرو دى فالدفيا ، حاكم الشيلى الذى صمم عدداً من المستعمرات ومواقع للحاميات التى أصبحت فيما بعد المدن الرئيسية فى ذلك الإقليم . وقد توقف كورتيس فى زحفه إلى عاصمة الأزانقة ليقوم برسميات تأسيس « مدينة » فيرا كروث ، لأنه ربما لم يكن يشعر بأنه إسبانى صميم لو خلف وراءه فراغا لا تقوم فيه مدينة . وكتب الموثق الإعلان اللازم وبنود التأسيس وألقاها بصوت مرتفع على الجنود المجتمعين. وأعلنت أسماء العمدة ومجلس الأعيان ، وقام الأب ألميدو راعى الكنيسة بمباركة المدينة التى لم تولد بعد ، ودعا الله أن يمطر مصيرها من

(*) mesta مؤسسة الرعى . ومركزها قشتالة .

فضله الإلهى ، فيعين موقع الميدان(*) المتوسط ، وهو أهم شىء فى المدينة ، وتوزع قطع الأراضى على المواطنين الذين سوف يقيمون منازلهم عليها . وعند ذلك فقد استطاع كورتيس أن يمضى لإتمام مهمته فى فتح المكسيك . وفى وقت لاحق عاد الناس من الداخل أو من الجزر واستقروا هنالك(٢) . وعندما تبين أن موقعها الأصلى غير صالح انتقلت إلى موقع آخر قبل نهاية القرن كما حدث لعدة مدن أخرى فى عصر الاستعمار(٣) . ومنذ ذلك الوقت أصبحت دائما الميناء الرئيسى للدخول فى المكسيك وتغلبت على ما انتابها من وباء وقرصنة وتمزقات الثورة واحتلال القوات الأمريكية والفرنسية . وفى تلك الأثناء أصبحت آخر مركز ، كما كانت أول مركز ، للقوة الإسبانية فى المكسيك . وحدث أن تكرر نفس الاحتفال ، وبنفس التفصيلات مرات كثيرة خلال الفتح ، كما حدث عندما أسس بثاروسان ميجيل دى بيورا فى صحراء شمال بيرو الساحلية ، ومرة أخرى فى ليما : وعندما تشاحن دييجو دى الماجرو مع شريكه مضى فى تنفيذ الاقتراحات بتأسيس مدينته «هو» فى موقع ناء جهة الجنوب ، ولو أنه مات فى وقت مبكر جدا بحيث لم تصبح أبدا حقيقة ماثلة من شوارع ومساكن(٤) .

وكان بعض الشعوب الهندية مثل الأزاتقة والمايا والانكا بناة مدن عظاما على حسابهم الخاص . وقد اندثرت بعض المدن الهندية منذ ذلك الوقت البعيد ، مثل تولا فى أراضى التولتك ، وماشو بكشو وتياهوانا كو فى الأنديز ، أو ربما تكون مدفونة فى الغابة مثل شيشين فى أراضى الإتثا ، وكوبان وبالنكى ومجموعة من مدن أخرى فى أراضى المايا ، بل إن معظمها لم يكن موجوداً أو لم يكشف اللثام عنه إلا فى وقتنا هذا(٥) . ولكن بعضها كان قائما ومفعما بالنشاط مثل تينو شتتلان وكشكو . وهذه تسلمها

(*) Plaza

الإسبانيون ملكا لهم وبنوا مدنا إسبانية جديدة فوق مواقع العواصم الهندية. وفى غضبة تخريب للآثار القديمة والصور والتماثيل الدينية دمروا ما استطاعت مدنية الأزاتقة الحفاظ عليه من الحصار الطويل، ولو أن كورتيس وضباطه رأوا ودهشوا من عجائبها(٦). ولكن كثيراً من مبانى كشكو الحجرية الهائلة الحجم ثبت عدم إمكان نقلها حتى باستخدام الآلات الفائقة التى يستعملها الأوروبيون، ولذلك شيدوا مساكنهم الحجرية الصغيرة فوق أسس مبانى الانكا وجعلوا منها مدينة مهجنة(٧).

وبنيت تينوشتتلان على جزيرة بحيرية واسعة فى نجوة جبلية كانت هى «وادى المكسيك»، ومتصلة بالأراضى المحيطة بممرات طويلة. وكان هذا الموقع سببا فى مشكلات خطيرة متعلقة بصرف المياه فى المدينة الإسبانية التى احتلت مكانها. وبعد سلسلة من الفيضانات المديدة والمرزئة شقت قناة تجرى فى نفق فى حافة الجبل نحو الغرب لتخفيف ضغط مياه الفيضان. غير أن التربة السفلى ظلت إسفنجية فسببت معضلات جديدة لمشيدى المبانى الإسبانيين والمكسيكيين، كما تسببت فى وجود منشآت مائلة وغير متوازنة لاتجد قواعدها أساسا فى الحمأ. أما من شتى وجهات النظر الأخرى فالموقع مثالى للمدينة العظيمة التى تشغله.

وتقع معظم مدن أمريكا اللاتينية، مثل مدينة المكسيك وكشكو، فيما عدا المدن الواقعة على الساحل الشرقى لأمريكا الجنوبية، فى أحواض أو أودية الهضاب أو الجبال. وهذه حقيقة تنطبق بصفة خاصة على المكسيك وكولومبيا واكوادور. وهى الحال كذلك فى مدينة جواتيمالا وسان خوسيه فى أمريكا الوسطى، وكاراكس وفالنثيا فى فنزويلا، ولاباث وكوشابمبا فى بوليفيا، وسانتياجو فى تشيلى، وساوپا ولو فى البرازيل. وهناك مدن مثل پوتوسى وجوانا خواتو وتاشكو نشأت حول المناجم، وقد احتفظت بالشكل والخصائص النموذجية للمدن الجبلية. أما هافانا وكارتاخينا وريودى

جانيرو فقد بنيت على مرافىء ممتازة ، كما بنيت أريكيبا ومندوثا وتوكومان فى واحات طبيعية ساعدت على قيام الزراعة التى تعتمد على الرى على نطاق واسع . ومن العاصمتين اللتين تقعان على ضفتى نهر بلات مونتيفيديو ذات موقع يفضل موقع بوينس أيريس . أما البرتغاليون — وهم شعب ساحلى — فقد أقاموا سلسلة من البلاد الساحلية على الخلجان ومصبات الأنهار التى تنتهى إلى الساحل البرازيلى الذى أمد السفن بمراس ممتازة على طول الطريق من بيليم إلى ريوجراندى جنوبا ، فيما عدا أماكن قليلة . وبجانب ريو فقد شملت ساو لويز التى استولى عليها الفرنسيون فترة من الوقت ، ورسيفى وهى على مضيق يقع خلف حاجز مكشوف ، وباليا برقعتها الشاسعة من المياه الهادئة ، وفيتوريا وهى جوانابارا صغيرة ، والنهر ذا الثنايا والمعرض للمد الذى يجرى متثنيا عبر السهل الساحلى عند ساوفيسنتى — سانتوس .

وأثرت عدة اعتبارات فى اختيار موقع ليما التى قدر لها أن تصبح عاصمة أمريكا الجنوبية الإسبانية . ومن المدن البديلة كانت كشكو مرتفعة إلى حد زائد — وهندية أكثر من اللازم ، وتقع على الجانب الخطأ من الكورديليرا . ولفترة من الوقت استهوى الإسبانيين أن يقيموا حكومتهم ومرافقها فى وادى خوخا الجذاب الذى يقع فى حوض المانتار وعلى الطريق الجبلى إلى هوانكايو .

وبدلا من ذلك اختاروا موقعا على الحافة الضيقة للأرض الصحراوية بين سفوح الإنديز الرمادية والمحيط الهادى بالقرب من المكان ينفرج منه نهر ريماك من الجبال فى طريقه الجياش إلى البحر . وشوهوا الاسم الذى كان يطلقه الكيشوا على النهر وقالوا ليما . ذلك لأن « مدينة الملوك » أثبتت أنها تسمية استعراضية ليس إلا . فهناك كان الماء متوافرا لحاجات عدد كبير من السكان ولرى الأراضى الساحلية المجاورة . وهيأ خانق نهر ريماك

حلقة اتصال مناسبة للأراضى الهندية الشاهقة فى الجبال ، وجنوبا عبر نهر ابوريماك إلى كشكو . وكان الموقع بعيداً عن المحيط لدرجة لا تشجع القراصنة الانجليز ، حتى ولو لم يكن للمدينة حائط يحميها . ومع ذلك فقد كانت بضعة أميال فقط عن كياو مرفئها الذى كانت تحميه من المحيط الهادى المفتوح جزيرة سان اورنثو . ولقد دفعت المدينة ثمن الميزات الظاهرة التى اختص بها موقعها الجغرافى بالنسبة إلى بقية أرجاء بيرو وطرقها البحرية الاستراتيجية مناخا شتويا كريها يغمره الضباب ، ولو أنه إلى الغرب ببضعة أميال فى ثغرة شوسيكا الجو مشمس بلا انقطاع ودرجات الحرارة معتدلة طول أيام السنة .

تخطيط المدن الأسبانية

اهتمت الحكومة الإسبانية اهتماما جديا بموقع وتخطيط المدن فى المستعمرات . فقد صدر قانون مبكر فى سنة ١٥٢٣ ينص على الشروط التى يجب مراعاتها عند تأسيس المدن الجديدة . فأولا يلزم أن يكون الموقع بجوار الماء ومواد البناء ، وأن تكون هناك مراع ومصدر لأخشاب الوقود على مقربة . ثم مضى ليقرر أن «مواقع الإسكان يجب ألا تختار فى الجهات الشاهقة الارتفاع نظراً إلى الإزعاج الذى تسببه الرياح وصعوبات الخدمة والنقل ، ولا فى الأماكن المنخفضة والقريبة من المستنقعات والبرك ، لأنها عادة غير ملائمة صحيا ، ولكن يجب أن تكون المواقع على ارتفاعات معتدلة وفى أماكن تهب عليها الرياح من الشمال والجنوب بانطلاق » . كما تتجنب الأماكن المعرضة للضباب ، وإذا أسست على نهر فيجب أن يختار الموقع بحيث ترسل الشمس المشرقة أشعتها أولا على البلدة لا أن تنعكس على أعين الناس من سطح الماء . أما المذابح والحظائر وأسواق السمك والمدابغ و « غيرها من المؤسسات القذرة ذات الروائح الكريهة » فيجب

أن تكون خارج مرافق المدينة ، ومن الأفضل أن تقام على الجانب الآخر من النهر أو على شاطىء البحر .

فإذا اتفق على اختيار موقع المدينة اختير أنسب الأماكن ليكون الميدان الرئيسى . ومن الميدان ، الذى يصبح بمثابة قلب المدينة، نحو الخارج يعمل الرجال فى قياس الموقع بالشريط والمخطاط (*) ويرسمون خطة للشوارع وقطع الأرض التى ستقام عليها المبانى . فلم تكن المدن لتبنى خاط ملط ، كما كانت تبنى فى إسبانيا حيث لا يوجد شارعان اثنان يتخذان نفس الاتجاه ، ولكن وفقا لنمط هندسى متسق محدد من قبل . وهكذا تفرض خطة تصميم الشوارع مرة واحدة ، فإذا حدث تعديل فى جهة ما عن الخطة المرسومة فقد يكون سبب ذلك أن وضع الأرض جعل من المستحيل اتباع الخطة الرسمية . ولم يكن من المحتم أن تكون الشوارع موازية الواحد منها للآخر فحسب ، بل كان من اللازم أن تتجه من الشرق إلى الغرب أو من الشمال إلى الجنوب ، تفصل فيما بين بعضها وبعض مسافات متساوية . حتى إن مجموعات المساكن (**) التى تفصل الشوارع فيما بينها يصبح لها نفس الحجم والشكل . وتحتم أن تكون الشوارع واسعة فى البلاد الباردة وضيقة فى الأجواء الحارة ، كما هى الحال فى كارتاخينا .

وكان الاهتمام زائدا بالميدان . وبنمو المدينة ربما كانت هناك ميادين كثيرة لتفى بحاجات السكان ، وحينذاك يعرف الميدان الأصلى بالميدان الرئيسى(***) أو الميدان الأوسط (+) أو « ميدان الأسلحة » (+ +)

(*) rule

(**) بلوكات manzanas

(***) Plaza mayor

+ Plaza central

+ + Plaza de armas

حيث يتمرن الجنود كما فى ليما . ونصت اللوائح على وجوب أن يكون طول الميدان مرة ونصف مرة بالنسبة إلى عرضه،لكى يكون أكثر تهيئة لحفلات الفروسية . فيما يتعلق بالأبعاد فيجب أن يكون على الأقل ٢٠٠ قدم فى العرض و ٣٠٠ قدم فى الطول ، ولا يزيد على ٥٣٢ فى ٨٠٠قدم ، ويتوقف هذا على أهمية وحجم المدينة المنتظر . ويجب أن تبتدىء الشوارع الأربعة الرئيسية وأكثر الشوارع الثانوية من أركانه ، ويزحم الميدان فى الشوارع العامة الأروقة (+) التى أصبحت منذ ذلك الوقت ، وبلا انقطاع ، بهجة المتنزهين والمبتاعين من الحوانيت . وحول الميدان نفسه كانت توجد المواقع المحتجزة للمبانى الحكومية والكاتيدرائية أو الكنيسة الرئيسية.

ونصف عواصم أمريكا اللاتينية العشرين تحمل أسماء هندية . ولخمسة من هذه الأسماء دلالات دينية . وكان من المتبع أن يتضمن اسم المدينة الرسمى القديس الراعى ، مثل سان كريستوبال دى لا هابانا ، وسان فرانسسكو دى كيتو، أوساو سباستيان دى ريو دى جانيرو ، ولكن اسم القديس كان يحذف فى الحديث العادى . وأعطى المستكشفون أسماء لثلاث عواصم من أول انطباعات للظواهر الطبيعية تأثروا بها،حقيقية كانت أم وهمية . وتذكر الإسبانيون فى حنينهم إلى الوطن ، شأنهم فى ذلك شأن معظم الشعوب الذين يهاجرون بعيداً عن أوطانهم ، أسماء الأماكن التى ألفوها . ولما كان كثير منهم قد أتوا من استريما دورا فقد نشأت هناك مدن بأسماء ميديين ومريدا وتروخيو مبعثرة على الخريطة . وهناك جوادا لاخارا وكوردوبا (*) وفالنثيا(**) ، ولكن ليس هناك توليدو(***) أو

(+) «البواكى»

(*) قرطبة

(**) بلنسية

(***) طليطلة

مدريد(*) أو سيفيليا(**) ذات أهمية . وكذلك ليس هناك لشبونة (***) أو أوبورتو فى البرازيل . وعلى الرغم من وجود سانتوس وساوپاولو وبليم ولاكنسبسيون فمن المحتمل أن الكنيسة خلفت وراءها فى كاليفورنيا من مسمياتها المقدسة أكثر من أية جهة أخرى بنفس المساحة فى الجنوب . وحيث وجد مكان معروف باسمه الوطنى فى الأصل فغالبا ما احتفظ به الإسبانيون ، ولو أنهم قد يشوهونه كما فعلوا بالأسماء فى المكسيك وليما . ولما كان معظم البلاد فى المكسيك وبيرو أغلبها هنديا على كل حال ، فقد أبقوا على أسماء الأماكن كما كان يسميها الأزانقة بالحروف ت ، ل ، س ومقاطع أخرى للحروف الساكنة التى تبدو خشنة ولا يمكن للأجانب النطق بها ، وكذلك المقطع الأسهل نطقا «هواس» فى كلام الكيشوا ــ مدن بأسماء هوانوكو ، وهواشو، وهوانكايوا أما فى تشيلى فأسماء التيهيلشى مثل أسماء المدن كوكينى ، ولونكوشو ، ونالتال ، ولاى لاى ، فتفوق فى العدد أسماء المدينتين الإسبانيتين فالباراييسو وكورونل . وتحمل مئات من بلاد ومدن البرازيل أسماء توبية(+) ، مثل اراكايو ، وكاشامبو، وأراراكوارا وبيراپورا، وموجى - ميريم ، وپاراجواسو . ولقد اعتاد البرازيليون كذلك أن يستخدموا اسمين لبعض عواصم الولايات القديمة فى الشمال الشرقى ، أحدهما اسم الولاية المعنية . وهكذا ساو سلفادر هى بائيا ، ورسيفى هى پرنامبوكو ، وبليم هى پارا ، وفورتاليزا هى أيضا سيارا .

(*) مجريط

(**) إشبيلية ــ هذه هى الأسماء العربية للمدن الإسبانية المذكورة .

(***) لزبوا

(+) نسبة الى شعب ولغة التوپى .

أسماء الشوارع

جزء كبير من التاريخ مدون فى أسماء شوارع أمريكا اللاتينية . ولقد محت مستلزمات السياسة والوطنية ودافع التجديد أحيانا هذه الذكريات البهية للأيام الخوالى من مناظر المدن . وغالبا ما تشرف أعيان الجمهوريات، كما تشرفت أيام العطلات ، ببساطة ، بأن تطلق أسماؤهم على شوارع قديمة . فمثلا فى ليما تغير اسم شارع « خلية النحل »(*) إلى نيكولاس دى بييرولا (رئيس سابق لبيرو) ، وفى سانتياجو شارع « الأرواح »(**) أصبح الآن ألونسوا وفالى ، وفى هافانا شارع أوبسبو غير رسميا إلى خوان كليمنتى ثينيا ، ولكنه لسكان هافانا لايزال أوبسبو . وأحيانا يكون التكريم لشخصية أجنبية عظيمة مثل جورج واشنطن ، أو وودرو ولسن ، أو فرانكلن د . روزفلت . ومع ذلك فبتأثير العادة المديدة قد يمضى الناس يطلقون أسماء الشوارع القديمة ، مما يخلط الأمر على سائقى التاكسى وموزعى البريد ، ويزعج الحكومة إذ تدرك محافظة المواطنين العنيدة . وأطلقت أيام السنة أيضا على الشوارع لإحياء ذكرى حادثة تستحق الذكر فى تواريخ الأمة ، وهى وسيلة إمكاناتها محدودة بطول السنة ولا شىء سواه . ولذلك فمن بين الشوارع والمتنزهات هناك ٥ من مايو فى مدينة المكسيك و ٢٥ من مايو فى بوينس ايريس و ١٨ من يولية فى مونتيفيديو ، وفى ريو هناك ١ مارس و ٧ من سبتمبر .

بل إن أسماء الشوراع فى مدينة المكسيك أكثر تنوعا منها فى بوينس أيريس . فقليل من أسماء عهد الاستعمار استطاعت مقالبة آثار التغير العنيفة . ومن بين الأمثلة الشاذة لاكوريجيدورا على طول الثوكالو

(*) Colmena
(**) Las Animas

ودون سيليس وازابل لاكاتوليكا — وكلهن نساء ، وكهديتين وحيدتين للفاتحين فيلاسكيث دى ليون ، وقد قتله الأزاتقة فى « الليلة الكئيبة » وبقى دى الفارادو . وكان سلوك الازاتقة أفضل . فخصص لكرايوتيمك طريق واسع تصطف على جانبيه الأشجار فى المدينة التى دافع عنها دفاع الأبطال ، ولمونتسوما ذى المصير المشئوم طريق عمومى أقل أهمية . وإلى الشمال الغربى ، فيما وراء طريق ملشور أوكامبو توجد متاهة من أسماء تيموك وشولتل واشاياكاتل وكاكاماتسن . ولكوتتا لكوتل شارعه ، ولكن هتثيلوپوشتلى إله الحرب القتال محروم من شارع يحمل اسمه . وإلى الجنوب الشرقى من وسط المدينة يتفرع من سان خوان دى لتران شارع مهدى إلى بطل الثقافة وملك تشكوكو التوحيدى نقثا هو الكريوتل . وقليل من الإسبانيين نالهم التشريف : الأبوان موتولينيا ، ولاس كاساس لأن لهما قرابة ما بالهنود ، واثنان من نواب الملك المتأخرين ـ والأفضل ـ بوكارلى وريفيا جيجيدو . وهناك شوارع لزعماء الاستقلال مثل هيدالجو وايتوربيدى ، ولسياسيي الجمهورية الأحرار مثل خواريث وايردو . ومن ابطال الثورة اختار ماديرو الشارع الرئيسى للبيع والشراء فى المدينة ، واختار اوبريجون ، طريقا واسعا تصطف على جانبيه الأشجار ، وإيميليانو ثاپاتا شرفا لم يكن ليختاره لنفسه . ومن الأجانب الذين ازدانوا بإطلاق أسمائهم على الشوارع أكثرهم أهمية واستحقاقا همبولدت العظيم الذى كرم فى البر والبحر من كاليفورنيا إلى المحيط القطبى الجنوبى . ومن بين الآخرين رجال عظماء تفصل الحقب بينهما كهيرودوت ، ووالترسكوت ، ومجموعة ضخمة متباينة من الفرنسيين تضم رينان ، وفلاماريون ، وسادى كارنو ، وميشليه . ونال الشرف أيضا الشعراء المكسيكيون : الأخت خوانا ، وامادونرفو ، ومن العلماء الوطنيين ، إلى خوستو سييرا وايكاثيا لسيتا . وهناك مجموعات برمتها من الشوارع اتخذت أسماء أقطار ومدن وأنهار أجنبية ، وولايات وأنهار وأشجار مكسيكية . وهناك شوارع تحمل أسماء

للشمس والقمر والرجل الذى أعدم شنقا — وشولتش وسليفان .

وفى سبيل التيسير والنظام حلت طرقة عددية لتمييز شوارع بوجوتا وكاراكس لتحل محل أسماء الشوارع البهيجية والرومانتيكية التى تميزت بها المدن الاستعمارية . فقسم من كاريرا سبتيما ، أو الطريق السابع — الساحة التى يجتمع فيها سكان بوجوتا(٠) يرغون ويزبدون ، كان ، لنزوة من هوى ، يعرف باسم الشارع الساخن (٠٠) ، وهو قطعا اسم على غير مسمى عندما ينحدر الضباب برذاذه من مونسيريت فى الغسق . وكان الطريق الثامن (٠٠٠) يسمى سابقا شارع الحب . (*) وكان هناك أيضا شارع القلق(**) وشارع الإهمال (***) ، وشارع المواساة ، (×) وشارع التنهد (× ×) وربما كانت أكثر المسميات الإنجيلية تناقضا موجودة فى كاراكس حيث كانت هناك فى وقت من الأوقات شوارع تجسيد ابن الرب والختان ، وتعميد يسوع الصبى فى المعبد ، والقبض على يسوع المسيح ، ويوم الدينونة .

وتعكس أسماء شوارع ريودى جانيرو بوضوح حنين الكاريوكا (+) الكامن إلى أيام الامبراطورية . فدوم پدرو الثانى له شارعه « الخاص » ، وكذلك كثيرون من نبلاء الامبراطورية ، ومن بينهم البارون بتروبوليس ، وماركيز دى أولندا وكونت بومفيم ، وفيكونت الوكيرك ، ودوق كاشياس ، وعشرات غيرهم . أما الشارع الرئيسى فى الحى التجارى فى ريو فقد سمى

---

(٠) Bogotanos
(٠٠) Calle Caliente
(٠٠٠) Carrera Octava
(*) Calle del Amor
(*) Calle del Afan
(***) Calle del Descuido
(×) Calle del Consuelo
(× ×) Calle del Suspiro

(+) قبائل يتكلمون لغة التوبى (أو بيوتهم البيضاء — كارى : أبيض وبوكا : بيت) — وتطلق على رقصة .

من اجل بارون ريو برانكو ، أول دبلوماسى فى أمريكا اللاتينية . ومن الشوارع الأخرى فى ريو دى جانيرو، العاصمة البرازيلية القديمة(*). هناك شارع — أوفيدور ، وهو متنزه السكان المحبوب — وهو شارع يشبه أوبسبو فى هافانا ، وفلوريدا فى بوينس أيريس ، وأوجستيناس فى سانتياجو، فى أنه سوف يقاوم أية رغبات رسمية لتغيير اسمه .

وليس هناك على الأرجح بلد فيه تتصف أسماء الشوارع بالوضوح وتذكير الناس بالتاريخ الحى للمكان كما فى ليما أيام الاستعمار . ولقد عمل فيها الزمن والجمهورية ، ولكن بعضها قاوم حتى الوقت الحاضر كبقايا أرومة المدينة القديمة . وقد تتغير أسماء الشوارع ، كما هو حادث إلى الآن ، بالنسبة إلى كل مجموعة من المساكن ، بل إنه فى نفس المستعمرة قد تتغير من عصر إلى عصر . فشارع خيرون يونيون الذى يتجه من ميدان سان مارتن إلى ميدان الأسلحة حيث نشأت المدينة ، وكذلك الشوارع التى تعبره ، كانت أمكنة لحرف وصناعات سدت حاجات السكان الإسبانيين. وكانت الصناعات بأمر من نائب الملك أحيانا ، وأحيانا لما فيه من فائدة للصناعة ، تنزع إلى التركز فى مجمع معين . وهكذا كانت هناك «شوارع» لصياغ الفضة ، ولصناع القبعات ، والصباغين ، وصناع القيثارات ، والرياش . وكان هناك شارع الحديد الخردة ، وشارع لتجار الملابس القديمة الذى تقررت إقامته ليكون وسيلة لرقابة بيع العبيد الزنوج ملابس سادتهم . وكانت هناك شوارع للبط والحير ، ومكان لبيع الخس و «الطاحونة المكسورة»(**) كما كان هناك شارع المعجزة وشارع الحقد (***) حيث كانت مواقف

(*) نقلت العاصمة أخيراً إلى برازيليا فى الداخل .

(**) Molino Quebrado

(***) Amargura

المسيح وهو حامل الصليب (*) منقوشة على المنازل ، وشارع الخطايا السبع(**) الذى أحيا ذكرى سبع شابات أذنبن،وشارع الحقن السبع(***) لأن طبيبا أنقذ رجلا مجروحا بسبع حقن شرجية ، وشارع البيضة(+) لتكريم براعة دجاجة وضعت بيضة كبيرة ، وشارع المعسرة (×) تكريما لامرأة عوقت وقتا طويلا وهى تلد

ليما فى عهد الاستعمار

على الرغم من أن ليما كانت أكبر وأهم من أية مدينة أخرى فى العالم الجديد ، فيما عدا مدينة المكسيك ، فقد كانت ممثلة لغيرها من المدن فى جميع النواحى تقريبا . وفى الحقيقة يمكن أن نعدها حتى الآن المدينة النموذجية الأولى فى أمريكا اللاتينية ــ المدينة الخلاسية (××)الحقيقية.ونظراً إلى مركزها كعاصمة لإقليم نائب الملك وإلى مجهودات تجارها ، أصبحت مدينة غنية يعيش أهلها عيشة بذخ وإسراف ، بل إن طبقة النبلاء الإسبانيين الذين عاشوا فى ليما دخلوا ميدان التجارة . كتب برتغالى عاش فى ليما اوائل القرن السابع عشر يقول : « إن كل شخص إلى درجة النبلاء العظام يكرس نفسه للتجارة ... وهم مهرة فى كل فرع من فروع التجارة لدرجة لا يفوقهم فيها شعب آخر » . وكان بعضهم يمتلك رأس مال شغالا يقدر بأكثر من ١٠٠٠٠٠٠ بيســو . وكثيرون كانوا يمتلكون أكثر من

(*) أربعة عشر موقفا وهو فى طريقه إلى جبل الجلجثة .

(**) Siete Pecados

(***) Siete Jeringas

(+) Huevo

(×) Pariö

(××) Ciudad Criolla

٥٠٠,٠٠٠ . وفى ذلك الوقت كان أغنى تاجر فى ليما كورسيكى الأصل ومن المهم أن نلاحظ أنه من بين الأجانب فى المدينة كان هناك فرنسيون، وايطاليون، ألمان ، وإغريق ، ومن دلماشيا رجنوا ، وانجليز ، وهنود ، وصينيون . وبعد مضى أكثر من قرن رسم خوان وايووا صـــورة مشابهة ، ولكنهما قالا : « إن ثورة معظم الأسر تنتهى بانتهاء حياة الشخص الذى كونها » . وقالا : « إن لدى سكان ليما استعداداً غريزيا وميلا للتجارة ، ويمكن اعتبار المدينة كأكاديمية تلجأ إليها الجموع الغفيرة ليكملوا أنفسهم فى مختلف فنون التجارة . . . وهناك أسر كثيرة يعيشون عيشة فاخرة من إيراد مزارعهم فقط ، درن أن تكون لهم صلة بهموم التجارة وهلعها ، ولكن عدداً أكبر من المزارع تضيف إلى إدارتها مزايا التجارة للحفاظ عليها » .

وجلب الاستقلال معه تغييرات كثيرة لايستهان بها فى حياة ليما . فالمناجم فى الجبال لم تعد تدر العائد الذى كانت تدره فيما مضى . وباختفاء الإسبانيين تسلم الخلاسيون إدارة المدينة الاقتصادية كما تسلموا حياتها السياسية . كتب كابتن بازل هول الذى كان يزور ليما فى أثناء احتلال سان مارتن المدينة يقول : « كان كل شيء ريبة ويأسا . فى الأزمنة الماضية كان الليماويون يقولون إن مدينتنا كانت مدينة فيها تملك السرور بلاطها ، وكانت الثروة واليسر خادمين ، والمتعة شغلنا الشاغل . ولم نحلم بأى شر سوى الزلزلة : وعليهم حتى الآن أن يتعلموا أن هناك زلازل معنوية وسياسية ، كما أن هناك زلازل طبيعية ، قد تستطيع تدمير هيكل المجتمع رغم أنها تترك الكنائس والمساكن لايمسها سوء » . وعندما زار تشارلز داروين ليما

لاحظ أنه رغم أنها « كانت فيما مضى بلدا فخما بكل تأكيد » ، فقد كانت حينذاك « فى حالة يرثى لها من العفن » . وأضاف : « الشوارع غير ممهدة تقريبا ، وأكوام القاذورات متراكمة فى الاتجاهات ، وهناك يلتقط الدجاج الأسود(*) ، وهو مستأنس كالدواجن ، القطع الصغيرة من الرمم وشاهد ا . ج سكوير ليما فى السبعينيات من القــــرن التاسع عشر عندما ازدهر اقتصاد بيرو من رواج سماد الجوانو (**) . قال عن عاصمة بيرو التى كانت حاضرة نائب الملك المترفة المتعصبة : « إن مدينة الملوك القديمة لاتزال غنية وبهيجة ومزدهرة ، وأكثر ترفا عما كانت عليه فى أكثر أيامها الاستعمارية افتخارا » (٨) .

وعندما أقيم الاحتفال بتأسيس ليما فى ١٨ من يناير سنة ١٥٣٥ لم يحضر سوى فرانسسكو بثارو وأحد عشر إسبانيا . وسرعان ماحضر عدد أكبر من الداخل . وبانقضاء السنة بلغ سكان مدينة الملوك ، كما كانت تعرف آنذاك ٦٩ مسجلا(***) أى مواطنين سجلوا أمام مجلس المدينة(×) وكانوا أكفاء لتسلم قطع من الأراضى فى زمام البلدية . والجدول الآتى يبين نمو المدينة والنسب المختلفة لعناصر السكان .

وأهم مايسترعى الاهتمام فى هذا الجدول هو زيادة نسبة المولدين من هنديات فى مجموع السكان . وقد تسبب الاختلاط المنطلق للعناصر الثلاثة

(*) gallinazos
(**) طائر له ذرق يستعمل سمادا
(***) vecinos
(×) Cabildo

السنة	المجموع الكلى	بيض	هنود	مولدون من هنديات	زنوج	مولدون من زنجيات	تهجينات اخرى
١٥٩٩	١٤,٢٦٢						
١٦١٤	٢٥,٤٣٤	١٢,١٣٤	١,٩٧٨	١٩٢	١٠,٣٨٦	٧٤٤	
١٧٠٠	٣٧,٢٣٤						
١٧٥٥	٥٤,٠٠٠						
١٧٩١	٥٢,٦٢٧	١٧,٢١٥	٣,٢١٠	٢٣,٢٣٣	٨,٩٦٠		
١٨١٢	٦٣,٩٠٠	١٨,٢١٠	١٠,٦٤٣	٤,٨٧٩	١٧,٨٨١	١٠,٢٣١	٢,٠٥٦
١٨٣٩	٥٥,٦٢٧						آسيويون
١٨٧٦	١٠٠,١٥٦	٤٢,٦٩٤	١٩,٦٣٠	٢٣,١٢٠	٩,٠٨٨		٥,٦٢٤
١٩٠٨	١٣٠,٢٨٩	٥٥,٩١٨	١٩,٨٧٨	٤٣,٥٥٩	٧,٢٧٥		٣,٥٧٢
١٩٢٠	١٧٣,٠٠٧	٧٠,٣٥٠	١٨,٢٤٨	٧١,٦٨٨	٦,٦٠٨		٥,٦٧٣
١٩٣١	٢٧٥,٩٠٨	٩٤,٩٩٨	١٥,٧١٩	١٤٤,٥٢٧	٨,٢٤٤		١٢,٤١٧
١٩٤٠	٤٠٢,٩٧٦						
١٩٦٥	*١,٣٠٠,٠٠٠						

(*) تقدير لسنة ١٩٦٥

الأساسية قبل نهاية عهد الاستعمار نشوء مجموعات مهجنة معقدة لا تزال تميز ليما ، كما تميز مدنا كثيرة أخرى فى أمريكا اللاتينية (١٠) . وكان من نتيجة التهجينات المتتابعة بين مختلف المجموعات أن التركيب الاثنوجرافى للسكان كان فى تدفق دائم حتى إنه لم يحدث أبداً أن كانت هناك سـلالة قياسية . وفضلا عن ذلك فإن التدرجات فى الاختلاط كانت كثيرة ومحيرة ، والاختلافات فى الملامح خادعة، لدرجة أنه لم توجد قاعدة للتحديد الدقيق للسلالة التى ينتمى إليها شخص من مجموعة بالذات . أما الاصطلاحات المنمقة التى ابتكرت للتفريق والتمييز بين جميع التهجينات الممكنة فقد كانت ذات قيمة محدودة جدا فى التطبيق العملى ؛ ذلك لأنه لما كان دم البيض مرغوبا فيه كأمنية قصوى وسامية فى كل المجتمعات الاستعمارية فإن المولد الفاتح السحنة كان ينقل نفسه على سلم اللون الاجتماعى إلى المستوى اللونى المعادل كلما سنحت الفرصة لإعلان شخصيته . فإذا كان تلوينه فاتحا إلى درجة كافية فليس هناك من يوجه أية أسئلة ، ويكون الشخص قد أخذ مكانه بين الطبقة المختارة فى المجتمع ، على الأقل فيما يتعلق بالنواحى الاثنوجرافية . أما الباقى فكان مسألة سلوك واقتصاديات ، ولو أن النقص فى حلقات سلسلة النسب فى المجتمعات المتعاظمة كان دائما أمراً معوقا . ولمثل هذه الأغراض كان دم الانكا يؤهل صاحبه إلى الارستقراطية ، كما حدث لأسرة أمبورو والمؤرخ جارسيلاسو دى لافيجا (١١). وأحيانا كان ذوو الطموح الاجتماعى من الناس يشترون تراخيص بيضاء (*) من بيت مال مأزوم ، لم تترك أية شكوك قانونية فى حقهم الاتجاه إلى البيض ، مهما تدخلت الحقائق البيولوجية فى الموضوع . وإلى حد ما اصبح هذا

---

blancura (*)

إجراء عاديا فى البرازيل حيث كان هناك تعصب لونى أقل مما كان فى المستعمرات الإسبانية .

وفى مجتمع سادت فيه مثل هذه التنظيمات أصبحت الضغائن العميقة ومظاهر الحنق بين الطبقات غير الممتازة اجتماعيا ، بعبارة أخرى السلالات المهجنة ، أمراً لا مفر منه . فالدماء النقية كانت تصف مقابل الدماء المختلطة التى لا خلاص منها سوى عن طريق سلسلة من التهجين الاتفاقى المتجدد الذى يحقق انحدار الشخص من طبقة البيض المحسودة . أما البديل الوحيد فقد كان الحصول على نوع من الامتياز الشخصى الفائق بمجهوداته الخاصة والذى يجبر الطبقات الممتازة اجتماعيا على الاعتراف به . أما بالنسبة إلى المهجن من عنصرين هندى وزنجى (*) ، والخالى من إكسير دم البيض فى عروقه ، فإن مطمحه الاجتماعى يكاد يكون ميؤوسا منه .

وتجاوز الحكام الإسبانيون ، تجاوزاً ضمنيا على الأقل ، عن هذه الفروق والعداوات فى المجتمع الاستعمارى . فاستمرارها كان يؤكد أن هـــذه السلالات المهجنة لن تتحد لكى يجمعوا خيبة أملهم ويحولوا استياءهم نحو الأقلية البيضاء ونحو سلطة إسبانيا التى كان يمثلها البيض . وكانت الحكومة مهتمة فقط بأن تبقى احتمال ثورتهم تحت السيطرة ، وبأن تمنع أى قسم من أقسام السكان من التوكيد على كيانه إلى الدرجة التى تضر بالصالح العـــام . وبمرور الوقت أصبحت الأنواع المختلفة الناتجة عن الاتصال الجنسى قد اختلطت جيداً حتى إنهم كانوا يعاملون جميعا دون تمييز «كأناس ملونين» أو «مستيثو» ، إذا أخذنا المعنى الفرنسى للجنس (**) فأصبحت هناك أغلبية متكتلة من المولدين ، وقد يكون جزء منهم مولدين

(*) ثامبو zambo

(**) métis بمعنى مهجن .

من زنوج فى تركيبهم الجنسى . وأصبح التغير فى غضون هذا القرن واضحا تماما ، ويشاهد فى تجميع كل السلالات المختلطة فى الإحصاءات الرسمية فى بيرو . ولم يؤثر الأوروبيون الآخرون الذين قدموا بعد الاستقلال ، ولا الشرقيون الذين بدأوا يفدون بعد منتصف القرن الماضى تأثيرا ماديا فى عملية التهجين . فبخلاف الحال فى أرجنتينيا وأروجواى وجنوب البرازيل ، حيث كانت العناصر غير الإسبانية من الأوروبيين عاملا مكوناً رئيسيا ، أصبحت المشكلة مشكلة قومية بحتة ، تمتد جذورها عميقاً فى تاريخ بيرو(١٢) .

والليماوى العادى اليوم مولد فهو يعانى من نفس مركب النقص ، ونفس الأطماع التى لم تتحقق ، ونفس الإحساس الغامض بأنه غير « منتم » وهذا هو الذى يحس به المولد فى أية جهة اخرى . غير أن المولدين فى المكسيك استردوا مركزهم فى المجتمع بعنف الثورة ، وفى أسونثيون وسان سلفادور بنوع من التطور الطبيعى . أما فى بيرو فهناك فرصة أكبر ، على الأقل فى الميدان الاقتصادى ، مما كانت عليه الحال دائما فيما مضى ، وقليل من الأبواب — وتلك الأبواب ضيقه غالبا — مقفلة فى وجه الطموحين والموهوبين ولكن بين الأغلبية من المولدين هناك فتور ظاهرى فى العزيمة ، واتجاه إلى ترقب ما ستقوم به الدولة من أجلهم . فرءوسهم مفعمة « بالمشروعات التى لم تكتمل بعد » والتى قلما تكتمل بسبب النقص فى التفكير السليم وفى الثقة بأنفسهم . وهكذا ، كما فى كل الجهات التى لم يجدوا فيها مكانا يستقرون فيه فى المجتمع ، يصبحون وقوداً لاندلاع الثورة والقادة الأعزاء . لثوار الشعب الذين قد يعرقلون التطور المنتظم للأمة تحقيقا لمجدهم الخاص . فهم يمثلون احتياطيا ضخما من الذكاء لم يستغل منه إلا النزر اليسير ، والذين تحرروا منهم من النطاق الحديدى

لقصورهم الذاتى كى يصلوا إلى مركز عال فى المجتمع أظهروا كفاياتهم بدرجة كبيرة .

وفى هذه الأثناء ، تغير التركيب الأساسى للمجتمع فى ليما إلى حد ضئيل يدعو إلى الدهشة . فلا تزال هناك نفس الطبقة العليا التى يغلب البياض فى بشرتهم ، تعودوا السيطرة من تجارب قرون خلت ، بآرائهم فيما هو أفضل لبيرو — وما هو ، بصفة عامة ، صواب . وهناك نفس الهنود ، بعضهم « بالملابس المدنية » ، وبعضهم قادم لتوه من الجبال ، والجميع يشعرون بالقلق فى المدينة التى لا ينتمون إليها . أما الدم الزنجى فتمتصه كتلة المولدين شيئا فشيئا نظراً إلى عدم وجود مورد لسد النقص ، كما هو الشأن بالنسبة إلى الهنود . ولذلك فقد أصبح السود قلة نادرة .

ولقد كانت ليما دائما مقرا للسلطة السياسية حين أسسها بثارو وزمرة من الرفقاء منذ أربعة قرون على التوالى . وكانت الحكومة فى بيرو سواء مثلها نائب الملك ، أم دكتاتور جمهورى ، أم رئيس دستورى ، تنطق عن سلطة عليا . ففى عهد الاستعمار كانت ملكية كإسبانيا الجديدة أو إسبانيا القديمة نفسها ، وكانت حكومتها فى روحها ، إن لم يكن فى شكلها ، صورة طبق الأصل من حكومة العاصمة . وكما يتبين من الاسم كان نائب الملك خدنا للملك فى ممتلكاته فيما وراء البحار . فكانت تحيط به العظمة والاحتفالات التى كانت ترهب الجموع السريعة الانفعال فى الإقليم . فلم يعارضه الناس ببساطة أو يعارضوه وينتظروا أن يظلوا أحياء . فجميع عملائه وخدمه — من قادة الجيوش والحكام وحكام المدن والقضاة — كانوا يقفون فى ظل جبروته المديد وينالهم نصيب من حصاناته . ولم يحدث مطلقا أن هيىء المسرح لتحدى ادعاءات إسبانيا القديمة والمهيبة فى الأمريكتين حتى زاد الخلاسيون أو الإسبانيون الذين ولدوا فى المستعمرات بأعداد جمة وجريئة فى أواخر القرن الثامن عشر .

وفى خلال حروب الاستقلال قامت ليما بمحاولة خطيرة العاقبة مع الوطنيين . فقد كانت هناك ولاءات متأصلة لإسبانيا لم يكن من السهل استئصالها ، وكان هناك إحجام عن التخلى عن الحقوق الإمبراطورية لعاصمة إقليم نائب الملك من أجل تقييدات الجمهورية انتقصت منها الولايات الخارجية . ولقد حيرت شهية الشعب المتقلب والمحب للمرح والدسيسة ، دون اقتناع كبير ، إلا إذا أثر هذا فى مصالح المرء الخاصة ، تفكير سان مارتن القويم وبوليفا الساخط ، وهو نفسه ليس غريبا عليه الخداع والادعاء . ولكن ليما كانت قد تعودت أن تحكم ، ولذلك فبعد أيا كوشو ، استمرت تسيطر على جمهورية بيرو الجديدة والمنتقصة ولم يقم الجمهوريون باستعراض جميل كما كان يفعل الإسبانيون ، بل كان بعض رجال السياسة الجدد محدثين وسلوكهم غير وقور . ومع ذلك تحملت ليما قادة الجيش الصاخبين والرؤساء المدنيين الغلاظ ، لأنها كانت لا تزال سيدة بيرو - ولم تكن بيرو جزءاً تافهاً حتى تسيطر عليه مدينة ما .

وكانت ليما فى عهد الاستعمار أكثر من أن تكون عاصمة أكبر إقليم نائب ملك فى التاريخ . لقد كانت مشهداً للحياة التمثيلية الزاهية ، بمجونها وجرائمها ومهازلها وفواجعها ، صورها بوضوح ريكاردو پالما فى كتابه « التقاليد البيروفية » (*)، وهو القراءة المفضلة لأهالى بيرو المتعلمين (١٣) . وبطريقة ما تركت شدة انفعالات الفتح أثرها فى روح المدينة ، وكانت الزلازل المتكررة تذكر سكانها كم آلت آمالهم ورضاءاتهم جميعا إلى زوال وكان نبض المدينة يضرب أسرع من نبض مدينة المكسيك ومن نبض بوجوتا . ولذلك فقد كان هناك اتجاه لاقتناص متعتهم كلما كانت عندهم بقية من وقت . وكان الليل والضباب والأبواب الضخمة التى كانت لبيوتهم

(*) Tradiciones Peruanas.

المحصنة تخفى توددائهم ودسائسهم، ومخاتلاتهم(*) وانتقاماتهم وقد تكون الضحية نائب ملك اشتط به حب الشهوات مثل كونت دى نيفا، أو الخطيب الذى يلح أكثر من اللازم فى خطبة سيدة فوق مستواه الاجتماعى. أما النهاية فقد خصصت لمستلزمات التقوى والإحسان، والاستعراض والنزهة والتحدث، وللعمل لإدارة أشغال المدينة وإقليم نائب الملك.

وبقيت بعض المدن والبلاد الاستعمارية حتى العهد الجمهورى كقطع متحفية وآثار لتاريخ قديم. فربما كانت المناجم التى اعتمدت عليها فترة مجدها القصير قد نفدت كما فى أورو پريتو فى ميناس جيرايس، أو أن اقتصاديات الجمهوريات لم تجد مقوما آخر لها تعتمد عليه. ولذلك فلو أن الوصول إليها ميسر بطرق المواصلات الحديثة فإنها تصبح أماكن تجذب السياح، وأهدافا تستوجب الاحترام محليا. وأول مكان من هذا النوع كشكو العاصمة القديمة لامبراطورية الإنكا، حيث يحتفل فيها بأهم حادث تاريخى فى السنة وهو الاحتفال الهندى،(١٤) (**) ومع كونها معجزة أثرية وتاريخية فإن لها موارد قليلة ظاهرة لإعانتها، فهى تستجدى بإلحاح على أبواب الخزانة الأهلية، فى حين أرسلت الأمم المتحدة فريقا من الإخصائيين الدوليين ليخططوا وسائل لإعمارها. ومن بين البلاد الأخرى التى تنتمى إلى نفس النوع پوتوسى، وكانت فى يوم ما من أكبر مدن نصف الكرة، ولوجا، وهى مختبئة بعيدا فى ركن من الجبل فى أكوادور. ومن هذه الناحية كيتو أيضا، وبوبايان فى كولومبيا. وجواناخواتو فى المكسيك، وترنداد فى كوبا. وبعد الاستقلال بوقت طويل احتفظت مدن كثيرة مزورة عن طرق السفر الرئيسية بجوها القروى المتراخى. وعلى الرغم من أن اسونثيون عاصمة أمة مستقلة فقد تغيرت تغييرا ضئيلا بمرور الزمن بشكل يلفت النظر.

(*) enganos
(**) Inti - Rami

أما سانتا كروث دى لاسييرا ، فلكونها منفردة رغم خطوط الطيران ، فى سهول بوليفيا الشرقية ، فهى لا تزال تحتفظ بكثير من جو اللهو والمرح الذى شاهده هيرندن وجيبون منذ قرن مضى فى تلك « المدينة الواقعة على حدود الجنس الإسبانى . وعاش سكانها مستقلين عن العالم الخارجى ، وبجهود ضئيل تمتعوا بثمار بيئة طبيعية سخية . أضف إلى ذلك أن جنود البحرية الأمريكية لاقوا هناك « درجة من الرقة والأدب قلما لاقوها فى أماكن متمدنة أخرى من العالم » .

بوتوسى

على الرغم من أن الفضة قد أخلت السبيل من زمن طويل للقصدير ، فإن مدينة التعدين الشهيرة بوتوسى ليست إلا قوقعة فارغة من ذاتها الماضية ، أسست فى سنة ١٥٤٥ عند سفح الجبل المخروطى الذى يظهر فى درع جمهورية بوليفيا وسرعان ما أصبحت أغنى معسكر تعدينى فى بيرو وفى العالم أجمع ، وكونت ثروات طائلة لعدة من الفاتحين الأوائل . وكانت من بادىء الأمر مكانا مضطربا ، وتحدت حوادث الشغب المزمنة بها ومعارك الشوارع عدة مرات قوة نفوذ نائب الملك . وعاش المعدنون والتجار فيها عيشة بذخ وعنف فى جو من التوترات ، يزيد من حدتها ، على ما يبدو ، المناخ المجهد إلى درجة فريدة على ارتفاعها البالغ ١٤٠٠٠ قدم . وقد قال الأب أكوستا عن مناجمها : « أعظم الكنوز قاطبة الموجودة فى العالم » . أما الأب فاثكيث دى إسبينوسا الذى شاهدها فى أوائل القرن السابع عشر فقال : « إنها كانت أكبر مستعمرة يجدها المرء فى الهند الغربية » . ومن بين ساكنيها الدائمين كان هناك أكثر من ٤٠٠٠ إسبانى ممن يملكون مناجم وطواحين ومن التجار . وكذلك كان هناك كثير من المحاربين القدامى يعرفون باسم « جنود الشرف » (*) الذين كتب عنهم الأب فاثكيث يقول : « الحقيقة أن كثيراً

(*) Soldados honrados

منهم نفوس ضائعة . وقد كان من الأفضل لو أنهم مارسوا عملا أو حاولوا أن يكسبوا شيئا بطريقة أخرى لأنهم السبب الرئيسى فى الاضطرابات التى يحتمل أن تنشب فى تلك المملكة» . وبالإضافة إلى الحرائر وأدوات الترف الأخرى التى رآها معروضة للبيع فى الحوانيت قال إن فنادق المدينة كانت تصرف سنويا أكثر من مليون ونصف مليون « دورق » من النبيذ . أما الفرنسى أكاريت دو بسكى الذى زار بيرو عن طريق بوينس أيريس خلال السنوات ١٦٥٧ – ٥٩ فقال إن هناك من ٣٠٠ – ٤٠٠ إسبانى قادر على حمل السلاح ، وإن حوالى هذا العدد من المولدين كانوا يعيشون فى بوتوسى . ووجد أهاليها محبين للمشاجرة ومتغطرسين ومنغمسين فى التباهى . وقال إنه شىء عادى أن يلبس المرء ثلاث أو أربع صدريات من الجلد لتحميه من ضربات السيوف . وكان لا يزال هناك ثروة عظيمة فى البلدة بعد أكثر من قرن من تشغيل المناجم . وكثير من الأفراد كانوا يملكون ثروات تصل إلى ثلاثة أو أربعة ملايين بيسو . وكانت النساء يقرن فى بيوتهن « بدرجة أكبر بكثير مما فى الحال فى إسبانيا » ، ويبقين (نشوانات) بتعاطى الكوكا وعند ما رأى (الإنكا) المتجول كونكولوركورفو بوتوسى فى سنة ١٧٧٠ كان هناك فقط حوالى ١٢٫٠٠٠ من السكان فى المدينة ، وكانت المناجم خربة . قال : « على الرغم من وجود ثروة طائلة فليس هناك بناء فخم فى البلدة إذا استثنينا دار سك النقود – وهى دار فخمة حقيقة » . وكان السكان فى شجار لدرجة أن رجلين قلما يتصادقان مدة أسبوع . وبدا الثبات الوحيد فى السعى وراء « شهوات العشق » ، وهى حرفة مجزية تقاعدت عنها حديثا بضع نساء ليعشن سخاء رخاء بعد أن أجبرن عشاقهن الوقتيين على الزواج منهن . وقال جوزيف اندروز الذى رأى بوتوسى فى أواخر عهد الاستعمار : « إنها تبدو كمدينة لأمير المعاصى ، غريبة ، مهجورة وحيدة ، غامضة ومكانا للفتنة الشريرة» .

هناك عدد لا يستهان به من المدن الجديدة فى أمريكا اللاتينية .
ها كان قرى (*) خاملة عاشت فى خمولها طوال عهد الاستعمار ،
ها انطلقت تحيا حياة جديدة فى القرن الماضى لتصبح مراكز هامة
ونتيفيديو وروساريو ، ثانى مدينة فى أرجنتينا اليوم . وبعضها مدن
ة كلية أنشئت لسد حاجة خاصة فى حياة الأمة الاقتصادية والسياسية .
هذه انتوفاجستا ، وهى أهم ميناء فى شمال تشيلى ، ولم تنشأ حتى سنة
، ولا بلاتا وقد تأسست فى سنة ١٨٨٣ ، وقد سميت من جديد ايفيتا
، وتوريون ، وهى مركز تجارى صاخب فى شمال المكسيك ،
ها خمس وسبعون سنة فقط . بل هناك مانيثاليس ، وهى أصغر عمراً
ة إقليمية هامة ومركز للبن فى كولومبيا . أما بيلو هوريزونتى وجويانيا
هما عاصمتان للولايتين البرازيليتين ميناس جيرايس وجوييز على
 — فهما مدينتان أنشئتا قسراً وبالأمر بعد خطة مدروسة مثل
طن وكنبرا . وبيلو هوريزونتى بسكانها الذين يناهزون أكثر من ثلث
 نسمة من أشد المدن جاذبية فى أمريكا الجنوبية . ومنذ زمن بعيد
حكومة الجمهورية البرازيلية إنشاء عاصمة فيدرالية فى منطقة تخصص
غرض فى هضبة جويازالنائية ، وهناك اقترض أن البيئة الخام المرحة
كون ملائمة لتحسين الخدمة العامة . وعلى الرغم من أن اقتراح نقل
لحكومة من ريو دى جانيرو كان يجدده من وقت إلى آخر مشرع
 (**) لغرض تطهير الدولة ، فقد تأخر نقل العاصمة إلى برازيليا
قت قريب ، رغم ما شيد من مساكن لإيواء موظفى الحكومة
ادية البيروقراطية الذين كانوا يعزفون عن قبول الانتقال إلى عاصمة
 البرية (***) .

---

*) Pueblos

**) Catonian نسبة الى كاتو مشرع رومانى .

***) سرتاو Sertao : غابات وفيافى فوق المرتفعات.

وفى أقطار معلومة فى أمريكا اللاتينية تطورت مدن ثلاثية — نمط ثلاثى لوظيفة المدينة . ذلك أن الأغراض الرئيسية الثلاثة المدينة — السياسى والاقتصادى والاجتماعى أو الثقافى — تمثلها بدرجة غير عادية مدن كثيرة مختلفة بدلا من تركيزها فى عاصمة واحدة ، كما هى القاعدة فى معظم الجمهوريات . فمدينة واحدة هى أساسا العاصمة السياسية ، أى مقر الحكومة على الرغم من الوظائف الأخرى التى قد تؤديها . وأخرى هى ، فوق كل شىء ، مدينة اقتصادية ، أى مركز الصناعة والحركة التجارية ، ومخصصة أساسا لخلق وتوزيع الثروة والثالثة هى حرفيا مدينة متحضرة ، أى مركز حضارة تتخصص فى فنون المعيشة . وقد تتفوق فى إنجازاتها الثقافية ، ولكن هذا ليس ضروريا . وهى عرضة لأن تصبح المدينة المفضلة لشعب بأكمله أو المدينة المحبوبة (*) — المكان الذى يفضلونه للزيارة فى أوقات فراغهم . وليست الولاءات العميقة نحوها نتيجة اهتمام ، بل نتيجة عاطفة ، وقيمها العزيزة هى قيم الروح وفى إسبانيا نفسها نجد هذا النمط الثالوثى فى مدريد وبرشلونة وإشبيلية . وعلى الرغم من أن هذا النمط ليس واضحا فى تفاصيله فهو ممثل فى إيطاليا فى روما وتورينو وفلورنس . أما فى أمريكا اللاتينية فهناك مثل كلاسيكى فى البرازيل فى الثالوث المدنى المكون من ريو دى جانيرو وساو باولو وباهيا . وأمثلة أخرى مدينة المكسيك — مونتري — جوادالاخارا فى المكسيك ، وفى كولومبيا تظهر الأجزاء الفردية من الثالوث فى بوجوتا وميديين وبوبايان ، المدينة الاستعمارية القديمة الجميلة .

(*) Ciudad querida

العواصم

كان الاتجاه العادى فى الجمهوريات هو نحو سيطرة العاصمة على جميع المدن الأخرى والهوين من شأنها . وهذه الحالة الاحتكارية هى ميراث النظام الاستعمارى ، عندما كانت القوة والثروة والثقافة تشجع لكى تنجذب نحو مقر الحكومة ، وذلك لخدمة أغراض السياسة الامبراطورية. واستمرت الخطة بإصرار فى بساطتها الأصلية فى أرجنتينا وتشيلى وكستاريكا وكوبا وجمهورية الدومنيكان وباراجواى وبيرو وأوروجواى وفنزويلا . فليس هناك مدينة ثانوية تقرب من حيث نفوذها أو سكانها من مركز العاصمة الآمر فى أى من تلك الأقطار . وتوجد حالة مماثلة إلى درجة غير مكتملة فى جمهوريات أمريكا الوسطى ، هى جواتيمالا وبنما وال سلفادور . ولا تسود هذه الظاهرة فى بوليفيا أو أكوادور أو نيكاراجوا ، ولا فى الدول الكبرى المذكورة آنفا ، ونعنى بها البرازيل وكولومبيا والمكسيك . فالمدن البوليفية - كوشابما وأورورو وسوكرى وبوتوسى وسانتا كروث - وهى منعزلة الواحدة عن الأخرى وتفصل بينها مسافات طويلة ، عاشت حياتها الخاصة وطورت كل منها صفات خاصة بها ؛ وأصبح تطورها داخليا وخاصا من حيث موقف الواحدة منها بالنسبة إلى الأخرى . وعلى الرغم من أن لاباث أصبحت بمرور الوقت تملأ فراغا سياسيا معينا من بين جميع هذه الانعطافات المتباعدة عن المركز ، وجاءت بحلقة ربط صناعية لوصل أجزائها ، فإن المدن الأخرى كانت تنزع إلى النظر إليها كطفيلى يعيش على إيراد زهيد يجمعه من البلاد(١٦) . بل إن كيتو فى أكوادور ليست أكبر مدينة فى الجمهورية، وهى مضطرة إلى معاملة جواياكيل بالاحترام وتنظر إليها بعين الاعتبار نظراً إلى تفوقها فى الأعمال والأهمية . أما بخصوص نيكاراجوا فإن ليون

وجراتادا قد لا تعترفان برضا بتفوق ماناجوا العاصمة الحديثة النعمة والتى تدين بمركزها إلى منافستهما المريرة التى لا تقبل المصالحة(١٧) .

ويمكن التعبير عن مركز العاصمة العادية المسيطر بالتفاوت الكبير الموجود عادة بين سكانها وسكان المدن الكبرى فى الأقاليم ، فبينما يبلغ عدد سكان ليما العاصمة ١٫٣٠٠٫٠٠٠ نجد أن عدد سكان أريكيبا ، وهى ثانى مدينة فى بيرو أقل من ٩٠٫٠٠٠ . ويزيد عدد سكان كشكو على ٤٥٫٠٠٠ ، وتروخيو حوالى ٤٠٫٠٠٠ وشيكلايو حوالى ٣٥٫٠٠٠ . وفى تشيلى أكثر بكثير من ١٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة يعيشون فى سانتياجو من بين مجموع السكان البالغ عددهم ٨٫٨٩٠٫٠٠٠ . وفى مدينة فلبارايسو الساحلية ، وهى فى الحقيقه ملحق اقتصادى للعاصمة ، مثل كياو بالنسبة إلى ليما ، هناك حوالى ٢٥٠٫٠٠٠ نسمة وفى كونسبسيون ، ثالث مدن تشيلى أقل من ١٠٠٫٠٠٠ . ويعيش حوالى ٨٠٠٫٠٠٠ كوبى فى هافانا ، ولكن فى سانتياجو يعيش حوالى ١٧٠٫٠٠٠ فقط ؛ و ١١٥٫٠٠٠ فى كاماجوى . بل إن التباين فى أوروجواى أكبر ، فمونتيفيديو حوالى ٨٥٠٫٠٠٠ أو تقريبا ثلث مجموع سكان البلاد ، وپايساندو ، ثانى مدينة ، بها فقط حوالى ٤٧٫٠٠٠ نسمة ، ومرسيدس حوالى ٤٠٫٠٠٠ ، وليس هناك فى پاراجواى مدينة كبيرة ، إذ يبلغ مجموع سكان أسونثيون وضواحيها أقل من ٢٠٥٫٠٠٠ شخص ، ونياريكا ، وهى الثانية فى الحجم، بها فقط حوالى ٣٠٫٠٠٠ بما فى ذلك الأشخاص الذين يقطنون فى « حى البلدية » الذى يماثل « الدائرة »(*) الأمريكية، ومن بين ٢٢٫٥٠٠٫٠٠٠ شخص فى أرجنتينا ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ تقريبا يعيشون فى العاصمة الكبرى بوينس أيريس ، وهو تفاوت خطير فيما هو أساسا بلاد زراعية . وهناك

(*) County : قسم من الأقسام الإدارية التى تنقسم إليها البلاد لاغراض إدارية أو قضائية أو انتخابية الخ .

أربع مدن أخرى — روساريو (٥٦٠٫٠٠٠) وكوردوبا (٤٦٠٫٠٠٠) ولابلاتا أو ايفيتا بيرون (٢٦٠٫٠٠٠) وسانتافى (١٧٢٫٠٠٠) — تضيف تقريبا ١٫٥٠٠٫٠٠٠ إلى السكان المدنيين فى الجمهورية(*) .

والعاصمة فى الجمهوريات المركزية مثل بيرو وتشيلى ، بنظام حكمها الهرمى المتوارث بواسطة الحكام ورؤساء المصالح و « كبار السياسيين » ، تتحكم فى الحياة السياسية للبلاد بفعالية ، كما كان يفعل أى نائب ملك إسبانى أو قائد جيش طوال العصور . فقد كان مصدر القوة النهائى فى قرارة الهرم هو الرئيس المحلى(**) الذى يوصل الرغبات فى ناحية ، وفى الناحية الأخرى يرسل الأوامر والمؤن من العاصمة إلى المواطنين ، ولقد دعمت تسهيلات النقل والمواصلات الحديثة قبضة العاصمة على بقية أرجاء البلاد . وينقل الراديو صوت السلطة إلى أطراف الجمهورية ، وربما يدوى من مذياع فى الميدان فيزعج القائلين(†) فى بلدة فى الأقاليم . وتحمل الطائرات الصحف التى تجسم ما يجرى من الآراء فى العاصمة ، وأوراق (††) الإدارة ، وبيروقراطيين من ذوى الهيبة فى رحلات التفتيش إلى داخل البلاد . فمثلا بينما كان موظفو الحكومة البيروفية الرسميون يذهبون سابقا إلى ايكيتوس عن طريق قناة بنما والأمزون ، وفى طريقهم قد يعرجون أحيانا فى رحلة عارضة على نيويورك ، فإنهم يستطيعون الآن الطيران إلى المدينة فوق نهر مارانيون فى بضع ساعات .

وتصبح العاصمة واجهة عرض للبلاد . فقد طرأت عليها مظاهر

(*) جميع هذه الأرقام معدلة إلى تعداد سنة ١٩٦٥ (تقديرات) .

(**) jefe politico

(†) من ينامون بعد الظهر — من القيلولة .

(††) papeleo

المدنية الحديثة ، وتلألأت بالأنوار الكهربية ، والشوارع الواسعة البهية(*) ، والمتنزهات التي تذكرنا بباريس ، والمباني العامة الأخاذة . أما الموانى الجوية مثل ليما تامبو وميلنيستر و بستاريني فى بوينس أيريس فقد تكون مثار حسد نيويورك أو شيكاغو . وتزيد الاهتمامات الشخصية من الأثر بالحوانيت الجذابة وأنوار النيون والعمارات السكنية الفخمة . فهى مكان يروع المال والناس إليه . ونظراً إلى أن العاصمة هى مركز البنوك والمال فإن الثروات تتدفق فيها بطبيعة الحال للاستثمار أو كودائع أو لكى تصرف ، لأن أولئك الذين يكونون ثرواتهم فى الأقاليم ينزعون إلى صرفها فى العاصمة ، وقد يقضون فيها جزءاً كبيراً من السنة يحولون فيها بيوتهم هنالك . أما الشباب الأكثر طموحا وتفتحا فى الأقاليم فقد تعودوا أن يذهبوا إلى العاصمة لاستكمال تعليمهم وكثيراجدا ما لا يعودون إلى بلادهم الأصلية ليطبقوا ما جنوه من تدريب لسد حاجات مجتمع غلب عليه التخلف ، وذلك بعد أن أخذوا بسحر المدينة الكبيرة والفرص الكثيرة للترقى والشهرة . وعلى ذلك فهناك ميل لأن تغص العاصمة بالأطباء والمهنيين الآخرين الزائدين على الحاجة ، وغالبا ما تكون هناك قلة نادرة منهم فى المراكز الريفية ليعنوا بالحد الأدنى من حاجات السكان المحليين .

مشكلة التحضر **

بلغ التحضر فى أمريكا اللاتينية درجة فائقة زائدة على الحد ، مع بضعة استثناءات كالبرازيل وبيرو ، خصوصا إذا أخذنا فى الاعتبار

(*) granvias

(**) urbanisation ويقصد به نشوء وتطور المدن التى امتاز بها العصر الحديث .

الصفة الرئيسية لاقتصادها وظرف تطورها الحالى . فى معظم الأقطار لا توجد أموال عامة كافية للتداول لتمويل تجدد جميع المدن دفعة واحدة . ولذلك فالبلاد فى الأقاليم تعطى قليلا قليلا ، وما هنالك من أموال تتجه الدولة إلى صرفها بسخاء على العاصمة وأية مدن أخرى تستطيع أن تضغط سياسيا على خزانة الدولة . وإلى حد ما لا توجد مدن فى البرازيل لتوفير الخدمات الثقافية والاقتصادية الضرورية التى هى حق لأية جمعية أن تتوقعها منها . ولذلك فهناك تخلف ثقافى كبير بين ريو دى جانيرو وساوباولو والمنطقة الساحلية الجنوبية عموماً من جهة ، والخلفية الشاسعة من جهة أخرى . وفى ميناس جيرايس ، وهى ولاية هامة عدد سكانها ٩٫٠٠٠٫٠٠٠ ، نجد أن بيلو هوريزونتى هى المدينة الوحيدة التى يزيد عدد سكانها على ١٣٥٫٠٠٠ . وأما جويز دافورا ، وهى ثانى مدينة فى الولاية ، فعدد سكانها حوالى ١٠٠٫٠٠٠ (*) . وفى ولاية ساوباولو تتحسن الظروف كثيرا عن ذلك ، لأن المدن الداخلية الكبرى مثل ريبيرو بريتو لم يكن لديها الكبرياء والمبادأة المحليان فقط ، بل أيضاً الموارد الضرورية لجعلها مدنا جذابة بحقها الذاتى . أما البرازيل ، كما هو الوضع فيها ، فبها نسبة من أعلى النسب الموجودة فى أى بلد فى العالم بين سكان الريف والقرى وسكان المدن والمشكلة الأساسية اللامة فى هذا الصدد ليست فى زيادة سكان المدن ، بل فى النمو السريع الزائد على الحد فى سكان ريو وساوباولو بالنسبة إلى سكان المدن الأخرى ، وفى التسهيلات التى تستطيعان تقديمها إلى جيش الوافدين الجدد من بقية أنحاء البلاد . وفى بيرو تفسر لنا تقاليد ليما ، المصرة على أنها عاصمة إقليم نائب ملك . ومركزها غير العادى فى كل ميدان فى حياتها القومية . أضف إلى ذلك أن مجموعات الهنود المحافظين وذوى العقليات القروية فى الجبال برهنوا على أنهم معوق لأى تحرك عام

(*) تقديرات سنة ١٩٦٥

للناس نحو العاصمة . ولذلك فإن ديا تجتذب نمو سكانها من الأقاليم الساحلية إلى الشمال والجنوب أكثر من تستميلهم من الأراضى الجبلية فى الشرق .

وأعنت الكفاح المرير بين بوينس أيريس والأقاليم فترات كثيرة من تاريخ الجمهورية الأرجنتينية . وكان القرار الخطير هو : هل يجب أن تحكم البلاد من « الميناء » بواسطة نوع مركزى من الحكومة كما فى تشيلى وبيرو ، أم بنظام فيدرالى كالنظام الذى اتبعته المكسيك من قديم ؟ ولمدة طويلة كانت هناك حروب متقطعة بين «الوحدويين »(*) «والفيدراليين» عوقت تطور الأرجاء الداخلية الغنية . ولم يعم السلام فى الجمهورية التى جعلت فيدرالية حتى صيغت طريقة اعترف بها بمركز بوينس أيريس غير العادى ، وأدمجت فى « إقليم فيدرالى » بدلا من أن يسمح لها باستخدام ولايتها العامة التى تحمل نفس الاسم كأداة لأطماعها فى السيطرة . وقد وصف دومنجو فاوستينو سارمينتو الذى تولى الرياسة من سنة ١٨٦٨ إلى سنة ١٨٧٤ النزاع الذى حدث فى الأثناء فى كتابه « الفصاحة » (**) . أو « المدنية والبربرية » . وفى كتاب سارمينتو كانت بوينس ايريس المقر الوحيد للعادات المتمدنة فى أرجنتينا ، فى حين كان داخل البلاد متخلفا وقرويا بعادات خشنة فظة تتجسم فى الجوشو .

وحتى الاستقلال ، كانت بوينس ايريس بلدة إقليمية خاملة الذكر ، لا ميزة فريدة لها ولا سحر ، فما إن زال كابوس إسبانيا من فوق إقليم نائب الملك الجديد فى حوض نهر بلاتت ، حتى تبوأت المدينة مكانتها . وبتدفق البضائع الأجنبية فى المدينة المرجوة صحبتها الأفكار والعادات . وهكذا كان هناك جو جديد من التأنق حول المكان ، وكان الميناء الساحلى

(*) Unitarians

(**) Facundo »

يطل دون تردد نحو أوربا ، وبخيلاء أدار ظهره المتعاظم نحو خشونات الداخل . ونما شيئا فشيئا تنافر اجتماعى بين عظمة بوينس أيرس العاصمة والأجواء المتواضعة الموجودة، حتى فى أكثر المدن الإقليمية تطورا ، تنافر لا يمكن استئصاله إلا بمرور الوقت .

وهناك مجموعة من العوامل المختلفة ساعدت على « التحضير » الزائد الذى ميز معظم الجمهوريات ، وأثر بصفة خاصة فى نمو العواصم ، مثل كاراكس وسانتياجو . فشبكة الطرق الممهدة التى تتجمع على « روما » المحلية ، ورخص أجور الأتوبيسات التى تستخدمها متنقلة بين المدن ، قد جعلت عادة السفر فى متناول أفقر طبقات السكان . ووصلت الكلمة إلى أقصى أركان البلاد تقول إنه قد يوجد فى المدينة العظيمة وظائف شاغرة فى الصناعات الجديدة أو مشروعات الأشغال العامة الحكومية ، وأيضا الأشياء الأخرى التى تستهوى الناس فى العاصمة والتى يعلن عنها بوسائل أكثر فعالية من ذى قبل الأنوار اللامعة ، المباهج البسيطة ، واجهات المحلات التى تبيع الطرائف ، الاحتفال يوميا بتغيير حرس القصر ، بل وصخب التطور ذاته .

وكانت المدن الكبرى أحيانا تزدهر بشكل غير لائق ، لأنها تسد حاجات عميقة بشرية واجتماعية يجب إشباعها بموارد الحياة الريفية والقروية ، وبما تقدمه ثقافة المدن الصغيرة والبلاد الإقليمية من خدمات ـ بأوسع معانى الكلمة .

المدينة والريف وجها لوجه

أخفقت أمريكا اللاتينية فى أن تجعل الحياة الريفية جذابة . ولم يكن استهواء المدينة الفاتن وحده سببا فى انهيار نظام المزرعة القديم شيئا فشيئا ، ذلك الاستهواء الذى جعل من صاحب المزرعة(*) صاحب أملاك متغيبا

(*) haciendado

عن أملاكه ، لأن كثيرين جدا من السادة شبه الإقطاعيين الذين يملكون الأرض أو خلفائهم قد فضلوا السكنى فى طريق الفيار الذى تصطف على جانبيه الأشجار ، أو فى سان ايسيدرو فى ليما ؛ أو فى فيدادو ، ويزورون مزارعهم لماما . وكثيرا ما يحتفظون بأماكن للفرجة ، فى البمبا أو فى الوادى الأوسط فى تشيلى ، يمكن أن تكون أكثر قليلا من استراحات باذخة فيها تمضى أسرهم وأصدقاؤهم الإجازات . وبهذا ينزعون إلى التنازل عن دورهم الطبيعى فى القيادة فى مجتمعهم المحلى ومسئولية تطويره الذى يتمشى مع مركزهم الممتاز وأعدادهم .

ولكن نظــــام المزارع الكبيرة جميعه كان قد تغير بعض الوقت . وباستبعاد قاعدة العمل التقليدية ، قوض تحرير العبيد فى سنة ١٨٨٨ نمط المزارع الكبيرة التى ميزت شمال البرازيل منذ أيام الاستعمار الأولى . وصفى النظام فى المكسيك أثر ثورة سنة ١٩١١ ، لا لشىء إلا ليعود زاحفا فى وقت لاحق فى أماكن فى شكل ملكيات جديدة . وفى أرجاء من بوليفيا ، نظراً إلى ازدياد عدم ثقة الملاك بالهنود ، قصرت مدة إقامتهم فى مزارعهم المنفردة شيئا فشيئا . أما فى الأقطار المدارية فمزارع الشركات التى كانت على درجة من الكفاية وجهت النظر إلى طرق جديدة فى إنتاج محصولات للتصدير . وفى هذه الأثناء اضطرت زراعة المزارع ، وكانت فيما مضى طريقة مرضية جدا للمعيشة ـــ ولكن قلما كانت مشروعا تجاريا ـ اضطرت بتوالى الظروف إلى الدخول فى عالم الاقتصاد . فظروف المنافسة الجديدة فى الأسواق العالمية ـ فيما يتعلق بالكاكاو والسكر ، وارتفاع تكاليف عملية الإنتاج ، والجموح المتزايد من جانب عمال المزارع ، كل هذه كانت سبباً فى معظم الدافع الذى كان ينادى بالتغيير فى نمط الزراعة ذات الإنتاج الكبير . وإذا كان أصحاب المزارع قد توقعوا أن يعيشوا تحت تغير الظروف ، فربما كان عليهم أن يمضوا

بعض الوقت فى المزرعة ، أو ينتهوا باستقرارهم هناك على الدوام ، ولا يزورون المدينة إلا إذا لم يكن لديهم غير هذا يؤدونه .

ولم تقو بعد فئة مزارعى الطبقة الوسطى بدرجة كافية أو تصبح لها أهمية عددية لتكون عاملا أساسيا فى المجتمع الريفى . ولهذا العنصر المرتقب مناطق راسخة فى « المستعمرات » (*) الأرجنتينية ، وفى بعض أودية المكسيك ، وفى المناطق التى أدخل فيها نظام الرى حديثا على الساحل البيروفى ، وفى مساحات واسعة فى البرازيل ، وبين طبقة ملاك المزارع (**) فى الأقطار « المعتدلة » التى تزرع البن حول البحر الكاريبى . وإن التقدم خطوة فى سبيل تعميمها قد يكون أقوى ضمان لتحسين المستوى الاجتماعى والاقتصادى فى الحياة الريفية فى أمريكا اللاتينية .

وهناك طور للمشكلة عموما أصعب بكثير من مجرد مواجهة المدينة للريف ، وهى المشكلة التى تتمثل فى ملايين الزراع الذين ينتجون لكفايتهم الذاتية . ويختلف مستواهم اختلافا كثيرا ، ولكن يجمع غالبيتهم عامل مشترك هو الفقر . وكثير منهم يعيشون خارج النظام الاقتصادى التقليدى كلية .

فالمسألة ذات أهمية أساسية كبرى ، لأن عدداً كبيراً منهم يمثلون مشكلة إصلاح بشرى عظمى . وبعبارة أخرى يجب أولا إنقاذهم من المرض والجهل ، ومن حياة التنقل المزمنة ، ومن لعنة طرق الزراعة البدائية . ومع ذلك فلما كان هناك عدد كبير منهم ، ولما كانوا من عنصر طيب ، فهم جديرون بأية رعاية ومجهودات قد تلزم لإنقاذهم من التخلف .

وما ذكر إنما هو بعض العوامل التى تحيط بمحاولة إيجاد توازن أفضل

(*) Coeonias

(**) finquero

بين المدينة والريف فى جانبى حضارة أمريكا اللاتينية . وهناك عوامل أخرى هى مد طرق أكثر ، وإنشاء مدارس أكثر ، وتعميم الشبكات الكهربائية فى الريف ، وإنشاء عيادات صحية عامة .

وقد خلق نمو سكان المدن السريع الزائد على الحد مشكلات عويصة لهذه المدن . فكثيراً ما تجد المرافق العامة أن مطالب الصناعة والاستخدامات المنزلية فوق ما تقدمه طاقتها الفعلية أو إمكاناتها الذاتية من تسهيلات ، وكان من نتيجة ذلك أن الماء والكهرباء يوزعان بالبطاقات ، ويمكن الحصول عليهما فى ساعات معينة من اليوم ليس إلا . ويميل النقص فيهما إلى أن يصبح إحدى مضايقات المعيشة فى مدن أمريكا اللاتينية . ثم إن ارتفاع الأسعار الذى يبدأ عادة بإيجارات المساكن ، ثم يمتد إلى المواد الغذائية والملابس ، عادة ما يصحب أى نزوح كبير ومستمر من السكان القادمين من الداخل . وقد تضاعف كثيراً عمل موظفى الحكومة الاجتماعيين بما فيهم رجال الشرطة والمؤسسات الخيرية . أما سكان الأقاليم كالهنود الذين ينزحون إلى ليما من الجبال فيجلبون معهم الجراثيم الخاصة بهم ويصبحون بؤرا للعدوى مما يضيف أعباء على أعباء مصلحة الصحة العامة . وهناك أيضا مشكلات متلازمة شبيهة تؤثر فى الحكومات الأهلية . فمثلا أى تخلخل فى سكان الريف وإيوائهم فى العاصمة يقلل من مقدار الغذاء الذى يمكن الحصول عليه فى البلاد بنسبة نزوحهم عن الريف ، لأن كل منتج سابق للغذاء أيصبح مستهلكا للأشياء التى كان ينتجها من قبل ليس إلا . وبنفس الطريقة قد تزيد مطالب المدن على موارد الطعام العادية ، وفى بعض الأحيان الموارد المزعزعة . وهو خطر يتفاقم أحيانا كما فى حالة ريو لفشل وسائل النقل التى ينقل بها الطعام محليا .

المدينة فى حضارة أمريكا اللاتينية

إحساس المرء بالانتماء إلى المدينة فى أمريكا اللاتينية ، كما هو الشأن فى إسبانيا ، هو مسألة زهو يحس به سكان المدن . وهو يتخذ صورة الولاء لمدينة ، والرغبة فى تمجيدها وتجميلها أما الأمة فلا تثير نفس هذا التعلق العاطفى ، لأن تزعزع ثقة الناس بالحكومة الأهلية منتشر ومتأصل .

فالجمهورية وحدة جديدة وصناعية إلى حد ما ، أنشئت بطريقة تعسفية تقريبا برسم خطوط معلومة على خريطة ، ثم حذر الأجانب ليبقوا خارج الحدود ولكى تكتمل العملية لابد أن يكون هناك علم ونشيد قد لا يغنيه شخص ما من تلقاء نفسه ، وجيش ، ودستور ورئيس .

وأنشئت المدن من زمن بعيد ، لأن الإسبانى كان عرضة لأن يصبح غير سعيد بدونها ، كما كان مواطن باراجواى بدون شجرة البرتقال التى غرسها ، أو الريفى فى تشيلى بدون شجرة التين وقد نمت المدن لأنها حققت الأطماح العميقة فى قرارة نفسه ، فكانت تمثل تقليداً لم ينقطع ، استمر يقاوم الحروب والجائحات الطبيعية وانهيار الحكومات . وكانت ذات حجم تحيط به العين بسهولة أو يمضى أى شخص عبره بوسيلة نقل يملكها فإن منظر ريو من قمع السكر (*) ، أو كوركوفادو (**) ، أو من نقطة تهيىء الفرصة لرؤية طريق تيوكا . أو عبر الخليج ، وأيضا منظر سانتياجو عند الغروب من جبل سانتا لوسيا ، أو المستوى الأعلى لسان كريستوبال ، أو منظر مدينة المكسيك من ممرات الجبال التى تحيط بها — كل ذلك يكفى لرفع معنويات من يسلك هنالك . ففى استطاعته بسهولة أن يحيى مدينته بنفس الرهبة والتبجيل كما كان يفعل رعايا الإنكا عند ما كانوا يدخلون كشكو

(*) "Sugar Loaf" : تل ارتفاعه ١٢٦٠ قدما يشرف على المدينة.
(**) معناها « الأحدب » .

ويسجدون أمام العاصمة الإمبراطورية ويكررون الصلاة لآلهتها الحارسة. فالمواطن يعد المدينة ملكا له، أما القطر فهو ملك للحكومة. وعادة ما يكون القطر كبيراً إلى درجة زائدة، وأرجاء كثيرة منه تنزع إلى أن تصبح كريهة ومعادية. وهناك جبال كثيرة العدد، وجهات صحراوية وغابية كثيرة، أو فراغ كبير كما فى البمبا حيث لا يوجد ما تتعلق به عاطفة المرء. وليس هناك ما هو محبوب لديه كميدان فى مدينة من صنع يديه نفسه. ويعرف المواطن العادى فى أمريكا اللاتينية جيداً شيئا قليلا عن بلاده فيما وراء الأفق المباشر وبعيداً عن الطرق المألوفة. والطرق المألوفة تميل إلى القصر، وضيقة، وغير مريحة، فينتهى الأمر به إلى أن يبقى فى مدينته. ذلك لأن مدينته شىء أليف وعزيز عليه، يشعر نحوه بالحب، ويعتز بما يقدمه لها من إنجازات. فلا غرو إذا كانت المدينة يكاد يسودها كلها حكم أفضل مما تحكم به الدولة.

ويحيى المواطنون بمظاهر الأبهة أعياد مدنهم المئوية. وكثير من هذه الأعياد أعياداً لمدن مضى عليها أربعة قرون من حياة المجتمع التعاونية. وهم يحبون ذكرى معالم تاريخهم بالمظاهر والخطابة، ويؤلف علماؤهم كتبا جميلة تذكارا لعظمة المدينة كما كتب دانيل سامبر أورتيجا عن بوجوتا. وقد تنشر البلدية سجلات مجالس المدن(*) فى عهد الاستعمار لتحفظ للأجيال القادمة التمثيلية البشرية المتحركة لسجلاتها التى استحقت التدوين كما فعلت ليما(١٨).

ولذلك تكافح المدن دائما من أجل قدر أكبر من التجمل والتميز. وتحقيقا لهذا الغرض المشترك فإن قادتها الإداريين ورجال الفن والمعماريين والمهندسين فيها يوحدون جهودهم فى تخطيط المدينة. ويعمل الرؤساء

(*) cabildos

والعمد ، مثل بيريرا پاسوس ، عمدة ريو العظيم ، طموحهم الخاص فى أن يتركوا المدينة شيئا أكثر مهابة وفخامة عما وجدوها . فإذا كان الذى خلفوه شاهدا لهم ، وربما كان شاهدا على غرورهم الفردى ، فإن ثمار ما غرسوه تجنيها المدينة ومواطنوها . فقلما يتعدى خيلاؤهم الشخصى نطاق أنفسهم ، على الرغم من أن حاجات أخرى ماسة فى البلاد قد تضحى لكى تشق العاصمة الهامة الطرق الواسعة ، وتقام التماثيل والأبنية العامة الضخمة والمرافق العملية اللازمة لحياتها اليومية ، كالأسواق وعمليات المياه والمجارى .

عمارة المدن

تغير منظر المدن الكبرى تغيراً أساسياً فى كثير من الأحيان ، وأحيانا بدرجات متفاوتة وبطريقة مهوشة ، كما حدث بالنسبة إلى مدينة المكسيك . وأحيانا يجدد منظر المدينة العتيقة بخفة كما حدث فى بوجوتا ، أو تغير شهوة التجديد قلب المدينة كما يجرى الآن فى كاراكس . أما معظم التغيير الذى طرأ على بوينس أيريس فيبدو أنه وفق خطة منظمة ، ولكن نمو ساوباولو حدث عارض له صفة جوهرية وعالمية تبدو كما لو تتخطى كل تخطيط يصنعه الإنسان . وعلى الرغم من أن أربعا من عواصم الكاريبى — سانتودومنجو ومدينة جواتيمالا وماناجوا ، وسان سلفادر — هدم معظمها أو تقوضت أبنيتها من جراء الزلازل أو العواصف فى القرن الحالى ، فإن نمط تجديدها مقيد اضطراريا بالحدود المتواضعة للموارد المتاحة لهذا الغرض .

وخاض منظر الأبنية العامة فى أمريكا اللاتينية غمار طور يمتد من نمط مدرسة هيريرا (*) الكلاسيكى ، خلال فن الباروك (**) ، ثم العودة إلى الكلاسيكية من جديد ، وأخيرا إلى نمط مقلد للباروك أو نمط « سوق

(*) الأب والابن : من رسامى القرن السابع عشر .

(**) نمط معمارى مسرف فى الزخرف.

العالم » فى العمارة الذى يمثله قصر مونرو فى ريو و « الفنون الجميلة » فى المكسيك(١٩) أما فى الوقت الحاضر فأهم التطورات الإنشائية تشاهد فى معجزات مبانى « المسلح » والزجاج المصنوع بالأساليب العملية الحديثة. وبرهن بعض مصممى أمريكا اللاتينية ، مثل نيمير فى البرازيل ، على أنهم جديرون بأنهم تلاميذ لوكوربوزييه وغيره من رجال المذهب المعمارى القويم وقد كان التأثير الفرنسى كبيرا فى بوينس ايريس لدرجة أن كثيراً من مبانيها باريسى جدا فى منظرها . وإذا استثنينا حالات قليلة وبعض تفاصيل زخرفية ضئيلة لم يترك الهنود أثرا فى العمارة الغالبة فى أمريكا اللاتينية حتى وقتنا هذا . ومن جهة أخرى كان تأثير عرب إسبانيا(*) فى عهود الاستعمار الأولى واضحا أحيانا فى أعمال المعماريين الأندلسيين الذين ذهبوا إلى العالم الجديد ولما كانت معظم العمارة أكليركية فقد كانت الكنيسة هى النمط النموذجى لفن المعمارى ، وعليها كانت تنصب مهارة وخيال المصممين بسخاء . وإذا استثنينا بضع حالات كأعمال اليبادينو فى أورو بريتو والواجهات المميزة للكنائس اليسوعية المسرفة فى الزخرفة(**) ، فإننا نجد أن عمارة البرازيل فى عهد الاستعمار لا تستحق التنوية . وكما قد نتوقع فإن عدم التناسق فى الأبنية العامة فى المدينة الكبيرة العادية مثل مدينة المكسيك لا يزيد على عدم التناسق الموجود فى لندن أو نيويورك . ومن فوق آثار العهود القديمة فى ساوباولو يبدو منظر المدينة بارزة منه فى جهات متناثرة ناطحات السحاب العالية .

وأحضر الإسبانيون معهم فن عمارتهم السكنية إلى العالم الجديد فى القرن السادس عشر كما أحضروا جميع ثقافاتهم وأشياء أكثر قد يحتاجون

(*) mudéiare

(**) باروك

إليها . ورأى خلفاؤهم والقادمون المتأخرون أن ليس هناك سبب معقول لتغييرها كثيرا جدا حتى العصور الحديثة ، فقد كانت تبدو من الخارج بسيطة ومتينة ، وكانت من الداخل تقدم لهم الخلوة والحماية لحياة الأسرة . وكان المسكن مكونا من طابق واحد ، ولو أنه فى حالة كبر حجم الأسرة ويسارها بدرجة كافية ، قد يكون مكونا من طابقين . وفى جميع أرجاء أمريكا اللاتينية لا يزال هناك مئات الأميال تصطف على جوانبها مثل هذه المنازل . ويستطيع المرء أن يشاهدها الآن فى سيلايا أو تونيا ، أو سولتا أو أولندا ، أو فى آلاف المدن الأخرى أو ، لهذا الغرض ، فى هافانا وبوجوتا وليما ، لأنها أبنية متينة جدا . فقد كانت الجدران تبنى عادة من اللبن ، والسقف من القراميد الحمراء تحرق فى الجهات المجاورة . وكان الحائط الأمامى يطلى باللون الأبيض وينساب مع الممشى الجانبي الذى كان يرصف ببلاط ثقيل من الحجر واعتادت نساء المنزل أن يضطجعن على الوسائد فى الشبابيك الأمامية يشاهدن العالم المحلى يسير أمامهن . فإذا كانت الشبابيك مسيجة بالقضبان فإن شباب البلدة كانوا يتقدمون لخطبة عرائسهم(*) من خلال شمسية الشبابيك(**) ، كما كان يفعل آباؤهم وأجدادهم فى إسبانيا . وكان باب الشارع سميكا وثقيلا ، وعندما كان يغلق بالمفتاح الكبير لا يستطيع أن يزعج أمن من فى البيت سوى آلة لهدم الأسوار . فإذا كان المنزل مكونا من طابقين فغالبا ما كانت له شرفة أو اثنتان . وكان بعض هذه الشرفات مجرد بروزات فى الشارع من حجرات النوم العليا ويقيها حاجز « درابزين » . وكان الطراز فى ليما وكشكو أن تبنى شرفات كبيرة مقفلة من الخشب المزخرف الجميل ، فتستطيع النساء أن يشاهدن المارة فى الشارع إلى أسفل دون أن يرين تماما ، كما كان يستطيع

(*) novias
(**) rega

المرء ذلك من وراء حصير نوافذ البندقية وأقطار البحر المتوسط الشرقى(*) ويمكن مشاهدة بقايا هذه الظاهرة المميزة فى العمارة فى بيرو إبان عهد الاستعمار فى الاحياء القديمة من ليما . ومن أحسن أمثلة طراز المبانى هذا دار تورى — تاجى(**) ، وهى تستخدم الآن مقراً لوزارة الخارجية . وقد احتفظ المعماريون الحديثون بهذا العنصر المميز فى كثير من المبانى الجديد بما فى ذلك قاعة المدينة(***) فى ميدان الأسلحة .

ومن خلف المدخل الأمامى ، ومن دون ردهة معترضة ، كان يوجد صحن الدار أو « الحوش » ، وهو مهم للغاية . واختلف حجم ونظام هذا الصحن باختلاف موارد ومركز صاحب الدار . فلقد كان شيئا إسبانيا صميما ، له أصول رومانية : وجعل من الدار أو المنزل(+) بيتا(++) . وعكست زينته والعناية به الذوق السليم والطباع العائلية لأجيال الزوجات والأمهات المتعاقبة . ففيه ، عندما يكون الجو جميلا ، كانت الأسرة تقضى معظم وقتها . وجميعه ، أو بعض منه ، كان يرصف باللون الأحمر الصقول أو القيشانى المنقوش بالصور كما فى الأفنية الجميلة فى أشبيلية . بل قد تقام فية نافورة إذا كان الماء متوافرا . وكانت هناك أزهار ومنبت شجيرات وطيور تغريد وببغاء لتسلية الأطفال بسيل لا ينقطع من الثرثرة وربما فأرغسال شق أو حيوان صغير أليف من البرية للتدليل . وكثيراً ما كانت هناك أشجار البرتقال أو أشجار فاكهة أخرى لتضيف إلى جمال المكان وبهجته . وأحيانا ، إلى الخلف من المطبخ ومكان الخدم ، وربما

(*) levant : الليفانت .
(**) Casa Torre - Togle
(***) ayuntamiento
(+) Casa
(++) bogar

وجد فناء ثان بمماش ومقاعد لطيفة بين ظلال الأشـــجار والأعشاب المزدهرة ، كما كانت الحال فى دار ساو باولو فى كاراكس . أما غرفات المنزل فكانت أبوابها تطل على الفناء الرئيسى ، وإذا كان هناك طابق ثان فقد كان يحيط به رواق مكشوف يصعد إليه بسلم .

وعاش كثير من هذه المساكن الجميلة فى الأرجاء القديمة من المدن التى كانت مراكز الأرستقراطية الاستعمارية كما فى بوتافوجو ولارانجيراس فى ريو ، وفى بوجوتا وبلاد هادئة قديمة مثل كيتو ، وتروخيو ، واريكيبا ولكن المعماريين توقفوا عن إقامتها الآن ، لأن الإنشاءات السكنية انتابها ما انتاب الأبنية الأخرى . وعلى كل حال فقد كانت « البيوت الكبيرة » تبنى لعصر كان فيه وقت كاف لفنون المعيشة الأولية . وكانت تصمم لتكون مقرا لطريقة أبوية من الحياة التى أضفت قيمة كبيرة على الفسحة والراحة ووقت الفراغ . ولذلك فقد اختفى الفناء من رسوم المعماريين الحديثين ، لأن يشغل مساحة من الأرض أكثر من اللازم . وهنـــاك عوامل أخرى ساعدت على التحول هى : ضغط ارتفاع قيمة أراضى البناء ، وتكاليف المبانى المتزايدة ، وظهور طبقات جديدة حصلت على الأموال لم يعرفوا أبدا شيئا عن سحر منازل « السادة » القديمة ، وظهور « مشكلة الخدم » فى أمريكا اللاتينية ، الرغبة الجامحة فى الحصول على الأدوات الكهربية التى لم تكن لتلائم بسهولة المساكن الفسيحة التى أقيمت لتلائم عصرا غير آلى ، ومنافسة السيارة والنشاطات الخارجية التى قللت من أهمية المنازل بالنسبة إلى ما كانت عليه فيما مضى ، والرغبة فى تقاليـد أساليب المعيشة عند الأجانب .

وتتجه العمارة السكنية الآن نحو « الفيلا » و « الشاليه » ونحو منازل الشقق التى تشبه منازل بمباى أو القاهرة أو استكهولم أو بروكلن . وهناك ضواح جديدة و « تقسيمات » و « تطورات » إسكانية كما فى لوماس دى شابولتيبك والبدريجال فى المكسيك ، وسان ايسيدرو ولوس انجليس فى ليما ،

وجارديم أمريكا فى ساوباولو فهى تشتمل على منازل بفضاء حولها لا يجلس فيه أحد كما يبدو، بدلا من الأفنية الداخلية التى كان الناس فيه يجلسون ويسترخون طول الوقت . وعلى الرغم من الثورة التى طرات على فنون المعيشة فإن سكان أمريكا اللاتينية لا يستطيعون أن يعودوا أنفسهم أن يفعلوا ما يروق لهم على مرأى من الجمهور . ولذلك فقد يقيمون جدرانا عالية حول فضاء منازلهم لكى يحصـــلوا على الخلوة التى كان يقدمها لهم الفناء الداخلى فيما مضى . والمنازل ملأى بالميسرات الحديثة ، فهناك وفرة من الأجهزة الأوروبية الكهربية ، والسباكة آخر ما وصل إليه التقدم حتى شملت ظاهرة « البيديه » الأوروبية . غير أن مسيل الماء قد ينقطع فى الساعة السادسة بعد الظهر ، وإلا فقد لا توجد قطرة ماء بعد حلول الظلام أو فى أيام الخميس . وكثير من هذه المنازل تتصف بفرط الأناقة والفخامة ، ورسمها وتخطيطها يقدمان دائما يوم دراسة ميدانية للمعماريين ، ويعد هؤلاء هم الفنانين المتفوقين فى بعض الأماكن ، مثل ليما . فهم ينغمسون فى إجراء تجارب لاحد لها بالمواد والعناصر الزخرفية ، وأحيانا يصلون إلى نتائج باهرة ، ودائما إلى مجموعة مختلفة من الآثار .

الشوارع والميادين

احتاجت المدن الاستعمارية إلى طريق رئيسى واسع أكثر من اللازم حيث كان فى مقدور افراد الطبقة الأرستقراطية المحليين أن يعرضوا أنفسهم وزينتهم وبطانتهم فى أحسن ما يروق لهم . ولم تصبح الطرق الفسيحة ولا التى تصطف على جوانبها الأشجار حاجة ماسة حتى جاءت السيارة ووضعت قوة حصان مضاعفة فى أيدى سكان أمريكا اللاتينية المتحمسين ، فخلقوا بذلك مشكلة مرور كبرى . وتعقدت المشكلة بعد ذلك ببقاء شبكة من الشوارع الضيقة والأزقة التى سدت مطالب العربات التى تجرها الثيران والتى تجرها الخيول وأرتال البغال . وتفاقمت بمقاومة شعب يتصف بالفردية

لأية قيود على حقوقه أن تضيع أو يضيعها أحد . وعلى كل حال ، فلكى تكون هناك مدينة ، لا قرية نمت منذ عهد الاستعمار نموا زائدا ، كان يلزم أن توجد نسخة من الطريق الخامس(*) أو الشانزاليزيه ، أو هما معاً على وجه التفضيل .

لذلك شرعت المدن فى تجديد شوارعها الواسعة القديمة أو شق طرق واسعة جديدة ومتفاخرة أعطيت أسماء خرستوف كولمبس ، وسيمون بوليفر ، وودرو ولسن ، و . ف . د . روزفلت ، وفرق البحرية الأمريكية ، وعدد غفير من المشاهير المحليين ، أمثال برناردو ، أوهيجنز ، وخوسيه ارتيجاس . وقد اجتثت الأشجار من طريق ريو برانكو المتسع فى حى الأعمال فى ريو دى جانيرو ، لا لتسهيل سيل الحركة فقط ، ولكن كذلك ليسمح بدورة الهواء من وراء الخليج إلى المدينة الحارة . أما طريق بيرا مار بحدائقه ، وهو أفخم طريق شاطئى (**) ، فيتبع ثنيات شاطىء الخليج الطويلة لأميال كثيرة إلى ما دون التلال الحجرية الواطئة التى تحجب معظم مدينة ريو المنبسط عن البحر ، ثم يظهر ثانية باسم طريق اتلانتيكا وامتداداته . وفى بوينس أيريس يتبع طريق مايو كثيراً من النمط الباريسى نفسه كطريق ريو برانكو . وشقت الحكومة فى وقت لاحق طريقين فسيحين — خوليو روكا وسايتث بينيا — ويتجهان نحو قلب المدينة فى ميدان مايو . ويعترض طريق مايو فى اتجاه من الشرق إلى الغرب ساحة فسيحة مكشوفة هى طريق ٩ يوليو ، ومن المحتمل أن يكون هذا الطريق أوسع شارع فى العالم ، وعبوره اختبار لتوقيت المترجل واستخدام قدميه . ومن أجمل الشوارع طريق الإصلاح (***) الذى تصطف فيه الأشجار ،

(*) Fifth Avenue

(**) كورنيش

(***) Avenida de la Reforma

وهو يصل بين حى الأعمال فى مدينة المكسيك ومتنزه شابولتيبك . أما الأثر الأكبر الذى تركه دافع جوادا لاخارا للتجديد فهو طريق خواريث البهى الذى أزال كثيراً من معالم المدينة القديمة .

وليس هناك دور من أدوار التغيير الذى طرأ على جوادا لاخارا عولج بذوق سليم أكثر من المعالجة الحاذقة للميدان المرصوف امام الكاتيدرائية ، والتى جعلتها واحدة من أعظم البقاع انطباعا فى أية مدينة فى نصف الكرة الغربى . وأشهر متنزهات وميادين مدينة المكسيك هى جميعا جزء لا يتجزأ من تاريخ المكان القديم . وحتى الأشجار فى شابولتيبك قديمة جدا ، وكانت الألميدا متنزها محبوبا فى عهد الاستعمار . وكان الثوكالو هو المقر الأصلى للمعبد الهرمى (*) لدى الأزاتقة ، أو معبد القرابين . ومن الميدان الكبير حكم نواب الملك إسبانيا الجديدة فترة طويلة . وكثير من ألوف المتنزهات والميادين الأخرى فى أمريكا اللاتينية تعد أماكن بديعة وبهيجة مثل جارديم دا لوز الصغير فى ساوباولو . وبعضها كبير ومتنوع من حيث جاذبيته مثل بالرمو والحديقة الوسطى فى بوينس أيريس ، وينتاب المرء نحوها شعور بسرور بدائى مثل لوس كاوبوس ، وهو غيضة كاركس الشماء من أشجار الموجنى العملاقة . وبعضها لا يزيد على أركان هادئة صغيرة فى مدينة كبيرة حيث يتوقف الناس للاستراحة على المقاعد . وبعضها مراكز تغص بالحركة تتفرع منها خطوط المواصلات إلى أطراف المدينة كما هى الحال فى ميدان سان مارتن فى ليما . وبعضها أماكن من الجمـــال النادر ، مليئة بالذكريات القديمة مثل اكروبول (**) سانتا لوسيا المشجر فى سانتياجو . وأحيانا نجدها محاطة بمواقف و « أكشاك » تجار المدينة الصغار وبائعى

(*) Teocalli [Teoth =God—Calli=dwelling] : مسكن الرب .

(**) نسبة إلى قلعة أثينا القديمة .

الطعام للفقراء كما فى القرى المكسيكية . وكثير منها عبارة عن أماكن مكشوفة متواضعة تتخلل الشوارع والمساكن المزدحمة حيث يصطلى الناس فى الشمس فى الأيام الباردة ، أو يجلسون فى الظل فى الأيام القائظة ، وحيث تصطف الأسر حول المكان فى المساء . وفى هذه الأثناء ربما تعزف فرقة موسيقيه أنغام الفالس أو ألحان السير العسكرية تعلو على حديث الناس الهادىء حتى يأووا إلى المنازل لينامو ا ، وهى مصدر مستمر للمباهج البسيطة التى ترضى حاجة ماسة فى حياة السكان ، شأن الغناء الذى أخذ يندثر فى البيوت القديمة .

وعادة ما تتخلل الآثار الحدائق والميادين، والمتنزهات(*) والبرارى(**) إحياء لذكرى شىء ما أو شخص ما . لأن سكان أمريكا اللاتينية يفضلون التماثيل الممتطية لإقامتها فى الخلاء ، ولو أن الشخص منهم لم يكن فى حياته شغوفا بالخيل أو كان يتجنبها كالوباء فربما كان حصانا أهدته حكومة أجنبية وأضيف إلى مجموعة التحف الأثرية الثمينة الكبيرة الحجم . وأشهر تمثال فى أمريكا اللاتينية التمثال المسمى « الحصان الصغير » (***) المقام عند التقاء طريق خواريث والإصلاح فى مدينة المكسيك . ويحمل الحصان فوق ظهره العريض التمثال اللابطولى لشارل الرابع الملك قبل الأخير من ملوك إسبانيا فى النظام الاستعمارى . وعلى الرغم من أن المكسيكيين قد انتزعوا كل آثار الملكية من النظام الجمهورى فمن سخريات القدر أنهم احتفظوا برمز الملكية المضحك هذا بين ظهرانيهم . وهناك كثير من تماثيل الفرسان المتبخترين أو المتهيجين ، بما فيهم بثارو برباشه الذى ظل مقاما فترة طويلة أمام الكاندرائية فى ليما ، وغاريبالدى المندفع ، وأوهجنز الحرون

(*) Paseos
(**) Prdos
(***) Cadatito

فى بوينس ايريس . وأحيانا نجد أن هناك تحفظاً ووقاراً كبيرين فى فكرة هذه التماثيل كما فى سان مارتن الذى يعتريه التعب فى ليما ، وهو تمثال من أحسن الآثار التى نحتت لمحررى أمريكا الجنوبية العظيمين . وقليل من المجموعات المنحوتة ذات صفة أو ميزة خاصة . ومن بين هذه : التمثال الإسبانى ، والذى فيه شىء من الزهو ، فى شارع ألفيار فى بوينس أيريس . ومن بين مختلف الآثار الأخرى التى تميل إلى الضخامة الموريلوس ، وهو التمثال الحديث فى جزيرة خانتشيو فى بحيرة باتشكوارو المكسيكية ، والمسيح المنفرد فوق كوركوفادو فى ريو ، ومنارة كولمبس الكبيرة فى سانتو دومنجو ، وقد أقامها القائد العام تروخيو ، وتمثال السرير العملاق المقام لذكرى الثورة المكسيكية ، و « المسلة » فى بوينس ايريس . وربما كانت أعجب مجموعة مختلطة من التماثيل فى مكان واحد على وجه الأرض هى فى مدافن بوينس ايريس المسماة لاريكوليتا (*) . فهناك مقابر أكثر عظماء ارجنتينا . وبالإضافة إلى ممر فى غابة شابولتيبك يتمشى فيه الطلبة بعد العصر توجد نافورة صغيرة تستهوى النفوس تكسوها القراميد المزدانة بالصور وعلى جوانبها نضد للكتب أقيمت لإحياء ذكرى ميجيل دى سرفانتيس مؤلف «دون كيخوتى» — وهو شىء لا ينسى فى نمطه الخاص ، كما لا ينسى « الحصان الصغير » سواء بسواء .

وكما هو الشأن فى جميع الأماكن التى يصر الناس فيها أن يعيشوا فى حشد ، هناك أحياء وبيئة فى مدن أمريكا اللاتينية . فمثلا إلى الخلف من واجهات المكسيك ، وبعيداً عن طرق السياح الموجودة فى العاصمة هناك حظائر بشرية — طبقات وصفوف لا نوافذ لها وتشبه الصوامع ، تطل على منور عميق وضيق . وفوق سحر ريو قامت الأكواخ السكنية (**)

(*) الذكرى
(**) Favellas

متشبثة بالتلال الجرانيتية الجرداء فوق أرض المدينة لا تصل إليها أنابيب المياه ولا المجارى . ويقاوم سكانها جميع الجهود التى تبذلها السلطات البلدية لتوطينهم فى جهات أخرى ، وهم فى فقرهم يؤلفون أغانى مرحة للكاريوكا ليغنوها فى أوقات الأعياد ، كما كان يفعل رعاع باريس فى العصور الوسطى الذين صورهم فيلون (*) فى شعره . وفى ليما ينشر الضالون من الناس الذين يتكدسون فى التراب والقذارة فى سان كوسميه عدوى جرائمهم وأمراضهم فى المدينة وعلى الرغم من أن مشروعات إسكان ضخمة قد أنجزتها الحكومات وهى على علم بهذه الأحوال وقلقة على تحسينها ، فإن المشكلة تبدو أحيانا على درجة كبيرة من الضخامة لكى تحل بأية طريقة سريعة ، أو حتى لتخفيف وطأتها بمجهودات إنسانية من جانب الأفراد أو المنظمات .

وبينما تختلف المدن فى أمريكا اللاتينية الآن كثيراً فى نقاوة هوائها فإن الوباء والبلاء فى صورة أمراض الكوليرا والجدرى والحمى الصفراء كانت تصيب الكثيرين فى الماضى . وفى البلاد الهندية ، حيث كانت التربة والمياه السطحية عرضة للتلوث دون انقطاع ، ومواد الطعام معرضة للفساد كانت أمراض الزحار (**) متوطنة ، كما كانت الأمراض المعوية كالتيفود . وعلى الرغم من أن مرض الملاريا قل كثيراً فى المدن حيث أمكن صرف المياه عمليا ، ففى أماكن أخرى مثل ماناجوا ومناوس وجواياكيل لم تجد أية وسائل للسيطرة عليها . ونظراً إلى ارتباط الظروف المناخية والمعيشية التى تساعد على العدوى فإن معدل الإصابة بالسل فى مدينة عادية فى أمريكا اللاتينية مرتفع إلى درجة غير عادية . أما المدن المدارية التى كانت مكامن للوباء مثل ريو وسانتوس وهافان وبنما وجواياكيل فقد طهرت أحيانا بواسطة أخصائيين فى الصحة العامة من المواطنين مثل الدكتور أوسوالدو

(*) Villon (فرانسوا) — القرن الخامس عشر .

(**) الدوسنطاريا .

كروز فى البرازيل ، ومن بعض النواحى تعد نماذج من المدن الصحية . واختفى البعوض فعلا ، كما فى ريو ، أو يعيش لفترة محدودة . أما البزاة التى كانت فى وقت ما منتشرة فى كل مكان - النسر الأسود فى البرازيل وصقر المكسيك - والتى كانت فيما مضى عاملا مساعدا فى خدمة الصحة العامة ، بل إن القانون فى فيرا كروث يحميها من تحرش الناس فى الشوارع ، فتشغل الآن مركز العراف (*) وفى ربع القرن الأخير حدث تقدم هائل ، ولو أنه غير متساو ، بانتشار جميع وسائل الرعاية الصحية الآلية - موارد المياه ، والتفتيش على توزيع الطعـــام ، والمستشفيات والعيادات والمستوصفات ، والتسهيلات التى تقدمها المؤسسات للتدريب المهنى ، واعتماد الأموال اللازمة من جانب الحكومة . أما كمية المياه التى تمد مدينة المكسيك ، ويبلغ عدد سكانها أربعة ملايين (**) ، فلا تزال مزعزعة . ولو أن مونتسوما رأى اليوم بعض أسواقها العامة لاحمر وجهه خجلا .

ولا تعبر المدن عن الصفات الفريدة التى تتميز بها الأخلاق القومية فقط ، ولكن على خلاف المراكز المدنية فى الأقطار ذات الصفات المعيارية المتقاربة ، نجد أن كل مدينة لها شخصيتها التى تنفرد بها ، حتى إن الأجنبى الذى لديه قوة ملاحظة ويرى نفسه فجأة فيها قد لا يتعرض لأن يخطئها بمدينة أخرى . فالمقومات المتنوعة لشخصيتها قد تحتوى على وضع طبيعى غير عادى ، كما فى حالة ريو دى جانيرو ، أو عزلة نسبية من المؤثرات الخارجية ، كما فى بوجوتا ، أو الظروف الخاصة التى مر بها تاريخها وتطورها الاجتماعى ، كما فى ليما ، أو الدمج البشرى الذى انتاب تكوين سكانها ، كما فى مدينة المكسيك - أو مركب بنسب مختلفة من بضعة عناصر من هذه العناصر .

(*) أو الطبيب الساحر .

(**) تقدير سنة ١٩٦٥

مدينة المكسيك

يسمى المكسيكيون عاصمتهم مخيكو . أما لعلم الجغرافية ومصلحة البريد فهى مكسيكو د . ف(*) ، وللأزاتقة تينو شتتلان بمضمونها الرمزى الممثل فى نسر ، وثعبان ، وصبار صبغى(**)، وصخرة . أما لكورتيس ورجاله فكانت باختصار كولوا . ومنذ ذلك الوقت أصبحت لبقية العالم مدينة المكسيك .

وهى الآن رابع مدينة فى نصف الكرة الغربى . ويبلغ عدد سكانها أكثر من ٤,٠٠٠,٠٠٠ نسمة (***)أو حوالى عشرة أمثال عدد سكانها فى أوائل هذا القرن . وفى مائة السنين الماضية تضاعف عدد سكانها بل زاد على الضعف قليلا . وكانت الزيادة غير منتظمة وغير سليمة . فقد نمت المدينة إلى ما دون حدودها الاقتصادية . ومع أن تطور مدينة المكسيك الاقتصادى كان تطوراً مشهوداً فى السنوات الأخيرة ، فإن الأساس المتين الكامن وراء المظاهر التى تثير الإعجاب والقبول لا يزال واهنا جداً لكى يساند مثل هذه المدينة الكبيرة بالأسلوب الذى تستطيعه الأرجاء الأخرى من البلاد . ومن الأدلة على توقيت تطورها الخلط الملط وجود الحفر العميقة فى الطرق الجانبية ذات الحركة الكثيفة والهياكل الصلب للعمارات التى بدىء فى تشييدها منذ سنوات طوال ولم تكتمل أبداً بعد ، والحالة المنتشرة فى كل مكان من مظاهر عدم الإصلاح ، والتهدم فى بعض أحياء المدينة جنباً إلى جنب مع الفنادق التى تعد آخر صيحة فى التطور ، وغيرها من دلائل الثروة والترف المتفاخرة والانتصارات المعمارية الخيالية وتخطيط المناظر السطحية كالمدينة الجامعية الجديدة والنهضة السكنية فى البدريجال .

(*) Distrito Federal أو Federal District

(**) الصبار الذى نعيش عليه حشرة اللعل . napal cactus

(***) تقدير سنة ١٩٦٥ .

وعلى الرغم من أن عاصمة الثورة الحديثة حديثة النعمة فإن حاسة فطرية تقدر الجمال والذوق السليم يتصف بها الشعب تستطيع أن تقيها من مظاهر الإسراف فى وصمة الفجاجة .

وهى أولى مدن أمريكا اللاتينية من ناحية الأهمية المحضة ، كما أن البلاد أولى الجمهوريات أهمية . وهى ليست مدينة سهلة لكى نتفهمها أو نتراضى معها ، ولو أنها توحى فى النفس الإعجاب والإحساس بالدهشة . وهى مدينة لا يمكن التكهن بما سيكون من أمزجتها ، وثورية وغير رصينة . وتحت هدوئها الظاهرى وأدب سكانها فقد يصبح مزاجها غاضبا وعنيفا . ومن هذه الوجهة نجدها مكسيكية صميمة ، وليست ، بأى حال من الأحوال ، عاصمة عالمية مزيفة . فهى ذات أطراف خشنة قدت من السبج . وفى صميمها إقليمية جداً ، وتكن للأجانب بغضا شديدا ، لأن جذورها ممتدة إلى أعماق بعيدة فى ماضى أنا هواك المضطرب ، ولم تقترض من الثقافات الأخرى إلا غضبا . وهناك يجرى فى نسيجها الدرامى خيط دموى له ذكريات كثيرة مثل الشدائد والمعارك . ونظراً إلى أنها تقع على مرآى من البراكين الهادئة ، فإن ذلك له أهمية أكبر من أن تكون عرضية . فإن الرئيس الذى يحكم البلاد من القصر القديم فى الشوكالو لا يجلس فى مقعد نواب الملك فقط ، بل فى مقعد «الأباطرة» الأزاتقة ، ولا تزال النغمات الهاتفة الحزينة هندية ، ولو أنها الآن تخص المولدين ، وقد يستمر ذلك إلى الأبد كما خصت الإسبانيين لقرون من قبل .

بوينس ايريس

بوينس أيريس هى وحدها المدينة العالمية الحقيقية فى أمريكا اللاتينية . وليست المسألة مسألة حجم نسبي ، لأن شيكاغو وبرلين أكبر ، ولكنها مسألة جو أو نزوع لا يمكن تعريفه نحو العالمية ، تختص به العواصم الكبرى

على سطح هذا الكوكب . فهى فى الواقع مدينة عظيمة وبديعة كما قد كان يسميها ملك إسبانيا لو أنها بقيت ملكا له يشرفها ويصدر أوامره منها . كما أنها ليست مدينة أرجنتينية بالمعنى الذى فيه كوردوبا وتوكومان . ولا هى مدينة تنتهى إلى أمريكا الإسبانية ، ولكنها مدينة أوروبية . فوجوه الناس ولغاتهم آتية من أماكن كثيرة — أقطار البحر المتوسط ، أقطار شمال أوروبا المسماة بالآرية ، العالم السلافى ، أقطار الليفانت . ومن شتى الأشياء التى يشترك سكانها فيها إيمانهم العميق المتعصب فى مستقبلها . والناس أنفسهم « أجانب » ونظراً لذلك لا يسيئون الظن بالأجنبى كما يفعل المكسيكيون .

وعلى عكس ريو ومدينة المكسيك لا تدين بشىء من فخامتها أو تطورها المتوقع إلى موقعها الذى لا ميزة له ، كما هو الشأن فى موقع كلكتا أو هوستن . ولكنها تدين بكثير من أهميتها إلى مركزها كممر — ومنتفع كبير — لثروات البمبا التى تستمد منها مكوسا ضخمة للخدمات التى تؤديها كوسيط . فهى مدينة للثراء العظيم ويعيش أهلها عيشة رغدة وينغمسون بحرية فى حدود ما يسمح به القانون فى جميع ميسرات الحياة المتمدنة . وهى مركز كبير للنشر ، وتتوافر فيها كل زخارف الثقافة المقننة ، ولكن الخدمات الأصلية التى تؤديها إلى ذخيرة الإنسانية الفكرية والفنية قليلة . «فرجال الميناء»(*) زمرة يملؤهم الزهو والغطرسة ، ويقدمون على المشروعات العظيمة ، وذوو دهاء ، ويدركون فى غلواء إمكانيات بلادهم الكامنة . وهم ليسوا جنسا ، إذ ليس هناك جنس أرجنتينى ، كما يوجد جنس برازيلى أو جنس تشيلى . ولقد كان هناك جنس أرجنتينى قبل أن يغرق تدفق المهاجرين الأوروبيين السلالة الأصلية ويخفف من دمها وحضارتها . وهناك جنس فى دور

(*) Portenos

التكوين ، ولكن على الرغم من الدعاية الرسمية لإدماج السكان فى قومية أرجنتينية (*) فإن العناصر التى تدخل فى تكوينها لا تزال بعيـــدة عن إدماجها فى نمط جنسى معلوم ومع أن اهالى الجمهورية الأرجنتينية شعب ممتاز من وجهات كثيرة فإنهم ينزعون إلى أن يصبحوا ضحية لا حول لها لمكايد السياسيين المتآمرين ، إذ ليس لديهم تقليدمشترك أو «روح» قومية يتجمعون حولها . وكثير من توكيد شخصيتهم ومن « شعورهم بالأهمية » ، وكثيراً ما يكون هذا أمراً شاقاً على الأجانب الذين يميلون للخير ، هو بدون شك تغطية لا شعورية لاضطراب معلوم فى التفكير والحاجة إلى الثقة بالنفس .

وليست بوينس أيريس مدينة مرحة ولا خفيفة الروح كما قد تشتهر بذلك شهرة عالية أحيانا . وهى « باريس أمريكا الجنوبية » من الناحية المعمارية ليس إلا . وهى تميل إلى أن تأخذ مباهجها جديا وبمهابة ، وبدون الخلاعة والتلقائية اللتين تمارس بهما ريو وترتكب زلاتها وكثير من مواطنيها أولاد بلد شداد . يقضون الليالى فى بيوتهم وهمهم مايحصلون عليه من بيسو والسياسة .

ساو باولو

ساو باولو فريدة ومنقطعة النظير من بين المدن الكبرى فى أمريكا اللاتينية فهى مدينة إقليمية مستنفرة لا طابع لها . أما المدن الأخرى ، فمهما يكن لطابعها من خصائص مميزة ، فهى جميعا ذات علائم تشيرإلى نفس الأرومة الإسبانية . وهى واثقة بنفسها ، وإيجابية ومتفاخرة وقويةالعزيمة وتتيه بأنها سوف تتفوق على بوينس أيريس فى بضع سنين . وهى تشبه شاؤول ملك طرطوس (**) ، وقد سميت من أجله ، فى أنها مدينة تفكر بالمنطق أكثر مما تفكر بالعاطفة،ولا يمكن « تقويمها تقويما» سليما إلا بلغة الإحصاءات فأهلها رجال أعمال وغير عاطفيين إلا فيما يمس مصالحهم.وهم لا ينزلقون إلى انفعالات وشطط المدن المراهقة ، بل ينزعون إلىأن يروا

(*) Argentinidad

(**) أول ملك اليهود

فى السكاريوكا فى ريو أناسا طائشين انغمسوا فى إغراء نور القمر وأماكن إرضاء الجسد وفى الواقع أن ساوباولو تحقر من شأن اخواتها المدن الراكدة فى جميع أرجاء البرازيل، وتنفرج أسارير رجال الأعمال الأمريكيين الذين يزورون البلاد تقديرا وتفاهما عند ما يراقبون الناس وهم يندفعون رائحين جائين وراء الكروزيرو والكونتو (*) وهم يجدون قلة الثرثرة والكلام الدخيل الذى لاجدوى منه، فرجة مخففة لبروتوكول الأعمال الشرقى الطابع المنتشر فى جهات أخرى .

وترجع ديناميكية ساوباولو إلى أقدم عهودها . فقد أسست منذ أربعمائة سنة على وجه التحديد كمركز تبشيرى يسوعى للقديس بول بيراتينينجا . وبينما كان القساوسة يتجولون فى أرض فسيحة ونائية بحثا عن نفوس النوبى كى يهدوها سواء السبيل ، كان المامليوز من البرتغاليين والمولدون الذين أقاموا حولهم فوق الهضبة أكثر مخاطرة وإقداما فى اصطياد نفوس الهنود وبيعهم رقيقا . وكما فعل المستكشفون البرتغاليون ، توغلوا فى شجاعة فى الفيافى الواقعة إلى الغرب فيما وراء نهر باراناوا واندفعوا إلى الشمال الغربى فوق خط تقسيم المياه المنخفض إلى حوض نهر ماديرا ، بل أبعد من ذلك إلى فراغ البرازيل الشاسع ؛ فقد كانوا رجال حدود حقيقيين كالرواد الأوائل الذين ارتادوا إقليم الغرب عبر جبال اليجانى . ولم يقنع أهالى ساوباولو أبدا بأن يقعدوا بلداء بما جنوه ، ولكنهم تحركوا دون انقطاع ليحصلوا على المزيد ولم يكن تبرمهم أونشاطهم راجعا إلى وجود أى عنصر أجنبى فى السكان — ألمانى أو إيطالى — ولو أن الأجانب كانوا يتحمسون لو أنهم دخلوا فى جو المكان الذى يحصلون منه على أشياء . فلقد عرفوا

(*) عملة برتغالية وبرازيلية : الكونتو ١٠٠ كروزيرو او إسكودو .

المكان عندما كان لا يزيد على قرية فى بلاد هندية ، وكان الأجانب الوحيدون من البرتغاليين .

وظلت مدة طويلة مجرد بلدة مستعمرة ولو أنه كان يرجى من مواردها الكامنة أكثر مما كان يرجى من غيرها . ثم جاء القرن الأخير وأصبحت مركز البن فى العالم ، وبدأت تنمو بقوة مع الولاية التى تقع خلفها ووصلت صعودا إلى ميناس ، وغربا إلى ماتوجروسو ، وجنوبا إلى بارانا لتضيف إلى نشاطها الاقتصادى . وبنيت مصادفة وبدون خطة واعية حول تلالها المتدحرجة الواطئة وأخاديدها العميقة . وجاءت الأعمال الاقتصادية الكبيرة لتستقر فى شوارع « المثلث » المشهور ، فى حين انتشرت العمليات إلى الجهات الصناعية الخاصة فى المدينة الضخمة وهى لا تدعى تفوقا ثقافيا ، وقد استثناء من أن يلصق بها تهمة الغباء (*) من جانب الاثينيين العصريين الذين يسكنون جهات يهتم الناس فيها بقراءة الكتب مثل بوجوتا فلديها أشياء كثيرة بدرجة زائدة على الحد لتكون «مدينة مباهج» (**) أو مركزا المغريات التى تقدم للسياح . فهى بالنسبة للأجانب الذين يبحثون عن المتعة مكان كئيب حقا .

ريو

إذا توخينا أغراض الشهرة الرسمية نجد أن ريو دى جانيرو هى « المدينة العجيبة » (***) . ولقد أخطأ استاسيو دى سا الذى أقلع بسفينته بين نتوءات مدخلها العملاقة فى صبيحة مديدة ليوم من أيام شهر يناير فحسب خليج جوانابارا مصبا مستطيلا لنهر ، وأطلق عليه نهر يناير

(*) Boetianism : نسبة الى بيؤونيا فى اليونان اشتهر أهلها بالغباء والبلادة .

(**) ville de plaisir

(***) Cidade Marvilhosa

(ريو دى جانيرو) . فهو ليس نهراً ، ولكنه تعريجة ساحلية مقفلة فى ساحل تحف به الجبال مثل أكابولكو ولم تكن هناك شيء حول خضرتها الدائمة يوحى بمنتصف الشتاء فى نصف الكرة الشمالى . فهى مرفأ الكرة الأرضية الذى لايقارن، ولكن يجب أن تكون ميناء الفردوس. وإن جمالها الطبيعى الفائق فوق كل مغالاة ، وأية دعاية عنها هى دون الحقيقة ، وهناك قصيد كثير يوحى به موقعها لدرجة أنه لا يخدم غرضاً شريا فقد يصلح لأن يكون مقراً لسلالة من المثاليين ، ولكن روعته تجعل منهم أقزاماً . إذ يجب أن تكون عاصمة المباهج العالمية ، ولا وظيفة أخرى لها سوى توزيع المباهج على الجنس البشرى .

إنها سيبارس (*) نصف الكرة الجنوبى ، وابنة عم كورنث والإسكندرية الطلمية — مدينة تعبد اللذة ، ومكان للاستجمام والهوى ، ميولها دائماً نحو الحفلات والرعونة . ويجب أن يحال عملها إلى إدارة ساوباولو القديرة وأن تنقل حكومة البرازيل الفيدرالية من جوها الأوركيدى إلى بقعة تبعث على التأمل والتفكير (**) وعلى الرغم من تمثال المسيح الذى يبعث فى النفس الشجن . والذى يطل على المدينة ، وجميع أولئك الذين باسم القديس بطرس وجون كالفن ومارتن لوثر يدرسون إنجيله لشعبه ، فإن هناك فتوراً فى مسائل العقيدة المقدسة لدى الكاريوكا ، ولا يستطيع المرء أن يتصور إحراق الضالين فى أرجاء مدينتهم بسهولة كما لو حدث فى المدن الإسبانية . فهم ينمون فى قرارة أنفسهم ، والراحة يجون بهيج الامتثال إلى الرب الأبوى والغفار كما صوره العهد الجديد . ومهما يكن الأمر ، فقد يكون الرب واحداً منهم ، لأنهم يقولون إن « الله برازيلى » ، ويدللون على ذلك بأن يداً إلهية هى وحدها التى تقيهم من عواقب ما يرتكبونه من أخطاء وحماقات .

(*) Sybaris مدينة اغريقية فى جنوب ايطاليا كان أهلها يعيشون عيشة ترف .
(**) نقلت العاصمة الفيدرالية الى برازيليا فى الداخل كما ذكر آنفا.

وريو أكبر مدينة واقعة فى النطاق الواسع من الأرض بين مدارى السرطان والجدى . وهناك حوالى مليونين من الكاريوكا يتشبثون بجوانب التلال الصخرية والحافة الجبلية الضيقة التى تحف بالخليج والبحر ، أو يتكدسون على المسطحات التى تمتد إلى الخارج نحو الشمال الغربى على طول السكك الحديدية حتى مستنقع الميشادا . وقد حاول الناس أن يستغلوا الجمال المنتشر حولهم إلى أقصى حد ، ولكن أعمالهم ، على أحسن تقدير ، تعد مجهودا ضئيلا فربما كان التحدى كبيرا لا يستطيعه أى شعب . وعلى الرغم من أنه قد يتفق أن يأتى رئيس للمدينة فيندفع بالإنجازات المبتغاة من عظمتها الطبيعية ، فإن البهاء الصناعى يبدو أحيانا كالحا ورثا . وأحياناً تساء إدارة الشئون العملية فى هذه المدينة الفاتنة فتحتد أمزجة سكانها العاطفيين . وتتوقف السكة الحديدية الوسطى بين آونة وأخرى فتترك المدينة منعزلة عن مصادر طعامها الغض الطازج من خلفيتها المرتفعة. وليس هناك ماء كاف فوق التلال المحيطة بها لإنشاء محطات لتوليد الكهرباء. ويفيض ماء المجارى من شقق المنازل المكتظة والفنادق فى كوبا كابانا نحو الشاطىء المزدحم ، إذ ليس هناك مكان آخر ينصرف إليه ، وعلى كل حال فإن من يعيشون فى ركن من أرجاء جنات عدن لا ينبغى أن يشغلوا أنفسهم بمثل هذه الأمور الدنيوية .

الفصل التاسع

(١) « فى أمريكا أيضا نجد أن المدينة فى كل الأرجاء هى التى تميز توسع اسبانيا ··· فالمدن هى أعظم ممثل حقيقى ، والاسبانى الصميم ، من بين جميع النظم الكبيرة · والمدينة بميدانها وكنيستها وقصر بلديتها هى المركز العصبى للمجتمع · فهى الرمز المجسم للسيطرة الاسبانية فى أمريكا · وثبوتها دليل على قوتها وحيويتها » ·

Richard F. Pattee, «l'Essai sur l'Evolution Historique de l'Amerique Espagnole» (Port-au-Prince, 1944), P. 17.

وقال مانويل جالفيث ، كاتب القصص الأرجنتينى ، ان الثقافات قد تعرف بالمدن التى تخلقها · فقد كتب يقول : « المدينة هى التعبير المادى لمكونات الشعب ولثقافته الاجتماعية والشخصية » · وقد اطلق على ثقافة بلاده هو « مادية كريهة » · ووردت هذه العبارة فى

William Rex Crawford, «A Century of Latin American Thought» (Cambridge, Mass., 1944), P. 150.

(٢) قال توماس جيدج انه فى سنة ١٦٢٥ ، اى بعد حوالى قرن من تاسيسها الأول بلغ عدد سكانها حوالى ٣٠٠٠ · وكتب يقول : « ان عدم توافر الوسائل الصحية فى المدينة هو سبب ندرة السكان » · وفى ذلك الوقت كان يوجد فى المدينة بضعة تجار تتراوح رءوس الأموال التى يمتلكونها بين ٢٠٠,٠٠٠ ــ ٤٠٠,٠٠٠ دوكات ·

«A New Survey of the West Indies, 1648» (New York 1929), P. 35.

(٣) من المدن الأخرى التى انتقلت من مواقعها الأصلية بنما وجواتيمالا وهافانا وليون فى نيكاراجوا ·

(٤) « اننا لا نجد هذا مذكورا فى وثيقة التاسيس ، لأنه لم يستمر أياما كثيرة ··· وبمجرد أن أعلن عن تاسيس المدينة عين موظفو البلدية واقيمت المشنقة والحناك · وعندما فرغ من هذا الأمر صمم الحاكم (الماجرو) على أن يستشير ضباطه واناسا آخرين فيما يجب عمله بعد ذلك » ·

Pedro de Cieza de Léon, «The War of Las Salinas», P. 106

(٥) عن مدن المـايا أنظر

Sylvanus G. Morley, «The Ancient Maya» (Stanford University, California, 1946), passim.

(٦) عن أسواق عاصمة الأزاتقة الواسعة انظر

Cortés, «Letters», I, 257-58.

وأيضـا

Bernal Diaz del Castillo, «True History», pp. 175-77.

الخـاص بحى الفنـانين والذهب - وصـائغى الفضة فى أتكابيتثالكو وحدائق قصر مونتسوما والأسواق العـامة · كتب برنال دياث يقول : لقـد دهشـنا عند رؤية جموع النـاس والانتظام الذى كان سائدا ، وكذلك مقادير التجارة الضخمة ··· وكان لكل صنف مكانه الخاص وتميزه علامة · وكانت السلع تشـمل الذهب والفضـة والمجوهرات والرياش والعبى والشوكولاته والجلود المدبوغـة وغـير المدبوغـة والأحذية المكشوفة (الصنادل) وسلعا أخـرى مصنوعة من جـذور وألـيـاف « النيكين » وأعدادا كثيرة من العبيـد ذكرانا واناثا بعضهم كانوا مطوقين فى أعناقهم ومربوطين فى أعمدة طويلة · ومونت سوق اللحم بالدجاج والحيوانات والكلاب · وكانت هنـاك أيضـا تبـاع الخضراوات والفواكه والأطعمة المهيأة والملح والخبز والشهد والفطائر الحلوة · وخصصت أماكن أخرى فى الميدان لبيع الآنية الفخارية وأثاث المنازل المصنوع من الخشب ··· وأخشاب القواء والورق والقصـبات الحلوة مملوءة بالطباق المختـلط بصمغ العنبر والبلطـات النحاسية وأدوات الشغل والآنية الخشبية كثيرة الزركشة · وكان هنـاك فئـات من النسـاء يبعن الأسماك » ·

(٧) « كانت الممالك الجديدة فى الواقع تطعيمات أجرتها اسبانيا فى جذع الشجرة الهندية · فقـد كانت مدينـة المكسيك وليما وكارتاخينا والمدن الأخرى فى شمال القـارة مدنا اسبانية بجو من العـالم الجديد مرجعه الى الروح المحلية التى تميز الأقطار المختلفة ، وكذلك الى طباع الشعوب التى تطورت هـذه المدن بين ظهرانيهم · ولربما كانت مدينة

الهند الغربية التى تمثل هــذا التطور خير تمثيل هى كثكو العجيبــة ، أو بابلون الانكا ، التى بنى الاسبانيون فوق جدرانها العملاقة سلامانكا ذات صفات قشتالية محضة »

Salvaaor de Madariaga, «Cuadro Historico de las Indias» (Buenos Aires, 1945), P. 47.

(٨)

«Peru : Incidents of Travel and Exploration in the Lands of the Incas» (New York, 1877), P. 25.

كتب جيمس برايس الذى كان فى ليما فى أوائل هذا القرن يقول : « تحتفظ مدينة الملوك بتلك البهجة الخفيفة الروح وموهبة المتعة الاجتماعيــة اللتين اشتهرت بهما فى الأزمنة الماضية · فلم تطغ على روح السرور حتى الخطوب السياسية ولا الثورات التى فاق عــددها عدد الهزات الأرضــية » ·

(٩) الاحصاءات المذكورة مأخوذة من

Juan Bromley José Barbagelata, «Evolucion Urbana de la Ciudad de Lima» (Lima, 1945).

ويورد هــذا الكتاب أيضا مجموعة من الخرائط توضح اتســاع رقعــة المدينة من أيام الاستعمار الأولى حتى الوقت الحاضر ·

(١٠) قدر همبولدت عدد سكان مدينة المكسيك فى سنة ١٨٠٣ ب ١٣٧,٠٠٠ شخص اعتمادا على استنتاجاته الزيادة المحتملة فى عدد السكان منــذ أن حدده احصاء نائب الملك ريفياجيجيدو فى سنة ١٧٩٠ ب ١١٢,٩٢٦ · وقــد صنف المجموع الكلى كالآتى :

أوربيين بيض ٢,٥٠٠ ، أوربيــين مولودين فى أمريكا ٦٥,٠٠٠ ، هنود ٣٣,٠٠٠ ، مولودين من بيض وهنود ٢٦,٥٠٠ ، مولودين من بيض وزنوج ١٠,٠٠٠

«Essays Politico» op. cit., II, 219.

وقال الأب فاثكيث دى اسبينوسا الذى كان فى مدينة المكسيك فى سنة ١٦١٢ انه يسكن المدينة والضواحى القريبــة اكثر من ١٥,٠٠٠ اسبانى ٨٠,٠٠٠ هندى ، ٥٠,٠٠٠ زنجى ومولد

Compendium and Description of the West Indies» (tr. from the Spanish, Washington D.C., 1942), P. 156.

وطبقا لرواية ثاديوس هينكى الذى كان فى شمال أرجنتينا فى أواخر القرن الثامن عشر بلغ عدد السكان فى أربع مدن فى تلك المساحة كالآتى :

المدينة	المجموع	اسبانيون	مولدون من بيض وهنود (مستيسو)	هنود	زنوج	مولدون من بيض وزنوج (مولاتو)
كاخا ماركا	٢٠,٣٩٠	٥,٩٠٠	٤,٩٠٠	٦١٠	٨٣٤	٨,١٤٦
خوخوى	١٩,٢٦٦	٩٢٣	٣,٥٠٠	١٣,٥٧٠	٥٠٥	٧٨٦
سولتا	٢٢,٣٨٩	٥,٣٨٦	٤,٤٣٦	٧,٦٢٠	٢,٦٤٠	٢,٢١٠
توكومان	٢٢,٨٠٩	٥,٨٠٠	٧,٢٠١	٦,٥٠٨	٦٠٠	٢٧٠

(١١) « كان يسر ملوك اسبانيا أن يمنحوا هذه الأسرة القاب الشرف والمزايا عنوانا على صفاتها العظيمة ، كما رغبت أسر بارزة فى المدينة التزاوج منها » .

Jorge Juan and Antonio de Ulloa, op. cit., II, 53.

(١٢) عن المولدين من بيض وهنود (مستيسو) فى أمريكا اللاتينية انظر

Jahn Gillin, «Mestizo America», in Ralph Linton, ed., «Most of the World: The Peoples of Africa, Latin America and the East Today» (New York, 1949).

(١٣) من بين بضع الطبعات التى صدرت من هذا المؤلف ربما كان أحسنها الأجزاء الستة الموضحة بالصور والتى نشرت فى أسبانيا فى سنة ١٩٣٠ . وترجم هاريت دى أونيس مجموعة مختارة من القصص الى الانجليزية تحت عنوان

«Knights of the Cape» (New York, 1945).

وكان لبالما فرصة للحصول على مصادر خطية كثيرة عن تاريخ ليما وبيرو بوصفه كان أمينا للمكتبة الأهلية لسنوات عدة ، فنهل منها حرفيا للمادة المتعلقة بالموضوع و « اللون المحلى » لقصصه .

(١٤) كتب E. G. Squier الذى كان فى بيرو فى منتصف القرن الماضى يصف كثكو : « ان منظر المكان ... وهو منظر مدينة هندية تماما . ويكاد لا يوجد شىء يمكن أن يسمى مجتمعا ، ولو أن أفراد

الطبقة الراقية يتصفون بالكرم وعــدم التصنع ، وأكثر صراحة وبساطه فى سلوكهم من أفراد الطبقــة المــاثلة فى بلدان الســاحل حيث نبــذ النــاس العادات الاهلية فى محاولة يشوبهــا الغرور لتقليد المظاهر والشمائل الأجنبية . وتعيش بعض الأسر على نمط فضفاض ، وبيوتهم مهيأة بأناقة حقيقية » . ودهش سكوير عند رؤيته المعازف الضخمــه (البيــانو) والمرايا الفرنســية التى نقلت من الســاحل . وقد كان هــذا قبل أن تمــد السكة الحــديدية الجنوبية بين مويندو وكثكو .

«Peru : Incidents of Travel and Exploration in the Land of the Incas» (New York, 1877), P. 455.

(١٥)

«Exploration of the Valley of the Amazon» (2 vols. Washington, D. C., 1854), II, 161 - 63.

قارن بالصورة الشــاعرية التى أوردها توماس جيــدج عن ليون فى نيكاراجوا قبل ذلك بقرنين من الزمان : « كانت البهجة الكبرى التى ينشدها السكان هى فى بيوتهم ، وفى السرور الذى يملأ قلوب النــاس فى البلاد المتاخمة ، وفى وفرة الأشــياء التى يحتاج اليهــا الانســان اكثر من بهجتهم بالثراء الزائد الذىينشده الناس كثيرا للتمتع كما كانت الحال فى أرجاء أخرى من أمريكا . فقــد كانوا راضــين بالحــدائق الجميلة ومجموعات متنوعة من الطيور المغردة والببغاوات ، وبوفرة من السمك واللحم ، وقــد كان هــذا رخيصــا ، وبالمنازل البهيجــة ، وبذلك عاشوا عيشــة لذيذة متراخيــة تافهــة ، لا يتوقون كثيرا الى ممارسة التجارة والحركة ... وبسبب البهجة التى كانت تتصف بها هــذه المدينة بصفة خاصــة أطلق الاسبانيون على ولاية نيكاراجوا جميعهــا جنة الله فى الأرض » .

«A New Survey of the West Indies, 1648» (New York, 1929), P. 340.

(١٦) « على الرغم من الطقس الجميل والســناء الــدائم اللذين يسودان اليمــانى فى معظم الأحيان » فهناك شىء غير لائق ومفجع حول هــذه المدينة . انى أتخيل الهنود جالسين حول خراب الهضبة يلقون بأبصارهم من أعلى نحوها كالنسور يترقبون اندثارها » .

Christopher Isherwood, «The Condor and the Cows : A South American Travel Diary» (New York, 1949), P. 174.

(١٧) أنظر

Frederich Boyle, «A Ride Across a Continent : A Personal Narrative of Wanderings through Nicaragua and Costa Rica» (2 vols., London, 1868), II, 179.

(١٨) فى خلال عصر الاستعمار كان مجلس المدينة (كابلدو) الملجأ الأخير الوحيد للديمقراطية فى ظل نظام سياسى يتصف بالحكم المطلق . وعندما كانت تتأزم الأمور أحيانا فى شئون المدينة ينعقد مجلس مفتوح (Cabildo Abierto) أو اجتماع حاشد للمواطنين الاسبانيين لمعالجة الأزمة . ولا تزال هذه العادة التى تذكرنا باجتماع المدينة فى نيو انجلند تمارس فى جهات من أمريكا اللاتينية .

(١٩) هناك فصول مختصرة فائقة فى وصف تطور العمارة فى مختلف الجمهوريات فى طبعة

Earl Parker Hanson, «New World Guides to Latin America» (3 vols., New York, 1945).

وعن العمارة المكسيكية أنظر

Trent Elwood Sanford, «The Story of Architecture in Mexico» (New York, 1947).

(٢٠) « يخرج ظرفاء هذه المدينة يوميا ، بعضهم على ظهور الخيل، ومعظمهم فى مركبات كبيرة حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر فى متنزه ظليل بهيج يسمى لا الاميدا ، تكثر فيه الأشجار والطرقات حيث تلتقى فعلا ٠٠٠ حوالى ٢٠٠٠ عربة مملوءة بالسادة والسيدات والمواطنين ليشاهدوا ويشاهدوا ويطارحوا الغرام ويطارحوا الغرام . ويصحب السادة حاشياتهم من العبيد الزنوج ، ويلغت حاشية بعضهم اثنى عشر عبدا . وكان لبعضهم ستة يخدمونهم ، مرتدين حللا آخاذة لطيفة مثقلة بخيوط الذهب والفضة ويلبسون فى أرجلهم السوداء جوارب حريرية وورودا مرصعة بها أقدامهم ، والسيوف مدلاة على جوانبهم » .

Thomas Gage, op. cit., P. 91.

(٢١) الى وقت متأخر كسنة ١٧٧٩ ، مات اكثر من ٩٠٠٠ شخص من انتشار الجدرى فى مدينة المكسيك • وطبقا لرواية همبولدت ، «هلك عدد كبير من شباب المكسيك فى تلك السنة المشئومة » OP. cit., II, 51 وقد منع التطعيم الذى ادخله دون توماس ميرق فى سنة ١٨٠٤ تكرار حدوث مثل هـذه الأوبئة المنكبة • ونتيجة لقصور انتاج الطعـام فى المكسيك ، خصوصـا فى سنوات الجدب ، كان الموت جوعا يعـد أحيانا كارثة كبرى تصيب جموع النـاس كأوبئـة الأمراض • ففى مركز التعدين فى جواناخواتو مات اكثر من ٨٠٠٠ شخص من الجوع ومن الأمراض الناتجة عنـه فى سنة ١٧٨٤ •

Ibid., P. 57.



الفصل العاشر

البرازيلى

لم يكن البرازيليون (*) الأوائل الذين نعرفهم فى العصور الحديثة سوى جماعين للخشب البرازيلى والصبغة التى إذا ماعرضت للشمس اكتسبت لون قطع الفحم المتوهجة (**) . وقليلا ماكانت تعد هذه البلاد مهمة إلى درجة تكفى لإعطائها اسما خاصا بها ، والأسماء الدينية التى سميت بها على

(*) Brasileiros

(**) brasas

التوالى لم تثبت ألبتة ، ولذلك فقد أصبحت البرازيل وأصبح شعبها البرازيليين .

وعرف تاريخ البرازيل المبكر مصادفة واتفاقاً (١) . ولما كانت قلة ضئيلة ممن اشتركوا بنصيب فيه كتابا ، فنحن نعرف قليلا عن كثير مما حدث على طول ساحلها الذى يبدو لا نهائيا . أضف إلى ذلك أنه لما كانت البرتغال تدرك ضعفها من ناحية عدد سكانها فإنها لم تستسلم إلى الإعلان الملأ عما كانت تحكمه حكما مزعزعا . فقد كان لديها عمل آخر — ويعود بربح أكبر — تهتم به فى بلاد الشرق قبل أن تولى اهتمامها لتنمية الفيافى المدارية الشاسعة التى كانت البرازيل . وعندما ولى بدرو ألفاريس كابرال وجهته شطر الهند مقتفيا أثر فاسكو دا جاما رأى نفسه مصادفة أمام البرازيل فى آخر عام من القرن الخامس عشر . فقد كان متجها فى رحلة عملاقة نحو الغرب، محاولا تجنب ظروف الملاحة الصعبة أمام ساحل غينيا ، وبعد أداء احتفال متكلف ادعى فيه حق امتلاك « جزيرة فيرا كروث » استمر فى طريقه إلى الهند . ومضى وقت طويل قبل أن تضم البرازيل إلى مجال مشروعات البرتغال فيما وراء البحار . وقد كانت مشغولة من قبل بمغامراتها التى تبهر الأبصار فى آسيا (٢) وحدث فى هذه الأثناء أن سادة متفرقين من ربابنة السفن التجارية البرتغالية قاموا بسياحات بقصد الحصول على الخشب البرازيلى وحمولات إضافية كالببغاوات الزاهية الرياش والببغاوات الأمريكية الطويلة الذيل والقردة اللعوب ذات القبعات ، وهى تجارة قلما كانت تجذب اهتمام الأمة وتحولها عن التوابل والأقمشة والجواهر التى كانت تجىء بها أساطيل الغلايين (*) إلى لشبونه من جزر الهند الشرقية . وفى الفترات التى كانت تنقضى بين المقايضة مع الهنود

(*) جمع غليون: السفينة الشراعية الكبيرة

وتسلية أنفسهم مع نسائهم المضيافات حاول التجار البرتغاليون أن يطردوا الدخلاء الشاردين من الفرنسيين الذين بدأوا فى وقت مبكر القيام برحلات إلى البرازيل من موانىء بريتانى ونورماندى .

وكان الفرنسيون يصرون فى محاولاتهم على إنشاء «فرنسا قطبية جنوبية» فى البرازيل ، وأقاموا مستعمرات متناثرة على طول الساحل من جزيرة ماراجو عند مصب الأمزون نحو الجنوب إلى خليج ريو . غير أن فرنسا كانت لديها دائما مشاغل كثيرة فى جهات أخرى من العالم لتركز على عملياتها ضد جبهة ضعيفة من البرتغاليين الذين «تشبثوا كما يتشبث سرطان البحر» بساحل البرازيل ، كما قال الأب فيسنتى دو سلفادور . وعلى الرغم من أن البرتغاليين كانوا دائما يبدون غير متحمسين واعتباطيين فى عملياتهم فى البرازيل ، فقد كانت لديهم طريقة ليهبوا لملاقاة الظرف الذى منه تهدد مستعمراتهم تهديداً جدياً ، ولذلك فعلى الرغم من إغارات الفرنسيين والهولنديين ، بقيت البرازيل لهم أكثر من ثلاثة قرون ، أو إلى أن كان السكان أنفسهم على استعداد لتولى حكمها .

وبعد انقضاء أكثر من ثلاثين عاما اتخذت الحكومة البرتغالية أولى الخطوات لاحتلال البلاد . ولهذا الغرض منحت تراخيص إقليمية وسياسية مترابطة لعدد من الأعيان وذوى الشهامة الموسرين الذين كلفوا باستعمار أراضى قوادهم على حسابهم الخاص وتعد سلسلة المستعمرات مثل أولندا - رسيفى وباهيا وساوفيسنتى - سانتوس التى أسست نتيجة لهذه التنظيمات النواة الأولى للبرازيل الحديثة ، وازدهر بعضها أكثر من البعض الآخر ، بالنسبة إلى المزايا الطبيعية التى اختصت بها المنطقة ، وإلى أخلاق صاحب الالتزام (*) . وكانت قلة منهم ، مثل دوراتى كويلو رئيس برنامبوكو

(*) donatorio

رجالا أقوياء اكتسبوا حذقا من تجاربهم فى التعامل فى بيئه مدارية فى جزر الهند الشرقية . وكان ينقص بعضهم رأس المال اللازم أو صفات الزعامة ، فأصاب مستعمراتهم الفتور خلال العصر الاستعمارى .

وكانت أكبر المشكلات فى تأسيس البرازيل هى الحجم، والمسافة، وتطرفات الطبيعة ، وتطور قاعدة اقتصادية للمستعمرة ، والخطط التى كان يرسمها منافسون ذوو عقلية امبراطورية ولم يكن على البرتغاليين أن ينازعوا دولا حربية منظمة كما فعل الإسبانيون فى المكسيك وبيرو . فقد كان التوبى جنسا تربط بين أفراده وشائج القربى ، وكان على درجة أكثر انخفاضا على سلم المدنية من الازاتقة ورعايا الإنكا ، وعلى الرغم من أن القبائل البرازيلية كانوا يحبون القتال فى علاقاتهم بعضهم ببعض ، فقد عجزوا عن أن يكونوا جبهة متحدة ضد البرتغاليين . وحدث بعض القتال المتقطع ، ولكن البرتغاليين جاءوا ليقوموا بدور المستعمرين بدلا من أن يجيئوا فاتحين ، فتجنبوا العداوات الصريحة ما استطاعوا .

وعندما جاء البرتغاليون كانت البرازيل مجرد فراغ شاسع . فلم يكن لديهم فكرة عن كم هى شاسعة حتى خرج مستكشفو الأرجاء الداخلية من ساوپاولو إلى الغرب الأقصى من القارة المكشوفة . وكان البابا بورجيا قد حدد من قبل خطا تحكميا لتوسعاتهم زحزح فيما بعد بمعاهدة توردیسیاس فى سنة ١٤٩٤ . وفيما دون خط التقسيم بكثير وطد الإسبانيون مركزهم فى الاندز، وبدوا راضين بالبقاء هناك بعد عدة انتكاسات خطرة فى اختراق غابة الأمزون . ومنذ ذلك الوقت لم يهتموا إلا قليلا برية الأمزون إلى الهرق من الجبال ، أو بالميل إلى تحدى عمليات البرتغاليين التى كانت أقرب إلى رحلات الكشف منها إلى مجهودات يبذلونها لاستعمار مناطق الحدود . وأول الجهود البرتغالية فى هذا الصدد بذله وحده مخاطر اسمه اليكسو جارسيا مع قوة كبيرة من هنود الجوارانى ، وقد وصل

إلى الأطراف المسكونة من امبراطورية الإنكا من قبل أن تطأ قدم بثارو ساحل بيرو . وكانت أقرب المستعمرات الإسبانية إلى الساحل البرازيلي هي عند سانتا كروث دي لا سيرا في سهول شرق بوليفيا واسونثيون على نهر باراجواى . أما محاولات البرتغاليين لإقامة مركز على نهر بلات فقد أحبطها الإسبانيون نهائيا من الجانب الآخر من النهر . ولم يكشف الاتصال من الشرق إلى الغرب مع المستعمرات الإسبانية فى بيرو عن طريق الأمزون من ناحية البرازيل حتى سنة ١٨٣٨ ، عندما صعد بدرو تيشيرا النهر إلى إقليم كيتو وقد حدث هذا مباشرة قبل نهاية الستين عاما التى مكثها « الأسر الإسبانى » للبرتغال ، وفيها توقف كل جدال حول الحدود وبمرور الوقت أصبح الحد الطويل للبعثات التبشيرية اليسوعية من أراضى نهر بلات إلى الأمزون الأعلى يكون مصدا محايدا لأية محاولة ممكنة عند اعتداء دولة على الأراضى الخلفية للدولة الأخرى فى داخل القارة .

ولم يحدث أبدا أن عمرت البرازيل ، كما هو الشأن بالنسبة إلى كثير من أرجائها إلا بعد انقضاء أربعة قرون على احتلالها . ومن بادىء الأمر كان هناك دافع شديد للتجول فى البلاد . فلم تكن هناك جبال شاهقة تسد الطريق على المتقدمين ، ولم يكن هناك من العوائق الأخرى مالا يمكن التغلب عليه . ولما كانت معظم الأنهار الصالحة للملاحة فى البرازيل تتجه فى مجاريها من الشمال إلى الجنوب فإنها لم تكن ذات أهمية كبرى كطرق مؤدية إلى الداخل كما كان منتظرا ، ولو أن نهر ساو فرانسسكو كان حلقة اتصال عظيمة القيمة بين الشمال الشرقى ومرتفعات ميناس .

وكان الهندى على الدوام جوالا يبحث عن الطعام أو ملجأ يقيه من الأعداء الغرباء . وكان الكابوكلو أو المملوكو (*)، وهو مهجن من

(*) Oaboclo or Mameluco

هندية ، ورجل الحدود البرتغالى الذى أصبح « هنديا » (*) ، قد اكتسبا عادات التجوال التى كان يمارسها السكان الأصليون . وكذلك انطبعت حالة من القلق فى نفس البرازيلى الذى يعيش فى الأقاليم ، ولا تزال تميزه ، ومن الصعب أن تجعله يستقر فى مكان واحد . وفى ذلك الوقت ، كما هى الحال الآن ، كان يشعر أن الأمور ربما تتحسن بمرور الزمن ، ولذلك فقد كان الأفق يتحداه دائما . ثم إن المناخ ونمط زراعة الحريق (**) ساعداه وشجعاه على حياة التنقل ومعيشته الراكدة ولذلك فقد كان مجتمعا يبدو عند حافاته مجتمعا يغص بالحركة الدائمة .

سكان البرازيل

كانت المستعمرات متباعدة كثيرا بعضها عن بعض ، حتى إن الناس كانوا يقومون برحلات برية طويلة . ولم تكن المواصلات بالبحر آمنة دائما ، وكانت الرياح السائدة على الساحل الشمالى تجعل الملاحة صعبة فى اتجاه واحد . وكان موزعو البريد الذين يحملون الرسالات الرسمية بين مدن السواحل يلتزمون الشواطىء الطويلة كلما أمكنهم ذلك . وكانت الماشية التى تمد المستعمرات بالحاجات كثيرا ما تساق مسافات طويلة من المزارع فى الجنوب القاصى فى خلفية البرية (†) . أما فى البلاد الخلفية التى تقع على الطرق القديمة فلا يزال المرء على دراية بحداة الماشية (††) وأرتال البغال المجلجلة التى ظلت دائما مظهرا من مظاهر الحياة البرازيلية . وكذلك سكان باهيا الذى يعبرون جوياز أو ميناس بحثا وراء الألماس أو الذهب فى قيعان الأنهار ، هم أيضا جزء من عادة التشرد القديمة . غير أن أكثر الناس تجوالا من بين جميع البرازيليين هم سكان ولاية سيارا (***) ،

(*) tapuyado = Indianised

(**) roça نوع من الزراعه المتنقلة يحرق الزراع فيها الأرض بعد جنى المحصول ثم ينتقلون إلى أرض جديدة .

(†) Sertao

(††) boiados

(***) فى شمال البرازيل

وهم المولدون الأشداء فى تلك الولاية الجدباء الذين توغلوا إلى المنافذ البعيدة لوادى الأمزون ، وفى السنوات الأخيرة ينزحون إلى الجهات الصناعية فى الجنوب . وكثير من التجوال الذى لا ينقطع فى البرازيل يمارسه الناس على أقدامهم . فليس هناك سكة حديدية تربط الأقاليم الشمالية بالجنوبية لهذه البلاد العملاقة وطريق العربات بين ريو ومدن الشمال الشرقى عبر تيوفيلو أوتونى لا يعد طريقا ملكيا (*) ممهدا فى كل الأجواء .

ولم يكن هناك عدد متوافر من البرتغاليين المطلوبين لفتح البلاد وتبوئها مركزها . وإنه لمعجزة أنهم استطاعوا أن يحتفظوا بها على وجه الإطلاق فقد كان هناك عدد قليل جدا منهم . فأولا كانت البرتغال أمة صغيرة للغاية ، واستنفدت المغامرات الشرقية عدداً كبيراً من سكانها . فكان السكان الباقون فى منتصف القرن السادس عشر قد انتشروا فى كثافة خفيفة جدا فى العالم ليحتفظوا بأى شىء ضد عدو قوى عنيد . ولذلك فقد كان عليها أن تقتصد من نزر مواردها البشرية الخاصة وتبحث عن موارد أخرى من الرجال ، خصوصا من الأيدى العاملة المتوافرة العدد والذين يعتمد عليهم لنظام المزارع الذى كان قد راودها . وبدا الهندى هو المورد المنطقى للحصول على العمال . ولكن الهندى لم يكن لديه ميل للعمل المنتظم ولم يشعر بالسعادة فى المزرعة التى كان يحس فيها أنه شبه أسير . وفى زمن مبكر صرف المزارعون البرتغاليون النظر عنه كعامل على الأرض ، وإذا كانوا قد استطاعوا أن يمنعوه من التجول بعيدا فى الغابات فقد استخدموه فى أغراض مجالها أقل تقييداً ، وله ميل طبيعى إليها ، كأن يعمل ملاح زورق وصيادا . أما الرقيق الزنوج ، وقد كانت لهم تجارب طويلة معهم من قبل فى وطنهم ، فقد برهنوا على أنهم الحل السليم لمشكلتهم فى

(*) Camino real

الحصول على العمال وكان الزنجى من الناحيـــة الجسمية مهيأ لمطالب المعيشة فى وطن مدارى ، وما يتصف به مزاجه يساعده على تقبل أعباء الخدمة دون أن يشعر باليأس المحقق أو روح التمرد الكئيبة التى يكنها الهندى فى نفسه إن صنع البرازيل لم يكن ممكنا بدون الخدمات التى أداها جسمه وروحه .

وبالاختلاط المفرط بين دم البرتغاليين أنفسهم ودم كل من الهندى والزنجى، شارك البرتغاليون أيضاً فى حل مشكلة السكان فى البرازيل ولم يكن التهجين الجنسى شيئا جديدا عليهم ، فقد كان البرتغاليون فى جنوب نهر التاجة (*) بصفة خاصة شعبا مختلطا ، فلم يكن عندهم عقبات تمنع طغيان أى لون منهما على حدود اللون الآخر أو تصرفاته أو الفارق الاجتماعى . وقبل أن يبدأ احتلال البلاد المنتظم رهن ثلة متناثرون من البحارة البرتغاليين الذين جنحت سفنهم أو اختاروا من تلقاء أنفسهم المعيشة مع الأهالى إمكانات الاختلاط على نطاق واسع . وأشهر طلائع عملاء الاستعمار البرتغالى هؤلاء كاناديوجو ألفاريس ، وأشهر ما يعرف به اسمه كارامورو أو « صانع النار » ، وجوياو رامالو . وقد استقر أولهما فى الأراضى الغنية حول خليج سلفادور حيث نشأت مدينة باهيا فى وقت لاحق أما مسرح أعمال الآخر فقد كان نائيا فى إقليم سانتا كاتارينا . وكلاهما أصبح زعيما من نوع ما ، ورجلا مهما مهيبا بين القبائل التى تبنياها : زد على ذلك أنهما أنجبا نسلا كثيرا ووضعا نمطا للخلط ساعد كثيرا على ملء الفراغ التناسلى فى البرازيل وفى وقت لاحق جاء رواد الشمال الشرقى العظام ، مثل جارسيا دافيلا وجيرونيمو دى ألبوكيرك ، ليصبحوا أرباب أسر غزيرى الإنجاب فى البلاد ؛ ولقد استمرت هذه العادة حتى يومنا هذا دليلا على

(*) تاغو

في السيادة والمسئولية ، وكعامل هام مساعد على تبييض بشرة السكان الذين يغزر في دمهم التهجين في تلك الجهات المدارية من البرازيل .

وفي وقت مبكر بدأت المستعمرة تجد في السكر أساسا هاما في اقتصادها. فقد كانت السهول الساحلية المنخفضة ملائمة كثيرا لزراعة القصب ، ولما كانت موارد السكر في أوروبا قليلة ، ظل السكر فترة طويلة للغاية محصولا مربحا ، ولو أن سكر جزر الهند الغربية كان في النهاية منافسا خطرا قلل من أرباح صناعة السكر البرازيلية . وأمد الطباق الذي زرع في المنطقة المحيطة بباهيا والقطن الذي زرع في المنطقة الجافــة إلى الشمال من برنامبوكو (*) حتى مارانياو السكان بمحصولين ثانويين قيمين .

نظام المزارع

كانت حياة المزرعة تدور إلى حد كبير حول المزارع الكبيرة ومهما يكن فيها من قصور فإن الزراعة المدارية لم تمارس بذلك القدر من النجاح في أية مستعمرات أوروبية أخرى في ذلك الوقت فقد كان أفراد الطبقة الارستقراطية من المزارعين الذين يستخدمون الرقيق هم حكام البرازيل الفعليين . وكان إقدامهم الشخصي مهما كل الأهمية بالنسبة إلى مركزهم . وكانوا عادة رجالا حاذقين أقوياء العزيمة ولكنهم كانوا كرماء في معاملتهم لجموعهم الغفيرة المختلفي الألوان من الأتباع أحرارا كانوا أم عبيدا ، وانغمسوا في كثير من المظاهر الخشنة خصوصا عند زيارتهم للمدينة تصحبهم أسرهم وبطاناتهم . وفي هذه الأثناء كان قواد الجيوش في باهيا ، ثم في وقت لاحق نواب الملك في ريو ، رموزا مثيرة للعواطف للسلطة البرتغالية . وعلى الرغم من أن بعضهم كانوا ذوي كفاية وموظفين ملكيين ذوي ضمير فقد بقيت السلطة كلها أخير في أيدي أصحاب الأراضي

(*) رسيفي

الكبار ومن حسن الحظ الذى ساعد على نجاح إدارة هذا النظام المتراخى أن الحكومة كانت أبعد كثيرا وأقل تدخلا فى حياة المستعمرين منها فى الجو السياسى الصارم الذى كان يسود المستعمرات الإسبانية .

وكان ينقص المستعمرة ، حتى فى المدن ، جو من التهذيب الاجتماعى . فى بادىء الأمر كانت مجتمعا للذكور ، إذ كانت هناك قلة من نسائهم ليشاركنهم فيها وحتى عندما جاء النساء من البرتغال ، قبعن فى عقر ديارهن ثانية . ولم يكن لهن على ما يبدو تأثير خارج جناح الحريم (*) فى « البيت الكبير » ، بل إن هذا التأثير كان قليلا بسبب نشاط رجالهن الأشداء فيما وراء الأسوار . ولذلك فإن نساءهن الشاحبات قليلا لم يكن فى مركز يؤدين منه للمستعمرة مسحة من اللطافة الرشيقة التى كانت تستحقها نتيجة ثرائها ومركزها فى العالم الخارجى . فقد كان المستوى الاجتماعى الحقيقى للمستعمرة مستوى الأبيقورية القروية فقد كانت المستعمرة تلبس حلة مزخرفة فى المواكب وتتبختر وتؤدى حركات التعارف والمجاملة كأحسن ما تؤدى به فى لشبونة وملئت المنازل بمختلف أنواع الكماليات الشرقية . ولكن أقدامها كان يعلوها الطين ، وشعرها كان يكسوه النقع (**) ، لأنها عاشت ملتصقة بالأرض رغم كل ادعاء ووقفة مصطنعة ، وفى صميمها كانت تحت تأثير دافع ريفى عام نحو المباهج والمسرات الغريزية .

الثقافة الاستعمارية

كانت اهتماماتها الفكرية على مستوى منخفض كمستواها الاجتماعى . فلم ينغمس المستعمرون فى قراءة الكتب ، ولم تنشر أية كتب فى البرازيل فى العصر الاستعمارى إلا متأخرا (٣) . ولم تكن هناك جامعة كما كانت

(*) zenana : زنانة ، كما تسمى فى إيران والهند ــ زانا امرأة بالايرانية .

(**) الغبـــار .

الحال فى المدن الإسبانية مثل ليما ومدينة المكسيك لتقدم ستراً من لوذعية وحذلقة العالم القديم على لجاجاتها الحيوية والثائرة . وكان يحدث أحياناً أن مزارعا غنيا يرسل ابنا مرجوا من أبنائه عبر البحار إلى كويمبرا ليجعل منه عالما و « دكتورا » ، ولكن معظم ما كان موجودا من نشاط عقلى عاطل فى المستعمرة كان مرجعه إلى اليسوعيين أو يهود شبه جزيرة أيبيريا الذين كانت لديهم تقاليد فكرية قوية خاصة بهم .

وكانت أدوات الثقافة العالية فى أغلب الأحيان فى أيدى اليسوعيين القديرة . ولكن اليسوعيين لم يتفقوا مع استقراطية المزارعين على أشياء كثيرة سواء أكانت ذات طابع روحى أم دنيوى . أضف إلى ذلك أنهم كانوا منهمكين جدا فى محاولتهم حماية من فى عهدتهم من الهنود من نهم الفريق العلمانى وتمدينهم على طريقتهم الفريدة لدرجة لا يودون معها إرعاج أنفسهم كثيرا برفع مستوى المستعمرين الفكرى . ومع ذلك فبعض زعمائهم مثل الآباء انشيتا ونوريجا وكارديم وفييرا كانوا رجالا ذوى مقدرة عظيمة وأخلاق نبيلة تركوا أثرا لا يمحى على مر السنين فى تاريخ البرازيل المبكر .

ووقعت معظم مسئولية تأدية الخدمات الدينية لفريق السكان العلمانيين على عاتق قساوسة الابروشيات من الفرق الأخرى وعلى رعاة « البيوت الكبيرة » وكانوا ، بصفة عامة ، زمرة متكاسلة يعظون مسيحية منزلية وبسيطة ، وفى ظل النظام الهرمى الذى ارتضاه المجتمع أظهروا تجلة لائقة وانقيادا للسادة ملاك الأراضى الذين كثيرا ماكانوا يدعونهم إلى موائدهم المضيافة . وفى المزارع تعودوا العمل أيضا كمدرسين فى نظام يقارب مرحلة أولية من التعليم الابتدائى كانت سائدة فى ذلك الوقت . وكانوا يقومون بالخدمة الدينية فى رفق أثناء الاحتفالات الدينية المتكررة ، وفيها كان القديسون يندمجون كالآلهة الإغريقية فى العصور القديمة مع

عبادهم فى جو من الأنس البهيج . ولم يكونوا صارمين فى أمور العقيدة ، وتغاضوا عن البدع الدخيلة غير الضارة التى أحضرها معه الهندى والزنجى إلى أشد المذاهب الكاثوليكية كذلك .

ذلك أن الثقافة الشعبية الخصبة لكل من هذين الجنسين عمرت العالم الخفى الذى تصوروه فى مخيلتهم بجيش من العفاريت وشياطين الجو ومخلوقات أخرى خيالية . وخرج من غابة البرازيل العظيمة وأنهارها خليط من الحيوانات الكاريكاتورية مثل سلحفاة الماء (*) ، والتمساح(**) ، والدرفيل الوردى اللعوب(***) الذى يشتهر به الأمزون ، والتى كان الأهالى يعتقدون أن لها تأثيرا فى حياة الناس ، سواء أكان خيراً أم شراً . وعلى الرغم من أن رجال الدين لم يوافقوا على هذا التيه من الخرافات المتزاحمة على عقائد الكنيسة ، والتى تخالط الأمر فى عقول الرعايا البسيطة ، فإن هذه الخرافات كانت متأصلة فى غريزة الشعب بدرجة لم تخضع معها للمنطق أو اللوم . فقد أصبحت جوهر خرافات البرازيل الوافرة والدائمة ، وفيها تقوم الحيوانات غير العادية بدور هام جدا . فهى جزء من الميراث القصصى لجميع أطفال البرازيل ، ويستمد منها كبارهم مادة لتشخيص أوهامهم مثل جيكا تاتو ، وجوسيه كاريوكا — جو الببغاء — فى فيلم والت ديزنى « الفرسان الثلاثة »

ومن جميع التأثيرات التطورية التى كانت تعمل فى العناصر الخام للأمة البرازيلية . التكوين الجنسى ، عمل القوى الطبيعية (الشمس والمطر والغابة والمرتفعات وعظم مساحة الأرض نفسها) ، عملية التغير التاريخى نشأ بمرور الوقت جنس مختلف عن الجنس البرتغالى الأصلى ، ولكن الأساس

(*) Jaboti

(**) jacaré بالأحرى فصيلة من التماسيح alligators

(***) boto

بقى لوسيتانيا (*) . وكانت البرازيل شاسعة الأطراف ، وظلت أرجاؤها زمنا طويلة متباعدة بعضها عن بعض لدرجة أنه ، كما هى الحال فى الولايات المتحدة ، أصبحت هناك عدة فروق إقليمية تختلف عن النمط الأصلى . ولكن جنسا برازيليا كان طول الوقت فى طريق التكوين له صفة مميزة خاصة به ، بصرف النظر عن الاختلافات بين مواطن من ساوپاولو ومواطن من الشمال الشرقى ، أو بين مواطن من ميناس جيرايس أو جوشو .

البرتغاليون

لم يكن البرتغاليون جميعا كالإسبانيين ، ولو أنهم كانوا أقرب شبها منهم من كونهم أبعد شبهاً(٤) . واشتركوا مع بعض الإسبانيين فى صفات كثيرة كأهالى أستورياس وغاليسيا أكثر مما كان بينهم وبين سكان أراجون وقشتالة من صفات . واتصفت جميع شعوب شبه الجزيرة الفردية ، ولكن البرتغاليين كانوا بصفة عامة أكثر استعداداً للمصالحة أو الخضوع من الإسبانيين ذوى الخيلاء ، لأنهم كانوا عمليين أكثر ، ولم يهتموا كثيرا بالمظهر اهتمامهم بجوهر الأشياء . فإن بدا منهم العناد عند ما يدفعهم أحد أكثر من اللازم ، أو عوملوا معاملة جافة ، فقد كان ذلك أيضاً دليلا على أخلاقهم الريفية فى الأساس . وكانوا بصفة عامـــة وافعيين أكثر من الإسبانيين ، ومع ذلك فى مناسبات يستطيعون أن يكونوا كيحوتيين مثلهم ، كما بدا من بعض مغامراتهم الصليبية الخيالية فى إفريقية . وكانوا عاطفيين أكثر من الإسبانيين ، كما أن البرازيليين أرق عاطفة من أهالى تشيلى أو أوروجواى . وانساقوا فى حالات نفسية تسودها الكآبة قد تجد متنفسا فى غناء الأناشيد الشعبية الحزينة (**) التى يغنونها فى الريف . وعلى النقيض

(*) نسبة إلى Os Iusiadea البرتغال

(**) Fados

من ذلك قد ينغمسون فى مزاح ولهو استعراضى (*) ، فقد كانوا أناسا دنيويين وسذجا اتخذ لهوهم ناحية الجسد أكثر من ناحية الفكر . وكان تفكيرهم فى الحرب أقل من الشعوب الإسبانية ، ولو أنهم لا يقلون عنهم شجاعة فى المعارك إذا كانوا يحاربون عن إيمان ، فإذا لم يكن ذلك فقد كانوا ينزعون إلى إظهار شعور قوى بالمحافظة على الحياة ولما كانوا شعباً معتدلا بطبيعتهم فقد كانوا أبطأ فى اللجوء إلى العنف من القشتاليين المحبين للقتال . كما لم يميلوا إلى المفخفخة الزائدة والأبهة ، لأنهم كانوا على علم بأنهم ينتمون إلى بلاد صغيرة وليس لديهم أطماح لأن يلبسوا ثياب الأقوياء. وكان حبهم للربح شديدا ويجعلون المال وكانوا على وجه العموم رجال أعمال ومال أفضل من معظم السلالات الإسبانية ، ويخرج من بينهم أمناء مخازن وتجار أقوياء وحفظون . واستمرت أعداد غفيرة منهم تهاجر إلى البرازيل ، وهناك رغم أنهم هدف للسخرية والنكات ، يرحب بهم لجدهم وصفاتهم الجوهرية الأخرى ، كما يرحب بأهالى غاليسيا (**) المثابرين والمجدين فى كوبا . واعترافا بقيمتهم فى تطوير البلاد أعفوا من حصة القيود التى فرضها قانون الهجرة الفيدرالى .

الولايات البرازيلية وسكانها

تنقسم البرازيل كلها إلى خمسة أجزاء . وإذا ضممنا وادى الأمزون كجهة منفصلة تصبح ستة أجزاء . أما الأجزاء الخمسة فهى :

١ — الشمال الشرقى . ٢ — ولاية ميناس جيرايس
٣ — الإقليم الفيدرالى . ٤ — ولاية ساوباولو .
٥ — ولاية ريو جراندى دوسول . وهى تمثل عند البرازيليين النماذج

(*) فى الأصل Bruegel- like : نسبة إلى رسام هولندى مشهور بلوحاته الزاهية .
(**) Callegos.

البشرية الآتية على الترتيب : نورد ستينو ، مينيرو ، كاريوكا ، بوليستا ، جوشو . وليست الحدود بينها ثابتـــة ، لا من ناحية اصطلاحات علم الجغرافية، ولا من ناحية ثقافاتهم الإقليمية المميزة . فلا تزال البرازيل بلادا للريادة ، وأحيانا تبدو الهجرة الخارجية التى يقوم بها الناس من المنطقة الساحلية القديمة المطلة على المحيط نحو الأراضى الداخلية كما لو كانت بدأت مؤخرا ليس إلا . فحيثما وجدت سكك حديدية أو طرق يسلكها الناس وأرض غير مأهولة للاستعمار ، فإن تيارات الهجرة لا تلبث أن تبدأ نحو الداخل كما فى حوض نهر توكانتنس فى جوياز فى القطاع المتسع على طول السكة الحديدية الشمالية الغربية فى جنوب ماتو جروسو ، أو منطقة البن الجديدة فى جنوب غربى ساوباولو ، والركن الشمالى الغربى لبارانا . وقد تكون أغلبية المهاجرين من أهالى سيارا هاربين من فترات القحط التى تنتاب ولايتهم المعرضة للجدب، أو من سكان باهيا (*) ينزحون غربا عبر مجرى نهر ساو فرانسسكو ، أو من أهالى ميناس أو ساوباولو بحثا وراء فرص جديدة لإنتاج البن أو الرز أو تربية الماشية . وبعد ذلك تصبح الأرض المستعمرة حديثا ، من ناحية ، ملحقا للإقليم الذى جاءت منه أغلبية المستعمرين .

والشمال الشرقى هو البرازيل القديمة للرقيق والسكر . ومساحته شاسعة ، تمتد من حدود ولاية پارا، ثم جنوبا مارة « بيروز » أمريكا الجنوبية حتى مدينة ريو دى جانيرو تقريبا . ويمتد غربا عبر البرية (**) حتى يلتقى بغابة الأمزون . والبرية معظمها شبه صحراء تنمو فيها «الكاتنجا» أو الأشجار القزمية والأعشاب التى يميل لونها إلى البياض . وأحيانا كما فى مارانياو وبيوهى — توجد مساحات شاسعة من النخيل (***) . وهناك

(*) Bahianos
(**) Sertão
(***) Palmeiras

أيضا جهات تصلح أرضها الغنية لإقامة المزارع بالقرب من الشاطىء . وفى الجزء الجنوبى بين نهر كونتاس فى باثيا ونهر دوسى فى اسبيريتوسانتو توجد مساحة شاسعة تنمو فيها غابة مدارية مطيرة تكاد تكون خاوية من السكان . والشمال الشرقى هو الإقليم المفضل للشعوب المختلطة التى هى مركب من البرتغاليين والهنود والزنوج . ويتصف الناس فى النطاق الساحلى بطلاقة اللسان وسعة الأفق والتودد . ومعظم خطباء البرازيل المفضلين وشعراء الأناشيد ، مثل روى باربوسا وكونسالفيس دياس ، جاءوا من سلالته الخصيبة المزدهرة . أما الشخص الذى يعيش فى البرية الهزيلة والأراضى الخلفية فمعجم ألفاظه فقير ، كما هو فقير فى طعامه وبنيته وفى قرارة نفسه ضغط شديد من التصوف وكان من أنصار أنطونيو كونسلير وفى كانودوس ويتبع القساوسة الذين يبرئون الأمراض ويظهرون أحيانا فى البرية ليثيروا سكانها البسطاء إلى جنون التعصب . ونظرا إلى أنه عديم الثقة بالسلطة نجده قد انساق إلى عبادة الأبطال الذين يتحدون القانون مثل لامبياو او « البرق » قاطع الطريق .

وأهالى ميناس جيرايس جبليون ، ولهم الصفات التى يمتاز بها سكان الجبال وهناك نحو تسعة ملايين معظمهم يعيشون فى قرى فى الوديان المرتفعة أو فى مزارع صغيرة وقد نظموا حياتهم بأساليبهم الخاصة ، ويمكنهم أن يقولوا القليل فى كلمات كثيرة ، فى حين ينتظرون أجنبيا ليتمم حديثه ويومىء بيديه وهم محافظون ومتحفظون ، ولذلك فهم عجلة البرازيل المنظمة . والكاريوكا هم سكان ريو دى جانيرو الأصليون ، أو سكان الإقليم الفيدرالى (*) وضواحى المدينة الكبيرة ، وهم قوم يحبون التزين والاستعراض إلى حد ما ، ويتصفون بالحصافة ، وسلاطة السلطان ،

(*) نقلت العاصمة الفيدرالية إلى برازيليا كما تقدم ، وأصبحت ريو دى جانيرو عاصمة ولاية .

والنزوات ، والتقلب ، والعبوس ، والتهكم ، ويعدون « معرض » الحياة أعظم ما يجذبهم فيها ، ولا يسبقه في هذا إلا احتفالهم السنوى .

وفي ميناس جيرايس توجد العجلة المنظمة في الآلة البرازيلية ، كما أن ولاية ساوپاولو هي المحرك . وأهالي ساوپاولو ديناميكيون وأقوياء العزيمة ويحبون التملك . وهم يفكرون بعقلية المال والتنمية . وقد أحضروا الثورة الصناعية إلى البرازيل وأداروها للعمل لمصلحتهم ، وبطريق عارض لمصلحة البلاد ومنفعتها . ويمتد تأثيرهم ونطاق زعامتهم عبر حدود الولاية إلى پارانا وماتوجروسو و « مثلث » ميناس والأرجاء الملاصقة من ولاية ريو. ولما كانوا عماد الاقتصاد البرازيلي فهم يتكلمون بصوت أغلبية حملة الأسهم ، وتعودوا أن يستمع الناس إليهم . وأصبحت ولايتهم تنزع إلى الظهور بمظهر السيادة ، ولما لم تسر الأمور وفق هواها ثارت مرتين في وجه الحكومة الفيدرالية .

والجوشو هم شعب ريو جراندى دوسول ، الولاية الواقعة في أقصى جنوب الجمهورية . وتحدها من جانبين أراض إسبانية ، وتعكس آثارها في كثير من الأمور بما في ذلك الاسم المحلي لشعبها . فالجوشو أقرب في مزاجه إلى أهالي أوروجواى منه إلى مواطن باثيبيا الموجودة في بلاده هو . فهو أكثر من البرازيليين الآخرين في كونه « يخرج إلى العراء » ، كما أنه أشد عنفا و « حيوية » ، وفي مكانه الطبيعي عندما يمتطى جوادا ، وهو حيوان قد يكون غريبا كلية على مواج الكاريوكا ، وقد يفضل مواطن ميناس جيرايس كثيرا بغلا ثابت الأقدام كوسيلة للنقل البرى .

الاخلاق البرازيلية

البرازيليون هم صينيو العالم الجديد . وهم شعب حديث إذا اعتبرنا الناحية التاريخية ، أما من الناحية الروحية فهم جنس قديم له جذور في

مكان ما فى التاريخ . وليس التوازى بطبيعة الحال كاملا ، فالصينيون ، من بين أشياء أخرى، شعب نفعى أكثر من البرازيليين . ومع ذلك فصفة الشرقية فى نواح معينة من الحضارة البرازيلية واضحة تماما ، وهناك مجالات للفكر والسلوك فيها ينزع كل من الشعبين إلى أن يتصرف تصرفاً واحداً . وهذه حقيقة فى الصفات الصينية الدائمة — قبل وبعد النظام الشيوعى — وهى القيم والعادات التى تحلى بها الجنس ، والتى تأثرت تأثرا ضئيلا إثر التغير السياسى .

فهناك شعور متبادل بين البرازيليين والصينيين على حد سواء ، وروابط الدم هى الحلقة الرابطة الوحيدة (٦) ، وكلاهما يتجه إلى ألا يكون له أثر سياسى ، وفى النهاية هناك قوى أخرى غير الإجبار الحكومى تمسك الأمتين معا وتحفظهما من أن يطوح بهما فى فضاء سياسى ، والأخلاق والوسائل فى إدارة الأعمال لابد أن يتحد كل منهما مع الآخر .

والبرازيليون والصينيون يمقتون الحرب بشدة كمضيعة للوقت والمال ، اللذين يمكن أن يخصصا لما هو أنفع ، وإجراء لا يحل شيئا فى النهاية سوى مصير أولئك الذين لاقوا حتفهم . وكل منهما يتصف بالمرح الشديد ، ويصيبهم كثير من أمور الحياة فيرون فيها أشياء توجب الضحك والاستهزاء ، والشعبان يحبان الكلام ، ووهبوا الثرثرة كنوع من التسلية .

وما يسميه البرازيليون « دقة الإحساس » (*) هو مفتاح أخلاقهم القومية (٧) . وهى ليست « سرعة التأثر » ، ولا هى « قوة الإدراك » ، ولكنها أقرب إلى حدة العاطفة ، ومن ناحية الدافع ، تعنى سيطرة الشعور على الذكاء . وبعبارة أخرى يميل البرازيلى إلى أن يفكر بقلبه أكثر مما

(*) sensibilidade

يفكر برأسه فيما يختص بأمل معلق على عمل معين يقوم به . والتفكير ووجهات النظر تميل إلى أن تصبح شخصية أكثر منها موضوعية ، لأن الحياة أمر شخصى إلى درجة فائقة ، مكونة من علاقات بين الأفراد . أما المبادىء العامة مثل « الواجب » و « العفة » فهى عبارات خداعة وفى الحديث الجدى قد تصبح ذات فائدة كنقط تجميع لأفكار أبسط ، ولكنها صعبة عندما يراد تحويلها إلى تطبيق عملى فيما يمس أفعال واهتمامات الشخص الخاصة فالناس إما ظرفاء (*) وإما ثقلاء (**) ، فإذا كانوا ظرفاء فأنت تحبهم ، وإن لم يكونوا كذلك فأنت تكرههم (٨) . وتتخذ الصداقة (***) أهمية لا تعرفها أمزجة الشعوب الشمالية الباردة ويمكن تصنيف الناس إلى أصدقاء (+) أو أعداء (٩) (++) .

وسلطان الاعتبارات المؤثرة أو العاطفية يعقد مسلك الأمور الجدية ويجعل من الصعب حل المسائل بما تستحقه . وله تأثير ملحوظ فيما يؤديه العزيمة من عمل . وكما هو الشأن فى اندفاعه (****) مواطن أمريكا الإسبانية يميل الناس إلى أن يتصرفوا تبعا للدافع وفق انعكاساتهم العاطفية . وقد تكون هذه البواعث أو الدوافع الداخلية عنيفة جدا فى شدتها حتى ولو قصرت مدتها . فالجرائم عادة أعمال انفعالية ترتكب لفورها دون خطة أو تفكير سابق .

ويزيد من خطورة عدم إمكان التنبؤ ، وما هو عند الحريصين من الناس صفة التقلب وفق الأهواء ، وهما الصفتان المتضمنتان فى هذا الجو

(*) simpotico
(**) antipatico
(***) amizade
(+) amigos
(+ +) inimigos
(****) gana

الشخصى ، إيقاع غير منتظم للمجهود الذى يشترك فيه البرازيليون ومواطنو أمريكا الإسبانية . وكما هى الحال فى تكون الضغوط الجوية فى منطقة عاصفة حتى نقطة الانفجار ، فإن هـــذه قد تكون مقدمات طويلة فسيا استعدادا لاتخاذ إجراء . أما التراخى الذى يحدث فى أثناء العملية فهو مما يلائم الطبيعة البرازيلية حتى ولو كانت ظروف الحياة الفعلية لا تناسب الانغماس . والتمتع بالتراخى دليل على السمو فوق المستلزمات الاقتصادية . كما أن الأيدى البيضاء الرحيمة دليل على مرتبة اجتماعية . وفى كثير من أرجاء البلاد نجده أيضا ورد فعل دفاعى ضد المناخ ، ولذلك فهو يمثل اقتصادا فى القوى أكثر من أن يمثل تكاسلا صريحا ، أو ميوعة فى الأخلاق . ومن جهة أخرى لا يوجد هناك نظام تقليدى يحث على العمل الشاق ، ويعبر عن الفلسفة الشعبية تعبيرا واضحا بملاحظة أبداها مواطن برازيلى وهى أن « التراخى الموقر يبدو دائما أسمى ، بل أشرف من كفاح فيه رعونة يصرفه المرء لكسب قوت يومه » . ونظرا إلى أن البرازيلى يهمه الحاضر أكثر مما يهمه المستقبل البعيد فإن البرازيليين يبدون بمستوياتنا التى نعهدها ، شعبا عديم الفطنة . ويرغبون ، وهم فى الطريق إلى أى مصير يقودهم إليه المستقبل ، أن يجدوا فسحة من الوقت يستمتعون فيها بالمباهج البسيطة والملذات التى هى على جانبى الطريق .

وفى هذه الأثناء لا ينتظر أحد أو يبغى أن يصبح غنيا نتيجة عمل شاق . والعاقبة السعيدة لا بد أن تعتمد إما على الحظ وإما على نوع من الإقدام الفائق الذى يغامر به الفرد . ويعتقد البرازيليون اعتقادا راسخا فى الحظ (*) ونظرا إلى أنهم جنس من المقامرين أو المضاربين العتاة فهم دائما يأملون أن يربحوا الجائزة الكبرى فى اليانصيب أو لعبة البيشو « البرغوثة » (**) ،

(*) sorte

(**) «bicho»

وهى تقابل لعبة « الأعداد » فى ريو ، وفيها يقامر المرء على حشرة مألوفة أو « رغوث » (بيشو) . ولقد قاومت « البيشو » جميع المجهودات الهوجاء التى تبذلها الحكومة بين حين وآخر لمنعها ، وأفلحت فى إبقاء الطبقات الدنيا فى ريو فى حالة مزمنة من الترقب والإفلاس . وعند ما يسوء الحظ ونزواته يركن المرء إلى نفسه ، كما يقولون ، ويكسب المال بممارسة نوع من الدهاء . ولذلك فالشغل ليس شغلا ، إنما الشغل لعبة . ويفسر الاتجاه المسبق نحو مجىء الحظ الباهر الخدعة التى ينتظرها المرء من عملية تجارية برازيلية . وربما لا يعنى ذلك نقصا متعمدا من ناحية الأمانة ، ولكنه أقرب إلى تحد فى معركة من الذكاء لأنه إذا استثنينا حوادث النشل البسيطة المنتشرة بين أفراد الطبقات الدنيا فى شتى أرجاء أمريكا اللاتينية ، والتى تعد ظاهرة اقتصادية بقدر ما هى ظاهرة خلقية ، فإن مستويات البرازيلى من ناحية الأمانة الشخصية ربما تضارع فى سموها مستويات شعوب أخرى فى حالة مماثلة من التطور .

والآثار « المعادية للنظام الاجتماعى » التى يمكن أن تترتب على توكيد البرازيليين على العاطفة يخففها وجود صفات معلومة أخرى فى الأخلاق القومية وإحدى هذه الصفات هى طيبة القلب (*) . فهناك إنسانية عميقة فى الناس ، دينية فى صميمها وعندهم حساسية تجاه ما يقاسيه الغير من آلام ، وينزعون إلى البذل والكرم إلى أولئك الذين يعيشون فى محيطهم ويحتاجون إلى عون . وإذا كانوا كالإسبانيين يميلون إلى ألا يكترثوا لتعاسات من لا يعرفونهم فليس ذلك ابدا نتيجة قسوة القلب ، ولكنهم يدركون حدود مقدرتهم ليقوموا بدور السامرى (**) . وفى الأراضى الخلفية لا يزال

(*) bondade

(**) A good Samaritan نسبة إلى السامرية فى فلسطين — يوصف به من يقدم العون للمحتاجين .

هناك كثير من الجود القديم الذى تتصف به أقاليم الحدود . ومع ذلك ففى ميناس تحفظ كثير بالنسبة إلى وجهة النظر نحو الغرباء . فليس لدى المواطن هناك ، بصفة عامة ، فائض من « السلع العالمية » ، وعلى ذلك ، فإذا بدا منه من أول وهلة عدم الترحيب والشح ، فلأنه يشعر بكل فطنة أنه يجب عليه أن يتمسك بالقليل الذى بين يديه . ويخامره قدر معلوم من سوء الظن(*) نحو الغريب المفاجىء ، وهو بقية من بقايا القرن الثامن عشر المضطرب عند ما كان المغامرون السفلة يجوبون الجبال بحثا عن الذهب .

ويتصل بطيبة القلب الأساسية عند البرازيلى نفوره من الإجراءات أو الحلول المتطرفة أو العنيفة . فإذا لم يكن هناك ، فى ظرف معين ، بديل لاستخدام القسر أو القوة البدنية ، ينزع الناس إلى استخدامها فى صورة رحيمة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فمثلا عقوبة الإعدام ، إنها لم تحرم فقط ، بل إن النظام التأديبى عموما يتجنب العقوبات العنيفة أو اللاإنسانية(١١). وكذلك يفضل البرازيليون أن يخرجوا من سجال معضل بالكلام على اللجوء إلى نزاع تستخدم فيه العضلات . وإن الشهرة القومية فى الحذق فى المفاوضة الدبلوماسية مبنية على أسس قوية وعلى نزوع البرازيلى الشديد إلى التراضى فى الشئون الدولية . وفى الحديث العادى يكرهون استخدام ألفاظ أو عبارات جافة أو سيئة دون ما لزوم . ومن جهة أخرى انساق البرازيليون إلى استخدام ألفاظ التصغير والتنابذ بالألقاب والاسم الأول أو الشخصى(**)، وهو الذى يرفع التكليف فى العلاقات الإنسانية . أما المحادثة بين أفراد الأسرة والأصدقاء فتنمق بالنمنمة المشهورة التى تدل على المحبة : « نه » أو « انيا » . وهكذا جرت العادة أن يخاطب المرء أمه (***) بلفظ « مايزينيا »(+)

(*) desconfiança

(**) Christian name

(***) mae

(+) maezinha وتنطق مايزينيا

أو يشير إلى الجد بلفظ « أفوزينو » وليست كل الأسماء التهكمية دليلا على استهزاء أو حط من الكرامة ، ولو أنها مجونية ، وغالبا ما تلمح إلى ظاهرة جسمية أو مزاج فى الشخص ولكن بدون ضغينة .

وعادة الإشارة إلى الأشخاص بأسمائهم الأولى أو الشخصية شائعة فى البرازيل . فأولا أخذ البرتغاليون كثيراً من اللغات الأجنبية وصاروا ينقبون فى ميادين الوهم والتاريخ عن الأسماء الأولى . والتنوع كبير لدرجة أن الشخص كثيراً ما تعرف شخصيته باسم فريد ، بل ربما يظهر فى ترتيبه الأبجدى بدلا من اسم الأسرة فى دليل الهاتف . ومن أمثلة هذه العادة الشائعة اسم « أوجيتوليو » أو « الجتيوليو » . وهو الاسم الذى أطلقه البرازيليون الوقحاء على الرئيس جيتوليو فارجاس .

وهذه الأوضاع المشخصة تشخيصاً كاملا تجعل المسائل ذات الأهمية القصوى كيسرات للوظائف الاجتماعية . ومن المرجح أنه لا توجد بلاد على سطح الأرض فيها قانون الآداب أكثر إتقانا أو أحسن مراعاة . وليس هناك بلاد تحرز فيها الابتسامة كسبا أكبر ولا العبوسة خسارة أعظم . وينقاد البرازيليون بسهولة إذا لجأ القائد إلى العاطفة ، ومن الصعب قيادتهم غصبا . والتوكيد على الأمور الشخصية متأصل إلى درجة أنه أحيانا يؤدى إلى إلغاء القوانين التى يظهر منها أنها لا تتفق مع العلاقات الإنسانية المقررة . فالقوانين والقواعد لا تسرى على الأصدقاء ، ولكنها صيغت للمعاملة مع الأجانب والغرباء .

وتتضمن القيود الأخرى على الأوضاع التى قد تؤدى ، فى ظروف أخرى ، إلى فوضى بهيجة فى المجتمع البرازيلى ، الحاسة القوية الديمقراطية ، وهى الميراث المتأصل لشعب الحدود ، وروح المرح المنجية ، وعدم المبالاة بالأشياء التى لا تؤثر فى صميم سعادة الشخص . فبتذويب الفوارق بين الناس

على الأقل من الناحية الفلسفية ، بصرف النظر عن مركزهم المادى بعضهم بالنسبة إلى بعض، يمتنع عدم المساواة عن أن تكون مصدراً كبيراً للشقاق بين أفراد المجتمع ، وذلك بتقليل الفرصة لكل من الاستغلال والحقد. واستعداد البرازيلى للضحك على ما يضحك يلين التوترات فى العلاقات الشخصية . ومع ذلك فأحيانا يشوب مزاجه إضمار الخبث (*) ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون ذلك ضغينة ، بل ملعنة ، أو صفة من صفات المكر ، ولو أن إغراء إطلاق النكتة على شخص آخر جعل نفسه موضعا للتنكيت قد يكون شديداً إلى درجة لا تقاوم . وعلى الرغم من روح البرازيلى المرحة والسهولة التى يضحك بها فإنه ينساق إلى حالات انقباض النفس . فكثير من مشكلاته — ومشكلات بلاده — لم تجد لها حلا بعد ، وقد تأتى أوقات تبدو له فيها أنها لن تحل ونظراً إلى حساسيته فهو معرض لدرجة غير عادية لتأثير الانفعالات التى تثار من حوله . وفى الأجزاء المدارية من بلاده تثبط الطبيعة بإفراطها وسيطرتها الزائدة من عزيمته وتضغط على همته .

وهنالك أيضاً روح عدم الاكتراث فى طبيعة البرازيلى، والتى قد تمنعه من أخذ أى شىء جدياً إلى درجة زائدة ما دام لا يهدد هذا الشىء نظام حياته الذى ارتضاه تهديدا مباشرا . وهذا هو مسلك اللامبالاة، وهو أن لا شىء يهم كثيرا شريطة أن يظل المرء مستمتعا بالأشياء التى تجلب له السعادة . وهو ينزع إلى أن يجعل من الأيسر التغاضى عن الإساءات البسيطة وتقصير عمر الضغائن . وهناك قليل من التعبيرات التى كثيرا ما يسمعها المرء فى البرازيل مثل « ليس فى هذا ضرر » أو « إن هذا لا يهم » (**) . وهناك تعبير آخر يحتوى على معنى مختلف من هذه القدرية غير العابثة ،

(*) malicia

(**) "Nào faz mal"or "Nào importa"

أو قل الاستسلام ، وهو : « اتركه وشأنه حتى نستطيع أن نرى ما سيصير إليه (*) .

ثقافة البرازيل

العقل البرازيلي أداة حادة . وفي وسعه البت في الأمور بسهولة ووضوح ، ولو أنه إذا تعمق كثيرا في ميادين الفكر فقد يشعر بالتعب سريعا أو بالملل . وتمتاز آثاره بالبساطة والجمال ، ولكنه عقل ذو بعدين ، ويجنح إلى الافتقار إلى العمق والمثابرة وإلى الشعور بالإتقان والدقة . ويغلو في توكيد النشاط والتألق العقليين ، وينزع إلى إعطاء قيمة أكبر لثمرات الإلهام والبديهة أكثر مما يقدره للثمرات الأساسية للعمل الكادح والجهد العامد وعند البرازيلي ، خصوصا مواطن الشمال الشرقي فيض مدارى من الخيال يمد عقله بجناحين ولو أنهما قد يكونان جناحى عصفور الجنة أو إوزة برية . وعنده كذلك بصفة عامة طلاقة تعبير الكوبي والميل إلى التنكيت والدعابة اللذين يمدان الحديث بالحيوية .

والثقافة بالبرازيل دليل الطائفية . وبهذه الصفة نجدها مسألة اجتماعية بقدر ما هي مسألة فكرية ، وإذا أخذنا في الاعتبار النسب المئوية لمن يعرفون القراءة والكتابة والمسجلين في المدارس نجد أن البرازيليين شعب غير متعلم(١٣) ولا يترك المدرسة الابتدائية ليلتحق بمرحلة أعلى سوى جزء صغير من السكان ، وبالمقابلة هناك عدد قليل من الخريجين في المدارس العليا (**) ؛ ولذلك فعدد المؤهلين للالتحاق بالجامعات لا يعتد به .

وكما هو الشأن في معظم البلاد الإسبانية نجد أن الحصيلة النهائية لهذه

(*) "Deixa-o como està, fara ver como fica."

(**) الليسيه lycea

«الغربلاء» المتتالية هى وجود أرستقراطيه ثقافية ، وأفرادها «دكاترة»(*) . والامتياز الفكرى يقاس بالدرجات ، والدبلومات ، وشهادات الجدارة ، وألقاب الشرف ونشر الرسائل ، وجميع أوسمة العلم الظاهرة الأخرى . فهى مكونة من الأشخاص الذين يقرأون الكتب ، وغالبا لأنهم يرون فى ذلك متعة ، ولكن أحيانا بسبب أنه إذا أريد أن يعترف بالشخص رجلا مهذبا فعليه أن يقرأ الكتب ، ويكون قادراً على الاقتباس منها . ويحرز كثيرون مجموعات ضخمة إلى حد الإثارة من المعلومات المختلفة وغير المترابطة ، هى نتيجة كثرة القراءة المتناثرة كأهالى بوجوتا الذين يشبهون البومة والذين يعرفون محليا « بأثينى أمريكا الجنوبية » . ولقد تطوروا ثقافيا إلى مستوى أعلى بكثير من مستوى قراءة الجرائد ، والذى يشمل قراءة خريج المدرسة الابتدائية ، وأعلى من مستوى المجلات المحلية بما فيها النسخة البرتغالية من « المختار » ، والتى تكون المجال الحدى الجديد للعقلية العامة . ويستطيعون سرد فقرات بطلاقة من سارتر وفاليرى ومورياك ، كما كان آباؤهم يستعرضون براعتهم فى الاقتباس من كومت وتين وجوبينو .

وأحيانا يؤلفون كتبا موثوقا بها ، بل ممتازة . وحصيلتهم من الكتابة الجديدة ذات القيمة تفوق كتابة أية جمهورية من الجمهوريات الأخرى ، فمثلا ليس هناك شعب آخر فى أمريكا اللاتينية قام بدراسة تحليلية لأنفسهم بكفاية وأمانة ، كما فعل جلبرتو فريرى ، وفرناند ودى ازيفيدو ، والسواموروسو ليما ، وإدوارد وبرادو ، وكثير غيرهم ، مثل هرنانى تافاريس دى سا . وإذا كانت الحصيلة الكلية للابتكار العلمى الأصيل تبدو صغيرة ، كما هو الشأن فى جميع أرجاء أمريكا اللاتينية ، فمرجع ذلك إلى الجمهور المحدود نسبيا الذى يستطيع قراءة الكتب باللغة البرتغالية ، ويستطيع شراءها

(*) doutores

والكتابة فى البرازيل ليست مهنة مكتفية اكتفاء ذاتيا حتى بالنسبة إلى أولئك الذين استقوا من السوق الخارجية للترجمة من كتب أجنبية . وعلى ذلك فعلى المؤلف أن يكون له مورد دخل آخر لتحمل تكاليف التأليف مثل دخله من المحاماة ، أو الصحافة ، أو وظيفة فى الإدارة البيروقراطية ، أو إيرادات من الممتلكات العائلية . ولا يميل البرازيليون كثيرا إلى التفكير الفلسفى أو البحث العلمى — وهما ميدانا العلم اللذان يحتاجان إلى مجهود مثابر وتدريب — أكثر مما تميل جمهرتهم إلى قبوله . وهم يتفوقون أكثر فى النقد والتحليل الأدبى والاجتماعى ، كما يتفوقون فى القصص الطويلة وكتابة التاريخ . وهناك كتب تؤكد على الذوق الفنى الأدبى فى الأسلوب واللغة أكثر من توكيدها على المادة الفكرية . وهذا يشبه الأهمية التى يضيفها البرازيليون على المظهرية (*) — وهى البراعة أو الفطنة لعمل الشىء فى أسلوب من العظمة رغم أن المناسبة قد لا تكون ذات أهمية كبيرة فى حد ذاتها .

(*) Geito

هوامش الفصل العاشر

(١) لم يكتب تاريـخ واف مختـصر عن البرازيل بالانجليزية • ولا تغطى الرحلة الجبرية المشهورة التى قام بها الشاعر الانجليزى روبرت سوذى عصرى الامبراطورية والجمهورية

Robert Southey, «History of Brazil» (3 vols., London, 1810 - 19).

أما مؤلف Joao Pandia Calogeras وزير المـالية اليـونانى البرازيلى ، والكتاب من جزء واحـد فمكتوب بأسلوب وزير ماليـة •

«A History of Brazil» (tr. from the Portugueses and edited by Percy Alvin Martin, Chapel Hill, N. C., 1939).

أما المؤلف الممتاز بقلم كايو برادو الصغير

(Caio Prado Junior).

وعنوانه

«Formaçâo do Brasil Contemporaneo».

والذى صدر فى ساو باولو فى سنة ١٩٤٢ فلم يكمل بعـد ، ولم يترجم حتى الآن الجزء الأول الذى يعـالج عصر الاستعمـار • ومن الكتب المفيدة الأخرى التى تعالج الأصول البرازيلية

Sergio Buarque de Holanda, «Raizes do Brasil» (Sâo Paulo, 1948).

وهناك مادة سليمة عن تاريخ البرازيل فى

Mary Wilhelmine Williams, «The People and Politics of Latin America» (rev. ed., Boston, 1945) PP. 92 - 101, 143 - 48, 245 - 75, 319 - 23, 753 - 802.

ومن المؤلفات الأخرى الممتازة عن البرازيل :

Roy Nash, «The Conquest of Brazil» (New York, 1926) ; Gilberto Freyre, «Brazil : Interpretation» New York 1945).

T. Lynn Smith, «Brazil : People and Institutions» (Baton Rouge, La., 1946) ;

Lawrence F Hill, ed., «Brazil» (Berkeley, 1947) ;
T. Lynn Smith and Alexander Marchant, eds., «Brazil · Portrait of Half a Continent» (New York, 1951).

(٢) عن مشروعات البرازيل فى الشرق انظر

Edgar Prestage, «The Portuguese Pioneers» (London, 1933).

(٣) لم تجـد ماريا جريهام التى كانت فى البرازيل فى العقـد الثالث من القرن التـاسع عشر أية مكتبة فى رسيفى ، وعلى الرغم من أنه كان يوجد اثنـان من بائعى الكتب فى باثيا ، فقـد كانت اثمـان الكتب « مرتفعـة بدرجة غير عادية ».

«Journal of a Voyage to Brazil, and Residence there, During Part of the Years 1821, 1822, 1823» (London, 1824) pp. 111, 138.

وقالت عن ريسفى : « هنا تكاد أسماء الآداب والعلوم نفسها لا تعرف » وعلقت على البرازيل بصفة عامة بقولها : « ان حالة التعليم العـام منحطة الى درجة أنه للحصول على أى قدر منـه يحتـاج المرء الى ذكاء يفوق الذكاء العـادى والرغبة فى تحصيل العلم »

Ibid., P. 147.

(٤) عن تاريخ البرتغال أنظر

Henry Morse Stephens, «The Story of Portugal» (New York, 1891) ;

وأيضـا

H. V. Livermore, «A History of Portugal» (Cambridge, England, 1947) ;

وانظر أيضـا

Aubrey F.G. Bell, «Portugal of the Portuguese» (London 1915).

ويقول جلبرتو فريرى عن المستعمر البرتغالى الأنموذجى فى القرن السادس عشر انه كان « كاسـبانى بدون الأورثوذكسية الحربية ، وكانجليزى بدون حدوده البيوريتانية (الحنبلية) • فقـد كان جريئا ، مثابرا ، كفئا ، ولكن قلمـا كانت تعوقه مبادىء جامدة ، وهـكذا كان أكثر مرونة من الاسبانى أو الانجليزى •• مشهورا بقـدرة معلومة من التهيئة للظروف والتمثيل جعلته فى مركز فريد دون سائر الأوربيين فى عصره » •

«Some Aspects of the Social Development of Portuguese America «in Charles C. Griffin ed.,» (Concerning Latin American Culture» (New York, 1940), P. 82.

(٥) يميز تافاريس دى سا هذه النماذج بالعبارات الآتية : « النوردستينو » ـ كثيرا ما يعيشون على الأمجاد المـاضية وكشف الرواتب العـام ، وكثيرا ما يسوون مركزهم المـالى على صفحات الجرائد ، كمـا يتصفون بزلاقة اللسان ، والسرعة ، والعقول اللماحة • «الميتيرو» حب التناسب ، التأنى ، حسن الادراك • « الكاريوكا » ـ الفتنـة ، سرعة الخاطر ، التراخى التقلب ، روح العالمية ، الاستسلام للنكات الخبيثة malicia ، السامبا ـ الاحتفال • « البوليسـتا » ـ أوغاد عظماء ، شديدو المراس فى القتال ، الشراهة ، المرونة ، العناد ، الديناميكية ، الاجتهاد ، الجـد فى العمل ، العجلة • « الجوشو » ـ المرح ، الصخب ، حب المشاجرة ، الشغف بركوب الخيل •

Hernane Tavares de Sà, «Brasileiros» in «Americas», May, 1949.

(٦) ان الروابط العائلية هنـا جميلة جدا • فهى متينة وطابعهـا الاخلاص ، كالروابط التى تسود بين البطون الاسكتلندية » •

Maria Graham, op. cit., P. 226.

وطبقا لرواية مسز جريهام كان الشعور بالأسرة قويا فى البرازيل لدرجة أنه عاق تكوين علاقات أخرى بين الأشخاص • ويكتب روى ناش عن « الشعور بالتماسك الذى يربط بين أشد الأقرباء تباعا ، والشفقة التى ينالهـا الطفل غير الشرعى وأمه ، وهذا هو عين المسيحية ، والبيئـة التى فيها قلمـا يساء الى الأطفال أو يجبرون على اطاعة الأوامر ، والاحترام الأبوى ، وهو شىء جميل حتى ولو كان فى غير محله »

Op. cit., P. 313.

« ففى تفكير البرازيليين الأسرة هى الوحـدة الأسمى والتى تستحق أعظم وقار »

Tavares de Sà, op. cit., P. 633.

أنظر أيضـا

T. Lynn Smith, op. cit., P. 633.

(٧) أنظر

Fernando de Azevedo, «A Cultura Brasileira» (Rio de Janeiro, 1943).

وقد ترجم هـذا المؤلف الى الانجليزية ونشر بعنوان
«Brazilian Culture : An Introduction to the Study of Culture in Brazil» (New York, 1950).
ويحتوى على أتم تحليل للأخلاق البرازيلية وصورهـا الاقليمية لا مثيل له فى مؤلف آخر ٠

(٨) « يقيم (المرء) باعتباره شخصية ٠ أما مركزه اللاحق ، حتى ولو كان هـذا رسميـا ، فيتوقف الى حـد كبير عمـا اذا كان دمث الأخلاق ٠ »

Konrad Guenther, «A Naturalist in Brazil» (tr. from the German, Boston and New York, 1931), P. 359.

(٩) « نحن لا تغرينـا القوة ، ولا المـال ، ولا الأعداد ، ولكنـا نلبى نداء العطف ولطف الشمائل ، ونغيث الملهوف ٠ وفضلا عمـا يتصف به البرازيلى من قوة العزيمـة والذكاء وحـدة الطبع فهو رجل عاطفى ٠ وان مدنيتنـا أقل اعتمادا على السيطرة أو الطاعة أو المبادىء الفلسفية أو التنظيمات الاجتماعية أو التقاليد الجامدة أو الايديولوجية المحكمة منها على مبدأ الصداقة الرهيف والمقدس ، ويكرس شعب البرازيل كأفراد وكأمة للصداقة أحسن طاقاتنا » ٠

Alceu Amoroso Lima, in «Tomorrow», (March, 1943), P. 36.

(١٠) يرى تافاريس دى سا معلقا على العبـارة البرازيلية
«Fazer minha independencia»
أى « انى أصنع استقلالى » أن ليس هنـاك تعبير يعـادل فى لغـة

البرازيليين التعبير الأمريكى «to make money» اى « يربى ثروة » فقـد يفزع البرازيلى من فكرة انه قد يضطر الى تكريس سنين كثيرة ليصنع استقلاله ، كمـا لا يقبل مطلقـا عن قصد على حيـاة كلهـا عمل حتى ولو كانت لتـدر عليـه الثراء ، فهو دائمـا يقـع فيه كرها أو بخدعـة » ٠

Op. cit., P. 137.

(١١) « أعتقـد ان القـانون البرازيلى معتدل ورحيم ، وانى واثق من أنه يطبق بروح الشفقة ٠ ولدى البرازيليين ما أتصور أن يكون الفزع الحقيقى من أخذ الحياة قضائيا٠فهم لا يخافون الحرب ، ويدفعهم الغضب والغيرة المفاجئان سريعا الى القتل ٠

William Lewis Herndon and Lardner Gibbon, «Exploration of the Valley of the Amazon (2 vols., Washington, D.C., 1854), II, 340.

وكتب رتشارد بيرتن عن الأحوال فى ميناس يقول : « ان نسـبة الجريمة الى عدد السـكان تافهة ٠٠٠ وان مراة أخلاق الميتيرو المحبـة للقـانون ، أو بالأصح اللطيفـة رغم حدتها ، هى حالة الشرطة ٠ فبمثل هـذه القوة الضابطة وصغر عددها ربمـا كانت معظم البـلاد الأوربية تصبح غير صالحة للسكنى »

Op. cit., I, 403.

« لم يحدث فى تاريخ البلاد ان اغتيل نائب ملك فى البرازيل ، ولا ملك ، ولا امبراطور ، ولا رئيس ، ولا أسقف » ٠

Gilberto Freyre, «Brazil : An Interpretation» P. 159.

(٢) داب الأجانب على التعليـق على دمـاثة سـلوك البرازيليين « اينمـا التقيت بالبرازيليين ، من أعظمهم شـانا الى اقلهـم منزلة ، أرانى مضطرة الى القول انى لاقيت دائمـا أعلى درجات الأدب » ٠

Maria Graham, op. cit., P. 265.

وعن « لطف السـلوك المطرد الذى يتحـلى بـه جميع النـاس ، قال كونراد جنثر : « هـذه صـفة يتفوق فيهـا البرازيلى على الأوربى دون اعتراض » ٠

«A Naturalist in Brazil» (tr. from the German, Boston and New York, 1931), P. 360.

« يسود أدب عام بين جميع الطبقات والألوان » .

Henry Walter Bates, «The Naturalist in the Amazons» (Everyman edition, 1910), P. 49.

وقد قضى بيتس أحد عشر عاما فى وادى الأمزون (١٨٤٨ ـ ١٨٥٩).

(١٣) « حتى فى أيامنا هذه ربما كان أكثر من ثلثى مجموع البرازيليين أميين

T. Lynn Smith, op. cit., p. 665.

وقال هيرنانى تافاريس دى سا انه فى سنة ١٩٤٧ كان معدل الأمية يزيد الثلث على الأقل على التقدير الرسمى وان ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ طفل بين السابعة والحادية عشرة لم يكن لهم مدارس يتعلمون فيها .

Op. cit., pp. 64 - 65.

(١٤) عن آداب اللغة البرازيلية انظر

Isaac Goldberg, «Brazilian Literature» (New York, 1922, Ronald de Carvalho, «Historia da Literatura Brasileira» (Rio de Janeiro),

Erico Verissimo, «Brazilian Literature : An Outline» (tr. from the Portuguese, New York, 1945) ;

Harriet de Onis, ed., «The Golden Land : An Anthology of Latin Amencan Folklore in Literature» (New York. 1948) ;

Samuel Putman, «Marvelous Journey : A Survey of Four Centuries of Brazilian Writing» (New York, 1948) ;

Arturo Jorres Tioseco, «New World Literature : Tradition and Revolt in Latin America» (Berkeley and Los Angeles 1949), passim ;

Pedro Henrique Urena, «Literary Currents in Hispanic America» (Cambridge, Mass., 1945).

خاتمة

توجد فى أمريكا اللاتينية عشرون أمة . وجميعها حاليا جمهوريات ، ولو أن ثلاثا منها كانت ملكية فى أثناء أعمارها القصيرة . وهى تنزع بطبيعتها إلى النوع الجمهورى من الحكومة ، رغم أن الديمقراطية قد لا تكون جزءاً من صميم حياتها السياسية .

وربما كان ينبغى ألا يزيد عدد الجمهوريات على أربع عشرة ، لأن شعور المرء بوجوده فى أمة مشروع باهظ التكاليف ، ولا تستطيع الجمهوريات الأخرى ، أو لا تبرر ، الترف الذى يستلزمه مركز دولة مستقلة وذات سيادة . وست منها فى الحقيقة مجرد ولايات سارت فى معمعة شعورها بأنها أمم ، ولا تقصد تحقيق هدف معين خلاف المضى فى خطأ أساسى وواحدة منها ، لو أرادت ، قد تصبح إحدى القوى الكبرى فى العالم ، ولكنها لا تهتم بذلك لمصلحتها الشخصية .

وعلى الرغم من السمعة الخاصة التى التصقت بهذه الأمم العشرين بأنها مثيرة للشغب ، فإنها فى الواقع تكون أكبر مجموعة دولية محبة للسلام فى العالم ، وقد طورت أكفأ جهاز لمجموعة من الدول لحسم خلافاتها . ومع أن هناك مشاحنات وضغائن وتوترات سطحية ، فإنها ليست قديمة أو متأصلة كما هى الحال بين دول أوربا . واستطاعت هذه الأمم أن تعيش بعضها مع بعض فى تناسق ملحوظ . ونظراً إلى أنها بصفة عامة تسلك مسلكا حسنا ، ولها أثر ضئيل كدول « مقلقة » من الناحية الدولية ، فإننا ننزع إلى التغاضى عنها لنهتم بشعوب أكثر مجلبة للمتاعب يقلقون راحة بالنا . وهم ينسجمون فيما كان يسمى بلطيف العبارة « اتحاد الأمم » ، ودون أن يتسببوا فى أى نزاع .

وفى خلال هذه الأثناء لا يهتمون بالطريقة التى تدير بها الدول القديمة شئون العالم ويتجهون إلى الانطواء لحماية أنفسهم . وإذا ما سجلوا مبادئهم السلبية فى دساتيرهم فهم مخلصون فى عملهم هذا .

والقوات المسلحة التى يملكونها ، وهى صغيرة نسبيا إذا قورنت بالجيوش الضخمة الحديثة الأساليب ، إنما هى أحيانا أكبر قليلا من جماعات لها رؤساء ومن المحتمل أن دورها ، وهى على هذا الشكل ، أهم كجماعة حاسمة لها وزن فى السياسة الداخلية القومية أكثر من كونها أداة فى العلاقات الأجنبية . وفى سنة ١٩٥٣ كان حوالى نصف رؤساء جمهوريات أمريكا اللاتينية رجالا حربيين وهناك اتجاه فى الجمهوريات الصغيرة حول الكاريبى لاستبعاد الجيش القائم كلية أو ، على الأقل ، تقليله حتى يصبح تنظيما هيكليا صغيرا يمكن أن يستخدم كنواة للتعبئة القومية فى حالة طارىء دولى . وبدلا من ذلك فقد ألقيت مسئولية حفظ النظام الداخلى وصد أى غزو محلى من أرجاء البلاد على قوة « كونستابلات » أو على الشرطة الأهلية ، وقد تكون فى طبيعتها قوة أشد خطراً فى القتال من جيش الدولة

وهذه ثقافات انتقالية . وبينما تختلف فى درجة تطورها ، فليس منها ما وصل إلى حالة من الكمال أو التمام الذى قد نشاهده فى أوروبا وآسيا ، فهى مجتمعات فى دور التكوين ، وقد يظن المرء أحيانا أن العملية لم تبدأ إلا مؤخرا . ولا يرجع هذا فقط إلى أنها من الناحية التاريخية حديثة العهد نسبيا ، ولم يتسع لديها الوقت بعد لتنمية بناء نضجها القومى الكامل . فالسبب الرئيسى هو أن اختلاف العناصر الاثنوجرافية التى تدخل فى تكوينها لم تندمج بعد . فكثيراً ما تتركب حضارة واحدة من ثقافتين أو ربما ثلاث أو أربع . والمعادلة التى يتم بها الدمج هى : إسبانى (أو برتغالى) هندى (أو زنجى) ، أو مولد من هندى أو زنجى ، أو خليط من كل هؤلاء = الجنس الجديد . وقد لا يكون هو « الجنس الكونى » الذى كتب

عنه جوسيه فاسكنسيلوس ، ولكن النتيجة ستكون شعبا لا يشبه أيا من عناصره المتفرقة .

ونظراً إلى أن الثقافات المؤتلفة تمثل توترات متراكمة فى علاقاتها بعضها ببعض ، فإنها لا تستطيع أن تعيش إلى الأبد جنباً إلى جنب فى توافق إذا مالت إلى هذا الجانب أو إلى الجانب الآخر . وهذه التوترات هى ميراث ذكريات من أخطاء الماضى ، ومن أساليب الحكم ، والمصالح الاقتصادية المقررة ، والاضطرابات الثورية وفى هذه الأثناء ، ونظراً إلى عدم وجود نظام اجتماعى ديمقراطى ، فإن قبول مبدأ المساواة ، وهو شرط لازم للتعايش المتسق لثقافات متفاوتة ، يصبح أمراً مستحيلا ولذلك فلا يمكن أن يكون هناك طوية قومية واحدة من أى من هذه البلاد حتى تتم عملية التهجين ، وتختفى العوائق الموجودة فى سبيل الوحدة الثقافية مع أسبابها الاجتماعية . وهذا هو حل متطرف ، ولكنه فى النهاية يضع حدا فعالا للمشكلة ، كما ادرك البرازيليون أخيراً . فلو أن حدة الضغط الذى يسببه كفاح الطبقات والتنافر الدولى خفت عما هى عليه الآن ، فقد يكون هناك حل ممكن آخر ، دون أن تذهب بعيدا فنهدم منزلا أقامه بضعة بنائين ، لكل منهم آراؤه ، ثم نعيد بناءه من جديد بنفس المواد وفى هذه الأثناء لا تكون البوادر البيولوجية اللازمة لتكوين شعب واحد يضم المجتمعات المختلطة قد تمت بعد فى جميع الأرجاء تقريبا . وحتى ذلك الوقت ، فإن معظم الثقافات القومية ستظل « شخصيات منقسمة » ، ولا تتكلم بصوت واحد ، ولكن أهدافها كثيرا ما تتضارب .

ويختلف مستوى الاستيعاب المتبادل للعناصر الجنسية المختلفة للسكان كثيراً من قطر إلى آخر . وتتوقف قوة الطبقة الوسطى ، وهى التى تقوم بدور العامل الوسيط الأساسى فى عملية التطور الاجتماعى ، على نسبة أعداد البيض أو الجماعات المولدة الفاتحة البشرة من السكان . فإذا غلب

وجود إحداهما ، كما فى أوروجواى ، كان هناك سلام اجتماعى نسبى وشعور بأناس قد وصلوا إلى حافة مصيرهم القومى ، أى إلى حضارة تشبع الحاجات والأطماح الأساسية . وتسود مثل هذه الظروف بعض الشيء بين سكان باراجواى الذين ينتمون الى أصل مولد من قديم ، على الرغم من مستواهم المعيشى المنخفض ومركزهم السياسى المتخلف . أما فى أرجنتينا فمع تفوق طبيعة السكان الجوهرية فهى منقسمة نفسيا بشق يفصل بين العنصر الإسبانى الأصلى ومطالب القادمين الجدد من أوروبا إلى البلاد . وكانت النتيجة أن « الأرجنتينى النموذجى » ، كما يسمى ، هو تهجين ناقص بين شخصيتين متباعدتين وستكون الروح القومية لهذا الشعب المرجو هى حصيلة التراضى بين مطالب كل من الفريقين بالاعتراف الواجب لكل من فرديتهما الخاصتين . أما فى تشيلى ، فيهيء التفوق المتزايد لطبقة وسطى تتصف بالحيوية والذكاء ، وتجذب أفرادها من أعلى ومن أسفل على السلم الاجتماعى لنظام الطبقات الهرمى التقليدى ، الفرصة المرجوة لتطور هادىء لمجتمع قومى متوازن خال من التوترات والإجهادات النا كبة .

والعملية التطورية أكثر تعقيدا فى الأقطار التى كان من نصيبها ميراث كبير من السكان الهنود . فقد بقى فى هذه الأقطار نوع من المجتمع الأرستقراطى مؤسس على قبول الهنود لسيادة البيض منذ أيام الاستعمار . ولاتزال الطبقة الوسطى صغيرة وضعيفة ، وينزع أفرادها إلى أن يكونوا أتباعا للطبقة العليا الحاكمة . وحيث يكون الهنود كتلة عديدة ومتماسكة من الأهالى ، ويكونون أغلبية السكان فوق مساحة كبيرة ، فإنهم يميلون إلى أن يصبحوا جامدين ، ويقاومون اية عروض أو اقتراحات لاندماج أكمل فى الثقافة القومية . وفى هذه الأثناء يصبح همهم الوحيد أن يتركوا وشأنهم ويتمسكوا بما تبقى من حضارتهم التى استطاعوا أن ينقذوها من التدمير الذى أصاب استقلالهم السياسى منذ أمد بعيد .

والعنصر الأبيض فى بوليفيا صغير جدا وعديم الأثر ، وقاعدته الاقتصادية مزعزعة للغاية لكى يقوم بالدور الذى يناط به عادة فى عملية التطوير . فطبقة المولدين ، هم مؤهلون تأهيلا سيئا لتحمل المسئولية بسبب ما اتصفوا به من مزاج وبسبب خلفيتهم ، ووجود أغلبية هندية منفصلة بدرجة غير معهودة عن تأثيرات المدنية الغربية ، هما عاملان رئيسيان فيما يبدو من تجمع ظروف ميئوس منها .

والنموذج الكلاسيكى للشعوب المختلفة موجود فى بيرو . فهناك أرستقراطية متأصلة فى البلاد يغلب فيها الدم الأوروبى ، ولو أن فيها اختلاطاً كبيراً من مولدين من عنصر متفوق . وهذه الأرستقراطية تسيطر على البلاد وعلى حياتها بقوة العادة المتناهية القدم ، ونقص أوضعف أى تحد لنفوذها . واحتفاظها بموهبة قومية معلومة للسيطرة . وفى عليين ، وبمعزل فى الآنديز ؛ توجد المجموعة الضخمة غير واضحة الألفاظ من ورثة امبراطورية الإنكا الذين حرموا ميراثها . وعلى الأعراف (*) بين المنطقتين تتحرك كتل المولدين من السكان فى اضطراب ومضض ، فريسة لمركبات النقص التى يعانون منها ، ولتوسلات المسيحيين المخلصين الذين لم يجرؤوا أبدا على التفكير من خلال أناجيلهم الاجتماعية فى النتائج المنطقية لمقدماتهم . فالهندى لا يرغب إلا أن يعيش هنديا . وقد يمضى وقت طويل قبل أن يرضى أن يصبح مواطنا بيروفيا لحما ودما بتلك المزايا والمسئوليات التى قد تتضمنها هذه المنزلة . ومع ذلك فما دام راضيا أن يبقى عنصراً سلبيا فى السكان فلن يكون عائقا لأية حركة يقصد منها تطوير اجتماعى وسياسى للأمة . ويعتمد أى برنامج للتطوير من هذا النوع على استغلال أتم لكل نشاط وذكاء طبقة المولدين ، حتى ولو أدى ذلك إلى الحد من سلطة حكم الخاصة فى الشئون القومية .

(*) In the Limbo ، Limbus, limbo ، الأماكن الخارجة عن جهنم والمخصصة لغير المعمدين (الصالحين الذين عاشوا قبل المسيح والأطفال) .

وكما يليق بشعب منساق إلى التطرف ، فقد حسم المكسيكيون بالعنف والثورة المسلحة مرحلة أساسية من المشكلة الخاصة بالشكل الذى يتخذه نظامهم الاجتماعى نهائيا ، إذ فقدت حكومة الخاصة من ملاك الأراضى والعقارات مركز سيادتها التقليدى القديم، الذى تحول إلى سادة المكسيك الجدد من المولدين الذين وجدوا أمامهم أكبر فرصة لإظهار كفايتهم التى التزمت بها طبقتهم فى العالم الجديد . وعلى الرغم من أن الهندى نودى به أصلا أنه أهم منتفع حرر من ربق نظام المزارع ، فهو لايزال يكون طبقة وحدها فى المكسيك . وهناك كثيرون من قومه ، وشعوب متفرقة كثيرة — أزاتقة ، تابوتك ، مايا ، تاراسكان ،أوتومى ، والقبائل الصغيرة مثل اليا كى . وهو ينطوى على نفسه ، على الأقل داخليا ، كلما استطاع ذلك ، كما يحفظ السر الذى يفضى إليه به ولم يتحدد بعد مركزه النهائى فى التخطيط المكسيكى .

والمشكلة الخاصة بمستقبل البرازيل معقدة بسبب ضرورة التوفيق بين كل من واجهات الثقافة الإقليمية والتنوع الاثنوجرافى للسكان . فلاتختلف أساليب مواطن بائيا فى كثير من النواحى عن أساليب مواطن ساوباولو أو مواطن ميناس فحسب ، بل إن هناك كل أنواع الاختلاط التى يمكن تصورها بين الأجناس البيضاء والحمراء والسوداء ، بما فى ذلك نزحة من الجنس الأصفر . وتجمع الظروف هذا قد يمثل عقبة تكاد تكون مستحيلة فى طريق وعى قومى حقيقى ، ونمط ثقافى موحد فى التركيب الاجتماعى الصارم للأقطار الإسبانية .

وإن سماحة الروح والإنسانية العميقة فى الشعب البرازيلى ، والنزعة العامة فى أن يعيش المرء ، ويدع غيره يعيش ، رغم أنها عاطفة سلبية قائمة على اللامبالاة ، والرقة غير العادية والحرارة فى العلاقات الشخصية الحميمة، والنفور من الحلول المتطرفة ، والتقليد القديم لنظام أبوى متهاون فى

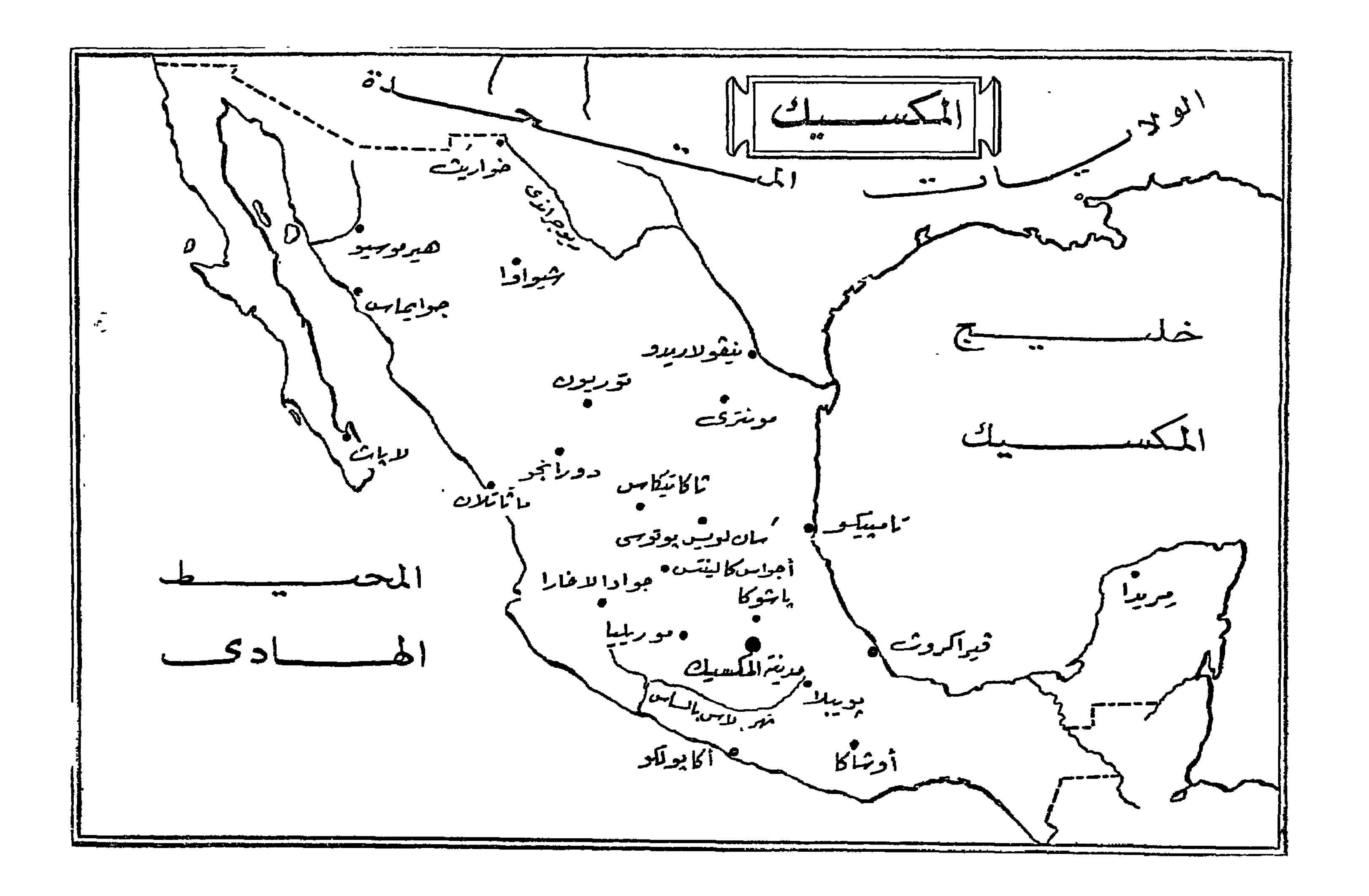
الأراضى الخلفية — كل آثار الأخلاق القومية هذه ، بما يلين التوترات العادية للعيشة الجماعية، وتقدم(فى حالة عدم التحلى عمليا بحب الخير وحسن الجوار) إطاراً مناسباً يبنى فيه المجتمع البرازيلى النهائى وفى الدور البطىء الذى تمثل فيه العناصر التى تتضمنها هذه الحضارة المركبة هناك نزوع إلى قبول اختلافات وجهة النظر والرأى ، فلا إصرار على المماثلة ما روعيت الأساسيات التى تميز البرازيليين عن غيرهم من الشعوب وهناك قليل من التعاظم فى الأرستقراطى البرازيلى ، وهو رستقراطى من نوع مختلف ،(*) كما لا توجد هناك قسوة فى رجـــل الريف (**) ولذلك فهناك ديمقراطية اجتماعية حقيقية لتخفى التوترات التى لابد أن تعترى الامتيازات الطبقية لأى مجتمع معقد . وفى هذه الأثناء نشط التهجين بدون عائق من قانون أو عادة كشىء أساسى ملازم لعملية التطوير .

سوف يتوقف مصير أمريكا اللاتينية وأقسامها العشرين التى تتألف منها ، من جهة ، على عوامـــل أخرى غير الاستيعاب الناجح للعناصر الاثنوجرافية التى يتكون منها السكان . وبعض هذه العناصر ، مثل مشكلة هنود بيرو ، ليست سهلة الحل . فهناك ضغائن راسخة ، كما أن هناك مصالح مقررة ، تجترح لاستمرار الأمور على ما هى عليه وعلى الرغم من أن الميراث الإسبانى المشترك يعد بمثابة ملطف لتسوية الفوارق فى المعادلة ، فإن قوته غير متساوية فى مختلف الجمهوريات . وقد تتبلور فى النهاية بضع جماعات قومية تصبح فى صميمها شيئا أقرب إلى الهندية منها إلى الأوروبية ، حتى ولو بدت الحضارة فى ثياب أوروبية . ذلك لأنه مهما اتخذت « روح » الشعوب المختلطة من شكل أو اتجاه فى النهاية ، فإن تلك الأمم، بسبب موقعها وظروف ماضيها القريب تتصل « بالغرب » الذى أشار إليه ارنولد توينبى المؤرخ المعاصر .

---

granfino (*)
Caboclo (**)

واتجاه مستقبلها مشروط بالحقائق والعادات الاقتصادية والسياسية . وبعض هذه العوامل محدود فى الطبيعة نفسها ، ولذلك فهناك حد لإمكانات تطورها . وقد تضطر إلى المعيشة فى فقر لأنها لا تملك من الموارد الطبيعية ما يجعلها تعيش عيشة مخالفة ومن المحتمل أن بعض الشعوب كالتشيليين سوف يتغلبون على العائق الذى يعترضهم بأخلاقهم الفائقة ، وبعضهم يعيش فى أراض ممتازة ، تجود بالخير العميم من ناحيتى الزراعة والتعدين على حد سواء ، يستغلها سكانها ، فينتجون فائضا من الأشياء التى تؤدى إلى الحياة الرغدة ، وما يتبعها من مشتملات ثقافية .


المكسيك
الولايات المتحدة
خليج المكسيك
المحيط الهادى
خواريث
ريوجراندى
هيرموسيو
شيواوا
جوايماس
نيقولاريدو
توريون
مونترى
لاپاث
دورانجو
ماثاتلان
ثاكاتيكاس
سان لويس بوتوسى
تامبيكو
أجواس كاليتنس
جوادالاخارا
پاشوكا
موريليا
مدينة المكسيك
ميريدا
ڤيراكروث
بويبلا
نهر بالساس
أوشاكا
أكابولكو

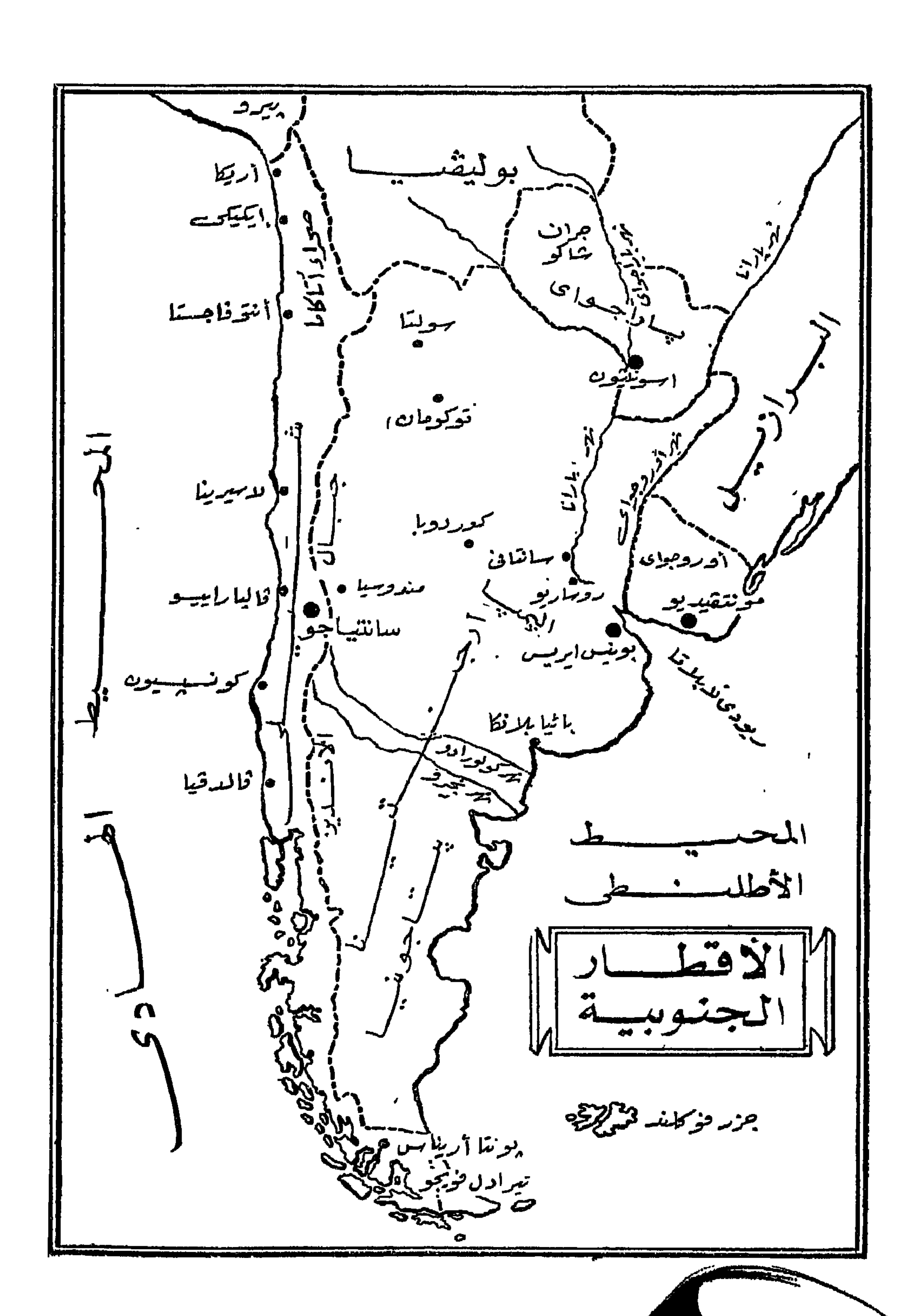
أراضي الخليج والكاريبي

الولايات المتحدة
خليج المكسيك
المحيط الأطلنطي
البحر الكاريبي
المحيط الهادي
هافانا
كوبا
كاماجوى
سانتياجو
بورت أوبرانس
هايتي
جمهورية الدومنيكان
سان خوان
بورتوريكو
سيوداد تروخيو
جمايكا
فيراكروث
المكسيك
بليس
جواتيمالا
هندوراس
تيجوسيجالبا
سان سلفادور
السلفادور
نيكاراجوا
ماناجوا
كستاريكا
سان هوسيه
بنما
باراكيا
كولومبيا
كاراكاس
فنزويلا
نهر أورينوكو
ترنداد

شمال غرب أمريكا الجنوبية

البرازيل

المحيط الأطلنطي
فنزويلا
كولومبيا
جيانا
نهر الأمزون
نهر نجرو
نهر جابورا
مناوس
سانتاريم
بليم
ساو لويز
فورتاليزا
ناتال
رسيفي
نهر جوروا
نهر بوروس
نهر ماديرا
نهر تاباجوس
نهر شنجو
نهر أراجوايا
نهر توكانتنس
نهر بارنايبا
نهر ساو فرنسسكو
ريو برانكو
نهر جوابوري
بيرو
بوليفيا
البرازيل
باهيا
كويابا
جويانيا
كورومبا
بيلو هوريزونتي
فيتوريا
نهر بارانا
باراجواي
ساو باولو
ريو دي جانيرو
سانتوس
نهر ايجواسو
كوريتيبا
فلوريانوبوليس
بورتو أليجري
ريو جراندي
أوروجواي
أرجنتينا
المحيط الهادي
المحيط الأطلنطي



بوليفيا
بيرو
أريكا
ايكيكى
صحراء أتاكاما
أنتوفاجستا
جران شاكو
باراجواى
اسونسيون
البرازيل
توكومان
كوردوبا
سانتافى
روزاريو
منتقيديو
أوروجواى
بوينس ايرس
سانتياجو
منندوسيا
فاليارايسو
كونسيبسيون
فالديفيا
باهيا بلانكا
المحيط الأطلنطى
الأقطار الجنوبية
جزر فوكلاند
بونتا أريناس
تيرا دل فويجو



هذا الكتاب

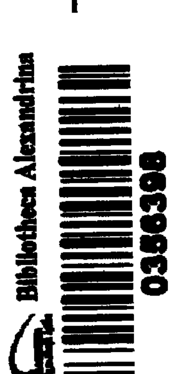
ما هى جمهوريات أمريكا اللاتينيـة ؟ ما هى العنـاصر التى تكونت منها ؟ كيف أصبحت كل جمهورية فيهـا بهذه الأخلاق وهـذه العادات ؟ هـذا الكتـاب تنـاول « مفصل » لهـذه الجمهوريات والعناصر المختلفة التى ساعدت على تشكيل كل منهـا ٠ والكتاب يتكلم عن ضرورة التفاهم الدولى بين هـذه الجمهوريات ٠

ان هـذا الكتـاب حصيلة جهـد كبير متصل لمـدة سنوات طوال ، وقـد أدى هـــذا الجهد الى ذخيرة من المعلومات جمعت بمهـــارة ، ودراســة مستفيضة قام بهـــا مؤرخ لامع وخبير بهـــذه الأقطار التى تشتمل عليهـا أمريكا اللاتينيـة ٠

ويعرض المؤلف للأجناس المختلفة ليبين اثر هـذه الأجناس فى أعماق الانسان فى أمريكا اللاتينيـة ٠ ويمتـاز المؤلف بأنه استطاع أن يخلص نفسه من أى غرض أو نظرة دعائيـة ليبقى نظرته عميقة مجردة بريئـة الا من محاولة الوصول الى الحقيقة العمليـة وحـدها ٠

قال هيوبرت هيرنج حين قرأ هـــذا الكتـاب ان مؤلفـه يستطيع أن يشيع المحبة البعيـدة عن الخيال ، وأن يكشف الأشرار دون أن يصفح عنهم أو يحرجهم ، كما تستطيع بصيرته النفوذ الى الحيـــاة المضطربة التى تحياها جمهوريات أمريكا اللاتينيـة العشرون ٠٠ انه كتاب لا بـد أن يقـرأ ٠





سنة ٩٧٠